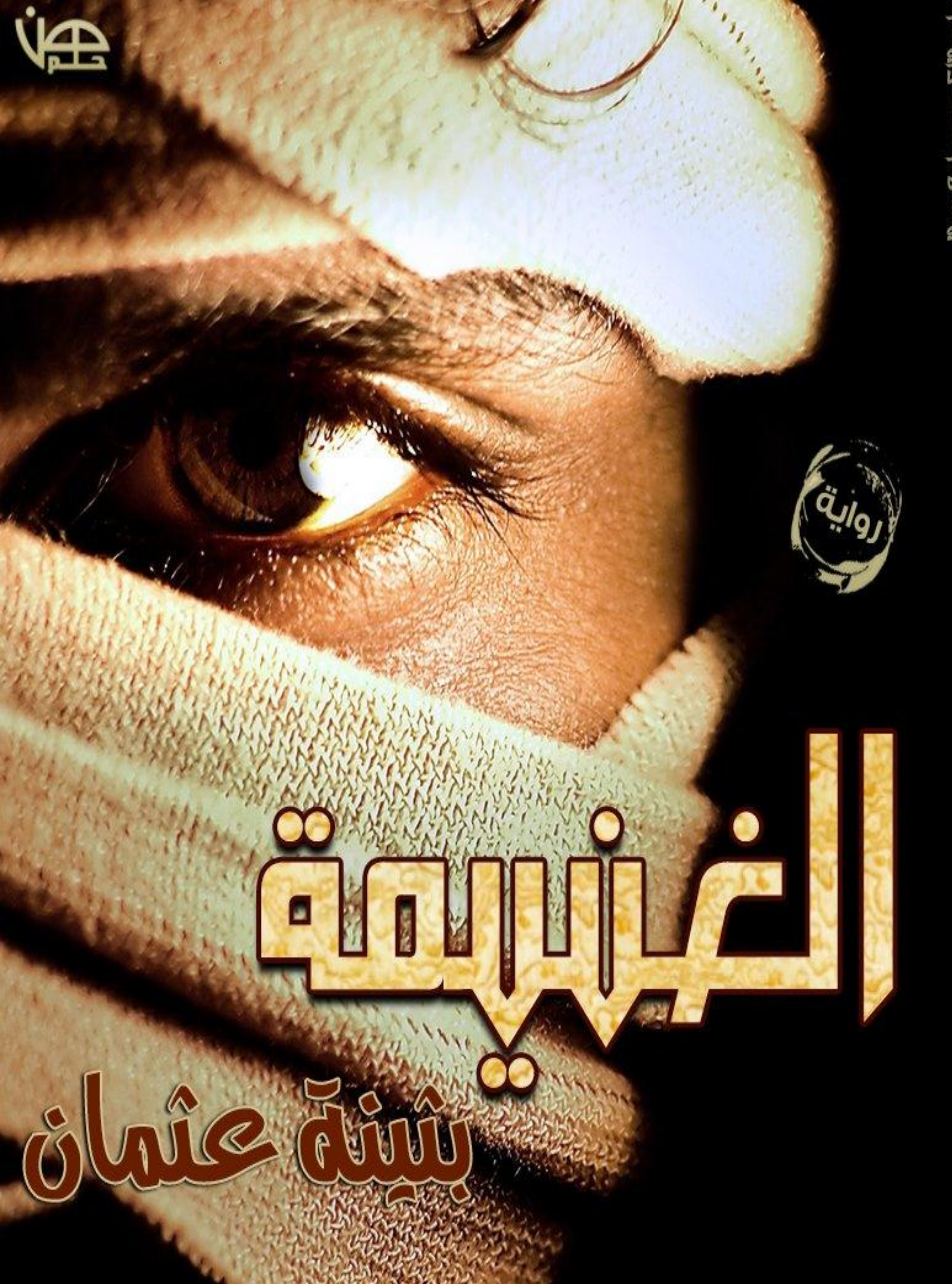

الغنيمة
بثينة عثمان
رواية
Des.Sabreen ElDeeb



رواية بقلم/ بثينة عثمان



جروب حلم-هن

"لنا مع الحرف حلم"

https://www.facebook.com/groups/7elmhon/?ref=bookmarks





الغنيمة

رواية بقلم/ **بثينة عثمان**

تصميم غلاف/ **صابرين الديب**

تصميم قالب داخلي/ **بثينة عثمان**

تصميم صفحات/ **إيمان خليفة**





إهداء إلى..

رقعة الخيال التي تتسع لكل معاركنا الصامتة، آمالنا

وهزائمنا..

القلم الذي يمنحنا حق التحليق بلا أجنحة..

إلى الواقع منبع الأفكار!



حين تحيا حياتك عبثًا بلا معنى ولا هدفٍ

حين لا تعرف لنفسك وضعًا ولا موضعًا

حين تمضي في طريقك غير آبهٍ بغايةٍ ولا حلمٍ

تقسو.. تسيطر.. تحتال

فتنال ماهو ليس لك

بفريضةِ الغنائمِ



المقدمة

جن الليل وأسدل أستاره.. وكأنَّ ظلامه المهيب لم يكن كافيًا؛ حتى يأتيَ انقطاع التيار الكهربائي لتزيدَ العتمة المُوحشة من هلعها وذُعرها المحيطين بها في لحظتها تلك.

انكمشت بجسدها أكثر..

بينما أصابعها المرتعدة تتسابق في تعثرٍ؛ حتى تلملمَ طبقاتَ التول المتفرعة من ثوبها المكشوف.

وحينما خيَّم الصمتُ والسكونُ على الأجواءِ إلا من لهاثها السريع المُرتعب.. أخذت تدور بعينيها يمينًا ويسارًا، ولا شيء سوى خيالاتٍ موحشةٍ يرسمها السواد على مداد البصر!



حسناً..

ربما عليها أن تستسلم وترفع الرايات، فالآن ستُسطر نهايتها وحيدةً خلف بابٍ موصدٍ، وضحية ذاك الكائن دون أدنى جهدٍ يُذكر.

ولم تكن لتستكين لعجزها أكثر من ذلك؛ فوثبت بفعل الغريزة، تتحرك بساقين متخبطين تلفحهما البرودة، وقلبٍ واجفٍ جفت عروقه، تلف ذراعيها حول نفسها في محاولةٍ فاشلةٍ لدعم جسدها النحيل المنتفض بألمٍ.

لكنْ..

دائمًا للقدرِ رأيٌ آخرٌ، ونهايةٌ ربما هي مسطورةٌ من قبل البداية!



ما إن استقامت حتى هاجمها من الخلف ثقلٌ غريبٌ، يقيد حركتها الضئيلة ويكممها بقوةٍ، وضوءٌ خافتٌ منبعثٌ تجهل مصدره، كان مصوبًا في اتجاه المرآةِ المسطحةِ قبالتها لتُرسم لها الصورة المعكوسة

كاملةً دون نقصانٍ..!

هي بين ذراعي ملثمٍ يتشح بسوادٍ يضاهي عتمة الليل مع قفازات جلدية سميكة تشعر بها تطبق فوق أنفاسها..!

تخترقها نظراته المرسلة عبر الجسم العاكس من بين دجنته المعتمة، ورُغم خفوت الضوءِ وفرائصها التي تجمدت بين يديه تلقتها خضرة





عينيها بجحوظٍ هلعٍ، بينما هو يحكم عليها الوثاق ويطالعها بترقبٍ.

بعد حينٍ..

تخاذلت حركة جسدها وبدأت في الهوان، تبعها وتيرة أنينها وتأوهاتها تنخفض تدريجيًا من خلف تلك الخرقةِ المعبقةِ برائحةٍ نافذةٍ خالطت أنفاسها حتى ساد الصمت من جديدٍ بتلاقي الجفنين.

ثوانٍ أخرى، وكان جسدها قد تراخى بالكامل بين ذراعيه، معلنًا عن ضياعها في غياهب اللاوعي..!

وماحدث بعد ذلك..



جسدها النحيف داخل كيسٍ كبيرٍ من الخيش، أنهى الأمر بعقدةٍ فوق الرأس، ومن ثَمَّ رفعها فوق كتفه بكل سهولةٍ ويسرٍ.

ليعودَ أدراجه إلى شرفة الغرفة من جديدٍ كما ولج منها منذ قليلٍ، تتسابق خطواته بحذرٍ فوق درجات السلم الخشبي الطويل القابع قصدًا في مكانه، وهي فوق كتفه العريض يشد عليها.. مع سخرية حاله:

"الفتاة تفتقر للحم.. يا لكَ من محظوظٍ يا رجل!"

من خلف المرآةِ الداخليةِ للعربة فكَّ عنه تلثمه بتمهلٍ..

ودَّع بنظراته حارس القصر السمين، عائدًا لموضعه السابق، متنفسًا براحةٍ بعد عودة التيار فارتفع شاربه المزين شفاه بسخريةٍ واضحةٍ، ومن ثم حط بصره فوق الأريكة الخلفية؛ ليمد يده يفك من وثاقِ العقدةِ قليلًا حتى لا تنقطع أنفاس غنيمته فيضيعَ جهده هباءًا منثورًا.

راقب سكونها وخصلاتها المتهدلة للخارج للحظاتٍ قطعتها نبرة ذلك الذي ولج يجاوره منذ برهةٍ:

- الله ينور يا ريس.

يبغض مشاركة أيٍ كان، لا يثق ولا يأمن إلا لنفسه، لكن الضرورات تُبيح المحظورات، والأمر تلك المرة مختلفٌ، وكان يتطلب الاستعانة بذلك النحيل:



- كل حاجة رجعت مكانها؟ مش عايزين نسيب ورانا ديول.

- عيييب.. تلميذك يا ريس.

تبسم بخشونةٍ وقد التمعت عيناه بظفرٍ ليضغط أكثر فوق المكابحِ..

ويلوذ بالفرارِ بما اغتنم.



(١)

فن الاختلاس.. يتطلب أناقة

موسيقى كلاسيكية هادئة تُناسب أجواء حفل الليلة، رجال الأعمال يتشابهون في بذلاتهم السوداء الرسمية، يتقارعون بالكؤوس احتفالًا بإتمام صفقة كبرى لكلٍ منهم فيها نصيبٌ، وحتمًا لا تخلوا الصالة الكبيرة من الحضورِ الأنثوي الطاغي بجمالٍ مبهرجٍ وآخرٍ هادئٍ من زوجات ورفيقات.

في ركنٍ قصيٍ يركن بهالته المميزة والمختصره في بذلةٍ كحليةٍ مع قميصٍ سماوي شاحب تُرك مفتوحًا لمنتصف صدره العريض مبرزًا عضلاته



وبضع من شعيرات حالكة السواد، ليبارز

الرسمية المُحيطة به..

أنامله تلتف حول الكأس الكريستالي يرتشف

منه ببطءٍمتلذذٍ، بينما حدقتا عينيه تحومان في

جميع الاتجاهات بتمهلٍ شديدٍ.. يبحث عن

مبتغاه الليلة

وللدقة.. صيد الليلة!

وصيدُ الليلة تلخص في ثوبٍ مشعٍ بزرقته الملفتة

التف حول حنايا الضحية فكاد لا يُميزعن

الجلد

تعدى الركبتين بمقدارٍليس بهين، فكشف عن

فخذيها وسيقانها

ذات الانحناءات المرمرية، دون أكمامٍ فبرز فرق

النهدين بإثارةٍ جذبت أنظار الرجال والنساء على حد السواء.

الاسم: ميرال طارق الدقاق.

السن: ٢٩ عاما.

الوظيفة: مدير عام لمجموعة الدقاق الاستثمارية.

الحالة الاجتماعية: مطلقة.

والمطلوب: قرط ماسي يساوي "مبلغ وقدره"

وجدير بالذكر أن السيدة ميرال تعاني من تخبط عاطفي شديدٍ إثر خيانة زوجها لها، وتفضيل إحدى صديقاتها عليها بعد عامٍ واحدٍ من



الزواج.. وكان الإنفصال الحضاري أفضل الحلول ليحافظ كلاهما على وضعه الاجتماعي.

ارتسم فوق شفتيه إبتسامة نصرٍ جانبيةٍ وهو يلمحها تلجُ للمكان بصحبة أبيها رجل الأعمال المخضرم، بينما مقلتاه الشبيهة بالدجنة تلتمع بحماسٍ

فوقت العمل قد حان..

ترك الكأس لأحد النوادل المارة وتحرك واثق الخطى..

تلامسُ أكتافٍ مقصودٍ..

ثم ابتسامةٌ عابثةٌ تعني مرحبًا..

فتخبط لأفكار الضحية نجح فيه باقتدار..



كيف لا وقد ظل أسبوعًا كاملًا يلاحقها من هنا إلى هناك..

نظراته المراقبة لها على الدوام، وحين يقع في فخ عينيها الفيروزي يختفي من محيطها تمامًا..

خدعها غرورها وقتما أوحى لها بأن معشوقها الخائن يستعين بمن يوصل له أخبارها المفصلة، لكن معرفتها بهيامه الخاص مع تلك الصديقة الوضيعة في أحد البلاد الأوربية جعلها تستبعد ذلك الاحتمال.

والآن بقي عليها معرفة هوية ذلك الوغد الذي تجرأ وتبعها إلى هنا بل ويعلن مراقبة صريحة!

حينما يتعثر حظك وأنت على بعد أمتارٍ من غايتك لهي اللعنة.. بل كل اللعنات!



إحدى ضحاياه السابقة تلج للمكان بكل تبخترٍ برفقة زوجها، وفقط يحتاج منها لنظرة تركيزٍ واحدةٍ حتى تفسد عليه مخطط شهرٍ كاملٍ و ربما يحالفه الحظ ولا تُكشف هويته..

أم عله يختار الإنسحاب ويتلمس طريق السلامة؟!

ولأن الإنسحاب مجرد فكرة لن تغادر دهاليز العقل قرر المتابعة مع بعض الاختصارات اللازمة التي تُعجل بمغادرة المكان بأقصى سرعةٍ دون خسارةِ ما جاء لأجله.!

انتشلها من مراقبتها الصامتة والمتفحصة، ليجذبها نحو رقصةٍ مع إحداهن لم ترفض طلبه كما راهن حاله.. يتملك من خصرها بكفه

العريض والآخر يضم على كفها الرقيق باستحواذٍ محببٍ للعين، تميل عليه المرأة بغنجٍ فيتقبل ذلك بغمر وجهه بين خصلاتها الكثيفة قاصدًا بذلك موارةً عن الأعين.. لحظات ورفع رأسه ببطءٍ نحو صيده الثمين يقبض على عينيها المراقبة فيهديها نظرةً خاصة قبل أن ينهي رقصته ويختفي داخل الأروقة المؤدية للمرافق الخاصة.

ومسكينةٌ هي الأنثى التي تعاني من سكرات احتضار عشقٍ..!

يختل ميزانها فتصبح طريدةً سهلة المنال..!

خمس دقائق..





عشر..

عشرون..

وكان على يقينٍ أنها سوف تتبعه فضولًا ليس إلا..

سارت بخطواتٍ متباطئةٍ، ونظراتٍ متفحصةٍ للرواق الطويل، وتعثر أقدام تبعه شهقةٌ كُتمت بنجاحٍ..

تطلعت حولها برهبةٍ وهي تتهرب من أنفاسه الهادرة فوق بشرتها..

لحظات وعادت تستوعب مايجري فعقدت حاجبيها بسخطٍ وهي ترى حالها محجوزة داخل حجرةٍ بضوءٍ هادىء، فارغةٌ إلا من بضعِ مقاعدٍ



وطاولاتٍ مستهلكةٍ وبين هذا الغريب الذي يرتكز بكفيه على الحائط من خلفها بينما هي تقف حائلًا بينهما!

راقبت ملامحه الهادئة لبرهةٍ..

بشرةٌ برونزيةٌ مع عينين قاتمتين بسوادٍ لامعٍ يوازي خصلاته الليلية المشذبة بعنايةٍ..

أنفٌ مستقيمٌ بشموخٍ و...

شاربٌ منمقٌ دون لحيةٍ!

حالكٌ كنظراته يعلو شفتيه الحادتين بقسوةٍ ملفتةٍ..

راقبت بتمهلٍ قبل أن تسأل ببديهيةٍ متهكمةٍ:

- أنتَ مين؟





اقترب أكثر يقتحم أنفاسها، يلملم منهجه من آخر السطور؛ فحضور تلك اللعينة الغير محسوب أجبره على فقدان لذة البدايات.. بات مُخترقًا لأنفاسها ليهمس أمام شفتيها متلاعبًا بالكلمات وعيناه عن عينيها لا تحيد:

- معجب.

وأردف سريعاً بنبرة حارة:

- عينيكِ فيهم سحر غريب.

قطبت جبينها في عدم فهمٍ لهذا الدخيل بينما السخرية ترتسم فوق ملامحها تدريجيًا، وقبل أن تعود له بردٍ يناسب شخصيتها القيادية بطبعها، كان كفاه يحيطان بوجهها، يهبط ببصره فوق



شفتيها المكتنزتين بحمرةٍ شهيةٍ ليطلب الإذن

بعبثٍ لايقاوم:

- ممكن؟

ورغم أنها اعتادت نظرات الإعجاب من معشر

الرجال؛ فباتت لاتؤثر بها تلك الكلمات ولا

النظرات.. لكن كونها هنا محتجزة داخل حجرة

أقرب للعتمة وبين يدي غريبٍ معجب يتغزل

بعينيها لفظًا وشفتيها عبثاً طالبًا السماح بِـ...

كان لابد من تلك الإختلاجات والرعشة الطفيفة

أن تتملك منها وتُفقدها النطق والحركة لثوانٍ..

فقط ثوانٌ كان قد تمكن منها وقطع عنها تنفسها

في اجتياحٍ مازالت لا تفهم كنهه و مغزاه..!



وانتهت اللثمة باكتساح شفاه كان يغطيهما طلاء

ثمنه فلاني، ليسدل بعدها الستار معلنًا عن

النهاية بابتعاده خطوة وأخرى، ونصف استدارة

توازي كف أخفى غنيمته داخل جيب سترته

وآخر مودع_لامرأةٍ مازالت مشدوهةً تلمس

شفتيها بأناملٍ مرتعدةٍ_يعدها بلقاءٍ آخرٍ؛

بالتأكيد لن يحدث!

وفي عرفِ الضحيةِ الأنثى

الفضيحةُ عارٌ

والتسترُ خيرُ سبيلٍ

حتى لو كانت خسائرها تساوي مبلغ وقدره!

***





أثنت جذعها تطوي السجادة الثقيلة بسرعةٍ فائقةٍ تحسدها عليها كثيراتٌ من النساء، أولهن تلك التي ترتاح فوق الصوفا العريضة تراقبها بصمتٍ ثم تدمدم لمجاورتها بهمسٍ خفيضٍ.

تركت السجادة فوق سور الشرفة الحديدي بعد ما تخلصت من كل ذرة ترابٍ تحويها وعادت ترفع مقاعد المائدة الكبيرة لتكمل مهامها بصحبة نغمات حزينة لأغاني هابطة تستمع لها بشجنٍ كبير حد انعكاسه فوق ملامحها.. وإشارة من كف صاحبة المنزل "السيدة منيرة " جعلتها تخلع سماعات الأذن بسرعةٍ مستجيبةً لنداء السيدة المسنة.



فهي تُعد من أهم النساء اللاتي تتعامل معهن، تأتي لها مرةً كل أسبوعٍ عقب زواج ابنتها الوحيدة لتقم بتنظيف وترتيب البيت على أكمل صورةٍ، فتكافئها السيدة بقدر عرقها وتزيد..

مسكينةٌ هي السيدة منيرة تملك من الكنات ثلاث ولا تقوم واحدة بزيارتها وإعانتها؛ فتمكث وحيدةً طيلة الوقت إلا من بعض الجارات الباقيات على العشرة كما تقول وزيارة ابنتها لها كل حينٍ.

ما إن قابلتها في وقفتها حتى سارعتها بالقول:

- هنادي طلبت مني أكلمك علشان تفكري تاني في الموضوع إياه يا سماح.





تبسمت سماح بخجلٍ لابنة السيدة الشابة وهي تردد بعدما تحركت ببصرها ناحيتها:

- ما أنتِ عارفة ياست هنادي أمي وظروفها.. مش هينفع أسيبها، وبعدين لو كان هنا في المحروسة في أي حتة ماكنتش اتأخرت عليكِ أبداً لكن دي مرسى مطروح يعني آخر بلاد المسلمين.

دمدمت هنادي بخيبة أملٍ:

- خسارة بجد يا سماح كان عندي أمل توافقي، بصراحة محتاجين واحدة زيك للمطعم لهلوبة وجدعة، لكن طالما مش عايزه خلاص زي ماتحبي.



اعتذرت لها بعينيها من جديدٍ، فالمرأة كلما رأتها تطلب منها ذات الشيء بينما لا تكف عن مدحها والثناء على كل ماتقوم به:

- ربنا يرزقك خيره ويبعد عنك شره.. عن إذنكم هكمل شغلي.

أومأت السيدتان بخفةٍ وصاحبة العرض مستاءة لرفضها، مطعمها وزوجها حديث العهد على أحد شواطئ مطروح، الحلم الذي تمنياه حتى تحقق أخيرًا، خطط ومقترحات لاتتوقف داخل عقلها وكلها تصب في نهاية واحدة أن ترتقي به حتى يصل لشعبيةٍ كبيرةٍ ويذاع سيطه بين البشر فيكتمل الحلم بحق، لكنها مازالت تفتقد للعمالة الجيدة..

وظننت أن بعرضها، وإلحاحها عدة مرات مع راتب مغري قد ترضخ سماح لطلبها، لكن في كل مرة تتركها خائبة الرجاء.

***

تسير من زقاقٍ لآخرٍ بأقدامٍ تئن طلبًا للراحة:

فمنذ فجر اليوم وهما لم يرتاحا لساعةٍ كاملةٍ، بدايةً من الطابور الطويل الخاص بالسلع التموينية نهايةً بشقة السيدة منيرة الكبيرة والتي تعج بالأنتيكات القيمة والسرايا الكريستالية المتدلية والتي ترهقها في تلميعها أكثر من عناء تنظيف الشقة ككل.

تطلعت ليديها بفخرٍ وهي تتفقد حقائب التسوق المليئة بالخضراوات والفاكهة وقطعتين من

الملابس جلبتهم خصيصًا لوالدتها، فمنذ زمنٍ لم تجدد ملابسها.. إذًا لا بأس بقليلٍ من التعب المضني إن كانت ستكافأ كما تفعل معها تلك السيدة.

فتحت الباب بمفتاحها الخاص و ولجت بهدوءٍ بينما بصرها يحط تلقائيًا فوق الأريكة الكامنة أسفل النافذة.. تطالع العجوز الممدة فوقها والتي ما إن استشعرت وجودها حتى اعتدلت من فورها، بذراعين يصارعان العتمة المستديمة تبحث عن العصا خاصتها، تتكأ عليها داعمة ثقل جسدها الواهن هاتفةً بقلقٍ:

- جيتِ ياسماح؟



تركت مابيدها وتحركت ناحيتها تطمئنها وتأد قلقها:

- قلقتك ياغالية!.. معلش أصل بعد ما خلصت الشغل طلعت على السوق جبت شوية حاجات.

- انشغل بالي يابنتي وعقلي فضل يودي ويجيب.

قالتها العجوز بلوعٍ وضيقٍ فربتت فوق فخذها بنبرةٍ مهدهدةٍ:

- حقك عليَّ.. جبت لك معايا حتة أكلة إنما إيه تستاهل بوقك ياست ياقوت.

تناولت الطعام بتلذذٍ وتخمةٍ واضحة بعد عناء يومها الطويل، والذي ختم بتقديم ماجلبت لأحضان أمها حتى تنهل من دعوات تمطرها بها





وعدة ربتتات تطيب بها روحها المتعبة فتنتعش وتحيا من جديد لأجل غدٍ قريبٍ يحمل نفس الشقاء.

واقتحامٌ آخرٌ قطع عنهما ضحكاتهما وحديثهما المتسامر، فهتفت العجوز تلك المرة بملامحٍ مهللةٍ ما إن استشعرت وقع أقدامه وميزتها:

- حسن!.. حمدالله على السلامة يابني،لازم جعان؟ هاتي لأخوك يأكل يا سماح.

وقبل أن تنهض من جلستها دمدم حسن بهدوءٍ:

- مالوش لزوم يامه لسة واكل.

ربتت المرأة فوق ظهره بحنوٍ بعد ما جاورها في جلستها، تابع بصرها الزائغ في الأفق دون رؤيةٍ



حقيقيةٍ فربت فوق كفها قبل أن يتحرك ببصره إلى شقيقته الصامتة في عجلة من أمره:

- إيه يا سماح قولت إيه في موضوع رياض؟ الراجل مستني الرد بقاله يومين.

- قولت لأ يا حسن..

وأردفت تؤكدة بكف لاح أمام وجهه:

- لأ وماعنديش غيرها.

نفث بحنقٍ من جوابها السريع؛ الصارم قبل أن يطلق شرارت غضبه صائحًا:

- تاني ياسماح؟ هنعيد اللي قلناه تاني!

هبت من جلستها غاضبةً، تجابه أخيها وتضع النقاط الأخيرة بجبينٍ متغضنٍ:



- تاني وتالت وعاشر لحد ما تفهم إن قولت لأ ومفيش قوة ممكن تغير رأيي.

- عاجبك قوي خدمة البيوت ومرمطة الهوانم ليك.

- أتمرمط بمزاجي أحسن ما أتمرمط مع واحد مالوش أي تلاتين لازمة والاسم راجل!

- سماااااح.

صرخ باسمها حانقًا حينما أدرك مراوغتها فتحركت هي بعاصفتها الثائرة تنوي ترك المكان برمته ولم يوقفها سوى نثره للملح فوق الجرح الغير مندمل بعد:



- مش هيجي، اللي مستنياه مش هيجي.. عارفة ليه؟

وأصابها في مقتل حينما أتم جملته ملوحًا بذراعه في الهواء:

- عشان مابقتيش مقامه.

وكان جوابها زعقةً تحكي حرقة ما يعتمل داخلها وأكثر من خلف غشاوة عينين لامعتين قبل أن تختفي داخل غرفتها:

- عنه ماجه.. في ستين داهية.

راقب رحيلها بأنفاسٍ ثائرةٍ استدار بعدها بجذعه بغتةً

زاعقًا قبل رحيل:



- عقلي بنتك يامه.

أجفلتها صفعةُ الباب القوية قبل ما تجذب عصاها وتسير بتعثرٍ حتى وصلت للغرفة الكامنة في زاوية البيت المتهالك..

اقتربت أكثر ولسانها لايتوقف عن الاستغفار والتعوذ من الشيطان الرجيم حتى جاورتها فوق الفراش الصغير، تستمع لنشيجها الخافت وتستشعر رعشة جسدها الطفيفة، مدت كفها المتغضن تمسد ظهرها هامسةً بشجنٍ كئيب:

- ابكِ يا سماح.. ابكِ يا بنتي جايز تنطفي حرقة القلب وتنشال غمامة العين.

***



اغزل لي ذكرى حلوة.. تهون بها مرارة الصعاب.

ارتعادةٌ طفيفةٌ

أقوى

فأقوى

جسدٌ يتلوّى في قيده بتشنجٍ واضحٍ

ونشيجٍ يعلو رويدًا رويدًا ما إن تُبصر العينان

ماحولهما بتيهٍ..

كم مرة قابلها الكابوس ذاته ما إن يفترق

جفناها؟

كم مرة حاربت الهلع وبارزت الوساوس بعينين

مغمضتين واستحضارٍ قسريٍ لذكرى قديمةٍ

تُغيِّب بها العقل وتبحر معها الحواس علَّ كل



ذلك ينتهي؟!

علها تصحو من كابوسها المُقبض..!

تنغمس الروح في ذكراها الحلوة قبل أعوامٍ

حيث عهد الطفولة..

البساط الأخضر يُداعب القدمين بنداه وزرقة

السماء الصافية تبعث بالنفس الطمأنينة

وخليل الروح يغلب الكبر في ركضاتٍ متتاليةٍ

أشبه بقفزاتٍ بينما تتناغم الضحكات الصاخبة

بقطراتٍ المياه المتدفقة من الرشاش..

وفجأة

تتقلص الذكرى وتنزوي بعيداً حين يتدخل أزيز

الباب في الصورة ويطل ظلٌ لا تفسره العتمة!



فيتحول النشيج لأنينٍ مسموعٍ من ثَمَّ هستيريا صراخ..!

هلع..

نظرات جاحظة..

فانكماش فطري..

وجسد ذكوري يجثم بثقله، يغرز المحقن في الوريد فيكتم الصراخ ويهدأ الأنين وتبدأ الأجفان في رحلةِ ارتخاءٍ جديدةٍ وعقلٍ يبحث بين دهاليزه عن ذكرى أخرى تُبارز بها المخاوف لكن دون جدوى!



الصور جميعها باهتةٌ، مطموسةٌ بعدما كستها العتمة

فغابت في بئر اللاوعي لحين إشعارٍ آخرٍ.

ولنلقي نظرة شاملة على الإطار الخارجي

شقةٌ بدور أرضي في بنايةٍ نائيةٍ أقرب للمهجورة ضحيتها شابة يضم حناياها ثوبٌ بلونٍ أخضر نضر بنصف علوي مطرز دون أكمامٍ وآخر سفلي منتفخ بطبقات تول متعددة بالكاد يصل لحد الفخذين فكشف أكثر مما ستر، جسد غائب عن الوعي ملقى بإهمالٍ فوق الأرض الصلدة بذراعين معقودين بقيدٍ حديدي وآخر يماثله احتل القدمين.



وهي الصورة الأبشع لفتاةٍ لم تتعد ربيعها التاسع عشر بعد.!

***

ألقى نظرةً أخيرةً فوق الجسد المسجى أمامه قبل أن ينفث دخان تبغه على مهل مدروس، استدار بعدها بهدوءٍ مغادرًا الغرفة تاركًا مَنْ خلفه دون حول ولا قوة..

تقدم ناحيته شابٌ نحيلُ الملامح والبنية يقدم كرم الضيافة بزهوٍ:

- أحلى سكلانس ياريس.



تناول الكوب من الشاب ليلقِ بسيجارته أرضًا منهيًا إياها دهسًا بالأقدام.. ثم سأل بجبينٍ متغضنٍ ونبرةٍ خشنةٍ:

- أيوب هيتأخر؟

- ماعرفش يا ريس هو قال مسافة السكة.

جذب الأول مقعد خشبي ارتاح فوقه بينما ارتفع قدماه فوق آخر يقابله، يرتشف مشروبه ببطءٍ، عيناه تحط فوق الغرفة الكامنة بقلبها الفتاة الشابة ويعود سائلاً مجاوره من جديدٍ:

- إلا قولي يا زعتر..

وبحركة رأسٍ نحو الغرفة تابع:

- مافقتش؟



اقترب زعتر يهمس له بخفوتٍ كأنما يدلي بسرٍ خطيرٍ:

- فاقت.. بس المعلم أيوب قال لي إديها حقنة خليها تتخمد مش ناقصين وجع دماغ.

هز رأسه دون ملامحٍ واضحةٍ وهو يتابع ارتشاف كوبه ليقترب زعتر يهمسٍ أقرب للتوسل:

- مش هطلع معاك تاني يا ريس؟ أنت وعدتني أكون معاك المصلحة الجاية و..

- زعتر!

صرخ فيه ليصمت ثم تابع بنبرة أقرب للقسوة:

- معنديش خلق للزن.. أنا ماشي ولما يجي معلمك قول له يكلمني ضروري.



وقبل أن يخطو خطوته كان يلج أيوب بهياجٍ وتعابير ثائرة ودون مقدماتٍ زعق في المسكين زعتر:

- اخفى من قدامي ياض.

واختفى بالفعل.. ليهتف الآخر بغضبٍ:

- جرى إيه يا أيوب هنستعبط! يومين مش عارف أتلم عليك..

وأردف بحدة باسطا كفه:

- فين باقي فلوسي؟

و" أيوب" رجل لايملك أي نصيب من اسمه، في منتصف عقده السادس ببنية متوسطة من حيث الطول والوزن.. لديه بضع شعيرات بالكاد



تغطي المنطقة الخلفية للرأس، بينما صفحة وجهه تحمل عدة ندوب صغيرة منتشرة في تناسب مع ملامحه القاسية.. تعطل ذراعه الأيمن عن الحركة التامة منذ زمن إثر إصابته برصاصة طائشة في سابقة قديمة فأصبح بمثابة عضو زائد لا طائل منه سوى الإرتكان بجانبه دون فائدة.

خرجت نبرة أيوب هازئةً لا تقارن بهياجه السابق:

- فلوس إيه يا أبو فلوس؟ ده أنت اللي هتدفع يا فالح.

والهياج دوره، اقترب يضرب الطاولة المتهالكة بقوةٍ كفيه قبل أن يزعق غير مبالٍ:

- آآآآه قول كده بقى.. طب اسمع ومن غير لف ودوران وحوارات مش فايق لها، باقي اللي اتفقنا عليه يكون عندي بكرة بالتمام والكمال ماينقصوش مليم وإلا عليّ وعلى أعدائي.

دار أيوب من حوله ببطءٍ، يحط بكفه السليم فوق كتفه

متمتمًا بتهكمٍ واضحٍ:

- ماتهدى علينا يا شبح مش كده..

تبادلا النظرات المشتعلة حتى اقترب ليردف مقابل وجهه بفحيحٍ جادٍ:

- في مصيبة وطبلت فوق دماغنا كلنا.. إهدى كده خلينا نشوف نتصرف فيها إزاي.



ضاقت حدقتاه في سؤالٍ صامت فأتاه الجواب على لسان أيوب بقسمات مُتبدلة كل ثوانٍ:

- لسه جاي من عند حلمي بيه..

صمت لبرهةٍ يتشرب فيها تجهم ملامح الواقف قبالته

قبل أن يفجر قنبلته في وجهه:

- البت اللي جبتها..

- مالها؟!

- هه.. مش هي المقصودة يا سبع الرجال.



(٢)

قبل يومين..

بخطواتٍ متتاليةٍ كانت تقفز بخفةٍ فوق درجاتِ السلمِ الرخاميةِ، ترفع بآناملها فستانها الطويل حتى لا يُعيق هرولتها السريعةِ، من ثم تعود أصابعها تهندم حجابها البسيط..

كلُ خطوةٍ توازي بسمةً منفلتةً من بين شفتيها ولمعةً لخضرة عينيها المميزة.. خطواتٌ أخرى و كانت تندفع من باب المطبخ الكبير بعد ما اجتازت المسافة بين بوابة الفيلا لمكمن أمها الدائم.



بذراعيها ضمتها من الخلف على حين غرةٍ لتصيح ببهجةٍ حقيقيةٍ وحماسٍ فعلي:

- نجحت ياماما نجحت.

واستدارت تقابلها بقسمات حفرت عليها السعادة، فطعمُ النجاحِ المنبثقِ من بين طياتِ الحياةِ القاسيةِ لهو الأروع على الإطلاق.. ترفع كتفيها وتُردف بزهوٍ وغرورٍ مصطنعٍ:

- ومش بس كده لااا كمان الأولى على الدفعة.

تحركت المرأة من جلستها، تسحبها لأحضانها عنوةً،

وتهتف بحشرجةٍ فرحةٍ:

- مبروك يا قلب ماما.. مبروك يا نسمة.



وابتعدت تكفكف دمعاتها المنسابة دون إرادةٍ مردفةً بحنينٍ:

- الله يرحمك يا رفعت.. فينك تشوف بنتك وهي ناجحة ورافعة الرأس.

رفعت نسمة أناملها الرفيعة تمحي لها دمعةً أخرى قبل أن تدمدم بخفوتٍ:

- الله يرحمه.

ثم تابعت مغيرةً دفة الحديث بجبينٍ مقطبٍ، وعتبٍ مازحٍ:

- مش هتضحكي عليّ يا ننوس.. فين حلاوة النجاح؟



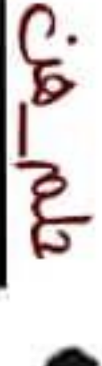
تهللت أساريرُ المرأةِ على الفورِ مستجيبةً لمزحة ابنتها، وهي تتحرك ناحية البراد تخرج منه ما قضت ساعاتها الماضية في إعداده وقدمته بفخرٍ:

- أحلى تورتة لأحلى نجاح يانور عيني.

لثمت كفيها وهتفت بفرحٍ لرؤية سعادتها العارمة:

- تسلم إيديكِ يا ست الكل.

ثم سرعان ما جذبت سكينًا من فوق المنضدة الكبيرة، وهمت بالتقطيع والتهام الكعك بشراهةٍ تحت نظرات والدتها الدامعة.. دست بفمها قطعةً كبيرةً فغصت بها وتعالت ضحكاتهما معًا





قبل أن تقوم بدس قطعةٍ مماثلةٍ في فم أمها..

ليقطع الصخبَ القائمَ اقتحامٌ أنثويٌ يشبه قطع الفريز المحيطة بقالب الكعك الشهي، سروالٌ أحمرٌ قصيرٌ حد الفخذين مع بلوزة بيضاء بحمالاتٍ رفيعةٍ كشفت عن وردية بشرتها مع خصلاتٍ بنيةٍ قصيرةٍ حد الكتفين؛ تحيط بوجهها الطفولي في تناسبٍ مع جسدها المنمنم..

تقدمت بخطواتها إلى المنضدة بينهما تستند عليها بساعديها، وتلقي التحية بنبرةٍ متثائبةٍ.. باردةٍ:

- Good morning.

وكانت الأم أول من ردت الصباح..

- صباح الجمال يا غِنَى.



وأردفت متسائلةً:

- ها ياحبيبتي أحضرلك الفطار؟

- ميرسي يا دادة ماليش نفس.

قالت وعيناها تدور فوق المنضدةِ تراقب بقايا الاحتفال الصغير المنقطع بولوجها.. فتابعت بتملقها المعتاد:

- في حفلة هنا ولا إيه!

تبسمت المرأة وهي تجذب ابنتها لأحضانها من جديدٍ صائحةً بجذلٍ:

- مش تباركي لنسمة يا غِنَى.. نجحت يابنتي وطلعت الأولى على دفعتها.



تأهبت في وقفتها فجأةً وهي ترمي ببصرها نحو نسمة الصامتة منذ بداية الحوار لتهمس بعيونٍ غير مصدقةٍ:

- Really!

وهزةُ رأسٍ مع ابتسامةٍ خفيفةٍ كان جوابها لتعود عينا غِنَى تشتعل بضيقٍ برعت في مداراته..!

أي عدل ذاك أن تدرس كلتاهما بكلية التجارة قسم اللغة الإنجليزية فتنال تلك النسمة أعلى الدرجات في حصاد عامهم الأول

بينما هي و رغم جامعتها الخاصة ذات السيط الذائع يكون حظها بذلك السوء!!

همست أخيرًا بابتسامةٍ باهتةٍ ونبرةٍ خفيضةٍ

- مبروك.

تسائلت نسمة أخيرًا بهدوءٍ متوجسٍ:

- الله يبارك فيك.. أنتِ عملت إيه؟

- نجحت طبعًا!

كان جوابها صائحًا بديهيًا بنظراتٍ مخترقةٍ لتلك التي تقابلها في وقفتها من خلف المنضدة، قطع نظراتهما المتبادلة زغرودة عالية رجت أركان المنزل..

- ألف بركة يا حبايبي عقبال ما تتخرجوا ونفرح بيكم يارب.

لتضرب الأرض بقدمها في اعتراض وتبرَّمٍ جليٍ متخصرةً في وقفتها:



- فين التورتة بتاعتي! ولا هي نسمة بس.

- لأ إزاي يا غِنَى أحلى تورتة لعيونك ياحبيبتي.

تأهبت في وقفتها عاقدةً ساعديها فوق صدرها و دارت برأسها جانبًا في اعتراضٍ قبل أن تهمهم بكلماتٍ مغتاظةٍ:

- لأ يا دادة مش عاوزة منك حاجة.

واندفعت للخارج بوجهٍ محتقنٍ فقلبت المرأة كفيها على بعض متمتمةً بعجبٍ:

- ربنا يهديكِ يا غِنَى.. كل ساعة بحال.

- معلش يا ماما دلوقت تروق وتيجي تعتذر منك.

أخفت نسمة ضيقها ببراعةٍ اعتادتها مواسيةً إياها ببضع كلماتٍ وأكملت مردفةً:



- أنا هنضف المكان ارتاحي أنتِ.

وقبل أن تبتعد خطوتها عنها جذبت رسغها برفقٍ، تفصح عما بخلدها بترددٍ:

- صحيح يا نسمة.. يسرا هانم كلمتني من يومين علشان أروح معاها خطوبة بنت الست نادية قريبتها.. الست لوحدها في ليلة زي دي واجب نقف معاها.

تغضنت ملامحها في لحظتها، تهتف بحنقٍ وليدٍ:

- وبعدين يا ماما أنتِ مابقتيش حمل مشاوير زي دي، مالنا احنا بنادية هانم و لاغيرها.. وبعدين أنتِ عارفة ماحبكيش تروحي عن حد ولا بابا الله يرحمه كان بيوافق على كده.



- يابنتي الست يسرا قصدتني وماقدرتش أكسفها، علشان خاطرها بس وخاطر شهاب بيه أنتِ عارفة غلاوتهم عندنا وغلاوتنا عندهم.

حركت نسمة رأسها متنهدةً في قلة حيلةٍ:

- اعملي اللي تشوفيه يا ماما أنا عارفة مش هاخد معاكِ حق ولا باطل طالما صممتي على حاجة.

أردفت بعدها بضيقٍ واضحٍ:

- هتتأخروا هناك؟

طمأنتها بحنوٍ وتربيتةِ كفٍ راضيةٍ:

- هنطلع كمان شوية وبعد بكرة هتلاقينا هنا بإذن الله.. عمر بس اللي رايح معانا، غِنَى مش



رايحه ما أنتِ عارفة مالهاش في المشاوير دي وأكيد مش هيقدروا يتأخروا عنها أكتر من كده.

هزت رأسها بتفهمٍ قبل أن تتحرك بآليةٍ محبطة تنظف مكان احتفالهما الصغير والمكتوب عليه عدم التتمة اليوم.

***

تتوسد فراشها العريض في ميلٍ واضحٍ، تحجز هاتفها اللوحي بين أذنها وكتفها بينما أصابعها تتشاغل بإعادة طلاء أظافر قدميها.. وحينما أنهى الطرف الآخر جملته هتفت بمللٍ:

- أنتِ مش مركزة معايا يا يارا؟.. بقول لك طلعت الأولى على دفعتها!



ثم جذبت خصلات شعرها القصيرة لتردف بكبتٍ من بين ضروسها:

- أنتِ فاهمة يعني إيه!

" كبري دماغك منها.. هتركزي مع بنت الشغالة يا غِنَى؟ "

- يا بيبي أكيد مش مركزة يعني، بس شكلي إيه قدام ماما وبابا لما يعرفوا أنها نجحت بتفوق وأنا طلعت بمواد.

وصلها الصوت متأففًا:

" أووف بقى سيبك من الحوارات العقيمة دي وتعالي نركز في الأجازة."



- يارا ممكن تخرسي.. أنتِ مش حاسة بيا أنا متضايقة بجد!

" براحتك بقى أنا هناااام "

وقطعت الصديقة الاتصال دون كلمةٍ أخرى،

فتركت الأخرى الهاتف ينزلق فوق الفراش غائبةً برفقة طلائها ذي اللون الصارخ وبرمت شفتيها في يأس..

- مافيش حد حاسس بيا..

بطرف عينيها التقطت السلحفاة خاصتها،

المسكينة تتعثر فوق الفراش تود الهرب فجذبتها بغتةً، قلبتها على ظهرها الصلد ونغزتها بسبابتها معنفةً إياها بحاجبين معقودين:



- حتى أنتِ يا لولي!

دقائقٌ قليلةٌ مرت لتلتمع مقلتاها بفكرةٍ ما، ربما تعمل على تهدأة ما يعتمل داخلها.. جذبت الهاتف من جديدٍ مكررةً الاتصال وما إن وصلتها الهمهمة الناعسة حتى هتفت من جديدٍ:

- يارا ظبطي مع منة وسالي واستعدوا الليلة..

ارتمت بظهرها على الفراش بقوةٍ لتصرخ بحماسٍ فعليٍ:

- Let's have a party girls.

وأغلقت الجهاز عقب جملتها الصائحة لتتبسم لحالها بمكرٍ..



فالليلة أكثر من مناسبة لتحتفل بتلك المجتهدة خير احتفال.

***

خصومةٌ سياسيةٌ..

حربٌ غير نزيهةٍ ولا عادلةٍ قد تودي بالخصم المنشود لبئرٍ سحيقٍ، المهم نيل نشوة النصر وتملك حصانة ترفع الشأن بين البشر بتسلطٍ وتجبرٍ يليق بصاحبه..

وهكذا كان "حلمي الجمال" رجل الأعمال المخضرم..

يعد من أثرياء البلد يطمح في نيل اللقب وإزاحة الخصم اللدود من الطريق..



ف "شهاب الكارم" خصمٌ لا يستهان به، لديه من النفوذ ما يكفي، يملك جميع الطرق الملتوية المشروعة والصريحة بحنكةٍ تصل به إلى مبتغاه في النهاية، غير شعبيته الكبيرة و التي حتمًا تؤهله للفوز في كل مرة.

لذا كان لابد من ممارسة بعض من الألاعيب والحيل الغير شريفة لطرده من الساحة..

وهل هناك أسهل من افتعال فضيحةٍ؟

بلبلةٌ وسيرة تلوكها ألسن المجتمع المخملي فيصبح الرجل الفاضل بفرقعة إصبعٍ يهوى من عليين إلى أسفل سافلين.





خطط ودبر واستعان بمن هم أهل لذلك.. أو هكذا ظن!

فوقتما ظنَّ أنه اقترب خطوةً أدرك أنه عاد عشر للخلف؛ فالهدف المنشود لم يقع في المصيدة والفضيحة لم تفتعل، والسبب مجموعة من الحمقى اتكل عليهم في نيل مايريد.!

كان يتوسط مكتبه الأبنوسي الضخم وصوته الغاضب يطلق شرره عبر الهاتف النقال:

- علشان أنت غبي ورجالتك أغبياء.. اسمع يا أيوب لو الموضوع ده اتكشف ومس اسمي من قريب أو بعيد مش هيطلع عليك نهار، خلصنا من الورطة دي من غير ما حد يحس بحاجة،



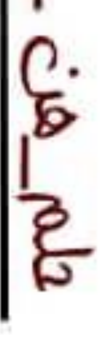
ومش عايز أشوف وشك

ولا أسمع صوتك غير لما تخلص.. مفهووووم؟

بطنت حروفه الممطوطه تحذير شديد أغلق بعدها الهاتف في وجه محدثه ضاربًا بقبضته فوق سطح المكتب لاعنًا غباء جميع من حوله.

بينما على الطرف الآخر كان أيوب يشتعل فوق مراجل من لهبٍ ما إن قطع سيده الاتصال في وجهه، اقتحم الغرفة بثورته المشتعلة يطالع جسدها المنكمش والمتكوم في الزاوية، يبادل نظراتها المرتعبة بأخرى غاضبة..

انحنى أمامها يجلس القرفصاء تصله أنفاسها المتسارعة بهلعٍ فتزداد ابتسامته شراسة، رفع





ذراعه السليم يقبض على فكها في قوة وينفث أنفاسه الكريهة فوق صفحة وجهها:

- بقى أنا أتهزأ بسبب واحدة زيك؟!

أنفاسها توقفت في حلقها ككرة مسننة تصارع حتى تلفظها خارجًا فلا تنال غير حشرجةٍ مؤلمةٍ، تراقب عينيه الجاحظة بتوحشٍ فتنكمش على نفسها أكثر وأكثر ورغم ذلك خرج تلعثمها الخافت بنبرةٍ مبحوحةٍ علها تعي بأي دوامةٍ سقطت:

- أأ.. أنت.. أنت مين؟!

سألت بتيهٍ جليٍ، وعيناها تلتقط ذراعه الآخر المعطل والمرتكن في جانبه بإيحاءٍ غير طبيعيٍ



فتغضنت ملامحها تلقائيًا وزاغت ببصرها بعيداً عنه..

وهو لم يفته كل ذلك وكان جوابه موازٍ لرفع ذراعه المصاب بمساعدة الآخر السليم، يحط به فوق صفحة وجهها ويمرره فوق وجنتها، ينزل به عن عمدٍ عند فكها و ينفث أحرفه كالفحيح منتشيًا:

- أنا عملك الأسود ياختي..عرفتِ أنا مين؟

ما إن حطت أصابعه فوق بشرتها استشعر جسدها خشونة الملمس وبرودته، سرت داخلها قشعريرة ونفور غريزي ترجمته في صرخاتٍ مفزعةٍ و رجفاتٍ متتاليةٍ..



صرخات تعدت الأفق ولا من مجيبٍ بينما هو مستمرٌ في السير بأنامله حتى وصل لذراعها العاري يمسده بطوله مع قهقهاتٍ صاخبةٍ، وبالرغم من عدم إحساسه بما يحدث في جسدها أسفل لمسات أصابعه الباردة إلا أن نظراتها المرتعبة كانت أكثر من كافيةٍ حتى يتلذذ بها منتشيًا.

تناهى لمسامعه صوتٌ قادمٌ من عند الباب الخارجي جعله يتوقف عما يفعل وينهض مبتعدًا على عجل، تاركًا إياها تلملم نفسها داخل ثوبها القصير وتنزوي بشهقاتها أكثر حتى كادت تبتلعها الجدران قبل أن يغيب العقل في غيابات ذكرى أخرى ليست بالبعيدة.



***

" دي أول مرة أطلب منك كده يا نسمة ينفع تكسفيني؟ "

تبسمت لها في خجلٍ قبل أن تجيب:

- مش قصدي والله يا غِنَى بس يعني أنتِ وصحباتك أنا هعمل إيه؟ حقيقي وجودي مالوش لزوم.

بشفاه مقلوبة همست بخيبة أمل وحزن مصطنع:

- أنا بس فكرت في نجاحنا إحنا الإتنين، كنت عاوزه نحتفل بنهاية أول سنة لينا وتكون ذكرى





حلوة نفتكرها بعدين.. ثم إننا كده كده قاعدين لوحدنا يعني حقنا نستغل الفرصة دي.

زاغت نسمة ببصرها في أنحاء شقتهم الصغيرة وهي تقلب الفكرة في عقلها..

فمنذ أن غادرت أمها برفقة السيد والسيدة منذ الساعتين وقد استعمرها الملل لكن ليس لدرجة أن تأتى تلك التي تقف قبالتها وتترجاها بتوسلٍ حتى تقبل دعوتها لحفلها الخاص بصحبة صديقاتها..

- مش عارفه أقولك إيه..

حينما التقطت منها شبه موافقة كانت تصفق بيديها وتحفزها أكثر بحماسٍ:



- قولي موافقه بلييييز.. هنسهر للصبح، أوعدك بليلة عمرك ما تنسيها.

وفقط هزة رأس هادئة صدرت منها، جعلت الأخرى تصرخ بانتصارٍ خفيٍ قبل أن تختفي من أمامها:

- Yeeees

وأردفت سريعا:

- مستنياكِ مش تتأخري بقى .

تبسمت نسمة لحالها عقب رحيلها الصاخب..

غريبة الأطوار تلك الفتاة.. مرة لا تُطاق وأخرى تتحول فيها لودودة بحنوٍ وثالثة لا تفهمها أبدًا، لكن في النهاية لا عجب فتلك هي غِنَى.



***

حجرةٌ أنثويةٌ بدرجة امتياز تعج بأصنافٍ عدة من وجبات سريعة، ثيابٌ تكومت فوق الفراش بكثرةٍ مفزعةٍ، بينما صوت المغني الأجنبي المشهور يدوي بصخبٍ بين الأركان تشاركه أنغامه ثلاث فتيات يفرغن طاقتهن بسخاءٍ في رقصٍ غير مفهومٍ كنهه عقب ما تفرغن من وضع مساحيق التجميل هنا وهناك، وارتداء أجمل الثياب وأغلاها.. وهي اتخذت من منصة الفرجة ملاذًا تشاهد كل ذلك بانشداهٍ وغرابةٍ في نفسها بينما عقلها يهمس لها مستمتعًا بسخريةٍ

"تقاليع أغنياء"



ضحكت مع حالها قبل أن تتقدم ناحيتها إحدى المدعوات

تجذب يدها في دعوةٍ لمشاركتهم الصاخبة:

- يلا يا نسمة ارقصي معانا.

مال بصرها فوق ملابسها وحجابها البسيط في لمحةٍ خاطفةٍ منها قبل ما ترفع رأسها لمحدثتها تنهي الدعوة برفضٍ قاطعٍ:

- لا لا أنا ماعرفش.

رمقتها الفتاة بإحباطٍ.. فتقدمت صاحبة الحفل تحمل ثوبًا بين ذراعيها تقدمه لها بمحبةٍ وتشجيعٍ:



- بطلي كآبة يابنتي.. بصي البسي الفستان ده هيبقى تحفة وهو بيعكس لون عينيكِ، يلا بقى بلاش كسل.

حركت رأسها برفضٍ صامتٍ فعاجلتها بإلحاحٍ امتزج ببسمةٍ ودودةٍ:

- ماتنسيش تظبطي شعرك والميكاب.

وقبل رفضٍ ثالثٍ كانت تجذبها هي وصديقاتها قسرًا يدفعن بها نحو الحمام الداخلي للغرفة قاطعين عنها كافة الطرق الرافضة عائدين لوصلة الرقص خاصتهم.

أغلقت المزلاج في قلة حيلة واستدارت تواجه المرآة،



تلامس بشرتها بأناملها فتمط شفتيها في عدم رضا..

بشرةٌ شاحبةٌ أقرب للحنطية..

وشفتان رفيعتان أكثر شحوبًا..

فقط عينان لوزيتان تحملان خضارًا مميزًا كعيني قطةٍ شاردةٍ بأهدابٍ كثيفةٍ يجب أن تشعر بالغبطة لأجلهما..

وهه ساخرة خرجت عبر شفتيها أثناء حل وثاق حجابها لتكشف عن تاجها الذي يحمل الصدارة في سواده الباهت. فلا هو نال جاذبية الليلكي ولا احتفظ بجمال البني، فقط عالقٌ بين هذا وذاك.!



تخللت بأصابعها خصلاتها المنتهية عند منتصف الظهر قبل أن تجمعهم جانبًا وتبدأ في خلع ملابسها..

عضت فوق شفتها السفلى وهي تتناول الثوب بينما عقلها يضرب رقمًا قياسيًا في ثمنه لكنه حتمًا يستحق..

كان لغِنَى يوم مولدها العام الماضي هدية والدها من إحدى البلدان الخارجية وحتمًا لازالت تتذكر انبهارها به آنذاك.

انسدل الثوب فوق قدها بتمهلٍ لتحتضن حبات اللؤلؤ الصغيرة المتراصة بتجاورٍ حناياها بحميميةٍ، بينما انسابت طبقات التول الناعمة تخدش بشرتها برفقٍ.. تطلعت لساقيها العاريين

أسفل الثوب القصير بضحكاتٍ خافتةٍ قبل أن ترفع رأسها للمرآة من جديدٍ، تعبث بشعرها مرةً لليمين وأخرى ناحية اليسار، ثم دارت حول نفسها في حيرةٍ..

كيف ستخرج هكذا؟

لم يعتد أحدًا من قبل رؤيتها بتلك الهيئة الغريبة، ولا تدري إن كانت قد لائمتها أم لا!

وهل بعد كل ذلك أصبحت شبيهةً بمن بالخارج أم سيظل الفارق بينهما في كل شيءٍ تاركاً بصمته الخاصة؟

جذب انتباهها الصمت السائد بالخارج بعد الصخب المدوي، اقتربت من الباب في محاولةٍ



لالتقاط أصوات الفتيات الثلاث ولا شيء غير الهدوء التام فعقدت حاجبيها وحركت المزلاج مواربة الباب بعض الشيء تتطلع برأسها ولا أحد..

خطت بهدوءٍ وعيناها تدور هنا وهناك وحين واجهتها نفس النتيجة

راودتها الظنون أنهن بالأسفل لأجل أمرٍ ما.

وقع بصرها على المرآة الطويلة قبالتها فعكست لها صورتها كاملةً. تبسمت رغمًا عنها وهي تقترب تتطلع لصورتها بانبهارٍ وليدٍ؛ فذلك الثوب حتمًا كالسحر يجمل من ترتديه!

جذبت أطرافه قليلًا عله يستطيل لأسفل الركبتين بمقدار..

لكنه عاد وارتفع لما فوقهما فحركت كتفيها في قلة حيلة.

وثلاثُ دقائقٍ فقط حلقت فيهما بثوبها اللامع نحو الأحلام كنجمةٍ تطأ البساط الأحمر، لتهبط بعدها لواقعها المرير وهي ترى ذلك الثعبان الطويل يتلوى على بعضه على بعد خطواتٍ قليلةٍ منها..!

وثبت من وقفتها صارخةً تركض ناحية الباب المغلق تجذب مقبضه بقوةٍ ولا فائدة!

وحينها فقط وصلتها ضحكاتُ الفتيات الثلاث بقهقهاتٍ عاليةٍ من خلف الباب الموصد لتضيع صرخاتها المتوسلة مع ابتعاد خطواتهم..!



وكأنما بصرخاتها أذنت لذلك الكائن بتحديد هدفه فأخذ يتحرك ناحيتها لتقفز بذعرها من جديدٍ وتحط فوق الفراش هذه المرة، تبصره بأنفاسٍ محتجزةٍ داخل حلقها وهو يتحرك بعشوائيةٍ..

الآن فقط أدركت مغزى دعوة تلك المدللة!

و لكن..

أيصل دلالها وعبثها لتركها حبيسة غرفتها برفقة ثعبان؟!

على ماذا تنوي بفعلتها..!

سبتها ولعنت حالها وسذاجتها التي أوقعتها في هكذا مأزق..



ولتكتمل ليلتها الإستثنائية انقطع التيار الكهربائي

على غير العادة فتخاذلت جميع أطرافها

وسقطت فوق الفراش في استسلامٍ للقدر

المحتوم، تضم كفيها لوجهها، تنتحب بصمتٍ..

فتدعمها الغريزة الفطرية بعد حينٍ بالنهوض

والبحث عن بديلٍ..

لكن كافة شيءٍ غاب وتوارى حين داهمها من

الخلف حائطٌ بشريٌ

يقطع عنها تنفسها ويقيد حركتها،

لترحب بعتمةٍ أخرى وقدرٍ آخرٍ أشد ضراوةً من

الأول بوعيٍ مسلوبٍ.!

***



تحرك المزلاج ببطءٍ، تبعه ولوجٌ هادئٌ لا يتناسب مع أنفاس الآخر المشتعلة والذي سرعان ما باغت بسؤالٍ عن فحوى ما كان ينتظر:

- هااا وصلت لإيه؟

جذب مقعدًا جانبيًا، وجلس بوضع عكسي، يشعل تبغه وينفث دخانه بتمهلٍ مغيظٍ قبل أن يجيب ويدلي بما توصل إليه خلال ساعات غيابه:

- اسمها نسمة رفعت القاصد.. أبوها كان سواق خاص لشهاب كارم قبل ما يموت من حوالي إحداشر سنة.. أمها أنيسة منصور ست غلبانة خريجة ملجأ أيتام اشتغلت في بيت شهاب خدامة بعد ما اتجوزت الراجل السواق ومن



يومها وهما عايشين في ملحق الفيلا، وحتى بعد ما جوزها مات فضلت معاهم هي وبنتها.

حك أيوب ذقنه مضيقًا حدقتيه في تفكيرٍ بينما ملامح وجهه أخذت في الانبساط تدريجيًا وهو يرهف السمع لبقية الحديث:

- مالهاش إلا عم واحد اسمه سعيد عايش مع مراته وبناته التلاتة في محافظة تانية وده تقدر تقول عليه كلب فلوس وعلاقته بأخوه إتقطعت يوم ما قرر يتجوز من خريجة ملجأ.

ضحك أيوب وقهقه بجذلٍ وهو يعود برأسه للخلف قبل أن يردف الأول بنفاذ صبرٍ:

- ما ترسيني ياعم هنهبب إيه في أم ده حوار؟!



تكلم أيوب وهو يحك ذقنه في تمهلٍ:

- خلاصة كلامك إن البت مقطوعة من شجرة..

ثم أردف بكسرة عينٍ:

- يعني مالهاش ديه.

تنبهت حواس الآخر لنبرة الشر المغلفة لكلماته فتسائل متوجسًا:

- تقصد إيه؟

عاد أيوب يقهقه من جديدٍ قبل ما ينهض ليقف بمحاذاته ويهمس له من علوٍ:

- هو اللي فهمته اسم النبي صاينك.

رفع الآخر رأسه بغتةً يطالعه لثوانٍ تأكدت فيها ظنونه، ليتمتم بعينين ضاقت حدقاتهما:

- بس اتفاقنا ماكنش فيه دم!

ليزعق أيوب بنبرته الخشنة وذراعيه ينفتحان بأمر مسلم به:

- وجات لقضاها.. حد يقول للقضاء لأ!

وزعقة أيوب توازي انتفاضة الآخر من جلسته وعيون تطاير منها الشرر:

- لحد هنا وإثبت يا معلم ومن الآخر كده يفتح الله، لا دي سكتي ولا ناوي أدخل فيها.

وقبل أن يستدير ويهم برحيل كان يجذبه أيوب من تلابيبه بعنف مخترقًا سوداوية عينيه بأخرى أكثر وحشيةً:



- لهو أنت فاكر لسه مادخلتش؟ لأ يا ناصح دخلت ورجلك غرزت يوم ما وافقت تدخل دايرة حلمي الجمال.. جاي دلوقت بعد ما وقعتنا في الغلط تقول يفتح الله! اللي بدأ اللعبة هيكملها للآخر وغصب عنه مش بالمزاج هي.

- ماحدش وقعنا في الغلط غيرك، مش دي شورتك المهببة؟!

دمدم بها بعينين غاضبتين ليكشر أيوب فوق ضروسه بنفاذ صبرٍ وأردف يوضح بحممٍ مشتعلةٍ:

- نهاية الكلام ماقدمناش غير إننا نشتري رضا حلمي بيه ده راجل زعله وحش..



وبغمزة عينٍ مغزاها تهديد مبطن تابع:

- ربنا يكفيك شره.

صمت الإثنان لدقائقٍ إلا من أنفاسهما الهادرة ليتابع أيوب عرضه المستفيض بهدوءٍ ناقض اشتعاله السابق:

- من حظنا اللوز أن البت مالهاش حد يسأل عليها يعني شهر.. إتنين، إن كترت تلاتة وتتنسي.. بس أفتكر هي قاعدة في بيت مين! يعني رجوعها هيفتح علينا النار من كل جهة وأنا وأنت أول مين هيداس تحت الرجلين.

- قوم نقتلها!



- ماقلنا لك قضاها.. الله! ماتفتح مخك معايا ياجدع ماتبقاش قفل أومااال، وماتخافش حقك محفوظ وفوقيه عشر بوسات كمان مرضي ياعم؟

تنهد بحرارة ومسد جبينه في تفكيرٍ مشوشٍ قبل أن يقترب الشيطان من جديد ينفث في أذنيه آخر لهيب الخطة:

- تأخد البت وتطلع على الصحراوي..

صمت لبرهةٍ بسط فيها كف الصامت ليترك بها أحد الأسلحة صغيرالحجم فتاك الفعل..

وبملامحٍ قاسيةٍ وتمهلٍ بغيضٍ ذيل النهاية بتوقيعه:



- بعد ما تخلص عليها هتلاقي في شنطة العربية كافة شيء يلزمك عشان تحفر مكان يليق بالسنيورة، تحط الجثة وتردم فوقيها.. بعد ما تتأكد إن كله تمام تركب عربيتك وتلف وترجع ولا من شاف ولا من دري.

والجواب تمثل في..

أصابع انطبقت فوق السلاح بتمهلٍ وإذعانٍ.

***

اعتاد بنو البشر على اختزال النهايات بكلمةٍ بينما تحتاج البدايات لدواوين ومجلدات لتُكتب

- خلصت..؟



سؤالٌ خرج عبر الهاتف المحمول عقب ساعتين أو ثلاث من زمن حمله للفتاة والرحيل بها تحت جنح الظلام، لا يهم الأهم أنه خطط ودبر وسينال الشيطان مراده.. والجواب تلك المرة تمثل في جفنين افترقا بتأنٍ لتظهر لمعة العين الخاصة لتحكي عن سيطرة رجلٍ سلك دربه الخاص وسن قوانينه ليذيل هو النهايات كما نال البدايات رغمًا عن أنف الجميع..

- خلصت.

نقطة انتهى.

لتعلو بعدها قهقهات أيوب عبر الشبكات بجذلٍ منتصرٍ، وصياحٍ اخترق السكون:



- عفارم عليك يا أبوعلي.. تربية إيدي بصحيح.

ارتفع شارب حسن في ضحكةٍ متهكمةٍ موازيةٍ لقهقهات معلمه الصاخبة، فأيوب لم يخطئ؛ فهو تربية يديه كما قال ويقول دائماً.

فأول من رسخ بعقله وغزل خيوط الشياطين كان أيوب..

أول من لقن فنون خفة اليد وحاك قوانين النهب والاحتيال ببراعةٍ كان أيوب..

أول من غذى الداهية بداخله ليصبح ما آل إليه لم يكن يومًا غير أيوب..

والتربية النجسة مآلها إعوجاج



أغلق الهاتف تاركاً من رباه يحتفل بنشوة الخلاص وتحركت قدماه حول الفراش العريض يطالع الجسد المسجى أمامه..

مد أنامله إلى عنقها يستشعرعرقها النابض بخفوتٍ؛ فالفتاة لا يكاد يعود وعيها حتى يغيب من جديد.

تذكر نبرة أيوب المهللة بانتصارٍ..

لو فقط يعلم الرجل بما فعل وعلى ماذا ينوي لربما أصابته نوبة قلبية!

ضحك حتى ظهرت نواجذه وهو يرسم عدة خيالات لمعلمه، قبل أن يخرج ويغلق الباب من ورائه..



لينل حصته من المال أولًا، وليبقَ أيوب وسيده حتى إشعارٍ آخرٍ يقرره هو رفعه.

والغنيمة قُدر لها أن تكون ضحيةً

عقب ما انتهى بها الحال طريحة فراشٍ متهالكٍ بين جدرانٍ متشققةٍ في وكرِ لصٍ!



(٣)

والصبر لا يقتصر على الصالحين؛ قد يكون للشياطين خيرَ عشيرٍ!

كان من السهل أن يلقي بها فوق قارعة الطريق وتنتهي المسألة، لكنه ماإعتاد على تفويت الفرص، سوف يسلك درب التأني طالما المراد هو المنال في النهاية.. ومراده هذه المرة تخطى فكرة المال، هو يسعى لحلقة وصل، طريق يعبر من فوقه حتى يصل إلى حلمي الجمال وأقرانه!

تململت في نومتها من جديدٍ تطرد عتمة فُرضت على جوارحها لتواجه عتمة غزلتها نفوس البشر، وشهقةٌ تبعها فزعٌ وتيهٌ بات رفيقًا،

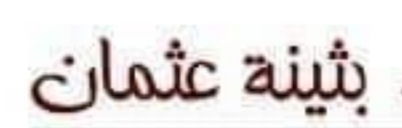


تدور مُقلتاها في المكان من حولها..

جدران متشققة صُبغت بطلاءٍ باهتٍ تهدل عن موضعه يعلن عن نهاية صلاحيته منذ زمنٍ..

غرفةٌ فارغةٌ إلا من بساطٍ بخس الثمن بالكاد يغطي نصف الأرضية، وفراشٌ عريضٌ تآكله الزمن تتوسطه بثوبها المنحوس، قماشٌ طويلٌ في أحد الزوايا يتخذ وضع ستار ولا ينبأ أن ما وراءه منفذ قد تستعين به في مصابها..

انتفضت من جلستها ما إن أدركت خلو رسغيها وكاحليها من قيودهم الصدئة بل وعت لوجودها بمكمنٍ مختلفٍ عن ذاك السابق، بساقين رخويتين وجسدٍ أصابه الوهن نهضت تبحث عن منفذ نورٍ أو خلاصٍ،



دون تفكيرٍ جذبت مقبضَ الباب عنوةً لترتطم بصدره فترتد خطوتها للخلف مع صرخة ذعرٍ وقسماتٍ سكنها الهلع..

آخرٌ سوف يذيقها من العذاب لونًا جديدًا كما فعل ذاك النحيل وصاحب الذراع الخشنة، آخر يبدو أكثر قسوةً وقتامةً.. عيناه تحكي!

هكذا فكرت قبل أن يتلقفها بذراعيه يمنع عنها سقوطًا و غيابَ وعيٍ تتشبث به، ليبث طمأنينة لم تكن يومًا من سماته:

- متخافيش.

والنبرة التالية رغم ثعلبيتها المبطنة كانت تقطر شهامةً:



- أنتِ هنا في أمان.

انتزعت حالها بعيدًا عنه لتلفها بذراعيها تستر عريَّ جسدها و تُمحي لمسات طالتها قهرًا، تنزوي وتنكمش في أحد الزوايا و تُحدجه عيناها برهبةٍ وجوارحها ترتعد قسرًا بينما لسانها يهذي بما يجول في خاطرها:

- اقتلني وخلصني مستني إيه!

اقترب يحمل شرشفًا كان مُلقَىً على جانب الفراش بإهمالٍ، يلقي به فوق جسدها يستر عريها فينال نظرةً هي فقط البداية:

- قلت لك متخافيش أنتِ هنا في أمان.



شدَّت عليه تدثر حالها جيدًا وتزيد من انكماشها، ترفع له وجهها الشاحب بعينين غائرتين تبغي جوابًا أو مرساة فوق ميناء التيه:

- أنتم مين وعايزين مني إيه؟

أثنى ركبتيه يجلس أمامها القرفصاء، يغزل خيوطه الخاصة ويعلن عن بداية اتخذت المسار الصحيح:

- في ناس قاصدين يأذوك، أنا هنا علشان أساعدك..

وبأسفٍ على الراحل يلائم حنو نظراته استطرد:

- رفعت القاصد كان صاحب فضل عليَّ وأقل واجب أحافظ له على بنته.



- بابا.. أنتَ تعرف بابا!

بلهفةٍ تسائلت وعيناها تكاد تلفظ من محجريهما، تتشبث بأذيال أمان فقدته منذ وقت لا تعي كم صار حتى لحظتها هاته..

يحدثها عن أبيها ويخبرها عن جميل يطوق عنقه منذ سنين وحان وقت سداده، يزف لها زخات الأمان مع كل كلمةٍ تقطر من بين شفتيه:

- ماكنش ينفع أرجعك البيت، رجوعك دلوقت فيه خطر على حياتك.

يرتدي ثوب الفارس وينتهج طرقه الملتوية مع فتاةٍ غرةٍ لا تعي من الدنيا غير صالحها أمَّا الطالح منها فستجنيه على يديه..



- أنا ما أعرفش مين دول ولا عايزين مني إيه!

- طيب احكي حصل إيه بالظبط؟

يسبر أغوارها بعقيق عينيه اللامع وابتسامة نصرٍ تتسع في دواخله وتتراقص دون وضوحٍ..

تقص عليه ببراءةٍ كلماتًا وأبجديات حروف تتشكل لا تعرف للخبث سبيلًا..

بدايةً من ذاك الملثم الذي نال هلع البداية حتى الأخير

صاحب الذراع المعطل والصوت الوحشي فتنال ربتةً وأخرى،

تهطل دمعة خوفٍ وتتعثر الكلمات فوق الشفاه فيعود يبث طمأنينة ويخبرها ببساطة أنه هنا



لأجلها

ولن يتخلى عنها حتى تعود لكنف بيتها سالمة..

وهنا تنبهت لأمر، فسألت بشك ونبرة مبحوحةٍ:

- بس أنتَ عرفت مكاني إزاي!

تلاقى جفنيه بمسكنه متلحفا برداء الغموض:

- مش مهم إزاي دلوقتي، المهم أن ربنا وصلني ليك في الوقت المناسب.

وحتى ينهي مسرحيته الهزلية رافعًا لنفسه القبعة عقب انتهاء فصلها الأول؛ قدم لها وجبة غذاء، يأمرها باهتمامٍ: حان أن تستعيذ من الشيطان وتجبر زادها حتى يقوى هوان البدن وبعدها لكل حادثٍ حديثٍ..



ولأنها صدقته.. فعلت

استعاذت من الشيطان ولا تدري أنها في

حضرته.!

***

وبين شقي رحى الصحو والهذيان كانت تحيا أمٌّ

مكلوم..

منذ أن قامت غِنَى بتلك المهاتفة المشئومة

تطالب فيها بعودتهم على وجه السرعة، عادوا

جميعًا بقلبٍ واجفٍ دون حضور ما ذهبوا لأجله

وما إن وطأت بقدمها استشعرت غيابها..



غياب نسمتها ورفيقة روحها..

وحين لُفظ اسمها من بين شفاه مرتعدةٍ

سقط الخافق من بين ضلوعها..

"نسمة اختفت"

خذلتها سيقانها وهوت فوق مقعدٍ قريبٍ بينما

الجميع من حولها ارتسمت فوق قسماتهم

علامات الحيرة إلا من عينين يحملان دكنة

حبيبات القهوة وجاذبيتها في آن اكتنفهما

الخزي..

ولأنها لن تجرأ على اعترافٍ بحقيقة جرمٍ ارتكبته

في حق تلك الأخيرة ضمت أخاها الصغير ذا

العشر سنوات لصدرها وأخذت تنتحب في صمتٍ

وهي تراقب حركة أبيها المُتَحَفِّزَة مابين مهاتفاتٍ

غير منتهيةٍ و إصدار أوامرٍ بالبحث في جميع النواحي القريبة والممكنة.. وأمها تضم كف المرأة تدعمها في مصابها وتطمئن بهذر لا يقدم ولن يؤخر في هاته اللحظة..

- فكري يا غِنَى يمكن نسمة قالت لك أي حاجة توصلنا لها.

انتشلها أبوها من بؤرة شرودها بسؤاله المكرر على مدار اليومين الماضيين، وكالعادة تلعثمت وبكت وتحشرج صوتها بغضب:

- قولت لك قبل كده ماعرفش وماشفتهاش ولا قالت لي أي حاجة.

وتدخلت الأم مدافعة:



- بالراحة على البنت يا شهاب مش شايف حالتها؟

حدجها بنظرةٍ مبطنةٍ حتى تراعي حالة الأم المنتحبة بجوارها فعادت لها ببصرها:

- اطمني يا أنيسة البوليس بيدور في كل حته ورجالة شهاب مش ساكتين هنوصلها ماتقلقيش.

ببقايا روحٍ تحشرجت همستها:

- بنتي ضاعت يا ست يسرا.. بنتي ضاعت.

ربتت فوق كفها المتغضن بمؤازرةٍ ولسانها يعجز عن أي كلماتٍ مواسيةٍ، تمر الساعات ولا جديد.. لا أثر للغائبة..



اقترب الآخر في محاولة للوصول لأي طرف خيط..

- تفتكري يا أنيسة تكون عند عمها وبينكر ده؟

- نسمة عمرها ما راحت هناك يا شهاب بيه ولا تروح من غير ما تقول لي.. بنتي حصلها حاجة.. بنتي مش بخير أنا قلبي مقبوض وحاسس بيها.

قالتها بعجز أمٍ غابت عنها طفلتها

ولا تملك من الأمر شيئًا غير الجلوس فوق جمر الانتظار،

تبتهل وتدعو من عمق جوفها أن يرد لها طفلتها سالمةً؛ فبها تحيا الروح وينبض الفؤاد.

تبادلا الزوجان النظرات الصامتة في قلة حيلةٍ بينما صغيرتهما كانت تدور داخل غرفتها جيئةً



وذهابًا دون تركيزٍ حقيقيٍ، فقط تقضم أظافرها وتنتحب في صمتٍ، ثم تقف في زاوية الغرفة تطالع السلحفاة الكسول وتخبرها من بين نحيبها:

- أنتِ عارفة أني ماقصدش كل ده..

زاد نحيبها وسياط الذنب تجلدها، ولا تملك غير أن تدافع عن حالها أمام السلحفاة بتهدجٍ:

- أنا سبتها في الأوضة وماعرفش راحت فين!

جلست فوق الأرضية بتهالكٍ، تضم ركبتيها لصدرها وتشد خصلاتها الخفيفة كعادتها وقتما تصاب بقلة الحيلة أو الغضب..

أين اختفت؟



بل كيف خرجت والباب موصد!

هل قفزت من الشرفة أم ماذا؟!

وقتما عاد التيار تنفست الصعداء هي ورفيقاتها بعد ما تمكن منهم الظلام السرمدي وأصابهم بذعرٍ حقيقيٍ، ليقررن على وجه السرعة الصعود للمسكينة داخل الحجرة المغلقة مع كائن الثعبان ذاك، يكفي عبثًا.. فالفتاة كفت عن صرخات الإستغاثة يبدو أنها تعبت.. أو أن الصدمة قد ألجمت لسانها، سيعتذرن ويخبرنها أنه مجرد ثعبانٍ صغيرٍ خالٍ من السم ولا ضرر فيه، وحتمًا ستتقبل اعتذارهن وتنتهي الليلة..

لكن الفراغ الذي قابلهم كان له رأيٌ آخرٌ..



بحثن في جميع الأماكن ولا فائدة..

النسمةُ باتت كالنسمةِ واختفت تمامًا.!

لتغادر الصديقاتان يعلنان تجردهما من تلك السخافة وأن لا شأن لهما في أذيتها، تاركتين إياها تحيا في درب من الجنون منذ تلك الليلة و تصرخ عبر الهاتف في والديها تسألهما العودة على وجه السرعة.

رفعت بصرها للقمر الشاحب في عليائه، رباااه.. كانت تبغي إخافتها لا أكثر، لم ترد أبدًا إثارة تلك الغوغاء ونشب حريقٍ داخل قلب المرأة الطيبة، هي قطعًا تحبها ولا تريد أذيتها..



- لو أعرف بس خرجت إزاي والباب مقفول.. أنا هتجنن يا ربي!

- غِنَى هقول لبابا كنتِ مع نسمة ومش عايزة تقولي.

دارت بجسدها مذعورةً تستمع لكلمات شقيقها الصغير والمختفي خلف ركضات متتاليةٍ، خبطت فوق رأسها بباطن كفها لاعنةً غباءها وثرثرتها بينما عقلها يرسم صورة القادم.

***

وكما للناسِ في العشقِ مذاهبٌ

لهم في الأسى والوجعِ مذاهب



وهي أنثى سقطت في درب الهوى منذ كانت فتاة

غره بجديلة سمراء جانبية ذات خمسة عشر

ربيعًا مع جار لا يبعد منزله عن منزلها سوى بضع

مترات.. وبحكم عادات تلك المناطق الشعبية

ينشأ فيها الصغار سويًا، حتى بات صديقًا مقربًا

للشقيق..

وبعد حينٍ كشفت أمر تلك النظرات التي تتبعها

خلسةً

وعلى استحياءٍ فأربكت الخافق وأجبرت العين

على مبادلة النظرة بأخرى خجلة، والنظرة

تجرأت لتصبح ملامسة أنامل مقصودة

وفي الختام أُسدل الستار عقب كلمات النهاية..

"بحبك يا سماح"



وبوجنتين اجتاحتهما حمرة الخجل هربت من أمامه.. هربت وفي قلبها فرحة لو وزعتها على من حولها لفاضت.. فرحة بدأت في التلاشي والإضمحلال منذ أن خطى الحبيب أولى خطواته نحو درب النجاح.. حين تم قبوله في كلية الصيدلة ونالت هي على درجات بالكاد تؤهلها حتى تتخرج من مدرسة الثانوي التجاري.. مضت السنون وأصبح طبيبًا ذا شأنٍ، افتتح صيدليته الخاصة على ناصية الشارع العام بمساعدة عمه المغترب ليتحاكى عنه الحي والأحياء المجاورة بينما هي انحدرت للقاع بعد ما تكالبت عليها المسئولية من عقاقير لأزمة لمصروفات شهرية ويومية غير منتهية لينتهي بها الحال إلى بائعة في



محل للملابس النسائية لم تجنِ منه ما يسد الرمق، لتحول نشاطها إلى عملٍ حرٍ بعد نصيحة إحداهن وتصبح في غضون شهورٍ قليلةٍ من أمهر النساء وأكثرهن طلبًا في خدمة تنظيف البيوت!

عدلت من وضع وشاحها فوق رأسها وضبطت هندام عباءتها السمراء ثم ولجت بخطواتٍ وئيدةٍ لداخل الصيدلية كحالِ كل شهرٍ عقب انتهاء عملها لليوم. ستحضر لأمها الأدوية اللازمة وتنال هي رؤية الحبيب عن كثبٍ.. بل والحديث معه.

- اتفضلي..

والنبرة لم تكن تخص الحبيب بل لشابةٍ صغيرةٍ بحجابٍ منمقٍ و وجهٍ بشوشٍ، تسألها عن طلبها بتهذيبٍ ومن هيئتها تبدو كمن يعمل في المكان.

- وأنتِ تطلعي مين بقى؟

لم تستطع كبح سؤالها ليأتيها الجواب مع ابتسامة عذوب:

- أنا مها بنت الحاج سلامة الجزار لو تعرفيه.. تالتة صيدلة وبتمرن هنا مع دكتور عادل.

طالعتها من رأسها لأخمص قدميها في نظرةٍ تقيميةٍ سريعةٍ لتعاجلها بسؤالٍ آخرٍ بنبرةٍ جافةٍ تجرد بها اسمه من أي ألقابٍ بعد ما نالت نظرتها على ما يثير سخطها:

- وهو فين عادل؟

- ثواني وهجيب لك طلبك..



والجواب تلك المرة من عادل نفسه بعد ما ظهر من داخل غرفةٍ صغيرةٍ ملحقةٍ بالصيدلية، تقدم ناحيتها بثباتٍ لا يشي بشيءٍ

كعادته، يجلب لها ما تريد دون حديثٍ، تكلم مع زميلته ذات الضحكة العذوب بكلماتٍ لم تفقه معناها فتحركت الفتاة تحضر إحدى العلب من فوق الرف الزجاجي وتقدمها له ببسمةٍ خجولٍ فيهديها نظرةً كتلك التي أهداها لها يومًا..

- تسلم إيدك يا دكتورة.

واستدار لها ببقايا بسمة عالقة:

- اتفضلي ياسماح.



ابتلعت غصتها وأصابعها تنبش في حافظة النقود تخرج منها ثمن ما ابتاعت لتغادر بخطواتها المتعثرة خوفًا من أن يلمح تلك اللمعة داخل مقلتيها فيظن لاسمح الله أنها تبكيه!

وصلت بيتها أخيرًا عقب ما نالت الجارة الفضولية على زعقةٍ غاضبةٍ منها.. تلقي ما بين يديها بغضبٍ وتفك عنها وشاح رأسها ليتبع ما سبق فوق الأرضية، ولا حديث مع تلك القابعة فوق الأريكة تستمع لهسيس غضبها ولا تجرؤ على سؤالٍ.

توسطت المطبخ الضيق تعد الغذاء ومازالت على صمتها، فقط عقلها تائهٌ و قلبها يحترق من إثر تلك الضحكة والنظرة..

- مين زعلك يا سماح؟

أخرجتها كلمات أمها من غيابات الوجع لتسقطها داخل واقعها المرير فلم تجد غير تمتمة كئيبه، مختنقه:

- نفسي مكسورة قوي يا أمي.

بحذرٍ خطت حتى قابلتها في وقفتها وبكفين نقش فوقهما الزمن تجاعيده أحاطت بوجهها ورعشة طفيفة تتمكن منهما إثر نبرتها المتهدجه بانكسار:

- ليه يا ضنايا كده؟ ما عاش ولا كان اللي يكسرك ياسماح.

وبانفجارٍ لم تستطع كتمانه كانت تصرخ وذراعاها ينتفضان جوارها:



- ليه قليل البخت لازم يكون قليل البخت في كل حاجة والفرحة دايمًا مستكترينها عليه؟.. ليه مابقاش مكانها.. ليه مش أنا اللي جنبه دلوقت؟

- كفاية يا سماح ماتوجعيش قلبي.

- وقلبي اللي رماه تحت رجليه وداس عليه مين يداويه؟

- ربك رب قلوب يابنتي قادر يجبر ويداوي.

ارتمت فوق صدرها تنشج وتنتحب والدمعات تواسي امرأة خاضت غمار العشق فأغرقها الهجر وخرجت منه مهزومة.. خاوية الوفاض.

***

ببراءة طفلةٍ سقطت في براثن لئيمٍ..

لئيمٌ يطهو غنيمته فوق نار هادئة..

يحضر لها ثيابًا محتشمةً تتستر بها فينال لقب رجلٍ، يدعم ويطمئن ويقدم وعودًا فينال شهامة..

حرباء تتلون وقتما تريد وكيف ما تشاء

كانت قابعةً فوق الأرضية تلقي برأسها على الحائط بذهنٍ شاردٍ وتراقب من جانب الباب الموارب منقذها النبيل..

جاءها بفستانٍ طويلٍ حد الكاحلين وأكمام كاملة مع وشاحٍ لخصلاتها وقدمهم على استحياءٍ..



أيُّ خيرٍ ذاك الذي قدمه أبوها ليعود عليها بكل ذلك الكرم

و يرسل لها من يلتقطها من بين ألسنة اللهب..!

هكذا فكرت ببراءة فطرةٍ لم يلوثها دنس بشر بعد قبل أن يجذبها صوت الآلات الرياضية مع التقاء جسده والتي يملأ بها سطح البناية..

على مدار الثلاث أيام الماضية يستيقظ كل صباحٍ

ليبدأ يومه مع تلك الآلات الضخمة لساعتين أو أكثر،

بعدها يقدم لها فطورًا بسيطًا

ويغادر لعمله كسائق أجرة كما سبق وأخبرها، ثم يعود مساءً وفي يده وجبة أخرى ويسألها الصبر

في مصابها حتى يجد لها مخرجًا دون أن تصاب بمكروهٍ، فالمعضلة ليست هينة كما استنبطت من كلماته وأن الأمر فيه خصومة سياسية كبيرة بين رجال أعمال مخضرمين، خصومة قد تودي بحياتها حتى وإن كانت مجرد غلطة عابرة كان المقصود فيها ابنة السيد شهاب كارم..

غلطة سقطت سهوًا بين أيديهم فقرروا محوها حتى لا تكون شوكة في طريقهم لولا لطف الكريم بها ثم ذاك النبيل.

وقفت على استحياءٍ خلف الباب لا تجرؤ على تخطيه كما نبهها أكثر من مرة رغم شعورها أن المكان من حولها لا يعج بالبشر لكنها لا تملك من



الأمر غير الطاعة، في النهاية هو فقط يريد حمايتها.

تناهى لمسامعه نحنحتها الخجلة من خلف الباب فترك أوزانه واعتدل يضبط إيقاع النظرة البريئة قبل أن يقابلها في وقفتها، يرنو ويسأل باهتمامٍ:

- اؤمريني؟

اقترابه السريع بأنفاسه اللآهثة وعرقه السائل فوق كتفيه المكشوفين من تحت كنزة قاتمة دون أكمام
جعلها تتقهقر للخلف خطوة، تتمسك بوشاحها تارة وتعود تفرك كفيها أخرى.. وتهمس بخفوت:

- قلقانة على ماما..



قالتها دون أن تواجه عينيه لتتابع بنفس النبرة الضائعة وعيناها على وضعها تعانق الأرض:

- قلبها تعبان مش هتتحمل.

رفعت له عينين ذابلتين تناشده..

بل تتوسله..

- ما أنا قولت لك صعب نستخدم أي وسيلة إتصال ممكن عن طريقها

يوصلوا لمكانك بسهولة وكده خطر عليكِ.. مش عايزين نجازف.

تنهدت في يأسٍ عقب كلماته وراحت تجلس فوق طرف الفراش في قلة حيلة وفي عقلها ألف صورة لحال أمها وجميعها تصب في أبشع



الخانات، هطلت دمعة ثقيلة فوق وجنتها دون إرادة لتسارع أناملها في محوها قبل أن تشعر بكفه يربت فوق كتفها برفقٍ ويهمس من علوٍ:

- طيب عندي فكرة.. إيه رأيك تكتبي لها جواب تطمنيها فيه عليكِ وأنا هتصرف وأوصلهولها.. كده أأمن ليك.

من فورها رفعت رأسها تهزها له في امتنان حقيقي ليتابع بعد ما أحضر لها ما يلزمها:

- هاخد دش تكوني خلصتِ.

وقبل أن يختفي خلف ذاك الستار المهترىء لينعم بحمامه وتغرق هي في خجلها حتى ينتهي كانت طقطقة حذاء نسائي تطرق الأرض الصلدة



بالخارج لتقطع عنهما حديثهما ويتقدم بخطواته يكشف هوية الحاضر..

والحاضر كان جسدًا أنثويًا بدرجة امتيازٍ وعينين تلمعان بشذرات الزيتون مع خصلاتٍ امتزج فيها الأسود مع الزيتوني الداكن، ثياب راقية لا تناسب المكان الذي وطأته لتكتمل الصورة في تناسق رباني مبهر..

- حسن صبري؟

انتشلته بحتها الرقيقة من تدقيقه في معالمها، ليقترب أكثر مضيقًا حدقتيه، يغوص في زيتون عينيها بدجنته

يسبر أغوارها ولا يعلم لم لا يشعر بالارتياح ناحيتها.. حك شعيرات ذقنه الشبه نابتة في تمهلٍ

ليخرج عن صمته بهزة رأسٍ هادئةٍ في إيجاب صامت ومازال على وضعه يحتجز عينيها المتذبذبة داخل حصونه لتنطق بآخر ما قد يجول في خاطره..

- أنا معايا لك رسالة عن لسان فريد صبري.. والدك.

وإن كان الأموات يُبعثون من قبورهم لأجل إرسال الخطابات لذويهم..

فإن أباه قد فعل!



(٤)

تأتي الصدماتُ أحيانًا مثالًا للسخرية.. لوثة، محضُ خبال أو خرَف، لا فارِق، تعدّدت المُسمّيات والنهايةُ واحدة!.. في جميعِ الحالاتِ لا يستوعبها عقلٌ وعادةً يكون ردّ الفعل مساوٍ لمقدارِ ما استمع من هراء..

وهو ضحِكَ وتهكّم ونالَت الضّيفة نظراتٍ لخّصها الجُنون..

- نعم ياختي!

زجاجات المشروبِ الفارغة المرتكنة في جميعِ الزوايا، وأعقاب السجائر الملقاة بكثرةٍ فوقَ الأرضيّة جعلتْها تستعيدُ رعشةَ جسدِها وقتَما



وطأتْ بقدميْها داخلَ الحارةِ الضيقة، فقابلتْها الأبنيةُ الأقربُ للمهجورة والمتهالكة مع الهدوءِ المريب والمخيم على الأنحاء، كأنّما المكان برُمّته اجتُثّ من حِقبةٍ ما وجارَ عليه الزمن؛ فبات لا يناسب سوى السّكارى وقطّاع الطرق..

تناهى لمسامعِها صوت خربشاتٍ من خلفِ البابِ الموارب فتسابقَت أناملُها في إخراج ورقةٍ مطويّة من حقيبتِها الأنيقة، قدّمتها بأنامل مرتعشةٍ وكلماتٍ مقتضبة:

- ده عنوان المستشفى الموجود فيها، ممكن تتفضل حضرتك تيجي تشوفه بعدين نتكلم؟

ودون إضافةٍ ولّت الدبُر مع تنهيدةٍ كبيرةٍ، وعرقِها البارد تستشعرُه يهطلُ على طول عمودِها



الفقريّ بموازاة ساقيها المتخبطتيْن والمتعثرتيْن فوق الدرجاتِ الأقرب للحُطام، لتُقابلها امرأةٌ متخصرة بتحفّز في وقفتِها أمام بابِ شقّتها غير آبهةٍ لما ترتدي من ثياب ملتصقةٍ بحناياها، وفُتحت من كلا الجانبيْن على طول ساقيْها ففضحت أكثر ما سترت، تُمشّطها بعينيها النجلاويْن وبين شدقيها تلوك علكة بطريقة مقززة.. تجاوزتها بتنهيدةٍ ثانية وداخلُها تقسم أنّها لن تطأ مكانًا كهذا مرة أخرى.

بينمَا في الأعلى كان يُقلّب بين أصابعه تلك الورقة، وعيناهُ تضيقُ فوقَ الحروفِ المنقوشةِ وتمرّ بتمهّل، ليمطّ شفتيه ممتعضا في النهايةِ وهو يرفعُ بصرَه في إثرِ الراحلةِ :



- يخربيت الصنف..

ثم مالَ برأسِه بعضَ الشيء، وهو يُمرّر إبهامَه أسفلَ شاربِه مع ابتسامةٍ خبيثة مُردفًا لحاله:

- بس الحق يتقال.. وتكه!

لفظَ حروفَ كلمتِه الأخيرة بتمهّل واضِح قطعَه ظهورَ صاحبةِ العِلكة بملامح مستنكرة، وبالسبابةِ والإبهامِ كانت تُحيط جانبَ وجهِها وتهزّ رأسَها بهتافٍ محتدّ:

- ودي كمان تطلع مين يا سي حسن؟

حدّجَ بابَ الغرفةِ الموارِب بسرعةٍ قبلَ أن يقتربَ من تلكَ الدّخيلة، ويعودُ بها للخلفِ مُتَوارٍ بها



عندَ أولى الدّرجات، يلتصقُ بجسدِها مرتكزًا فوقَ الجدارِ.. ويعنّف بأنفاسٍ ملتحمة:

- مش قلنا يا ميمي رجلك ماتخطيش السطوح ولا لازم نعيد ونزيد في المحكى؟

بشهقةٍ ونصف شفاه ممتعضةٍ كانَت تُجابه:

- لو سكت عن اللي جوه أوضتك بقالها كام يوم مش هسكت عن آلافرانكه اللي لسه نازله.

فركَ بإبهامِه شفتيْها المصبوغتيْن بحمرةٍ صارخة ذات ثمنٍ زهيدٍ وهمسَ بتحذير:

- ششششش وطي صوتك.

انتصبَتْ في وقفتِها وحطّت بكفّيْها فوقَ صدرِه، تسبر أغواره بنظرة متفحصه:



- ايه حوار البت اللي جوه عندك دي يا حسن؟

عاد يرطمُ جسدَها برفقٍ في الجدارِ مُجيبًا بهدوءٍ وثغرٍ التَوى بمَكر:

- الحوار مالكيش فيه يا ميمي.. وانزلي من فوق وداني عشان مابحبش الزن وأنتِ عارفة.

جعّدَت جبهتَها وغمغمَت باستنكار مبالغ فيه:

- يوووه أنا خايفة عليك.

وأعقبَت كلماتها بمصمصةِ شفاه ليحيطَ خصرَها بذراعِه في إقرارٍ أخير:

- أصيلة يا ميمي بس بردو الحوار ده بالذات ملكيش فيه.



زاغ بصرُها لثوانٍ في تنهيدةٍ مُفتعَلة، وهي ترفعُ ذراعيْها تُحيط عنقَه لتُدير دفّة الحوار مُرغمَة:

- جاي الكباريه النهاردة؟

- تؤ.

وازَى أناملَه العابثَة فوقَ مفاتنِها تملّصها منهُ ودَفْعة مدلّلة:

- بشوقك.

ليقطعَ دلالَها قُبلة قويّة أسكرَتْها لثوان، قبلَ أن تدفعَه بعيدًا، وتشهقُ قبلَ رحيلٍ متعجّل:

- يالهوي زمان الحاج صحي.

- والله الحاج ده له الجنة.



أوقفَتها كلماتُه الساخرةُ بعبثٍ لتزجرَه بعينيْها، ومن ثمّ تابعَت قفزاتها فوق الدرَج و..

ميمي امرأةٌ في آخر عقدِها الثالث بملامح لم ترتقِ لمرحلةِ الانهيار، لكنّها حتمًا تملكُ شيئًا من أنوثةٍ جعلتْها محطّ لبعضِ الأنظار، تزوّجت من الحاجّ فاروق الذي تخطّاها في العمر بأكثر من ضِعف عُمرها،

لكنّه يمتلكُ من العقارات ثلاثة: أوّلهم هذا الذي يقطنان فيه،

ويمتلكُ سيارة الأجرة التي يعمل عليها الجار العازب كواجهة جيدة لخلفية وحدَه يُدرك تفاصيلها..





لتنتهيَ أخيرا داخلَ شقّتِها تتنفّسُ الصُّعدَاء،

ويعودُ هو أدراجَه لتلكَ القابعةِ فوقَ الأرضيّة

تُسطّر خطابَها المُطمئن، بعدما ضبطَ هندامَه،

وبصَق العلكَة من بين شدقيه!

* * *

أعلى الفراشِ تضُمّ لصدرِها دُمية ضَخْمة تَدفنُ

فِيها وَجهَها وأنفاسَها الحارّة، تتَململُ في ضجرٍ من

جهةٍ لأخْرى ثمّ تنفثُ بحرارة، افتضحَ الأمرُ

ومزحتُها السخيفة باتَت مَشاع على مَرأى ومَسمعٍ

من الجميع.. لاحَت الذكَرى في أفُقِ الذّاكرة

فعضّت فوقَ شفتِها السّفلى وخنقَتْها الغُصّة..

اقتحامُ والدِها لغرفتِها بعدَ دقائق قليلةٍ من

اختفاءِ شقيقِها المُتلصّص على ثرثرتِها، ولجَ وفي



عينيْه وعيدٌ إن لم تُفصحْ عمّا تُكِنّ بداخلِها من أسرار، وهي لم تكُن لتخفيَ الأمرَ أكثر، لذا استقامَت في وقفتِها،

واستكانَت بطأطأةِ رأسٍ،

ولسانُها يسردُ ما في جوفِها من كلماتٍ بصوتٍ مهتز:

- والله يا بابا كان صغير ومش سام..

اقتربَ يرفعُ وجهَها، ويسألُ محاولًا ربطَ الخيوطِ ببعضِها دون أن يفقدَ أعصابَه، ويهدرُ بغضبِه في الواقفةِ أمامِه والخوف يغشَاها:

- غِنى احكي لي حصل إيه من البداية..

وماتخافيش يا حبيبتي.



رفعَت عينيْها، والكلماتُ تقطرُ من بين الشّفاه في استرسالٍ كامِل لما حدَث، كلمات جعّدت جبينَ الواقفِ قبالتها، لتُنهيَ اعترافَها المُخزي بما يصولُ ويجولُ في دهاليز عقلِها، وكاد يُفقدها الصواب:

- ماعرفش إزاي خرجت والباب مقفول؟.. أنا هتجنن يا بابا ومش فاهمة ده حصل إزاي، نطت من التراس مثلا!

راقبَ قسماتها المذعُورة لبُرهة قبلَ أن يضُمّها لصدرِه' وبصرُه يرتفعُ تلقائيًا ويحُط فوق الشّرفة عقبَ كلماتِها' وفي عقلِه بدَأت تتّضحُ بعضًا من النقاطِ المشوشة:

- خلاص اهدي وأنا هتصرف.

- بس دادة أنيسة تعبانه قوي وأنا السبب..

صمت حين لم يجد جوابا، فالأمر أعقد بكثير من شعور الذنب الذي يجتاح صغيرته!

وها هي مضَت أيّام تلوَ أخرَى ولا جديدَ: الغائبَةُ مازالت غائبةً والأمّ المكلومةُ تتلحّف بفراشِ المرضِ، ولا تقوَى على نُهوض، وفقط تهمسُ كلّ حينٍ في توسّل بعودةِ ابنةِ قلبِها قبل أن يأخذَ الله أمانتَه برجاءٍ خالِص من خالقِها، بعدما فقدَت الأملَ في من حولَها من بشَر.

***

من خلفِ مكتبِه العريضِ كان ينكفئُ على حالِه ورأسُه بين كفّيه، يدورُ في حلقةٍ مُفرغة منذ أن أدركَ الأمرَ أو بالأحْرى خطورةَ الأمر.. ولَجت



زوجتَه تجلسُ أمامَه' وفي عينيْها ألفَ سؤالٍ قطعَهم هو باستفسار:

- عاملة إيه دلوقت؟

هزّت رأسَها بأسفٍ وهمسَت:

- الست تعبانة قوي.. مفيش أي تحسن في حالتها.

نهضَ من جلستِه، وجلسَ قبالتها يمسحُ فوقَ ملامحه القلقة
بكلا كفّيه:

- يسرا مش عايزك تخرجي خالص لا أنتِ ولا الأولاد من غير حراسة.



عقدت حاجبيْها، وتحفّز جسدُها بغتةً، وهي تتذكرُ طاقمَ الحرّاس الجديد الذي انضمّ للقديم فباتَت الحديقةُ الأماميّة والخلفية تعجّ بهؤلاء ضخام البنية..

- فيه إيه يا شهاب قلقتني؟

- نسمة ماختفتش يا يسرا.. نسمة اتخطفت!

دمدم دون مقدمات، رفعت أناملها فوق فيها المفغر تكتمُ شهقةً صامتة، ولسانٌ كأنما أصابه الثقل فبات لا يقوَى على حِراك، ليُتابعَ هو سرد ما توصّل له في نهاية المطاف:

- وكانت المقصودة غِنى مش نسمة خالص.



تحرّرت شهقتها فباتت مسموعة بهلعٍ زيّن قسماتها الهادئة ولسان تلجلجت حروفَه:

- أنت بتقول إيه يا شهاب؟! أنا.. أنا مش فاهمة حاجة.

نهض من جلستِه يتمسّك بكتفيْها يحاولُ بثّ أمانٍ
لا يمتلكُه في لحظتِه هاته:

- اهدي يا حبيبتي واطمني محدش يقدر يئذيكم أنا أمنت الفيلا كويس، المهم دلوقت أوصل للبنت المسكينة قبل ما حد يئذيها.

- أيوة بس.. مين قاصد يئذيك بالشكل ده!



في وجومٍ رفعَت له رأسَها تُطالع ملامحَه المتجهّمة، ليأتيَها الجوابُ بنبرةٍ أكثر وجومًا، وعقل لا يتوقّف عن العمل والتفكير:

- حبايبنا في المجلس كتير.

وشردَت عيناهُ تفنّد وتُعيد القطع المنقوصة لمحلّها في تناسق لتبرزَ في النهاية عدة صور جميعها تطيح بأمانِ بيته واستقرارِه.

* * *

وقتما تتحالفُ الشياطين.. نقولُ على الدّنيا السلام



تشبّ ألسنةُ اللهبِ وتتكاتفُ الأدخنةُ السامّة، فيتبدّل النقاءُ لقتامةٍ تسقطُ كل منشودٍ في لظَى السّعير..

من خلف مكتبه الأبنوسي الكبير كان يستكين فوق مقعده بأصابع متشابكة أمامه، يحاول سبر أغوار الجالس قبالته فتقابله سياج من فولاذٍ غرزها في أرضه الصلدة فلا تبصر عينٌ ما يواريه خلف قناعِه المبهم..

يراه يجلس أمامه بأريحية تامة، يضع ساقًا فوق الأخرى بنزقٍ لا يناسب اللحظة.

عطر نسائي اقتحم السكون وقطعَ النظرات الصامتة في خطوات ناعمة تشبه صاحبتها،



قدمت واجب الضيافة كما طلب رئيسها مع ابتسامة هادئة وغادرت.

- اتفضل يا حسن.

قابل حسن نبرته الهادئة بهزةِ رأسٍ صغيرة تناول عقبها الكأس من فوق المنضدة، تجرّع العصير البارد دفعةً واحدة، وعادت نظراته تقيم الحجرة من حوله، يترك البداية لصاحب الدعوة والمكالمة الهاتفية غير المتوقعة، مكالمة على إثرها ترك حديث الضيفة المخبولة جانبًا وطوَى داخل جيب سترته القاتمة ورقتَها برفقة خطاب الساذجة الأخرى وترك كليهما لحين إشعار آخر.

- ناوي على إيه مع البنت؟.. مش معقول تفضل حابسها عندك على طول!



وكانت تلك البداية..

استقر بصره فوق نظرات الرجل الجادة،

والمفاجأة لم تكن من نصيبه،

هو يعلم أن حلمي الجمال ليس كأيوب، نظراته الحادة كعيني صقرٍ وهيبته الطاغية يؤكدان ما يجول في خلده، وإن ترك له البداية ذلك لا يعني أن بيادقه خاسرة..

- ناوي أأمن نفسي.

واللعب بالأوراق المكشوفة أفضل لكليهما..

- ومش خايف كل ده يتقلب ضدك؟ دي جريمة خطف مع سبق الإصرار والترصد مش هزار.



بقسماتٍ تبدو مرتاحه تشبه هدوء الآخر أتى جوابه الواثق:

- ماتشغلش بالك الموضوع عندي.

صمت الرجل للحظاتٍ بينما يدُه تجذبُ من أعلى المكتب
علبة السيجار خاصته، تناول واحدة وقدم لضيفه أخرى:

- الثقة الزيادة أحيانا بتغرق صاحبها بس..

أشعل التبغ ونفثَ دخانه في تمهّل مدروس مُردفًا:

- أنا واثق فيك.



رفع حسن رأسه للأعلى يسحبُ شهيقًا طويلًا وينفثُ دخانه بدورِه، وبسمة مبهمة اجتاحت ثغرَه قبل أن يعودَ له، ونبرتُه الجادّة تتربّع فوق عرش الحديث تلك المرة:

- مش أعرف بقى الباشا طالبني ليه؟

غمغم في الحال:

- عايزك تكمل اللي ماكملش، ومن غير أيوب، المرة دي الحكاية بيني وبينك.. لأ.. من هنا ورايح الكلام هيبقى مني ليك وبس.

عدة نقرات من أصابعه طالت سطح المكتب بعد صمتٍ دام لبرهة يُدير في عقله ما استمع من كلمات متلذذ بفحوها:



- بس كده أيوب يزعل.

وبإقرارٍ أخير من حلمي تنصب هذا وانتهى آخر:

- أيوب خلاص راحت عليه.

صمت حسن ينتظرُ منه البقية.. فمالَ الرّجل بجذعِه للأمام كأنّما تلك المرة يرفض الوقوع في الخطأ أو الإتيان بالأمر منقوص:

- الإنتخابات على الأبواب.. عاوز شهاب كارم يلف حوالين نفسه، أقل خبطه توقعه..

عاد للخلفِ من جديد وأردف ملقيًا بالكرة في ملعب الآخر:

- أنه يكون فايق ده مش في صالحنا بعد الكارثة اللي عملتوها.



ضيّق حسن حدقتيه محاولاً تفنيد كلماته والحقد الذي يقطر منها ليدمدم بعدها في تساؤل بدا منطقيًّا:

- بنته بردو؟

- ممكن نجرب سكة تانية.. مراته مثلاً.

لفظ حلمي جملته بهسيسٍ مدروس وصمت الآخر هنيهة التقط فيها بداية الخيط وألقاه من فوره للجالس قبالته:

- خطيب سابق ندخله على الخط طعم كويس..

وأتبع جملته بصفير خفيضٍ يعي اختمار الحكاية في عقل الداهية، مردفًا:

- ننخر في الأساس فيقع المعبد على اللي فيه.



قهقه الرجل وجلجلت ضحكاته في أركان الغرفة قبل أن يسحب شهيقًا آخر من تبغه الثمين و ينفث دخانه من جديد في وجه محدثه وهو يشيد بقدراته:

- مذاكر كويس يا حسن.

وبهزة رأس صغيرة وتلاقي جفنيْن بأمر مسلم به:

- من بعض ما عندكم يا باشا.

والعقد تم إبرامه والتحالف قد كان، والمقابل لم يكن فقط بضع حفنات مالية لا تنقص من الأول شيء و تغوي الآخر، بل كانت مكانة حظيَ بها جوار سيده فينالُ بقربه الصيت قبل الغنى.

* * *



وبينما تتحالف أرواح وتتآمر بمباركةٍ من الشياطين نجدُ أرواحًا أخرى أصبحت معلّقة في الحياة بحبالٍ واهية، ربّما في رقودها الساكن تنسج خيوط الوصال مع خالقها في رجاءٍ خالص حتى يتقبّلها في واسع رحمته ويتغمدها في جنته..

من خلفِ الزجاج الكبير لغرفة الإفاقة كانت تتطلع بعيونٍ كساها الحزن، زفرة حارة أطلقتها قبل أن تتحرك لأقرب مقعدٍ تجاور والدتها ذات الملامح المتعبة، تُربت فوق فخذها بمؤازرة وتمنحها بسمةً رغم هوانها عنوانها الأمل فتردها لها بأخرى يائسة، لتنهض بعدها تتطلع بدورها على الراقد بلسان يبتهل في الدعاء.



حركت رأسها للجهة الأخرى تُراقب أخاها ذا الخمسة عشر عامًا، بين يديه هاتفه الحديث ينقر فوق لوحتِه ولا يفتأ يفارقه حتى يعودَ للعبث به من جديد، تنهدت في قلة حيلة وهي تسحبه من بين أصابعه وتهمس له دون رضا:

- كفاية يا أنس.. عينيك هتوجعك.

تمطّى في جلسته وهو يخبرها من خلف عويناته الطبية المؤطرة:

- أنا زهقت..

وأردف بكتفين متهدلين:

- هو بابا مش هيفوق بقى!



عبثت أناملها في خصلات شعره الكثيفة في محاولة لطمأنة الصغير

وإن كانت الحقيقة عكس ذلك:

- هيفوق ويبقى كويس.. مش أنت بتدعي له؟

ببسمة ملاطفة وأنف مكرمش داعبته، ظل يقف بالجوار جعلها تتوقف عما تفعل، ولم يحتاج سوى نظرة منها حتى تعرف من يكون، اقتربت من أذن أخيها بهمسٍ خافت:

- أنوس إيه رأيك تحاول مع ماما تروحها ترتاح؟

نفخ وهو يتحرك يلبي ما طلبت في ضجر مُدمدمًا:

- مش هتوافق.. ومع ذلك حاضر هحاول.



أطبقت جفنيها وأخذت شهيقًا طويلًا قبل أن تنهض وتتحرّك ناحية الواقف وفي عينيه نظراتٍ تشي بالكثير، تستعد لمواجهة كانت على يقين بحدوثها.. واجهت تحفّزه في وقفته ما إن دنت خطواتها منه لتعاجله بالقول:

- خير يا نديم في حاجة؟

في ثوان كان يقترب بغتة منهيًا ما بينهما من فراغ ليهدر فيها من بين ضروسه بغضبٍ يجاهد لمداراته احترامًا فقط للمكان من حوله:

- هييجي منين الخير وأنتِ مصرة تتصرفي من دماغك!



تظاهرت بالجهل لما يرمي إليه وحرّكت رأسَها بعدم فهم، لكنه لم يمررها:

- أنتِ مجنونة يابنتي؟..

- نديم!

- إزاي تروحي له يا ميسون رغم أني حذرتك؟

- أنت بتراقبني!

نطقتها باستنكار ليجابه استنكارها بقبضة التفت حول رسغها بقوةٍ هادرا فيها بلوم:

- أنتِ مش عارفة ممكن يحصلك إيه في منطقة مشبوهه زي دي؟ افرضي حد اتعرض لك، ازاي أصلا تثقي في واحد زي ده وتروحي لحد عنده برجليكي!





أبعدت أصابعه عن رسغها وأخذت تمسد موضعه بينما تحدجه بنظرات لائمة ثم هتفت بعناد وإقرار أخير:

- أنا علشان بابا فريد أعمل أي حاجة.

عاد خطوة للخلف يمسح وجهه بكفيه، يطلق أنفاسَه الحارة علىّ ثورته المشتعلة تهدأ قبل أن يعود لها بنظراتٍ حازمة:

- ميسون من فضلك ما تكرريهاش.

- نديم من فضلك أنت...

قطع جملتَها الصارمة رنين هاتفها المتعالي لتستلّه من داخل جيب بنطالها ترمقه لثوان وتعود



تطالع الواقف قبالتها وتتمّة جملتها يبطنها الكثير:

- بلاش تتدخل في حاجة ماتخصكش.. حاجة ماكنتش هتعرفها لولا إصرارك.

أنهت جملتها وتحركت بالخطى تهمّ بهرب سريع ورغم ذلك جملته المقتضبة وصلتها بوهج متملك:

- أي حاجة تخصك يبقى تخصني.

بأحقية عاشقٍ يضعُ القوانين ويأمرُ بالخنوع..

بأحقية شرقيّ يسعى لتملك صك معشوقةٍ وإن كان سبق وتملّكته أخرى!

* * *



الفضول من أهم السمات التي يمتاز بها بنو البشر..

وربّما هو تطلع لما هو أكثر، ولم يكتفِ بفضولٍ ناوش عقلَه،

فحملَ حاله عقب ما انتهى من مقابلته التي باتت هامّة

مع رئيس عمله الجديد، ليقف أمام بوابة المشفى التي تحمل العنوان بالورقة بين أصابعه،

ورغم أن الأمر محسومٌ من ناحيته، فهو على يقينٍ أنه مجرد سوء فهم وبضعة أمور مغلوطة من قبل صاحبة شذرات الزيتون لكن ذلك لا ينفي مظهرها الذي يبدو عليه الثراء الفاحش، فثيابها الباهظة تحكي هذا و يشيد على ذلك



ساعة معصمها الثمينة.. لما إذا لا يهديها قربًا هي من سعت له لربّما نال من ورائها أي طائل؟

في النهاية هو رجلٌ حتى في عبثِه يتبع قانون المنفعة قبل المُتعة!

دقائق قليلة مرت عقب ما هاتفها على الرقم المدون أسفل العنوان

حتى ظهرت أمامه فجأة، تُقابله بقسماتٍ قلقة وتمد له يدها في مهمة تعريف آن أوانها:

- ميسون الجندي.

هزة رأس صغيرة جلّ ما نالت لتُعيد خصلة شعرِها الشّاردة خلفَ أذنِها في توتّر بثّه فيها ذاك



المتملك، جاهدَت لتتغلّب عليه بتنهيدةٍ قوية وعادت تُردف لمقابلها بهمسٍ ثقيل مشتت:

- ممكن نتكلم الأول؟

وأردفت بإيضاحٍ سريع:

- علشان الصورة توضح لك أكتر.

ونبرتها المتوترة لم تعجبه بل أثارت توجّسًا ما بداخله، ورغم ذلك اتّبع حدسه الذي يسعى لما هو أكثر..

وبملامح لا تشي بشيءٍ ترك لها القيادة..

بعدها كانا يجلسان حول طاولةٍ مستديرةٍ في كافتيريا المشفى، تبلّل شفتيها بطرف لسانها



وتسحبُ شهيقًا طويلًا قبل أن تبدأ في الحديث وأصابعها تشاركها الوصف:

- جايز بتقول عليّ مجنونة، أنا بس مش عايزه منك غير تسمعني للآخر من غير مقاطعة.

ضاقت حدقتاه مع هزة رأسٍ صغيرة في إشارةٍ منه حتى تبدأ..

وتحدثت..

تحدثت عن رجل عانى الأمرّين في مهمة بحث دامت لسنواتٍ طوال حتى عثر على ما فقدَ وأضاع في النهاية،

تحدّثت عن سوء حظٍ صادفه فحين وجد مبتغاه تعرقلَت حالتُه الصحية، فسقط داخل



هوة المرض والعجز.. تحدثت وتحدثت حدّ أنها استحدثت له شقيقًا من العدم تخبره عنه ببساطة، بل استفاضت في الحديث حتى وصلت لشقيقته وأمّه تتحدث عنهما كأنها تعرفهما بحق!

ظلت تتحدث حتى تملكه الوجوم للحظات وبكلماتها لم تتضح أي صور؛ بل تضاربت جميع الصور في بعضها،

فبات لا يميز الخبال من الحقيقة، ولأنه لا يمتلك مخزونَ صبرٍ لهكذا حديثٍ و قد ضاق ذرعًا من الأمر برمّته، نهضَ بغتةً يقطعُ حديثها المسترسل دون توقّف بهتافٍ أشبه بزعيقٍ صارم:

- عايز أشوفه.



وعقب كلماتِه نهضَت دون أن تنبسَ ببنت شفه تتقدّمه بالخُطى، ولحقَ هو بها بذات الصمت حتى انتهى بهما الأمر خلف الزجاج العريض..

ولمحة أولى خاطفة، تبعتها لمحة أخرى أكثر تركيزًا، ليزدردَ لعابه وتضيق حدقتاه في استهجان لملامح الراقد من خلف الزجاج دون حراك، ولولا حضور تلك الذكرى البعيدة المشوشة والصور المهترئة الملقاة في قعر الصوان المتهالك بغرفة شقيقته، لما كان وجودًا لذلك الشبه الذي يبصره الآن ويراه رؤي العين المجردة.

كانت تُتابع تحوّل قسماتِه من متفحصةٍ لأخرى متعجبة ثم أقرب للصدمة.. وبعد حين أيقنَت أنه أخذ مساحته الخاصة، فاقتربت تستكملُ



الحديث بإجابةِ سؤال ربما هو يدور في دهاليز عقله الآن:

- جلطة.. الدكاترة قالوا الوضع صعب لكن عندنا أمل الأزمة دي تعدي على خير.

ربما بكلماتها أرادت بث شيء من طمأنينة ففي النهاية هو والده وإن مازالت ملامحه تستنكر ذلك.. أما عنه فآخر ما قد يرغب في معرفته في هاته اللحظة هي حالة والده الصحية.. **والده المتوفي منذ قرابة العشرين عامًا!**

لذا ودون الاستماع لكلمةٍ أخرى كانت خطواتُه تنهب الأرض، تتقلص المسافات وهو على حاله يحيَا في دربٍ من الهوسِ والجنون حتى انتهى



أمامها، هي وحدها من سترسو به فوق ميناء الحقيقة.. وحدها سيصدقهُ القول.



(٥)

والغربة غربةُ نفوس..

نفوسٌ هدمها مِعول القهر فطمرها الزمنُ أسفل تربةِ النسيان، نفوسٌ باتت تحيا كهلامٍ يحومُ بمسمى حياة، والنبشُ في تربةِ ماضيها لن يُخرِج سوى العفَن.

- ربنا يستر.. ابنك داخل علينا بزعابيبه.

همست بها سماح بقسماتٍ متوجسة لتلك التي تجاورها فوق الأريكة أسفل النافذة، وبين أيدهم كوبين من الشاي الثقيل تتشاركان أمسيةً هادئة.. أو هكذا كانت قبل ولوج شقيقها بملامح مكفهرة تشي بنُذر غيرِ مبشرة.



اعتدلت أمها في جلستها تهلل لحضورِه بمحيّا متبسم كعادتِها، واقترب هو منها يُقابلها بوقفته المتحفزة، كانت تسمعُ هديرَ أنفاسِه الحارة من فوقِها حين تساءلَتْ:

- مالك يا حسن؟ اقعد يا بني خد نفسك.

صمتَ ولا يدري من أين يبدأ الحديث، فقط دارَ بصرُه بين شقيقته المتوجسة وأمه القلقة، لذا بعد برهة اختصر البدايات

وخاضَ في أصلِ الحكاية دون مقدمات بسؤال مباغت:

- هو أبويا مات إزاي!



ارتعدت أصابعها المحيطة بكوب الشاي الساخن وهي تبحثُ عن المنضدة أمامها في تعثّرحد تناثر القطرات فوق كفّها، لتسارع سماح بتناولِه منها، وقد غادرَها توجسها ليحل محلّه الوجوم بينها وأخيها، لتُجيب هي بدلًا عنها ببديهية:

- ما أنت عارف أنه غرق مع اللي غرقوا يا حسن في إيه مالك؟

- اسكتي أنتِ دلوقت.. ردي عليا يا أمه الله لا يسيئك.

لفظها بلسان غاضب غادره الصبر، وصوت أمه المهزوز يكسر الصمت الثقيل:

- ليه السؤال ده ياحسن؟



وهه ساخرة، مستنكرة خرجت من بين شفتيه، جاورها من الجهة الأخرى بعينين شاخصين أمامه في الفراغ، ونبرة صوته باطنها الصدمة قبل السخرية:

- عشان شفته..

ودار لها برأسه مردفًا بهمسٍ مشتت:

- شفته زي ما أنا شايفك دلوقت.

طأطاتْ العجوز برأسِها وبسمةٌ باهتة اجتاحتْ ثغرَها، بينما أناملها تتناقلُ بين حبيبات المسبحة في حِجرها، وفي داخلها تعلمُ أن الحقيقة آن أوانها حتى تتعرّى، آن للدفاتر العتيقة أن تنفض عنها غبارها وتخرج سطورها للنور..



آن للماضي أن يقتحم الحاضر..

- هتصدق اللي هقوله يا حسن؟

نطقتها بجمودٍ ليأتيها الجواب بأكثر منه:

- وإمتى ماحصلش يا أم حسن!

وجاء دور الواجمة الأخرى فدارت لها برأسها ودمدمت:

- هتصدقيني يا سماح؟

وكأنّما بعينيها المعتِمة رأتْ هزة رأسها الصغيرة لتطلق زفرة حارة، وتبدأ في سرد البداية:

- إتجوزت أبوكم وأنا بنت سبعتاشر سنة...

أضواءٌ وزغاريد ترجّ أركانَ الحيّ البسيط،

تُعلن عن اقترانِ نجلِ الأول الحاجّ (صبري



عيسى)

على كريمةِ الثاني الحاجّ (إبراهيم توفيق)..

مراسِم بسيطة بدأتْ وانتهتْ خلال ساعتيْن لا أكثر ليغلقَ عليهما بابٌ واحد، ويبدأ كلاهما عهدٌ جديد. كان نِعم الزّوج لا تُنكر، سافرَ وتغرّب لأجل لقمةِ العيش، كادحَ لأجل حياةٍ كريمة يبغيها برفقةِ عائلتِه الصغيرة، يغيبُ لشهورٍ طوال ويعود لكنفهم شهرًا واحدًا في السنة ليُلملمَ بعدها متاعَه ويرحلَ من جديد، وعلى ذاك المِنوال دارت طواحينَ الحياةِ لتسعِ سنواتٍ كاملة..



- كان عيلتي اللي اتحرمت منها بدري، كنت بتقي الله فيه وفي أهله. سافر يابني وسابك في حضني حتت لحمة حمراء، فتحت بيته وصنت عرضه...

هي صانت وغيرها اعْتَدى.. غيرُها أباحَ لنفسِه الخوْضَ في الشّرف والطّعن في العرض.. ابن العم إن صحّت المسمّيات بعدَما رفضّت الزّواجَ منهُ وقبِلت بمَن مالَت له النفسُ والقلبُ، قرّر الثأر بأَرْذل الطرق وأدناها، نجح في زرعِ الشكوك ونفثِ الوساوس في نفسِ وعقلِ الزوج الغائب ليعود بعد فترة غيابٍ طالت عن سابقيها، عاد ليجدها تحمل بين ذراعيها صغيرة تناغي وتطلق الضحكات البريئة، فقبّل الولد ابنَ السّبع وتحاشاها هي والرضيعة، ظلّ على حاله لليلةٍ

وأخرى وهيَ لا تعي من الأمرِ شيئًا،

تسألُ بحيرةٍ فلا تجدُ جوابًا غير نظرةٍ تشملُها

من أعلى لأسفل في استهانةٍ واضحةٍ وبعدها

صمت..

صمتَ حتى تآكلتهُ الظنون وعشّشت بداخلِه

وساوسُ الشيطان، صمت دهرًا وحين نطق..

نطقَ كفرًا

" دي مش بنتي شوفي أبوها مين! "

- يومها دبحني بخنجر مسموم.

ورفعت رأسها تشخص بعينيْها وبصرُها الدامسُ

يستدعي صورًا قديمة ظنّت في يومٍ ما أنها

ستحملها لقبرها دونَما يبصرها أيًا كان، فتيبّس



جسدُها كأن الحديث لا يخصّها، تتحدث عن أخرى لا تمُت لها بصلة..

- بعدها قطع أجازته اللي مكملتش شهر وسافر.. وبعد أسبوع كانت ورقتي عندي.

وفي ليلة وضُحاها باتت مُطلقة.. مطلقة دونما سببٍ واضح يلجمُ ألسنةَ البشر، سبب يحجبُ عنها نظراتِ الاتهام من أقرب الأقربين.. وابن العم عاد يظهرُ في كادر الصورة بعد ما نال مبتغاهُ ليطلبَ القربَ فمن غيرُه أوْلى بسترِ عرضه!

ولأن تسليم مقاليدها لخسيس أمرٌ مُحال، ولأنّها امرأةٌ خاسرة في جميعِ الأحوال حملت



الرضيعة وتشبّثت بكفّ الصغير وتحتَ جُنح

الظلامِ والكل نيام غادرت.

تركت البلدة والأهل..

الذكرى الحلوة قبل المرة وغادرت..

قدمتهما على نفسِها، غزَلت لهُما حياةً جديدة

وسَط زحمةِ البشر وتناسَت الماضي بمَن فيه..

ولأجلِ الحفاظ على ما تبقّى فيها مِن خرابٍ حتى

يشبّ الصغار مرفوعيْ الرأسِ لا يعرفُ لهما

الخزي سبيل تلحّفت برداء الأرملة.. أرملة بكَت

زوجها الغارق مع الغارقين في السفينة المنكوبة

حتى فقدَت بصرها..



لكن في الحقيقة هي بكَت نفسها حتى فقدتها وفوقها البصر.

- بعد عشر سنين مات الخسيس بالطاعون ورجع الغايب يدور على اللي فاته.. راجع متجوز ومخلف.

وطال الصمت لساعة ربما أو أكثر، طال حدّ اختناق الكلمات وتشتّت العقول.. حتى تكلم، بجسدٍ متصلب ولسانٍ ثقُلت حروفه كان يهذي:

- وسكتي ليه! ليه ماتكلمتيش طول السنين دي؟

غلبتها الغصة، وتحشرجت النبرة بقهرٍ عاد يطفو فوق قسماتِها فماتت الحروف في عتمة الحلق قبل أن تصلَ لبر الشفاه..



ليأتي صوت الجامدة الأخرى بلا حياة، هي من عاشت طيلة عمرها تتمنى وجوده، لطالما ظنت أنه لو كان هنا لتغير عالمها كله والآن وقتما عاد...

وليته ما عاد..

- كان لازم تتكلمي.. كان لازم تنصفي نفسك.

عن أي نفس تتحدّث ابنتها بتلك الحُرقة؟ عن نفسٍ استوطنها الوجعُ حتى استعذبته فعشش فيها الخراب، عن نفسٍ غادرتها الحياة منذ زمن، وبقاؤها صامدة حتى لحظتها هاته لا يعني أنها تحيا بالفعل، نفسٌ غريبة عنها ولا تُشبه تلكَ التي تعرفها، نفسٌ نحتَتها من بينِ جدران روحها الخربة حتى تصنعَ لهما البيت والكنف والعائلة.



- ياريتك اتكلمتِ..

وكان الرجاء من بكرها بنبرة خفيضة باطنُها الحنق والغضب الذي اشتعل بغتةً فعاد يزعقُ أمام وجهها وذراعاه يلوّحان في قلة حيلة:

- دلوقتي أجيب لك حقك من واحد بيموت إزاي!

زعقته نفضَتها، فأخذَت أصابعها تهندمُ شالها فوق رأسِها دون وعي، ولسانها يتعثر في كلمات غشّاها الخزي والعجز رغما عنها:

- كنت عايزني أقول إيه يا حسن؟ أقولك أن أبوك...

قاطعها بصراخ وحرقة:

- ماتقوليش أبوك.. أنا أبويا مات وشبع موت.



قال جملتُه وغادر بعاصفةٍ أشدّ ضراوة.. غادرَ بعدما فتح أبوابَ الماضي على مصراعيها، لتتقاذفَ الذكرى المغموسة بالوجعِ من كل حدب وصوب، وتنهال فوق رأس امرأةٍ استكثر عليها الزمنُ البقاءَ أسفل رُكام النسيان.

***

إنكار كان أم استنكار: يبطلُ أصل الشعور حينما تجتمعُ الدلائل وتشيرُ كلها لذاتِ الشيء، مهما كرهتَ التصديق وتجاهلتَ حدّ أن حجبتَ نفسَك داخل بؤرةِ التغافل، وتلّحفت برداءٍ من اللامبالاة.. في النهاية ورُغما عنك يحاصرُك الواقع داخلَ حيّز الحقيقة..



فوق الأرضيّة الصلدة ترتكزُ بركبتيْها بينما ذراعاها

يتحرّكان بقوة تارة للأمام وأخرى للخلف.

تدعكُ الأرضية بكل ما فيها من قوة حد تسارع أنفاسها ولهاثها المتحشرج، تنبتُ حبيبات العرق الباردة فوق جبينها فتتسلّل بخبث على طول العنق، هدأت وتيرة حركتها وأخذت في التباطؤ وشردت..

شردت في كلماتٍ يستنكرها عقلها حتى لحظتها هاته؛ ماذا فعلت في دنياها حتى ينكر أبوها نسبها ولا يكتفي فيمضي قدما في الحياة تاركًا من خلفه امرأة كل ذنبها أنها فضلته على غيره، اختارت أمانه وبيته لتؤسس عائلة صغيرة؛ هادئة كانت



أقصى أمانيها، ليرحلَ تاركًا إياها فوق مُفترق طرقٍ جميع سُبلها تؤدي بها لبئر الاحتياج والعوْز، تركَها تُصارع العتمة طيلة حياتِها بعدما قتلَ روحَها كمدًا وقهرًا.

عادتْ حركةُ ذراعيها تتسارعُ بغضبٍ وعجزٍ حدّ أنها فقدَت بهما الشعور، تبغي الصراخ ربما أو الانفجار حتى، علّ ذاك الثقل الجاثم فوق صدرِها يتركُها لحال سبيلها، تُريد الخلاصَ من تلك الكلاليب التي تُطبق على أنفاسها بُغية نزعِها دون رحمةٍ، تُريد...

و أزيز البابِ قطع شرودها لتتنبه للدخيل، دارت برأسها بغتة ليقابلها زوج السيدة الراقدة فوق فراش المرض والتي جاءت بها اليوم

خصيصًا

حتى تقومَ بما تعجزهي عن القيام به فترة مرضها.. حدجته عيناها بنظرات مشتعلة أثناء نهوضها من فوق أرضية الحمام دون تتمةِ عملها، وتحركت أناملها بعشوائية تبحث عن وشاحها حتى تستربه خصلات شعرها الشاردة من عقالها فلا تجده.. خطت ناحية الباب تناشد هروبًا من نظرات الرجل الفجة ليقطع عليها الطريق بوقفته أمامها وذراعاه يحط بهما فوق الإطارمن كلا الجانبين يمنع عنها أي منفذ.. وهي أدرى الناس بأمثاله ذوات النفوس الدنيئة، الطامعين في كل ما هو متاح أمام أعينهم.. وهي لن تكون لقمة سائغة لذاك الرذيل، لذا



اشتعلت أوداجها وهي تواجه عينيه الثعلبية برفعة حاجبين وأحرفها الجامدة تخرج بثبات:

- عديني.

تلكأت نظراته الجائعة فوق عنقِها الطويل ويدُه تسعى لتطاولٍ على خصلاتها بهمس متبجح:

- مستعجلة ليه يا سماح.. مش سماح بردو؟

- إيدك جاك كسر إيدك.

زعقت بها في وجهه بملامح استوحشت وهي تدفع بكفه قبل أن تمسّها وتعود تصرخ فيه من جديد والنبرة أكثر وحشية:

- بقولك عديني وإلا وديني لأصرخ وأفضحك و...

- بس بس.. عدي ياختي يعني هناخد منك حتة.



التوى ثغرُه بمكرٍ وهو يُفسح لها المجال لتمرّ من أمامِه ونظراتُه تتلكّأ من جديد وتكاد تخترقُها من الخلف.. هرَعت تتناولُ وشاحها وحافظةِ نقودها ثم دارت له برأسِها قبل رحيل ترميه بسبّة تليق بأمثاله:

- راجل كلب.

وجاورتها بصقة فوق الأرض لتفر بعدها للخارج دون أن تأخذَ ثمنَ عرقها، فقط استعوضت ربها فيه ونال خبيث النفس على قدرٍ من الدعوات ليس بهين.

عند ناصية الشارع الرئيسي كانت رابضة داخل سيارتها تنتظرها وما إن لمحت طيفها حتى



انتفضت من جلستها..

تقطع عليها الطريق بهتاف متعجّل:

- آنسة سماح؟

دارت بجسدها ناحية الصوت بعنف كأنها تتأهب لعراك ما والنبرة ساخطة دون مجاملة:

- مين تاني أصلها ناقصة!

وحركة رأسها التالية تحثها حتى تتعجل وتعرف بحالها ومبتغاها فلا طاقة بها لغير ذلك.. فاقتربت منها تُلبي رغبتها على عجل:

- آسفة لو جيت كده من غير سابق معرفة بس أنتِ لازم تيجي معايا حالا.

- أجي فين؟ أنتِ مجنونة يا ست أنتِ!



واستدارت بعاصفتها تنوي ابتعادًا فلا ينقصها خبال قطعه ذراع الأخرى يعيق حركتها في توسل:

- أنا ميسون.. أكيد أستاذ حسن حكى لك عن والدك مش كده؟

غامت ملامحها برفض وهي تخلع ذراعها منها بقوة، تنوي ابتعادًا من جديد والنبرة أقرب للقسوة:

- أبويا ميت اللي بتكلميني عنه ده أنا معرفوش.. عن إذنك.

لتعاجلها ميسون وهي تتشبث بها في محاولة لاستدرارعاطفة:



- لأ مامتش وأنتِ عارفة.. باباكي فاق وعايز يشوفك.. والله طلب يشوفك بالاسم.

ومع قسمها كانت تحرك رأسها بتأكيد كأنها تسأل قسماتها المستنكرة التصديق والخنوع ولأنها لم تلقَ جوابًا طرقت فوق الحديد من جديد:

- صدقيني أنا ماعرفش أصل الحكاية.. بس حتى لو عندك حق تعالي معايا شوفيه من باب تحقيق رغبة مريض بيصارع الموت.. ده مابطلش يسأل عنك من وقت ما فاق.

ولا تدري الواجمة كيف ساقتها قدماها لتلبية مطلب الرجل المدعو أبيها.. بنصف وعي كانت



تجاورها فوق مقعد سيارة أنيقة تحركت بهما نحو المشفى المنشود، للقاء حانت لحظته.

***

متكومٌ جسدها فوق الفراش بتيبسٍ واضحٍ كأنما فقدت الحركة..

فقط عيناها شاخصةٌ نحو الفراغِ، تستشعر حالها مكبلةً دون قيودٍ..

حقًا دون قيودٍ؟

تسائلت في قرارة نفسها والذاكرةُ تستحضر ماحدث منذ يومين لتبقَ تدور وتدور داخل تلك الحلقة المفرغة دون جوابٍ..



فما تستشعره ناحية المنقذ الهمام ويخبرها به حدسها سيفقدها الصواب..

أفعاله الغير مفسرة تلك وتهربه الدائم من أسئلتها الغير منتهية..

إغلاقه للباب وتحذيراته المكررة بألا تتخطى حيز الحجرة..

كأنها رهينة!

وحين خالفت أوامره وتخطت الحاجز قابلها المكان الغريب من حولها ليثير في نفسها التوجس أكثر ورُغم ذلك تابعت تقدمها حتى وصلت له.

كان يمارس طقوسه الرياضية ككل يوم لكن



باستفاضةٍ وغضبٍ واضحٍ فسرته ملامحه المكفهرة..

جسده ممدد فوق إحدى آلاته وبين كفيه يحمل أوزانًا ثقيلةً يحركها أينما كان ويبدو غائبًا في دنيا غير دنياها..

- لو سمحت؟

وبمجرد ما لفظت أحرفها كان ينتفض من رقوده لينقض على ذراعها فجأةً ويكشر فوق أنيابه والنبرة مع النظرة كافيتان لولادة تلك الرعدة بكامل جسدها:

- أنتِ إيه اللي طلعك من الأوضة.. أنا مش منبه عليكِ ماتخرجيش مهما حصل!



ورعدتها التي وصلته تمام الوصول هي نفسها من بعثت بتجمع الدمع داخل المقل وتبعثر أحرفها:

- أنا كنت عايزه أطمن على ماما، أنت وعدتني توصلها الجواب وتطمني بس ماحصلش..

ابتعد عنها فجأة كما اقترب، يمسح عن وجهه وهو يتنفس بصعوبةٍ ورأسه تدور في المكان من حوله.. يخبرها بكلماتٍ لونها بشبه اعتذارٍ:

- معلش، حصل معايا شوية ظروف كده فانشغلت غصب عني، هوصله ماتقلقيش.

- لأ، رجعني البيت أرجوك..

حتى لو حياتي هتكون في خطر زي ما بتقول أنا



لأزم أشوف أمي..

أنت وعدتني.

قالت جملتها الراجية بنبرةٍ مبحوحةٍ وهي تتلحف بذراعيها حول جسدها وتنهمر دموعها دون رادعٍ لتعود أدارجها إلى الغرفة، ترتكن في زاويتها لتغرق في قلة حيلة وتبتهل في صمتٍ.

وحتى لحظتها هاته تجهل أي بابٍ تطرق ولا أي دربٍ تسلك، تتقاذفها الأفكار المرعبة وتضيع بينها وفي النهاية لا تجد غير باب الرجاء ودروب الصابرين لدى خالقها فتركن إليهما في خنوعٍ علها تجد فيها النجاة.

***



أعلى البناية المتهالكة، تحديدًا فوق السور العريض كان يتمدد بجسده في أريحيةٍ تامةٍ..

ذراعه الأيسر يدعم رأسه بينما ساعده الأيمن يستريح فوق عينيه، صورته توحي كأنما يغط في سباتٍ عميقٍ غير آبهٍ لسقوطٍ من علو تسع طوابق قد يخلف في أحسن حال تهشم فوري لعظامه..

و في الحقيقة هو أبعد ما يكون عن السبات والراحة التامة،

فهناك داخل رأسه تقام حربٌ شعواء..

أفكاره تتصارع وتتناحر بين ضحيةٍ تسكن غرفته، تنوح ليل نهار ولولا غلقه للباب بإحكامٍ أثناء غيابه لكانت فرت منذ أيامٍ، فخيوطه بدأت في

التراخي وحتمًا سيفقد زمام الأمور.. وبين صاحب النفوذ الذي يطمح لإقامة ومد جسر للتواصل معه باستغلال فرصةٍ جاءه بها على طبقٍ من ذهبٍ وذلك لن يكون سوى بتقديم فروض الطاعة والولاء أولًا؛ فينال بعدها درع حمايةٍ متينٍ ودعامةٍ جيدةٍ تقيه من شر السقوط في أي لحظةٍ وحتمًا سيسطع نجمه الباهت في علياء سمائهم.. وأخيرًا ذاك الرجل المسمى والده و الذي أتاه من حيث لا يعلم، و رغم قراره الذي اتخذه من وقتها إلا أن عقله لا يمتثل لقراره فيعيق صفاء ذهنه قسرًا.

تستشعر أقدامه تلك الهوة التي تتسع من تحتها وفقط بينه وبين السقوط ليس الكثير.

ماذا أصابه ليخطو بإرادته داخل ذاك الطريق الوعر، ماذا دهاه ليلقي بنفسه في بئرٍ سحيقٍ دون قاعٍ!

ابتلى حاله بفتاةٍ ساذجةٍ لو انفرط عقد لسانها ستطيح بهم جميعًا..

ما الحل؟

وهو ليس بقاتلٍ!

لن يلوث يديه بالدم ولن يخطو داخل الشرك بأقدامه فيسقط حينها دون قيامٍ.. ومؤكد لن يقدم حاله قربان لذوي الأمر تحت بنود الاحتمالات.



وفجأةً من بين عتمة أفكاره التمعت فكرةً ما

لربما فيها يكمن الخلاص أو للدقة خلاصه..

انتفض من نومته ليعتدل جالسًا فوق السور

وقد انفرج ثغره بظفرٍ، سيأتي بوثيقة ضمانه أولاً

ثم يعود بالأمور لنصابها الصحيح ثانياً..

وهكذا قضي الأمر.

***

وكما غادر بها تحت جنح الظلام السرمدي..

عاد بها في ذات التوقيت

على شارع جانبي واسع يبعد عدة أمتارٍ عن الفيلا

بأضوائه الخافتة من كلا الجانبين كانا يتقابلان

في وقفتهما، بينما يبادلها بسمةً هادئةً لاتشيء



بشيء كانت تلتمع مقلتاها في امتنانٍ واعتذارٍ لم يتفوه به لسانها

يخص سوء ظنونها..

أوقف خطواتها المتعجلة بجذبه لرسغها عنوةً وباليد الأخرى كان يحمل قلمًا حط به فوق ساعدها ليدون عليه عدة أرقام، ينهي دور الفارس في إتقان وغمغمة حروف دون أن يطالعها:

- ده رقمي.. لو أي حاجة حصلت معاك كلميني على طول.

ورفع بصره يتمعن في عينيها بنظراته الثاقبة لتسحب هي ذراعها من بين أصابعه تعدل من كم ثوبها بأناملٍ مرتعدةٍ ثم تدير ظهرها دون



جوابٍ تحث الخطى على الإسراع نحو بر الأمان،

لتأتيها نبرته من جديدٍ تقطع رحيلها وتجبرها على

التفاتة:

- نسمة..

وصمت هنيهةً جعلتها تحرك له رأسها في

استفسارٍ.. فتابع وشياطينه تصفق:

- خلي بالك من نفسك.

وكادر الصورة يحمل صدد عشقٍ لا يناسب

اللحظة

نبرته أربكتها فارتفعت أناملها الرفيعة نحو

حجابها تعدل فيه دون حاجةٍ، تهز له رأسها



ببطءٍ و إيجابٍ قبل أن تستدير من جديدٍ

وخطواتها تتسابق في هرولةٍ ودقات قلبٍ واجفةٍ.

في منتصف الحديقة توقفت خطواتها بغتةً

وتسارع لهاثها ما إن لمحت المدللة لتلتقطها عيني

الأخرى فوثبت من فوق الأرجوحه الكبيرة تجحظ

بعينيها

وتتسع ضحكتها ولسانها يصرخ بعلوٍ:

- نسمة!.. يا باباا.. نسمة هنا.. نسمة رجعت..

لتحدجها نسمة بنظرةٍ أخرستها وقطعت هتافها

المبتهج قبل أن تعود لهرولتها، تبغي الوصول

لأمانها، ستلقي بحالها بين ذراعيها فتنسى كل ما

حدث وكان في أيامها الماضية..



وانتهت هرولتها حين قابلتها في رقودها و وجهها الشاحب يعني تلحفها برداء المرض، ركعت جوار فراشها تقبل كفيها، رأسها، وجهها وجل ما تطاله منها، تهمس لها من بين شهقاتها فيفترق جفنا العجوز ببطءٍ وتلتمع دمعة فتسقط يصحبها بسمتها الواهنة ولسان يجاهد فلا يقوى على غير همسٍ متقطع باسمها..

لتتنصل بعدها الروح الطيبة عن الجسد بعد ما ارتوت واطمأنت، تغادر دنيا البشر بطيبها والآسن منها إلى الرفيق الأعلى، حيث الغائبون وبين الجنبات هم حاضرون ، حيث عدالة السماء وقانون رب البشر هو من يسود الملكوت.



(٦)

أمانٌ..

حمايةٌ..

سندٌ..

عمودك الفقري دونه ينكسر ظهرك..

صك أمانك مرهونٌ بحياته، وحين فقدانه يختل ميزان ثباتك وتُزلزل ذاتك الهشه فتُحنيك أقل ريحٍ مارة..

هو أبوك عمود أمانك وكفى.!

بخطواتٍ متثاقلةٍ كانت تتقدم نحو فراشٍ أبيض داخل مشفى خاصٍ، يتوسطه رجلٌ زحف له الشيب وطال منه ما طال، تطالعه بانشداهٍ

وجسدٍ متيبسٍ في وقفته لم يحركه سوى دفعةٍ صغيرةٍ بواسطة كف مرافقتها قبل أن تتركهما بمفردهما وتغلق من خلفها الباب.

تقدمت خطوةً أخرى و إذ بها تتوقف من جديدٍ وهي ترى الراقد مسبل العينين،

وفي لحظةٍ كان عقلها كأنما تيقظ من غفوةٍ مرت به لتنتهي بها هنا، تأهب جسدها بغتةً تحث الخطى على الرجوع، العودة من حيث جاءت..

عن ماذا تبحث؟!

هي به فقدت أمانها وانكسر عكازها!

وجودها هنا ماهو إلا تحصيل حاصلٍ.. الأفضل ترك أبواب الماضي مغلقةٌ فلا قدرة لها بفتحها ومواجهة ما تواريه من خلفها.. كلها أفكار راودت



دهاليز عقلها قبل ما يلجمها جفنان يفترقان ببطءٍ.

الرؤيا مشوشةٌ ثم بدت تتضح رويداً رويداً حتى تشبعت عيناه بها، ابنته!..

قطعةٌ منه أنكرها ببساطةٍ عقب ما نال منه خبيثُ النفس، كيف سمح له بالتسرب بين جنباته ونفث السم في عقله حتى هدم حياته، كيف تخلى عنهم جميعاً في فورة غضبٍ؟!

بل كيف بنى له حياةً على أنقاض أخرى؟!

والآن كيف يفسر حالة التيه التي سقط فيها لأعوامٍ،

حجب نفسه عن الجميع،



حتى الأخبار اكتف منها حين علم بأمر اختفائها،
فعادت هواجسه تراوده حد أنه شكك في نسب
الولد!

كرهها وكره كل من كان منها، الولد والابنة
كلاهما لم يرد حتى تذكرهم لوهلةٍ.

أخذ يعمل و ينغمس حد الغرق..

حد النسيان..

نعم لو كان النسيان يُباع آنذاك لكان اشتراه و لو
بأغلى الأثمان، و لم يُبع لكن أهدته له امرأة
عصفت بها رياح الحياة وألقت بها عنده.

أرملةٌ صغيرةٌ تركها زوجها برفقة ابنتها ذات
الست سنوات فوق أرض الغربة عقب حادثٍ



مروعٍ لاقى فيه حتفه، وكونه كان الذراع الأيمن للراحل تولى جميع شئونهم من الصغيرة حتى الكبيرة..

وبعد وقت ليس بالكثير لمس وتر الاحتياج فوق عرق رجولته فوجد حاله بين ليلةٍ وضحاها يعرض خدماته وبسخاءٍ!

عرضُ زواجٌ قوبل بالرفض أول مرةٍ ليعاود الكرة بعد حينٍ فوجد القبول.

وبنى عائلةً..

زوجة وابنة يحبها ويدللها وإن لم تكن من صلبه!

وإن كان ينغمس في العمل عن قصدٍ من قبل، فعقب زواجه من ابنة الذوات و تولي نصيبها



ونصيب ابنتها من الميراث الوفير بات يغرق حد الثمالة دون إرادةٍ.. لا ينكر التطلع للقادم في دنيا الأعمال والأموال سرقه قسراً فمرت السنوات كلمح البصر.

و في ليلةٍ من ليالي ديسمبر قارصة البرودة.. كانت فيصلًا لما كان وسيكون.. مكالمة في وقتٍ متأخرٍ تلقاها من رجلٍ ينازع الموت بكلماتٍ أقر فيها بجرمٍ ارتكبه ويسأل العفو، فالنهاية وشيكة ولا مفر..

كان يبحث عن الجنة بكلماتٍ!

كلمات سقطت فوق رأس الغائب المغيب كطلقٍ ناريٍ صُعق تفكيره وشله، وكمن فاق بعد سباتٍ



طويلٍ.. وفي خلال أيامٍ كان يفض جميع أعماله في قرارٍ للعودة إلى أرض الوطن.

عاد بصحبة زوجةٍ وابنٍ وابنة قد وهبت له مكانة أبيها الراحل سلفا.

يحتفظ بسره في صدره فيضطرم كل ليلةٍ بنيران الندم والأسف.

والعقل يبحث بين طياته في محاولة استحضارٍ لصور من ترك وفرط بهم وقت الحاجة فتنفجر براكين جوفه فلا تبقي منه ولا تذر..

وكمن يبحث عن إبرةٍ بين تلالٍ من القش، جاب الأرض مشرقها لمغربها ولا أثر، ولم يمل.. ظل على حاله يبحث ويتفانى بإخلاصٍ، يذكر حاله بفعلته كل ليلةٍ كأنما يعاقبها.. حتى وجد ضالته منذ



أسبوعين فقط، راقب الكبير عن كثبٍ وليته تشبعت به عيناه، ورأى الصغيرة وكم تمنى سحقها بين ضلوعه علَّ نيرانه المضطرمة تصلها فترحم رجلًا عجوزًا من خزي يعتليه من رأسه حتى أخمص قدميه..

لكن القدر كان به رحيمًا لأقصى حدٍ حيث بعث به لمشفى ليرقد فيه دون حولٍ ولا قوةٍ.

نظراته يبست حركتها من جديدٍ وهي تلتهم جميع تفاصيل وجهها في لمحةٍ خاطفةٍ منه ليستقر داخل عينيها في النهاية.. وبحشرجة نبرة وتلعثم حروفٍ كان يناديها بلهفةٍ:

- سماح.. تعالي يا بنتي قربي.



كأنها كانت في انتظار ندائه حتى تتحرك بهدوءٍ لا يشبه ذاك الذي يعتمل بين جنباتها، فوق كرسي قريبٍ من الفراش جلست،

جلست بذات الانشداه والتحديق

ليعاود الحديث بنبرةٍ أوضح بقليل وعيناه تغوص فيها أكثر:

- كنت خايف لترفضي زيارتي زي حسن.

كلماته جعلتها تتنبه لأمر ما تفوه به لسانها على الفور دون وعيٍ كأنها في جلسة سمرٍ:

- حسن.. آه.. فيك شبه من حسن!

على جانب الثغر ندت ضحكة مريرة قبل أن يعقب على جملتها الوحيدة:





- يظهر أنه مايشبهنيش بالشكل وبس لأ.. ده أخد قساوة القلب من قبلها.

صمتت لبرهةٍ ظنت أنها ستكيل له بعدها من الحديث أطنانًا، لا يهم فحواه المهم أن يخرج به ذاك الذي ينهش فيها من الداخل، لكن كل الكلام تراجع

في حلقها ولم يخرج منها سوى بضع كلماتٍ غاضبةٍ

تعي أن وعيها بدأ للتو يعود لطبيعته ويستوعب ما يحدث تماماً..

- أنتَ.. أنتَ ازاي قدرت تنسى لحمك ودمك، ازاي عايش حياتك كده عادي كأنك مش سايب



حد وراك.. وأمي ازاي قدرت تعمل فيها كده؟

أنتَ عارف أصلًا عملت فيها إيه!

عاد بظهره للخلف، عيناه تستقر فوق السقف وصدى الكلمات يرج جدران عقله، ليدمدم بفتورٍ متحشرجٍ:

- عارف يا بنتي، اللي عملته فيها كتير..

ثم واجه عينيها التي تشير لذنبه بكل وضوحٍ وأكمل بوهنٍ:

- كتير لدرجة ماقدرش أطلب منها العفو والسماح.

نكست برأسها أرضًا وصمتت.. لا تجد أحرف تصيغ بها الكلمات ولا تعرف كلمات تصيغ بها



الجمل، تضاربت مشاعرها وماجت في بعضها وما عادت تدري بما تشعر في لحظتها تحديداً، تناشد فرارًا لكن أقدامها تشعر بها مكبلةً في مكمنها.. امتد كفه في ترددٍ ناحية كفها الساكن في حجرها، تلمسه أنامله ببطءٍ فانتفضت بغتةً وارتدت للخلف في مقعدها لتطالعه بجحوظٍ وأنفاسٍ تسارعت وتيرتها، فعاد يسحب يده وغلالة شفافة من الدموع شوشت الرؤية من جديدٍ وأخذ لسانه يبعثر الكلمات:

- عارف أن مافيش كلام ممكن يعوض اللي راح بس صدقيني يا بنتي شيطاني كان أقوى مني فغلبني.. غلبني غصب عني.



راقب الدمعة الساقطة من بين جفنيها المطبقين بقوةٍ، فهطلت دمعته دون إرادةٍ تواسيه وتواسي جليسته:

- ورغم كل اللي حصل لسه عندي الجرأة أطلب منك السماح، سامحيني يا بنتي وتوسطي لي عند ياقوت خليها تغفرلي ذنب ربنا العالم وحده أني مش قد حمله.. قولي لحسن أبوك نفسه يشوفك قبل ما يقابل وجه كريم..

وتابع بنبرةٍ ونهنهات مودع:

- أنا اللي خسرتكم يا بنتي مش العكس.



يخصها بلفظ "بنتي" كل حينٍ، يثبت نسبها لنفسه من قبلها، يقهر شيطانه ويغلبه وإن كان بعد فوات الأوان.

انتفضت من جلستها فجأةً تشد على عبائتها الطويلة، تحبس دمعًا، وغصة استعمرت الحلق، تتحرك ناحية الباب دون حديثٍ و بينما كفها يتشبث في مقبض الباب جاءتها نبرته في شبه توسلٍ:

- هشوفك تاني يا سماح مش كده؟..

استشعر حيرتها فأردف بارتجافٍ متوسل:

- ده الباقي مش كتير يابنتي.



تحررت منها شهقةٌ صغيرةٌ قبل أن تدير له رأسها وتهمس بصعوبةٍ:

- صحيح كل حاجة بتقول أنك أبويا بس أنا مش حاسه كده، جايز لو حسيت أقدر أجيلك تاني.

وغادرت.

***

لحقت بها تعرض توصيلها كما اصطحبتها لكنها رفضت بهدوءٍ ورحلت، جلست ميسون فوق المقعد بتهالكٍ، تدرك وضعها الحساس، تشعر كأنها دخيلةً عليهم..

لكن ماذا عساها تفعل وتلك رغبته؟



هو من وضعته في منزلة أبيها إن لم يكن أكثر،

تقسم بداخلها لو أن أباها كان على قيد الحياة

ما كان ليفعل أكثر مما فعل هذا الرجل، وهذا ما

لم تفهمه كيف لرجلٍ كهذا يملك من الحنان

ذاك الكم الهائل والذي جعلها تهبه تلك المنزلة

أن يتخلى عن أولاده من هم قطعة منه..

لسنواتٍ طوالٍ؟

ماهي أسبابه القوية التي يرفض حتى الإفصاح

عنها

ويكتفى فقط بعض أصابع الندم عبر كلمات لم

تصل بها لجملة واحدة صحيحة.!

حجبت وجهها خلف كفيها تمسح عنها إرهاقًا بات

يلازمها منذ أن لازم من يهمها أمره المشفى.. بعد



دقائق عادت للخلف بظهرها ما إن استشعرت وجوده الملاصق لها، أطلقت تنهيدةً قويةً قبل أن تهمس له بفتورٍ في تقريرٍ أخير بما حدث:

- بنته كانت هنا ولسه ماشية، من وقتها وهو رافض يشوف حد.

ثم التفت له برأسها، تردف بحيرةٍ:

- أنا هتجنن يا نديم إزاي الراجل اللي بقوله بابا طول عمري في يوم وليلة يطلع متجوز قبل ماما وعنده أولاد كمان.. لأ والمصيبة تكون ماما عارفه بوجودهم من زمان!

فك زر سترته ليجلس بأريحية أكثر والتف ناحيتها بجذعه ومثلها تحتل قسماته الحيرة.. وبعد تنهيدةٍ صغيرةٍ:



- مش عارف يا ميسون أنا كمان مستغرب، يعني كونه مطلق عادي بتحصل لكن السؤال هنا ليه يخفي وجود ولاده؟.. بس أرجع وأقولك أن بحكم معرفتي به هو شخص مستحيل يأذي حد يخصه.. في حلقة مفقودة في النص ومن غيرها مش هتوضح الحكاية.

همست بضيقٍ:

- الموضوع مضايقني جداً وفي نفس الوقت مقدرش أرفض له أي طلب في ظروف حالته الصحية دي.. بحاول الاقي طريقة أقنع بها ابنه يجي يشوفه لأنه رافض أي مكالمات مني أو مسجات، حاولت كتير ومفيش فايدة.

تحفز في جلسته بغتةً ودمدم في اهتمامٍ:



- بمناسبة ابنه أنا كنت جاي لك عشانه أصلًا..

كانت قد أوكلته للتحري عن هذا الحسن

بعد ما أصابها التوجس منه،

و من ناحيته كان ينوي فعل ذلك لذا تابع يفضي

لها بما توصل له:

- شخصية مريبة، سايب أخته الوحيدة ومامته

وقاعد لوحده في أوضة فوق سطوح.. كل أهل

الحارة بيقولوا أنه شغال على عربية أجرة لكنه

بيتردد على أماكن من أغلى الأماكن في البلد.. ده

غير الشقة اللي بيروحها بإستمرار ودي تمنها

معدي الربع مليون جنية ولما سألت طلعت

بتاعته!



تحفز جسدها وتغضن جبينها:

- يعني كان عندي حق لما حسيت بالقلق من ناحيته!

وافقها بإيمائةٍ من رأسه فتابعت بحيرة مضاعفة:

- والحل يا نديم أفضل وراه لحد ما يرد عليّ ولا أروح له تاني؟

بحزمٍ وعيونٍ صارمةٍ كان يبثها حروفه:

- أولاً تنسي خالص حكاية تروحي له تاني دي.. ثانياً أنتِ فعلا عملتي كل اللي عليكِ وزيادة، بس واحد مش عايز يجي يشوف والده ده شيء يرجع له مالناش أننا نفرض عليه حاجة.. ثالثاً وده الأهم بعد المعلومات اللي وصلنا لها، الأفضل



أنك تبعدي عن الناس دي خالص و بعد ما فريد بيه يقوم بالسلامة يقدر يتواصل مع ولاده بالطريقة اللي تريحه.

ارتاحت لكلماته:

- تفتكر كده؟

- أفتكر كده ونص.

التوى ثغرها في شبه ابتسامةٍ فقبض على أناملها واقترب بهمسٍ:

- لو تعرفي ضحكتك دي وحشتني قد إيه.

سحبت أناملها برفق وعنفت بكرمشة حاجبين:

- يا نديم مايصحش...

قاطعها بهمس مشتاق:

- يصح ولا مايصحش مايهمنيش، كل اللي يهمني دلوقت أنك وحشتيني.

ورنين هاتفه تلك المرة هو من قطع حديث الأعين الدائر في صمتٍ.. تطلع للشاشة المضيئة بجواره وكان بصرها قد سبق فغمغمت بقناع من البرود تجيد استخدامه وقت اللزوم:

- عندها حق المفروض دلوقتِ تكون معاها. فرحكم قرب وأنتَ مش مركز خالص.

هم بالحديث فقاطعته بتربيتة صغيرة فوق كتفه قبل أن تنهض، تاركة له مساحته الخاصة:

- رد على عروستك يا نديم.

***



بنايةٌ عاليةٌ بعدة طوابقٍ يحيطها سياجٌ من حديدٍ وعدة أشجارٍ اصطفت بتجاورٍ لتخلف صورةً يكسوها النضارة والحسن في تناسبٍ مع تلك المنطقة الراقية.. تحرك ناحية البوابة الكبيرة ومنها إلى المصعد الكهربائي ليستقر به أخيرًا في الطابق الثاني عشر، أولج المفتاح في الباب ليدلف بهدوءٍ.. والملخص شقة واسعة أثثها الفخامة.

تلوى يخلع عنه سترته ثم ألقى بها جانبًا فوق أحد المقاعد الوثيرة، خطى إلى غرفة النوم الرئيسية، فتح الصوان العريض ومنه للخَزْنة، وبأنامل خبيرةٍ أدار القرص الدائري ليفتح بابها خلال ثوانٍ معدودةٍ، وأخذت أصابعه تنبش عن



الورقة المطوية داخل جيب بنطاله، أخرجها وجرت عيناه فوق كلماته..

فهذا صك أمانه.. خطاب النسمة الساذجة بقدرة كريمٍ أو لنقل بأصابع داهية يعرفه حق المعرفة أبدل الخطاب المطمئن بآخر نقشت سطوره بخطٍ متطابقٍ في إقرارٍ منها بفرارٍ مع حبيبٍ بكل إرادةٍ ونفسٍ راضيةٍ،

سيكون ضمانه وقت الحاجة..

ورقة نجاته إن لزم الأمر.!

أطلق زفرةً قويةً وهو يقوم بطيها من جديدٍ ليتركها في الحفظ والصون بين مقتنياته الثمينة، غنائمه.. حصاد عدة سهراتٍ وليالٍ ملاحٍ، وما إن



انتهى حتى تحرك لينل حمام ساخن ثم أبدل ملابسه بأخرى أنيقة ذات ماركة شهيرة، مع حذاءٍ لامعٍ و ساعة معصمٍ باهظةٍ..

وأخيراً نثرات عطر عبقت المكان بأكمله..

ومقابل المرآة عدل من ياقة قميصه الأسود كلمسةٍ أخيرةٍ ليحمل مقتنياته ويغادر في سلامٍ.

يجتاحه شعور بالراحة، رتم حياته عاد لطبيعته، بل أفضل بمراحل، كان يعلم أن أرض حلمي الجمال جنة، وهاهو يتمرغ في نعيمها متنعما بظلالها، نفوذ الرجل منحه حق التحليق دون قيود، ولا ينكر نشوته بهذا الشعور..

عند بوابة البناية قابله الحارس البدين يهلل بلهاث كعادته ما إن يراه:

- حسن باشا أي خدمات؟

أخرج عدة وريقات مالية ودسها بكف الحارس بينما يمر من أمامه:

- تسلم يا أمين.

في الجراج الخاص ولج داخل سيارته الحديثة، أنزل نظارته الشمسية من فوق خصلاته المشذبة وانطلق في سرعةٍ وصخبٍ خلفته الأغاني المنبعثة بعلوٍ.

فسهرته الليلة طويلة، خاصة أنها لا علاقة لها بالعمل

بل للمتعة.. وفقط.!

***



الطمأنينة

العطاء بلا حدودٍ

بلسم كل وجعٍ.. جنة الدنيا وطيبها

ولأن كل السطور وأبجديات الحروف فيها زهيد

هي أمك..

الضمة الحنون وكفى.!

صرخت..

بكت..

أنَّت و نشجت حد الوجع..

حد تهدم حصون نفسها الواهية

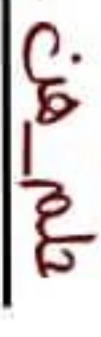


على مدار أسبوعين وهي لا تتوقف عن الهذيان والنداء على من غادرت دون رجوعٍ.. لتنتهي فوق الفراش صامتةً دون أنفاسٍ أو حركةٍ تشي أنَّ هنا روحًا تحيا وتسعى لحياةٍ.

تكومت بجسدها عند زاوية الفراش بهدوءٍ يشبه الأموات وكأنما كتب لها في كل زاوية وجعٍ.

لكن تلك المرة الوجع لا يضاهيه مثل، تمزق في الوتين وتهتك في كل إحساس أخلف ضمور في كل خلية تناشد حياة!

تلفها الثياب القاتمة كلون أحزانها.. يكفيها نظرتها المودعة كأن الروح كانت تنتظر رؤياها في ظمأ وحين ارتوت انتهت بحلاوة روحٍ.





أيُّ خواءٍ قد يعشش بين حناياك أكثر بعد ما يكسر ظهرك و ترحل عنك الضمة الحنون فتبقى وحيداً بين سبع سموات وأخرى أَراضٍ، مكسور فيهما بشوكة اليتم.

اقتربت منها ككل ليلةٍ عقب ما شيع جثمان العجوز ووارى جسدها التراب في مراسم عزاءٍ بسيطةٍ كبساطة الراحلة، تلمس فوق خصلات شعرها ببطءٍ وتقترب منها في همسٍ دافئٍ:

- لازم تاكلي يا نسمة ماينفعش كده، علشان خاطري حاولي..

وتحاول من جديد:

- يا حبيبتي كده هتتعبي.



ولا جواب أيضاً..

فقط عينان شاخصتان دون حراكٍ تهطل منهما الدمعات دون إرادةٍ.. أردفت المرأة تعيد الكره بكلماتٍ لا تقدم ولا تؤخر لكنها تبغي عودة الصبية لصباها فما ذنبها تشيخ روحها قبل الأوان:

- هي في مكان أحسن دلوقت، صدقيني هي حاسه بيكِ.. طمنيها يا نسمة وبلاش تقلقيها عليكِ.

وحين واجهها نفس الصمت تركتها في قلة حيلةٍ تصاحبها مثل الليالي الماضية، لا تقوى على كسر قوقعة حزنها الصلدة بل تجدها تتشبث بها خوفاً من السقوط فوق جمر الحقيقة.



كانت صغيرتها تنتظرها بالخارج ما إن رأتها حتى هرعت تدفن حالها في صدرها، تلتمع مقلتيها في وهجٍ حزينٍ وتهمس بتحشرجٍ:

- لسه بردو مش عاوزه تتكلم؟

أجابت بإيمائةٍ صامتةٍ وهي تحيط جسدها بذراعيها وتهتف بدورها:

- لسه يا غِنَى.. هي محتاجة وقت علشان تقدر تفوق من صدمتها.

ابتعدت الصغيرة تواجه عيني أمها لتخرج كلماتها مشبعة بألم الفراق يصحبها التواء في ثغرها الصغير:



- مش قادرة أصدق أن مش هشوفها تاني، دماغي مش عارفه تستوعب ده!

ضمتها من جديدٍ لتنخرط الصغيرة في بكاءٍ مريرٍ بين ذراعيها.. وبينما من بالخارج يقدمان فروض التواسي لبعضهما كانت صاحبة الفقد العظيم والنصيب الأكبر من البلاء تستعيد جزءًا من وعيٍ يدفعها للثأرِ.!

الثأر لمن فقدت روحها بعد ما احتل الهم والغم حجرات الفؤاد فتوقفت دقاته واحدةً تلو الأخرى..

الثأر لنفسها مِنْ مَنْ حرمها الوجود في جنات قربها في آخر أيام العمر لترحل عنها دون وداعٍ.



والثأر لن يكون سوى بإسقاط العدل فوق رؤوس الظالمين عبر القانونِ.



(٧)

نهربُ مِنْ أنفسنا أم مِنْ واقعٍ يُحاصرنا وقتما نسعى للخلاص مِنْ حياةٍ لا تناسب مقاسنا ظنًا منا بذلك نرسو داخل قوارب النجاة، في النهاية هو خيار قد يكون صائبًا.. أو العكس!

عدة طرقات زادت وتيرتها بعد ما طالت وقفتها المتحفزة أمام بابه.. حتى قابلها بعد حينٍ بملامح يغلبها النعاس وكف امتدت تكبح تثاؤبًا:

- في إيه؟

- شكلها السهره كانت صباحي.. معلش قلقتك.

قالتها سماح بتهكم واضح وبصرها يتلكأ فوق جذعه المكشوف بينما فكرها يسرح ويحط عند



المرأة التي مرت بها أثناء صعودها وشكل ملابسها التي لايمت الإحترام بصلة مما أثار حنقها..

حدجته بنظرةٍ ممتعضةٍ، مغمغمة قبل استدارةٍ:

- عايزاك في كلمتين.. استر نفسك وحصلني.

وراحت عند سور السطح العريض ترتكز عليه بساعديها.. بعد دقائق كان يلحق بها بعد ما ستر جذعه بقميص مفتوح وبين أصابعه كوب شاي ثقيل.

- شاي؟

قالها وهو يرتشف منه بالفعل، تجاهلت دعوته الفارغة ودخلت في صلب ما جاءت لأجله:



- جيت لك هنا عشان مش هينفع نتكلم قدام أمي.

صمتت لثوانٍ ثم أردفت بسرعة:

- أنا رحت له المستشفى.

جاء رده برشفة جديدة ولية شفاه ساخرة، فقد وصله مقصدها، ومن غيره أعرف بشقيقته!:

- وبعدين؟..كملي.. ماهو أكيد شغلك أسطوانة شحتفة مشروخة وبعدها ندمان وسامحيني يا بنتي.. جو الأفلام الهابط ده أنا عارفه كويس.

بادلته نظرة أكدت بها صدق ظنونه.. عقب برهة صمت هتفت بتوجس:

- عايز يشوفك.



أطلق ضحكة باردة ثم وبتهكم ممتعض كان يدمدم:

- شافته العافية.

سكت كلاهما..

وفي عقلها تتخالط المشاعر مابين قلب يريد دفعه للقيام بمثلها وبين عقل يرفض للآن فعلتها ويستنكرها.. وعند المرض والعجز غالبًا ما ترجح كفة القلب.. لذا عادت تهمس في تردد:

- روح له يا حسن مش هتخسر حاجة، ده باين عليه بيودع بجد.

طالعها بحاجبين ارتفعا لأعلى وكفين ضربا بعضهما في تعجب من أمرها:



- والله ما جايبك وراء غير عبطك ده.

دافعت عن حالها بمنطقها الخاص:

- ماشي اللي عمله مايتوصفش.. بس الواقع بيقول الراجل ده أبونا وبينه والموت شعره، يبقى نسمع له من باب الرحمة ولا ندير ضهرنا ولا كأننا نعرفه؟

أجاب دون تفكير، ببديهية ساخرة:

- ندير له ضهرنا.. زي ما هو عمل بالظبط.

أكدت كلام المدعو أبيها في هدوء لا يناسب اللحظة:

- كان عنده حق لما قال إنك أخدت منه القسوة.



- والله يروح يحاسب نفسه الأول بعدين يجي يحاسبنا.

قالها بسخط لترد له الصاع صاعين في وقتها دون تردد:

- أصلا أنت آخر واحد تتكلم، عشانك مافرقتش عنه كتير.. وفي الآخر أنا وأمي بس اللي بندفع تمن عمايلكم.

حدجها بطرف عينيه بنظرة حارقة وهو يدمدم حانقا:

- أهلاً.. رجعنا لسم البدن بكلام فارغ.

- كلام فارغ!.. هي قعدتك هنا لوحدك كلام فارغ؟ لااا ياحبيبي حوار الجو نار ومش عارف أقعد ولا



أنام ده تضحك بيه على أمك الغلبانه أنما أنا فهماك كويس.. هو مفيش حد قالب كيانك غير شوية صيع الململوم عليهم، دول يشبهوا الأرض إللي يمشوا عليها ربنا ياخدهم.

- خلصتي يا شيخة سماح؟.. يلا اتكلي على الله مش فايق للوعظ بتاعك على الصبح.

حاولت جلب هدوء لا تمتلكه في لحظتها ودمدمت من بين ضروسها عله يعي بأي طريق يسير:

- أنتَ مش هتفوق غير لما يضيعوك في سكتهم البطالة، بس وقتها هتكون خسرت كل حاجة وعلم على كلامي.



تناول سيجاره ليلقى بها بين شفتيه بحدة، يزعق فيها بحنق جلبته للتو بحديثها:

- مش نفضها بقى وكفاية البوء الحمضان ده..

وأردف ينهي الحوار بقسمات عابسة، مكفهره:

- وبعدين أنا ماعنديش حاجة أخسرها.

زفرت في قلة حيلة و استدارت جانبًا، تجلس فوق بقايا أريكة تتوسط المكان عقب ما تآكلها الزمان، تكبح غيظًا وتدمدم بكلمات لم يصله كنهها، فبادر بهدنة صلح بينما كفه يمتد بمبلغ مالي لكن ما إن فعل حتى أبعدت كفه عن مرماها بدفعه بسيطة بواسطة كفها:



- لما تتعدل وأشوفك تكسبها بعرق جبينك ساعتها أبقى أخد منك.

ونهضت تنوي رحيلًا وهي تستمع لكلماته الحانقة بينما يعود بماله إلى جيبه حيث كان:

- هتفضلي طول عمرك وش فقر.

استدارت له برأسها قبل ما تختفي بنبرة توبيخ:

- إبقى عدي على البيت.. بقالك يومين مش باين خالص وأمك قلقانة عليك.. سلام.

- سلام ياختي.

دهس عقب السيجار بواسطة قدمه بعد ما ودعها وما لبث حتى شرع في خلع قميصه من جديد وراح يخوض معركته الخاصة مع آلاته



عله يطرد ذاك الخمول الذي يجتاحه عقب سهرة البارحة.

***

تراقب عقارب الساعة التي تجاوزت الثالثة فجراً بقلق وذهن شارد،

تحركت ناحية النافذة تضم مئزرها حول نفسها، ثم أبعدت الستار تراقب الطريق ليصدمها الهدوء مع الظلام الدامس فيزداد قلقها..

عشرون عاماً هي مدة زواجها وهذه أول مرة يتأخر فيها لهذا الوقت.



ومضت الأنوار عند البوابة الخارجية للفيلا جعلتها تتنبه لعودته أخيراً، فتنهدت في ارتياح وهي تراقب دلوفه.

استحضرت ضحكة ندية وقسمات باسمة تستقبله بها رغم ذاك التوتر الذي ولد بينهما منذ أيام دونما تعي سبب ذلك!

- مساء الخير.

تحية مقتضبة ألقى بها ما إن دلف دونما يكلف حاله رفع بصره حتى..

أسرعت تساعده في خلع سترته بهمس خفيض:

- قلقتني عليك يا شهاب وأنت مش عادتك السهر.





توترت ضحكتها من تلك النظرة التي يرمقها بها كأنها مذنبة!

أما عنه فحتى لحظته لا يصدق أن زوجته.. حب العمر كما كان يدعي في كل وقت وحين..

خائنة!

لكن كيف يكذب عينيه؟

عيناه التي شهدت على خيانتها..

لقطات مصورة جاءته عبر صندوق الرسائل من مجهول، ليفتحها ويجد ما بداخلها دليل خيانة الزوجة، في محادثة عبر أحد مواقع التواصل الشهيرة، دارت بينها وبين خطيبها السابق وفي رواية أخرى كان يسمى الحبيب الأولي.



أيصدق عشرة العمرو القلب الناسك المتعبد في محراب عشقها ويكذب ما رأته عيناه، رباه إلى أين تبتلعه دوامة الحيرة هذه!

التقى جفناه في قلة حيلة و سأل بجمود:

- نسمة أخبارها إيه النهاردة؟

تجاهل قلقها و جرحها في كبريائها عن عمد..

همست بفتور:

- كويسة.

تمدد فوق الفراش دون كلمة أخرى، فلم تستطع منع نفسها من الاقتراب علها تصل لحل تلك المعضلة التي لا تفهمها حتى لحظتها:

- هتنام؟



ببرود:

- شايفه إيه؟

اقتربت أكثر حتى جاورته ولامست بأناملها شعيرات رأسه برفق وهي تهمس بنبرة أقرب للتوسل:

- مش هتقول لي مالك؟

وكأنما جسده يتولى مهمة التصرف دون الرجوع الى أيا من عقله أو قلبه.. أبعد كفها بعنف وعيناه تخبرها بصرامة وقسوة:

- عايز أنام يا يسرا.. ممكن!

هزت رأسها ببطء وهي تبتعد لخارج الغرفة، خشية سقوط دمعات أمامه فيتهشم ما تبقى لها



من كرامة عند قدميه، في حين تناهى لمسامعها خطوات هادئة تتقدم ناحيتها فاستدارت تمحي بأناملها ما علق بين أهدابها من آثار وعادت بجسدها لتجد صغيرها الذي تطارده كوابيسه كل ليلة يفرك عينيه في نعاس وهو يقترب منها ليخبرها من بين الهذيان والصحو:

- ماما.. خايف.

تشبثت بكفه بينما جذعها ينحني لتقبل أعلى رأسه:

- تعالى ننام مع غِنَى، بابا مش عايز دوشه جنبه.

***

وما الحياة سوى عدة صفعات متتالية



تقوينا حينًا وتهزمنا شر هزيمة حينًا آخرًا

ومعها..

قد تكون الحياة باتت شبه مزحة ثقيلة لا تدري عواقبها.

حول طاولة مستديرة قرب مياه النيل الهادئة كانت تجلس يغطيها السواد من رأسها حتى أخمص قدميها، فوق عينيها ترقد عوينات كبيرة بذات القتامة تخفي عن الجموع ملامحها الذابلة، وما هي إلا دقائق قليلة حتى التقطته عيناها، يلج لنفس المكان عقب مكالمتها الطارئة له والتي تطلب فيها لقاءه على وجه السرعة، وها هو يلبي الدعوة على عجل.



بضربات قلب متسارعة كان يتقدم في الخطى، أي أمرٍ ذاك قد يجعلها ترغب في رؤيته، وهو كان قد قارب على نسيان أمرها تماماً، فبعد مضي قرابة الشهر على عودتها ظن أن الأمور كلها عادت لطبيعتها وهدوئها المعتاد..!

سحب شهيقًا طويلًا وهو يبحث عنها دون جدوى حتى رفعت له فتاة كفها وقد غطاها السواد كلياً.. تقدم ناحيتها ونظراته تضيق تدريجياً.. جسدها يبدو أكثر نحولًا وكأنما كان ينقصه!

وجهها باهت حد الاصفرار.. ازدرد لعابه وهو يجلس قبالتها دون دعوة، ترك متعلقاته فوق الطاولة المستديرة وهيئتها تلك جعلته يبادر بسؤال يناوشه.. فبادر دون تحية حتى:



- حصل إيه؟

استجمعت مافيها من قوة وهي تهمس بنبرة مبحوحة:

- ماما ماتت.

قالتها ونكست برأسها في صمت، فجهرها بما يؤلمها بتلك البساطة ظاهرياً كنثر الملح فوق الجراح بينما البواطن لا يدركها سوى العالم بذات الصدور..

أما عنه وقع الخبرعليه ألجمه للحظات، استجمع فيها بعثرة أفكاره وغمغم من فوره بواجب العزاء:

- البقاء لله.



هزت رأسها دونما تعقيب ومال جذعها للأمام، ترتكز بساعديها فوق طرف الطاولة عقب ما خلعت العوينات الكبيرة وثبتت بصرها فوق بصره في رجاء خالص:

- قلت لي أكلمك وقت ما أحتاج حاجة.. أنا دلوقت محتاجه مساعدتك.

بتوجس:

- مش فاهم أنا أقدر أساعدك إزاي؟!

بثبات همست:

- أنا هعمل محضر.

وتابعت عقب برهة:



- هبلغ عن اللي خطفني أنا شوفته و عارفاه..

لازم يتعاقب.

رغم يقينه بأنها تقصد أيوب الا أن عضلات فكه توترت، فسارع في وأد كل انفعالاته وتمسك بواجهة باردة لا تشي بشيءٍ:

- تمام.. أساعدك إزاي بردو؟

حملقت فيه وعيناها الخضروتان لا تحيدان عن ظلمة عينيه، وراحت تحكي دون مراوغة:

- أستاذ حسن أنا مش عبيطة.. أنا عارفة أن في حاجات كتير مارضتش تقولها ليا وقتها، زي ما أنا متأكدة أنك تعرف معلومات عن الناس دي..

الناس دول هما السبب في موت ماما!



قاطعها بزمجرة هادئة متعجبا من منطقها المبالغ فيه:

- الأعمار بيد الله.

تنهدت بقوة وعيناها تشرد فوق صفحة المياه بينما لسانها يتابع:

- ونعم بالله، بس ده ما يمنعش أنهم حرقوا قلبها واتعذبت بسببهم.

وعادت له بحدة:

- ده غير أن ده أبسط حقوقي.. احنا مش عايشين في غابة علشان القوي يدوس على الضعيف والمفروض أنه يرضى ويعيش مغلوب على أمره.



انتهت وظلت على حالها تطالعه بنظرات جامدة يكسوها الحزن الغالب، أسبل أهدابه لثوانٍ قبل أن يعود لها بدوره بكلمات مختصرة.. صارمة:

- شيلي موضوع المحضر ده من دماغك.

كادت تتحدث حين قاطعها ليتابع:

- أنتِ مش قد الناس دي.. أنا مقدر ومتفهم كل اللي بتمري به حاليًا، بس صدقيني أنتِ بردو اللي هتكوني خسرانة.. الناس دي مايتلعبش معاها.

باندفاعٍ وعناد ورثته عن أبيها الراحل:

- أنا مش لوحدي، شهاب بيه نفسه بيدعمني ووعدني يمسكوه في أقرب وقت، بس أنا متأكدة



أن عندك معلومات توصلنا أسرع للمجرم ده.. ودلوقت محتاجة من حضرتك جواب موافق تساعدني ولا لأ؟

كان جوابه:

- آسف.. ماعنديش حاجة أساعد بيها.

رمقت تخاذله للحظات بخيبة أمل، تظن أنه يخاف التورط، بل متأكدة.. غمغمت بحنق بارد:

- تمام، شكراً لحضورك وعن إذنك.

ونهضت راحلةً عقب جملتها الأخيرة.

لترتطم قبضته في الطاولة بعنف قبل ما ينهض ويرحل بدوره.

***



كان يفترش الأرضية الصلدة بجسده، يسحب شهيقًا طويلًا يتبعه بزفير أطول وقرقعة مياه الأرجلية تطرب أذنيه بينما دخانها المتصاعد بكثافة خانقة في أنحاء الشقة الصغيرة جعل ذاك النحيل يسعل عدة مرات ليزعق فيه:

- ما تظبط الحجر كويس ياض.

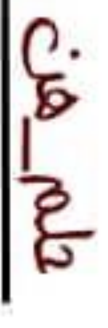
أومأ في طاعة لسيده:

- حاضر يا معلم أيوب.

- عيل بأف بصحيح.

وعاد يشرد فيما كان يفكر فيه قبل ثوانٍ..

بل أخرج أفكاره يشاركها مع جليسه بصوت مسموع:





- قولي يآض يا زعتر إيه يخلي حسن رايح جاي كل يوم والتاني لحلمي الجمال..؟

وبالتأكيد عقلية زعتر المتواضعة لن تبعث له بالجواب.. ليردف هو لنفسه كأنما يخاطب حاله:

- مالهاش معنى غير أنهم قرطسوني لامؤاخذة!

صدحت قهقهات زعتر عقب كلماته الأخيرة لينال رفسة بواسطة قدم معلمه جزاءً لسخريته، وأمره بازدراء حالما وصلته عدة طرقات:

- غور إفتح الباب جاتك الهم.

اعتدل سريعاً وراح يستقبل الطارق الذي اقتحم المكان دون سابق إنذار، ليستقبله زعتر أولاً بتشدق:



- لسه كنا في سيرتك أنا والمعلم.

وتابع أيوب مستقبلاً إياه خير إستقبال:

- والله ولك شوقه يا ابن ال....

والسباب في فم أيوب كلقمة سائغة طيلة الوقت، لذا تجاهل بدوره السبة وملامحه المتجهمة والمنذرة بشر، و راح يهتف فيه من علو من بين أنفاسه المختلطه بالدخان المتصاعد، متخذا دور المنقذ، منتشيا بقسمات أيوب المتبدله:

- لازم تسيب المكان ده.. خد زعتر وشوف لك مكنة إدارى فيها اليومين دول، وماتظهرش لحد أما أقولك.



سحب أيوب شهيقًا آخرًا بينما بصره ثبت فوق زائره في حين اكتفى بهزة رأس صامتة ليتابع موضحا الصورة أكثر:

- البت بتاعة فيلا شهاب، هتعمل محضر وتبلغ عن اللي خطفوها، ولو ده حصل يبقى أنت وزعتر رحتوا في حديد.

ما إن إنتهى حتى انتفض أيوب من جلسته يمسك في تلابيب قميصه بعنف ويزأر بخشونة:

- أما أنك واطي وابن ستين.... عملت عليّ نمرة وسبكت موت البت وأتاريك بترسم وتخطط إزاي تخرج منها زي الشعرة من العجين.. آآآه يا نجس.



قابله حسن بسخرية وهو يزيح عنه قبضتيه بعنف:

- مش أكتر منك.. ولا كنت فاكرني بريالة هفرح بقرشين حلوين قصاد أن أحميك وأشيل الليلة بعد ما البت شافتك ياغبي!

بنصف عين تجاهل سبته وراح يسأل بهسيس:

- إيه اللي بينك وبين الراجل الكبير يا حسن؟

ربت حسن فوق كتفه في إستهزاء وبسمة تماثله:

- اللي بيني وبينه.. مالكش فيه.

- خدتني كوبري عشان تعدي وتوصل للي عايزه يا ابن...!



صرخ أيوب بجنون فتجاهل بهدوء قاتل واستدار ينوي رحيلًا حين لمح المسكين زعتر يتابع الحديث بذعر نقش فوق قسماته فهتف فيه بشيء من صرامة وحدة:

- روح مع معلمك واطمن، يومين بالكتير والحوار يخلص.

ودار بجسده من جديد يوجه حديثه لأيوب الصامت بإشتعال:

- هخليني كويس معاك للآخر وأحاول أنيم حوار المحضر ده بطريقتي، إديني يومين.

وفي عقله تشتعل الآف الأفكار، كيف يقنع الفتاة بالتراجع، من الأفضل للجميع أن تبقى تلك



الحكاية طي النسيان، وهذا مايسعى إليه ويحاول جاهدا جمع الخيوط المبعثرة!

استفاق على وعد أيوب بتهديد مضطرب:

- مش هروح لوحدي ياروح أمك، هاخدك قبل مني.

وغمزة مغيظه هي جل مانال جراء تهديده:

- إثبت لو تعرف.

وبضحكة جانبية، متشفيه، تابع حسن:

- إستعجل بقى عشان لو البلاغ أخد مجراه هيجبوك من قفاك ياسيد المعلين.

أثناء كلماته المبطنة بسخرية لاذعة وقع بصره فوق الأرجيلة التي سقطت فوق الأرضية وقت



هياج الآخر، فتابع بقرف وسبابته تشير فوقها بأمر منه:

- وكفاية هباب عايزك مصحصح معايا اليومين دول.

واختفى من أمامه.

وحينها فقط أدرك أيوب أنه عن عمد تم طرده من الساحة..

ليتولى تلميذه زمام الأمور.



(٨)

يحدث لصدفةٍ ألا تكون بمثابة ألف ميعادٍ..

ميلادُ عشقٍ كان مخاضه عسيرًا فتاه وضلَّ الطريق بين دروب العاشقين وحين عاد كان قد فات الأوان..

أم علَّها مقادير مكتوبة ومعها لا نملك من الأمر شيئًا!

وهو "نديم نصار" فاته قطار العاشقين فظل قابعًا عند محطة الانتظار عقب ما ضل طريقه فما عاد يملك سبيل العودة ولا حق الذهاب.

فقط عالق بين هذه وتلك..



عالق بين مخطوبة برتبة زوجة وبين حبيبة تسكن حجرات الفؤاد وحدها توجت مليكة فوق عرش نبضاته..

فالحكاية بدأت منذ ثلاث أشهر عقب عقد قرآنه بإسبوعين فقط من " شهد " ابنة عمه من ناحية أبيه وابنة خالته من جهة أمه.. فتاة رقيقة منمنمة القسمات ذات ضحكة عذوب تجمل محياها على الدوام، زوجة كاملة الأركان لأي رجل يبحث عن شريكة حياة وعمر، اختياره الذي كان بإتفاق بين عقل وقلب وكان من المحتمل الأكبر أن تنشأ بينهما حكاية عشق تغزلها خيوط الهوى لولا ظهور أخرى في الصورة.



أخرى ذات سحر خاص يسكن مقلتيها التي تلتمع بشذرات الزيتون، أثارت فيه زوابع من المشاعر المختلطة لم يجربها قبلا، فسقط بنياته صاحب الأسس الهشة شر سقطة.

عدة طرقات فوق باب مكتبه الأنيق داخل مجموعة_نصار للإستثمارات العقارية_ جعلته يتنبه من شروده وقبل دعوة الطارق للدخول كانت بالفعل تطل برأسها من فتحة الباب المواربة ترسم ضحكتها الندية:

- مفاجأة..

وأقبلت عليه بخطواتها الهادئة فما كان منه غير النهوض لإستقبالها بضحكة تشبه خاصتها وإن كانت دون وهج حقيقي، سلم لها وجنته تطبع



فوقها قبلتها لينهي هو التحية بأخرى فوق وجنتها بدوره..

- إيه المفاجأة الحلوة دي!

رسمت دور الغاضبة بحاجبين معقودين وهتاف عاتب:

- أعمل إيه وحضرتك مش فاكرني خالص، ولا حتى فاكر فرحنا اللي باقي عليه شهر ونص مش أكتر.

- تعالي بس إقعدي الأول، بعدها هعترف بذنبي من غير أي مراوغه.

تركت كفها بين أصابعه يتشبث بها ويسحبها من خلفه حتى جلسا فوق الصوفا الجلدية



متجاوران وحينها همس وهو يطبع قبلته الأولى داخل باطن كفها:

- أولاً حقك عليّ.. بس لازم تكوني عارفه أن كل ده غصب عني، من وقت تعب البوص الكبير وكل حاجة فوق دماغي.

و ثانية داخل باطن الآخر ليتابع وعيناه عن عيناها لا تحيد:

- ثانياً أنا مستعد لأي عقاب يرضي معاليك.

وابتسم!

طالعته في هيام بعيون عاشقة، فكما يفتن عيناها بوسامة ملامحه يفتن قلبها بعذوبة كلماته التي لا تجد أمام سطوتها سوى الرضوخ



والإذعان، وكان له مايريد لكن بما يعوضها فهي تراه بعد غياب ثلاث أيام كاملة.. همست بحركة كتفين ورفرفة أهداب مغزاها دلال:

- هسامحك لو عزمتني على الغداء.

ونهضت تتابع في توعد مصطنع:

- دلوقتِ.. حالا.. ها بسرعة قلت إيه؟

فما ما كان منه إلا أن يرفع لها يده في إستسلام لتقوم هي بسحبه تلك المرة.. وتحركا سوياً ملبيا دعوتها بطيب خاطر.

وحول طاولة أنيقه كانا يتجاوران عقب ما قام بطلب الطعام من النادل.. توقف إصبعها فوق



إحدى الصور داخل جهازها اللوحي فبرقت عيناها في إنبهار وصله عبر نبرتها:

- شوف دي يا نديم.

طالع الصورة مهمهما:

- همممم جميلة.

- جميلة إيه بس قول تحفة قول جنان!

تبسم لحماسها وهو يخبرها بأسف مازح:

- للأسف معنديش هوس الأنتيكات اللي لابسك ده.

أغلقت جهازها في إحباط هامسه:

- سيد الإحباط.



وفي ثانية عاد يشتعل الحماس من جديد:

- أنا بقى بعشقهم وهيكون بيتنا مليان منهم.

وعلى سيرة عش الزوجية تذكرت:

- صحيح باقي قد إيه بالظبط والجناح يكون جاهز للفرش؟ لازم تستعجل شوية يا نديم خلاص مفيش وقت!

حينما قابلها الصمت عاودت الهتاف من جديد لتقطع شروده ليدمدم سريعاً بذهن مشوش:

- يومين مش أكتر.

وزاغت نظراته من جديد يتتبع جلستها على بعد خطوات قليلة. جلسة عمل كما فطن منذ أول وهلة وقع بصره عليها.. ولا يدري في لحظته هاته



أمن حسن حظه أم من حظها أنها تواليه ظهرها، ولم تكتشف حتى الآن وجوده من خلفها برفقة زوجته.

جاء الطعام وتناولاه وسط ثرثرة شهد الغير منتهية، فهي لا تكف من الحديث عن البيت الذي سيجمعهما سوياً، عن ثوب الزفاف وليلة العمر المنتظره..

وهو!

هو ببساطة تشتت تركيزه وضاعت رغباته بظهورها أمام عيناه، في حضورها يفقد سلطانه على نفسه ولا يملك سيطرة على أفكاره المنجرفه ناحيتها قسراً دون حول منه ولا قوة.



وفي ثانية واحدة كان بصرها يحط فوقه عقب إلتفاته مباغته كانت تنوي بها رحيل عقب إنتهاء مقابلتها للتو، فقط ثوان شملته كله ومعه عروسه الضاحكة بسعادة.. إستعادت رباطة جأشها وتحركت خطواتها ناحيته ما إن قرر أخيراً رفع بصره ومواجهتها وفي قرارة نفسه يتمنى آلا تفعلها وتتقدم أكثر لكنها ثابرت بإصرار يكرهه فيها.. حتى إنتهت قبالته ترسم بسمة هادئة:

- صدفة سعيدة يا بشمهندس.

لترفع شهد بصرها لها ثم تعود له في إنتظار تعريف، بينما استقام هو يقابل صمودها بآخر وإن كان يكتم وراءه غيظ مشتعل:

- صدفة سعيدة فعلا آنسة ميسون.



وتابع بتعارف سريع:

- ميسون شريكة شغل.. شهد خطيبتي.

من جلستها مدت شهد يدها في مصافحة تعريف لتقابلها ميسون بأخرى وهتاف باسم حاولت جعله طبيعياً رغم ثقله:

- فرصة سعيدة، وألف مبروك عرفت من البشمهندس أن فرحكم قريب؟

تبسمت لتهنئتها وهتف بثغر ضاحك:

- لأ مبروك هستناها يوم الفرح، ضروري تشرفينا.

- اه طبعا إن شاء الله.



في وقفتهم تبادلا النظرات لثوان قبل ما تتمنى لهما السعادة يصحبها الرفاء والبنين لتختفي بعدها من أمامه في لحظة، بينما هو ظل شاردا في وقفته ولم يعي لحاله إلا حينما جذبته برفق ليعاود الجلوس هامسا ببضع كلمات مختصره قاصداً بها إيضاح أكثر لهوية الراحلة:

- بيننا وشركتهم شغل مهم الفترة دي.

تبسمت له في صمت ثم رفعت يدها تطعمه بها فتناولها بذات الصمت وهو يراها تكور قبضتها وترتكز عليها برأسها في ميل، لتهمس له دون مقدمات بتمهيد:

- أنا بحبك قوي.



إبتلع غصته بصعوبة وتلك النظرة التي تخصه بها لا يملك أمامها سوى تقبيل أنامل وهمس مماثل:

- وأنا كمان يا حبيبتي.

وإن كان العقل تائه مع أخرى والقلب يسكنه غيرها.

***

الغوص في المستنقعات لن يزيدك إلا وحلا!

وهو غاص وغاص حد انقطاع الأنفاس، ظن القصة ستكون منتهية بعودة لفتاة وكلا بعدها سيتبع دربه الخاص، وبالفعل حدث كل شيء كما خطط له، نال ثقة حلمي بيه بعد ما أخذ





مكانة أيوب وأزاحه عن طريقه، لكن بفضل تلك الساذجة التي إستهان بها عادت تتقاطع الدروب.. كل الثبات الذي حدث به أيوب في الأصل مزلزل، كل الثقه واهيه، يعرف سوداوية أيوب كما يحفظ مكره ولا يأمن غدره، عليه آلا يغفل فإحتمالية إتيانه بضربة مفاجأة شيء وارد، وهو بالكاد ثبتت أقدامه ونال على ثقة الرجل.. يجب أن ينهي تلك المعضلة بأسرع ما يمكن فلا ينقصه إثارة بلبلة لربما تبتلعه في موجتها بينما أسياد القوم أساس القضية لن تمسهم شاردة ولا واردة.



يجب أن يعود برتم حياته الهادىء المنتظم فتلك الجلبة لا تناسبه، وجود آخرين في مداره يثير فيه التوجس على الدوام..

و ما أعظم أن يكون ذاته المدار لكون نفسه!

كل تلك الصراعات هاجمت عقله وهو يصعد فوق درجات البناية القديمة في خطوات متباطئة، ولم يقطع شروده الذي سرقه من الزمان والمكان سوى ظهورها المفاجيء و نبرتها اللعوب:

- وشك ولا القمر!

وازى نبرتها ذراعها الذي إمتد جانبا يقطع عنه متابعة السير، ليميل بوجهه ناحيتها وبسمة



سمجة تحدد شفتيه وهو يأتي بالجواب بطرف البصر:

- القمر.

كتمت ضحكتها بطرف أصابعها وهي تترك تشبثها بإطار الباب وتقترب أكثر تضرب كتفه بخفه وتهتف بتشدق:

- والله ولك وحشه يا أبو علي.. إلا كنت فين يا حلو أنت ولا جاي منين؟

راقب أناملها العابثه فوق قميصه ونبرتها المتلونه بغنج فاضح برفعة حاجبين ليهتف بعدها متهكما:

- أنتِ هتصاحبيني؟



ثم سأل بملل:

- عايزه إيه يا ميمي.. لخصي؟

بإمتعاض كانت تغمغم:

- هعوز إيه يعني الحاج كان بيسأل عليك عشان إيراد العربية..

ماعدتش عليه يعني زي عادتك فنشغل باله..

وأردفت بعضة شفاه سفلى وأنفاسها تقترب من أنفاسه حد الإلتحام:

- وأنا إنشغل قلبي.

زفر بقوة وهو يبتعد عنها مقدار خطوة، دس يده داخل جيب بنطاله ليخرج عدة وريقات مالية، تركهم داخل يدها:



- وصلي دول للحاج وقولي له معلش على التأخير..

وإبتعد خطوتين عاد بهما سريعاً ليقترب منها بغته ويهمس لها جوار أذنها في شيء من عبث:

- وسلامتك قلبك يااا.. ميساء.

وآخر ما وصله منها كانت مصمصة شفتيها الممتعضة.. لينتهي داخل غرفته يرتمي بجسده فوق الفراش عرضيا، وعقله عاد يبحث عن منفذ، دون أن يظهر في الصورة، دون أي خسائر.

* * *

- I'm very sorry.



همست بها بنبرة صبغها الخجل مع رأس منكس، بينما عينيها لا تقوى على مواجهة صريحة وحينما لم تجد إجابة رفعت رأسها تطالعها في صمت.. كانت تدير لها ظهرها في وقفه متحفزة بملامح قاسية.. فركت كفيها في حرج وعقلها يتسائل..

أكان من الصواب أن تطرق بابها ليلاً وتلقي بإعتذارها بغتة!

وهل تلومها إن رفضت؟

ورغم ذلك التشوش تابعت بإعتراف أكثر غرابة وقع فوق أذن الأخرى، لكنها تناشد راحة.. راحة ضمير:



- أنا سمعت مرة بابا كان بيقول لماما أن غِنَى هي المقصودة..

وتابعت تدلي بسيل إعترافها بصوت مهزوز:

- من وقتها مش عارفه أعتذر عن المقلب السخيف ولا عشان عيشتي وقت بشع، كان المفروض أكون فيه بدالك.

تضاءل الهواء بمجرد ما صور لها خيالها أنها قد عاصرت ما مرت به نسمة المسكينة.. سحبت شهيق طويل قبل ما تردف بإختناق:

- بجد كنت هموت فيها يا نسمة!

رفعت نسمة بصرها تطالعها لثوان، فكت عقدة ساعديها ودارت ببقية جسدها تواجهها بدمع



جامد يأبى السقوط وكلمات بدت كنثر الملح بسبابة تشير ناحيتها في إتهام:

- تعرفي يا غِنَى أنا ربنا مرزقنيش بأخوات بس أنتِ كنت أختي، دايما كنتِ بالنسبة ليا كده.. صحيح لما كبرنا تغيرت طباعنا فبعدنا شوية، بس دايما كنت بقول لنفسي أن مهما حصل في رابط هيفضل ما بيننا.. لكن توصل أنك تعملي مني نكتة لصحباتك وتتسلوا بيا ده اللي ماقدرش أغفره أبداً.

عاجلت غِنَى بتقديم مبررات:

- ماكنش قص..

قاطعتها بحدة:



- مش هقدر.. مش هقدر أسامح صدقيني، على الأقل دلوقت.

وتابعت:

- وريحي ضميرك أنا مش بلومك على حاجة، علشان كل اللي حصلي ده أنتِ مالكيش ذنب فيه.. ذنبك الوحيد أنك قطعتي الحاجة الحلوة اللي كانت رابطة بيننا في يوم.

ما إن إستمعت لكلماتها حتى ناوشت أجفانها الدمعات فستدارت تركض، هربت من أمامها، من الإمتثال كطفل مذنب ونعم هي مذنبة.. مذنبة في حق من ربتها لسنوات، من كانت لها كأم ثانية، من ظلت طيلة عمرها تراعيها من الصغر حتى الكبر وجاءت هي قبل رحيلها بأيام



أهدتها وجع إستعمر فؤادها وإن كان دون قصد منها وحتما ذلك لا ينفي ولا يقلل من جسامة الواقع.

توقفت ترفع رأسها للسماء وبحشرجة صوت غلبه الندم كانت تهمس للراحلة:

- سامحيني.

***

السلطة

الجاه

وصولك للقمة

كل ذلك لا يمنع عنك وجود الحاقدين عند أسفل السفح، بل ذلك أدعى لوجودهم، لمسك



لنجوم سمائك العالية حتما سيكون له ضريبة قد تدفعها من راحة بالك أو طعنات تستشعرها في ظهرك ما إن تولي الدبر..

وهو رجل الأعمال الشريف ورجل السياسية الصالح سيدفع ثمن لمسه لنجومه العالية بسقوط مدوي عقب حريق، لا مكان للصالح وسط مجتمع ساده الفساد!

في المرمدة الكريستالية كان يدهس عقب سيجارة جديدة جاورت أعقاب عديدة أحرق بها جوفه وهو من أقلع عن تلك العادة منذ زمن، الدخان الكثيف داخل غرفة مكتبه المغلقة كان بمثابة رتوش أخيرة لصورة الرجل الناجح الذي تحول في غضون أيام لا تذكر لآخر تمكن منه اليأس



وتربع فوق أكتافه الهم حتى بات عاتقه مثقل بكل ما هو بغيض.

وهي لم تتركه من قبل حتى تتركه في لحظته هاته، مر بالكثير وكان دائماً المنتصر، لأول مرة تراه بذلك الضعف..

إقتربت منه ببطء حتى إستكانت أمامه تجلس القرفصاء،

تراقب ملامحه الساكنة بشرود..

ببطء رفعت كفها تستحوذ بها على أنامله الساكنة بدورها، ولعجبها لم يرفض قربها كسابق أيامه وعندها همست بإسمه في توسل أن يوارب باب صمته ولو للقليل حيث يمكنها الولوج:





- شهاب..

واستجابته لم تكن سوى من باب إنقشاع الغمامه ليسطع نور الحق بدال عن ظلمة الشك التي كادت أن تخنقه.. من باب تخفيف الثقل الجاسم فوق صدره:

- إمتى آخر مرة فتحتي حسابك على الفيسبوك؟

رمى بسؤاله العجيب دون إنذار، قفز على أثره حاجبيها حد تلاقي منابت شعرها، ورغم ذلك هي فقط ممتنه لوجود نقطة بداية.. لذا أجابت بنبرة حتما لم تخلو من الدهشة:

- من حوالي شهر اتعمل له هاك وراح مني، ومعملتش واحد جديد.



لم يصلها سوى زفرته الطويلة دونما يمن عليها بنظرة، فلم تستطيع كبح أناملها التي حطت فوق وجهه تديره ناحيتها ببطء،
وكان طوع أناملها حتى قابلتها عيناه وليتها لم تفعل!

كانت هناك تتراقص دمعات القهر

كتمت شهقتها الوليدة وهي ترتفع بجذعها تضم رأسه لصدرها دونما كلمات أو همس..

وعنه شدد من ضمها، يكفيه وطنها الصغير،
هناك فقط يمكنه لململت أشلائه المبعثرة..

فالأمر وقتما يصل لحد التطاول على حرمة بيته وسلامة أولاده حتما سيولد الضعف من رحم



الخوف، ولو ظل بنفسه يحرسهم ويظلل فوقهم بجناحيه ستبقى الوساوس اللعينة أكبر منه.

بالكاد وصلها همسه:

- حقك عليَّ.

إبتعدت برفق تضم وجهه بين كفيها و نثر الكلمات تلون بوجع الأيام الماضية:

- ماتبعدش عننا تاني كلنا محتاجين لك.. غِنَى محتاجة وجودك قوي الفترة دي، البنت بتعاني ومش بتتكلم.

وصمتت لثوان قبل ما تتابع بتأكيد أخير:

- كلنا يا شهاب كلنا.



كانت الضمة تلك المرة منه.. يشدد بذراعيه أكثر مع حروفه الهامسه بعذاب:

- بيهددوني بيكم.. حاسس بسلاسل ملفوفه حواليا.. بضعف متملكني غصب عني.

إبتعدت تواجه عينيه و تهزم ضعفه:

- بس دايما كنت بتثبت للكل أنك الأقوى، بالحق أنت أقوى منهم كلهم.

تنهد في قلة حيلة:

- المرة دي غير!

تسآئلت في شك:

- الموضوع زاد من بعد قضية نسمة مش كده؟

أجاب بهزة رأس مغمغما:



- كان شيء متوقع ومنتظر.

عاتبت بخوف يتسرب لجنباتها قسراً وتبغي مدارته:

- عشان كده من وقتها قلت لك بلاش.

-ماينفعش أقول للبنت تنازلي عن حقك.

- بس كده المركب هتغرق بيننا كلنا!

- البنت دخلت في دوامة كبيرة من غير ذنب، مش هنيجي عليها بزيادة ونظلمها أكتر.

صمتت وفي قلبها يموج الكثير.

***

قبل إنقشاع الظلام بوقت قليل كانت برفق تزيح ذراعه المحيط بخصرها عقب ما راح في سبات

عميق، إنسل جسدها ببطء من جواره حتى إنتهت عند بابها..

إرتفع كفها في تردد ثم أنهى الأمر بعدة طرقات خفيفة، لتقابلها بعد دقائق قليلة بوجه غلبه الإرهاق لا النعاس.

دلفت يسرا دون دعوة تشد من مئزرها الحريري فوق جسدها، تستدعي مسانده عقلها لا قلبها، وتتذكر فقط أنها هنا من أجله، لتخفف عن عاتقه ما يجثم فوقه ويثقله..

لأجل صغيرتها التي يلفها الندم ولا تقوى على غفران لذاتها الهشة فباتت إنطوائية حد القلق وحتى تسترد إشراقتها وتتفتح كما قبل يجب أن تنسى، والنسيان لن يكون بوجود هذه الأخرى.

لذا القراركان قد حسم من ناحيتها وما بقي سوى النفاذ!

والنفاذ لخصته يدها الممدوده برزمة من المال، مال تشتري به صمام أمان هي في حاجته:

- أنا آسفة يا نسمة بس وجودك هنا بعد وفاة مامتك مابقاش مناسب، أنا عارفة أن مالكيش ذنب في كل المصايب دي بس كمان ولادي مالهمش أي ذنب، أنا أم يا نسمة ومن حقي أخاف عليهم.. عمك موجود وبيته أولى بيك من أي مكان تاني.. المبلغ ده هيساعدك لحد ما تظبطي أمورك.



وعن نسمة فقد تيبس جسدها وهي تستمع لوقع الكلمات ولسانها لا يقوى على إخراج حرف واحد.. وما عساها أن تقول!

كلماتها قاسية؟.. موجعة؟

في النهاية حكمتها فطرة الأم الخائفة على صغارها فكانت الدافع والمبرر، ولأجل سلامة ركاب قاربها الصغير؟

ألقت بالزائد في عرض اليم ولا يهم إن كان قدره الغرق بين طياته!



(٩)

ماذا عن صعودِك لقطار آخر؟

قطار لن يصل بك حيث وجهتك.. محال أن تكون نهايته فوق أرضك

لكن؛ ماذا لو كان صعودك بجهل ليس إلا!

مالت برأسها فوق إطار النافذة وإنعكاس صورتها فوق الزجاج القاتم كان يستدعي بعضًا من ذكرى الأمس.. ذكرى كلما ظنّت أنها انغمست تعود وتطفو فوق سطح ذاتها في كل مرة تراه، في كل مرة يكون فيها بذات القرب..



اجتماع خاص انتهى بتوقيع عقدٍ جديد جمع بينهما في دنيا الأعمال، فقد تمّ للتو إبرام صفقة رابحة لكلا الطرفين..

الأول (فريد صبري) اسم بات له بصمته في تجارة المواد الغذائية الخاصة بشركته والثاني (نديم نصار) رجل الأعمال الذي سبقت خبرته سنوات عمره، فهو يُعَد فرعٌ هام من فروع المجموعة التي باتت تتوسع مؤخرًا في مجال الاستثمار حد الوصول لافتتاح عدة قرى سياحية وسلسلة فنادق شهيرة..



وهي سيدة الأعمال حديثة العهد كانت أكثر من سعيدة بهذا الاتحاد،



فدائرة عملهم الخاص تتوسع أكثر عن ذي قبل عقب ما حفر اسمه داخل خارطة العمل..

- مبروك.

بابتسامة مشرقه كانت تبادله التهنئة:

- مبروك لينا.

- إيه رأيكم في احتفال صغير بمناسبة الحدث السعيد؟

إقترح نديم وأجاب فريد:

- اقتراح عظيم لكن اعفيني أنا، السهر للأسف بيتعبني مؤخرًا.

التفّ بجذعِه ناحيتها بغتة يسأل بابتسامة خاطفة :



- طيب والآنسة ميسون رأيها إيه؟

حرّكت كتفيْها في تفكير لثوان ثم أعقبت بوهج خاص:

- ليه لأ.

والاحتفال كان عشاءًا فاخرًا يُشبه المكان الذي يجمعُ بينهما فقط. وبداية أحاديث كانت تخص العمل وامتدّت واستمرّت عن كل شيء إلّاه. حتى النهاية التي ذيّلها القلب بنبضاته.

قربٌ ارتوى من كليهما بالمقابلات المكررة باسم العمل ومهاتفات أخرى لا تمت له بصلة..

سقط بها أم سقطت فيه لا فارق!



حتى جاءت اللحظة التي كانت بها القشة الأخيرة في ذات المكان والطاولة التي جمعت بينهما أول مرة، وما كانت تظن به عرض زواج سينتهي بقبلة وخاتم يتوج ما نمى بينها وازدهر كان المسمار الصدِئ في نعش العشق ذي الميلاد القريب.

- أنا متجوز.

هكذا نطقها ببساطة!

حد أنها ظنته يمزح أو يلقي دعابة سمجة لا تناسب اللحظة، لكن متابعته للحديث بتلك النبرة اليائسة أزاحت كلّ الظنون جانبًا:



- وعشان أكون دقيق؛ هو كتب كتاب.. اسمها شهد.. قريبتي.

وتابع بعد لحظة صمت:

- صدقيني ماعرفش ده حصل إزاي ولا إمتى..

فجأة لقيتك جوه حياتي وفجأة اتغيرت بوجودك!

تنهّد وقد هربت منه الكلمات فاختارَ أن يُلقي باعترافه..

أسوأ اعتراف قد يمرّ على أنثى:

- أنا بحبك.

دارت صدمتها بكياسة، وتلحّفت بصمتٍ دام لدقائق، وحين عادت كان وهج عينيها يحتضر واندفعت الكلمات في قسوة واتهام:



- أنتَ خدعتني!..

وأردفت بحرقة:

- رسمت حدوتة تناسبك ومشاعري كانت الضحية!

زفر ببطء والنبرة احتلتها قلة الحيلة:

- ماكنش قصدي أخدعك بس الموضوع زي ما هو صعب عليكِ، كان عليَّ أصعب مليون مرة.

حدجته بنظرة نحرت بها ما بينهما بسكين ثالم، فأسرع يتشبث في أناملها يمنع كل نهاية آتية لا تناسب مبتغاه:

- ماعنديش استعداد أخسرك.. مافيش مجال للخسارة أبدًا.



التوى ثغرها في سخرية مريرة:

- طيب عندك استعداد تخسرها؟..

وسؤالها رغم سخريته الواضحة، إلا أن النبرة كان يلونها هزيمة أتت دون سابق إنذار.. وصمته طال حد الوجع.. فنهضت بكبرياء تلملم ما تبعثر من ذاتها، تخط آخر سطور عشقهما بل تمزق وريقاته قبل رحيلها، لكنه قاطعها بمبررات لن تقدم ولن تؤخر في نظرها:

- معنديش استعداد أأذيها.

في لحظتها جابهت بغضب:

- وأنا!.. مفكرتش قبل ماتأذيني؟!

أجبرها على مواجهة عينيه الثائرة بشتى المشاعر:



- عمري ما أفكر أأذيكي!

ارتدت بعنف خطوتها للخلف تبحث عن جواب يخلصها من دربِ الجنون الذي تحياهُ في لحظتِها:

- أنت عايز إيه يا نديم بالظبط.. جننتني!!

- عايزك تعرفي إني بحبك.. وعايزك مراتي حلالي.

ضحكة مفتعله، ساخرة، متشنجه بينما تردد:

- قصدك زوجة تانية بقى!..

وهزت رأسها في تتابع نتيجة ما تستمع من خبال، ثم ارتفعت سبابتها في وجهه قبل رحيلها تقطع به محاولاته وتسدل ستار الحكاية قبل البداية:

- إياك تفكر تقولها تاني، لا الأولى ولا التانية.



ومن بعد تلك الليلة كل مرة تلاقيه فيها بشأن العمل تستحضر في قربه شيئًا من صقيع..

صقيع تسرّب لما بينهما فتجمّد شتى ما كان، علّه يفقد كلّ أملٍ ومُبتغى، ولتُبقي ما في القلب وما تخفيه بين حجراته طي الكتمان.

لكنه على العهد ما زال باقيًا، يتشبثُ بأذيال كل شعورٍ بهتت ألوانه، وضعُف عنفوانه، فبات هشًّا أقلها نفخة هواء تُبعثره كالهباء المنثور.

وعلى هذا الحال عالقة حكايتُهما فوق أرجوحة العشق دون أرضٍ ثابتةٍ يغرسُ بها أساسًا متينًا يقوي بها الصرحَ المُختَل.

- الجميل سرحان في إيه؟



قالها بصوتٍ واهن يوازي وهنَ الجسَد، لتفيق من بؤرةِ الذكرى على بسمته الحانية، اقتربت تجلسُ بقربِه وتتشابكُ أناملُها مع أصابعِه وهمس هادىء:

- مفيش يا بابا.

أحنى بصره يرغمها على مواجهته في عتاب مُحبّب:

- هتخبي عليَّ؟

استكانت فوق صدره ببطء مراعاة لحالته الصحية.. بحاجته هي، تبغي مساندتَه التي لطالما كانت تنعم بها جواره:

- أنا محتاجة لك.





قالتها بتنهيدة ضعف ليبادر هو بمدِّ جسور التواصل ويده تمسد رأسها الساكن صدره:

- مش غلط أننا نضعف من وقت للتاني، إحنا بشر في النهاية.. المهم نعرف إمتى نقوم وإلا هنفضل الباقي من عمرنا تحت في القاع.. بس انا مش قلقان عليكِ، أنا عارف بنتي قوية كفاية عشان تواجه أي صعب.

رفعت رأسَها تواجه عينيه وتنصت لكلماته بعقلها..

يؤازرها بنفسِها..



يريدها القوية التي لا تُقهر لأنه مُدرك لبذرةِ الضّعف التي زُرعت فيها بجهلٍ منها، يخشى أن يكون جُل حصادها الخيبات والآثام.

طرقات هادئة فوق باب الحجرة قطعت النظرات وجذبت بصرهما معا.. لتطل عليهما بملامح وجهها الساكنة دونما تنبس ببنت شفه، لكن قسماته المهللة بحضورها كانت لها الصدى المتعال:

- سماح!.. تعالي يا بنتي.

ورحبت ميسون بدورها:

- نورتي يا سماح إتفضلي.



ثم دارت له بوجهها مع غمزة صغيرة وهمس شفاه استنبط منه رحيلها حتى تترك له مساحته الخاصة برفقة ابنته، وعقب إغلاقها للباب كانت الأخرى تتحرك ببطء حتى انتهت فوق المقعد ذاته بقربه، تتشابك أصابعها في بعض دون حديث،

كسر الصمت بعدما تشبعت بها عيناه:

- كنت عارف أنك هتيجي.. كنت مستنيك.

وتابع بابتسامة شفاه حانية:

- أصلك أخدتي منها طيبة القلب.

وكان يقصد أمها لذا عند ذكرِها تجعّد حاجبيها في امتعاضٍ وهمسَت بضيق حانق لمس فيه الصدق:





- جيت عشان اتبرأ من ذنبك مش أكتر.

ورغم نبرتها الجافة لم تغادر ثغره البسمة بل بادر بتربيتة كف لم تنفر منها تلك المرة:

- المهم أنك جيتِ.

***

ولحياتنا محطات ومحطات..

تتقاذفنا الأيام كمنجنيق يرمي بنا بعيدًا عن كل حلم كانت تراوده النفس، فتتحول اللوحة السريالية المحفورة بأعماق الروح لأخرى باهتة لا لون فيها ولا معنى..

في قلب عربة القطار السريع كانت تستكين داخل أحد المقاعد في هدوء يشبه الأموات، ترمي



ببصرها فوق النافذة الزجاجية فترى الصورة تمرق سريعًا أمامها كحياتها مؤخرًا، حياتها المبعثرة تمامًا كعقدٍ انفرطت حبّاته وسط رمل صحراءٍ قاحلة، ولجمعه من جديد هي بحاجة لعُمر جديد تعود فيه بمن كان في فراقهم الضياع.

ساعتان زمن رحلتها التي انتهت داخل محطة_طنطا_ترجلت من القطار وداخل عربة مستأجرة كانت تجلس جوار حقيبتها الكبيرة.. فبعد رحيل المرأة عقب ما نالت منها على شر طردة دون شفقة أو أدنى شعور، استحوذ عليها صمت لفترة طويلة حتى وعت تمامًا لأي نهاية وصلت، استأنفت بعدها إعداد حقيبة تشمل



على عدة قطع من ملابس وعدد من الأشياء التي تفوح منها عبق الذكرى، ألبومات صور تذكارية، مقتنيات خاصة وهدايا حظيت بها في عهد والديها الراحليْن. ومع إشراقة الصباح كانت تغادر المدينة بأكملها دونما تحمل معها فلسًا واحدًا من أموال السيدة المتروكة فوق المائدة كتعويض.

وهل يشترى نسيان الماضي بالمال؟

أو نضمن المستقبل ببضع وريقات!

تنهدت بقوة وهي تستعد لانتهاء رحلتها، فقد أوشكت على بلوغ مقصدها بعدما هاتفت عمها عبر الرقم المنسي في مذكرة أمها وتبليغه بخبر قدومها.

آخر مرة رأت عمها هذا كان في عزاء أبيها أي ما يقارب العشر سنوات.. تملكت القشعريرة من جسدها وهي تضغط فوق جرس الباب فسحبت شهيق طويل تهدئ به توترها، دقائق وكان الباب يوارب لتظهر من خلفه امرأة ذات طول مهيب وعرض لا بأس به لكن قياسًا بجسدها النحيف وطولها الطبيعي كانت لها كعملاق يطالعها من أعلى ببسمة لم تتضح معانيها بعد:

- أهلاً وسهلاً، اتفضلي يااا.. نسمة مش كده؟

حركت رأسها ببطء لتعاود المرأة الحديث بشبه صراخ ومازالت تحملق فيها:

- سعيد.. يا سعيد بنت أخوك وصلت تعالى استقبلها.



ظهر من خلفها رجلاً ببنية أضعف من خاصة امرأته يستقبلها بمصافحة يد تحمل شيئا من ود:

- أهلا ببنت الغالي.. ادخلي يا نسمة أنتِ مكسوفه من بيت عمك!

دلفت ببسمة هادئة ترد تحيتهم بهمس خفيض ليعاجل العم بتعريف وسبابته تشير لثلاث فتيات بمفترق أعمار يقفن بتجاور يطالعن ضيفتهم الخجول:

- دي داليا الكبيرة، ودي ريهام، والصغيرة دي هاجر.. سلموا على نسمة بنت عمكم يا بنات.



بضع قبلات طالتها من الثلاث صبايا بكلمات ترحيبيه متفرقة ردتها بأخرى مختصرة.

وعقب وجبة غذاء متواضعة ومتابعة لوصلة التعارف من قبل عمها الذي أمر كبرى بناته:

- خدي نسمة يا داليا خليها ترتاح في أوضتكم..

وتابع حديثه مديراً الدفة ناحية نسمة:

- ارتاحي دلوقت وبالليل نتكلم.

ثم أردف بأسف على الراحل لمست فيه بعض الاصطناع:

- فكرتيني بالغالي، ألف رحمة ونور عليك يا رفعت يا خويا.



انصاعت لكلماته بذات الصمت وبداخلها تُجاهد تلك الغصة التي تملكتها منذ أن وطأت بقدمها هذا المنزل الغريب عليها قولاً وفعلاً.

***

- حرام عليكِ.. معقول أنتِ يسرا تعملي كده؟!

قالها شهاب بقسمات أقرب للصدمة عقب ما استمع لجرمها كاملاً عبر لسانها منذ باكورة الصباح، كانت مازالت تتدثر بالشرشف في جلستها فوق الفراش، أمسكت برأسها بين كفيها بقوة تمنع صداع يشقه لنصفين وهي تدمدم في علو علّها تمحي تلك الصورة التي زينها لها بالقسوة والجفاء بمبررات لن تغني أو تسمن:



- أستحمل أي حاجة وكل حاجة لكن عند أولادي لأ يا شهاب، فاهمني لأ.. ماقدرتش أشوف بنتي في حالتها دي وأسكت.

صمتت هنيهة ثم تابعت برفعة رأس وعيناها تلتقط لوم عينيه القاس:

- علشان خاطر غِنَى كان لازم ده يحصل.

رفع رأسه للسماء في نفاذ صبر هامسا بضيق:

- مش بالطريقة دي، مش بالظلم يايسرا!

عادت تمسك رأسها بصياح مختنق:

- أنت ليه مش عايز تفهمني ولاتقدر موقفي! هو ظلم إني أخاف على بيتي وبنتي؟ ظلم عشان اختارت راحتكم على حساب مبادئي! طالعها في



صمت انتهى برحيله، تركها وحيدة تتصارعها الأفكار، تقاتلها الآثام، حتى سقطت في النهاية صريعة الندم.

***

ليلة جديدة هلت وهي في دار ليس بدارها، برفقة أناس ظنت لوهلة أنه سيكون بينهم المستقر، لكن كافة الظنون تلاشت منذ أول ليلة بعد ما أفصحت عن سبب مجيئها وقصدها لمنزل العم عقب ما ألقوا بها خارجًا ولم تجد سبيلا غير اللجوء لمن هو أولى وأقرب.. الأقرب الذي لم يتنازل ويقدم فروض التعازي في أمها ولو بالكلمات، الأقرب الذي كشفت حقيقة معدنة الصدأ، فقد ظن أنها آتية محملة بالمال جراء

عيشها مع أصحاب القصور وحينما وضحت له الصورة كاملة دون نقصان ألقى بثوب المرحب المهلل برؤيتها وتدثر برداء الطامع الذي يناسب قياسه، وعن زوجته فهي من البداية لم تطِق وجود ضيفة ثقيلة تشارك بناتها فراشهن، بناتها الغارقات كل في موالها الخاص دون رقيب.. فالكبرى لا تفتأ تترك هاتفها حتى تعود له بذات الهمس وكلمات الغزل التي تمطر بها في كل مرة شاب جديد غير سابقه.. وعن الوسطى فهي ساقطة في دوامة من الضياع تناشد مستقبل أوشك على الضياع بطاقة مفرطة لا تقوى على جمعها، أما الصغيرة فهي تمتثل لكلمات أمها تمامًا وتسير على ذات النهج.



وكانت لتتحمل وتحفر لحالها حياة بينهم فقط لأجل البقاء بين من هم يحملون نفس الدماء، البقاء جوارعائلة حقيقية وإن كانت جدرانها من حجر.

لكن حين يصل الأمر أن يتناهى لمسامعها صوت عمها وهو يضاجع زوجته ليلة وراء أخرى ذلك فوق احتمالها!

أفرغت جوفها في المرة الأولى وصمت أذنيها في الثانية وعند الثالثة كانت تلملم حاجياتها وتخط يدها لهم خطاب تشكر فيه حسن استقبالهم وفوق منضدة تتوسط الردهة تركته قبل الرحيل.. وذات القطار الذي غادرت فيه عادت به.





خلعت سوارها وباعته لأجل دفع إيجار الغرفة بالفندق فقير الخدمات، حتى عثرت على شقة متواضعة تناسب ظروفها وتسد حاجتها بعد مهمة بحث مضنية، ومهمة بحث أخرى لأجل الحصول على عمل تجد به لقمة العيش، وقد كان في مكتبة متواضعة بالحي المجاور وصاحبها العجوز الذي رأف بحالها وجاد بكل مستطاع.. وكانت لتتجنب كل تلك العقبات التي خاضتها لو استجابت لأمر السيد شهاب الذي جاء عبر الهاتف عقب رحيلها عنهم بساعات، يطالبها بالعودة على وجه السرعة إلا أنها فضلت الاحتفاظ بما تبقى من ماء الوجه فاكتفت



بشكره وإخباره أنها سعيدة بوجودها في كنف العائلة.

أزيز الهاتف جوارها جعلها تترك ما بين يديها من كتب عتيقة

وتجيب من فورها ما إن لمحت اسمه يعلو الشاشة المسطحة:

- ألو.. أهلا إزي حضرتك.. أنا الحمد لله بخير.. بجد!.. ربنا يكرمك يارب أنا مش عارفه أشكرك إزاي.. أكيد طبعا هكون هناك في الميعاد إن شاء الله.. ربنا يخليك.. مع السلامة.

أغلقت الهاتف وعلى ثغرها ترتسم ابتسامة راحة جعلت عجوز المكتبة يهتف بسؤال:



- خير يا نسمة يا بنتي فرحيني معاكي؟

ضمت الهاتف لصدرها وتقدمت ناحيته تهلل بفرح:

- ده شهاب بيه كان بيبلغني أن المحامي كلمه وقال له أنهم تقريبا وصلوا للناس اللي خطفوني وإن كلها ساعات ويتقبض عليهم.. وإني لازم أروح عشان أتعرف عليهم.

هلل العجوز بدوره:

- الحمد لله يا بنتي، ربك مايضيعش حق مؤمن أبداً.

ابتسمت في شجن وقد التمعت عيناها بالدموع تؤكد على كلماته:



- ربنا كبير قوي يا عم أحمد ومايرضاش بالظلم لعباده.

- روحي يا نسمة صلي ركعتين شكر لله وادعي إن ربنا ينتقم من كل ظالم وينصف كل مظلوم.. ادعي يا بنتي دي دعوة المظلوم مجابة.

هزت رأسها وهرعت تفعل مثلما قال ولم يتوقف لسانها بل ظل طيلة النهار يلهث همسا بالدعاء والشكر.. ومساءً عقب ما انتهى وقت العمل قصدت شقتها المستأجرة، وما إن حركت المزلاج وانفتح الباب حتى شهقت بهلع وهي ترى المكان مقلوبا رأسا على عقب، الأشياء مبعثرة وقطع الأثاث القليلة مهشمة ومتناثرة بالأرجاء، حتى ملابسها لم تسلم وقد كومت فوق بعضها على



هيئة خرقات بالية.. فزع جسدها وكتمت صرختها بينما أصابعها المنتفضة تبحث عن الهاتف في تعثر فربما يكمن فيه الأمان!

***

ضغط أكثر فوق المكابح مخلفا وراءه صريرا يؤذي السامعين، لم يفت الكثير وكان يقف فوق رأسها يطالع جلستها المرتعبة فوق الدرج المتهالك وأمام باب الشقة المفتوح على مصراعيه. كانت تنتفض فعليًا وصوت اصطكاك أسنانها يصله بوضوح، تضم جسدها بذراعيها وبصرها يرتكز فوق نقطة وهمية بنصف وعي.

تخطاها وتقدم لداخل الشقة، في وسط الردهة توقف يراقب جلستها من الخلف بملامح مبهمة،



حسنا.. لم يكن يدري أنها ستختاره هو دون الجميع لتستنجد به!

هو من أقام هذه الفوضى بقصد إخافتها!

نوع من التهديد حتى تتراجع عن أمر القضية بل وتنسى أمرها تماماً، لكنها حقاً فاجئته حين هاتفته.. بل أدهشته!

مسح عن وجهه وتحرك، يجيب أن ينهي الأمر كما بدأه دون ترك ثغرة شك واحدة، كاد أن يتجاوزها مرة أخرى إلا أن نبرتها المبحوحه وهي تنهض من جلستها بغتة أوقفت خطوته وألزمته نصف استداره:

- رايح فين!



قالتها في ذعر أثار ريبته وهي تقترب منه دون شعور حد أن أناملها كانت تلامس ساعده.. تابع بصره تذبذب عينيها والرعب المنقوش فوق قسماتها؛ فقرر تهدئتها ببضع كلماتٍ بعدما أجلى حنجرته:

- هشوف لو في حد بره وجاي.

تشبث بصرها فيه وهي تتوسله صمتًا ألا يتركها ويرحل في لحظتها، فظهوره حتى ينتشلها من بين ألسنة اللهب كما فعل من قبل بمثابة طوق نجاة التفّ من حولها بعد ما هاتفت السيد شهاب تسأله الغوث لكنها لم تتلقَّ منه أي رد فتضاعف رعبها وجاء تصرفها التالي دون تفكير



حين لجأت إلى هذا الأخير الذي لم يخيب ظنها ولم يفت الكثير وكان يقف فوق رأسها.

رعبها قرأه في عينيها بوضوح، دار بكامل جسده وتركيزه وترك ما كان ينوي جانبًا، وقف قبالتها يستمع لما تبقى من حديث وكان همسها المتحشرج بمثابة طنين يدوي عبر أذنيه:

- هيقتلوني؟.. أكيد عاوزين يقتلوني!

كانت تثرثر بجحوظ عينين و دون وعي حقيقي، حالتها تلك أثارت حنقه، لما لاتفهم تلك الغبية وتستمع لما يقول وتنأى بحالها عن هذا الجحيم الذي تخطو إليه بكامل وعيها!، من تظن حالها بالله؟ لو تركها لأيوب لنهشها بأسنانه دون سابق تفكير، وهنا لعن أيوب رأس المصائب ولعن



نفسه ولعنها قبل الجميع.. خرج غضبه المكبوت عبر صراخه فيها وهو يخترق خضرة عينيها بأمر مشتعل:

- أول ما النهار يطلع تروحي تتنازلي عن أم دي قضية هتوديكي في ستين داهية!

انتفض جسدها من نبرته وملامحه المكفهرة بغضب، فتلحّفت بصمتٍ ونشيجٍ خافت، قطعَه جذبه لها من كفها دون مقدمات، سحبها خلفه نحو الخارج بينما هي لا تقوى على اعتراض لذا تبعته دون حديث، دقائق مرت فلم تمنعْ حالها من الهمس بخوف:

- أنتَ واخدني على فين؟



اللعنة لما تنظر إليه هكذا ببراءة!

وكأنه بالفعل منقذها!

حرر رداً سخيفا وبصره يبتعد عن مرماها:

- تحبي ترجعي؟

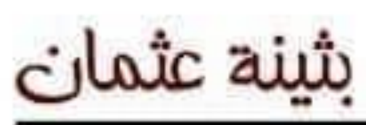
ظلت تتطلع إليه بدمعات مازالت تتساقط فأطلق سبة خفيضة لم تصل لمسامعها..

وبعد حين..

كانا يقفان أمام بيت قديم متهالك، دار بصرها في المكان من حولها في ريبة مع همس متوجس:

- إحنا فين؟!

أدار المفتاح ببط داخل المزلاج وأجاب بنبرة خاصة لا تمت غضبه السابق بصلة :



- في مكان ماحدش يقدر يقرب لك فيه.



(١٠)

خطوةٌ حذرةٌ

أخرى مترددةٌ

وهذه أخيرةٌ قررتْ بها تكون النهاية

تركها تقف تتلقفها الحيرة، وتحرك ناحية النائمة فوق أريكتها الأثيرة، انحنى بجذعه بعض الشيء يوقظها برفقٍ حتى لا تفزع في هكذا وقتٍ متأخرٍ، لكن ما إن لامستها أنامله كانت تنتفض من نومتها تهمس باسمه في فزعٍ:

- حسن!

في الحال طمأنها بربتةِ كتفٍ، ثم مال نحو أذنها في همسٍ لم يطل لترفع بعدها رأسها في ترحيبٍ



وتهليلٍ هو من شيمها الطيبة بينما يداها تتسابق في ضبط هندام وشاحها:

- اتفضلي يابنتي.. البيت بيتك.

رفعت له نسمة رأسها في حيرةٍ من أمره ليطمئنها بهزة رأسٍ، ونظرةٍ تعني اتبعي الأمر وكفى.. ثم هتف بصوتٍ جهوريٍ:

- نسمة هتقعد معاكِ يومين كده يا أم حسن لحد ما تلاقي سكن مناسب.

- ومالوا يا حبيبي تآنس وتنور.

- ياما جاب الغراب لأمه يا سيدي.



كانت تلك الأخيرة صيحة سماح الممتعضة عقب ما أقلقت نومتها تلك الغوغاء القائمة فجراً في بيتهم، تجاهلها حسن وحث ضيفته على التقدم:

- خشي يا نسمة تعالي.

وساندته أمه:

- اخص عليكِ يا سماح دي هتنورنا وإن ماشلتهاش الأرض نحطها في عينينا.

لم تجد ماتتفوه به، جلست قرب العجوز وطأطأت برأسها في حرج وضيق وإطمئنان، كانت زوبعة مشاعر تعصف بها دون نهاية.



تحرك حسن ينوي رحيلًا لكن قبلها راح يسحب شقيقته ناحية غرفتها، و أغلق بابها عقب ولوجهما معًا ليرفع لها سبابته في تحذيرٍ صارمٍ:

- مش عايزك تيجي جنبها، ولسانك يتحط جوه بؤقك مش عاوز قلة أدب.

لم يعجبها حديثه فطالعته بنصف عينٍ لثوانٍ هتفت بعدها:

- طب قصر وهات من الآخر وقول تعرفها من آنهي داهية دي؟

واستطردت بشيءٍ من استخفافٍ هازىء:

- آدي اللي ناقص كمان تدخل البيت دي أشكال!



اقترب من وجهها يتبسم لها بزيفٍ وخرجت حروفه من بين ضروسه معانده لأتهاماتها المشينة:

- طب لعلمك دي بنت ناس و محترمة.. وبعدين قلنا يومين وهتمشي.. خلصنا!

صمتت وعيناها تخبراه أنها لم تصدق حرفاً من كل ماسبق لكنه تجاهل الأمر برمته وخرج تاركاً إياها ليجد نسمة مازالت على وضعها كما تركها تطالع أمه في صمتٍ، وما إن رأته حتى انتفضت من جلستها، تقترب منه دون وعي، توقف يرمقها للحظات دنا بعدها وهمس بنبرة وحدها من تسمعها:



- اطمني ونامي ومتنسيش تفكري في كلامي كويس.

وكان يقصد تنازلها عن قضيتها الخاسرة في جميع الأحوال، هو لم يأتي بها إلى هنا عبثاً، عاجلاً أو آجلاً ستنتهي تلك القصة للأبد، وحتى يحدث ذلك ستظل تحت عينيه.

وعنها في لحظتها الفارقة هذه لا تملك غير أن تغمغم بطاعة:

- حاضر.. و متشكرة.

ظلت تراقب رحليه بنظرةٍ صامتةٍ كئيبة، رداء من صقيع تلبسها وهي تستدير بجسدها لتجد حالها



وحيدةً بين غريبتين تراهما لأول مرةٍ بل واقعها المرير يهمس لها بأنها ستبيت ليلتها بينهما.

أيقنت أن الأولى لا تبصر منذ أول وهلةٍ والثانية مازالت ترميها بنظراتٍ متحفزةٍ.. أجلت حنجرتها في صمتٍ وخرجت همستها مبحوحةً.. مرتعشةً:

- آسفة لو وجودي مضايقكم.

مصمصت سماح شفتيها في امتعاضٍ دون ردٍ، فلم تجد ياقوت غير النهوض، تبحث عن عصاها وما إن وجدتها حتى توكأت عليه وتقدمت ناحية الصوت حتى تقدم فروض الضيافة كما طلب بكرها.. أحاطت كتفيها بتروٍ فوصلتها انتفاضة الجسد النحيف أسفل كفها فسارعت بالقول:



- يلا عشان تنامي يابنتي وزي ما قلت لك البيت بيتك، يعني ماتشغليش بالك.

وتابعت توجه كلماتها لابنتها في شيءٍ من صرامةٍ:

- قيدي نور أوضة حسن لنسمة يا سماح وروحي نامي أنتِ

وراكي شغل الصبح بدري.

امتثلت سماح لأمر أمها دون نقاشٍ وراحت تستكمل نومتها بينما جلست نسمة على حافة الفراش بالغرفة الضيقة تتطلع لما حولها بقلبٍ واجفٍ.. ومازالت العجوز تملي عليها كلماتها بحبورٍ:





- خدي راحتك يا ضنايا.. عايزه حاجة قبل ما أسيبك ترتاحي؟

تشبثت في كفها بغتةً.. تتوسلها في رجاءٍ لاتعلم سببه المفاجىء:

- إدعي لي الله يخليكي.

لمست ياقوت أذنها تهدج نبرتها وتوسلها الصريح، دون تفكيرمدت يديها تقربها من صدرها بفطرة أمٍ فاستكانت لها.. ثم راحت تُربت فوق ظهرها برفقٍ وسيل الدعوات ينهمر:

- ربنا يريح قلبك وبالك يابنتي ويفرج عنك كل كرب وضيق.. قادرعلى كل شئ يا كريم.



اعتدلت نسمة تمسح بظهر كفها دمعاتها المنهمرة وأخذ لسانها يؤمن من ورائها.. لم تتركها إلا وقد دثرتها جيداً وتركتها بعد حتى تنال قسطًا من راحةٍ، لكن أيٌّ راحةٍ تلك وجُل الصراعات وأعظمها تقام بداخلها؟

قراران أحلاهما مرٌ يلفه الحنظل..

هل تتبع طريق الكرامة وتظل على مسيرتها نحو طريق الحق الوعرة؟

أم تقتصر السبل وترتضي بالظلم لحالها حتى تحيا في سلامٍ!



هل تسير بجانب الجدار تتلمس السلامة أم تبقى متمسكةً بدرعٍ من القوة وإن كان واهٍ لن يغني ولا يسمن ؟

في الأولى خسارة نفسٍ وفي الثانية خسارة روحٍ!

ولأنها فتاة.. وحيدة..

لا ظهر لها ولا سند قررت السير أسفل الجدار لا جواره.

***

- حلمي بيه جوه يااا آنسة لبنى؟

مال بجذعه يصل لمستوى مديرة المكتب الأنيقة.. الأنيقة بكرمٍ في الحقيقة، ولفظ اسمها من بين شفتيه كان يحمل نبرة أخرى.



ولبنى تراوغ ببسمةٍ لعوبٍ:

- نقول له مين يا فندم؟

عض فوق شفته السفلى كجوابٍ مبطنٍ تعالى على أثره ضحكتها الناعمة ليقطعها باب سيدها المفتوح مودعًا ضيفه السابق بحبورٍ ليلاحظ من فوره وجود الآخر، فهتف به بجمودٍ:

- تعالى ورايا يا حسن.

تبعه عقب غمزة عين رمى بها الحسناء وبالداخل كان يوبخه الرجل:

- مش منبه عليك تخلي بالك من تصرفاتك وماتحتكش مع الموظفين كتير؟!

- ده رزق يا باشا يرضيك أقول للرزق لأ؟



تشدق الرجل ضاحكًا مدمدمًا في شيءٍ من جديةٍ:

- لا يا سيدي مايرضنيش بس للمرة التانية

هقولك خلي بالك عشان الغلطة معايا بفورة.

أومأ في وقفته موافقاً في صمتٍ ليتابع حلمي:

- أقعد عايزك في شغل مهم.

جلس قبالته وجميع الحواس تتأهب لما سيقول:

- في ورق يخصني عند واحد صاحبنا.. الورق ده

لازم يكون عندي في أقرب وقت.

- عندك فكرة ممكن نلاقيه فين؟

- المتأكد منه أنه مش في بيته.

حكَّ حسن ذقنه في تفكيرٍ:



- همممم الموضوع صعب ومحتاج وقت.

تناول حلمي قلمًا يزيل توقيعه فوق شيك كان قد أعده سابقاً ومد به يده:

- عارف أنك مش هتغلب، ويكون في علمك المكافأه اللي بجد لما أمسك الورق بإيدي، الشيك ده مجرد فتح كلام.

تناول منه الشيك وبسمته الجانبية تتسع مع رؤية الأصفار لذا وافقه القول بنبرةٍ منتشيةٍ:

- كده نفكر ونتكتك صح.

وتذكر فاستطرد:

- طب بالنسبة لشهاب كارم المفروض الخطوة الجاية تكون إيه؟



فأتاه الرد بإيجازٍ:

- ده خلاص عرفت سكته.. المهم عايزك تركز في اللي قلناه دلوقت.

وأتبع حديثه بنهوضٍ يطفئ سيجاره ويهتف فيه من جديدٍ

وبصره يفتش عن ساعته يبغي معرفة الوقت:

- يلا بقى عشان اتأخرت على البيت.

ليعاجله حسن بينما ينهض بنبرةٍ باطنها الخبث:

- البيت بردو يا باشا..!

طالعه حلمي لثوانٍ في صمتٍ ثم أشار له بكفه كي يقترب ويدنو منه وكان له ما طلب ليهمس في أذنه بفحيحٍ هادىءٍ:



- شوف يا أبوعلي في منطقة كده تخصني

لوحدي ماحبش أشوف فيها حتى ضلي، الكلام

ده طول ما أنت شغال مع حلمي الجمال تخليه

قدام عينيك.. مفهوم؟

رفع السبابة والوسطى محاذاة رأسه ينهي الأمر

بتحيةٍ خاصةٍ تليق بالماثل أمامه:

- أنتَ تؤمر يا باشا.

***

" الحق سماح يا حسن! "

جملةٌ مقتضبةٌ مذعورةٌ بلسانٍ متعثرٍ كان على

أثرها يقطع الخطوات ركضًا من ملجأه الخاص

إلى بيته، بأنفاسٍ متقطعةٍ كانت يتوسط الجمع



الغفير الذي تجمهر حتى يشاهد المشاجرة الساخنة القائمة بوسط الحارة وأمام بيته تحديداً.. وجد شقيقته تجسم بثقلها فوق امرأة لم يتبين ملامحها حتى لحظته هاته..

فقط يستمع لصراخات الإغاثة الصادرة عنها بينما أخته تقتلع خصلاتها واحدةً تلو الأخرى بغضبٍ، وأزير لبوةٍ هوجاء انقضت للتو فوق فريستها بعد جوعٍ مفرطٍ..

انقض حسن على ذراعها يسحبها قسراً إليه، ينهي تلك الجلبة التي حضر لأجلها القريب والبعيد، ما إن استقامت قبالته بملامحها المكفهرة سحبها يجرها من خلفه، يزيح بذراعه كل بشري يُعرقل حركة سيره حتى انتهى بها



داخل البيت صافعًا بابه من خلفه.. وهتاف أمه المتوسل كان أول من كسر هياج الأنفاس:

- سايقه عليك النبي ما تمد إيدك عليها!

أسرعت نسمة المرتجفة تساندها في وقفتها المختلة وعيناها جاحظة تتابع الموقف بقلبٍ منقبضٍ.

وعنه، كانت عيناه مصوبةً فوق سماح لتزداد ناره المضطرمة مع هيئتها المشعثة تلك فلا يسمع ولا يبصر غيرها!

كان صدرها يعلو ويهبط تباعاً، عباءتها قد تمزقت قبتها بفعل يدي تلك اللعينة بينما وشاحها لا وجود له لتنل تلك الفوضى من



خصلاتها وتكتمل الهيئة الكارثية بحق.. نظرته المشتعلة جعلتها تتقهقر للخلف في خوفٍ تبحث عن أمها المذعورة بدورها، تختبئ من خلفها كدرع حمايةٍ من ذاك البطش الذي ستناله حتماً لكنها لم تكد تصلها حتى أعادها ذراعه لموقعها بغتةً، لينتفض لسانها من فوره مترافعًا عنها بكلماتٍ وأنفاسٍ متقطعةٍ:

- بتعايرني قدام الناس يا حسن، والله هي اللي...

وجاءت صفعته فوق وجنتها تقطع عنها متابعة تبريرٍ لن يقدم وبالتأكيد لن يؤخر بعد تلك الفضيحة التي حدثت منذ قليل.

تلبسها الصمت ولم ترفع رأسها.. تركتها منخفضةً، وكفها تحط مكان الصفعة تلقائياً

فقط دمعاتها من كانت تتحرك من بين جسدها المتصلب. ولم يكن ليكتفي..

عاد يجذبها من ذراعها، يحكم حوله الوثاق ويصرخ في وجهها:

- لسه مصرة تمسحي بكرامتك الأرض!

وتابع بذات الصراخ:

- مش دي أخت الدكتور حبيب القلب اللي مش قادرة على بعاده؟!

ترك ذراعها وقبض على فكها يجبرها على النظر في عينيه ليصيح من جديدٍ:

- تحبي أروح أجيب لك ضرفها فوق دماغه عشان ترتاحي ونرتاح كلنا من قرفك!!



زاد نحيبها مع قوة قبضته لتتدخل أمها من جديد رغم غضبها لما فعلت لكن دمعاتها كانت تشاركها الألم.. بحشرجة نبرة نهرته:

- سيبها يا حسن وغلاوتي عندك.

نفضها بعيداً لتختفي من أمامه تختبىء خلف بابها لكن صوته الغاضب كان يصلها بوضوح:

- يكون في علمك لو رجلك خطت بره عتبة الباب ده من غير إذني هكسرهالك.. عشان الأدب مش نافع مع أمثالك.

تقدمت نسمة مترددة تطمح في توضيح حقيقة اندثرت بين غضبه وصراخه الذي زاد من غضبها وكاد أن يصم الآذان:



- على فكرة البنت التانية هي اللي بدأت وغلطت فيها الأول.. أنا كنت واقفة في الشباك وشفتها.

رمت جملتها سريعاً ثم استطردت بغضبٍ اعتراها رغماً عنها:

- ومهما حصل مش من حقك تمد إيدك عليها.. على الأقل كنت اسمع منها الأول!

حدجها بنظرةٍ مشتعلةٍ لتختفي من أمامه بدورها في أقل من ثانية.. دار بوجهه ناحية أمه يستكمل وصلته:

- يمين بعظيم يامه لو بنتك خرجت من الباب لكون مكسر عضمها وقد أعذر من أنذر.

تحرك بهياجٍ في المكان وصوته يعلو من جديد:

- خناقه لرب السما واللي مايشتري يتفرج على الفضيحة..

عشان إيييييه!!

ولم ينتظر ردًا، اصطحب غضبه وراح يفضي به عند من كان صديقًا في يوم من الأيام.. اقتحم الصيدلية بثورته ودون مقدمات كان يجذب عادل من تلابيب قميصه، يلقي بجسده فوق الأرفف لتتساقط العلب مخلفة ضجيجًا مزعجًا.. ضغط أكثر يزيد من خنقه بينما كلماته يبطنها الكثير:

- إسمع يا هباب الزفت أنت.. أختك ماتجيش ناحية سماح من بعيد أو قريب وإلا وعزة جلال الله وقتها ما هقول دي حرمه!



حاول عادل تخليص نفسه من بين قبضته وسحب بعض من الهواء لكن دون فائدة، لذا لفظ كلماته المتقطعة عله يهدأ من غضبه المشتعل:

- إهدى بس ياا.. حسن ده.. ده إحنا كنا صحاب يا أخي!

سحبه حسن إليه ثم عاد يدفع به بغتةً ليرتطم جسده بقوة من جديد:

- مكناش ولاهنكون ياعرة الدكاترة.. فاهم؟!

حرك عادل رأسه بإيماءات صامتة فنفضه عنه وغادر بغتته كما ولج، ليلتقط عادل أنفاسه الهاربة بينما كفه ارتفع يمسد عنقه ودار بصره

من حوله يتأكد من عدم وجود أحدهم بل يشكر حسن حظه

الذي جعل تلميذته ابنة الجزار لم تأتِ اليوم.

***

جففت يداها ثم مدتها تحمل صينية الطعام، تنهدت بقوة وهي تتقدم للغرفة المغلقة، فتحت بابها ببطءٍ وتركت مابين كفيها فوق منضدة جانبية، جلست في تردد جوار تلك الصامتة منذ مساء الأمس حتى مساء اليوم.. فركت كفيها داخل حجرها والكلمات تأبى الخروج، جاهدت حتى تلفظها متحاشيةً النظر:

- حقك عليَّ، أنا اللي كلمته أستنجد به، بس ده كان طلب طنط ياقوت.

وصمتت لبرهة عادت بعدها تهون عليها ببسمة حانية:

- بس هو عمل كده عشان خايف عليكِ أكيد مايقصدش يوجعك.

رمقتها سماح لوهلةٍ باستخفافٍ ولم تعلق على تلك الدخيلة التي تستوطن بيتهم منذ قرابة الخمسة أيام وباتت تتعامل معها كصاحبة دار..

لكن لمَ تلوم عليها؟

كل اللوم على أمها التي تتباسط مع أيا كان حد تلك الألفة المقيتة على نفسها.. رفعت نسمة بصرها تطالعها بأسف وهي ترى الكدمات الزرقاء تملأ وجهها، مدت كفها لجانب الفراش



تجذب المرهم الخاص

بالكدمات وشرعت تضع لها ببطء لكن يدها

كانت لها

بالمرصاد فمنعتها الوصول.. ولأجل وصايا تلك

الحنون التي بالخارج وطلب العناية بها ولو

بالقوة لما كانت لتفرض نفسها عليها هكذا..

تكلفت بسمة هادئة وعاودت الطلب بلطف كبير:

- عشان الورم يخف.

جذبت سماح علبة المرهم بحنق وراحت تضع

لنفسها وما إن انتهت حتى ألقت بها جانبًا

وأشاحت ببصرها من جديد لتعاجلها نسمة مرة

أخرى واضعة صينية الطعام أمامها:



- عشان خاطر طنط ياقوت دي قلقانة عليكِ قوي.

لحظتها لم تجد حلًا غير التأفف بغضب ولسانها يرميها بسم الحديث:

- يا شيخة سيبيني في حالي إن شاء الله أموت أنتِ مالك.. هي كانت ناقصة هم أصلها!

ودارت بجسدها بعيداً عنها في تجاهل لوجودها، لم تغضب منها، حادة المزاج والطبع لكنها طيبة، هكذا تقول أمها وتشعر ناحيتها، تنحنحت نسمة تجذب أنظارها ببسمة صغيرة وتلاطفها بالكلمات:

- على فكرة الزعل مالوش علاقة بالأكل خالص.



حدجتها بنظرة قاتله فلم تجد غير رفع كفيها في استسلام دونما تفتر بسمتها.

وبينما تحاول هذه وتفشل في اختراق شرنقة غضبها كان حسن قد وصل لتوه من الخارج، خطى نحو الأريكة يجلس على مقربة منها ليضطجع في جلسته بأريحيةٍ أكثر ويلقي برأسه فوق الجدار من خلفه دون حديث، بطرف بصره يلتقط تسابق أناملها فوق حبات المسبحة بينما لسانها يلهث بالاستغفار عقب كل صلاة كما اعتادت.. قطعت صمته بسؤال خافت:

- مش جعان؟

اكتفى بهمهمة رافضة فتابعت علها تنهي ماحدث بأمومتها المعهودة:



- اللي حصل حصل يا حسن خلاص وسماح عرفت غلطتها.. طيب خاطر أختك وسيبها تنزل شغلها.

- استغفر الله العظيم.

همس يكتم بها حنقًا يحضر ما إن يحضر مشهد الأمس ويلوح في أفق ذاكرته.. دنت منه في جلستها تبعد عنه مايغضبه بل تنسيه الأمر برمته.. بنبرةٍ هامسةٍ وحده من يسمعها:

- صحيح ناوي على إيه مع بنت الناس؟

- بنت الناس مين؟!

- أقصد نسمة يا حسن دماغك راحت فين!



- آآآه.. معلش عارف تقلنا عليكِ يا أم حسن، بس أخر وعدي آلاقي لها شقة مناسبة تسكن فيها وآديني بدور.

- خد وقتك يا بني أنا ماقصدتش كده خالص.. طب ده الود ودي نسمة تفضل معايا على طول.

يعرف طبيعة أمه الطيبة بكرم، تعطف على البعيد والقريب ولذلك لا يتعجب من تعلقها بالفتاة الذي بات يلحظه طيلة أيام مكوثها الخمس حد أنها تعاملها كابنتها، خاصة أن الفتاة هادئة ومطيعة لأبعد حد وذات لسان معسول كما أخبرته وهي تعدد صفاتها صباح الأمس. لكن يجب عليها الرحيل فقد حلت العقدة بتنازلها عن القضية اللعينة وأنتهى أمرها للأبد.

هتف لها بعد شرود لم يطل:

- على طول إيه بس يا حجة هما يومين لو كترت يعني

وتروح لحال سبيلها.

- إلا قولي يا حسن مانفسكش تكمل نص دينك؟

وطريقتها الفاشلة في رسم الخبث أثناء إلقاء العرض المباغت جعلته يضحك بحق.. لتلكزه في كتفه وهي تنهره:

- يا واد بتكلم جد!

ضحك أكثر وهو يسألها:

- شايفة لي عروسة ولا إيه؟

أشرق محياها وهي تعرض ما في جعبتها:



- ست العرايس كلهم.. قلبي حبها والله ياحسن لله في لله كده.

- بسرعة كده وصلتي لأسطوانة قلبي حبها!! يا جبروتك يامه.

كان يتحدث بمزاحٍ ككل مرةٍ..

عروسٌ ورفضٌ وما بينهما ضحكات تجعلها تنهي الأمر بدعائها له بالهداية، لكن لو طاوعته هذه المرة سيكون الندم حليفها لذا سارعت تفند محاسن العروس:

- بنت ولا كل البنات.. أدب وأخلاق مفيش زي، ده كفاية أنها من توبنا وعلى مقاسنا، اسمع مني



دي تعيش معاك على المره قبل الحلوة، هتكون لك السند وال..

قاطعها:

- حيلك حيلك..

- تحبي أعملك أي حاجة قبل ما أنام ياطنط؟ ماتقلقيش على سماح هي كويسة وماسبتهاش إلا بعد ما أكلت.

جاء الصوت الحرج يقطع الحديث الدائر بهمس فيما بينهما.. فجذبتها ياقوت بهتافها الحاني:

- تسلمي من كل شر يا ضنايا.. تعبينك معانا يا نسمة.



تجاهلت نظراته المصوبة عليها وهمست تنوي هروبٍ سريعٍ:

- مافيش تعب ولا حاجة.. تصبحوا على خير.

- لحظة!

نصف استدارة لم تكتمل وجسدها يعود لسيرته الأولى، تراقب اقترابه بأنفاس بدأت تتعثر بحلقها رغماً عنها، هل سيخبرها أنه وجد شقة مناسبة؟ يا إلهي.. هل سترحل!

هل ستعود وحيدة؟

- أنتِ كويسة؟



إنتشلها سؤاله وعينيه تراقب شحوب وجهها المفاجيء، رمشت عدة مرات قبل ماتبتلع لعابها العسير وتهمهم بتعثر:

- أنا!.. أنا كويسة الحمد لله.

حاجبيه يلتقيان في استغراب لحالتها المبعثرة بينما عاد يغمغم وفكره يشرد، ولا يدري لما يخبره حدسه أن العروس المقصودة من قبل أمه لم تكن غير هذه الواقفه أمامه!

- لسه ملقتش شقة مناسبة بس قريب إطمني.

لم يتنبه بما غمغم وقد تعمق شروده فيما يفكر حد أنه لم يرى كيف اكفهرت ملامحها وتغيرت مع همس فاتر قبل ما تولي الدبر عنه وبصره



يتبعها.. استشعرت ياقوت ابتعاد خطواتها وصمت ولدها، بل أنها متيقنة رغم عدم رؤيتها لشيء أنه مازال يحملق في أثرها، بغتة همست له بصوت خفيض تكشف ما تبقى من ستار فوق حديثها بمبدأ طرق الحديد الساخن:

- طب بذمتك حلوة ولا لأ!

رمش عدة مرات وهو يتابع ألوان الخبث تشمل وجهها فتنفرج تجاعيدها رغما عنها، كم ود لو أخترق دواخل أمه وأستفهم عما يدور بخلدها من أفكار! مؤكد بداخلها سيناريو جبار يسقط مشاهده في نوبة ضحك أبدية.

مسح عن وجهه مقررا إنهاء المسألة السخيفة برحيل:



- أنا ماشي.. تصبحي على خير.

أوقفت خطواته بكلماتها المتوسلة:

- وحياة حبيبك النبي يا حسن ما تكسر بخاطري ولا تحرمني من اليوم ده.

واستطردت بدموع أم في محاولة لترقيق قلبه:

- نفسي أفرح بيك وأشيل عيالك يا بني قبل ما ربك يأخد أمانته.

- سيبيني أفكر.

كانت تلك همسته المقتضبة الأخيرة قبل رحيله لتنفرج شفاها بما يشبه البسمة وجسدها الممتلىء يتزحزج، تخرج كفها من النافذة



المفتوحة، ترفعهما للسماء المضيئة بالنجوم وتدعو بقلب أم صادق:

- ربنا يجعلها من بختك ونصيبك يا حسن يابني.



(١١)

ويسألونك عن الحياة؟

قُل لهم بضع مشاهد غير رتيبة، مرة سعيدة وأخرى حزينة، ربما تكون جدية أو هزلية حتى.. بالنهاية تتوالى خلف بعضها البعض صانعة لكل منا ذلك الإطار المسمى بالحياة.

وهي حياتها عبارة عن شيء من فوضى، كرة صوف متشابكة وكلما ظننت أنها قد حلت تطفو عقدة جديدة فوق السطح! لكن أيجدر بأمر الزواج أن يقال عليه عقدة؟.. غارقة في دوامة من الحيرة منذ مساء البارحة منذ أن راحت للمرأة تسألها إن كان هناك جديد في أمر سكنها الذي مازال تحت وضع البحث، إرتاحت للسيدة

الطيبة وهي تراها تعاملها كواحدة من عائلتها الصغيرة حد أنها بالفعل شعرت كأنما تعرفها منذ أعوام لا أيام، لكن بالنهاية شاءت أم أبت ستبقى غريبة والأفضل لها أن ترحل قبل ما تتعلق بها أكثر.. لكن حينها جاءها الرد الصادم وهي تسألها بكل وضوح دون موارة

" توافقي على حسن ابني يا نسمة؟.. تكوني مراته حلاله على سنة الله ورسوله!"

صدمتها جعلتها تحملق في المرأة دون حديث فقط بضربات قلب هائجة، لتسارعها من جديد بربتة كف حانية..





" بصي يا بنتي فكري براحتك وخدي الوقت اللي يعجبك.. بس إياكي تفكري أني بصغط عليكِ لا سمح الله، اللي تختاريه يا بنتي أنا معاكي فيه"

إنسحبت من أمامها بأقدام متعثرة ومنذ آنذاك وهي جليسة الوحدة والحيرة.. حقيقة لا تدري ماذا عساها تفعل، وماهية التصرف السليم!

ولكن هناك من بين جنبات الحيرة تضوي شعلة سعادة لا تنكرها، تثرثر الأثنى بداخلها وتهمس بوقاحة لاتليق بشخصها أنه يعجبها كرجل وأكثر من سعيدة بعرضه! بينما يعترض العقل فهو لايرى غير ميل طبيعي لمن أنقذها مرتين من بين أنياب الموت فمؤكد صورته سوف يتوجها تاج المنقذ والانبهار المؤقت.



لاتدري إلى أيهما تركن لكن هي تناشد هذا الدفء العائلي، لم ولن تعتاد على برودة الوحدة فهي ببساطة تقتلها.

إخترقت ياقوت وحدتها، تتقدم ناحيتها بإرشاد من عصاها وكفها الحر حتى إنتهت قربها.. وحينها عاتبتها بشيء من محبة:

- بردو كده يا نسمة؟ هو أنا غريبة عشان تتكسفي مني وتنعزلي جوه الأوضة من عشيه!

اعتدلت من فورها تنفي قولها:

- ماتقوليش كده يا طنط ربنا وحده يعلم معزتك في قلبي، ده كفاية بس أنك بتفكريني بماما الله يرحمها.. أنا بس.. أنا..



حثتها على الحديث:

- أنتِ إيه ضنايا.. قولي..

بشيء من حيرة كانت تهمس بتلعثم:

- مش عارفة أقول إيه ولا أفكر حتى.. عادة هما الأهل اللي بيتعاملوا مع الامور اللي زي دي.

مسحت فوق رأسها بحنان بعد لحظات تفكير:

- طيب مش بتقولي أني في مقام المرحومة والدتك؟ يبقى تسمعي مني.. أنتِ تقعدي تتكلمي معاه الأول بعدين تفكري وتاخدي قرارك.

وكان الصمت حليفها كالعادة.. فتابعت ياقوت تضغط برفق:

- إيه رأيك؟.. موافقة؟



وافقتها بهمس خجل مازال يحمل بعضا من حيره، لكنها تركت لها دفع مركبها الصغير علها تجد لديها أمانها المفقود.. وتستطرد ياقوت بجذل:

- ربنا يكملك بعقلك يا حبيبتي.

***

- والله يامه ده إسمه شغل جنان!!

هتف بها حسن حانقا من بين ضروسه في إستنكار لما فعلت أمه من وراء ظهره.. لتهتف فيه بدورها.. غاضبة:



- كده يا حسن! دي جزاتي أني عايزه أفرحك.. عايزه يكون لك ولد بدل ما تفضل عايش كده وحداني من غير ضهر ولا سند في الدنيا.

وتابعت بنبرة يشوبها الحزن:

- قطر العمر بيجري وأنت مش حاسس يابني.

نفخ حسن في ضجر:

- يا ستي قلت لك يومين أفكر..

وأردف في إستنكار:

- قبل ما يخلصوا الآقيكي مكلماني وتقولي تعالى أقعد معاها!.. أقعد معاها اقولها إيه بس! ده إسمه كلام بردو؟!

فاوضت بهدوء:



- هو أنت ماعندكش ثقة في اختيار أمك ولا أنا هقولك على أي واحدة والسلام يعني!.. وبعدين البنت صغيرة ووحدانية ياحبة عيني وماصدقت لقت نفسها وسطنا وأنتَ هتكون كل دنيتها وتحطك في نن عينيها.

رد في تهكم:

- ده إسمه جواز يامه، يعني ماينفعش يتحسب بالشكل ده.

ردت عليه بذات التردد:

- شوف يابني لو يعني عايز تشور أبوك أنا مش هزعل، ده مهما حصل هيفضل...

قاطعها بحدة كارها تخاذلها ونبرة الضعف فيها:



- أشور مين ياماه!.. قلت لك ألف مرة سيرة الراجل ده ماتتفتحش قدامي وإلا وقتها هتزعلي مني بحق.

راضته ببسمة حانية وهي تسأل وتلح من جديد:

- طيب إيه قولك دلوقت؟

ولم تنتظر منه جواباً وإستطردت من فورها بمحياها الباسم:

- أقولك روح دلوقت خلص شغلك بعدين تعالى خدها في أي جنينة ولا إسمه إيه ده اللي الناس بتقعد فيه.. إتكلموا ويا بعض شوية وبعدها اللي ربك عايزه يكون.. أقولها تستناك؟



وصمته جعلها تأخذ القرار عنه وتنهي الأمر بنبرة إستبشرت وقد سكنتها الفرحة رغما عنها:

-هقولها.

وعقبها لم تسمع سوى ضرب كفوفه المتعجب وضحكته المبتوره برحيل.

***

الحياة لدى البعض قد تأتي بمخالفة مبادىء ونهج بعض الطرق الملتوية لأجل رؤية قطعة منهم تنشر شذى الضحكات في أركان الروح، ولأجل إستقرار عاد بعد زوبعة أحداث كانت لها الصداره في خارطة أيامهم الفائته، حياة أخيراً عادت تأخذ مسارها الصحيح.



كانت تركض فوق درجات السلم وفوق ظهرها حقيبة تكاد تفوقها وزناً، وبين أصابعها هاتفها النقال تصرخ فيه بقوة:

- يا بنتي جاية أهو.. إصبري شوية بقى!

إنتهت من الدرجات وألقت بحالها بين ذراعي والدتها تودعها على عجل:

- هتوحشيني يا مامي..

ضحكت يسرا وهي تزيد على ضمتها:

- خلي بالك من نفسك يا مجنونه.

تركتها وراحت لأبيها تقبل وجنتيه وقد سبقها هو بالتوصية:

- أول ما توصلي تكلميني على طول.



إبتعدت على عجل وهي تصيح حين إرتفع رنين الهاتف من جديد:

- حاضر.. حاضر.

لمحت شقيقها الصغير في وقفته الغاضبة المتحفزة فانقضت عليه باحتضان سريع ثم إبتعدت عنه تعبث بشعراته في شيء من مواساة:

- خلاص بقى يا عمر هنكون سوا المرة الجاية.. متزعلش بقى Okay؟

إعترض بشفاه مقلوبة وعقدة حاجبين فحركت رأسها في قلة حيلة وتابعت طريقها بشبه ركض قطعه أبيها بنبرته القوية:

- غنى مش عاوز جنان، أنت لوحدك يا بابا.



هزت رأسها في إيجاب سريع ليتعالى الرنين للمرة العاشرة تقريبا خلال العشر دقائق الماضية،
لكنها قطعت خطواتها تلك المرة بنفسها وهي تستدير لتعود أدراجها سريعاً، تعلقت في عنقه بغته وتركت قبلتها هناك هامسه قبل إبتعاد:

- بحبك يا بابتي.

أخذت الحب من نظرته وقفزت من جديد توصيهم قبل إختفاء بكف يلوح برحيل:

- صالحوا عمر يا حلوين.

عقب رحيلها دارت تقابله وتهمس بقلق يكتنفها رغماً عنها:



- ياريتك ما وافقت يا شهاب هفضل قلقانه كده لحد ما ترجع.. ومن فضلك ما تقولش اسكندرية مش بعيدة دول مهما كان بنات لوحدهم!

أحاط كتفيها وطمئنها بحنو رغم قلقه الدفين:

- هي محتاجه ده، مش شايفه مودها اتغير إزاي؟

تنهدت في صمت فأردف وذراعه يقربها لصدره:

- ماتقلقيش أنا ظبطت كل حاجة هناك وكل خطواتها هتكون تحت عينيا.

تبسمت لحنوه ورفعت عيناها للأعلى تتبع إثر الصاعد منذ برهة ثم عادت بهما له ليغمض عيناه ويعود بهما ويهمس بقلة حيلة:

- اتفضلي قدامي علشان نصالح البيه المقموص.



وآسته ببسمة صامتة، فهي خير من يعلم مزاجية صغيرها الصعبة خاصة عندما يكون غاضب..

ويا لها من معضلة!

***

منذ غادر أمه وهو يقلب الموضوع برأسه، يحسبها من جميع الجهات، يرى خسائره قبل المكاسب، ولذهوله لم يجد أي خسارة!

فالفتاة تبدو أكثر من مناسبة لتراعي أمه وتؤنسها خاصة وقتما تتزوج سماح عاجلا أو آجلا، ومن جهة أخرى هي حل قاطع لعرض الزواج الذي لا تفتأ أن تنساه ياقوت حتى تعود وتذكره فيه وبعقلها ترقد عروس جديدة.. ماذا يخسر إن ضمها لصف نسائه؟ في الحقيقه لم يجد

مايخسره منذ قرر مسايرة أهواء ياقوت حتى لحظته هاته.

وفي لحظته هاته كانا بصدد شيء من شاعرية!

هي بثوبها الأزرق الطويل وحجابها المنمق

وعنه إختار ستره تناسب قميصه الأزرق الراقد تحتها!

وبعض المصادفات تستوجب لحظات صمت،

وكان الصمت حليفها منذ أن وقع بصرها عليه جالس في إنتظارها، ولولا علمها بخصامه القائم مع شقيقته، وفقدان أمه لبصرها لكانت أجزمت أن تلك المصادفة من تحت رأس إحداهما.



رفضت أن يصطحبها كما طلبت منها والدته وفضلت ذهابها بمفردها، لحظة إنفرادها معه تشعل تفكيرها وتربك حركة جسدها، ورغم ذلك تحركت بثبات حتى قابلته ببسمة صغيرة نهض على أثرها يسحب لها المقعد ويتمتم بتحية خفيضة.. أربكتها نظراته المحيطة بها، قطعها بعد حين بنحنحه وسؤال بسيط:

- تحبي تشربي إيه؟

- ممكن عصير.

همست بنبرة بالكاد وصلته وقد تركت له القوس مفتوح يختار ما يريد، أنهى الأمر بطلب كأسين من مشروب البرتقال البارد وعاد الصمت يتلبس الأجواء.

ولأن الحياة لديه تعني اليوم، لا يهم ما مضى ولا ماهو آت، الأهم هو أن يعيش اللحظة كما ينبغي أن تكون كان يراقبها دون قيود، يدقق بتفاصيلها بجرأة جديدة له معها، لكن أليس هذا ماتريده أمه!

ملعون ياحسن..

نعت حاله سرا بنبرةٍ متسلية، فالوضع كله مسلي لأبعد حد، هي عروس خجول وهو الشاب المكافح الذي يطمع في موافقتها لتسعد أيامه بالأفراح والليالي الملاح.

ضاقت ذراعا من تحديقه المبالغ فيه فقررت قطعه بكلمات لونها الإهتمام رغماً عنها:

- هتفضل أنت وسماح متخاصمين كده كتير؟

تقدم بجذعه بغته، يتكأ بذراعيه فوق طرف الطاولة ليقترب منها أكثر، بؤبؤي عينيها الخضروان يتحركان في توتر مما جعله يفتر عن بسمة خبيثة نقشها فوق محياه دون خجل قبل ما يجيبها بسؤال آخر:

- تنكري أنها غلطت؟

وظل حاجبه مرفوع في إنتظار ردها والذي جاء في هزة رأس وكلمات هادئة:

- لأ.. بس الخصام في النهاية مش حل.

اومأ لها موافقا في صمت دون حديث وعاد إلى مراقبتها بينما عادت عيناها تجول وتصول في كل



نقطة إلاه ولن ينكر إستمتاعه بتلك اللحظات العجيبة التي قدمتها له والدته دون سابق إنذار، مراقبة إرتباكها، تلعثمها وأناملها القابضة فوق محرمة ورقية حتى قتلتها فركا يثير مؤشر المتعة لدى حواسه.. أخذ عيناها بغتة بسؤاله المفاجىء وقد عاد بظهره إلى مقعده:

- تحبي تعرفي عني إيه؟

وهنا سحبت شهيق طويل، فسبب مجيئها قد حانت لحظته، تعلم أن الخجل لن يكون في محله الصحيح في هذه اللحظة، لذا إغتنمت اللحظة بشجاعة لم تخلو من الخجل:

- أنا ماعرفش عنك أي حاجة، فياريت تعرفني عليك بطريقتك.

صمت ريثما يقدم النادل العصير وما إن رحل حتى تحدث ببساطة، يخبرها بما هو متاح.. وفقط:

- حسن صبري.. ٢٧ سنة، بشتغل على عربية أجرة صاحبها واحد معرفه.

- دارس إيه؟

- خلصت ثانوي ومكملتش.

- ليه مكملتش؟

- ظروفي مسمحتش.

صمتت لثوان ثم رفعت له بصرها تسأله بثبات تحسد عليه:

- عايز تتجوزني ليه؟

وبسؤالها قفزت صورة أمه أمامه فأجاب بنصف حقيقه، ونصف صدق:

- عشان أفرح أمي..

ثم أردف سريعًا وفوق شفتيه تتراقص بسمة متسلية:

- وعشان دي سنة الحياة طبعا.

صدمها! كانت تنتظر إجابة أخرى لا تنكر، صحيح جمحت أفكارها إلى مناطق وردية لم تزورها من قبل لكن لم تتوقع أن تكون إجابته بتلك الواقعية القاتلة!



يلهث قلبها بين جنبيها في مجون لاتفهمه،

أخفضت رأسها أرضا تهرب خوفا لتفضحها

نظراتها.. قاطع تفكيرها الصاخب نبرته العميقة:

- سكتي ليه!.. خلصتي اسئلة ولا مش عارفه؟

رفعت رأسها ببطء ترسم بسمة هادئة، تحرك

كتفيها بعفوية وتجيب بهمس حرج:

- مش عارفه.

- طيب ممكن اسألك أنا؟

هزة رأسها الصامتة سمحت له بخروج سؤاله

الأول:

- توافقي تعيشي مع أمي وأختي؟

طالعته بصمت بينما يردف:

- سماح أخرتها هتتجوز، ومواينفعش أسيب أمي لوحدها عشان وضعها، خاصة أن ظروف شغلي ساعات تضطرني أغيب باليوم والأتنين.

أجلت حنجرتها برشفة عصير ثم همست ببسمة صافية:

- بالنسبة للنقطة دي ماعنديش مشكلة.

إسترخ في جلسته وعاد بظهره للخلف ومازال يحاوطها بنظراته، وكأنما بإجابتها وضعت حدا لتفكيره المتقلب، صمت كلاهما لدقائق، عاودت بعدها الحديث في تردد لم يخلو من التعحب:

- مش عاوز تعرف عني أي حاجة!؟

- عايز أعرف أنتِ هنا ليه؟



باغتها بالسؤال، وفي لحظتها لم تجد غير لفظ ما يؤرقها ويقتات على روحها، خرجت أحرفها نابعة من داخلها:

- عشان بخاف من الوحدة، نفسي يكون ليا عيلة بدل اللي راحت مني.

خرجت إجابتها مفلتره، نقيه دون شوائب تحمل شيء من براءة وعفوية لم يخفيا عنه منذ أول مرة وقع فيها بصره عليها، ومع ذلك وقع الكلمات سقط عليه بقوة لا تناسب بساطة الكلمات المنسابه من بين شفاها الرفيعة.. ولم يكن منه سوى أن يهديها إبتسامة صادقة.

إبتسامة حسم بها قراره..



فتلك العجوز القابعة فوق جمر الإنتظار تستحق أن يقدم لها تلك الهدية التي تناشدها بكل جوارحها أكثر من أي شيء آخر.

***

والحياة قد تكون قطار سريع توقف فجأة ومازال في العمر بقية، حياة فقدت بريق العيش وشغف السعي.. روح ستبقى سجينة خلف قضبان الماضي طوال العمر.

جسده المريض راقد فوق كرسي متحرك خلف النافذة الزجاجية العريضة، بصره يراقب حركة السيارات من علو بينما ذهنه وجوارحه غائبة برفقة الغائبين.. عاد لكنف بيته منذ أيام، وحينها إنقطع وصالها، هي من ظن أن العقبات

قد تلاشت بينهما وأخيراً وجد نقطة يبدأ منها سطره الجديد، لكنه الليلة بالذات أدرك أن ما يسطره اليوم هو في الأساس نتيجة ما كتب بالأمس وأمسه معهم كان فارغ بصفحات ناصعة البياض.

لم اللوم إذا!

أيبغي منهم ذكره وهو من تناساهم بكل إرادة تامة؟

فنسيان بنسيان والقاسي أظلم.

ببطء لفت ذراعيها حول كتفيه من الخلف، تخشى عليه مما يعتمل في داخله، تخشى أن يعود ليسكن بين جدران مشفى وهو لم يلبث أن غادرها.. هو زوجها، والد ابنها، سندها الذي

انتشلها وابنتها من متاهة الحياة فكان لهما خير عوض، لو فقط يفضي لها بمكنون صدره لربما وجدت مخرج لحالته.. ولأنها تخاف عليه بحق ويهمها أمره لم تجد في لحظتها غير تأنيبه بلطف شديد:

- وبعدين معاك يا فريد.. صحتك مش كده.

ضم قبضتيه بقوة وهمس بصعوبة:

- ابني بيتجوز وأنا مش معاه، سقطني من حسباته زي ما أنا عملت معاه وأخته زمان.. إبني اللي من صلبي عرف يرد لي القلم مضاعف!

منذ أن علم بأمر زواج بكريه وهو يهذر بألم لا يغادره، رغم كل مابينهما من جليد كان متأملا في



إذابته، لكنه وجد الحياة تمضي من حوله برتابة قاتلة وكأنما لفظته بمرارة مايجتر من ذكريات خارج مسار الزمن، كل من حوله لايفهمون مايحدث بداخله، لا أحد يشعر بنيران صدره، لا أحد يفهم أبداً..

ولأنها مثل الجميع لاتعلم عن شيء غير القطيعة الواقعة بينه وعائلته الأولى حد انه أصبح مؤخرًا يمرض ويعاني بسببها بشدة، اقتربت تضم رأسه لصدرها، تواسي ببضع ربتتات لن تقدم ولن تأخر ولن تعيد الزمن للوراء.

***

وليلة العمر ليست استثنائية وفقط



أنما هي لحظتك الفارقة

هي بداية انتقالك من حياة لأخرى بموازين ومعايير مغايره تماما لسيرتك الأولى

ثمانية وعشرين يومًا دون زيادة أو نقصان كان زمن خطبتهما، خطبة انتهت اليوم بعقد قرآن في بيته بين فرحة أمه الضريرة وخجل عروسه..

عقبها بساعات طويلة كان يدلف وإياها لغرفة كبيرة في أحد فنادق_شرم الشيخ_ الشهيرة.

ما إن دلف حتى ألقى بجسده المنهك من القيادة فوق أريكة تحمل رونق خاص تتوسط الغرفة ذات الإطاله الساحره..



وبقيت هي مكانها، بصرها يدور من حولها في تعثر وضربات نابضها تكاد تصم أذنيها، جسدها متيبس، أهي بدايات فقدان وعي إثر ذلك الخوف والرهبة المتملكان منها وتعجز عن التخلص منهما!..

طالعها وحاجبه يرتفع دون إرادة، يعجز عن تفسير ما يصيبها ما إن يختلي بها؟ تشعره كأنما ينوي التهامها!

إبتسم بخبث وقد راقت له الفكرة كثيراً، أخذ يتلكأ ببصره فوق قدها، ثوبها الأبيض الهادىء يضم حناياها برفق كأنما يخاف أن يصيبها بخدش، بينما الذهبي إحتضن خصرها من كلا الجانبين



ليبرز رونق الجاذبية الخاص به، أصابعها المسكينة طوال الوقت تضبط هندام حجابها دون حاجة كأنها تخشى فراره!

اتسعت إبتسامته وهو ينهض يخلع عنه سترته ويلقي بها جانباً، فكرة أن يتلذذ بكل هذا عن قرب تثيره أكثر من تلك المراقبة الصامتة.

- مبروك.

قالها بينما كفاه يتملكان من خصرها بغتة، رفعت له رأسها بذات التوقيت بفاه مفغر وقد هربت حروفها إثر لمسته ليباغتها بقبلة خاطفة فوق ثغرها مع إستطراده عابثة:

- بنقول مبروك.



حملقت فيه وإحتبست أنفاسها لوهلة عادت بعدها تهرب عن أسر عيناه، إقترب أكثر خلع عنها حجابها دون سابق إنذار وبينما أصابعه تعبث بخصلاتها وصلته رعدات جسدها المتتابعة.

أنامله جذبت ذقنها يجبر عينيها على لقاء، حينما لمح دمعات تهدد بالهطول تقطب جبينه حائراً، مغمغما بأول خاطر:

- خايفة؟

وهزة رأسها الصامتة وازت دمعاتان تحررتا من أسرهما لتنتهيا عند شفتيها.. مسح بإبهامه وجنتيها وعيناه عن عينياها لا تحيد، بعدها ترك خصرها وضم جسدها كله بين ذراعيه، وتسانده الكلمات في قهر خوفها:



- ماتخافيش.

وكان صادق، ربما لأول مرة في عهده معها يسعى بوجدانه لكسر خوفها، لايدري أهو تأثير عقد زواج أكد له أنها بالفعل باتت من ضمن نساءه، أنها امرأته قولا وفعلا!

ام عله بسبب هاتين العينين بنظراتهم الوديعة وخوفهم المسيطر على كل ذرة فيها.. في جميع الأحوال قرر جذبها لمنطقته الخاصة، فهي أكثر مايجيد:

-ماينفعش تخافي وأنتِ في حضني.

بعد دقائق كانت أنفاسها تهدأ بالفعل بين ذراعيه والنبضات تعود لرتمها المعتاد.. حينها لم



يستطع منع شفاهه من ترك بصمته الدافئة فوق تلك الشامة التي تزين جيدها الطويل،

انتقل بعدها لشفتيها يمنع منهما أي همس يقطع الوصال واللحظة، يخطف منها أنفاسها ويسلب منها كل إرادة كانت تناشد رفض، ليخضعها في النهاية تحت حكم سيطرته التامة..

وإن كان الحرام بات له مستساغ بلذته ونشواه..

يبقى للحلال سكرته الخاصة.



(١٢)

حينما يتدثر الواقع برداء الحلم

عليك الحذر من فقاعة السحر

افترق جفناها ببطءٍ لتعي في لحظتها لأيّ حالٍ أصبحت تنتمي، دارتْ برأسها جانباً تتأكد أنه بالفعل رابضٌ هنا في جوارها!.. وأنَّ كل ما كان وصار ليلة الأمس كان واقعًا ملموسًا وليس محض خيالٍ جامح.

كيف روّضها في دقائق معدودةٍ لتصبح كالعجين بين أصابعه يُشكلها كيفما يريد، كيف تعامل مع خارطة جسدها بحنكةِ خبيرٍ ليُفجر بركان أنوثتها بين يديه ويُطوعه في النهاية ملك بنانه!



- وقح.

حركت بها شفتيها دون صوتٍ، وذكرى الأمس تتوهج في ذاكرتها، أبعدت عنها الشرشف الأبيض ونهضت برفقٍ تخطو فوق أطراف أصابعها خوفاً من إيقاظه، حتى انتهت داخل دورة المياة.

سحبت شهيقًا طويلًا قبل ما يقع بصرها على هيئتها الفوضوية فوق السطح العاكس وحينها شهقت بحقٍ.. تحركت من جديدٍ بذات الحذر تحضر حقيبة يدها الصغيرة وعادت أدراجها.. بمساعدة بعض من المحارم وأدوات التزيين عادت بهيئة تليق بعروسٍ.

انسل جسدها برفقٍ داخل الفراش وسكن إلا من عينيها التي تحملق وتعود تنطبق بغتةً تبعاً



لحركة جسده حتى استشعرت صحوته فراحت تطبقهما بقوةٍ وتكتم أنفاسها، ومضى خمس دقائق.. فعشر.. وقاربنا على إتمام ثلث الساعة، ولا صوت غير أنفاسه الحاره تلفح وجهها وشعورها به يدنو من فوقها، نفذت قوة تحملها وبدأ جفناها في الارتخاء، عينها اليسرى أول من قررت المواجهة ليكون لها السبق في اقتناص ضحكته اللعوب، وتبعتها اليمنى، فشبه اعتدالٍ في موضعها تهرب فيه من قربه وجذعه العاري الملتصق فيها، ورغمًا عنها كانت عيناها ترميانه بتحذيرٍ قطعه بغتةً بقبلةٍ طبعها سريعاً فوق وجنتها اليمنى:

- صباح الفل.



وأخرى فوق اليسرى:

- صباح الياسمين.

ابتعد لتتسع ابتسامته وهو يخبرها بجدية:

- لازم أصبح بضمير.. سلو بلدنا كده.

ومال فوق عينيها ليطالهما النصيب:

- صباح الجمال.

ومع أنفاسها الثائرة توقف لبرهةٍ يرمق فيها بفضولٍ تجعد جبينها وحاجباها بينما كفها ارتفع يدفع به بعيداً فور ما استنبط نيته الخبيثة ولسانها يهتف سريعاً بغية هروبٍ:

- أنا جعانة.

رمقها بنصف عينٍ وفاوض بمكرٍ:



- تدفعي كام؟

همست دون تفكير:

- اللي عاوزه.

آخر ما وصلها كانت دمدمته أمام شفتيها:

- يبقى اتفقنا.

واختفيا معًا داخل فقاعةٍ من سحر فوق أرض الحلم

متنحيًا بها عن أرض الواقع.

***

حين يفرض الواقع هيمنته وسيطرته يجب عليك تفجير فقاعة السحر والهرب من أرض الحلم وإلا السقوط وقتها سيكون مدويًا.. مذيلًا للنهاية.

وهي بالفعل تتشبث في هروب منذ أن غادر الجميع ذلك الاجتماع القائم في مقر شركتهم، غادر الجميع إلاه.. تغوص داخل عدة أوراق دون رؤيةٍ حقيقيةٍ، عقلها يراقب في صمتٍ ذاك الذي يجاوره بذات الصمت.. صمت لم يكسره سوى سؤاله الواضح دون موارة:

- وآخرتها يعني؟

رفعت رأسها بغتةً تضغط فوق عويناتها دون الحاجة:

- أفندم!



تخلى عن مقعده وانتفض من جلسته، يشرف عليها من علوٍ
ببنيته العريضة وحروفه قد لونها الغيظ:

- ميسون مش وقت ملاوعة.

خلعت عويناتها ودارت بكرسيها قليلاً لترفع وجهها في مواجهةٍ لا بد منها، كتفت ساعديها وتوارت خلف عملي جدرانه من صقيع:

- آسفين عن التأخير، بس حضرتك عارف إن غياب بابا عن الشركة بسبب ظروفه الصحية مأثرعلى الوضع العام.. بس وعد إن شاء الله الطلبيات كلها هتوصل في ميعادها المرة الجاية بالساعة والدقيقة.



- ميسووووون!

كانت صرخته مشتعلةً.. بقبضةٍ أُحكمت فوق رسغها بقوة جنونه الثائر، ليقترب منها وينفث حروفه بأنفاس محترقةٍ:

- أنتِ مش حاسه بيا؟ إيه البرود اللي أنتِ فيه ده!

وعلامات تعجبه كثيرة لكن كفى..

طفح الكيل..

لم لا يرحل؟!

لم لا يحتفظ بصمته ولا ينطق بهكذا حديث؟!

لم لا يتركها ترمم بنفسها ما كسر فيها؟!



لماذا يصب البنزين فوق لهب جوفها لتنتفض من فوق كرسيها وتصرخ دون شعورٍ:

- كفاية تمثيل بقى.. كفاية كذب وحوارات.. دور العاشق المسكين مش راكب عليك بالمناسبة.

اقترب ما ابتعدت، وقف قبالتها يستنكر بملامح متجهمة:

- تمثيل!!

جابهت بقوة وإصرار:

- أيوه تمثيل.. أما يبقى فرحك على واحدة تانية بعد عشر أيام وأنت لسة بتغني في شعارات مش هتفيد يبقى تمثيل.. أما تصدق نفسك وتوهم قلبي أن لسه لنا مكان سوا يبقى تمثيل.



سقطت فوق الأريكة من خلفها بضعفٍ استشرى بغتةً في أوردتها حد لمعة مقل تنذر بهطولٍ قريب ونبرة كستها الخنقة:

- أنتَ تعبت قلبي؛ حرام عليك.

وكان يصرخ فيها القلب مستغيثا، فما يعتمل به لم يكن ولن يكون سوى حقيقة مؤكدة رغم قسوة الحقائق.. نزل لمستواها يجلس أمامها القرفصاء، يتشبث بأناملها ويتوسلها القرب:

- خلينا نتجوز، بكلمة واحدة منك هتريحي قلبك وقلبي.

وهه ساخرة وجب لها الحضور ليعقبها:

- وأبقى زوجة تانية؟



- مستعد أكتب كتابنا دلوقت وتكوني أنتِ الأولى.. دي كلها مسميات مالهاش معنى، المهم القلب بيدق باسم مين وعايز مين؟!

وكان جوابه سريعًا، بديهيًا قابعًا فوق طرف لسانه.. أبعدت كفيه عنها وطالعته ببغضٍ للحظة همست بعدها بألم:

- بس مش هكون الأخيرة.

زعق فيها بقوةٍ وغضبٍ:

- أنتِ ليه مش عايزه تصدقي أن عمري ما حبيت حد زي ما حبيتك،
ليه مصرة تقللي من حبي عشان ظروف حكمت أكون فيها؟!



طالعته بصمتٍ والدمعات تترقرق رغمًا عنها فتابعت بلومٍ ونبرةٍ واهنةٍ:

- ماقدرش يا نديم.. ماقدرش أقبل بحياة ناقصة.. ماقدرش أبني وأسس حياة على حساب ناس تانية.. ماقدرش أكون بالقسوة والأنانية دي!

- حتى لو هكون تعيس من غيرك؟.. أنا بعشقك افهمي بقى.

والآن يستدر عطفها!

ألا يكتفي هذا الرجل..

ألا يمل ويقطع خيط الأمل الذي مازال متشبثًا فيه..



غطت وجهها بكفيها ودمدمت من خلفهما بجفاءٍ راجٍ:

- امشي يا نديم، لو ليا خاطر عندك امشي.

يحدثها عن العشق!

هي بفضله تشبعت من الواقعية فما عادت تُغريها الأحلام.

* * *

حائرة بتفكير مشوش..

هل تُدلي باعترافها لينضم إلى قائمة أخطائها التي باتت تزيد بمعدل جنوني في الآونة الأخيرة أم تصمت.. تنهدت بين ذراعيه وقررت اختيار أقصر طريق:



- أقولك على حاجة يا بابا؟

- قولي يا روح بابا.

اعتدلت في جلستها تبتلع لعابها وتعود بخصلاتها للوراء في تجلجل وارتباك:

- أنا كذبت لما قلت لك صحابي زعلوني، بصراحة أنا اللي زعلتهم..

ونكست برأسها لأسفل ليرفعها بأنامله ويسألها بلطفٍ:

- طيب ليه عملتي كده؟

تغضنت ملامحها المنمنمة وهي تسرد ماحدث في رحلتها الغير مكتملة تلك، إذ عادت عقب ثلاثة



أيام بمزاجٍ عكرٍ غير ذلك الذي غادرت به، حركت رأسها يمنةً ويسرةً في افتعال صغير:

- عشان بيقولوا كلام مش كويس عليك..

واستطردت سريعًا بنبرةٍ ثائرةٍ:

- بس أنا زعقت لهم وسبتهم ومشيت.

جذبها إليه لتعود تغوص بين ذراعيه من جديد وكفه يمررها فوق رأسها ببطءٍ:

- يعني أنتِ مصدقتيش كلامهم وغضبتي ومشيتي؟

همهمت بخفوتٍ ليسألها من جديدٍ بنبرةٍ حائرةٍ:

- هتكوني فخورة بيا في يوم من الأيام يا غِنَى؟



شدت من ذراعيها تضم نفسها له أكثر وعن النبرة قد وصلته واضحة لا تحمل جدالًا:

- أصلًا أنت أحسن راجل في الدنيا.

وتابعت بنبرة غاضبة:

- وأصلًا هما أغبياء ومش بيفهموا.

تبسم لمزاجية صغيرته المتغيرة، يبدو أن صغاره كليهما يحملان تلك الجينات الخاصة بالمزاجية المتغيرة وإن كانت تميل للعكرة أغلب الأحايين..

تبسم مرة أخرى وهو يرى الصغير عمر قد غفى فوق ذراعه الأيسر بينما غنى تتوسد الأيمن بتشبثٍ وتترجاه بدلال طفولي:

- عايزه أسمع منك حدوته زي زمان.. بلييييز.



انصاع لطلبها بعد ما أراح عمر النائم فوق الفراش وضمها بكلا ذراعيه حتى غفت بينهما وغفى بدوره ولم يشعر بحاله إلا وأصابع زوجته تنقر فوق كتفه ببطءٍ وهمسها يصله من البعيد:

- شهاب قوم غير هدومك ونام في أوضتك.

وما كادت تنهي جملتها حتى كانت تسقط جواره فوق الفراش بعد ما جذبها بقوة ذراعه لتتوسد الفراش الوردي الخاص بغنى وباتت تجاوره مع صغيريه الذى تخلى عن ضمهما واكتفى بضم زوجته إليه دونما يفتح عينيه فانصاعت له وسكنت بهدوءٍ فوق صدره، لتصدح ضحكات غنى وشقيقها بعد ما فرد كلًا منها ذراعًا ليضما أبويهما معًا ويغفى الجميع دون حديثٍ.



***

" كلهم زي بعض.. واطيين"

خاطبت بها حالها وهي تثني جذعها تمسح أرضية الغرفة بنفسٍ ساخطةٍ، عادت تستقيم بجذعها بأنفاسٍ لاهثةٍ بتعب، لتقف عند إطار الباب وهتفت في أمها بنبرةٍ متقطعةٍ يكسوها الحنق:

- أنا مش فاهمة ماخدش الغندوره بتاعته في سكنه التاني ليه، هو احنا طايقينه لوحده عشان يقعد هو وهي معانا؟.. ومش دي الأوضة اللي سابها بسبب الحر والخنقه، دلوقتِ بقت حلوة؟!

لامتها ياقوت بوجهٍ عابسٍ:



- ده بدل ما تقولي الحمد لله أن ربنا هداه لنفسه وعلينا؟.. بطلي بقى كلامك الماسخ ده وجبيها لبر، ربنا يهديك أنتِ كمان.

تحركت ناحية المرآة الطويلة ونبرتها تعلو حتى تصل لمسامع القابعة بالخارج بينما أصابعها تدعك في المرآة تبحث عن لمعانٍ يرضيها:

- ولا ممكن أسامحه أبداً على مدت إيده عليّ.. أنا لو بعمل له حاجة فده عشان خاطرك بس مش أكتر، مع أنك دايماً جاية في صفه عليّ، بس يلا اللي عند ربنا مابيروحش.

- والله أنتِ بوء على الفاضي، لسانك يبعبع من بعيد لبعيد، أول ماتشوفيه حتى النفس تكتميه.



سخرت منها فشهقت وألقت بالخرقة أرضًا ولسانها يسبق خطواتها:

- طالما كده، يبقى أما تيجي الغندوره بتاعته تبقى تنفض له وتمسح له.. أنا كنت ناقصة هم يعني!

وارتمت جوار الضاحكة بتأفف.. لتهدأ من روعها بعدة ربتات حانية تصحبها دعواتها المبتهلة:

- الله يجازيكي يا سماح.. ويعوضك بابن الحلال اللي يسترك ويفرح قلبك.

- قطعوا وقطعت سيرتهم كلهم.

قالتها بسبابة و بصر ارتفعا للأعلى لتسخط عليها أمها من جديد:



- تصدقي الله يكون في عونه اللي هتكوني من نصيبه، ده أمه هتكون داعية عليه في يوم ماطلعتلوش شمس.. قومي ياختي كملي تنضيف لأخوكي يرجع في أي وقت مايلاقيش أوضته جاهزة.

نهضت على مضض وهي ترغي وتزبد مع حالها ولسانها مرة يمتعض وأخرى يتأفف حتى انتهت.

بعد حين كانت تتفقد هاتفها لتجد بضعة مكالمات واردة من أبيها.. صمتت للحظة تشرد نحو الفراغ وتغرق مع حالها، زارته لأنها شعرت بمرضه وعجزه داخل جدران المشفى، شعرت به ينتظر الموت المحقق في أية لحظة!





لكن الآن وهو آمن في بيته وبين عائلته التي فضلها عليهم كيف يطلب منها الإستمرار في الزيارة والوصال!..

بل كيف تخبره أن شعورها السابق ماهو إلا شفقة!

شفقة على رجل كان ينازع الموت.. أما الآن فلا شيء تكنه لأجله حتى يجعلها تستمر فيما كانت تفعل.. لا شيء ببساطة اللاشيء!

***

تقدم خطوة..

تبعها بأخرى في حذر، يتفقد خلفية المبنى بعيون مراقبة.. وكانت نتيجة بحثه وجود كاميرا صغيرة



عند البوابة الأمامية وأخرى من الجهة اليمنى للشارع الرئيسي، أما من الخلف لا وجود لأي نوع من المراقبة بالرغم من وجود نافذة صغيرة حتمًا ملحقة بأحد المرافق، يبدو أن صاحب_الشالية_ اعتمد على قرب المبنى المقابل حد أنه يبدو للرآئي أنهما متلاصقان، لكن عن كثب يوجد فراغ يكفي لعبور شيء ما..أو لنقل مساحة ضئيلة تكفي لعبور شخص ما!

سحب شهيقًا طويلًا وعاد بمنظاره الشمسي إلى عينيه وبين نفسه يتنفس بارتياح..

يراهن حاله أن تلك الأوراق اللعينة التي يريدها "حلمي بيه" ولا يطيق صبراً أكثر من ذلك ستكون هنا، فعقب التأكد من خلو خزينة الرجل



الخاصة ببيته ومكتبه لم يتبقى سوى هذا الشالية الذي يحميه بكاميرات المراقبة وحارس عجوز يحارب وحدته بالنوم.

حسناً؛ عرف خطوته القادمة وعليه التخطيط منذ الآن، ويأمل أن يصدقه حدسه تلك المرة.

عاد إلى الفندق بعقل متخم، توقف المصعد وترجل منه بذهنٍ شاردٍ حتى انتهى داخل الغرفة.

وجدها تقف عند النافذة العريضة بمئزر حمام ضخم وبين أصابعها كوب من الحليب الدافئ، روتينها اليومي الذي لا تمل منه ولا تتنازل عنه. كانت بدورها شاردة مع صفحة البحر الممتدة أمامها على مداد البصر، ما إن دلف حتى



وصلتها شخشخة مفاتيحه لتستدير تعاجله بوجهٍ عابسٍ:

- كنت فين وسايبني لوحدي كل ده!

أفتر ثغره عن بسمة ساخرة، فعلى ما يبدو زوجته تمارس دورها جيداً ومن خامس يوم زواج.. خلع عنه ثوب حسن الذي صنعته الأيام وأكتفى بثوب الزوج المبتهج بعروسه حد الانتشاء، اقترب يجاورها بحاجبٍ مرفوعٍ وتفكه قائلًا:

- نزلت اتمشى شوية على البحر.

أخذ منها الكوب ونظراته تتلكأ فوق خصلات شعرها المبتلة؛ المحيطة بوجهها الصبوح..



ارتشف من الكوب ببطءٍ ليتابع بنبرةٍ ملتويةٍ..

ماكرةٍ:

- وكان فيه شوية مزز إنما إيه.. عنب.

رسمت ضحكة سمجة وهي تجذب من بين يديه

كوبها تنهي ماتبقي فيه ثم تضعه فوق المنضدة

بغيظ بينما تهتف بقسمات عابسة:

- دمك تقيل على فكرة.

قهقه بجذل وذراعه يحيط بخصرها بغتة، يرفع

قدميها عن الأرضية

بسهولة ويلقي بحاله وإياها فوق الأريكة الجانبية

بينما يدمدم:

- لو زعلتي أصالحك عادي.



لم تحاول الإبتعاد، بل تركت لرأسها حرية البقاء فوق صدره ولأناملها حرية السير فوق ذراعه، ينكسر حاجز الخجل فيها بسرعة تفاجأها هي شخصيا، ربما يحفزها شعور الإنتماء، هي تنتمي لهذا الرجل بكل مافيها، وأكثر من ممتنة على جرعات السعادة التي تتذوقها في قربه بعد أيام مرت عليها من شدة قسوتها أنستها طعم ذلك الشعور.. خطفها من شرودها بهمس جريء وشفتيه تعبث بجيدها الرطب:

- بس إيه رأيك في سلو بلدنا؟

انتفخت أوداجها في الحال، وبسبابتها لكزت كتفه بقوةٍ:

- بطل بقى.



تركها تغوص برأسها في صدره وعاد برأسه للوراء، يلتقي جفناه في استرخاء وعلى شفتيه بقايا ضحكة عالقة، لم يدركم مر من الوقت حتى شعر بأناملها تداعب جانب فكه ببطء ناعم افترق له جفناه ليقابله وجهها القريب وشفتيها تهمس ببراءة منبعها صدق قلبها:

- أنا ربنا بيحبني عشان عوضني بيك.

وأردفت بنبرة صبغها الضعف رغما عنها:

- أنتَ كل حاجة ليا ياحسن.

ختمت جملتها وذراعيها يلتفان حول خصره بقوة بينما رأسها تعود لصدره حيث سيرتها الأولى.



تجمد جسده إثر كلماتها، لم يكن يتحرك فيه غير قلبه اللاهث.. كان قلبه يلهث بالفعل!

كيف تتطلع إليه وكأنه الوحيد الذي تراه؟

شعر بحاله ينحدر من فوق قمة جبل فجأة!

تنحنح يجلي حنجرته ويداه يبعدانها عنه برفق، ينتشل حاله من بؤرة السقوط ويتمتم بشيء من لعثمة:

- إيه رأيك ننزل نفطر تحت ونتمشى شوية؟

ابتسمت توافقه بهزة رأس نهضت بعدها تستعد.. كانت تقف خلف المرآة حين أتتها الجرأة لتهمس بحذر:



- صحيح يا حسن، مش بتفكر تدي اباك فرصة تانية؟

وسؤالها الساذج خرج تحت ظل الأيام الماضية التي قضياها سويًا حتى ظننت أن ما بينهما تخطى حواجز الحديث بكثير، لكن نظرته المشتعلة التي حدجها بها عكست كل ظنونها حد أنها كادت تلقي بإعتذارها السريع لولا جملته المقتضبة:

- خلصي عشان ننزل.

ونهض يوليها ظهره عند النافذة بملامح متجهمة.. لتوبخ حالها.. حمقاء!!

كيف لها أن تسأل وهي أكثر من يدري أنه لايطيق أي حديث يمر بذلك الأمر، هكذا أخبرتها أمه



عقب ما قصت عليها الحكاية كاملة ليلة ما
أعلنت موافقتها على الزواج.. تحركت دون تفكيرٍ
تنوي إصلاح ما أفسدت في التو واللحظة لكن
اسم مألوف يطل من الجريدة المصحوبة برفقة
وجبة الإفطار الخاصة بالأمس جذب بصرها
فسحبتها عنوةً، وما كادت تفعل حتى أطلقت
شهقةً لم ينجح كفها في كبحها بل جلبت زوجها
الذي انتفض في وقفته لشهقتها المذعورة، يرمي
بصره فوق الخبر الذي اكتسح الصفحة الأولى
للجريدة وبالبونط العريض:

وفاة رجل الأعمال والسياسي شهاب كارم في ظروف غامضة

(١٣)

يرفرف جناح الموت سالبًا الأمان

يخطف الألوان من الحياة فتغدو كئيبة

يتوقف الزمن عند لحظة الفقد

وتتيه الروح مع لحظة الفراق الأبدية

كيف اختفي من بينهم بغتةً! بالأمس كانوا يغفون على صوته واليوم يصحون على صرخةٍ مستقبلين بها يومهم الجديد حاملًا خبر موته!

مرعبةٌ هي فجيعة الموت، مخيفةٌ لمن هم في مقتبل أعمارهم، ثقيلةٌ على قلوب الأحبة الضعيفة..



وهي رغمًا عن أنف الجميع تُكن للراحل مكانةً لا يقتربها أحد، وما حدث سابقاً رغم قسوته لن يمنعها القدوم اليوم وتقديم فيه فروض العزاء كما يستحق الفقيد.

بأقدامٍ مثقلةٍ وقلبٍ واجفٍ ما إن اشتم رائحة الموت تفوح من المكان تقدمت بالخطى، تجمدت في مكانها لحظات حين وقع بصرها على الزوجة المنكوبة تتوسد صدر أمها، تبكي وتنوح بحرقةٍ.

حرقةٌ استدعت دمعاتها من جديدٍ والتي مالبثت أن جفت لتعود.. حثت نفسها على التقدم لتنتهي من هذا الثقل الجاثم فوق صدرها حتى كاد يخنقها، بصوتٍ مهزوزٍ لم تتضح حروفه كانت تهمس:



- البقاء لله.

وجُلَّ ما نالت هي نظرة وجعٍ حدجتها بها يسرا لتعاود بكائها المصدوم والغير مصدق حتى هذه اللحظة أنها بالفعل فقدته، بل تأخذ عزائه!..

كيف ومتى؟

لا تدري..

جُلَّ ما تُدرك أن حبيبها وصاحبها، رفيق دربها وقلبها رحل دون عودةٍ.. مضى دونما وداعٍ.. غاب تاركاً في قلوب ذويه وجيعةً ستخلد أبد الدهر.

تركتها نسمة تحيا وجعها الكبير وراحت تتشبثت بكفها فوق الجدار، تستدعي تماسكًا وقوةً هم أكثر ما تناشد الآن.. فرؤية الصغار حتماً ستكون



أشد عذابًا وتنكيلًا، تجبر عقلها على استحضار بضع كلماتٍ تشد بها من أزرهم.. لكن وأسفاه..

جُل ما يحضر لديها بضع صورٍ تحمل عبق الذكرى لمن نشأت وتربت بين كنفهم وكانوا لها في مقام العائلة ذات يومٍ.

لمحت امرأة ثلاثينة تغادر غرفة "غِنَى"، سألتها سريعاً بنبرةٍ مهزوزةٍ عن الصغير "عمر" ليأتيها الجواب مبردًا على قلبها، فالصغير رحل برفقة أحد الأقارب، كانت تتلهف لرؤيته والإطمئنان عليه لكنها لا تنكر شعور الراحة المتسربل لقلبها، هكذا أفضل له، سنه الصغير لن يتحمل هكذا أجواء خانقة.. عاودت السؤال بذات الهمس مع اختلاف المقصد ليأتيها الجواب الخافت:



- آنسة غنى في أوضتها.

جففت دمعاتها وسحبت شهيقًا طويلًا قبل ما تدير المقبض، وقع بصرها فوق الغافية وسط فراشها.. تقدمت بحذرٍ تتفقدها برويةٍ، تمسك بكفها الراقد تارةً وأخرى تمسح بأناملها عرقها المتفصد فوق جبينها. وجهها شاحب، يشع منه وجيعة الفرآق، ومن غيرها أدرى بذلك الفقد العظيم، تنهدت في ألمٍ وأخذ لسانها يتلو ماتيسر لها من الأدعية تطلب فيها من ربها الرأفة واللطف بقلوب سكان هذا الدار، فلا هم أهل للوجع ولا الوجع أهلًا لهم، قلوبهم هشة، ضعيفة لا تقوى على ذلك.



نشيجٌ مكتومٌ وأناتٌ متهدجةٌ صدحت من تلك الغافية، لتقطع على نسمة شرودها الذي طال، تبعثرت الكلمات والحروف أمام العينين الداميتن فلم تجد لسانًا يحيك جملة واحدة مفيدة.

شاركتها الفقد بنظرة وجعٍ، ودمعةٍ سقطت رغماً عنها لتزوم غنى بشفتيها في اختناق، أخذت تعلو الهمهمات المتألمة رويداً رويداً حد تشنج الجسد المنكمش على

حاله!

انتفضت نسمة تبغي مساعدةً أيًا كان فوضعها لا يطمئن، قبل ما تصل للباب كان ينفتح بالفعل وتندفع منه المرأة التي قابلتها منذ دقائق وتبدو أنها هنا لأجلها، تحمل بين أصابعها محقن

وتقترب من تلك المتكومة على حالها بحروفها التي حاربت كل صمتٍ وقهرت كل ألمٍ وهي تصيح بهستيريا واضحة للعيان بكلماتٍ كثيرةٍ متهدجةٍ لم تعِ منها سوى كلماتٍ تكررت تباعاً تباعاً:

- قلبي يا بابا، قلبي يا بابا..

كأنما بصراخها تناشد من توارى تحت الثرى أن يرد لها قلبًا بات أجوفًا، فارغاً إلا من ألم فقدانه.

كان دوى كلماتها المفجعة يستقر بقلب تلك المنكمشة على حالها عند الباب تراقبها بعيونٍ تحجر بها الدمع، ظلت على حالها تراقبها حتى هدأت قسراً بفعل المهدىء وأخذت مناجاتها



تخفت حتى تلاشت حروفها وسط انتفاضة شفتيها.

أطلقت نسمة لقدميها العنان يتسابقان كلًا على حدى، تبتعد وتتبتعد مخلفةً من ورائها رائحة الموت المميتة، لاح لها طيفه رابضًا داخل السيارة ينتظرها برأسٍ ملقى للخلف وعيونٍ شاردةٍ ولم يلبث حتى انتفض من جلسته ما إن رآها تقف قبالته بكتفين انحنيا لثقل تلك الهموم وعيونٍ تشوشت رؤيتها، بينما جسدها لم ينتظر تحركه بل سارع له الخطى يرتمي بين ذراعيه.

كرهت الموت بألمه ووجعه الذي بات يستوطن قلوب غيرها، ملت القهر والعجز الذي رأته يطل من بين العيون الدامية، تعب ووهن أصاباها

فلم تعد بها ناقة ولا جمل على هكذا حياة قاسية تأخذ منها الكثير وتمن بالقليل..

وقد تكون ضمته الحانية تلك من القليل الذي جادت لها به الدنيا.

***

والألمُ لم يكن ليقتصر يوماً على فقد عزيزٍ وغالي، بل فقدانك لذاتك في خضم حياة ألقت بكَ فوق مرفأ لا يمت للأمان بصلةٍ
بل للخديعة.. الكذب والخيانة!

نعم الخيانة: فهو خان مشاعرها الصبية ولوثها بأنانيته البحتة. خان زوجة اختارها بملئ إرادته الحرة كما قال ومازال يتشبث فيها لأجل مكانةٍ



يراها فيها الجميع ولا تقبل فعل مشين كهذا،

لايسمح لحاله بالإصغاء لمناجاة القلب

وقررالإستماع لقرار العقل الصائب ولا ضرار إن

بذل بعض المجهود ليجمع بين عقله ويرضي

قلبه في الخفاء فينال صفقة رابحة ينتشى بها

غروره وتنتفخ أوداج كبريائه فتلتمع صورة رجل

الأعمال الشاب الذي يقتدي به الجيل الصاعد.

الرنين المتصاعد قطع شرودها من جديد لتنفخ

بسأمٍ وتقرر في اللحظة إغلاق جهازها النقال

للأبد ربما!..

حتى الآن لا تصدق كيف عاد ليطلب منها ذات

الأمر، يريد منها الزواج في القريب العاجل.. لكن



ما يستدعي صدمتها ويثير مرارة العلقم بحلقها

هو توضيح نيته بأمر الطلب

هو ببساطة يريدها زوجة في الخفاء!

الدافع والحجة؛ ما شأن المجتمع فيما بينهما

يكفي أنه زواج

على سنة الله ورسوله تحت مرأى ومسمع من

أهلها..

أهلها وفقط!

يريد أن يستأثر بها لنفسه، لا يريد منها الإنخراط

بين وسطه المنفتح فتطالها عيون هذا وذاك..

وهو العاشق الغيور!



وأخيرًا.. لتجنب كوارث ستحدث إن تم الأمر في العلن تنغص عليهم الحياة، ما المانع أن يكونا لبعضهما جنة عشق وواحة راحة؟

دون تعقيدات ومهاترات لن تفيدهما على أي حالٍ!

عاشقٌ خابت كل مخططاته في استمالة قلبها.. فمعشوقته ذات حصونٍ قويةٍ لا تقهر، بسياجٍ من فلاذٍ لن تدك وتسقط خائرةً صريعةً لهواه وإن كانت قد اهتزت حد تقلقل أسسها!

بعيونٍ خفت بريقها تلكأت فوق الكلمات المذهبة بين يديها..



دعوةُ زفافٍ مفتخرةٍ تليق بصاحب السمو..

حبيبها السابق!

هه ساخرة أفترت عن شفتيها وهي تلفظ اللقب

بين نفسها

مراراً قبل ما تلقي بدعوته فوق المكتب..

يظن بإرساله لدعوة زفافه عمداً متعمداً ذلك

سيفجر ما تبقى فيها من ثباتٍ وستركض لاهثةً

من خلفه تمني نفسها بالنصف في كل شيءٍ

فضلاً من فقدانه كاملاً.. هو في النهاية رجل لا

يعوض!

سحبت شهيقًا طويلًا ركلت به قلبا يتلوى ألما، لن

يضعف، لن يميل، ستحكم لجامه وتتمسك به



جيدا، لن ينفلت، لن يضيع فوق أرض نفاق رجل.. رجل لايرى غير ظله.

تنهدت تسحب ناحيتها كومة الأوراق المتناثرة فوق سطح المكتب، ينبغي لها أن تلهث خلف تلك الكوارث التي تكالبت فوق شركتهم حديثة العهد بين كل الناطحات التي تجتاح سوق العمل اجتياحًا فتنحني كل مجهوداتهم السابقة عند كل ريحٍ مارةٍ ويهتز كيانٌ ما كاد أن يثبت أقدامه.

***

فوضى..



أقرب وصف يليق بحاله وأيامه، مال جذعه للأمام تعقد أصابعه رباط الحذاء خاصته كلمسةٍ أخيرةٍ قبل الرحيل وبينما هو على وضعه المنحني صدحت كلمات "حلمي" الهادرة بعنفٍ وتهديدٍ فوق أذنيه تعيد له ماحدث منذ ساعاتٍ قليلةٍ..

"أخدت وقت كبير يا حسن وده هيزعلني منك"

ليرد له الجواب دون تفكيرٍ:

"الليلة ناوي أخلص الحوار ده بس..."

ضاقت عينا محدثه في انتظارٍ لتكملة مايتردد في ذهنه وسرعان ما انبثقت الكلمات..

"هو شهاب كارم مات إزاي؟"



قهقه الرجل حتى أدمعت عيناه تحت عيني حسن الغاضبة، ليهدأ بعدها ويسحب دخانه بتروٍ ويهمس بنبرةٍ من صقيعٍ:

" بيقولوا سكتة قلبية "

بسمته الهازئة وازت ميله السريع وهو يقترب من وجه حلمي الشيطاني ويدمدم أمامه بحنقٍ، يستنبط ويفند حقيقة؛ بل يعري حقيقة ويشتم رائحتها النتنة منذ أن شاهد صور القتيل وربط الخيوط ببعضها:

"قصدك مخنوق.. اتقتل مخنوق جوه عربيته"

تركه ينهي حقيقة لا ينكرها بداخل ذاته بل يحييه على دهائه وفطنته التي تخطت حد



المسموح والتي على ما يبدو ستبدأ في إثارة بعض المتاعب فيما بينهما.. تنحنح حلمي يجلي حنجرته ونظراته تغوص في سواد عيني حسن الرابض أمامه بثباتٍ لينهي الحديث بصرامةٍ:

" وأنا بقولك تقرير الطبيب الشرعي بيقول سكتة قلبية..

نقطة ومن أول سطر "

وهكذا انتهت الزيارة دون إضافة حرفٍ آخر ليزاد تشوشًا أكثر من ذي قبل.. والسؤال الذي يتردد بين الجنبات بات يصدح بمجون.. هل ستكون نهايته على يدي هذا الشيطان كما غيره أم ماذا؟!



زاره اليوم لا لشيءٍ سوى ليعلم أو ليزاد تأكيدًا أن مقتل السياسي من تحت رأسه، ولا يدري لِمَ يبغي معرفة ذلك الأمر!..

عن ماذا يبحث؟

هو نفسه لا يدري.. لكنه مشوش الفكر، مختل الإتزان وكأنما تلك النسمة كان بدخولها لحياته لعنةً.. لعنةٌ خلخلت كل ثوابته ومناهجه التي يتبعها منذ زمنٍ.

وعند ذكرها في خاطره كانت تتجسد أمامه بهدوئها و خجلها المعتاد، تتبسم له بصمتٍ كأنما تبثه شيئًا أو تعتذر له بطريقتها الخجلة، لا يدري ولا يفقه تفسير لم يدور بخلدها، وفي الحقيقه ليس بمزاج يسمح.

اقتربت خطوةً أخرى كان عقبها ينهض بعد ما انتهى من أمر حذائه يقابلها في وقفتها، تبادلا النظرات الصامتة لدقائق كانت فيها تحث الكلمات على الخروج علها تبدل مزاجه العكر الذي يسيطر عليه

منذ أن قطعا عطلتهم الخاصة وينوي به الرحيل، يعنفها الضمير ويسانده القلب.. هو تزوجك لأجل سعادةٍ وراحةٍ يبغيها أي رجل أم ليشاركك أحزانك الغير منتهيه!..

تقطيبة جبينه وهمهمته المتململة هي من أخرجتها من بؤرة التحديق فيه لتهمس ببسمةٍ خجلةٍ:

- آآه ماما ياقوت عايزاك بره.



هز رأسه بغمغمة صامتة وكاد أن يغادر لتقطع خطوته الوليده همسها التالي.. الشبه تائه:

- هترجع إمتى؟

عاد لها بنبرة متشنجة:

- يمكن بكرة بالليل أو بعده، على حسب الظروف.

هزت رأسها موافقةً فهي على دراية بطبيعة عمله الذي يتوجب عليه المبيت خارج البيت في أحايين كثيرة، قبل مايستدير من جديد عاجلها بسؤالٍ كان مباغتًا لها:

- عايزة حاجة؟



ونظرته العابسة جعلتها تلعن حالها على انغماسها في حزنها وإهمالها له، لذا سارعت برد فعلٍ كسر كل قيود خجلها، مالت نحوه وعند آخر حد طولها تركت شفتيها تلثم رقبته برقةٍ وحياءٍ ألبسته ثوب الفكاهة حتى لا يتوقف قلبها فلأول مرةٍ بعمرها القصير تبدأ بأمورٍ كهذه:

- ده بقى سلو بلدنا إحنا.

وكأنما بفعلتها الغير متوقعة جردته من عبوسه بغتةً لتلبسه رداء الجمود، لو كان بمزاج مغاير لبادر بتوطيد العلاقات بين البلدين فتلميذته النجيبة تسير على هداه معصوبة العينين لكن عقله متخم بعشرات الأفكار والاحتمالات حد ضيق صدره وسوداوية مزاجه.

- همشي، تأخرت.

لفظها باردة بينما يولي الدبر ويغادر الغرفة بذات الجمود، تلحقه بإبتسامة مبتورة وحدسها يخبرها أن هناك مايشغل باله.

واجهه أمه القابعة عند نافذة الردهة الصغيرة فوق أريكتها كالعادة دائماً وأبدًا.. حط بكفه فوق كتفها حتى يجلب انتباهها فهي شاردة حد أنها لم تستشعر قربه منها كما العادة:

- عايزه حاجة قبل ما أمشي؟

أحاطت وجهه بكفيها وقسماتها تنضح بالرضا:



- سوق على مهلك يا حسن وخلي بالك من نفسك، ربنا يجعلك في كل خطوة سلامة ياحبيبي.

ربت فوق كتفها وابتعد، فهي لا تكل ولا تمل من إغداقه بتلك الدعوات بشتى الألوان.. لكن ما استوقفه شقيقته التي تتجاهله منذ ماحدث بينهما، وحدث زواجه على ما يبدو لم يكن كافياً ليبدد ما بينهما من عندٍ وتجاهلٍ من كلا الطرفين، لكن في هذه اللحظة وهو يراها تتعمد إغاظته ببصرها الملقى على التلفاز وفمها المتشاغل يلوك باستفزاز، قرر أن يقترب منها بعد ما حدج التلفاز لوهلةٍ عاد بعدها يدمدم أمامها في كيدٍ:

- حلوة قعدة البيت مش كده؟

لم تعجبها نبرته الشامتة واستمرت في تجاهله فاقترب أكثر يأخذ ما بين كفها من حبٍ ويبدأ في التهامه وهو يقول بسخافةٍ شبه متآمرةٍ:

- افردي وشك خلقتك مش ناقصة.

ناطحته ببسمةٍ سمجةٍ حفرتها فوق محياها ليعاود القول بسماجةٍ تماثلها:

- عسل يا إخواتي.

ليرحل بعدها ترافقه ضحكات ياقوت ونسمة المكبوحة خوفاً من إثارة حنق تلك الغاضبة..

اقتربت منها نسمة بتصميمٍ تجاورها بالتصاقٍ ودودٍ، تتناول بعضًا من صحنها وتشاركها



المشاهدة أيضاً لتصيح فيها سماح دون مجاملةٍ بنزقٍ لجرأتها:

- بهت عليكِ بسرعة كده!

حركت لها كتفيها بوجهٍ متوردٍ كأن ما تقر به شيءٌ بديهيٌّ لتكون مصمصة سماح لشفتيها أكثر من ردٍ كافٍ.. ممتعضٍ.

***

الظلام الدامس وصفير الرياح العابث مع حفيف الأشجار كفيلٌ بإثارة الهلع في النفوس لا سيما وجميع ساكني تلك المنازل الصيفية يتمتعون بأوقاتهم خارجاً والقليل منهم نائمٌ.. وحسب



خططه المدروسة بكل دقةٍ ممكنة كان المنزل الذي يقصده خالٍ تماماً من زائريه.

كانت الساعة قد تخطت الثالثة فجراً بعشر دقائق.. عشر دقائق فقط كانت أكثر من كافية ليقفز من النافذة الصغيرة الملحقة بالمطبخ تبعها تجول في أركان المكان المظلم وبيده مصباح صغير يشع بإضاءةٍ خافتةٍ حتى عثر على مبتغاه بعد بحثٍ لم يطل، يقلب الأوراق المنشودة ببصرٍ متلهفٍ و حاجباه يرتفعان كلما ضاقت عيناه تمعنًا أكثر فيما بين يديه.. ليهمس لنفسه مخبولًا بما يرى:

- الله يحرقك راجل***.



فعلى ما يبدو أن هذا الرجل يكن لحلمي الجمال معزة خاصة.. التقط عقيقه الأسود لمعة ذهبية تتراقص في خبثٍ ايتبسم لها في ظفرٍ، فقد عثر على غنيمته الخاصة.. عدة قطع من الذهب الخالص تشكلت على هيئة حلي قرر أنها من نصيبه فما أجمل من إصطياد عصفورين بحجرٍ واحدٍ!

جمع غنائمة في جيب بنطاله على عجلٍ وتحرك يغادر المكان سريعاً، عاد أدراجه من جديدٍ عقب عدة قفزات تشبه السابقة ولا عزاء للحارس الغارق في ملكوت النوم.. بعد برهةٍ كان يعبأ أنفاسه بنسيم الفجر الذي يلفه ظلام لم ينقشع



بعد، حتى انتهى داخل السيارة الرابضة على بعد

أمتارٍ يتنفس الصعداء.

بعد حينٍ..

يشق طريقه بسرعةٍ صاروخيةٍ تعدت المئة كيلو

والستين، تلفح وجهه ذرات الهواء الباردة

فتصفعه بقوةٍ ولا تفلح في تهدئة عقله الذي

يعمل بصخبٍ لا يهدأ، يفكر ويدبر أمر القادم..

قادم غير مساره في آخر لحظة لتتبدل قطع

الأحجية وتكون لصالحه.

ليصدمه القدر بقادمٍ أسقط أحجيته فوق رأسه

وبعثر قطعها كلًا على حدى؛ حين ظهر من العدم

أمام عيناه دورية تفتيش مفاجئة تخص الشرطة

تربض على بعد أمتارٍ قليلةٍ، وجحوظ عينيه

وازاى فقدان سيطرةٍ على مكابح قررت أن تقلص المسافة.. وسقط في فخ مخططاته!



(١٤)

حتى تتخلصَ مِنْ بواطنِ الألمِ عليكَ بكشفِ جرحك، تُنظف ثمَّ تُطهر وتُضمد فتطيب أوجاعك، تركها مفتوحة لنْ يجلبَ سوى القيح والألم المضاعف..

وهي قررت بثوب ذهبيّ لامعٍ وتسريحة شعرٍ خاصة أنْ تغلق باب وجعها للأبد..

ستراه يُزف لأخرى وينتهي الأمر!

ستتألم وقتها، وربما يحتاج الأمر لأيامٍ وقد يمتد لأسابيعٍ وشهورٍلكنها ستنتصر في النهاية..

يجب أنْ تنتصر..



تقدمت تطرق الأرض بكعب حذائها العالي، تكفلت ببسمة واثقة، فاتنة كما كانت دائمًا في نظره وستكون.. تهنئةٌ بهمسٍ لا تعي كنهه، وكفٌ ممدودةٌ صاحبها ضغطة خائنة بواسطة أنامله جعلت أنفاسها تتعثر أكثر وهي تسحبها وتتحرك بها ناحية العروس بذهنٍ مشوشٍ، لتبتعد بعدها حتى ارتكنت في ركنٍ قصيٍّ بعيدًا عن صخب الزفاف القائم، اكتفت بمراقبة الحفل العظيم بصمتٍ خارجيٍ يصحبه ثورة داخلية. بعندٍ فيها وإصرارٍ ظلت على حالها تُراقب حتى منتصف الليلة..



رأته كيف يراقصها، يتمازحان ويلتقطان العديد والعديد من الصور تخليدًا للذكرى، حتى أنها رأتهما يتبادلان القبل!

لحظتها افترت شفاهها عن بسمةٍ باهتةٍ لا تُدرك لها معنى سوى أنها كانت تبادل نظرته المصوبة نحوها بقوةٍ عقب قبلته الشغوفة بعروسه..
هكذا رأتها!!

غادرت بخطواتٍ مثقلةٍ، شاردةٍ.. كأنَّها مُنومة مغناطسيًا لم تستفق إلا عندما شعرت بقطراتٍ ساخنةٍ ألهبت بشرتها، تأوهتْ بخفوتٍ وتغضن جبينها لتدمدم بعدها بحنقٍ وليدٍ:

- مش تفتح!



نفضتْ كفها لتسقط عنها القطرات الساخنة وهي ترفع وجهها ليقابلها الوجه المتهكم وهو يقول بنبرةٍ مشتعلةٍ بغضبٍ بينما يطالع كوب القهوة خاصته وقد انسكبَ كله فوق سترته الرمادية ولوثت بعضًا من بياض قميصه:

- والله ياريت تقولي لنفسك!

عقدة حاجبيه تشير بمدى الأذى الواقع عليه إثر المسكوبة، بينما هي لم تطلها سوى بضع قطرات فوق كفها الأيسر لذا دفعت نفسها لاعتذارٍ سريعٍ حين أيقنت أن شرودها كان سبب ذلك الصدام:

- سوري ماخدتش بالي.



أشاح بذراعه في وجهها ماضيًا في طريقه غير آبهٍ لاعتذارها، ارتفع حاجبيها رفضًا لقلة ذوقه وأخذت تتابع طريقها بدورها لتجد حالها فوتت مكمن سيارتها الرابضة على بعد أمتار دون انتباه.

***

ما إنْ ولجت من داخل البيت حتى تناهى لمسامعها أصوات مابين غاضبة وأخرى تطالبها بالصبر والتروي لتقتحم خلوتهما متسائلةً في قلق:

- في إيه!

وكأنها النجاة.. ما إن رآها حتى صاح بلهفةٍ:



- حسن يا ميسون.. حسن.

وصمت في جزع لتكمل عنه أمها وهي تطالعها بقلق:

- عنده مشكلة وبابا مصمم ينزل دلوقت لوحده.. وهو في حالته دي!

هدأتها ميسون بتربيتة سريعة وتحركت ناحية أبيها الذي كان ينهض بدوره مستعينًا على ضعف بدنه بعكاز، جاورته وهو تقول برجاءٍ:

- فهمني بس يا بابا حصل إيه.. ومن فضلك اهدى الإنفعال غلط على صحتك.

تحرك وهو يهتف فيها بضيق جل:

- ابني واقع في كارثة.. أهدا إيه!



أشارت لها أمها بأن تتبعه ولا تتركه في هكذا حالة.. استجابت سريعًا بقطع طريق وهمهمة سريعة:

- خمس دقايق بالظبط أغير فيها هدومي وأنزل معاك.. مش هتأخر.

وجدته في انتظارها قرب سيارتها يأمرها بالتعجل لتذعن له، عقب ما جاورها وما إن أدارت المحرك حتى صاح بقوةٍ مستنكرًا ما يحدث:

- حسن متهم في قضية سرقة.. تخيلي!، محجوز في القسم من إمبارح.. أنا كلمت المحامي يسبقنا على هناك.



هزت رأسها في رأفةٍ على ذلك الذي يجاورها وقد شابه التوتر والخوف، لا تدري لِمَ كلماته لَمْ تكنْ صادمةً لها وكأنَّ ما يقربه شيء متوقع سلفًا وهي لا يربطها بالمعني بالأمر سوى مقابلتين وبضع مكالمات غير مكتملة وجميعها مبتوره من قبله.

هل تخبره أنَّ ابنه ليس بتلك النزاهة التي يتخيلها، ليس كما يصوره خياله المتمني، هل تخبره ببساطة أنها بمجرد ما بحثت وراءه وجدته بالفعل مثير للشكوك.. ليتها تستطيع قول ذلك لكنها تخاف عليه من مرضٍ متربصٍ له لذا تنهدت وهي تربت فوق كفه في محاولةٍ فاشلةٍ لطمأنة قلبه:



- إن شاء الله الموضوع يطلع بسيط، وعامةً لو اضطرينا هكلم خالو عاصم له معارف كتير في الداخلية أكيد هيساعدنا.

بادل تربيتها بأخرى أعقبها تنهيدةٌ قويةٌ دون حديثٍ.

***

لم يكن يومًا الاقتراب من القمة يضمن سلامة البلوغ

ربما بحصاةٍ صغيرةٍ يتقلقل طريقك فتتعثر دون سابق إنذارٍ

وحينها وجب السقوط لا محالة!

- إيه ده؟



قالها ضابط لجنة المرور باستنكارٍ بينما يرتاح داخل كفه قطع الحُلي التي عُثر عليها داخل عربة الماثل أمامه والذي جاءتْ نبرته تمثل الدهشة تخفي قرع الطبول القائم بداخله:

- معرفش!

- أنت هتستظرف يا حليتها!

- أقصد يا باشا ماعرفش دي حاجة مين، أنا راجل شغال على عربيتي بالأجرة وبيركب معايا ناس أشكال وألوان أكيد يعني حاجة حد من الزباين ونسيها ولا وقعت منه معرفش.



ضيق الضابط عينيه محاولًا سبر أغواره ليدمدم بعد حينٍ وذراعه رفعها يحط بها فوق كتفه في ألفةٍ بغيضةٍ:

- ده شغلنا بقى يا معلم.. تشرب شاي يااا....

قلب البطاقة الشخصية بين أصابعه وعاد له مستطردًا ببسمةٍ سمجةٍ:

- أبو علي.

أرغي وأزبد الأخير محاولًا بذلك فض الأمر بشكل ودي والوصول إلى نقطة ترضية لكلا الطرفين، لكن الضابط اللعين لسوء حظه لم يقبل أي تفاوض أو نقاش إذ أمر في الحال بالتحفظ عليه



وعلى ما وجد بحوزته من مصوغاتٍ ثمينةٍ لحين القيام بالتحريات اللازمة وقد ساورته الشكوك.

شكوكٌ سرعان ما تأكدت حين تم التبليغ عن المفقودات مِنْ قبل مالك الشاليه وقتما تأكد من وقوع جريمة السرقة بالفعل، إثر تفقده للمكان كما اعتاد بين حينٍ وآخرٍ وكان هناك عقب رحيل السارق بساعتين.

وها هو مُلقى خلف قضبان زنزانة عفنه منذ يومين.. هو حتى لا يدري كيف ظهروا أمامه من العدم، هو يحفظ خارطة الطرقات عن ظهر قلب ويعلم جيدًا أين يكمن الخطر من الأمان.. باغته ظهورهم فلم يتسن له التفكير حتى يتخلص مما تبقي معه من آثارٍ للجريمة..

و ياليته دفنها كما فعل مع تلك الأوراق وقتما قرر قلب الأمور لصالحه فاستأثر بها لنفسه في باطن الأرض لبعد حينٍ يقرره هو..!

لكنه لم يفعل ولم تفلح حيلته في إخفاء المصوغات أسفل المقعد الخلفي للعربة إذ تمكن ذاك المحنك من العثورعليهم في غضون دقائقٍ معدودةٍ، ولم يملك حينها سبيلًا غير الإنكار.

- حسن فريد صبري.

طالع الجندي ذو الوجه الغاضب بقسماتٍ باردةٍ وهو يصيح باسمه فلم ينبث ببنت شفه ليستطرد بغضب جم:



- طرشت ولا عجبتك قعدة التخشيبه؟.. قوم ياخويا حضرة الظابط عايزك.

نهض من جلسته بذات الصمت وتحرك أمامه بهدوءٍ حتى انتهى به أمام مكتب وكيل نيابة القسم الذي قابله بهدوئه البغيض مشيرًا بكفه نحو الجالس قبالته:

- تعال يا حسن أما أعرفك على منصور بيه السعيد..

رفع حسن بصره متوجسًا يطالع الرجل الخمسيني الذي يتوسد المقعد الوثير بأريحية وتعلو شفتيه بسمة جانبية، يرتشف قهوته ببطءٍ وتلذذٍ لا يناسب نظرته الضائقة بوعيدٍ صريحٍ لدرجة اقشعر لها بدنه.. استطرد "أكرم

نعمان"_ضابط القسم_ متلاعبًا بالكلمات موجهًا إياها ناحية الواقف على جانبه وهو يعبث بسيجاره الغير مشتعل بين أنامله:

- شفت اللي حصل يا أبوعلي!

ثم تابع بسرد حكاية من البداية، بأسفٍ مصطنعٍ:

- الراجل المحترم ده أخد ولاده قالك إيه يغير جو اليومين دول في الشاليه بتاعه في شرم.. يشاء القدر تحصل حالة وفاة فيضطر ينزل فجأة.. وزي ماتقول كده مع الكركبة والاستعجال المدام نسيت مجوهراتها.. فيييين؟.. في الشاليه..



دار بجسده بعض الشيء يواجه حسن الماثل أمامه في استسلامٍ و صمتٍ، رفع بعدها ذراعه محركًا بالسبابة والوسطى أمام عينيه مردفًا بتعجبٍ ماكرٍ:

- تخيل يا مؤمن بعد يومين يروح مايلاقيش الدهب مكانه!

ازدرد حسن لعابه ضاغطًا فوق نواجذه ليستطرد أكرم من جديدٍ، وأصابعه تعبث في ذقنه الحليقة مستمتعًا بنظراته المتذبذبة:

- وشوف الصدف يا أخي مواصفات المسروقات متطابقة تمامًا.. تمامًا مع الدهب اللي لقيناه في عربيتك!



ثم أمال رأسه بعض الشيء كأنما يخوض وضع التفكير سائلًا إياه باستفهامٍ خبيثٍ:

- إلا أنتَ قلت لي كنت بتعمل إيه في شرم يا أبو علي؟

سريعًا جاء جوابه، محتفظًا بأقواله السابقة التي توالت منذ تم احضاره قسرًا إلى هنا.. وإن شابت نبرته الفتور:

- ما أنا قلت لسعادتك قبل كده كنت بوصل زبون.

همهم أكرم ببعضٍ من صرامةٍ تنذر بفقدان صبر:



- هممممم أيوه صح قلت لي زبون.. وماتعرفش مين الزبون ده ولا حتى اسمه؟

- لأ يا باشا هي مصلحة حلوة قضيتها وأخدت عرقي، مافكرتش الصراحة أفتح مع الزباين سين وجيم.

- طيب إيه رأيك في حكاية منصور بيه؟

- وأنا مال أهلي يا باشا بالحوار ده كله مش فاهم يعني؟

بشبه نهوضٍ خبط أكرم بكفيه فوق سطح مكتبه بقوةٍ و صاح بغضبٍ أفلت لجامه للتو:

- أنت هتصيع عليّ بروح أمك!

- أعصابك يا أكرم باشا مش كده.



قالها منصور بهدوءٍ مغيظٍ ليزفر أكرم بقوة عائدًا لموضعه السابق:

- في حاجة تانية عايز تضيفها يا منصور بيه؟

ترك منصور فنجان قهوته وقد فرغ ليدمدم بتمهلٍ متنقلًا ببصره بينهما:

- خالص يا باشا.. أنا يهمني أخد حقي بالقانون.. أتفضل شوف شغلك.

عاد أكرم لعيني حسن المتربصة قائلًا بصرامةٍ وقد تخلى عن ثوب الحليم الماكر:

- اسمع يالا أنا قدامي قضية كاملة بأدلتها وحبشتكاناتها يعني شغل لوع وحوارات صدقني هتزعلني منك و مش هيفيدك في حاجة فخليك



حلو كده عشان نقفل القضية ونخلص.. ها قلت إيه؟

- قلت من حقي أطلب محامي.

علق أكرم ساخرًا:

- ومالو مش عيب بردو..

والتفت ناحية كاتب النيابة الرابض جواره آمرًا إياه:

- اكتب يا بني...

وهكذا قُضي الأمر بالحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق مع مراعاة التجديد في الأسبوع المقبل.

***

حالة من القلق تحيط بثلاثتهم..



ثمان وأربعون ساعة ويزيد بهاتفٍ مغلقٍ دون محاولةٍ واحدةٍ منه لطمأنتهم، كل ذلك جدير بإثارة الخوف الذي سكن الأم القابعة فوق أريكتها بملامحٍ متجهمةٍ، تتنقل أصابعها فوق حبات المسبحة بلسانٍ يلهج مستغفرًا طيلة الوقت بينما ذاك الراقد بين الضلوع بدقاته المضطربة يحدسها أن في غيابه المقلق هذا سوء واقع لا محالة، أم علها غريزة الأمومة تقوم بدورها لا أكثر!.. أضناها كثرة التفكير وكبلتها قلة الحيلة.

وبينما أمه شاردة بذهنها المشوش كانت هي تجوب الردهة الصغيرة ذهابًا وإيابًا في محاولة اتصالٍ آخرٍ بعدما توقفت عن عد مرات اتصالها

به، لن يجدي ما تفعل فكل مرةٍ تكاد تصرخ فيها عاملة الهاتف أن الجهاز مغلق..

- وبعدين يا نسمة هنعمل إيه؟

توقفت عن السير ما إن وصلها صوتها المرتجف وقسماتها المشدودة، حاولت ضبط نفسها كي لا تزيد من قلقها فتكفلت بنبرةٍ هادئةٍ وهي تربت بكفها فوق فخذها وتهمس لها مهدئةً من روعها:

- خير يا ماما، احتمال كبير تكون مشكلة شبكة.. إن شاء الله خير.

لفظت آخر جملتها بخفوتٍ مرتجفٍ رغمًا عنها لتفزع ياقوت من جديد ترفض الانتظار بحججٍ واهيةٍ:



- عمره ما عملها يا نسمة.. وقت ما أطلبه كان يرد في ساعتها.. أنا قلبي مقبوض يابنتي!

مع آخر كلماتها تراَى لكلتيهما خيالاتٍ مفجعةٍ تصب كلها في خانة حادثٍ مروعٍ على الطريق، لتنهض نسمة بتخبط ناحية غرفة شقيقته والتي ما إن رأتها حتى بادلت قلقها بآخر يوازيه.. أخيرًا غمغمت سماح بقلة حيلة:

- مقدمناش غيره.. هكلمه وربنا يستر.

جاءتها الموافقة بإيمائةٍ سريعةٍ وعينين غائرتين بدمعٍ حبيسٍ، كانتا ترفضان ذلك الخيار خوفًا من أن يعود في أية لحظة ويسخط عليهما بسبب فعلتهما لكن بما أنه لم يظهر حتى اللحظة فليس أمامهما سوى اللجوء وطلب العون.. من أبيه!

ربما سيغضب ويزعق بهما ويزيد في العقاب، هي باتت تعرفه بل تحفظه عن ظهر قلب ومدركةً تمامًا لخطورة الاقتراب من خطه الأحمر.. لكن لو تلك كانت الوسلية الوحيدة حتى تطمئن قلوبهم.. فليكن!

هكذا فكرت نسمة قبل ما تخطفها كلمات سماح التي تعالت وتيرتها بغتةً مع محدثها ونهوضها الفزع من أعلى الفراش بملامح متجهمة:

- قسم!.. قسم إيه؟.. أنت فين طيب؟.. أطمن إزاي وأنت بتقول مقبوض عليه!

على إثر كلماتها الأخيرة تحررت شهقة نسمة بينما صياح ياقوت من الخارج جعلهما تتحركان



بالخطى ناحيتها لتهتف سماح بغضب وصرامة في محدثها:

- كلامك ده مش هيطمني.. قول لي هو فين دلوقت.. تمام مسافة السكة وأكون عندك.

أغلقت الهاتف وتركت جسدها يسقط فوق الأريكة من خلفها، تحيط رأسها بكفيها، ثم تطالع أمها بشفقة، تخبرها بهدوء عكس ما يموج بداخلها من قلق بينما عقلها يبحر حائرًا في أي مصيبة ورط شقيقها نفسه:

- اهدي يا أمي مش كده، على الأقل اطمنتي أهو أنه بخير.

- أخوكي حصله إيه يا سماح؟!



كان سؤالها أجوف متعثرًا ببكاء تلك المراقبة لهما بصمت إلا من نهر عبراتها لتخبرها سماح بإيجازٍ بعد سحب شهيقٍ وطرد زفيرٍ:

- محجوز في القسم.. ماعرفتش ليه بس هو معاه دلوقت وقال لي ماتقلقوش.. أقصد فريد.

ضربت ياقوت فوق صدرها وهي تبكي بدورها:

- يا حبيبي يابني.. خديني لأخوكي ياسماح.. وديني عنده.

هدأتها سماح بربتاتٍ متتاليةٍ قبل نهوضٍ متعجلٍ:

- أخدك فين بس يامه.. أنا هروح أفهم الحوار وأبقى أطمنك.



تركتها ترثي حالها ببكاءٍ مريرٍ انخرطت فيه،

وسارت ناحية غرفتها تجلب عبائتها السمراء

وتلف وشاحها على عجل، قاطعتها نسمة بإصرارٍ

متحشرجٍ وهي الأخرى تستكمل لف حجابها:

- أنا جاية معاكي.

نهرتها بحنقٍ:

- تروحي فين أنتِ كمان؟!

لتصيح فيها بإنهيار ونبرة صاحب الحق:

- اللي ماعرفش حصله إيه ده يبقى جوزي يا

سماح!



زفرت سماح واكتفت بهزة رأسٍ في إيمائةٍ موافقة دون حديث.. وهمتا برحيل فور ما تركتا ياقوت المفجوعة في ولدها تحت رعاية الجارة.

***

ولأنه خسر السنوات الماضية عليه بالقتال لأجل الأخرى المتبقية.. لأنه قطعة منه رغمًا عن أنف ماحدث وما سيحدث يجب أن يكون بجانبه، بل يجلس أمامه في هاته اللحظة وعيناه معلقة فيه وقد احتجز غصته في حلقه.

- شوية وراجع.



كانت تلك نبرة أكرم نعمان الذي نهض بكياسة موجهًا حديثه للجالس قبالته بينما نظراته تتنقل بينهما..

حرك له فريد رأسه شاكرًا ولزم الصمت حتى غادر، حينها دار برأسه يتتطلع لابنه الواقف قربه ولا يفتر عنه سوى أنفاسه الهادرة بينما بصره مُلقى للأمام نحو الفراغ حد أنه لم يحاول خطف نظرة ولو عن طريق الخطأ ليتقابل مع بصره..

أي لقاءٍ ذاك الذي يجمعه مع بِكره لأول مرةٍ!

سحب شهيقًا طويلًا قبل ما يهمس له بهدوءٍ يخفي وراءه ضيق لا يقدر:



- أقعد يا حسن.

وكأنما يحدث أصمًا لا يسمع ولا يرى، بينما هو في الحقيقة ما إن وصلته نبرته حتى تشنجت عروقة بقوةٍ آلمته بالرغم من ذلك الصقيع الذي يطفو عليه من الخارج ومع ذلك تابع فريد بذات الهدوء فالوضع لا يحتمل أي ضغوطات، وفي النهاية هو هنا لأجله:

- أقعد يا بني لازم نتكلم.

- مافيش بينا كلام.

هكذا لفظها باردةً.. جافيةً حد القسوة ليصمت فريد هنيهةً دمدم بعدها:



- أستاذ إبراهيم محامي كبير وله اسمه في النوع ده من القضايا وإن شاء الله هيخرجك من القضية بس عشان يعمل ده ضروري يتكلم معاك الأول.

ضحكة ساخرة أسفرت عنها شفاه، صاحبها جلوسه فوق المقعد المقابل، ليواجهه أبيه في جلوسه بحاجبٍ مرفوعٍ في استنكارٍ.. جاء ليتكرم عليه ويكون صاحب فضل، الأب العظيم جاء أخيرًا ليقف فوق منصة الأبوة ويؤدي دوره بكل إجلال وعظمة!

يا الله!.. أكثر من ممتن هو على حضوره، فلولا ذلك ما عرف كم يبغضه!، يكرهه بكل ما تحمل هذه الكلمات من معنى.



مال بجسده للأمام حتى بات لا يفصل بينهما سوى القليل من السنتيمترات، وحينها خرج سؤاله كفحيحٍ خافتٍ:

- عايز إيه يا فريد يا صبري؟

كانت عيناه تطلق الشرر ولا تناسب واجهته الباردة تلك والتي يتقنها بشدة، اتكأ فريد بذقنه فوق عصاه، يعلم أنَّ الطريق وعرة، ولن يصل إلى ما يتمناه من أول جولةٍ، وحتمًا عليه بذل مجهود مضاعف، ترك لكفه حرية التحرك حتى تستريح فوق كتفه القريب:

- مش عايز غير أقف جنبك يابني.

نفض عنه كفه بفظاظةٍ وقاطعه بحدةٍ:



- ماتقولش ابني!

حدة صياحه ألجمت لسانه، وذراعه التي دفعت بكفه بعيدًا يبست جسده وجحظت ببصره الذي بهت من تلك القسوة والكراهية المرسلة من بين عقيقه الأسود.. ولم يكتفِ لذا سرعان ما وجده يستطرد بغضبٍ فقد سيطرته وهو ينتفض من فوق المقعد، يدور في المكان بهياجٍ:

- إياك تكون فاكر أني زي سماح بكلمتين عبط هاخدك بالحضن؟.. ولا تكونش فاكر هتشعبط فيك وأقولك والنبي لتنجدني!

واقترب من جديدٍ بينما كلمات أمه السابقة تطن بأذنيه، ينحني بجذعه لينفث في وجهه حرارة أنفاسه ويتمتم بشراسةٍ منهيًا الحوار:

- مش محتاجلك.. سمعت؟.. اللي باعنا زمان بالرخيص مشتريهوش دلوقت بمليم.

- حسن!

هدر باسمه في عنفٍ حتى يصمت، لكنه لم يفعل بل زاد من نثرِ الملح فوق الجراح:

- واجعك قوي تشريفي في السجن فجاي وساحب وراك محامي؟.. إيه خايف لتتفضح يا باشا.. يا كبير..

ارتفعت شفاه في بسمةٍ جانبيةٍ، وسبابتاه تلتصقان أفقيًا أمام وجه أبيه مع كلماته الساخرة.. اللاذعة بفظاظة:

- ده أنا خليفتك في الوساخة ياجدع.





نكس فريد برأسه فوق عكازه، وقد أغلق جفنيه بقوة يمنع عنهما هطول دمعات تجرح كبرياء رجولته بشدة.. بينما خطوات الآخر المبتعدة كانت تعني شيءٌ واحدٌ، أنه قد ذيل النهاية وأنزل الستار على بداية لقاء لم يكتب له التتمة كما كان يبغي ويتمنى.

في لحظتها فُتح الباب ودلف أكرم الذي طالعهما في صمتٍ ران لثوانٍ ضغط بعدها على زر فوق مكتبه ليحضر أحد الجنود يلقي له بالتحية فيأمره برزانةٍ بأن يعيد المتهم لمحبسه.

- فكر كويس في كلامي، ولو إن غيرت رأيك المحامي موجود.



قالها فريد يقطع عنه خطواته بنبرةٍ أبويةٍ، فاترةٍ وهو مازال على وضعه الجامد.. ليأتيه الجواب كما توقع قبل ما يختفي:

- مش عايز أشوفك تاني.

***

ألقت بوجهها داخل وسادتها تكتم شهقاتها وتصم أذنيها عن العويل والنواح القائم بالخارج منذ أن لفظ قاضي المحكمة بكلماته الأخيرة قبل ساعاتٍ..

"حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم حسن فريد صبري بالحبس أربع سنوات مع الشغل"





(١٥)

على أعتابِ الحياةِ تقبعُ بعضُ الحكايا

لا هي نالتْ صكَّ الختامِ مع إسدالِ الستارِ

ولا بقيتْ على حالِها دون شغفِ البدايات

فقط حكايا منقوصةٍ!

منقوصةٌ ككلٍ شيءٍ يخصها، في الثامنة مِنْ عُمرها فقدتْ أبيها لتحظى بطفولةٍ منقوصةٍ..
وحين أشرقَ صباها أدركتْ أنَّ الحياةَ تحت مظلةِ قصرٍ لا تنتمي لسكانيه لنْ يعود عليها سوى بفقرِ الذاتِ والنفسِ. وأخيرًا حياة زوجية بالكاد غرستْ أساسها في أرضِ قلبها المتعطش لبذرةِ الاكتمالِ لحياةٍ كل أملها فيها أنْ تبزغ شمسها مع



مَنْ آمنته على صحراء نفسها المقفرة حتى يكونَ لها الوطن والسكن.

ألقتْ بوجهها داخل وسادتها تَكتم شهقاتِها،

تصمُّ أذنيها عنْ العويل والنواح القائم بالخارج منذ أنْ لفظَ قاضي المحكمةِ بكلماتِهِ الأخيرةِ قبل ساعاتٍ..

"حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم حسن فريد صبري بالحبس أربع سنوات مع الشغل"

دارتْ بجسدها لتكون مستلقيةً فوق الفراش باعتدالٍ وقد هدأ بكائها وظلّت فقط الشهقات تغص بصدرها وعيناها ثابتة فوق سقف الغرفة، بالكاد تعي مايحدث من حولها منذ أن



صدرت الكلمات المشئومة، بل منذ أنْ علمت بالأمر برمته..

لماذا هو؟!

بل كيف؟!

لِمَ لا يصدقونه حين يقول أنَّه ليس بسارق!

لِمَ يحكمون على سنوات عمره بالحجز خلف قضبان السجن الخانقة وهو المظلوم!

ألأنَّه مثلها دون ظهرٍ أو سندٍ في هكذا حياةٍ ظالمةٍ؟

حياةٌ يضيع فيها كل ضعيفٍ وينتصر كل جبارٍ عتيدٍ!

نفختْ هواءً ساخنًا وبداخلها تعاتبه..

ماذا لو تنازل وقَبِلَ بمساعدة أبيه!

أليس كان من المحتمل أن يكون بينهم الآن؟!..

مالتْ على جانبها وقد زادت وتيرة نهناتها عند تلك النقطة، وعادت تهطل دمعاتها الحارة من كلا جانبي عينيها مِنْ جديدٍ، بينما كفها يكبح صوتها حتى لا يصل لأمه، المسكينة يكفي ما بها ويزيد.

بعد حينٍ كانت تنهض بجسدٍ متعبٍ، تخطتْ عتبة الغرفة لتواجهها سماح تدعك وتفرك في خشب النافذة حتى كاد أن يصرخ مستغيثًا؛ فمنذ ما حدث وعادتا سويًا قررت تفريغ مابداخلها في أكثر ماتجيد فعله، انكبت على البيت الصغير في مهمة تنظيفٍ صامتةٍ ومع ذلك



عيناها تفيضان بالكثير.. مرت جوارها فلم تجد القدرة على حديث فقررت تخطيها.

دفعت باب غرفة سماح برفقٍ وتطلعت إليها، بحركة أناملٍ واهنةٍ محت بقايا دمعات عالقة فوق أهدابها ودلفت تجاورها فوق الفراش، تمسك بكفيها تدعكهما برفقٍ بين يديها علها تطرد سقيعًا يحيط بهما وقد تكفلتْ ببسمةٍ حانيةٍ بمقلٍ تشي بدمعٍ جديدٍ لم تستطع منعها كأنما تبصرها، قامت ياقوت الساكنة بعد جزعٍ طال بضمها لصدرها لتنفجر فوقه من جديدٍ.. أخذت تُمسد ظهرها ببطءٍ حتى هدأت بعض الشيء ثمَّ همست لها بلسانٍ مثقلٍ:

- كفياكي عياط يا نسمة ربنا كبير وقادر يابنتي.

بلهفةٍ ورفضٍ تامٍ لكل مايحدث كانت تلهث بكلماتها:

- حسن مظلوم يا ماما، اللي يقف جنب واحدة مايعرفهاش ويحميها من ظلم البني آدمين مستحيل يعمل كده.. حسبي الله في كل ظالم.

كانت تُقر بكلماتها لنفسها قبلًا، لا تصدق ولو حكم فيه ألف قاضي، ومن غيرها أعلم بظلم العباد!..

- الظالم والمظلوم عند الله.. كله عند الله.

قالتها ياقوت بشرودٍ وهي تعود بجسدها لظهر الفراش، لتتنهد مجاورتها في صمتٍ، صمتٌ



قطعه ولوج سماح بصينية طعامٍ تركتها فوق منضدة جانبية وهتفت في أمها باقتضاب:

- يلا عشان تاكلي وتاخدي دواكي.

طال بصرها السارح في ملكوت دجنته الخاصة لثوانٍ همست بعدها في شرود:

- اطلبي لي أبوكي يا سماح، قولي له يجي.. عايزة أشوفه.

تغضن جبينها لطلبها الغير متوقع بالمرة لذا صاحت من فورها في استنكار:

- أبويا!..

- أيوه.

- عايزاه ليه طيب.. أفهم؟



- هو تحقيق! أعملي زي ما طلبت منك وخلاص.

حركت سماح كتفيها في عدم فهمٍ، وهمت تفعل ما طلبتْ لكن قبلًا رفعت سبابتها في وجه نسمة المراقبة للحديث في صمتٍ كأنما بذلك تؤكد ماسمعت:

- خليكي شاهدة أن ده كان طلبها.

عقب مضي الساعتين لا أكثر كان "فريد صبري" بشحمه ولحمه يحتل المقعد المجاور لفراشها، يحوم بصره فوق امرأةٍ كانت تنتمي له قلبًا وقالبًا قبل سنواتٍ طوال وقد خط عليها الزمن تجاعيده، امرأة أعطت وما أخذت، فقدت وما طلبت، فقدت الكثير غير بصرها، وربما لو كان



للقدر رأي آخر من البداية ما كانت خسارة كليهما لتكون جسيمة لذلك الحد..

دون سابق إنذار أو تبادل سلام كانت تقطع صمته بسؤالٍ في جوابه المبتغى:

- ابني ظالم ولا مظلوم؟

قد تكون فقدت نور بصرها لكنها لم تفقد حدس أمومتها بعد.. وأمومتها تخبرها أن بكرها ساقط في شرك أكبر من قضية يدّعي فيها الظلم، وربما هي فطرة ربانية تبغي فيها براءة لمن يهمها أمره، تبغي سماع ذلك بأذنيها حتى يهدأ قلبها وتندثر خيبة أملها التي تلوح في الأفق وتكاد تراها رؤى العين المجردة..



- أنا اللي ظلمت ابني.. ظلمته هو وأخته يوم ما بعتهم واشتريت نفسي، وأنتِ من قبلهم.. أنا شايل ذنب ربنا وحده يعلم قد إيه حمله تقيل.

ثقيلةٌ الحقيقة..

مُخيبةٌ للآمالِ..

وهو خاب وخسر ابنه حين تكفّل بلقاءٍ مع محاميه الذي جاءت به سماح لأجله، وكأنها كانت مُوقنة أنه سوف يرفض أي شيءٍ آتٍ مِنْ ناحيته، وقتها قالها له الرجل صراحةً دون تجميلٍ أو تزييفٍ حين اختلى به..

"واضح إن ابنك مش برئ وبيراوغ ومع ذلك هحاول بس ماوعدكش"



وكأنه ينتظر هذا السَفِيه حتى يؤكد له حقيقة بكريه الذي لم يبخل أو يتوانى في وصول الصورة له كاملة حين تقابلا أول مرةٍ!

وبالرغم من رفضه لمقابلته مرةً ثانيةً عُقب تلك الأولى الصاخبة بكراهيةٍ وحقدٍ لم يستنكره بل رحب به فيما بعد ربما كنوعٍ من عقابٍ للذات هو مدرك تمامًا أنه أهلٌ به وذو أحقيةٍ.. حتى رؤية المحامي المخضرم في نوعية تلك القضايا والذي جاء به لأجله رفضها، رفض احتلاله لأي جزءٍ كان من الصورة حتى ذهبت جُلَّ محاولاته دون فائدةٍ.. وبعد أسابيعٍ كانت كالدهور انتهى الحال بمحاكمته صباح اليوم.



وفي هاته اللحظة لا يملك أمام تلك العجوز الضريرة سوى قول الحقيقة المُقرة داخل نفسه وقد أكدها لسانه بنبرات غشاها الندم:

- لوميني أنا.. أنا اللي ضيعته.

تعثرت أنفاسها مع أحشائها الملتوية في جزع:

- يا خسارة العمر اللي ضاع هدر.

قاطعها بقهر بلغ مبلغه:

- ده ذنبي.. ذنب دار بيه الزمن ورجع لي في ابني.

لم يصلها تنازع حروفه مع تمزق نبرته وهي مازالت غارقة في ملكوت خيبتها:

- يا خسارة اللي راح.



بعزيمةٍ لم يدرِ مصدرها لكنه حتمًا يبغي بها راحة تلك التي تصارع فوق قسماتها الماضي والحاضر معًا، يبطن كلماته بوعدٍ يسره في نفسه دون جهره، لقد قامت بدورها على أكمل وجه بل وزادت، ودوره الآن قد حان:

- أنا مش هسيبه، هكفر عن ذنبي برجوعه.

لم تعِ إن كان يقصد بالرجوع؛ محبس هي تدرك في اللحظة أنه أصبح جزاء من جنس عملٍ قام به بكل إرادةٍ تامةٍ، أم إياب عن طريق الضلال الذي اختاره على ما يبدو بإرادته التامة أيضًا.

نزلت دموعها مدرارًا وفي قلبها حسرة تسع الكون بينما الكلمات تنغز في صدرها بوجعٍ.. بألمِ السنوت الماضية.. بحنظلِ أيامها القادمة ومرها:

- زمان طعنتني في شرفي ودلوقت ابنك طعني في روحي.

كررت كلمات جملتها الأخيرة ثلاث وهي تنسل لداخل الفراش، تلف جسدها بالشرشف الثقيل وتوليه ظهرها بعد ما اجتاحتها البرودة بغتةً.

كلمات على أثرها سقطت عبرات تلك الرابضة خلف الباب المغلق تتلص على الحديث المنعزل، وسؤالٌ واحدٌ يدور بخلدها:

ماذا فعلت تلك المرأة ليكون هذا جزاءها؟..

أيلومون عليها الآن لو سبّت أبيها وأخيها معًا!

أيُّ نفعٍ يعود عليها بعد خيبتها في الزوج والابن، بفضلهما هي تحيا تعيسةً وكأنَّ نصيبها من



السعادة ضئيل حد التلاشي، لا تفتأ تنسى الهموم حتى تعود وتتكالب فوقها من جديد، جادت عليهم بكل خير وماحصدت من ورائهم غير الحسرة والوجيعة.

نعم كانت تعلم أنَّ أخيها ليس بالرجل النبيل، ولم يكن يومًا كذلك ورفقائه خير دليل، يصاحب ويصادق ذوي الأخلاق المشينة والسمعة السيئة، لكنها لم تظن لوهلةٍ أنه قد يكون مثلهم ذات يومٍ!

كانت موقنةً أن يومًا ما ستزول الغمامة ويخترق عيناه النور رُغمًا عن أنف ظلمات النفس التي تملأ روحه، ظنَّت أنها مجرد رعونة شبابٍ



وسيعود لرشده وقتما تنتهي متخليًا عن كل ضلالاته الوهمية..

لم تكنْ تعلم أنه ساقط في مستنقع الظلمات حد بلوغه القاع!

ومانفع اللوم بعد فوات الأوان؟!

أجفلها خروج أبيها وخطواته المثقلة، ابتعدت تفسح له المجال وبقيا على حالهما يتبادلان النظرات للحظات كانت ترميه فيهم بسخطٍ فيرد بأخرى كساها عظيم الذنب ولوع الخطيئة..
تجاهل سخطها واقترب يربت فوق كتفها ثم همس لها بجملة واحدة قبل ما يتجاوزها ينوي بذلك رحيل:



- خلي بالك منها، وهوني عليها.

وكأنها تنتظره لتفعل!

ثم بأي حق يأمرها؟!

هكذا فكرت وكان في جعبتها الكثير والكثير من الكلمات المغتاظة بترها بابتعاده..

ابتعاد قطعه تلك الباكية وهي ترتدي لباس الصلاة خاصتها وعلى مايبدو كانت منفردة بحالها منذ وقتٍ ليس بقليل تبتهل فيه لأجل الغائب..
والآن تشبثت في كف الماثل أمامها وهي ترجوه في توسلٍ لأجله أيضًا:

- عايزة أزوره.



أومأ لها برأسه في صمت وربت فوق رأسها بحنو قبل ما يختفي من أمامهما لتعود برأسها ناحية سماح ذات الملامح الممتعضة..

فإنْ كان شقيقها معصوبًا بالضلال

فتلك الأخيرة على مايبدو معصوبة بالحماقة!

***

صدقوا حين قالوا أن مرآة الحب عمياء..

غارقةً في بحور الهوى، لم تزل بعد غمامة الحب الوردية، مضى أكثر من شهرٍ على زواجهما لم تهنأ فيهما بحقٍ سوى بسبعة أيامٍ كان لها فيهم كما يجب للحبيب أن يكون، لا يبخل عليها



بكلماتٍ ولا يخبأ شعورًا، بل تفنن في تقديم حبه على طبقٍ من عشقٍ..

بعدها هبط هو لأرض الواقع حيث الانغماس في عالم الأشغال والأعمال، وبقيت هي هناك عالقةً فوق أرض الوهم.

- مساء الخير.

قالها بنبرةِ المرهق ما إن دلف، لتنهض من فوق أريكة غرفة نومهما الناعمة مرحبةً بقدومه بعدما نحت جانبًا مابين يديها وفوق حجرها من ألبومات وصور ليوم الزفاف، فهي لا تكل ولا تمل من النظر إليهم في كل وقتٍ وحينٍ، أحاطت رقبته بذراعيها وشفاها تطبع قبلتها فوق وجنته اليمنى..



- وحشتني..

داعبت أرنبة أنفه بسبابتها وأردفت بغنجٍ:

- ومخاصماك.

بإبتسامة هادئةٍ كان يطبع قبلته بجانب ثغرها:

- معلش يا حبيبتي الشغل خدني كالعادة..
وحشتيني أكتر.

وتحرك بخطواته يناشد حمامًا دافئًا..

بعد حينٍ كان يخرج يلف حول خصره منشفته ويقطر بمائه، مشط خصلاته ثم جذب قميصه القطني وقبل ما يصل لرأسه كانت تجذبه من بين أصابعه، وهي ترتفع فوق أصابعها تقبل



شفاه بنعومةٍ وتهمس أمامهما بحرارةٍ تناسب أنوثتها:

- مش هتأخر.

قالتها بغمزةٍ عين واختفت داخل دورة المياة.

أطلق تنهيدةً بينما قدماه يتحركان ناحية مبتغاه.

سحب الجارور الخاص فيه ينبش في داخله عن..

علبة دواء في الظاهر تخصه وفي الداخل تحوي على ما يخص امرأته!

تناول منها قرصًا ثم ألقى به في قعر الكوب الفارغ وصب فوقه المشروب البارد. حينما انتهى ألقى بجسده فوق الفراش بذهنٍ شاردٍ. لم تتأخر وكانت تضم نفسها لصدره. أناملها تداعب تارة



ذقنه وأخرى فكه، تثرثر بين ذراعيه كعادتها كل ليلة..

- عملت إيه النهاردة؟

أجابها بفتورٍ:

- ولا حاجة شغل وإجتماعات، إجتماعات وشغل.

- أنا نزلت النادي قابلت الشلة، قضيت وقت جميل.

- شهد مش بتفكري تشتغلي؟

رفعت نفسها قليلًا حتى تبادله النظر، تهمس برفعة كتفين وتجيب سؤاله المباغت:

- تؤ.. مش عايزه حاجة تشغلني عنك يا حبيبي.

- أيوه بس..

قاطعته بسبابة وضعتها فوق ثغره، وعقدة جبينها المصطنعة توبخ بدلال:

- بجد يا نديم أنت مش معقول!

طالعها في صمتٍ..

هل يمكنه القول أنه ملَّ!

ملَّ تلك الروتينية التي تغزو خارطة أيامه حتى احتلتها..

بل ملَّ تلك الزوجة الناعمة المطيعة كالعجين اللين كيفما شكلها بين أصابعه ستكون له ما يريد، يعلم أنها تعشقه بكل وجدانها فنصبته على عرش قلبها وعقلها، بل كل ذرة وخلية فيها



تنضح بعشقه، تبغي البقاء أبدًا هائمةً في صحرائه، غارقةً بين موجاته، بل لو أمكنها الإختلاط مع أنفاسه حد التوحد لفعلت!

ترى كيف كانت لتكون حياته مع تلك الأخرى؟

كتلة الطاقة المتحركة.. بل المشتعلة!

وآه حسرة حبسها في نفسه، فالخيال وحده أكثر من كافٍ لتتدفق الدماء إلى أوردته العطشى، كيف إذ لو كانت الآن بين يديه!

- نديم أنت رحت فين!

كان صوتها بمثابة مطرقة من فولاذٍ لأحلام اليقظة خاصته، ليجذب كوب العصير من أعلى الكومود، ناولها إياه وأخذ الآخر، راقبها وهي



ترتشف بدورها مستمتعةً ببطءٍ متلذذٍ، تظن بذلك أنها تشاركه طقوسه اليومية التي لا يتخلى عنها ولم تكن تعلم أنه بذلك يمنع عنها حقها في غريزة هي حلم كل امرأةٍ على ظهر الأرض..

لم تكن تعلم أنه يمنع عنها حقها في عَطِيَّة الأمومة!

***

- لسه صاحية!

شددت فوق شالها أكثر وعيناها تبحر مع امتداد الليل البهيم بينما لم يفتر عنها سوى همهمة خافتة لتجاورها أمها فوق المقعد القابع فوق أرضية شرفة غرفتها.. تخللت خصلاتها القصيرة



بأناملها في حنوٍ، تحاول جذبها من مستنقع الوجع الذي سقطت فيه قسرًا منذ قرابة الشهرين ويزيد، صغيرتها منذ ما حدث وهي تعتكف داخل غرفتها لا تجالس أحدًا ولا تغادر البيت حتى لمرة واحدة:

- غِنى..

نادتها فلم تخذلها إذ دارت برأسها تواجهها فتستطرد الأولى بشيءٍ من جزعٍ وخوفٍ على مدللتها الصغيرة:

- الحياة ماينفعش تقف ياحبيبتي.

وحين لم يصلها رد سوى التماع دمعات غائرةٍ تناشد هطول تابعت تستطرد الأم بجدية:



- الدراسة مش باقي عليها كتير، لآزم نركز عشان مايحصلش زي السنة اللي فاتت.

رفعت غِنى ركبتيها تضمهما لصدرها وتلقي برأسها عليهما، تعود تبحر ببصرها بعيدًا عن جليستها، هائمةً مع الظلام من جديدٍ بينما شفاها تهمس بفتورٍ:

- مش مهم.

عاتبتها بحدةٍ واستنكارٍ:

- إيه ده المش مهم!.. مستقبلك يا غِنى بقى مش مهم؟

- مش عايزة أتكلم في أي حاجة دلوقت، ممكن تسبيني لوحدي.



انتفضت يسرا من جوارها تزعق فيها تلك المرة ودمعات القهر تهطل فوق وجنتيها علَّها تعي أنها بذلك تفقد حياتها، لو استمرت داخل تلك الشرنقة التي تحبس فيها حالها حتمًا ستفقدها:

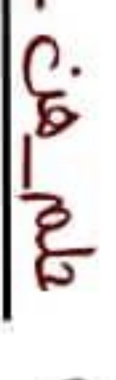
- حرام عليكِ أنتِ بتعملي فيا كده ليه؟.. مش كفاية هو راح أنتِ كمان عايزه تضيعي مني!

واستطردت بألمٍ حقيقي:

- ماتوجعيش قلبي يا غِنى.

ران صمتٌ ثقيلٌ قبل ما تصرخ فيها غنى بوجعٍ مستنكرٍ:

- أنتِ إزاي تخبي عني الحقيقة، أنا لآزم أعرف مين دول؟ وعمل إيه عشان يعملوا معاه كده؟!





واستطردت بإصرار:

- حق بابا لآزم يرجع.

مسحت يسرا فوق وجهها في قلة حيلة، فمنذ أصدر الطبيب الشرعي تقريره الأخير بشأن حقيقة وفاة زوجها وكانت حينها الصاعقة..

(سكتة قلبية)

هكذا كان تقرير الطبيب مخالفًا كل الحقائق الأولية والتي تجزم أنه تم قتله مخنوقًا عن عمد، وبقدرة البشر ذوي النفوس الضآلة تحول كل شيء في غضون ساعات لينفى كل ما قيل وتتحد جميع الأدلة مع تقرير الطبيب الأخير.. والآن تغضب ابنتها وتزعق فيها مستنكرة أنها تتعمد



إخفاء الحقائق عنها، وهي بالفعل كانت تفعل وماكانت لتخبرها أبدًا لولا أنها سمعتها تتحدث في الأمر عبر الهاتف.

عادت تجاورها وتمسك برأسها بين كفيها تخبرها بإختصار، بل تغلق تلك الصفحة للأبد فهي لن تضحي بولديها فوق ماخسرت:

- افهمي يا غِنى، وضع بابا السياسي كان يحتم عليه التعامل مع ناس كتير.. ناس كتير وحشة.. صدقيني أنا ماعرفهمش لكن أعرف أنهم كانوا عايزين يأذوه عشان رفض يكون زيهم.. الكلام ده مالوش لزوم دلوقت بس عشان تبطلي أسئلة وعشان نقفل الصفحة دي للأبد.



ثم استطردت بعد تنهيدة تخفي خلفها الكثير والكثير من الألم:

- لآزم تعرفي كمان أن بابا الله يرحمه عاش طول حياته يحميكم بروحه.. وأنا دلوقت مش عايزه حاجة من الدنيا دي غير راحتك و سعادتك أنتِ وعمر.. أنتم الباقيين ليا.

ما إن انتهت من كلماتها حتى سألتها ابنتها بعجز وحشرجة:

- هعيش إزاي من غيره؟

بإبهاميها محت دمعاتها المتساقطة، تقدم لها الدعم الذي تحتاج بحنو أمومي:



- عشان تتجاوزي الأزمة دي لآزم تكوني قوية، وقتها هيكون فخور بيكي.

ألقت برأسها فوق صدرها، تنشج بضياع:

- طب ليه هو.. ليه من بين كل الناس يكون هو؟!

شدت على ضمها بقوة وهي تخبرها بنبرة مريرة:

- عشان ده قدر ومالناش يد فيه، إدعي له يا غِنى هو دلوقت مش محتاج حاجة غير الدعاء.

وجوار الدمعات تحررت الألسن تبتهل، تدعو للغائب وتسأل الصبر والسلوان لقلوبهم المعطوبة.

***



مخيفة عجلة الأيام الدائرة في منظومةٍ لا تعطل أو تخطأ

ما كان معك في الأمس قد تفقده اليوم

وما ملكته اليوم ربما لا تجده في الغد

كلًا يدور في فلكٍ لا يحيد عنه أو يميل

إنتفاضة الدقة ورعشة الأطراف توحي باضطراب وحشرجة الأنفاس، لحظة دخوله وازت نهوضها ببطءٍ من فوق المقعد الجلدي الرابض داخل إحدى غرف الضباط.. زيارة خاصة تكفل بها أبيه تحت طلب ورجاء خاص منها، لتنال أخيرًا فرصة لقاء تنفرد به فيها بعيدًا عن جموع المساجين والجنود.. تحاوطه ببصرها، تشمله



بنظرة واحدة من أعلى لأسفل، تود الإطمئنان فتصدمها هيئته..

رأس حليق كحال ذقنه وشارب بالكاد يعبر عن وجوده بينما وجهه!

يسكنه التجهم والقتامة..

- حسن..

وازى لهفة نبرتها خطوتها السريعة وهي تلقي بحالها بين ذراعيه، ضمته أم ضمت نفسها له لا تدري، كانت تود أن تهدهد روحها ومن قبلها روحه، لم يخرجها من هالة الشوق التي غمرتها بغتةً برؤيته سوى نبرته الميتة وجسده المتيبس بين يديها:



- إيه اللي جابك؟

بضع ثوانٍ استوعبت فيها معنى كلماته لتبتعد على مهل وعيناها تطالعه فتقابلها نظرته القاسية حد الوحشة وهو يحاول التشبث في حروف كأنها شظايا من زجاج:

- طبعًا هو اللي ساعدك في الزيارة الخاصة دي مش كده؟

أي غباء أتى بها إليه؟ أي حماقة جعلتها تصنع من حالها كيس ملاكمة يفرغ فيه بعضا مما يعتمل بداخله.. صوته الغاضب جعلها تنكس برأسها وهي تجيب بإرتجاف:

- كنت عايزه أشوفك.. أطمن عليك!



يمسك برأسه ويصرخ بجنون من بين ضروسه:

- يعني أنا أرفضه وأنتِ تطلبي منه، يا شيخه عندك ما شفتيني!

ران صمتٌ ثقيلٌ لبرهة رفعت له رأسها من بعدها في صدمة وهمس غير مصدق، متحشرج:

- ماكنتش عايزني آجي يا حسن؟.. مش عايز تشوفني!

أخذ خطوة يوليها فيها ظهره وسخر من حاله، ومنها.. ومن المشهد برمته:

- أشوفك فين؟ أنتِ مش واخده بالك أنا فين ولا ده وقت نمثل فيه غراميات رخيصة!

قاسية كلماته، وسخريته لآذعه..



لكن رؤيته هنا خلف القضبان جعلت فؤادها ينبض بألم، مؤكد ما يمر به لهو من القسوة حتى يتحدث بهكذا هراء، هي عرفته زوج ومن قبلها سكن وملجأ، وحآن دورها أن تكون له ما ينبغي للزوجة أن تكون..

وقفت من خلفه تحط بكفها فوق كتفه وبخفوت همست ببلسم كلماتها علها بذلك تهدأ من نيرانه المشتعلة:

- أزمة وهتعدي يا حسن، أن شاء الله هتعدي.

كبح سخريته تلك المرة داخل نفسه

فبأي عالمٍ تحيا زوجته المصون؟

زوجته!



كان صدى الكلمة يدوي داخل صدره كرصاص يصم الأذنين، اكتفى بجلوس فوق مقعد مجاور وترك لرأسه حرية الغوص بين كفيه يمسح بهما عنه، عله يمسح سواد أيامه بين هذه الجدران..

شعر بأناملها تلامس ركبته بتردد فرفع رأسه يقابل حنو النظرة والبسمة لينتفض من جديد، يدور في المكان دون تركيز وسؤال ظهر لها دون اهتمام حقيقي:

- أمي عامله إيه؟

اقتربت ما إبتعد حتى قابلته في وقفته، والكذب بالشق الأول مباح:

- بتسلم عليك وبتدعي لك دايماً.



شرد فيها للحظات قبل ما يهمس كمن وعى بعد سبات:

- كان غلط..

عقدت جبينها في استفهام لم يطل إذ عاد يستطرد من جديد ويقر بذلك لحاله من قبلها بنبرة البائس:

- جوازنا كان غلط.. ليلة كبيرة ونهاية أتحكم عليها خلاص.

بوردية تناسب سنوات عمرها الفتي كانت تتشبث في أصابعه، تنفي ما تسمع من كلمات وترى من نظرات:



- ده حكم الظالمين، حكم أتعمل عشان يجلد الغلابة اللي زينا وبس.. إنما أنت في عيني برئ حتى لو العالم كله قال عكس ده.

حدجها بحدة!

كانت كلماتها توسمه بالذنب، بتلك الحماقة تثقل عاتقه!

وكان آخر مايحتاج مشاعر مراهقة تمارس طقوس أنوثتها عليه، هو ليس بحاجة لقربها، فقربها لا يجلب له سوى وجع بالرأس هو في غنى عنه.. أبعد يدها برفق وتخطاها في قرار صارم ينهي به تلك الزيارة وما تلاها وأيما فكرة تجوب خاطرها لتعاود الكره:



- ماتفكريش تيجي تاني و إن جيتي مش هقابلك.

ونقل بصره إليها، تثنيه عبراتها النافره من منبعهم عن قسوته التالية ليستبدلها في النهاية بصمت مطبق انتهت به الزيارة.

***

يرتكز بجسده فوق الجدار ويشعل سيجارة جديدة ليحقق بذلك رقم قياسي في غضون ثلاثين دقيقة، يشعر بجهنم مستعر في داخله، يحرق جوفه بالتدخين المفرط، يصاحبه شعور بالغضب امتزج به العجز.. لو فقط يمكنوه من رقبة "حلمي الجمال" بين يديه الآن لكان مزعها عن جسده، الحقير وعده أنه سيعمل على خلاصه في أقرب وقت، أوهمه بأنه يقف في ظهره

بل أقسم على أنه لن يحاكم.. عقد وإياه تلك الإتفاقية فور القبض عليه مقايضة على ما بين يديه من أوراق تخص الأول..

والآن ماذا!!

لعنه من جديد في نفسه وهو يتذكر دوي كلماته الأخيرة عبر أذنيه يوم صدر فيه حكم الحبس، أي منذ أسبوع مضى.. وكانت نبرته آنذاك يبطنها خبث يسخر منه ببساطة؛ فما الخوف من رجل قابع خلف القضبان!..

"متحاولش تكلمني تاني أنا راجل العين عليا، وبعدين أربع سنين مش قصة يعني يا أبو علي"

- لنا يوم يا كلب.



كانت قبضته تلكم الجدار بالتوازي مع هسيسه الذي خرج مصبوغًا بالحمم وعلى ما يبدو أن حالته تلك لفتت أنظار من حوله ليبدأ أحدهم إذ يتعمد إغاظته كل حين ما إن حط بينهم، يرمي الحديث الساخر بالرغم من تحذيره مسبقًا عن الإحتكاك به عقب صولات وجولات من الألفاظ النابية التي تراشقها وإياه في أول أيامه:

- صدق اللي قال أصحاب العقول في راحة.

قابل حسن سخريته بفظاظةٍ ونظراته تتحداه في غضب:

- ماتخليك في حالك يابن المضايقه!



صاح الرجل خشن الملامح والنبرة مرحباً بالتحدي بغمزة عين متوعدة:

- يظهر أنك عايز تتربى عشان يهبط ريشك المنفوش علينا من ساعة ماشرفت يا حيلتها.

رمى حسن بالسيجارة فوق الأرض يدهسها على عجل، يقابل تقدم خطوات الآخر في إصرار وكاد أن ينشب بينهما عراك حامي الوطيس لولا تدخل باقي رواد العنبر، فرقوا بينهما بالقوة بينما بقيت النظرات المتوعده عالقة بينهما لا تهدأ ولا تفتر.





كان صدى كلماته يتردد في أذنيها طيلة طريق العودة وسؤال بالقلب ينبض، ماذا كنت تنتظرين من رجل تخنقه القضبان؟..

فيأتي العقل بالإجابة واضحة يشوبها بعض السخرية

يرتمي بين ذراعيك يشكو وحشته؟

أم يفضي لك وجعه ببضع دمعات!

في ركن قصي بداخلها كانت ممتنه لعدم حدوث ما تفكر فيه، كانت لتنهار بدورها، ربما رؤية الوجه الآخر منه في هكذا وضع أفضل بكثير، وبالرغم من وقع كلماته الموجع لم تتألم بشكل يؤذيها، بل جل تفكيرها ينصب على حالته التي



يرثى لها، تتفهمه ويضيق صدرها كامرأة كان الفراق قدرها وزوجها.

ترجلت من عربة الأجرة وما إن ولجت لداخل المنزل حتى توقفت متوجسة من تلك النهنهات المكتومة..

حثت الخطى برهبة..

وليتها ما فعلت..

فكأنما المشهد يعيد نفسه بنفسه..

ليلة غادرتها أمها، ترأى الآن نسخة مكررة للمشهد الأصلي!

رأت سماح تتكفأ جوار أمها تتشبث فيها باكية، ترجوها ألآ ترحل، تسألها لمن يكون البقاء من

بعدها.. تتوسلها ولا تجيب، تقبل كفها البارد فتتحرر الصرخات صخبا ووجعا معلنا عن فراق آت بلا محالة.

وليس كل ما سبق رؤيته ينسب للديجاڤو

هناك..

في زمانٍ ما..

مكانٍ ما..

تحدث عدالة السماء.



(١٦)

قالوا أنَّ أصعب الحرام أوله..

ثم يسهل، ثم يستساغ، ثم يؤلف، ثم يحلو، ثم يطبع على القلب، ثم يبحث القلب عن حرام آخر..

وهنا يبقى السؤال عالقًا؛

هل أضاع الحياة.. أم أضاعته الحياة!

ظل مدة طويلة يقف خلف الفاترينه يتطلع لما وراء زجاجها من حلوى شهية يقطر من فوق طبقاتها المورقه العسل الأبيض وأخرى يجهل إسمها لكنها أكثر من كافية لإسالة لعاب صبي في العاشرة من عمره لايملك ربع ثمنها!.. دفع به



صاحب المحل ليبتعد عن واجهة رزقه، وقف على بعد خطوات يحدجه فيها بنظرات ازدراء وغضب، ليقتحم عزلته آنذاك صوت خبيث يهمهم من خلف أذنه بما يشبه الفحيح:

- اللي مايجيبوش جيبك تجيبه إيدك، حتى بص كده..

دار برأسه يطالع هيئته المتشردة في نفور، كان رجلًا متوسط البنية بذراع يرتكن إلى جانبه دون حراك وآخر يحك به في شعر رأسه المغبر، وعقب كلماته المبهمة غمزه بمكر وأبتعد، أخذ يراقبه بفضول متزايد وهو يراه يتسلّل خفية، وبينما ينشغل البائع مع مشترٍ آخر في خفة كان يخطف ما كان يشتهي منذ لحظات ويلقي به داخل جيب



معطفه المهترىء دونما أن ينتبه له البائع، عاد له من جديد وظل يطالعه من علو كالظافر بالغنائم وبين فكه يلوك ما استباح لنفسه من حق غير مشروع ودون حديث أكلها كلها ثم غادره في صمت مودعًا إياه بابتسامة صفراء.

ليلة طويلة قضاها يتقلب في مضجعه وقد جفاه النوم وذاكرته تعيد له ما رأى من الرجل غريب الأطوار، وفي اليوم التالي كان يقف على بعد خطوات رابض في ذات مكان الأمس، انتظر حتى أتت الفرصة وتقدم خطوة.. جبن مرة واثنان وفي الثالثة كان يمتلك من الإصرار ما يكفي لاستكمال مانوى وطعم الحلوى الذائب في فمه أنساه مافعل لينالها.

باتَ ليلته هذه بعطبٍ ما في روحه لم يكن

ليستوعبه طفلٌ في مثل عمره لكن مع إشراقة

أول صباح كان قد زال كل شعور وضاع مع

أدراج الرياح ولم يبقَ سوى الطعم الحلو الذائب

فوق لسانه، فأعاد الكرة مرة وثانية وثالثة..

وفي كل مرة كان يسهل الأمر عن سابقيه..

وعينا الذئب المنتشية على مقربة منه، تراقب،

توجه، تعلم وتحفز حتى بات مايحدث هو

المعتاد..

معتاد حد استساغة النفس وتوالفها معه..

ولم يفت الكثير حتى برع فيما تشبعت به نفسه،

بل بدأ يتفنن ويبدع في اختلاق كل ماهو جديد،



لم يقف عند قطعة حلوى اشتهتها نفسه في غمرة جوع بل تحولت لأشياء أكثر قيمة، وما أكثر أهمية لدى شاب يخطو في ربوع المراهقة غير المال!..

وكان..

بين زحام مواصلات أو بشر، عجائز يمكُثن بمفردهن ويملكن مال أو بضع مصوغات تجذب أنظاره..

أبدًا لا يغادر خالي الوفاض، لا يخيب ولم تخُنه أصابعه لمرة، في كل مرة كان يحرز أهدافه بظفر ويغادر بغنائمه منتشيًا بالنصر، دونما يتطلع للوراء..



ولذة المال دائمًا تحلو!..

لذة تسربلت بين أوردة الجسد وشرايينه فباتت تجري كمجرى الدم، نفسٌ دونما تدري فتنها الضلال فوسمها الباطل، وعلى أبواب العشرين من عمره كان وهج نجمه يلمع في سماء البغي، لا قيود ولا موانع للمقدام القابع بداخله، عاش بين أهل الترف، أكل مأكلهم وشرب مشربهم ونام فوق أسرتهم، ثمل من الخمر تارة وأخرى من النساء.. عاشر كل طالح فأنساه كل صالح!

حتى طبع فوق القلب وأخذ يبحث عن حرام آخر وآخر..

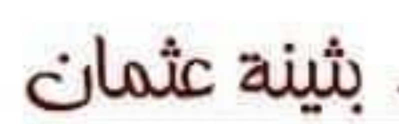
والعاقبة مع نفسٍ ضاعت عبثًا في الحياة،

خسرت استقامتها بعد انحراف عن كل فطرة



سليمة فبات البغي والزيغ هما المآل بعد كل اعوجاج.

كان يحتل الزاوية يجلس القرفصاء بجسدٍ ينتفض بفعل الرطوبة العالية المائلة لبرودة شتاء يهلل بقدوم قريب في حجز انفرادي عقب ما نال عقوبة مستحقه قبيل تهجمه على سجين آخر بعد تلقيه خبر وفاة أمه. عجز عقله عن استيعاب الأمر وحين حاول ذلك البغيض حك أنفه كحال كل يوم لم يدر بحاله إلا وهو ينقض على رأسه يشبعه باللكمات ولم يكتف فرطمه بالجدار حتى نفرت دماؤه فوجب العقاب وجاء الأمر بإلقائه في الانفرادي لأسبوع كامل، وبدلا من استحضار ذكرى الراحلة كان شريط حياته



الأخرى يعرض أمام عينيه متخذا فيها دور البطولة برفقة معلمه "أيوب". حياة غادرتها ياقوت ولم تعرف عنها أي شيء!

رحلت دونما وداع..

اقتنصها الموت وفي جعبته الكثير كان يود لو أخبرها إياه وبينما غيره ينثر فوق جسدها الثرى جالس هو هنا مكبل بأغلال العجز.

وكأن لتوّه وعي لما تعني كلمة "موت"!

نهض يدور في الغرفة الضيقة حول نفسه في ضياع، بؤبؤا عينيه متحجران في قوة آلمته، صدره يجيش بهمهمات مكتومة، همهمات تحررت بعد حين في لكمات قاسية طالت الباب



الحديدي يصحبها صياح مدوي يبغي حرية فتكبله القضبان ويرتد إلى صدر صاحبه كسكين ثالم فما يزيده إلا نصَبا.

***

يحدث أن تثقلك الحياة بكثرة مآسيها

تثقل روحك حتى يشبه شهيقك وزفيرك المخاض العسير

وحينها تقرر أن تسلك أقصر الطرق.. الهرب!

- يعني إيه تمشي يا سماح!

وسماح الشاردة فوق أريكة أمها الراحلة يلفها السواد في ملبسها وعقدة رأسها، تجلس في مكانها الأثير بينما تتمسك بإطار النافذة وتلقي ببصرها

ناحية الخارج تبحث في وجوه المارة عن أثر الحياة، فترى السعيد وآخر لايعرف للسعادة سبيل وآخر غلبت الهموم ملامحه فبات تائهًا شاردًا مثلها تماما.. لم تتجاهل السؤال المتعثر بصدمة من الواقفه قبالتها بتحفز ما إن ألقت بخبر رحيلها بغتة دون مقدمات، دارت برأسها ببطء، تخبرتها بنبرة لا حياة فيها:

- يعني هسيب هنا.

طالعتها نسمة في صمت لبرهة جلست بعدها وقد غمرتها المفاجئة وهي تتمتم بصدمة:

- طب أفهم عايزه تروحي فين؟





عادت سماح بوجهها ناحية النافذة النصف مشرعة وهي تخبرها في قرار لا يقبل الجدل:

- مرسى مطروح.

- يعني أنتِ كمان هتسبيني!

لفظتها بصوت متهدج، صوت يعلم أن الخلود للراحة ليس لأمثالها، كيف ترتاح وقد رحل عنها كل غال وحبيب، يتسربلون من بين يديها واحد تلو آخر، كأنها لعنة.. كان آخرهم تلك العجوز التي ضمتها لكنفها وعوضتها عن غياب أمها، لتكون النهاية مع ألم مضاعف، فقدان مضاعف.. يرحلون جميعا تاركين أحزانهم معلقة على أبواب الذاكرة وكلما تعالى رنين الذكرى تعالى ناقوس الحنين وألم الفراق.

أصابتها نبرتها المتهدجة بغضب جعلها تنتفض من جلستها وتصرخ فيها دون مراعاة:

- عايزاني أستنى لحد ما صاحب البيت يطردنا ونترمي في الشارع!

نكست برأسها ولم تجد رد فهي أكثر من تدري بألآعيب صاحب البيت النذل، فمرة يتحدث عن رغبته في ترميم البيت وأخرى يلمح بشدة لحاجته الشديدة إلى مكان يستخدمه كمخزن لبضاعة البقالة خاصته وكل الأصابع تشير لمسكنهم.. وفي الأصل الأمر يعود لكثرة حديث جاب كل بيوت الحارة يمصمصون شفاهم مع خبر الحبس أولاً ثم يضربون كفوفهم عقب خبر الوفاة.. أناس لا يفعلون في يومهم شيء سوى

التلصص على حياة الآخرين لمعرفة خباياهم ثم دس بعض البهارات لتكون أكثر إثارة وقبول وقت عرضها على كل فضولي.. ويالهم من كثر!

- كلكم قررتوا تتخلوا عني.

همست نسمة بتشتت، كانت كمن يحدث نفسه.. وكانت تلك القشة التي قسمت ظهر البعير ليعلو صياح سماح بما يجيش في صدرها وقد عجزت عن كبحه:

- أنا تعبت، خلاص مش قادرة، كلام الناس كل يوم يخنقني أكتر..

ثم أخذت شهيق وتابعت في حده:



- عامة أنا مش باخد رأيك ده قرار أخدته والتنفيذ بعد بكره.

حينها لم تفتر شفاه مستمعتها عن حرف وفضلت الصمت بقسمات غلبها الضيق، فلم تملك أمام ضعفها وقلة حيلتها سوى استطرادة جديدة تعني كل مافيها بصدق:

- تعالي معايا أنا هكلم صاحبة المطعم عشان تشغلك. خلينا نبدأ حياة جديدة بعيد عن الهم والقرف بتاع هنا.

تحررت كلماتها أخيرًا في استنكار:

- وأسيب دراستي اللي هتبدأ كمان أسبوع؟.. طيب وحسن! أسيبه أزاي وأبعد كل ده؟



أشاحت لها سماح بذراعها ساخرة وراحت تعود لجلستها الأولى:

- خلاص خليكي مكانك وغني ظلموه.. أنتِ حره وأنا حره.. ومن اللحظة دي كل واحد مسؤول عن نفسه.

بغضب كانت تنهض لتهتف فيها من علو، فأي أخوة تلك التي تربط بينها وشقيقها.. بأحقية زوجة كانت تدافع:

- ليه قسوتك دي؟ لا فكرتي تزوريه ولا حتى سألتي عنه من يوم ما اتحاكم ودلوقتي تقولي نسيب هنا. ناسيه إنه مالوش غيرنا.. ليه كده يا سماح!



دونما تنظر لها كانت تدمدم في سخرية مريرة:

- خدنا إيه يعني من الحنية غير وجع القلب.

جملتها وازت إغلاق النافذة المشرعه تكتم بذلك أصوات الصخب القائم في الخارج، فاليوم يحتفل "عادل" بخطبته على "ابنة الجزار".. طبيبة مثله ويليقان ببعضهما البعض ولا عزاء للقلب المكلوم.. غناء ورقص و أضواء ملونة تبهج الحارة من أولها لآخرها، كل هذا ولم يفت على وفاة أمها غير أسبوعين.. أسبوعين لم يقدم لها فيهم واجب العزاء حتى وإن كان من باب الجيرة والعشرة..

لم يحترم لها حبًا ولم يقدر لها حزنًا



فبورك بلعنات القلب المغدور.

***

تدور داخل ساقية العمل دون كلل، تحاول وتبذل أقصى مجهود ممكن حتى يلمح نجمها وسط السماء الملبدة، يجب أن تكون على قدر المسؤولية التي حملتها فوق عاتقها، وحدها أصبحت فوق الطريق بعد وعكة أبيها الأخيرة، وعلى مايبدو ليس له بعدها قيام، كيف يكون وهو يدفن حاله في شرنقة الذنب؟ بل يقضي أيامه وحيد، حبيس غرفته في عقاب خاص كأنما يقوم بعملية جلد للذات، جميع محاولاتها وأخيها باءت بالفشل ومن قبلهم أمها، فقط يهتم بشؤون ابنه السجين ويكرس جل معارفه

وقدراته الممكنة في سبيل راحته، هي لا تلومه لكنها تضيق ذرعا من تلك الحالة التي تحلق فوق أيامهم بقتامة خانقة، لو فقط يجهر بسره وما يخبئه عنهم لربما ساعدته حتى يرتاح وكانوا ليرتاحوا جميعا حينها.

تحيط بها الأوراق من كل جانب، بصرها يتحرك كل ثانية تباعًا لأخرى فيما بينهم بينما تدمدم لمساعدتها عبر الهاتف:

- سميرة اطلبي لي المعمل، وصليني برئيس العمال بعد إذنك.

وعودة لما بين يديها، تدقق هذا وتعيد ذاك حتى اقتحمت سميرة خلوتها بعد حين في كلمات أكثر من كافية لتجمد جميع أطرافها:

- أستاذ نديم بره، عايز يقابلك حالا؟!

وسميرة امرأة بقسمات هادئة أقرب للطبيعة، لها بها صلة قرابة بعيدة توطدت أكثر عقب عملها معهم منذ خمس سنوات لتصبح في خانة الصديقة قبل كونها مديرة مكتبها وهذا منحها مكانة مؤكد تسمح لها بزجرها وكسر الرسميات وقتما تشرد ولا تلقى منها جواب:

- هااااي ميسون.. أنتِ يا بنتي، بقولك نديم نصار بره وعايز يدخل حالا.. أقوله إيه؟

- خليه يدخل.



هكذا لفظتها بهدوء تبعها شهيق عسير ورسمية أحضرتها قسرًا بينما تنهض في كياسة ترحب بقدومه بابتسامة عملية وجملة تشبهها:

- أهلا مستر نديم، اتفضل.

ولم يكن ليكتفي بسلام عابر إذ مد بكفه ناحيتها وعيناه مركزة داخل عينيها، لم تجد بديلا عن مصافحة سريعة عقبها جلوس، ترتدي منظارها المؤطر الذي يمنح عمليتها الباردة في عينه جاذبية أكبر.. دمدمت بثقة لطالما كانت تليق بها:

- بصراحة كنا محتاجين نوصل لك، في شوية تفاصيل مهمة تخص الشحنة الجاية.. بس طبعًا ماكنش ينفع نزعجك في الهاني مون.



سبت حالها بداخلها على ما تفوهت به في ختام جملتها، ماكان عليها التطرق لهذا وإن بدا الأمر عاديًا.. استطردت من جديد تبغي بذلك تشويش عما سبق وبين يديها ملف ورقي تشير نحوه:

- هنا هتلاقي كل التفاصيل و...

- وحشتيني.

تحشرجت أنفاسها كمن يركض في مارثون حامي الوطيس وتبعثرت خلجاتها بينما تحدجه بنظرة المصعوق، حاولت لملمة بعثرتها وهي تبتلع لعابها لكن نبرتها كانت لاهثه و كلمته تطن في أذنيها بقوة.. ومع ذلك تابعت بثبات مصطنع كأنما لم يتلفظ بأيما هراء:



- في كمان بعض الاقتراحات أتمنى تشوفها.

وفعلته التالية تخطت كل توقعاتها كأنما بزواجه دك كل ما بينهما من حواجز ولم يخلق واحد أكثر صلادة إذ نهض بغتة ودار حول المكتب، ارتكز بكفيه فوق حافته ومال ناحيتها، أنفاسه القريبة الحارة غلفها بحرارة العاطفة:

- بتهربي مني ولا من نفسك؟

مع كل حرف كانت أنفاسه تختلط بعبقها، يشم ويعبق روحه بأريجها فيذوب عشقا.. وشوقا!

مال يقترب أكثر من منبع فتنتها، يطوع شذرات الزيتون لملك نظراته ويهمس أمام شفتيها بنبرة مذبوحة:



- إزاي قادرة تدوسي على كل اللي بينا بسهولة كده؟

ومال جانب فمه بسخرية مريرة:

- عرفيني الطريقة يمكن أقدر أعمل زيك.

لا تنكر أنه بحرارة كلماته استضعف ثقتها وتهشمت قوتها الواهية وهي تترجاه بخفوت مرتجف بعد ما هربت من أسر نظراته بإغماضة عين:

- قصدك اللي كان بينا يا نديم، احنا وصلنا لمفترق مفيش فيه طريق واحد ممكن يجمع مابينا تاني.. خلينا نعتبرها محطة في حياتنا،



مجرد محطة لجأنا لها في وقت غلط ودلوقت كل شيء رجع لمساره الصحيح.

ودارت برأسها للجهة الأخرى، تبتعد عن مرمى أنفاسه وتزيل الحكاية التعيسة بشذرات من السعادة الكاذبة:

- صحيح تبادلنا وقتها مشاعر حلوة بس أكيد الوقت كفيل بتحويلها لذكرى.. وحقيقي من قلبي بتمنى لك كل السعادة مع مراتك.

هدير أنفاسه أخبرها أنه محموم بقربها، ملعون قلبه بعشقها، وعليل جسده بحرمانه منها، بينما الجنون يسكن دماغه ويغذيه الوهم.. أخذ يلف حول سبابته خصلة من شعرها، يهذر لها كأنما يحادثها هي لا صاحبتها:

- مافيش حاجة خلصت.. مش من حقك تحرمينا من السعادة، مش بكلمة ممكن تموت المشاعر..

وصمت لبرهة تابع بعدها وشفاه تلثم خصلتها الملتفه حول سبابته بهمس خاص:

- مستحيل أسمح لها تموت!

مع نهاية كلماته كانت تستفيق لترى حالها بأي وضع صارت، دفعت كفه عنها بكل قوتها، تقطع وصاله الذي هشم تماسكها للحظات لتفيق على صفعة جديدة.. خبال.. حتما ما يحدث ليس إلا خبال.. تسابقت أصابعها في استدعاء مديرة مكتبها، يجب قطع ذلك الحوار الدائر فعلى ما يبدو الماثل أمامها بكل هدوء مازال في جعبته الكثير وعلى أتم أستعداد لعرضه.. وكان كذلك



حين اعتدل في وقوفه ، يدمدم لها من علو بإصرار وفجور أكبر من سابقيه:

- خدي وقتك، أنا راجل نفسي طويل.. لكن خلينا متفقين أن آخرة عنادك هتكون بين إيديا.

- بره.. اطلع بره!!

كانت تصرخ فيه وتصم أذنيها بكلا كفيها في رفض قاطع لكل مايتفوه به من هراء بينما هو كان وداعه نظرة عشق خالصة! ليغادر بعدها بهدوء تاركًا من خلفه زوبعة أثارها بحضوره ومجون كلماته.. طالعتها سميرة التي اقتحمت الغرفة عقب رحيل الآخر لتتعجب من هيئتها الثائرة وعيناها التي تشرد نحو الفراغ.. ما حدث لتو لن تسمح ولن تقبل بتكراره مرة أخرى.. جزء من

العقل يأمرها بفض تلك الشراكة اللعينة في التو واللحظة، والجزء الآخر يذكرها بقيمة الشرط الجزائي المزين للعقود والذي يعني ضربة في مقتل لكيان الشركة في ظل هذه الأيام، بينما جزء ثالث والأكثر اشتعالا كان يصرخ فيها غاضبا، يسألها بالله: كيف أغرمت بهكذا رجل!

***

- يارب تكون عجبتك الأوضة يا سماح؟

- حلوة قوي.

تبسمت لها المرأة ببشاشة وخطواتها تتحرك ناحية النافذة العريضة، تزيح البرادي جانبا وتهتف بابتهاج:





- المنظر من هنا يرد الروح، منك للبحر على طول، أنا فضيتها لك مخصوص على فكرة بعد ما ماما بلغتني، والله يا سماح من فرحتي ماكنت مصدقه.

همست في حرج:

- تسلمي يا ست هنادي.

عادت تقابلها في وقفتها تحط بكفها فوق ساعدها في دعم:

- ارتاحي من المشوار ووقت ما تكوني جاهزة المطعم كله هينور بوجودك.

لطالما كانت معها سيدة أنيقة اللسان والحديث. شكرتها بشبح ابتسامة مغمغمة:



- من بكرة إن شاء الله هكون جاهزة.

- زي ما تحبي يا حبيبتي.. أنا موصية لك على غداء هيجيلك دلوقت وعلى فكرة شريف بيقولك حمدالله على السلامة.. أصل من كتر كلامي عنك بقى متحمس يشوفك.

- ربنا يخليكوا لبعض ويعوض عليكم بالخلف الصالح.

- يارب يا سماح يارب.

رمقت هنادي حزنها البادي على قسامتها بالرغم من محاولاتها لتغير مزاجها لكنها ليست تلك الشابة التي تدب حيوية ونشاط لطالما عرفتهما فيها.. همست أخيرًا في شيء من مواساة:



- شدي حيلك يا سماح.

بصوت مبحوح:

- على الله.

وتعالي رنين هاتف سماح جعلها تستأذن بأدب:

- أسيبك ترتاحي بقى.

تنهدت عقب رحيلها، تلقي بصرها فوق شاشة الهاتف لتلتقط هوية المتصل، ولم تجد غير الرد المقتضب فهو لن يصمت إن لم تفعل.. باتت تعلم:

- أيوه.. لأ وصلت من شوية.. متشكرة.

وحينها وصلتها نبرته بعد صمت قائلا في تردد خافت:



" تسمحي لي يا بنتي أطمن عليكِ من وقت للتاني؟"

وهي متعبة بحق وليست بها طاقة لمشادة هاتفية مع المدعو أبيها، الذي بات يزعجها كل يوم وآخر منذ رحيل أمها عنها باتصالات غير منتهية يبغي الاطمئنان عليها كما يدعي لذا ردت باختصار، تختصر بذلك اتصاله الثقيل:

- ماشي.

أنهت المكالمة بشهيق طويل، تلقي بالهاتف جانبًا وترتكن عند النافذة لتهيم مع زرقة البحر الساحرة على مداد البصر.. هي لا تحتاج في مثل هذا العمر لعطف أبوي يقتحم حياتها ويفترض بها أن ترحب مسرورة.. ماذا عن تلك الغصة

القابعة بداخلها؟ غصة تمنعها من القبول أو المهادنة، هي لا تريد قربه ولا شفقته ولا أي شيء آخر، جل ما تريد هو تركها لحال سبيلها فهي كفيلة بتولي زمام أمورها.

هدأت نفسها بالحديث معها، فمنذ محاولاته الحثيثه هو وزوجة أخيها في إقناعها بالعزوف عن قرارها وهي تتشبث عنادًا وغضبًا من كلاهما، كلٌ يبحث عن راحته.. وماذا عنها! آلا يفكرون بها لوهلة، آلا يشعرون بذلك القيد الذي يزيد من خناقه حول أنفاسها؟.. نفخت في ضجر تلك المرة وهي تتلفت من حولها تستكشف حياتها الجديدة، تلك البداية التي قررتها لنفسها وخطت أولى خطواتها بكل إرادة تامة.



وبينما هي تتهادى في خطاها كان على الجهة الأخرى شقيقها الغائب قابع فوق الأرضية الصلدة، تعانق أصابعه سيجارة باتت خليلة أيامه فلا يفارقها ولا تفارقه في حين يتخذ من الصمت مسلكًا، حداد افتراضي التزم به وساعده في ذلك نقله من الزنزانة الأولى لأخرى أقل أنفار، تخلو من أي مضايقات ومشاحنات بينه وأحد، فقط يحيا أيام نهارها مثل لياليها بات لا يفرق بينهما..

- شاي؟

قالها رجل ثلاثيني وهو يمد بها كفه محاولا بذلك مد جسر للتواصل، أخذها منه مع إيماءه صامته ليتركه بعدها الرجل ينعم بصمته الذي

يقدسه بينما هو كان يتحين لحظة خلود الجميع إلى مهاجعهم حتى تلتقط أنامله ببطء مظروف ورقي كان قد حشره بين ملابسه حين تقدم منه أحد الجنود وقت فترة الغذاء في الخفاء وقام بدسه خفية داخل كفه بينما يهمس له سريعاً بغمزة عين قبل ابتعاد:

"متخليش حد ياخد باله وأنا أوعدك هظبطك"

ولأنه يجهل مايحدث ومايخفيه ذلك المظروف الذي جاء إليه في السر ويحمل اسمه من الخارج عبر جندي يثير في نفسه القلق قبل الفضول..

تتطلع من حوله قبل ما يفض مافيه ويبدأ في قراءة فحواه



" السلام عليكم.. مستغرب؟ ولا صدقت أنك لما تقولي ماتجيش تاني وبعدها ترفض تقابلني كده تبقى خلصت مني!..

حاجبيه إرتفعا دون إرداة مع بسمة متهكمة أفترت عنها شفتاه وقد غلبته الدهشة من فعلة زوجته الغير متوقعه أبدًا.. ومن غيرها سيكون؟.. أكدها لنفسه وهويسحب شهيق طويل من عبق دخانه ويلفظ زفير أطول بينما عيناه عادت تمر فوق السطور من جديد..

" عامل إيه؟ عايش ازاي، مرتاح؟.. سؤال عبيط عارفة بس أنا قلقانه عليك وأنت مش عايز تطمني، وعشان كده قررت إني أكتب لك مرة و اتنين وتلاته ولحد ما تخرج.. أنا هفضل جنبك

ومش هسيبك لوحدك.. تعرف! أنت مش هتصدق أنا قاعده فين دلوقتي وأنا بكتب لك.. أنا فوق السطوح.. في أوضتك.. متخيل!..

مع سطرها الأخير كان جسده يتحفز في جلسته ويتمعن نظره فيما بين يديه بتركيز أكبر عن سابقيه..

" صاحب البيت بيستهبل ولمح أكتر من مرة عشان نسيب الشقة بعد وفاة ماما ياقوت وسماح قالت نمشي بكرامتنا أفضل، ولما جيت هنا وقابلت صاحب البيت الراجل طلع أصيل ووافق على طول بعد ما شاف قسيمة الجواز.. الدنيا دي غريبة قوي مش كده؟.. مين كان يصدق إني في يوم أرجع للمكان ده برجليا!.. مين



كان يصدق إن بعد كل اللي عشناه في الآخر يجمعنا طريق واحد.. هتصدقني لو قلت لك أنا ساعات مابصدقش و أفضل أقول لنفسي أن ده كله هيطلع حلم.. صحيح قبل ما أنسى أنا لقيت شغل كويس مناسب مع الدراسة هبقى أحكي لك عنه المرة الجاية.. خلي بالك من نفسك يا حسن وكفاية سجاير بالله.."

نسمة



(١٧)

لحياتنا فصولٌ تشبه تعاقب المواسم الأربع

طاولة صغيرة تستقبل أشعة الشمس الدافئة،

ترتكن أسفل الجدار العريض الذي يعبق

بأصائص الريحان والزهور الصغيرة مع مذياع

عتيق يشدو بخلفية للست أم كلثوم بطبقة

صوت مميزة تقول فيها "غلبني الشوق وغلّبني"

فتشاركها الهمس بشجن اللحظة وأناملها تخط

خطاب جديد

"وعدت سنة.. سنة على قد ما شفت فيها حستها

بطول عمري كله بس الحمد لله على كل حال..

طمني عليك؟ يارب تكون بخير.. أنا وسماح



أمورنا تمام، مدام مارجريت مبسوطة من شغلي معاها وأنا كمان مرتاحه. أقولك على سر؟ أنا حبيت الشغل ده عشان بحس بروح ماما الله يرحمها حواليا، لدرجة بتخيل صوتها يرن في وداني ساعات.

على فكرة إمبارح كان عيد جوازنا.. "كل سنة وأنت طيب".. بتضحك!.. ماشي.. بس ده مش جنان على فكرة أنا حقيقي برتاح لما أتكلم معاك وأحكي لك عن يومي وحياتي، بحس أنك جنبي وسامعني.

تنهدت وهي تتكأ برأسها فوق قبضتها المكورة بينما بصرها يتنقل فيما حولها في رضا، لها قرابة العام وهي تمكث هنا وحدها. أصلحت و

غيرت الكثير في ملامح الغرفة حتى باتت لا تشبه تلك التي وجدت بها حالها أول مرة، طلت الجدران بلوني الأزرق والأصفر وأبدلت أثاثها القديم المتهالك بآخر حديث بألوان فاتحة كما علقت بعض الصور المبهجة فوق الحوائط، ولم تنس الإهتمام بالمساحة الفارغة أمام الغرفة فنظفتها جيدًا وأقامت بها مطبخًا صغيرًا في أحد الزوايا بعد ما ركنت آللاته الرياضية عند جانب مظلل وقامت بتغطيتهم حمايةً من أشعة الشمس الحارة، نشرت من حولها فوق السور العريض وأسفله المزروعات النضره فكان لذلك الأثر الطيب في نفسها، بينما تعمير المنطقة من حولها بإنشاء الأبنية الحديثة وإقبال السكان



عليها مع إقامة بعض المتاجر والأسواق الصغيرة جعل ذلك أكثر أنسًا عن ذي قبل، عادت تميل فوق ورقتها تستكمل خطابها بثغرٍ ضاحكٍ..

ضحكة تشبه حلاوة الربيع..

"غيرت كتير في شكل الأوضة، هتعجبك أول ما تشوفها أنا متأكدة، بس أقدرأقولك أنها دلوقتي بس بقت تصلح للإستخدام الآدمي ومتخافش على حاجتك في الحفظ والصون..

وكانت تقصد بذلك أدوات الحلاقة خاصته وبضع أشياء أخرى مع قطع الملابس التي تقوم كل فترة على تنظيفها وتطييبها ثم رصها داخل الصوان الصغير الذي ابتاعته مؤخرًا، تابعت



الكتابة وهي تلون كلماتها بثوب الفكاهة علها تخفف من وطأة ترددها في السؤال

" هو أنت بتقرأ جواباتي يا حسن؟ أوعى يكون العسكري بينصب عليّ ومش بيوصل حاجة!.. طيب هسألك سؤال تاني.. هو أنا وحشتك زي ما أنت وحشتني؟!"

نسمة.

ظلت ترمش عدة مرات وهي ترمق آخر كلمات خطتها يدها باندهاش..

- ده تأثير الست يا هبلة.

قالتها لنفسها بهمسٍ مغتاظٍ وشفاه ممطوطة.

وامتدت كفها تجذب الخطاب تنوي تمزيعه



وإعادة واحد آخر لا يحتوي على هذا الهراء لولا تلك النبرة التي قاطعتها بلهاثٍ إثر صعود درجات السلم:

- يا رااااايقة.

قابلتها نسمة ببهجة حقيقية ونهضت لإستقبالها مهللةً بقدومها في مملكتها الصغيرة.. البسيطة:

- غِنى!.. وحشتيني، ماقولتيش ليه أنك جاية؟

عانقتها ثم ابتعدت لتهتف من بين أنفاسها:

- قلت أفاجئك بس ماكنتش أعرف روحي هتطلع كده.



ضحكت وهدأت من روعها وهي تتحرك لتحضر لها كوب ماء بارد من داخل الثلاجة الصغيرة القابعة بداخل الغرفة:

- طيب خدي نفسك هجيب لك مية ساقعة.

تجرعت نصف الكوب دفعة واحدة، ثم أنزلته و أشارت بكفها ناحية الدرج في استفهام:

- صحيح في ست غريبة وقفتني وأنا طالعة وعملت معايا تحقيق، طالعه لمين وعايزاها ليه وأسئلة عجيبة كده.. تعرفيها دي!

تناولت منها الكوب وهي تخبرها بصوت خفيض:



- دي الست ميساء، مرات صاحب البيت، ست غريبة فعلًا، بس أنا بحاول اتجنبها قدر المستطاع.

شهقت غنى بفزع وسألت بجدية وهي تقترب منها برأسها في توجس:

- مش دي اللي كنت قلت لي مرة أنك بتشوفيها تنزل بالليل متأخر من عربيات رجالة!

زجرتها:

- ششششش بس يا فضيحة مالناش دعوة.

أغلقت فمها بسحاب وهي تضحك لتزجرها من جديد بعينيها فتصمت، دارت في المكان من حولها وهي تطلق صفير خفيض تعلن به إعجابها:



- المكان بقى حلو قوي يا نسمة بجد.

التقطت عيناها مايرفرف فوق المنضدة الصغيرة فاستنبطت مافيه، أسرعت تخطف الخطاب وتلوح به ناحية الأخرى التي تعالى وجيب قلبها:

- هممم قفشتك.. بتعملي إيه يا هانم!

ومررت بصرها فوق سطوره سريعًا فالتقطت على الفور آخر كلمة فيه، رفعت لها وجهها شاهقه بنبرة خبيثة وهي تضحك بقوة:

- وحشتني! نسمة ووحشتني طب أزاي؟

وانخرطت في ضحكاتها حتى غصت بينما نسمة تخلص خطابها من بين أصابعها وتعنفها بضيق:



- أنتِ رخمة على فكرة..

طوت الخطاب وضمت عليه قبضتها بينما تحرك كتفيها تفتعل اللامبالاة تداري بذلك حرجها:

- وأصلًا كنت هقطعه.

تركتها ودخلت الغرفة فلحقت بها الأخرى بصخبها المتعال:

- عادي على فكرة ده جوزك يعني الطبيعي تقولي له وحشتني.. بحبك..

وألقت بحالها فوق الفراش المرتب وهي تستطرد بتنهيده ونبرة وردية:

- أرجعلي بقى.. أنا زهقت!



ختمت جملتها بانفعال لترميها الأخرى بوسادة الأريكة الصغيرة:

- بطلي تريأه يا سخيفه.

اعتدلت غِنى جالسة تربع ساقيها وتتحدث تلك المرة بجدية:

- على فكرة مش بتريأ، أنا بتكلم جد.

رفعت لها حاجبًا وتركتها تصطنع التشاغل بترتيب بعض الأشياء من حولها وحين حل الصمت دارت لها وسألتها بخفوت وقسمات مقتضبة:

- يعني هو عادي بجد!



أمسكت غِنى رأسها بين يديها وتصيح فيها باغتياظ:

- أنتِ هتجننيني يا بنتي، أصلًا بتتكلمي في إيه!.. مش البيه يبقى جوزك بردو ولا أنا غلطانة؟

قاطعتها بزمجرة:

- اسمه حسن.

- ماشي يا ستي سي حسن حلو كده؟.. وبعدين مش كفاية سايبك عايشة هنا لوحدك ومسافر كل ده، مش فاهمة بصراحة إزاي موافقة على الوضع ده أصلاً ولا هو متجوزك عشان يركنك في بيته؟



دارت لعثمة حروفها المختنقة ببسمة صغيرة وهي تستدير عنها:

- ما أنا قلت لك قبل كده مش بمزاجه ينزل وقت ما يحب، الكفيل بتاعه صعب والأجازات مش بالسهولة دي، ده له زميل مانزلش مصريجي من خمس سنين كده..

وسريعًا غيرت دفة الحوار:

- تحبي تشربي أيه؟

نهضت غنى تضمها برفق، تعتذر بلطف حين شعرت بضيق نبرتها محاولةً بذلك تلطيف الجو:

- مقصدتش اضايقك.. وبعدين فكرة الجوابات دي فكرة عظيمة أصلًا.



قابلت لطفها بآخر بينما تربت فوق ظهرها:

- عادي يابنتي محصلش حاجة.

ابتعدت قليلاً ترمقها بعين تشع حيوية وحماس:

- طيب يلا غيري هدومك وننزل نتغدى بره، أظن مالكيش حجة النهاردة أجازة من الشغل؟

فكرت لثوان ثم رفعت كتفيها في استسلام:

- موافقة.

أثرت كلتاهما في حياة الأخرى، فبعد لقاء وآخر من نسمة لها ولشقيقها الصغير نجحت في إعادتها وجذبها للحياة من جديد، فأصبح اليوم لا يكتمل من غير لقاء هاتفي أو شخصي يجمع بينهما، وكان لما مرت به كل منها صدى كبير في



نفسيهما لتتمكن أكثر بالسعي نحوالأيام الخوالي حيث الطفولة ولم شمل انفرط عقده مع الزمن.

***

ولنسيم الربيع سحره الخاص حين يمتزج مع هواء البحر المنعش، وذلك أكثر من مناسب لحفل الليلة الخاص، فالسيد يجهز مفاجأة لامرأته إحتفالًا بعيد زواجهم الخامس والذي تهتم هي بكل تفاصيله.. وبكل حزم:

- مش كده يا مروة رجعيها لوراء شوية!

نفخت في سأم وهي ترى الفتاة تعجز عن ضبط وضع طاولة! تحركت تساعدها وتضبط من



وضعها بنفسها حتى نالت مايرضيها ثم تابعت في إصدار أمر جديد:

- روحي شوفي بتاع الإضاءة وصل ولا لسه وأنا هشوف المطبخ.

بدأت في تنفيذ ما طلبت منها على الفور ودارت هي تنوي تفقد المطبخ بدورها حين رأته يقترب منها وعلى ثغره تلوح إبتسامة رضا:

- برافو يا سماح، اللي زيك الواحد يعتمد عليه وهو مغمض عينيه، وللحق مش بس في المطبخ؛ في أي مكان دايمًا قدها.

- العفو يا أستاذ شريف ده شغلي.

قالتها باسمة ليشيد بتواضعها ضاحكًا:



- ربنا يكتر من أمثالك يابنتي.

قابلت مزاحه وهي تتحرك:

- اتفضل بقى أرجع للمدام مش عايزين المفاجأة تبوظ وأنا هكمل شغلي.

أشار لها بإبهامه موافقاً فتحركت بالفعل، بعد حينٍ كان يهتف أحد العاملين بها، يقطع عنها تركيزها في الطبق الذي كانت تعده:

- آنسة سماح في واحد بره عايزك.

صمتت لثوان تفكر، من قد يطلب رؤيتها! لم تطل حيرتها كثيرًا إذ أشارت لإحداهن حتى تكمل عنها واتبعته متوجسة حتى قابلته في وقفته..

أبوها!



رؤيته أبداً كانت غير متوقعة، في اللحظة كان يجتر عليها الماضي بكل مافيه، عام مضى منذ أن نسجت لحالها عالم جديد، عالم كانت فيه سماح أخرى لا تشبه تلك الفتاة التي ضيعت نصف عمرها في ملاحقة مشاعر زائفة والنصف الآخر قضته تتجول من بيت لآخر تلهث خلف لقمة العيش..

عام نالت فيه على احترام الجميع وعرفت به شغف الطهي الذي لم تكن لتدركه سابقًا فأصبحت_ملكة المطبخ_ كما لقبها زميلاتها اللائي ربطها بهن جميعًا علاقة طيبة.

اقتربت بصدمتها منه في حين كان يعاجلها هو بهتاف مشتاق:

- إزيك يا سماح؟

لم تستطع منع حالها من سؤالها المتعجب فهي اعتادت على مكالماته التي دأب عليها منذ فترة طويلة لكن تلك الزيارة كانت مفاجأة بحق:

- أنت جاي مخصوص عشاني!

جاءها الجواب في إيماءة صامتة جعلتها تتفرس في ملامحه المرهقة، رجحتها على الفور لتعب الطريق، عاجلته بدعوة كان لها الصدى المبتهج في نفسه:

- تعالى نقعد هناك، اتفضل..

إختارت طاولة بعيدة عن الأنظار قليلًا، تقابلا في جلستهما و طالت النظرات المتبادلة في صمت،



قطعها بعد ما تشبع من صورتها بسؤال وإن كان يرى جوابه فوق ملامحها:

- مرتاحة يا بنتي؟

"الرجل فيه شيءٌ من قهر!"

قالتها لنفسها في شفقةٍ وهي تراقب قسماته وتجاعيد وجهه التي باتت محفورة بقسوة، تكفلت ببسمةٍ هادئةٍ قائلةً في رضا حقيقي:

- الحمدلله، بتعامل كأني صاحبة مكان مش بشتغل فيه.. أنا يمكن ماكنتش مرتاحة قبل كده قد الفترة دي.

تفهم حديثها بهزة رأس صامتة لينكس برأسه بعدها محتفظًا بذات الصمت، تلك الغصة التي



تمنع عنه متابعة حديث جاء من أجله، وصلتها بعثرة أفكاره المرهقة، وهي مؤخرًا بالفعل ماعادت تنظر للوراء، لم تعد تلك الذكريات تؤلمها كما السابق، هي نجحت في حجبها أسفل ركام النسيان، فالحياة بحلوها ومرها كلا سيمضي في طريقه..

لِمَ إذًا نختار الوقوف فوق حافة المشقة!

هي تبغض ذلك، ولأجل هذا سوف تأخذ نصيبها كاملًا من اسمها في هذه اللحظة وتودعه لذلك الرجل الجالس قبالتها علّه يتخلص من بواطنه المعذبة، فتلك الحياة المارقة لا تستحق أبدًا ذلك الكم الهائل من الوجع..





تركت لكفها حرية الربت فوق كفه الأيمن الراقد أمامه فوق المائدة وحين رفع بصره قابلته بسمتها الحانية.. كانت تشبه أمها الراحلة إلى حد كبير، حد أنه تخيلها.. خرجت نبرتها مواسية بحنوٍ حقيقيٍ يستشعره منها لأول مرة:

- ماتحملش نفسك فوق طاقتها.

حنو لم يبهج الكهل بداخله بقدر ما زاد من غصته، باكيًا على العمر المسكوب في ضياع..

ومع ذلك تبسم لمبسمها الحاني وهو يمد يسراه يحتوي بها كفها القابع فوق يمناه بدفء يناسب اللحظة والكلمات:

- ربنا يجبر بخاطرك يا بنتي.



هربت من حرقة تناوش الأجفان بتغيير دفة الحوار وهي تسحب كفيها لتغوص بهما داخل حجرها:

- حسن عامل إيه؟

وكانت تعلم أنه أكثر من يعلم عن حاله، ولم يخيب ظنها:

- على حاله رافض يقابل أي حد.. بس هو كويس ماتقلقيش.

هزت رأسها في صمت ليعاجلها من جديد بصدمة جديدة:

- عاوزك تكوني جنبه لما يخرج بالسلامة يا سماح.



- وهتفرق في إيه؟

قالتها بلمحة سخرية بينما تبتعد ببصرها عن مرماه بنصف استدارة ليدمدم على الفور:

- تفرق أنه هيكون محتاج لك.

- متشلش هم مراته مستنياه.

- مراته حاجة وأنتِ حاجة.

- حسن مش بيحتاج لحد، أنتَ ماتعرفوش.

- لأ، هيكون محتاج ياقوت، ومش هيلاقيها غير فيكِ.

عادت له سريعًا ورعشة شفتيها ردعت كل حرف وليد في زمة قاسية ليتابع تتمة ماجاء لأجله:



- مش حسن بس اللي محتاج وجودك.. أنس أخوكي كمان.

واستطرد بنظرة نفذت لوجدانها:

- مش عايزه يكبر مايعرفش مين أخواته.

صمتت عن الحديث، هي في الأصل لا تملك جوابًا.. وما يطلب منها فوق قدرتها.. وطلبه ليس بتلك البساطة أبدًا، هي تعجز عن التعامل مع شقيقها ربيب طفولتها فما باله يوصيها بآخر لا تعرف عنه شيء سوى اسمه وذكرى مشوشة لصورته حين وقع بصرها عليه وقت قامت بزيارته في المشفى آنذاك..



ومع إلحاح نظراته وإنتظاره لجواب صريح لم تملك سوى أن تنهي الحوار بكلمات حكيمة لم تعهدها بها من قبل لكنها بثت شيء من راحة في نفس الجالس قبالتها:

- سيب كل حاجة للزمن، هو كفيل بيها.

تبادلا بعدها الحديث الهادىء دون التطرق لأي شيء أو ذكرى تخص الأمس، بل تشاركا وصنعا ذكرى تخص اليوم، وعند الرحيل طوقها بذراعيه وترك لها قبلة فوق الجبين والدمعة الثقيلة حبسها خلف الأجفان وعنها؛ قد حررت خاصتها حين كانت تتبعه بعينيها إلى أن اختفى عن ناظريها.. قطع عليها خلوة الشعور الصخب القائم معلنًا عن اقتراب موعد الحفل المنتظر،

فمحت سريعاً ماعلق فوق أهدابها وصاحت بصرامة وعدم رضا في رجل الإضاءة الذي جاء يكمل ما بدأ من عمل على مقربة منها:

- ارفع شوية من جهة اليمينياريس!

***

ويحدث عقب زخير الربيع أن تجتاحك موجة صيفية حارة تحيلك وما كنت يومًا إلى نضوب مقفر..

وكانت رسائلها التي داومت عليها طيلة العامين المنصرمين كقطرة مطر وسط أرض مقفرة.

رسائل قابلها في البداية ببلادة ودون اهتمام حقيقي لينتهى به الحال ينتظرها في لهفة!.. كأنها



متنفس يسحبه بعيدًا عن تلك القضبان، عالم آخر لايرى فيه غيرها ولا يسمع غير صوتها حد أنَّ خياله كان له الدور الأعظم في تصوير ما تقرأه عيناه، يستطيع تخيلها كيف تبدأ صباحها بتكاسل تتبعه بشريحة خبز وكأس حليب يعقبه رحيل سريع إلى الجامعة لتنهي يومها الدراسي وتبدأ وقت العمل بمتجر "الكعك" والذي تعود ملكيته لسيدة مسنة تدعى مارجريت، من ثم تلاحق ساعات الليل في استذكار دروسها حتى تسقط في النهاية صريعة للنعاس وفي الصباح تبدأ دورة جديدة بذات الروتين الممل.. القاتل.



قصت عليه تفاصيل حياتها كما لم تخبر أحدًا من قبل، حكت عن أبيها وأمها الراحلين حتى عمها الحقير لم تنسه!..

شاركته كل لحظة فرح سبق وعاصرتها وكل حزن صاحبها، حتى قلقها كانت تبثه إياه، مع مرور الوقت نجحت في صنع عالمٍ خاص بهما، وحدها تقوده متخذة فيه دور الفاعل و لم تنتظر منه أي رد.. كأنها على يقين أنه لن يفعل!..

وعلى مايبدو زهدت الإنتظار فغابت قطرته تلك المرة عن موعدها المعتاد بثلاث أسابيع كاملة، ولم يكن يدري أنه سيفتقدها بل ويثيره القلق حيال تأخرها..

هل حدث مكروه!



تقلب في فراشه ينفخ أنفاسه في ضيق وسأم ليعتدل بعدها جالسا تاركاً لرأسه حرية الغوص بين كفيه يضغط براحتيه من كلا الجانبين عله يحجم ذلك الصداع الذي يفتك به دون هوادة.. ولم يجد غيرها، لفافته رفيقة أناملة التي تؤنس وحدته وتطرد وحشة أفكاره.. وصوت رجولي بحت يقتحم الصورة:

- كل تأخيرة وفيها خيره ماتقلقش.

طالعه بصمت لثوان، فـ سيد زميل زنزانة في منتصف الثلاثينيات حكم عليه بست سنوات حبس جراء واقعة حدثت أمام ورشته بعد ما تطاول أحدهم على بنت منطقته فهب فيه عرق النخوة ليدافع ويقتص للفتاة عقب ما

استنجدت به فنشب عراكٌ بين الطرفين وأسفر دون قصدٍ منه عن عاهة مستديمة لعديم الشرف فجاء الحكم العادل بالقصاص منه والحكم فيه..

سمع قصته عن لسانه، فمنذ أن دأب على تقديم كأس شاي له كل ليلة كان يجالسه ويثرثر معه لبعض الوقت بينما في المقابل كان يتخذ دور المستمع.. كأنما مدار حياته تعطل عن الدوران ولم يتبق له غير دور المشاهد لحياة الآخرين.

هرب من تربص نظراته رغم الظلام وهو ينفث دخانه في بطءٍ مدعي عدم الفهم:

- وأنا هقلق من إيه؟ مش فاهم!

اقترب وجلس على مقربة منه ودنا بعض الشيء محافظًا بذلك على سره:

- أقصد الجوابات اللي بتوصلك كل فترة وتأخرت المرة دي عن ميعادها.

وتابع سيد يستطرد سريعًا بنبرة جادة:

- متخافش سرك في بير.

عاد برأسه للخلف يحط بها فوق الجدار نافثًا دخانه تلك المرة بقوة أكبر وهو يطبق أجفانه دون جواب فأتاه سؤال لم يكن في انتظاره من ذلك الودود:

- دول أخواتك اللي بيكتبوا لك؟



وهو ليس متاح لعرض حكاياه الخاصة مع أيٍّ كان، أغضبه سؤاله لكنه حافظ على هدوئه لأنه فقط يدرك نية صاحبه، أجابه بهزة رأسٍ صامتة تعني: لا..

ليردف سيد بضحكة وغمزة المكتشف للأمور:

- يبقى الجماعة.

تغضنت ملامحه وناور تلك المرة بسؤال كان من لدنه:

- هتخرج الشهر الجاي، خلاص هانت.

استبشرت قسمات سيد بفرحة الإنتظار ولهفة اللقاء:



- مش مصدق أن هشوف الواد عمر وأشبع منه، سبته وعمره شهرين، دلوقت داخل المدرسة..

ثم ربت فوق ساقه مردفًا:

- عقبالك يا صاحبي.

لا ينكر أن عفوية الرجل وتبسيطه لكافة الأمور تجبره في كثير من الأحيان على كسر قوقعة الصمت والإنخراط معه بالحديث:

- لسه بدري يا سيد..

وسحب شهيقَ المتعب وهو يكمل بيأس بينما بصره يتبع الشبه نافذة الصغيرة القابعة على مقربة من السقف وبالكاد ينفذ منها شعاع القمر:



- والجاي شكله أتقل من اللي فات.

أخذ يواسيه متلحفًا بذريعة الصبر:

- ولا أتقل ولا حاجة كلها كام شهر وهيعدوا صدقني، كله بيعدي بس الصبر.

هز رأسه في صمت وشاح بها جانبًا ليجذب أنظاره من جديد وهو يقترب من وجهه يدمدم أمامه بهمس بالكاد وصله:

- في واحد اسمه فرج معاه محمول بيقلب به عيشه بين المساجين، لو بالك مشغول قوي تقدر تخطف لك دقيقتين، بعد المعلوم طبعاً.

ألقى بجملته الهامسة وعاد إلى فراشه، ليعيث بأفكاره الفوضى على طول الليل.. في اليوم التالي



أثناء فترة الغذاء كان ينزوي بالقرب من أحد المراحيض داخل دورة المياة وفوق أذنه يقبع هاتف محمول تعجب أنه يعمل حينما رآه، لكنه بالفعل يعمل والرنين المنبعث عبر أذنه خير دليل، لم يكن متأكدًا من صحة الأرقام التي قام بطلبها لكنه في النهاية لا يملك سوى الاعتماد على ذاكرته، انتهى الرنين أول مرة دون رد فأعاد الكرة سريعاً بيقين لم يعد يثق فيه من الأساس وحينما أوشك الاتصال الثاني على الانقطاع جاءته نبرتها التي لم تخطئها أذناه، بل كانت تصله بوضوح بالرغم من تهتك مايحمل بين راحته من جهاز:

- أنتو كويسين؟



همس بها بعد دقيقة صمت كادت أن تغلق فيها الخط، لكن نبرته كانت كافية لتيبس جسدها في وقفته وتتعثر أنفاسها:

"حسن؟!"

وهي لن تخطئ صوته لكن اللحظة تحتاج إلى يقين، ولم يكن ليتأخر، فالوقت ليس متاحًا له بتلك الرفاهية:

- أيوه حسن.. مردتيش عليّ أنتِ وسماح كويسين؟

ردت والدمع ينحر الأجفان مع رجفة تملكت من جميع الأطراف:



"بخير ماتقلقش، أنت عامل إيه؟ وبتكلمني منين وإزاي!!"

- كويس.. وبكلمك من السجن.

قالها بخفوت ليتابع بعد برهة بصوت أجش:

- قلقت وافتكرت حصل معاكم حاجة!

فهمت أنه يرمي إلى غياب خطابها، بل يعلنها صراحةً أنه افتقدها، ولم تطل عليه الإنتظار وهو تدمدم له بشيءٍ من يأس وكأنها كانت في انتظاره:

"مضغوطة في الكلية بسبب الامتحانات ومحبتش أكتب لك وأنا في حالتي دي"

- أيًا كانت حالتك اكتبي، ماتبطليش يا نسمة!



قالها بنبرة مخنوقة مزمجرة في شبه أمر، لتأتيه على الفور نبرتها المتهدجة بأسف:

"مش هتأخر عليك تاني"

واردفت سريعًا برجاء أقرب لتوسل:

"خليني أزورك؟"

- لأ!..

جاءت قاطعة، باتره لأي أمل، محملة بالخيبة..

فرك جبهته في توتر مقررًا انهاء تلك المهاتفة المرهقة:

- لازم أقفل دلوقت..

"حسن.."



عاجلته بنبرتها الملهوفة ليصمت إلا من حشرجة أنفاس لتعاوده الهمس بشوق لامس شغاف قلبه:

"أنا مستنياك.. لا الله إلا الله"

تعالت وتيرة أنفاسه للحظات همس بعدها بخفوت مقتضب:

- محمد رسول الله.

لم ينتظر وأغلق الهاتف على الفور زافرًا بقوةٍ محاولًا بذلك ضبط خلجاته المضطربة.

بينما هي كانت تجلس فوق فراشها وتضم بالهاتف لصدرها، تهطل دمعاتها بينما ثغرها يرتجف بابتسامة المشتاق، وهي بالفعل كانت



مشتاقة حد الظمأ، أعادها صوته لأسبوعها الأول برفقته، أول أيام زواجهما، ضحكته وكلماته الغزلية، رائحة جسده التي حفظتها كل خلية فيها وبالرغم من سنوات الفرآق إلا أنها بغمضة عين وتفتيش من قبل عقلها الباطن يمكنها استحضارها..

ظلت طيلة اليوم تتبسم في وجه كل من تراه حتى للأغراب رواد المتجر وصوته لايفارقها.. وفي النهاية: نامت ليلتها وفي قلبها عطب من عشق!

***

نسائم الخريف..

تشبه إلى حد كبير مشاعرنا المتقلبة!



داخل إحدى دور العرض السينمائية الكبيرة كان برفقة زوجته، دعاها لمشاهدة فيلم نزل حديثًا فقبلت دعوته على الفور، وهل يمكنها الرفض!

فبعد زواجٍ دام لعامين ويزيد ببضع شهور هدأت مشاعرها الجياشة لكنها لم تنقص أبدًا، وربما الأمر يعود لنضوج العمر فأصبح عشقها أكثر اتزانًا وتعقلًا عن ذي قبل، على عكس مشاعره الهادئة التي ظلت على عهدها منذ أن ربط بينهما رباط مقدس وحتى هذه اللحظة التي ترمي فيها برأسها فوق كتفه وتطوق ذراعه الأيسر بكلا ذراعيها مستمتعة بما ترى.. أبعد قليلًا منظاره ثلاثي الأبعاد وأخرج هاتفه ثم مال يسترق نظرة من زوجته فوجدها تصب جل تركيزها على

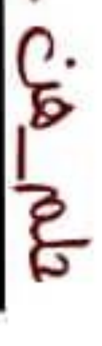


ماتشاهد فعاد لهاتفه ينقر فوق شاشته عدة نقرات، يبتسم في مكر وهو يراها على بعد عدة مقاعد منه تخرج هاتفها بدورها لتصعق وهي تبعد منظارها وتقرأ ما وردها من كلمات..

" دايمًا اللون البني يليق بيك"

دارت برأسها من فورها يمنةً ويسرة تبحث عنه لتقابلها عيناه المتربصة.. كان برفقة زوجته! إلى أي مدى سوف يصل بأفعاله؟

قطع تشوشها إعادته لمنظاره وهو يرجع برأسه للخلف ليتابع الشاشة العملاقة أمامه بعد ما نجح وباقتدار في إفساد متعتها..





وفي الحقيقة كان بدوره أبعد ما يكون عن الإستمتاع، لكن هل نفذ صبره؟.. لا لم ينفذ بعد، هو فقط يستهلكه ببطءٍ، فمنذ ذلك اللقاء العاصف داخل مكتبها والذي قام به في ذروة جنون حقيقي تملك منه آنذاك ولم يلق من ورائه صدى، قرر بعدها مجاراتها والتخفي خلف جدار العمل الذي يجمع بينهما متسلحًا بالوقت، فوحده كفيل بإذابة مابينهما من عوائق وإن كان يفقد السيطرة على بعض من أفعاله كدعوته لزوجته الليلة في هذا المكان لأنه فقط يعلم أنها من رواده الدائمين، ولعبت الصدفة دورها بكل براعةٍ إذ جدها أمامه دون سابق موعدٍ، ليفلت زمام النبضات من جديد رغمًا عن أنفه.

حينما انتهت الليلة وعاد بزوجته لفراشهما الدافئ كانت تضم نفسها لصدره وهي تهمس له في امتنان:

- ميرسي على الليلة الجميلة يانديم.

لثم جبينها في رقة فكان جوابًا كافيًا لتقبل وجنته بدورها هامسةً بتثاؤب:

- بون وي يا حبيبي.

خلدت للنوم وبقي مع حاله عالقًا بين أشباح عشقه اللامتاح وبين ما تقدمه له زوجته من دعم وعطاء، هو لا يكره عشقها بل على العكس بفضلها تكتمل الصورة المنقوصة، ولا ينكر أنه



يرتوي من حبها وعشقها اللامحدود لكن ماذا إن كان قلبه ليس ملك يمينه ليطوعه كيفما يريد!

وإن كان هل كان ليقدمه لها.. هي زوجته؟

تنهد وهو يخرج حاله قسرًا من تلك الحالة ليجد نفسه قد انخرط في الحساب الإلكتروني الخاص بالأخرى، معذبته..

حين وجدها في وضع الإتصال لم يستطع منع حاله من النقر فوق لوحته من جديد، يبعث برسالة أخرى وإن كانت لا تشبه الأولى

" تصبحي على خير"



ولم يكن لينتظر ردًا فهي ستقرأها كالعادة ولن يجد شيئًا في المقابل فقد قالتها له يومًا أن آخر حدودها العمل.. العمل وفقط.

ولم يكن يدري أنها في المقابل كانت تعض فوق شفتها السفلى في غيظٍ وحنقٍ بل تلعن نفسها يوم سلمت له قلبها، لكن هذا لم يعد مهمًا الآن فهو مقابل كل فعلٍ مخزٍ في نظرها كان يسقط حجراً من جدار عشقه القائم في حجرات قلبها والحق يقال فقد نجح في هدمه وبجدارة، والمتبقي ماهو غير شيء ضئيل من فتات ستتخلص منه حين تنهي مابينهما من عمل فور انتهاء مدة العقد المحددة والتي لم يتبق عليها



الكثير وحينها ستلفظه بعيدًا عن حياتها وليبقى هائمًا مع جنونه وحده.. فقط الصبر.

تحركت عن فراشها في تكاسل فهاهو ينجح في طرد نعاسها كما أفسد عليها وقتها منذ ساعات. أحضرت كوب حليب دافئ وفي طريق العودة وصلتها همهمات خفيضة آتية من خلف باب غرفة شقيقها، فالصغير قد شب عن طوق الطفولة وها قد أوشك على إنهاء مرحلة جديدة..

فتحت الباب دون سابق إنذار لتصدمها رؤيته متلحفًا بالشرشف الخفيف فوق الفراش في نصف جلوس وقد عبق الغرفة بالدخان، ما إن رآها حتى أنزل الهاتف العالق فوق أذنه منذ

ساعات وأسرع بإطفاء لفافته في المرمدة القريبة صائحًا في ارتباك:

- يابنتي مش تخبطي؟ افرض قالع!

في حدة وغضب كانت تهتف من بين ضروسها، فتلاعبه بالكلمات لن يجدي معها الآن:

- أنتَ بتهبب إيه؟

نفخ في سأم وقبل ما يتكلم كانت تستطرد بغضب أكبر:

- وبعدين مش اتفقنا مفيش زفت سجاير تاني ولا هو كان كلام عيال؟

ثم تخصرت بذراع وفردت الآخر في أمر لا يقبل جدال:



- هات.. ولا تحب تيجي ماما تتصرف؟

تأفف بصوت مسموع وهو يضع العلبة داخل راحتها مدمدمًا بحنق:

- عارف مش هخلص منك.

رفعت حاجبًا في سخرية وانتقلت من فورها لموضوع آخر:

- دلوقتِ ممكن أفهم بتعمل إيه في السرير؟

سخر بدوره:

- أكيد هنام، مش محتاجة ذكاء يعني.

- يابني أنت في ثانوية عامة. أحشر المعلومة العظيمة دي في دماغك أزاي؟ لا بجد إيه برود الأعصاب اللي أنت فيه ده؟



- يييي هو بالنهار ماما ودلوقت أنتِ.. ميسون يا حبيبتي أنا عارف بعمل إيه كويس، ممكن تهوينا بقى؟

- أنا مابهرجش يا أنس، السنة بتجري وأنت يا نايم يا مع صحابك الفاشلين.. وبعدين؟

- حاضر، أوعدك ياستي من بكره هذاكر.. حلو كده؟

حركت رأسها في عدم رضا وغادرته دون رد، لا فائدة ترجو منه وهي ليست في وضع يسمح بجدال.. ما إن أغلقت الباب من خلفها أخذ يبحث عن هاتفه المختبىء أسفل طيات الشرشف، وضعه فوق أذنه لتصلته في الحال



الضحكات الأنثوية. قطعها بعبث وهو يندس لداخل الفراش:

- ها يا مزة كنا بنقول إيه؟

لكن الضحكات لم تنقطع إذ وصلته نبرتها من بينهن قائلة بغنج مصطنع:

- نفختك.. يااااحرام.

رفع حاجبيه كأنما تراه مدافعاً:

- دي سوسو يابنتي يعني عادي، المهم مش هتجيبي نمرة صاحبتك بقى؟

- يااربي أنت مابتزهقش!

ولم تنتظر منه رد إذ قطعت في وجهه الخط لينظر بدوره للهاتف بين راحته في بلاهة ماطًا

شفتيه في سخط من فعلتها المخالفة لشريعة الذوق، ثم سريعاً كان يواسي حاله بكلمات توازت مع سحبه للشرشف فوق رأسه:

- مالهاش نصيب.. يلا في داهية.

***

أما عن سيد الفصول فهو يقتلع كل أخضر فيك كان أو يابس، يتركك مكشوفًا للعراء، تضربك عواصفه دون هوادةٍ، وكلما ظننت أنه مر ورحل يفاجئك بضربة جديدة..

وهو تلقى للتو ضربة جديدة..

خائنة..

وما أقواها من ضربة!



سعل بقوةٍ مرة وأخرى وكبح الثالثة بكفه بينما
عيناه تجري فوق السطور في عدم تصديقٍ..
وحين أدرك حقيقة ما يمسك بين أصابعه
تكورت قبضته تجعد خطابه الأخير، أو هكذا
ظن قبل ما تقع عيناه على ما يحوي سطور..

فما يحمله المظروف تلك المرة ليست كلماتها، بل
صك أمان كان قد تملكه بالخداع، حين زور
خطها ببضع كلمات أقل ما يقال عنها.. فاسقة!

لأجل أن يحمي حاله من الوقوع في الشرك،
ليدرك الآن أنه ساقطٌ فيه لا محالة..

خبط جبهته بقوة في الجدار والخيوط جميعها
تظهر تباعاً، ومن غيره يعرف بأمر تلك الشقة؟
بل من غيره يمكنه الوصول لمخبئه هناك وتأتيه



الجرأة ليستخرج مافيه ويزج به في يد امرأته بكل فسوقٍ، لتختم هي مشوار رسائلها وتبعث به إليه كخطابٍ أخيرٍ منها مع علامة استفهام كبيرة تحتل واجهة الظرف من الخارج..

كأنما تسأله دون حديث.. لماذا!

ومن غير أيوب يعري ستره و يطعن بغدر؟..

من غيره يفتح مقبرة الماضي ويبعثر مافيها حتى يرد له الصفعة وعلى الملأ؛ مستقبلًا بذلك عودته القريبة.. القريبة جداً!



(١٨)

مريرةٌ نكهة الخسارة..

خاصةً مع رجلٍ لم يعرف طريق الانهزام يومًا،

رجلٌ نصب نفسه فوق عرش الدنيا فكان يمد

يده ليقطف ما يحلو له دون رادعٍ، دون حسيبٍ

أو رقيبٍ لينل من الغنائم ما شاء وكيفما ابتغى

لكن..

في هاته اللحظة هو رجلٌ خاسرٌ، عليه الإعتراف

بذلك فلا سبيل للهروب من الحقيقة، والحقيقة

تقول أنه بات صفر اليدين، لا يملك غير جدران

باردة كقطبٍ متجمدٍ في هكذا طقس قارص

للغاية، جدارن باتت خالية الوفاض؛ فأيوب لم



يكتفِ بفضيحةٍ على العلن بل استحوذ على كل ما كان يخبأ من غنائم فلم يجد أثر لفلس واحد.. وليته اكتفى!

بل نهب كل ما يوجد بالشقة ذا نفعٍ وعائد مادي جيد.

أطلق هه ساخرة، مريرة وهو يتقلب فوق الفراش، ثلاث أيام مضت منذ أن غادر أرض السجن، ثلاث أيام وهو لا يفعل شيئًا غير النوم، يصحو يسد رمق جوعه بلقيمات معدودة ثم يعود يغرق من جديد في غيبوبة أخرى قد تطول أكثر عن سابقيها..

مال على جانبه وأخذ يفرق جفنيه ببطءٍ، ينظر إلى الفراغ في خواء، هو الخواء كل مايشعر به في



هاته اللحظة وكأن ذلك البراح كله لا يزيد إلا من خناقه، وللسخرية هو بالفعل يستشعر بروحه تبحث عن جدران الزنزانة الضيقة.. تحامل على جسده المثقل ونهض يسحب حاله قسرًا حتى وصل لدورة المياة، لم تفلح ضربات المياة الساخنة في فض حالة الوجوم التي تتلبسه، وحينما انتهى كان يقابل المرآة المستديرة يرفع نظراته المتجهمة يراقب قسماته على مهل، كل نظرة تحكى له وتؤكد أن السنوات مرت بالفعل وأن الكابوس حتمًا له توابع، سنوات تركت له أثرًا جيدًا لن ينقشع بأنفاس الحرية.. طأطأ برأسه للأسفل وكفاه يضغطان بقوةٍ فوق الحوض الرخامي بينما أنفاسه تتسارع بضراوة..



لم هي بالذات!

لم هي تعيث بتفكيره الفساد؟

هل يعترف لحاله بأنه يؤجل المواجهة عن عمد،

أم فقط يبقى متمسكًا بعجرفة كاذبة تخبره أنه

غير مهتم؟..

لكنه مهتم، بل يكاد يجن ليعلم لأي مدى تواصل

معها الملعون أيوب، لأي مدى كشف لها حقيقة

هويته!

أتراها تعلم بأمر خطفها؟

بم تفكر.. وكيف حالها!



رفع رأسه بغتةً يطالع عقدة حاجبيه بغضب ليدمدم في نفسه بسباب غير لائق.. ولم عساه يهتم!

اللعنة عليهم وليذهبوا جميعًا للجحيم..

ضرب بخطواته الأرض المصقلة حتى وصل الصوان، تناول أول ما طالته يداه.. وعليه أن يكون ممتنًا للنذل لتركه بعضًا من الملابس خاصته.. هين.. له يوم ولن يفلت بفعلته فلينتظر فقط حتى يحين دوره، انتهى من وعيده الحار على نوبة سعال جديدة جعلته يميل بجذعه للأمام معتمدًا على طاولة الزينة حتى هدأت.. لف شال صوفي حول عنقه وأحكم أزرار الجاكيت الثقيل ثم ألقى في جوفه بعض



الأقراص المهدأة للسعال الشديد الذي يرهقه منذ فترة ولم يكد يفارقه حتى يعود من جديد في صورة أكثر ضراوة.. حسنًا يكفي هربًا، فكثرة النوم لن تجدي في النهاية، عليه مواجهة الماضي حتى يتعايش مع الحاضر.

توقف عقب خطوتين أمام البناية يرفع رأسه للسماء الملبدة بقتامه في شرود لم يطل إذ قطعه الصوت المألوف.. مندهشًا:

- أستاذ حسن! كل دي غيبه يابيه ده آني قولت خلاص ماعدش هنشوفك تاني؟!

أنزل بصره لمستوى حارس العقار السمين لتفتر شفاهه عن بسمة باهتة وهو يسأله بود.. كأن ما غاب أيام وليست سنوات:

- عامل إيه يا أمين، وعيالك؟

ببشاشة كان يهتف أمين وهو يعدل من وضعه الجانبي حتى بات يقابله في وقفته:

- اهو ماشيه يا بيه، وحشتنا والله ووحشتنا أيامك.. إلا أنت أختفيت فجاة كده لا حس ولا خبر، خير كفى الله الشر!

تظاهر بالإستعجال في خطواته، لكن ماكاد يتجاوزه حتى هرع أمين من خلفه لاهثًا خلف عدة وريقات كما اعتاد معه:

- مش هتطلع بعربيتك يابيه؟ أنا كنت واخد بالي منها في غيابك.



تبسم لنوايا الرجل بسخريةٍ لآذعةٍ دونما استدارة، فذاك الزمن ولى يا أمين.. لوح له ومازال على وضعه مكتفيًا بإشارة من كفه عقبها رحيل.

***

هل جربتم من قبل أن تحيو في عبث!

كفاها يتحركان بآليةٍ داخل الطبق العميق يتقاتلان مع كتلة العجين اللينة فيما بينهما بينما الذهن شارد بعيدًا.. وربما هو ليس شرود بالمعنى المتعارف عليه، قد يكون غرق بين طيات الحياة العبثية.. حياة باتت لا تفهمها ولا تفقه كنهها وماعادت تبغي، هي فقط تتساءل..



لماذا؟

لماذا هي بالذات تحدث معها كل تلك الأمور!

ربما لأنها تمتلك من الحماقة مايكفي ويزيد..

نفضت رأسها بقوة ترفض صفعات الذات الغير رحيمة، لا هي ليست بمذنبة، بل الذنب وكل الذنب للمنافقين، المخادعين وذوي الألف وجه..

لكن متى كان منهم؟

استقامت تصلب ظهرها وأخذت تدور في المكان من حولها بتشتت وقد نسيت عما تبحث في خضم تناحر أفكارها، فقد غادر الجميع حتى السيدة_مارجريت_ لم تستطع السهر أكثر في هكذا طقس بارد للغاية تاركة المتجر في عهدتها،



لتقرر تجهيز بعض من المخبوزات الخاصة بطلبية الغد، فركت جبهتها في إعياء وهي تتذكر أنها كانت تبحث عن الصينية الخاصة بالفرن، جلبتها على عجل وبدأت في التقطيع والرص، كانت تعمل بسرعة عالية حتى انتهت في وقت قياسي وزجت بهم في الفرن، عادت للسطح الرخامي العريض تعتمد عليه بكفيها وهي تلهث بقوة بينما خضرة عينيها غامت بقتامة تغضن على أثرها قسمات وجهها..

غامت مع ذكرى خطاب وجدته ملقى أمام عتب بابها، لتقفز نبضة من الفؤاد متمنيًا فقط أن يكون قد رأف بحالها أخيرًا، بأصابع خرقاء كانت تفتحه وقلبها ينبض بعنف أكبر أسفل ضلوعها



مع بسمة حمقاء ترتسم فوق ثغرها، لتتضائل البسمة شيئًا فشيئًا حتى تلاشت، وارتجفت الأنامل مع جحوظ عينيها المندهش.. فهذا الذي تراه هو خطها!

لكن!

لكن تلك الكلمات..

شهقت بقوة وبصرها يلتهم كل سطر والذي يليه في سرعة البرق حتى انتهت وبقيت متصلبة دون حركة، فالخطاب يحمل تاريخ تلك الليلة، وهل لها أن تنساها؟

فمنذ ليلتها وحياتها انقلبت رأسًا على عقب..

خطاب تنص سطوره على كونها عاشقة هاربة



بملء إرادتها مع حبيبها بعد سيل من الإعترافات المبتذلة المكسوة برداء العشق وأنها وحدها مسئولة عما قد يحدث لها، لكن الصدمة ليست في هذا كله بل في اسم الحبيب الذي تخلت عن بيتها لأجله.. كان يحمل اسم "حسن"

زوجها الغائب قسرًا..

والعائد بعد عشرة أيام!

تركت أناملها الخطاب فسقط بهدوء وهي تماسكت حتى جلست فوق حافة الفراش، تتمسك بالحافة وطواحين تدور بها فما عادت تفهم أو تعي شيء، ما هذا الخبال الذي تحياه.. من خط هذا المكتوب؟! فهي لم تفقد قواها العقلية بعد، إذن هي لم تخط تلك السطور،



لكن الخط متطابق تمامًا مع خطها ولولا أنها على ثقة تامة بنفسها لكانت صدقت أن ذلك مكتوبها بالفعل ومن جراء يدها!

رنين الهاتف المتصاعد قطع أفكارها المتضاربة لتتطلع إلى الرقم المجهول بوعي مشوش قبل ما ترفعه لأذنها بنفس الضياع ولم تستفيق إلا حينما أتتها النبرة الثملة في خشونه.. تنير لها عتمة أفكارها بوضوح مؤلم:

- البأف اللي اتجوزتيه واللي مشرف في أبو زعبل دلوقتِ هو ذاته إللي خطفك من تلات سنين.. فاكره الليلة دي ولا نستيها يا حلوة؟

وصلتها ضحكة خشنة قبل ما يتابع بسخرية وقد أصابها شيء أقرب للوجوم:

- والدليل على كلامي كنتي بتقريه دلوقتِ.

معلش كان بيأمن نفسه ابن العبيطة أصله كان عامل فيها بورم.

تعالت قهقهة كريهة ذكرتها بماضي بعيد كانت قد دفنته في أقصى الذاكرة، ليهمس بعدها بنبرة تشبه الفحيح القاتم:

- ماتنسيش تبلغيه سلامي وتقولي له كفارة.

وغرق في نوبة ضحك هستيرية داخل أذنها جعلتها تلقي بالهاتف بعيدًا عنها، لا تدري كم حبست أنفاسها، كل ما تتذكره أنها كانت تهذي برفضٍ قاطعٍ ورأسها يتحرك يمنةً ويسرةً يشاركها الرفض.. أمسكت برأسها بين كفيها تهدأ من ذلك

الصخب القائم وذكرى الليلة المشؤومة تطرق أبواب الذاكرة دون رحمة.. كيف لها أن تنسى!

أرغمت حالها على التناسي نعم لكنها لم تنسَ، فما زالت تستشعر ذراعيه القويتين وهي تطبق فوق جسدها تعدمها الحركة، مازالت ترى وجهه الملثم وبريق الظفر في عينيه قبل ما يكتم أنفاسها ويسحبها لظلمته قسرًا.. نهضت تدور من حولها وكأن قدميها تحولا لهلام فماعادت تشعر بهم وتحول رفضها لنحيب متقطع متحشرج.. بم ينطق ذلك اللعين.. ومن يكون؟ هل يمكن أن يكون ذاك العجوز صاحب اليد الخشنة والذراع المعطل، ذو الأنفاس العفنة!

معقول؟



ربما.. فتلك النبرة كأنما مألوفة لمسامعها..

لكن من أين يعرف زوجها كي يلصق به تلك التهم الشنيعة؟

لا هو لايعرفه..

هي وحدها من تعرفه، كيف لنبيل مثله وقف بجانبها في أشد لحظات أوقاتها قتامة أن يكون...!

أخرست عقلها وألجمته فهي لن تقبل بمثل تلك المهاترات، لن ترضى له بذلك.. جلست أرضًا تمد كفها ببطءٍ تسحب الخطاب الساكن بهدوءٍ كأنما لم يندلع في جوفها حريق بسببه للتو.. طالعته من جديد بأصابع مرتعشة وفي داخلها صميم لتفهم القصة منه.. مؤكد لن يتركها تعاني من



ذلك الجنون وحدها، هي على يقين أنه بقادر على حل تلك المعضلة حين يقص عليها الحقيقة كاملة، نعم هناك حلقات مفقودة وهي لن ترضى بغير الحقيقة.. ودون تفكيرٍ أكثر كانت تعود بالخطاب داخل ظرف آخر زينته بعلامة استفهام كبيرة وبعثت به إليه، تريد تفسيرًا لما يحدث في أقرب وقت، منحته الوقت اللآزم لأنه حينما يعود لن تصبر.. هي بفضله زهدت دروب الصابرين.

عادت لحاضرها على جرس الفرن الذي قصف مسامعها ليقطع عنها شرودها الذي طال كعادتها مؤخرًا.. تحركت تستخرج ما بداخل



الفرن وسؤال واحد يعصف بعقلها حتى كاد أن يطيح به..

أين هو؟

تعلم أن عقوبته انتهت والمفترض أنه خارج الحبس منذ ثلاثة أيام، إذن أين هو، لِمَ لَمْ يظهر بعد..

وما بالها هكذا تبدو كمن وقف فوق قارعة الطريق دون حراك، لما لا تتحرك وتأتي بأي فعل.. لم لا تبحث عنه!

غيابه الغير مفسر يلقي بسهام الشك في داخلها وهي لن تقاوم كثيرًا.. لكن لم ذلك الخوف و الجبن الساكن بين الضلوع ويرهب لقياه؟..



أليس هذا من كنت تتلهفين لعودته! أليس هو ذاته من تخيلت شكل لقاءه حد المجون؟

حكت جبهتها في تفكير وفي قرارة نفسها لن ترتكن لجدار الصمت بعد الآن، عليها فعل شيء، لا تعلم ماهية الشيء لكن عليها الإتيان به فذلك الصراع يقتات على ماتبقى من عقلها.. تنهدت بأنفاس مثقلة مقررة بها المغادرة، يكفيها تعب اليوم..

وفي حركة خاطفة.. رأته!

كان هناك أمام واجهة المتجر يقف ويميل بجسده على عامود الإنارة..

كأنه يراقبها!



اختض جسدها بفزعٍ حد كفها الذي ضرب كوب زجاجي فسقط من فوره مصدرًا بتهشمه ضجيج مزعج سرعان ما انتهى وهي على حالتها، رمشت عدة مرات بأهدابها وهي تنحني بذهن مشوش تلملم شظايا الكوب المهشم ببطءٍ وأنفاس متحشرجة حتى نهضت بتروٍ، حين استقامت كان بصرها يرتفع على مهل لينتهي عند نفس النقطة القابع بها فصدمها الفراغ، لا أحد هناك.. أقرت بها لنفسها وهي تتطرد زفير طويل قبل ما تتحرك بساقين متخبطين تتناول معطفها وتحكم إغلاقه فعلى ما يبدو أنها تحتاج للراحة فقد تأزم الوضع حد بلوغها للتهيئات. أطفأت الأضواء وتأكدت من مصدر الغاز، بحركة أصابع خرقاء كانت تحكم



قفل الباب الخارجي ثم استدارت تلتهم الطرقات في خطواتٍ متتاليةٍ، الساعة بالكاد تخطت التاسعة مساءً لكن بفعل الأجواء الهادئة و رذاذ المطر الخفيف كانت الطرقات أقرب للخالية..

فجأة تناهى لمسامعها وقع أقدام كأنما تلاحقها!..

شدت من عزم خطواتها حتى باتت أقرب للركض، كتم لهاث أنفاسها المتعالي بصخب يوازي خفقات نابضها أي صوت آخر فلم تعِ إن كان بالفعل أحدهم يلاحقها أم تلك كلها هواجس صورها عقلها المرهق فحسب، تنفست الصعداء حين وصلت لمدخل البناية ولم تملك حتى اللحظة الجرأة للالتفات إلى الوراء لمرة واحدة، فقط تابعت صعود الدرج بنفس السرعة دون



محاولة لالتقاط أنفاسها، رفعت رأسها للسماء التي أخذت تقرقع منذرة بسيول قريبة ويدها تسمح ما علق فوق جبهتها من رذاذ خفيف ثم أدارت المفتاح داخل المزلاج وخطت للداخل وما كادت تغلق بابها من خلفها حتى منعتها ذراع صلبة، استدارت شاهقة.. فكان لها بالمرصاد!

اختلط لهاثها بلهاثه ونظرتها المذعورة تحاكي قتامة نظراته لدقائق لم يعِها كلاهما، فالكلمة العليا كانت للصمت والأنفاس المتبادلة بحرارة وحشرجة، وحينما رمشت بأهدابها لمع عقيقه الأسود بالنصر ليهمس في تمهلٍ بنبرةٍ هادئة أقرب للسخرية:

- مفيش كفاره لجوزك حبيبك ولا إيه؟



***

- أنت متأكد من كلامك ده يا أستاذ رفيق؟

كان وقع الخبر عليها أكثر من صادم، أومأ لها الرجل الأشيب برأسه في صمتٍ متأسفٍ لما وصل له الحال، بينما عادت نبرتها تهتف في استنكار:

- إزاي مراد يتصرف كده.. ومن غير ما يرجع لي!

غمغم في هدوء مقرًا بالحقيقة:

- التوكيل اللي معاه يسمح له بحرية التصرف في كافة شيء كان.. صدقيني يا مدام يسرا الموضوع تم في سرية تامة ومراد بيه إستعان بمحامي تاني وده دليل تاني يأكد أن من رابع المستحيل كنت أوافق على حاجة زي دي.



حركت يسرا رأسها في عدم تصديق لما يحدث وهي تهمس بنبرة إعتذار:

- أنا آسفه ماقصدتش خالص اللي وصلك يا أستاذ رفيق، حضرتك محامي العيلة من زمان وشهاب الله يرحمه كان يعتبرك فرد منها.. أنا بس مصدومة في مراد!.. هي دي الأمانة اللى من المفروض أنه محافظ عليها؟

- أنا آسف في إللي هقوله ده يا مدام، بس المال السايب يعلم السرقة زي مابيقولوا.. ولان مافيش حسيب ولا رقيب طبيعي يتصرف كصاحب ملك.

غمغمت بمرارة:



- عندك حق.

تابع الرجل الوقور أسفًا على الصديق الراحل:

- الله يرحمك يا شهاب، الشركة دي بمجهوده بقت من أفضل شركات السياحية على مستوى الجمهورية كله، من بعد وفاته وهي مطمع لرجال الأعمال وأبو مين اللي عايز يحط رجله فيها، وبكل أسف مراد بيه فتح لهم السكة خلاص.

ابتلعت يسرا غصتها، فذلك الذي يتسربل من بين يديها هو مال ولديها، منذ وفاة شهاب ومراد_ ابن أخيه للراحل_هو من تولى مقاليد الأمور بتوكيل منها،كان يبلغها بكافة الأمور والمستجدات فرأت فيه الشاب الأمين المحافظ على مال أبناء عمه الأيتام، كان كل شيء يسير على مايرام ماذا

حدث ليأتي بفعلته تلك.. كيف يتجرأ على بيع ٢٥% من أسهم الشركة دون الرجوع لها؟ أين المال ومتى كان ينوي إبلاغها!

بل كيف يفعل ذلك من الأساس، ألا يعلم بمكانة ذلك البنيان لدى الراحل وكيف تعب لأجله حتى يكون بذلك الصرح العظيم ليأتي هو وبكل بساطة ويمنحه لآخرين!

زفرت في قلة حيلة وهي تتشارك أفكارها بصوت مسموع مع الجالس قبالتها ويعلو ملامحه الضيق:

- أنا مش بفهم في البيزنس وللأسف مش عارفة أوصل لأي سبب يبرر تصرف مراد.



ظهر توتر ملامح رفيق فحثته بنظرة على الحديث وبدوره لم يجد غير توضيح كافة الخيوط، فمكانة صديقة الراحل تستوجب ذلك:

- أنا عملت إتصالاتي بعد ما سمعت الخبر وعرفت أن مراد إشترى أرض جديدة، ودي المتر بتاعها بالشيء الفلاني.. عامة أنا مش متأكد لسه بس مش شايف لها تفسير تاني لحد دلوقت.

أغمضت عينيها في غضب وهي تقبض على كفيها بقوة وبالكاد خرجت همستها:

- يعني مصالح شخصية، مصالح شخصية بمال ولادي!



- أفضل أنك تتكلمي مع مراد وتفهمي منه.

شردت لدقائق تفكر ثم همست من جديد تسأله المشوره في قلة حيلة:

- بعد عملته دي أنا مش هقدر أأتمنه تاني، وبفكر طالما الحال وصل لكده نشوف إحنا مشتري مناسب لباقي أسهم الشركة، على الأقل مش..

- لأ.

على إثر صرخة إبنتها المعترضة قطعت حديثها لترمقها بتعجب وتنهرها بلطف:

- غنى.. صوتك!



فكت غنى عقدة ساعديها وهي تتقدم تدب الأرض بأقدامها لداخل غرفة المكتب الخاصة بأبيها الراحل، تطلعت إلى أمها الجالسة خلف المكتب وهي تهتف بإصرار:

- لأ يا ماما مش هسمح أن اسم شهاب كارم يتشال ويتحط مكانه إسم حد تاني، الشركة دي بابا الله يرحمه تعب عشان يعملها، نيجي إحنا بعد ده كله نضحي بيها.. بالسهولة دي؟!

لم تر إبتسامة رفيق الرزينة التي زينت ثغره وهي تنظر ناحية والدتها التي تلبستها الحيرة وأطبق على صدرها الهم:

- أيوة يا غنى أنتِ مش فاهمة..



- مراد باع أسهم الشركة، أنا ماقصدتش أسمع بس صوتكم كان عالي وماقدرتش أسكت.

أخفضت كلتاهما وجهها للأسفل في صمت لتعاود غنى الهتاف من جديد بعد حين في رجاء خالص:

- ماما إلغي التوكيل من فضلك، أنا هنزل الشركة.. أنا أقدر أحافظ على اسم بابا وعلى فلوسنا.

رمقتها يسرا بإندهاش:

- أنتِ يا غنى!

بينما هتاف رفيق كان يفيض بالحماس والفخر:

- ينصر دينك يا غنى، هو ده الكلام يابنتي.



تبسمت له غنى وهي تقترب بوقفتها من جلسته، تهتف له بصوت خفيض في رجاء متوسل:

- إقنع ماما بقى يا أنكل.

عارضت يسرا قبل ما يتحدث:

- الفكرة مش في إقتناعي من عدمه، دي مسؤولية كبيرة يا غنى، إحنا مش في حقل تجارب ده بيزنس..

بتحدي كانت تجابه:

- وأنا قدها، أوعدك هكون قدها.. وبعدين في أسوء الأحوال أكيد مش هوصل لمرحلة تصرف مراد.



قالت جملتها الأخيرة بحنق كبير، وهي بالفعل كانت تلك نيتها من الأساس، فقط كانت تنتظر ظهور نتيجتها الدراسية لعامها الأخير ثم تطالب بذات الأمر لكن جريمة مراد كانت القشة الأخيرة لمركب الإنتظار.

- طيب على الأقل نتفاهم مع مراد ونعرف عمل كده ليه جايز..

قاطعتها بحدة وهي تضع كفيها فوق سطح المكتب وقد لمعت عيناها ببريق التحدي:

- مراد مالوش مكان فيها بعد عملته دي، واسم بابا أنا أولى بيه.

تحدث رفيق أخيراً وهو يطالع يسرا:



- أنا متفهم حيرتك بس غنى عندها حق، واللي فرط أول يفرط تاني، في النهاية هو ماتعبش في حاجة.. أنا مع غنى جداً وأتمنى أنتِ كمان تديها الفرصة جايز تثبت كفاءة وتبهرنا.. ولو حصل العكس في جميع الأحوال مش هنخسر أكتر من اللي تم خسارته بالفعل.

صمت لبرهة عاد بعدها يستطرد بإقناع أكبر:

- مش هتكون لوحدها، أكيد هيكون موجود إللى يوجهها ويعرفها أساسيات الشغل وتفاصيله.. وبعدين الحماس اللي أنا شايفه في عينيها ده قادر يصنع معجزات.

دار برأسه ناحية غنى يهديها بسمة حانية ومشجعة فبادلته بأخرى أكثر حماس بينما نقلت



يسرا بصرها فيما بينهم لتقول في النهاية بفتور وتسليم:

- إبدأ في الإجراءات اللآزمة يا أستاذ رفيق.. وربنا يستر.

ارتجفت شفتيها ببسمة قلقه مع نهاية جملتها، لتعاجلها غنى بدوران سريع أعقبه عناق قوي وهي تمطرها بعبارات الشكروالإمتنان بينما نهض رفيق ينوي رحيل وهو يمتثل لمطلبها بسعادة لونت نبرته:

- ساعات وكل حاجة هتكون تمام.

شكرتاه وقبل ما يبتعد بخطواته كانت تستقيم غنى لتهتف بإسمه سريعا:



- أنكل رفيق..

- أيوة يا غنى.

استدار متبسمًا بود، فضاقت عيناها ببريق غامض وهي تعقد ساعديها فوق صدرها و تسأل ببطء:

- اسمه إيه؟

صمت رفيق لثوان وصله فيها مقصدها المبهم عن شريكها القسري في إرث أبيها وحين استنار الاسم بذاكرته العتيقة هتف به على الفور:

- مهند البغدادي.

***



اختلط لهاثها بلهاثه ونظرتها المذعورة تحاكي قتامة نظراته لدقائق لم يعها كلاهما. فالكلمة العليا كانت للصمت والأنفاس المتبادلة بحرارة وحشرجة، وحينما رمشت بأهدابها لمع عقيقه الأسود بالنصر، ليهمس في تمهلٍ بنبرة هادئة أقرب للسخرية:

- مفيش كفاره لجوزك حبيبك ولا أيه؟

أخرجتها نبرته من حالة الجمود التي تلبستها لتتقهقر خطوة للخلف وهي تشمله بنظرة.. للوهلة الأولى لم تتعرف عليه، فذلك النحول الذي اقتات على وجهه وجسده حوله لآخر لا تعرفه، بدت ملامحه أكثر قسوةً وبأسًا، وعيناه.. مخيفة!



ضمت قبضتيها فوق صدرها تهدأ انتفاضة جسدها وأخذت تبتعد بخطواتها أكثر إلا أن تقدم خطواته بنظراته القاتمة جمد حركتها، كان يقترب بتأني كحيوانٍ مفترسٍ على وشك القبض على طريدته فلم يعد يفصل بينهم سوى شعيرات قليلة، حينما أوشك على الالتصاق بها كان كفاها يتحرران من عقدتهما ليدفعان صدره وهي تصرخ فيه آمرةً بنفورٍ وأكثر قوةً بعدما استحوذت عليها كل الظنون:

- ما تلمسنيش!

وازن حاله سريعًا بينما توحشت نظراته وهو يرى النفور يرتسم فوق قسماتها، اندفع ناحيتها بإصرار لا يقبل الجدل يقبض فوق ذراعها بقوة

آلمتها وقبل ما ينطق عادت ترمقه بقوة وتخترق عيناه مرورًا بروحه.. تتلفظ بالكلمات في تعثر ودون وعي حقيقي وقد بح صوتها دون جهد، كانت كمن تلبستها أخرى لا تعرفها لكنها حتمًا تتحدث عما يطعن بروحها:

- خطف.. أنت.. أنت خطفتي.. والرسالة..

كانت تشهق دون بكاءٍ بين كلمةٍ وأخرى، حد أنها كادت تختنق في لحظتها بينما جسدها يرتعد أسفل كفه في محاولة تخليص حالها من قبضته فكان محض عبث، وإن ظنت أنها تقف على حافة الجنون فهو عقب مقابلته مع _حلمي الجمال_ تلبسه الجنون ذاته، تحررت نبرته ولم تكن أقل صخبًا، يقبض بكفه الحر فوق فكها

ويخترق عينيها بنظرات دبت الرعب في أوصالها مع تقافز كلماته المدوية بشرر متطاير هادمًا بحروفه آخر حجر كانت تتشبث فيه:

- إيه رأيك بقى! ولا كان باين عليّ صح..

طب مش بذمتك أنفع في التمثيل؟

ضحك بجنونٍ وهو يهزها بعنفٍ وكفه يضغط أكثر فوق فكها قبل ما يستطرد من جديد:

- أيه ساكتة ليه؟ ولا مصدومة!.. طيب ذنبي أيه أنك غبية أكتر من اللآزم!

كانت تلك لطمة أخرى نالتها في نفس الدقيقة، حدقتاها الجاحظتان بألم مصوبتان عليه وتهتزان بضياعٍ..



من يكون ذلك الشيطان الذي ينفث بسعيره في قلبها؟!

لم يرحمها من دوي حشرجة أنفاسه وسخونتها فوق وجهها وهو يحكم من قبضته، بعد حين كانت ترتخي أصابعه ببطءٍ لتندلع منها حمم الكلمات في صراخ قوي رج الجدران من حولهما ولا تدري كيف لكنها كانت تنتظر لحظة فك اللجام، قد يكون ذلك ما يسمونه بحلاوة الروح وهي في هاته اللحظة كانت تحتضر بالفعل:

- يا حقيررر.. يا مجرم.. إبعد عني يا خاااين.

كان يشاركها الصراخ جميع أطرافها وهي تركل بكل ما أوتيت من قوة وفي المقابل كان يحكم من قبضته أكثر إلا أنها ارتجفت حين نفضها بعيدًا



بغتةً حتى كادت أن تسقط، بينما هو راح ينكفئ على حاله في نوبة سعالٍ شديدةٍ، أحد كفيه يتشبث بالجدار حتى كادت أظافره تقتلع الدهان والآخر قابع فوق فمه في محاولة للكبح إلا أنه لم ينجح لتتسع عيناه ذهولًا وهو يرى بعض الدماء سكنت كفه!

ما إن تركها حتى هرعت تركض للخارج إلا أنه لم يمنحها الفرصة الكاملة لتبتعد، قفز يتبعها و ذراعه يعيدها إليه من جديد حتى ارتطمت في صدره بقوة، عاد يخترقها بنظراته المشتعلة ولم تنجح قرقعة السماء برعدها وبرقها وسيول أمطارها التي أغرقتهما سويًا في إخماد حريقه المنضرم..



رفع ساعده يمسح بقسوةٍ عن فمه يزيل بقايا دماء مازال يستشعر مذاقها الصدأ فوق لسانه قبل ما يصرخ فيها بنبرة شرسة غلبت صوت المطر:

- أنتِ بسبب المجرم عايشة لحد دلوقت، المجرم ده هو اللي حماكي من الموت..

هزها بعنف وهو يستطرد بملامح تزداد قتامةً وشفاه تنفر بالمياه فوق وجهها كنفور كلماته:

- المجرم اللي خدك بيته و خلاكي في حضن أمه عشان يحميكي.



وإن كان سائر جسدها ينتفض بفعل المطرالغزير والصقيع المدمر للأطراف إلا أن وقع كلماته كانت أكثر قسوةً على روحها..

صمت للحظة التقط فيها شهيقًا تبعه بزفيرٍ سريعٍ ليتابع بتغضن أكبر ونبرة أهدأ وهو يقرأ الألم البادي بوضوح في عينيها التي غاب لونهما الحقيقي وسط هذه العاصفة:

- قدرك رماكي في سكتي، لو كنت حقير زي مابتقولي كنت دست عليكِ وكملت..

لا تدري من أين جاءتها تلك الضحكة الميتة، وهي تهز برأسها وقد اختلطت دمعاتها بالمطروبح صوتها أكثر:

- ما أنت دست فعلًا..

تماسكت لتتابع ساخرةً فقد اتضحت الصورة بظهور القطع المنقوصة أخيرًا ولا يصح ارتداء ثوب الضعف في هاته اللحظة:

- وفي النهاية موتي مالوش مصلحة معاك.

حرك كتفيه كمن يتبادل مع أحدهم جلسة سمر ليدمدم بهدوءٍ منافٍ لثورته السابقة ومازال على وضعه يقيد حركتها بقبضتيه ويضيق بعينيه قائلًا ببساطة ساخرة:

- ده أنا في خيالك شيطان بقى!

حلَّ صمتٌ بغيضٌ وكل منها يلتهم الآخر بنظراته، زخات المطر تطرق رؤوسهم دون رحمة، من أين



له بكل تلك القسوة؟ كيف له أن يكون بذلك الفجور حد أنه يتكلم عن فسقه بتلك البساطة، كأن ما يقربه ماهو إلا تحصيل حاصل..

ألهذه الدرجة كانت معمية البصر والبصيرة!

ابتلعت غصة مسننة وهي تتحداه بنظرةٍ باردةٍ لا حياة فيها.. كيف لها أن تفوت تلك السقطة، فالخاطف سارق، والسارق يمكنه فعل أي شيءٍ دون رادعٍ:

- سجنك مكانش ظلم مش كده..

وكان إقرارًا أكثر منه سؤالًا، أطلقت ضحكة مخبولة بترتها لتسأله ببغض وكره:

- كام مرة عملتها؟



جاء دوره ليقهقه دون ابتسامة حقيقية وأصابعه تتركها ليبتعد للخلف عدة خطوات، فاتحًا ذراعيه على مصراعيهما ويصرخ كالشيء المفروغ منه:

- وأيه المشكلة؟ ما البلد كلها بتسرق بعضها، الصغير يسرق الكبير والكبير يسرق الأكبر منه.. ساقية والكل بيلف جواها.

- دي دنيا المجرمين اللي زيك.

- والمثاليين إللى زيك مالهمش أي لازمة.

- كفاية أنهم عايشين بكرامة وشرف.

- الكرامة والشرف شعارات خايبة.. مابتأكلش عيش.



- والحرام مابيأكلش غير حرام.

- الحرام أنك تعيشي محرومة وغيرك يلعب بالفلوس.

- دي أرزاق ربنا، مقسمها بعدله وحكمته، حاجة مالناش حق ولا يد فيها.

- العدل أن اللي مش معاه يأخد من اللي معاه وبزيادة.

- بالغصب.. بالسرقة!!

- وهو العدل أننا نموت بالحيا!

رفعت كفيها تصم أذنها عن مجون كلماته:

- اسكت.. اخرس خالص.. أنت هتكفر عشان الفلوس!

وهرولت بخطواتها حتى قابلته عن قرب، ترفع سبابتها في وجهه وتتحداه دون خوف:

- أنت حلال فيك القصاص، الحبس مش كفاية.. سامعني مش كفاااية.

هي لا تخمد من نيرانه، بل تساعد وبشدة على تراقص شياطينه، ما إن انتهت من نفث حروفها حتى كان يدفع بها فارتطم جسدها بالجدار من الخلف وزاد من خناقها بوضع ساعده فوق رقبتها، يضغط بقوة وينطق بجنون وحمرة عينيه تحكي..

في تلك اللحظة سقطت كل أقنعته فباتت تراه كما المرآة:



- أنا ماحدش له يحاسبني، أنتِ فاهمة؟

ضاقت أنفاسها مع قوة ضغطه فما كان منها غير أن تسبل جفنيها ليتحرر من خلفهما دمعتين خائنتين، تستسلم للضعف الذي خدر جسدها كله وبالرغم من توقف المطر منذ دقائق الإ أن صقيع روحها لم يخفت بعد..

غلبها الهوان و نبرتها من بين شفاهها المرتجفة كانت خير دليل:

- عمري ما هسامحك.

لِمَ لا تصمت؟

بحق الله لِمَ لا تخرس وترحم حالها!

هي تريد أن ترى أسوأ مافيه؟ إذن لها ما أرادت..



زمجر بشراسة بالقرب من أذنها:

- ومين قال إني مستنيه منك؟ بلاش تدي نفسك قيمة أكبر منها.

ختم كلماته بضغطة أخيرة ابتعد بعدها وهو يرميها بشذر النظرات ليستدير عنها ينوي رحيلًا.. هو بحاجة لأن يبقى وحيدًا حتى يلملم شتات نفسه ويشد من عوده الذي نخرته سنوات الحبس، فتلك الضربات التي يتلقاها واحدة تلو الأخرى تعيث في كيانه الخلل، دار برأسه للخلف يرميها بنظرة أخيرة فوجدها مطأطأة الرأس بملامح شاحبة كمن غابت عنها الحياة، تبسم في سخرية مع حاله وشاح ببصره بعيدًا عن هيئتها المزرية والمثيرة للشفقة..

ما ذنبه إن كانت تختار الجانب الخاطىء من الحياة لترتكن إليه؟

تنتظر من رجل فاقد للحياة أن يهبها الحياة!

أي سذاجة تلك..

توقفت خطواته فجأة حين شعر بدوران الأرض من حوله ولم يفلح تشبثه بالفراغ بل زاد من ترنح حركته وفقط ثوان معدودة وكان جسده يسقط مرتطمًا بقوة فوق الأرض المعبئة بمياه المطر الذي لا يتذكر متى بدأ ومتى انتهى، كان وعيه يتلاشى ببطءٍ بينما أطرافه ترتعد بألم أخذ ينغز في عظام جسده كله. أما السعال تلك المرة كان بمثابة طعنات متتالية تنخر في صدره وهو عاجز عن كبحها. السائل الصدأ يملأ فمه من

جديد ويفيض من جانبه، آخر صورة التقطتها عيناه كانت صورة خطواتها المشوشة وهي تقترب ببطءٍ وتميل إليه بعيون كستها الشفقة.



(١٩)

وقتما لا يناسبك ثوب الهوى تخلعه بخاطرك

لكن حينما يطوقك ثوب المسئولية تتلبسه رغماً عنك!

حتى وإن مرت سنوات ستظل رهينة رابطة دم مع من ضل، تاه وانحرف عن طريق الصواب هائمًا على وجهه في صحراء الغي والضياع..

رابطة لا تملك عنها انفصام.

تتلبسها حالة من التوتر والقلق منذ أيام، تحديدًا منذ أن اقترب موعد عودته، من وقتها وهي على اتصال مستمر مع زوجته تستجدي الأخبار..



لكن الغريب أنه عاد ولم يعد!

آخر مكالمة كانت منذ ثلاثة أيام، اطمأنت عليها وحين تطرقت لسيرته أخبرتها أنه لا جديد فلم يظهر ولم يصلها أي خبر بعد.

ترى أين ذهب؟

ولِمَ تغلق نسمة هاتفها منذ الأمس؟ فهي على محاولات مستمرة والنهاية واحدة.. هل عاد!

مطت شفتيها في تفكير بينما انعقد حاجبيها في ضيق، هي لا تجد غير ذلك جواب منطقي يطوف في ذهنها، فعلى ما يبدو أن شقيقها قد أنسته سنوات الحبس وجودها فلم يكلف خاطره حتى يسأل عنها من باب الواجب، وها هو ما إن وصل



عند زوجته حتى انقطعت أخبارها هي الأخرى ولابد أنه الآن يعوض جفاف أيامه ويتناسى بها مرارة ما ذاق.

أغمضت عينيها بقوة والفؤاد يعاتبها..

وماذا فعلت أنتِ!

تلقين عليه باللوم بينما أول من ولى الدبر أنتِ، أسقطته من كل حساباتك بعد ما ألبسته كل ذنوب الأرض، يحزنك عدم سؤاله؟ يوجعك تفريطه وأنتِ أول من فرط!.. تجاهلت توسل أمك الغير منطوق وصميت أذنيك عن رجاء أبيك، اتخذت من ضلاله حجة جيدة تقوي بها جفاك..



ما ذنب ياقوت بهكذا ذرية؟!

ذريةٌ منفرط عقدها منذ البداية، ذرية لا تليق بمن عانت وتكبدت كل ذلك الشقاء على مدار حياتها فقط لأجلهم..

زفرت في سأم وجفناها يفترقان، تمد كفها كي تزيح الستائر القصيرة عن النافذة فالبرغم من برودة الطقس القاتلة إلا أنها تحتاج لجرعة هواء مكثفة علها تهدأ من صخب دماغها القائم..
سحبت شهيقًا طويلًا تملأ به كلا من رئتيها إلا أنها توقفت فجاة وقد ضاقت عيناها في تركيز وهي تلتقط نفس الصورة مرة أخرى، فهناك على بعد أمتار منها ومقربة من مياه البحر يقبع رجل يوليها ظهره، على تلك الجلسة المتصلبة منذ ما يقارب

الثمان ساعات وقد اقترب قرص الشمس من المغيب!

فاليوم عطلتها الأسبوعية ولأنه يضيق صدرها لأجل أخيها الغائب رفضت مشاركة اليوم مع زميلاتها من العاملات كعادتها معهن منذ جاءت، مقررة بذلك الراحة والتفرغ لمعاودة الاتصال كل حين عل يصلها أي رد.. دقائق مرت لتتراجع بالخطى بعدها حتى جلست فوق الفراش عائده لتفكيرها القديم إلا أنه لم يكد يمر عشرون دقيقة وكانت تقفز من جديد، تطل على ذاك الجالس وترى إن كان قد رحل لكن حين صدمتها رؤيته مرة أخرى تجعد حاجباها وهي توليه جل تركيزها تلك المرة.. كيف يجلس ذلك الأحمق كل



هذا في مثل هذا التوقيت مستقبلًا صفعات البحر القاسية بهكذا طقس!

آلا يفكر في صحته على الأقل؟

لكن ربما هو يعاني ممّ هو أكثر فبات أي وجع هين مقابل تلك الصفعات!

نعم الحياة باتت مثقلة بالهموم وقد تكون أهلكته المسؤولية تجاه خمسة أولاد وأمهم فلاذ إلى ركن بعيد يقتل روحه بسكين من جليد.

كان ذلك جواب عقلها الذي جعلها تطوقه بنظرة شفقة، ومن مثلها ذاق طعم الشقاء حتى صارت تبغضه للغرباء، دون تفكير أكثر كانت تندفع ناحية ثلاجتها الصغيرة تستخرج منها بعض الجبن



وعلى عجل قامت بحشو عدد جيد من الشطائر مع علبة عصير وحيدة ليست خسارة في إطعام مسكين جائع تكالبت عليه هموم الدنيا فترك كل شيء وألقى بحاله أمام مياة البحر تنحره ببرودتها طيلة ساعات دون حراك منه أو شعور.

شدت على الوشاح الصغير من خلف رأسها ثم عدلت من وضع شالها العريض حول كتفيها، تغلق باب الغرفة بإحكام وبين أصابعها تعلق ما أعدت من طعام، كلما إقتربت خطواتها كلما غرست قدميها أكثر في الرمال الناعمة وزاد الهواء من لسعته، ثابرت بعزم منقطع النظير حتى وصلت إليه أخيراً بأنفاس متقطعة إثر المجهود الذي قطعته حتى بلغته، إلتقطت



أنفاسها بترو حتى تهدأ من صخب الدقات ثم تنحنحت من خلفه بهدوء يشبه هدوء نبرتها:

- أنت يا عم؟

نادته برفق حتى لا يجفل ولم تكتشف بعد أي ملمح منه إذ كان يفترش الأرض بجسده، يثني ساق لأسفل بينما يرفع الأخرى يرتكز عليها برأسه المنكس، لم يسمعها على مايبدو إذ لم تجد منه أي أثر لرد فعل. دارت من حوله بخطوة صغيرة لم تحصل فيها على نتيجة غير الأولى لذا اقتربت أكثر، مالت بجذعها حتى تترك مابين يديها جوار ساقه في سرعة انتفض لها الرأس المنكس بغتة، يطالعها بتركيز كأنما لتوه تنبه لوجودها، تجلجل لسانها وهي تراه بعمر أقل مما خيل لها، كان

الشفق الأحمر مازال يلون المحيط من حولها فتمكنت من رؤية شعره القصير المشعث مع وجه شاحب بفعل الصقيع المميت الملتف به في هذا العراء بينما عيناه كانت دامية! فعلى ما يبدو بمداخلتها الفظة قطعت عليه خصوصية اللحظة مما أربكها أكثر ولون كلماتها بالحرج:

- ماقصدش حاجة ياخويا، أنا بس لاحظت أنك على نفس الحال من الصبح فجبت لك لقمة بسيطة..

كانت تشير بكفها في ارتباك، بينما هو لم تهتز نظرته المصوبة عليها مما زاد من حرجها فشدت أكثر على شالها والرياح تكاد تقتلعها من جذورها ومع ذلك قررت المتابعة، فتلك العيون تحمل

بين طياتها الألم، تلك هي نبوءة خبرتها التي اكتسبتها من كثرة اختلاطها بجنس البشر، همست بكلمات علها تكون له بلسم لوجع الأيام كما كانت دوماً لها ومازالت:

- أمي الله يرحمها كانت دايما تقولي مهما كبر الوجع ياسماح أكيد له آخر، مسيره يصغر ويخف لحد ما يبقاش له أثر، مافيش حاجة بتفضل على حالها لا فرح دايم ولا حزن دايم.

مصمصت شفتيها في خفوت أسفًا على الراحلة ولم تتنبه لحال شرودها الذي أخذها بعيداً لعند صاحبة الذكرى إلا حينما أبصرت عيناه الدامية من جديد ترمقها بنفس النظرة الميتة، نفخت في ضجر وهي تراه لا يأتي برد فعل



فهمست مع حالها بصوت لا تظن أنه قد وصله وهي تتململ في وقفتها وقد غلبتها الشفقة:

- أستغفر الله العظيم، ده أطرش ده ولا أخرس ولا حكايته أيه؟

وسريعاً كانت تجذب من جيب ثوبها ورقة نقدية من فئة العشرين جنيه، لتنحني تلك المرة أكثر حتى وصلت إلى كفه الساكن وتركتها بداخله ثم عادت بأصابعه عليها، تضغط برفق وتهمس له على مقربة ويدها الحره تتمايل يمنة ويسرة تشاركها الإشارة عله يفهم إحداهن:

- عارفة أنها ماتعملش حاجة في الزمن ده بس دي اللي معايا دلوقت، ربنا يفك كربك وكرب كل محتاج.



ختمت جملتها بتربيتة أخيرة وهي تنهض مما جعله يكسر جموده وقد هبط بصره لما تركت بين كفه وعاد ارتفع مع حاجبيه في ذهول إلا أنها لم تتنبه لذلك وهي تبتعد عدة خطوات قبل ما تستدير له بكليتها وتهتف بعلو صوت وهي ترفع ذراعها نحو الأعلى تقبض على كفها بقوة حتى يصله معنى الكلمات بوضوح:

- ضم عليها جامد لتطير منك.

واستدارت تكمل طريقها وهي تضرب بكفيها فوق بعض هامسة لحالها في تأثر:

- لطفك بالعباد يارب.





غادرت ولم ترَشبح الابتسامة التي ولدت من خلفها وشقت طريقها رغماً عن أنف مايعتمل بنفس صاحبها من ألم.

بمجرد دخولها للغرفة قابلها هاتفها الذي يضيء بإلحاح وسط العتمة، أسرعت تتلقفه بلهفة علها تكون من تنتظر، لكن لهفتها ذهبت أدراج الرياح حين خاب ظنها.

***

فوق مقاعد أحد الأروقه بمشفى خاص كانت تجلس في سكون، صمت تام أقرب للجمود فما بداخلها كثير، كثير جداً وقد فاق احتمالها، مبعثرة المشاعر والشعور لا تدري إن باتت تكره ذاك الساكن بدوره خلف الباب الموصد أم

فقط تنتابها الشفقة عليه، أم هو مزيج من أحاسيس عديدة متضاربة تطبق فوق نابضها حد اختناق النبض واحتضار الروح..

كيف تمكن من خداعها؟

وماذا عن ما يربط بينهما من ميثاق!

هل كان جزء من خطة طويلة أم مجرد مكسب بسيط لا ضرر فيه عقب ما ألبست حالها ثوب الزوجة المطيعة التي تلبي جميع رغبات زوجها دون اعتراض.

لعنة الله عليه اللص، المخادع ذي الألف وجه..



وعسى كل اللعنات تصيب قلبها الأحمق الذي هوى صريعا حين سقط أمام عينيها دون حول ولا قوة.

عاونها الجيران ما إن سألتهم الغوث في نقله إلى أقرب مشفى إذ قاموا بعزله في اليوم الثاني، و صدر اليوم التشخيص النهائي بعد أسبوع من الانتظار تؤكد إصابته بمرض"الدرن" وكانت تلك لكمة جديدة..

وها هو منذ أن استعاد بعضًا من صحته وهو يثير الإزعاج بصراخ واعتراضات لا متناهية متشدقا كمن يعرف كافة الأمور أن ما يحدث معه ماهي إلا إحدى نزلات البرد الشديدة ولا تحتاج منهم كل تلك المبالغة وحين ضاق منه



الطبيب ذرعًا أبلغها بصرامة أن تحد من انفعالاته ويخنع للعلاج اللازم في صمت إما أن تأخذه وترحل من هنا شاكرة.. تنفست بعمق وهي تنهض من جلستها ببطء موازٍ لخطواتها، ارتدت الكمامة التي أمرها الطبيب المعالج بوضعها ما إن تدلف لعنده، دفعت الباب ببطء وبقيت من خلفه تراقب.. بنصف رقود فوق الفراش وبالرغم من الضعف والهوان البادي على ملامحه إلا أنه كان يخوض شجار جديد مع ممرضة أخرى بان أثر كلماته على الظاهر من وجهها الممتقع، وكان له السبق إذ هدر في كلتاهما بقوة تنافي كل ما يمر به، بل وزاد حين رآها



فبطن كلماته بالفظاظة وعلى وجهه ترتسم إمارات الغضب:

- أنا مش عيان ومش هاخد علاج، سامعين؟

ابتعدت عنه الممرضة المكممة بدورها وهي تصيح بنفاذ صبر:

- إحنا كده عملنا إللي علينا بس جوزك رافض ياخد أي علاج، أنا رايحه أبلغ الدكتور وهو يتصرف بقى..

كانت لها كلمة "جوزك" من فيه المرأة كغصة سدت حلقها، ازدردت لعابها سريعاً وهي تتحاشى النظر إليه، وتهمس لها بخفوت مترجي:

- ممكن تديني خمس دقايق بس.. من فضلك؟



أومأت الممرضة برأسها على مضض بينما تغادر، ما إن عادت برأسها اليه كان قد عدل من وضعه وأنزل ساقيه للأسفل، يغلق أزرار قميصه ويهندم من ملابسه على عجل.. ينوي بذلك الرحيل على ما يبدو!

دمدمت آمرة بنبرة فظة دون مقدمات وهي تكتف ساعديها:

- ارجع مكانك..

دار برأسه قليلاً يرميها بنظرة جانبية مستهينة وعاد يكمل ما يفعل، يميل بجذعه بعض الشيء يبحث ببصره عن حذائه هنا وهناك فباغته السعال بنوبة جديدة جعلته يتوقف عن الحركة ويهدأ مضطراً.. ظلت تراقبه للحظات حتى

استكان في حركته قليلاً ثم عادت تهتف فيه بنبرة أقل علوًّا لكنها متماسكة أكثر، حادة بما يكفي ليطالعها بازدراء:

- أنت مريض بالسل عارف يعني أيه! ده مرض خطير ومعدي.

صمتت لبرهة تلتقط فيها أنفاسها وتابعت بنبرة متبلده مخترقه عينيه المصوبة في عينيها بتحد:

- ومميت لو متعالجش.

وصلتها حشرجة أنفاسه وتمكنت من رؤية قبضتيه التي جعدتا الفراش من تحتهما وهو يرمقها بحدة، ويعاند بصقيع مقيت:

- وأنا مش عايز أتعالج.



لفظ جملته الباردة وأشعل نيران الغضب فيها، اقتربت خطوة واحدة وهي تطبق فوق أسنانها وتهتف من بينهم بسخط بين:

- فكر في أختك على الأقل، بطل أنانية و فكر في غيرك لمرة واحدة.

- أنتِ مثلا؟

خرج سؤاله السريع بخبث ذكوري هكذا قالت عيناه، صمتت للحظات تعثرت فيها أنفاسها وقد انتفخت أوداجها قبل ما ترفع سبابتها في وجهه تستطرد كلماتها بهدوء مغيظ:

- شوف، أنا ماعنديش خلق لتصرفات العيال دي، بس لآزم تعرف أن رصيدك عندي بقى



صفر، وده شيء يخليني أخرج دلوقتِ من غير ما أبص ورايا لمرة واحدة.

حدجها بنظرة أقرب للقرف رافضاً حالة الضعف التي تلبسها إياه تلك الحمقاء، هو ليس بحاجة لها ولن يكون.. بينما هي لم تأبه لنظراته وهي تتابع بنفس النبرة مشيره ناحية الباب تلك المرة:

- الباب مفتوح عايز تمشي امشي ماحدش هيوقفك، لكن لا حد هيقرب منك ولا مسموح لك تقرب من حد.. إن كنت أنت مستغني عن عمرك احنا لأ.

- غوري في دااااهية.



صاح بعيون محتقنه وكفه يضرب بكوب زجاجي ساكن فوق المنضده المجاورة ليسقط من فوره متحولًا لشظايا، حل الصمت بعدها لفترة إلا من هدر أنفاسهم الصاخبة، وحين أدرك وقع خطواتها المبتعدة عاجلها بنبرة قاتمة لا حياة فيها:

- فين سماح؟

جذوة انتقام صغيرة تملكتها الأيام الماضية لتقطع وصالها مع شقيقته عن عمد وهي ترى سؤاله عنها في عينيه ويأبى التنازل حتى يشعرها فقط أنه ليس بحاجة لأي مخلوق كان، والآن وقد خرج أخيراً بتلك النبرة القاتمة بث فيها شيئًا



من نشوة انتصار، نشوة تزيد من اتقاد جذوتها الانتقامية وتجعلها تتضاعف في داخلها.

- هكلمها.

أجابته مختصرة بذات القتامة والبرود واستدارت مغادرة، لكنها توقفت ويدها فوق المزلاج، ترمي بجملتها الأخيرة من خلف ظهرها قائلة بإيجاز أخير:

- عدل من أسلوبك مع الممرضات ماحدش هنا مضطر يستحملك.

واختفت من أمامه فلم تصلها وصلة الشتائم النابية التي خصها بها بهسيس محترق وهو يلقي بثقل جسده للخلف فوق الفراش محملقا في



السقف بعيون فارغة وصدره يجيش بالكثير، فقد أعياه التعب فقرر بذلك الاستسلام..

أما هي فكانت ترفع يدها لصدرها تلتقط أنفاسها الحبيسة وهي مغمضة العينين بشفتين مرتعشتين، حاولت وجاهدت لتمنع انزلاق تلك الدمعة الحارة لكنها أبت، فسالت بوهن يوازي هشاشتها الداخلية، محتها بكفّها في قسوة وسريعاً كانت تستل هاتفها المغلق منذ وقتها..

يجب أن تأتي له بأخته حتى تتولى أمره، هي لا طاقة لها معه، سيظل في كل مرة يستنزف كل ما فيها بقلب جاحد.

***

زعيق..



صراخ..

ومشادة كلامية لا تليق أبداً بهكذا مكان كل مافيه ينضح بالرقي والفخامة، ومؤكد تلك النبرة الصادحة بغضب لا تليق بحجمها الصغير داخل بلوزة صوفية يطول ظهرها عن صدرها يتبعها سروال من الجينز الضيق بفتحات عرضية فوق ركبتيها:

- أنت غفلتنا يا مراد مالهاش معنى تاني غير كده!

قالتها بحدة ممتعضة وهي تنفض شعرها الخفيف للخلف في غضب ليدافع مراد عن نفسه من جديد بنبرة باردة:

- ممكن تهدي يا غنى وتسمعيني للآخر؟



كتفت ساعديها وقدمها تطرق الأرض بنفاذ صبر، تسأل بوضوح ولا تبغي غير الحقيقة المختصرة فكثرة الحكي لن يغير في نظرتها له الكثير:

- الفلوس فين يامراد؟

أطرق بوجهه ينفخ في سأم ثم عاد به يسرد لها أول كذبة قفزت لذهنه بكل هدوء وكأن ما قام به لشيء هين:

- كان عليا ديون كتير، الشركة بتاعتي كانت بتقع..

قاطعته بحنق:

- وده يديك الحق تعمل كده؟ ومن ورانا!

- كنت مضطر؛ افهمي!



قالها بنفاذ صبر ثم لعق لسانه مردفًا بقية قصته بتجلجل:

- اقترح عليَّ صديق يشتري نسبة من أسهم الشركة بمبلغ كويس، وافقت مقابل أن كل حاجة ترجع لأصلها بعد ما ظروفي تتحسن وأرد له المبلغ.. يعني الحوار كله مسألة وقت وضمان حقوق مش أكتر.

رفعت حاجبيها ذهولا من وقاحته واستهانته بها حد كذبه البين ومع ذلك فضلت مجاراته:

- كنت بلغتنا قبل ما تتصرف من دماغك، مش جايز كانت أزمتك اتحلت من غير الكارثة دي، ده إن اعتبرنا كلامك صح يعني.



تجاوز تلميحها المبطن وطمأنها بتربيتة صغيرة فوق كتفها مع بسمة أقرب للسماجة:

- كارثة إيه بس يا غنى بقولك صاحبي، يعني اطمني.

هزت رأسها في عدم رضا، أي طمأنة تلك وقد أثبت لها فيما لا يقبل الشك أن الأولوية لمصالحه الشخصية.. هو مراد لن يتغير وتلك الأقنعة التي يخدع بها أمها والعائلة لن يتشدق عليها بها، ليس هي..

- رفيق المحامي بلغك بآخر المستجدات مش كده؟



هتفت بها بقوة لا تقبل التراجع فأجابها كمن يحاول تصليح الأمور:

- بلغني يا غنى، ومع ذلك أنا موجود دايماً جنبك و..

- وأنا كرئيس مجلس إدارة بقولك مستغنية عن خدماتك يا مراد.

مقاطعتها الفظة أخرجت الحليم عن طوعه، فتح فمه ينوي رشق الكلمات إلا أنها تابعت بقوة وعيناها تضيق بتحدي مخبره إياه بخبث أن أوراقه كلها مكشوفة:



- ديون بقى ولا أرض دي مش مشكلتي المهم الفلوس ترجع، ياريت تحدد مهلة تناسبك وتبلغ أنكل رفيق.

- لااا ده أنتِ زودتيها قوي، أنا كلامي هيكون مع طنط كفاية لعب عيال لحد كده.

- سوري يا مراد بس صدقني آخر حاجة ماما عاوزه تشوفها هي أنت.

- كده يا غنى!

- كده يا مراد.

كانت ابتسامتها الباردة أكثر من كافية ليحمل حممه ويندفع بها للخارج محافظا على ما تبقى من ماء الوجه وحتى لا تسوء الأمور أكثر من ذلك

وتحدث فضيحة الجميع في غنى عنها، وفي النهاية هو على يقين تام بأن جميع الخيوط ستعود ملك يمينه ما إن تنتهي تلك الصغيرة من فاصلها العبثي حتى تأتي له راجية متوسله منه البقاء.

إنما هي في الواقع لم تكتف بعد، فمنذ أن وطأت بقدمها أرضية الشركة وهي تدور ببصرها في كل زاوية منها، كيف لهم أن يفرطوا فيما يخص أبيها! كيف يمكنهم سلب اسمه وهي مازالت تلفظ أنفاس الحياة؟ صحيح تملكتها الرهبة فيما هي على وشك مواجهته فالأمر ليس هين أبداً، وسوق العمل لا يرحم فمابالها هي ابنة الأمس، لكنها سوف تشهر كل أسلحتها لتتحد وتقود ذلك الجيش العظيم الذي لم يختَره أبيها

عبثاً، ستغامر وتخوض المعركة فهو يستحق أن تقاتل من أجله ولا مجال للخسارة، والله لن تحدث أبداً ولن تكون ابنة شهاب إن لم تلزم كل معتدٍ حدوده.. شمرت عن ساعديها قليلا في حالة تأهب وهي تندفع للخارج، تطرق فوق الأرضية بكعب حذاءها الصغير غير آبهة للعيون المراقبة لها حتى انتهت أمام باب مكتبه ودون مقدمات كانت تندفع للداخل دون سابق إنذار.

قميص أزرق شاحب مع بنطال أبيض كان يميل بثقله على حافة المكتب من الخلف عاقدا ساقيه ويضع تركيزه كله فيما بين يديه، انتفض لوهلة إثر الارتطام العنيف للباب، وقبل ما يستوعب عقله ما يحدث كانت قد شملته بنظرة

واحدة رافعة سبابتها تصيح في تهديد صريح لا تشوبه شائبة:

- اعمل حسابك إن وجودك هنا شيء مؤقت، ماتحلمش بأكتر من كده.

ارتفع له حاجب واحد بينما بصره يتلكأ فوق حذائها، ملابسها، حتى انتهى عند عينيها المتقدة بشرر وشعرها القصير الذي يحيط بتلك الملامح المنمنمة، حسنا حتى الآن عقله لا يعمل ولا يدري من هذه الصغيرة ولا كيف تمكنت من التهجم على مكتبه الخاص بل وتصيح فيه بتلك النبرة الناعمة مهددة إياه بكل صلف ووقاحة، لكنها للحقيقة بدت لعينيه مسلية.. مسلية للغاية وهو يهتف بنصف ابتسامة ونصف عبث:



- طيب مش نتعرف الأول يا...

قالها بتمهل مقطوع وازى اقتراب خطواته وكفيه داخل جيوب بنطاله حتى قابلها في وقفتها وماعاد يفصل بينهما سوى واحدة إلا أنها ابتعدت بوجهها عن مرماه وبقيت ثابتة مكانها، تضغط فوق شفتها السفلى كل حين وفكها يرتعد غير مسيطرة على حالة الغضب التي تتلبسها بينما اهتزاز ساقها يبصره الأعمى وهو ليس بأعمى، هو رجل تجاوز سن الثلاثين بعامين ويملك من الخبرة مايكفي لتلتقط عيناه كل ما سبق وليمنحه التخمين الصائب والأقرب لليقين عن هوية تلك الماثلة أمامه وتكاد أن تزهق روحه فقط لو أمكنها ذلك..



ابتعد خطوة صغيرة يعطي لكفه الممتده المساحة الكافية ليبدأ بالتعريف أولاً في هدوء وإبتسامة دبلوماسية ثقيلة، لا تناسب اللحظة:

- مهند البغدادي..

تجاهلت كفه وهي تعقد ساعديها أمام صدرها لتحرجه عن قصد، ترميه بسم النظرات قبل ما تهمس بخفوت حاد لونته بالسخرية:

- قول المحتال.. النصاب.. أي حاجة تليق أكتر.

امتقع وجهه في اللحظة وهو يعود بكفه لداخل جيبه بينما استدار بجسده عائداً إلى مكتبه، ارتاح فوق المقعد الوثير ومال للأمام مصطنعا



التشاغل ببضعة أوراق، هاتفا بهدوء وصلف ينافي ملامحه السابقة:

- لو مش ناوية تتكلمي بأدب واحترام اتفضلي بره.

ضربت الأرض بقدمها بقوة صارخة بغضب عارم:

- أنا غنى كارم يا متخلف أنت!

هي حقا لم تكن تملك زمام لسانها الذي انطلق للتو فقد أعماها الغضب، أما هو خبط فوق سطح المكتب بقوة أجفلتها صائحا بدوره وقد إشتاطت عيناه غضباً ونبرته تخبرها أنه ألقى بهويتها في أقرب سلة مهملات:

- أيا كنتِ مين احترمي نفسك!



تقدمت حتى ارتكزت بكفيها فوق سطح المكتب ومالت إليه بوجهها، ومن بين ضروسها كانت تهمس أمام وجهه:

- هدفعك تمن أسلوبك القذر ده قريب.

نهض من جلوسه بتحفز أكبر حتى بات صدره أمام وجهها مباشرة تخترقها رائحة عطره النافذة فتزكم أنفها بينما يميل بجذعه ناحيتها أكثر قائلاً بعصبية باردة مخترقا عينيها بنظرته:

- حصلنا الرعب العظيم يافندم.

كان يفوقها عرضا و طولا لدرجة شعرت فيها بضآلة حجمها أمامه، ولا تنكر تلك القشعريرة التي أصابتها من نبرته الصلبة، زمت شفتيها وهي



تبتعد ببطء وقدمها تضرب فوق الأرض مرة أخرى، تندفع للخارج بعاصفة هوجاء وقد تعمدت إيصال كلمتها الأخيرة إلى مسامعه:

- سخيف.

بصره بقي أسير أثرها بحاجبين يرتفعان بذهول، حسنا؛ تأكد من أصل الهوية لكن ما بالها تلك القصيرة!

عاد للوراء في أريحية أكبر وبصره مازال عالقا عند الباب المفتوح بينما لسان حاله يهمس وقد مال جانب ثغره في ضحكة مفتعله:

- دي رسمي فهمي نظمي.

***



بالزواج.. تخبو قناديل العشق

نهاية اتفق عليها الكثير واختلف البعض بينما ظل القليل قابع في منطقة الوسط، حيث كل شيء يسوده الضباب..

لا تدري أين راحت طاقة العشق التي تسيرها بدرب الهوى مفعمة بكل طاقة وحيوية، كانت تستمد الحياة من عشقها المزدهر على الدوام، عشق بدأ يخبو يوم بعد يوم وليلة تلو أخرى، مؤكد سوف يذبل حينما لم يجد من يرويه، من يحافظ على براعمه لتنمو وتتفتح، وكأنما عقارب الزمن توقفت بها، توقفت هنا حيث المنطقة الرمادية، حيث كل شيء باهت دون معنى..



صوت خطواته التي حفظتها عن ظهر قلب هي من انتشلتها من تلك الهوة السحيقة التي تبتلعها كل ليلة بكثافة أفكارها السوداء، حتى نبرته التي كان ينتشي الجسد بدغدغة حروفه باتت على أذنها مجرد كلمات لاوقع لها ولا صدى:

- مساء الخير..

ومال فوق وجنتها يترك قبلته، قبلة تراها ميتة لم تعد تحرك فيها ساكناً.. كان يلفها الصقيع من حولها في ذلك البهو الواسع بينما تنكمش بجسدها في زاوية إحدى الأرائك وقد غابت كل المواسم عن حياتها ولم يتبقَّ غير ذلك البارد الأقرب للجليد..

همست بعد فترة وهي ترفع وجهها لتقابل عينيه:

- مساء النور.

قالتها بهدوء عقد له حاجبيه مستفهما لكن سريعا كان يتجاهله وهو يستدير على عقبيه فلاحقته بنبرتها الهادئة:

- مش هتأكل؟

- أكلت بره.

لفت نفسها بذراعيها تهبهما الدفء علها تقضي على ذلك الصقيع المتسرب من بين جنبيها..

- مش هتنامي؟

وصلتها نبرته المتسائلة فشردت رغماً عنها، كم من مرة تفننت في تقديم حبها؟ لم تكن تخجل أو تتوارى خلف جدار الخجل بل تعترف وتهمس



بعشقها له كل حين.. أين اختفى كل هذا ولما لا يشعره ذلك بفارق؟

تلاقت أعينهما مرة أخرى لترى تململ وقفته، رفعت مابين يديها من كتاب وهي تجيب بنبرة خاوية:

- كمان شوية.

أومأ برأسه في صمت واختفى من أمامها، هكذا ببساطة..

أين أحلامها؟

أين تلك الحياة التي رسمتها!



تركت الكتاب ورفعت يدها فوق بطنها المسطح، تدري لما في هذه اللحظة اجتاحها إحساس أمومي دافيء.. هل كان ليشكل وجود طفل بينهما فارقا؟

لربما كان له دورعظيم في دك جبال الجليد التي تزداد بينهما كلما مر العمر..

ترى هل يصدق شكها وتكون الآن تحمل بذرة منه!

ثلاث سنوات عمر زواجها لم تفكر فيها في زيارة طبيب نسائي، لم تكن يوماً شغوفة بالأطفال كحال بعض صديقاتها، أرادت فقط التمتع ببعض الوقت قبل فقدان الحرية وهي كائن منطلق بطبعه، محب للحياة.. أو هكذا كانت تظن قبل أن تصدمها صخرة الواقع..



واقع أكد لها أنه غير مهتم..

فمن ناحيته لم يسأل ولو لمرة أو يتطرق لذلك الأمر معلنا رغبته بذلك، وكلما حاصرته كان يخبرها بهدوء مقيت بأن الوقت مازال باكرا ولا داعي لتلك العجلة فليشبعا من الحياة أولاً..

لكن أين هي تلك الحياة!

ولأنها لم ترى ذلك الاستقرار الذي كانت تتمناه وتخطط لنيله كانت النتيجة هي ترك الأمر معلق دون تدخل منها حتى يحين ويأذن الله..

وربما قد آن الأوان..

هي تمني نفسها بذلك في هذه اللحظة، تمنيها بشدة!



***

- كفاية يا سماح.

قالها بتأفف وهو يحاول تخليص رأسه من بين كفيها، إلا أنها حركت أصابعها أكثر فوق المنشفة حتى تتأكد من تمام الجفاف لخصلات شعره القصيرة، ما إن انتهت حتى ابتعدت قليلا، تتطلع إليه مغازلة إياه بضحكة واسعة:

- عسل يا أخواتي.

ولم تنتظر رده العبقري الذي يطير بجبهتها ككل مرة بل تحركت تقرب منه طاولة الطعام الخاصة بالمشفى ثم جلست فوق مقعد جانبي آمره إياه بذات الابتسامة الواسعة:



- يلا كل.

أراحت ظهرها للخلف وعقدت ساعديها فوق صدرها تراقبه في صمت وهو ينصاع لأمرها اللطيف دون مجادلة..

خمسة أيام مضت منذ أن تركت كل شيء وهرولت إليه من فورها حين علمت بأمر مرضه، قابلها في البداية بمشاعر متبلدة وغضب مستعر وما إن أخبرته بجهلها لحالته وعملها البعيد حتى اعتنق الصمت، كان يعاتبها و يشكو لها حاله في صمت مطبق، فلم يكن منها غير أن تقترب وتضم رأسه إلى صدرها ضاربة بكل تنبيهات الطبيب المتغطرس عرض الحائط..



كان ذلك أول عناق لهما منذ سنوات طويلة، بل منذ أن غادرت وإياه أرض الطفولة، كانت العلاقة بينهما فيما بعد لا تشمل غير الزعيق والعراك على أتفه الأسباب ليدور كلا في دوامة متناسيا الآخر، لكن مع أول نظرة له بعد غياب سنوات أيقنت أنها تحبه، رغم مساوئه وضلاله وكل شين يحمله في طباعه إلا أنها تحبه كثيرًا ولن تتوقف عن تنقيد الممرضة السمينة سرا حتى تكون هنا بجانبه وترعاه كل يوم.

- أنا مقلق منك ماعرفش ليه!

قطع تحملقها وهو يرمقها متوجسا، فهي منذ قدومها وهي تغدق عليه باهتمام لم يكن يعلم أنها تملكه من الأساس، هذا غير ضمتها له على

حين غره وهو كان يتوقع ماسورة تقريع سوف تندفع في وجهه عقب ما انفجر فيها قبلا..

ضحكت قائلة بسماجة تقارب سماجته:

- حبيبي يا أبوعلي.

لم يبادلها المزاح وعاد لتناول الطعام في صمت حتى غمغم بعد حين دونما يرفع بصره:

- تعبتك معايا مش كده؟

- يوه! ولو ماتعبتش ليك يا حسن هتعب لمين يعني؟

خرجت قوية بصدق ومحبة خالصة، محبة أقوى من أن يتجاهلها، لم يكن يومًا ضعيفا كتلك الفترة، وجد حاله دون إرادة و مكابرة يقبل

كل ما تجود به، استكان لحنوها وسمح لها وحدها أن ترى مرضه وضعفه الذي تمكن منه حد الهوان..

- بقيت أحس إن فيكِ من ياقوت.

أجفلها، فتلك أول مرة يتطرق فيها لذكر أمهما الراحلة، كان يتحاشى ذكرها وهي بدورها ارتاحت لذلك لكن الآن لا يمكنها إغفال تلك المرارة التي تكلم بها، وكأن لسانه لا يقوى على ذلك وهو يهتف بهدوء لا يناسب ارتعاد أصابعه حول الملعقة..

وجدت حالها تغير دفة الحوار، فالحديث عن ياقوت سيفتح أبواب من الماضي وهذا ليس بوقته:



- صحيح؛ نسمة بتسلم عليك.

رفع وجهه إليها، يعتلي قسماته التهكم وقد تلونت نبرته بالسخرية الفظة:

- من امتى بتكدبي يا سماح؟

أدركت أن كذبتها لن تمر عليه:

- بحاول أصلح ما بينكم، غلطانه يعني؟

تبسم في سخرية، فلو رأت أخته الحقيقة كاملة كما فعلت زوجته لربما فرت هي الأخرى هربا منه ومن مرضه المعدي:

- ماتصلحيش، عشان مافيش حاجة تتصلح.

شهقت وهي تضرب بكفها فوق صدرها:

- هطلقها!!



لا يدري!

لكنه مدرك أن ذلك الانفصال قادم لا محالة،

هذا إن لم تكن تعد له بالفعل..

سألها مستفهما وهو يزيح بيده طاولة الطعام عن مرماه:

- هي قالت لك عايزه تتطلق؟

نفت سريعًا برأسها ولسانها:

- أبدًا والله.

عاد بجسده للخلف، يشيح بوجهه للجهة الأخرى، محاولًا بذلك مداراة انقباضات فكه المتتالية.. فمنذ أن جاءت أخته أختفت هي، لم تأتي إليه حتى لمرة..



سخر بداخله..

وتريدها أن تأتي!

نعم يريدها..

وهذا مايغضبه من حاله

كل يوم ينتظر قدومها برفقة شقيقته لكنها لاتفعل وعقله الغبي لا يتوقف عن جلب طاريها كأن سنوات الحبس ملأته بالعطن والعته..

لكن لا بأس فالأمر ليس بتلك الصعوبة وكما اعتاد وجودها طيلة السنوات الراحلة سيعود نفسه من جديد على غيابها، مجرد إفتقاد وقتي وسيمضي وحتما ستساعده الفترة التي سيقضيها هنا على ذلك.



لكن على مايبدو أن سماح لن تساعده على الإطلاق:

- بس تعرف عذرها معاها هي طول اليوم في شغلها و..

- سماح ينفع تخرسي؟!

قاطعها بحدة فمطت شفتيها في محاولة أخيرة:

- طب والله بنت حلال وبتحبك.

وكاد أن يقاطعها للمرة الثانية بصراخ يخرسها للأبد إلا أنها لفظت جملتها بنبرة خاطفة فكان لها وقع أربكه داخليا، عاد للخلف مرة أخرى متلحفا بصمت جديد، حتى قال بعد حين في



اقتضاب محتد مجبرا إياها على تغيير مجرى الحوار:

- مين بيدفع فلوس المستشفى؟

وكانت تعلم أن ذلك سؤال آخر يتحاشاه إلا أنه لم يكن ليتركه عالقا أكثر من ذلك، ومن ناحيتها كانت تنتظر حتى يتحسن وضعه الصحي لتسحب الفتيل، لكن بما أنه يريد المعرفة لن يجد منها غير الصدق:

- فريد صبري.

اعتصر جفنيه بقوة في إغماضة سريعة وقبضتاه تشتدان بجانبه، رغم عدم صدمته من الجواب، فهو ليس بمثل ذلك الغباء وقد سبق له توقع



هذا، المشفى خاص ويظهر عليه الغلاء وسماح لن تتمكن من سداد هذا كله بمفردها، فتح فمه ينوي قذف أي كلمات تطرأ على باله ليفضي تلك الشحنة التي تفاقمت بداخله إلا أنها سبقته والجمت كل حرف ينوي خروج:

- أبوك مات من شهرين يا حسن.

وكان لفظ "أبوك" من فمها الواثق أكثر من كاف ليخرس لسانه وترمقها عيناه بغرابة أقرب للصدمة.

وفي نفس المشفى بمكانٍ آخرٍ كان هناك امرأةٌ أخرى تعتليها الصدمة بعد فقدان جنينها الذي لَمْ يتعدَّ عمره الأربعين يومًا..



امرأةٌ مُنع عنها حقها في عطية الأمومة بأمرٍ مِنْ البشرِ، ليشاء القدر أنْ يفتضح سره بأمرٍ مِنْ ربِ البشر!



(٢٠)

بين كثيرٍ من المحطات التي نمر عليها هناك واحدة لا نملك معها سوى الخنوع قبل التسليم والقبول..

وماذا عسانا نفعل حين يفوت الأوان!

- أبوك مات من شهرين ياحسن.

وكان لفظ "أبوك" من فمها الواثق أكثر من كافٍ لتخرس لسانه وترمقها عيناه بغرابةٍ أقرب للصدمة..



تشنجت جميع أطرافه لدقائق إلى أن نطق بعد حين بقسمات تتغضن ببطءٍ كمن استوعب للتو صدمته..

- مات!

تحركت من فوق مقعدها حتى اقتربت منه وعيناها تلتهم كل تفصيلةٍ تنتجها قسماته ورأسها تومىء في صمتٍ وتأكيدٍ، ملامحه تآكلتها الصدمة فلم يظهر أي تعبيرٍ آخرٍ حتى تنهد أخيرًا وهو يطرق برأسه للأسفل، وحينها همست بصوتٍ متشنجٍ بعض الشيء وبصرها يشمله كله في نظرةٍ:



- كنا على تواصل دايم من بعد وفاة أمي و.. وسجنك.. آخر مرة كلمني فيها قالي أنه تعبان ونفسه يشوفني، مفكرتش كتير ونزلت له.

صمتت تلعق شفتيها بلسانها وهي تستعيد مرارة الذكرى:

- كان بيموت ياحسن، كان بينازع الموت بكلام كتير، كان يسكت ويرجع يقول شيطاني غلبني و أكتر كلمة قالها سامحيني..

ظل على وضعه المنكس فاستدارت بجسدها عائدة لمقعدها من جديد، تتابع وأصابعها تدعك جبهتها مع نبرة متوترة:



- وقتها ما افتكرتش ظلمه لينا لكن افتكرت أمي، شفت صورتها قدامي، صوتها وهي بتقوله أنتَ طعنتني في شرفي وابنك طعني في روحي!.. شفتها وهي بتموت بحسرتها وكأنها جات للدنيا عشان تعيش في مرار وتموت بحسرة.

صمتت تحملق فيه حتى رأت رأسه يرتفع ببطء وعيون مهتزة شاخصة، كان وقع الجملة المنقولة عن لسان أمه الراحلة ثقيل، ثقيل لدرجة جعل لسانه يلهث في خفوت بالكاد وصلها:

- قابلها!

أومأت برأسها وأكدت بكلماتها:

- هي اللي طلبت تشوفه.



حينما صمت تنهدت وهي تزوغ ببصرها عنه لتهمس في خفوتٍ تستكمل حديثها السابق:

- ورغم ده كله ماقدرتش غير أسامحه، في النهاية هو بشر.. مين فينا ماغلطش ولا شيطانه غلبه.

كانت تلقي بكلماتها المبطنة بحذر، وفي داخلها تبتهل أن تكون لكلماتها اللآذعة أثر في نفسه التائهة. لم تخبره عن وصية أبيها والتي لم تشمل أحدًا غيره، فقد جعلها تقطع وعدًا بأن تبقى إلى جانبه مهما قسى أو تجبر، ترجاها أن تأخذ دوره لأنَّ الله سوف يسترد أمانته وليس له في الأمر شيء..

- حسن..؟



نادته برفق حين استشعرت شروده الذي طال رغم حملقته فيها دون رؤية حقيقية، تنبه لندائها فضاقت نظرته في استفهام واضح، هتفت في جرأة محدودة لا تعلم عواقبها:

- سامحه أنت كمان عشان ربنا يسامحك.

رأت تشنج حلقه وهو يبتلع غصته أمام عينيها، لم يجلْ في خاطره أن يأتي اليوم الذي يجلس فيه صاغرًا أمام أخته الصغرى لتلقي عليه بالنصائح المبطنة.. ضحك ضحكة قصيرة ميتة لا روح فيها ثم عاد إلى صمته وأشاح ببصره بعيدًا، في صدره تندلع وتضطرم نيران حارقة، شعور بتيه يكبر ويكبر في نفسه كأن العالم كله من حوله اختلف، وهو بالفعل اختلف فلم يعد

شيئًا كالسابق، حتى هو ذاته بات يشعر كأنه لم يعد كما كان من قبل، يتملكه شعور بالضياع والغربة بداية من احتيال أيوب على جميع مايملك، مرورًا بمقابلته مع حلمي الجمال الذي أصبح عضوًا في المجلس عقب ما سحق كل عثرةٍ كانت تقف في طريقه فنال ما كان يبغي، وكان هو أحد العثرات التي دهسها بقدمه حين لجأ له باحثًا عن عمل فور خروجه فأمره بفظاظة وأنفه أنه بات منتهي الصلاحية وذا سابقة سوف تلون تاريخه للأبد وهو رجل يفضل أن يبقى دائمًا فوق مستوى الشبهات وحينما أوشك على التجرأ سبقه قاطعًا عليه الطريق مخبرًا إياه ببساطة..



" وبالنسبة للورق اللي معاك وجاي تساوم عليه، بله واشرب ميته"

ثم صرفه بإشارة من يده، وكيف لا يفعل والرجل أصبح ذا شأنٍ يحسد عليه، وهو على يقينٍ تام أنه ما وافق على مقابلته إلا ليقطع عليه الطريق إن فكر مجرد تفكير فقط في المرور من جانبه مرة أخرى.. ومن هو ليفعل!

وانتهت صراعاته بمواجهة مع الزوجة التي خلخلت كل ثوابته وأطاحت بما تبقى من صلابته ليسقط في النهاية أمام عينيها دون حول ولا قوة.. لكن من جميع ماسبق لم يتحشرج داخل صدره غير جملة أمه، أحقًا قالت ذلك!





هل ساوته مع الرجل الذي تخلى عنها بل عنهم جميعًا في مقام واحد.. كيف تفعل وهو لم يشترِ امرأة غيرها؟!

شعر باقتراب خطواتها منه فقطع استرسال شريط أفكاره ودار برأسه قليلاً ينتظر مافي جعبتها، فعلى مايبدو سماح لن تنتهي اليوم.. اقتربت تقف على مقربة وظلت ترمقه للحظات كأنما تريد اقتناص رد فعله لحديثها القادم إلا أنها لم تصبر أكثر لتهتف بصوت ثابت:

- قبل ما يموت كتب لنا نصيبنا في أملاكه.. وعايزك تأخد مكانه في الشركة اللى عملها.

صمت للحظات استوعب فيها الكلمات ليصيح بعدها متجهمًا:



- قصدك اللي عملها بفلوس مراته.. مراته اللي اختار يربي بنتها بدل ما يربي ولاده!

نفت بحاجبين معقودين بقوة:

- دي فلوسه؛ حلاله وتعب السنين.. ده حقنا فيه!

لم تلقَ أي رد منه فتابعت وهي تفرد كفها أمام عينيه فظهر بداخلها مفتاح حديدي:

- وكتب لك شقة باسمك، معايا عقدها وده المفتاح.. وزيها ليا.

ضحك بقوة دون مرح حتى أدمعت مآقيه، بينما هي تهتف في حدة تقطع عنه أي نوايا ماجنة قد تنتابه:



- أنا قبلت نصيبي ياحسن وماعنديش استعداد أتنازل.. معنديش استعداد أرجع لخدمة البيوت من تاني!

سكتت لبرهة تلتقط فيها أنفاسها ثم عادت بعدها تتولى دفة الحوار لكن بنبرة حانية أكثر تلك المرة ونظراتها ترجوه:

- ورحمة أمك أنت كمان لتنسى اللي فات، انسى وابعد عن كل حاجة ضيعت تلات سنين من عمرك وياعالم هتضيع منك إيه تاني.

دار الحوار الصامت بين الأعين حتى قطعته بعد حين بسؤال قلق:

- مش عايز تقول حاجة؟



لم تجد منه أيضًا رد، تنهدت وهي تهندم من وشاحها فوق عباءتها السوداء وتلقي بجملتها الأخيرة حتى تتضح أمامه الصورة كاملة دون أي رتوش تجميلية:

- لازم تعرف كمان مش مسموح لأي حد من الورثه يبيع نصيبه في الشركة أو المزرعة.. ده كان شرطه في الوصية اللي بلغني بيها المحامي.

حملت حقيبتها وظلت تتطلع إليه لدقائق، تعلم أنها أثقلت عليه وزادت من ضياعه، لكن هكذا أفضل لربما يتعثر ويسقط تلك المرة فوق الطريق الصحيح..

- أنا همشي دلوقتِ وهجيلك بكرة، مش عايز حاجة أجيبهالك معايا؟

حرك رأسه نافيًا ببطء، فتبسمت له وتحركت خطوة ثم استدارت تهتف له بذات الإبتسامة:

- فكر كويس يا حسن واحسبها صح.

ورحلت..

رحلت وتركته داخل هوة ضياع تتسع أكثر عن ذي قبل..

وكأنه يملك رفاهية الإختيار من الأساس!

تركته ولا تدري أن جميع الأبواب قد أوصدت في وجهه ولم يتبقَ سوى واحد مفتوح، بل هي من قامت بفتحه على مصراعيه أمام عينيه وغادرت.

***

لا شيء يمر عبثًا



حتى العثرة الصغيرة تزيد من قوة عودك

مرة تلو أخرى ولم تعِ حتى جاء السقوط

الأخيرالذي أعقبه عجز في نفسها وعطب في

روحها، لكن الجيد من كل تلك العقبات أنها

باتت على قدر مستطاع من التحمل ومواجهة

الصعاب، يومًا بعد آخر تصبح أقوى و أكثر شدة

وبأس، ليس من العدل بعد كل ما مرت به أن

تهزم وترفع راية ضعفها.. تلك المرة ستلفظه هي

خارج حياتها، فقد نضجت الساذجة التي كانت

تتبعه ببصيرة عمياء حين كان لها بصيص نور

وسط عتمة الظلام لتكتشف في النهاية أن

الظلام لم يكن أحد غيره. عقلها يخبرها أن تلوذ

بالفرار دون لحظة انتظار واحدة بينما هناك

صوت داخلي يعبرعما يصول ويجول في نفسها داعمًا تلك الروح المقهورة التي تستوطنها منذ واجهها بحقيقته بكل وقاحة يمتلكها، حين تتذكر أمها ووجيعتها على رحيلها تتمنى أن تراه أمامها في لحظتها ينازع نفس الألم، حينما تنبش في ذاكرتها فتلوح لها تلك الساعات التي قضتها مقيدةً وملقاة فوق أرض صلبة باردة كشيءٍ بخس لا قيمة له وهو من حملها بيديه لهناك تجتاحها كل مشاعر الكره والبغض التي تجوب الكون وليتها تكفيها لحظتها، حين ترى حالها مبهورة بنبله وشهامته فتلمع صورة الفارس المغوار في عينيها لتسلمه نفسها ما أن يطلبها عن طيب خاطر تبغض ذكراه وتبغض نفسها قبل



منه.. في داخلها أكثر ما تتمنى هو إيلامه لو فقط تنهش جلده بأظافرها علها تخمد تلك النيران التي لا تهدأ، حتى أنها فكرت تذهب لرؤيته في المشفى وتراه مكبلًا بالمرض فلربما تشعر ببعض التشفي حينها وترتاح نفسها؛ لكنها لم تكن يوماً بتلك الوضاعة!

- هتفضلي مطنشاني كتير؟

أجفلت على الصوت الذي يعلوها بتأفف، لترفع بصرها تتطلع لها بلا حياة:

- عايزة إيه يا سماح.

جاورتها سماح فوق الأريكة الصغيرة، راقبتها للحظات لتهتف بعدها بعدم رضا:



- مالك؟

- مالي ما أنا كويسة قدامك.

قالتها بسخرية باردة لتعاود سماح تفحصها بصمت حتى سألتها مباشرة دون موارة:

- حصل إيه بينك وبين حسن؟.. مش ده اللي كنتِ هتموتي نفسك من العياط عليه، مش ده اللي كنت بتعدي الأيام عشان يخرج؟

وثبت من جلستها فجأة، ترمقها بعيون غاضبة، كفى لقد زهدت قالب الساذجة التي يضعها الجميع فيه، صرخت فيها وقد فقدت كل ذرة أعصاب تمتلكها:



- كنت هبلة مش شايفه حقيقة أخوكي..

الحرامي.

ظهر توتر سماح في عينيها المرتبكة من تلك الحقيقة التي تتعرى أمامها دون ساتر، نعم يؤلمها أن تكون تلك هي حقيقة شقيقها لكن ماذا هناك يمكنها فعله، ليت الزمان يعود للوراء؛ ليته فقط..

نهضت بدورها تقابلها وتهتف بدفاع تمني نفسها به:

- اتغيريا نسمة، مش هيرجع للسكة دي تاني..

السجن درس عمره ما هينساه.



كانت على يقين أن شقيقته لا تعلم عنه سوى قضية الحبس التي تمت محاسبته عليها بالفعل، كانت أكيدة أنه أجبن من أن يقر لها بفعلته معها.. كادت أن تصرخ أمامها بكل ماتحمل في جعبتها من خذلان لكنها تراجعت وهتفت عوضًا عن ذلك بملامح قاتمة ونبرة صلبة:

- آخر همي، صدقيني آخر همي يتغير ولا مايتغيرش.

أمسكت سماح بكتفيها وعيناها ترجوها:

- هو محتاج وجودنا قوي الفترة دي، وأنتِ مراته لآزم تكوني جنبه.



امتقع وجهها وهي تعقد حاجبيها وتهتف فيها باستنكار:

- جنبه!

ثم تلوت بجسدها تبعده عن مرمى قبضتيها القويتان عائدة خطوة للخلف:

- أنا مش عايزة أشوف وشه أصلًا.

ورفعت سبابتها في وجهها تستطرد بنبرة ظهر فيها البغض على قدر الجدية:

- قولي له يطلقني في أقرب وقت.

ظهرت ملامح الخيبة في عيني سماح التي عادت تجلس من جديد وهي تهمس في تروي:

- استهدي بالله يا نسمة طلاق إيه بس.



اقتربت منها نسمة في تحدٍ حتى وقفت أمامها، تسألها بنبرة قاتمة:

- لو كنتِ مكاني تعملي إيه؟ قولي يا سماح لو عرفتي أن جوزك واحد كداب ونصاب، حياته حرام في حرام.. ردي وعرفيني المفروض أعمل إيه!

تحشرج صوتها وتهدج فأشاحت برأسها جانبًا تخفي دمعات خائنة تنوي الظهور، إلا أن نبرة سماح الهادئة وصلتها:

- حقك.. ماقدرش ألومك.

- يبقى خلال أيام لو مطلقنيش أنا هرفع عليه قضية خلع.



قالت جملتها بنبرة قاسية وهي على وضعها دونما تنظر لها وحين انتهت كانت تستدير لتختفي خلف باب دورة المياة بينما ظلت سماح تتبع أثرها وقد أظلمت عيناها فهي أعلم الناس بأخيها وبعناده كما باتت تعرف نسمة خير معرفة وأكثر من تدري أن تلك القصة لن تمر مرور الكرام.

***

(لا قيمة لوجود الإنسان إن لم يكن طموحًا)

الكلمات التي يؤمن بكل حرف فيها وعلى أساسها ينتهج سبله، فتلك بمثابة طاقة روحية يستنير بها عقله فيمضي يشق طريقة بسرعة صاروخية دونما ينظر للوراء، ولأن لكل مجتهد نصيب كما يقال كان له كل نصيب وكل خير وفير، هو مهند

البغدادي الذي تتلمذ على يد أبيه السيد المخضرم في دنيا الأعمال والمال ليسير على نهجه المستنير حتى بعد رحيله، كان أكثر إصرارًا ومثابرةً فلم يكن إلا أن سطع نجمه أكثر وأكثر.

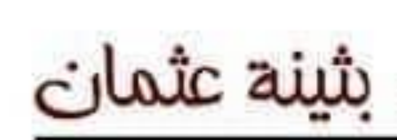
وكانت تلك له صفقة رابحة طمح لنيلها من البداية، منذ وفاة شهاب كارم تحديدًا، ومن لا يبغى ضم اسم يعد أسطورة في مجاله بل ويسعى لذلك وهو بفطنته أدرك أن تلك الأسطورة نهايتها إنهيار يتبعه سقوط وتأكدت ظنونه عقب تقربه المقصود من مراد كارم ومع أول فرصة مناسبة كان يقتنص الغنيمة من فيه الأسد فكان له ما أراد، فذلك هو قانون السوق: البقاء للأذكى.. ولا ينكر أنه بات يطمح لنيل المزيد والمزيد بعد ما



رأى من عبث يحدث في هكذا صرح عظيم، فكلما نال أكثر وأصلح كل هذا العبث كلما زادت نسبة الربح أضعافًا مضاعفةً لتلك الأسطورة التي يلهث من خلفها حيتان السوق.

وتلك القصيرة هي أول العبث، قصيرة لا يتجاوز طولها المئة وستون قامت بطرد مراد لتتولى منصبها المستحق كما تتشدق بالقول لكل صغير وكبير هنا، وتعامله هو بشكل خاص بكل صلف لا يطاق وعداء كبير حد أنها تتعمد تجاهله ولا تتوجه له بالحديث إلا للضرورة القصوى.

انتهى للتو الإجتماع المعقود بأمرٍ منها وقد خرج الجميع ولم يتبق سواها والسيد شوقي الذي بات علقة ملتصقة فيها طيلة اليوم حتى يسقيها



عصارة خبرته بدلًا من انهاء مهامه كأي موظف محترم، يوم عن يوم يرى بريق الإصرار يلمع في عينيها أكثر وربما هذا ما يثير القلق في نفسه بعض الشيء..

تحرك ينوي المغادرة إلا أنها قطعت خطواته بنبرة قوية دونما التفاتة:

- لحظة من فضلك..

رفع حاجبيه مستنكرًا نبرة الذوق منها، فمنذ متى بالله.. ومع ذلك استدار بجسده ينوي رفض تسلطها الطفولي القميء إلا أنها عاجلته باستدارة من رأسها وهي تهتف بنبرة هادئة زانتها ابتسامة عذوب!:





- ممكن تقعد عايزاك في حاجة مهمة، إديني دقيقة بس.

استنكاره بلغ مبلغه وهو يتقدم ليعود لجلسته السابقة محتلًا مقعده في أريحية تامة فاردًا ساقيه على طولهما بعيون ضاقت في مراقبة.. كانت اليوم ترتدي بلوزة قطنية بيضاء ناصعة يعتليها سترة جلدية سوداء مع بنطال يمثالها بينما شعرها الخفيف كالعادة ترفعه في هيئة ذيل حصان قصير، كانت تشبه الدمى لحد ما وبعيدة كل البعد عن ثوب سيدة الأعمال التي تحشر حالها فيه رغمًا عنها.. تنحنح بصوت واضح يعلن نفاذ صبره فدارت له بمقعدها بعدما صرفت السيد علقة بإشارة منها، قابلت



حاجبه المرفوع في شك بإبتسامة كبيرة وأكثر عذوبة مما أثار حفيظته أكثر، وكانت نبرتها المسالمة خير دليل:

- مش هاخد من وقتك كتير.

أومأ برأسه دون تعقيب فتابعت وهي تشبك أصابعها فوق المائدة الكبيرة، تهتف بوهج يحتل عيناها ورآه لأول مرة:

- عندي ليك عرض كويس.

ضاقت نظراته وهو يعتدل بجذعه بعض الشيء عاقدًا ساعديه أمام صدره ينتظر منها المفيد، فتلك النفحة المفاجئة من اللباقة مؤكد يعقبها المفيد، غمغم بصوت أجش:



- اتفضلي.

سحبت شهيقًا قصيرًا ثم هتفت له بإبتسامة عملية تلك المرة:

- أنا هرجع أشتري منك الأسهم بنفس السعر زائد نسبة أرباح تلات شهور، وبكده هتخرج بمكسب حلو ده غير أنك مش مضطر تستنى مراد عشان تكمل في إتفاق سخيف زي ده.

- إتفاق؟

عقب مستفهمًا فعاجلته بالجواب في تملق وبعض الحدة فقدت عليه السيطرة:

- مش حضرتك كنت متفق مع مراد أن وضع الشراكة مؤقت؟



حك ذقنه الحليقة لثوان بدت لها كتفكير سليم حتى همس بعد حين أمام وجهها بإستخفاف لم يصلها:

- لأ عرض مغري فعلًا.

تهللت أساريرها بسعادة لم تفلح في إخفائها:

- مغري جداً جداً.. تحب المحامي يجهز العقود أمتى؟

مط شفتيه في تفكير دمدم بعدها في جدية:

- والله أنا فلوسي جاهزة في أي وقت.

- فلوسك!

هتفت بغباء فتبسم لها في مرح مصطنع وهو يتشدق قائلًا بدوره:



- ما ده العرض بتاعي المغري أكتر، أيه رأيك أشتري أنا كله وبالسعر اللي تقولي عليه؟

ضاقت عيناها في استيعاب بما نطق وما إن حدث حتى ضربت بقبضتها المكورة فوق سطح المائدة الزجاجية وتهدر بهسيس ينذر بشر:

- أنت بتستظرف صح؟

مال بجذعه أكثر حتى لامس ذقنها في حركة خاطفة بواسطة أنامله ورأسه تتحرك أسفًا بالنفي بينما شفاهه تحركت بتلكؤ سمج:

- تؤ، ده جد الجد يا آنسة غنى كارم.

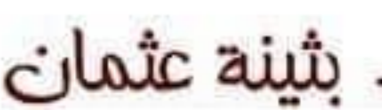


زفرت في قنوط وهي تحاول التشبث بآخر إطار للصبر كي لا تفقد ما تبقى من تحضرها وتضرب برأسه في أقرب حائط:

- طيب اسمعني يا سيد مهند المكان اللي أنتَ طمعان فيه ده بتاع والدي لو مش واخد بالك يعني، وأنا مش ناوية أتنازل عنه فياريت حضرتك تفكر كويس في كلامي، قلت إيه؟

- قلت مافيش أي إتفاق حصل بيني وبين مراد، ده بيع وشراء تم بعقود سليمة تقدري تراجعيها بنفسك؛ ده أولاً.. ثانيًا بقى بما أن عرضك مرفوض تماماً من ناحيتي، دورك تفكري كويس في عرضي.

- والحل؟



سألت من بين ضروسها في حنق و تجاهل تام لعرضه المستخف ليأتيها الجواب المتوقع بكفين مفتوحين وابتسامة أقرب للسماجة:

- يبقى الوضع كما هو عليه وعلى المتضرر اللجوء للقضاء.

حدجته بنظرة غاضبة نهض على أثرها، يدس بكفيه داخل جيوب سرواله، يرمقها من عليائه لثوان قليلة تفحص فيها شرودها اللذيذ حتى قال أخيراً بهدوء لا يناسب اللحظة:

- عندنا عشاء عمل النهاردة مع الوفد الأجنبي، الساعة تسعة بالظبط تكوني موجودة في الأوتيل، وياريت ماتنسيش أن دقة المواعيد مطلوبة في شغلنا.



كان هذا دورها لترفع حاجبيها في استنكار واستهجان لما يقول، هل يملي عليها الأوامر ذلك المتحذلق!

- أنت إزاي تكل...

- وياريت كمان تلبسي حاجة مناسبة، بلاش جو الجينز وديل الحصان ده ليفكروني واخد معايا بنت أختي!

قاطعها بإشارة من كفه ليلقي كلماته اللآذعة بنبرة جادة لا تبدي أي هزل، وما إن انتهى حتى استدار واختفى من أمامها بذات الهدوء البغيض تاركًا إياها صاغرةً بفك مدلى في صدمة!



في المساء؛ حول طاولة مستديرة بشرشف نبيذي كانت تجالس أربع رجال وامرأة، لا تعرف منهم سوى شريكها البغيض، الكريه الذي يتحدث الفرنسية بطلاقة جذابة، يقدم ويفند برنامجهم السياحي المميز بحنكة نال على أثرها رضا الحضور بينما هي لم تلقي غير عبارات ترحيبية في بداية الأمسية ليستلم سيادته من بعدها دفة الحديث.

شعرت بالحنق يضرب نافوخها وهي ترى ضحكاته الصاخبة تصدح وتندمج مع البقية دونها، يبرم الصفقة وينهي اتفاقية مكتفيا بالرجوع لها كل حين بنظرة! وكأن هذا الخبيث يتعمد وضعها في قالب الجهل!



نفخت بضيق، تقر لحالها أنها بالفعل مازالت جاهلة بالكثير، بحر العمل واسع وهي بالكاد تعافر حتى تثبت أقدامها.. عند هذه النقطة قررت أن تخوض معركتها الخاصة بإبتسامة جذابة وبضع أحاديث تناقلتها بين الحضور حتى تكسر صمتها الذي طال وتعبر عن وجودها ودورها بما تملك، المهم لا تترك مكانها خاليا، ستكمل ما بدأت وستكون ذات يوم ماتتمنى وأكثر..

مرت الليلة سريعًا وغادر الضيوف، كان يستعد للمغادره بدوره حين فاجئته بهسيس كلماتها:



- لما يكون في مقابلة مهمة زي دي المفروض يكون عندي خبر بكل تفاصيلها مش حضرتك تستلم الليلة كأنك صاحب الأمر!

رسم إمارات التعجب:

- هو أستاذ شوقي مبلغش سيادة المدير العام بالتفاصيل المهمة دي.. معقولة؟!

بعصبية طفيفه:

- مالكش دعوة بأستاذ شوقي.. أنا بكلمك أنت. طول ما إحنا بنتنيل نشتغل مع بعض مينفعش الموقف ده يتكرر.. مفهوم؟

عض فوق شفته السفلى بحنق واضح ثم حرر أنفاسه الساخنة على مهل، يستدعي كل صبر



العالم بينما ينهض عن مقعده، يميل بجذعه إليها ويهمس جوار أذنها قبل رحيل:

- طول ما تصرفاتك عيالي كده معتقدش هنتفق..

واستدار تاركًا إياها بوجه شاحب، لكن مالبث أن استدار حتى عاد لها بذات الوضعية السابقة، يمر بصره فوق ثوبها المورد بجاذبية خطفته منذ لمحها ويغمغم بجدية لاتناسب فحوى كلماته:

- ذوقك في الفساتين حلو على فكرة.

تجزم أنه أطلق ضحكة صغيرة يتعمد بها إثارة غيظها قبل ما يرحل ويتركها وحيدة حول الطاولة الكبيرة!



عند البوابة الرئيسية للفندق كان مازال واقفا في انتظار السائس يأتي له بالسيارة خاصته، طرق خطواتها المغتاظة سبق جسدها الذي قابله وسبابتها التي ارتفعت لوجهه والتي سيقطعها لها يومًا دون شك:

- آخر مرة تكلمني بالأسلوب ده وعلى فكرة أنا تصرفاتي مش عيالي بس أنت.. أنت.. مستفز!

وخرجت التتمة بأوداج منتفخه أجبرته على الضحك رغمًا عنه.

***

يا كثر ما صدقوا حين قالوا أن الأب هو من يربي ويرعى، فقد كان لها نعم الأب والسند ولكم عانى



في آخر أيامه، ليتها تصدق أن رجل مثله يملك خطيئة بحقٍ ويخشاها كل ذلك!

تململت في جلستها تميل برأسها المتشنج إلى الخلف، فمنذ ساعات وهي على ذات الوضعية في منتصف فراشها يعلو ركبتيها حاسوبها النقال، حتى ساعات الراحة تهبها للعمل المتأخر وليته يعود بفائدة.. منذ عام على وجه الدقة والحال في تدهور مستمر، وكأن بإنتكاس أبيها ومرضه انتكس اسمهم في السوق فما عاد لهم ذات السيط القديم.. تحتاج إلى كم هائل من طاقات التحمل والتحفيز حتى تتمكن من المثابرة، وحتى تحقق وصية أبيها التي ألقى بثقلها فوق عاتقها، فذلك المال لم يعد يخصها



وشقيقها وحدهما بل أصبح هناك إثنان آخران يشاركانهما فيه..

همست لحالها تشد من أزرها رغمًا عنها:

- قدها ماتقلقيش.

- قدها ونص يا سوسو.

هتف بها شقيقها من عند الباب الذي يحتل إطاره بوجه بشوش سرعان ما انعكس عليها لتطرد عبوس وجهها لآخر مبتسم:

- تعالى يا أنوس.. ماما جات؟

تقدم ناحيتها مجيبًا في تكاسل:

- ماما هتبات عند خالتو لسه قافل معاها.

- كويس خليها تغير جو.



قالتها وهي تعود برأسها للشاشة المضيئة ليقاطعها بنداء:

- ميسون..

رفعت رأسها تلبي ندائه بهزة رأس مستفهمة، تابع وأنامله تفلل خصلاته في تردد:

- عايز فلوس.

تلاقى جفنيها لجزء من الثانية، عادت بعدها تهتف بشيء من الحدة:

- أنت عارف وأخد كام الأسبوع ده؟

- وخلصوا أعمل إيه يعني!

قالها بتأفف لتهتف بدورها:



- يا سلام! ماتلم إيدك شوية وتقدر الوضع الهباب اللي احنا فيه.

نفخ في سأم واستدار ينوي مغادرة بنبرة ضائقة:

- خلاص مش عايز منك حاجة.

- أنس!

أوقفت خطواته فاستدار دون رد لتزفر وتغمغم في قلة حيلة:

- شوف عايز كام وخد بس الله يكرمك حاول تمسك إيدك شوية.. مش كدة يعني!

تهللت أساريره وهو يقترب بسرعة صاروخية يقبل وجنتها بقوة مغمغمًا في جذل:

- يخليكي ليا يا أحلى سوسو.



- استنى لسة في شرط!

أبعدته بنبرة جادة فعاد يتململ في ضجر:

- يييي قولي وخلصيني.

- هتيجي معايا نزور حسن بعد مايخرج من المستشفى.

أغمض عين وترك الأخرى وصمت لثوان معدودة، أعقبها:

- بصراحة مش فاهم إصرارك بس تمام يعني طالما عايزة كده.

تنهدت في قلة حيلة وهي تعيد عليه ما يتجاهله عن عمد ويتخطاه كما تخطى حزنه في وقت قياسي:



- لأ، ده كان طلب بابا وحضرتك وعدته تتواصل معاهم بس طلع كله كلام فض مجالس.

كان التنهيد دوره تلك المرة وهو يجلس فوق الفراش ثم مال على جانبه يبادلها النظر لثوان هتف بعدها في جدية:

- مش هكدب عليكِ بس حوار أخواتك مش أخواتك ده لسه مش عارف أبلعه أزاي..

ثم إستطرد بمزاح المستغرب:

- حاجة عفاريتي كده مش مستوعبها.

همست له بنبرة عقلانية:

- طبيعي لأنك لسه ماتعرفهمش، كل ده هيتغير لما تقرب منهم وتعرفهم.



نهض من جديد ليضمها تلك المرة ويهتف بنبرة مشاغبة مستعجلة:

- سيبك.. أنا بحبك لما تديني فلوس من وراء ماما.

زادت على ضمه قبل ما تضربه فوق كتفه:

- عادي يعني، طول عمرك بتاع مصلحتك.

عبث بخصلات شعرها المعصوقه قبل ما يتركها ليأخذ ما يريد من الجارور المجاور ويخرج راضيًا فتصله نبرتها العالية:

- خد بالك من نفسك وما تتأخرش.



وصلتها همهمة بعيدة قبل ما يتبعها صوت الباب لتهز رأسها يائسة وتعود تنكفأ على حالها من جديد.

***

ست أسابيع مضت عليه ببطء قاتل بين جدران المشفى، قضى فترته العلآجية وغادر على وعد بإستكمالها في المنزل، كانت تلك الفترة بمثابة حبس إضافي نال منه ما نال، لكن تلك المرة يكف أنه غادر بصحة أفضل، لأول مرة منذ سنوات يستشعر بروح الحياة تسري في عروقه.

ليلة الأمس خرج من المشفى برفقة سماح على شقته التي وهبها له أبيه كجزء من ميراثه.

مسكن فاخر لا ينقصه عود ومنصب مرموق

ينتظره في ملكه ما إن يتماثل لتمام الشفاء، ربما فعل كل هذا كتعويض عما ألصق بأمه من تهم وثمنا لبيعه لهم منذ الصغر وحتى الكبر، على كل حال أيًا كانت نواياه هو قبل منه كل ما أعطى وانتهى الأمر.. وهل كان من العقل أن يرفض كل هذا!

بات ليلته يتقلب فوق جمر متقد، بل هو يحيا على جمر متقد منذ أن علم بأمر القضية التي رفعتها عليه زوجته.

تظن بفعلتها الحمقاء تلك ستتخلص منه، لا بأس فلتعبث كما يحلو لها وليعبث بدوره فليس هو من يقف صاغرًا حتى تنتهي..



التهم ماتبقي من درجات في خطوة واحدة وتقدم بخطى لا تقبل التهاون حتى قابله الفراغ يحيط بالمكان، وقف لوهلة يراقب المكان بنظرات باهتة لا تمت للحياة بصلة، كم كانت له صولات وجولات فوق هذه الأرض وخلف ذلك الباب الموصد، لينتهي به الحال يستشعر حاله كغريب لاينتمي لذلك كله ولا بأي صلة، فمنذ أن سقط فوق تلك البقعة وأصبح هذا المكان لا يلائمه..

تقدم حتى أراح كفيه فوق السور العريض، كانت تلك بقعته الأثيرة حين تتزاحم في رأسه الأفكار وتتناحر، يتمدد هنا بجسده دون رهبة من سقوط يهشم عظامه أو خوف يتلبسه، مرر أنامله فوق الحجارة الخشنة فسرى فيه شيء



من رهبة، وكأن ذلك المقدام بداخله تحول لكهل، كهل كبله العجز قبل المرض..

ماذا تفعل هنا ياحسن؟

عما تبحث!

لم لا تمنحها حريتها التي تريد ويكفي ما طالته من تحت رأسك؟!

وقع أقدام متوقفة على بعد خطوات من خلفه هي ما انتشلته من شروده البعيد، استدار ببطء يواجه عينيها المصدومة، شعر بأنفاسه تتحشرج بحلقه بينما تلك المضغة الغبية الساكنة بين ضلوعه كانت تنازع الرتم المعتاد بسرعة جديدة عليها، يشعر بشيء ما بداخله مبتهج فقط لكونه



يرى صورتها التي سكنت خياله منذ أسابيع يجسدها الواقع، اللعنة على هكذا شعور خانق!

- جاي ليه؟!

صرخت بها فعليا، بحنق وغضب يراه الأعمى، كيف لا تفعل وكل شيء يرفض انفصامها عن هذا الواقف قبالتها.. القضية خاصتها منذ أكثر من شهر وهي على حالها، لا جديد، هكذا أخبرها المحامي قبل وقت قصير، وحقا لم يكن ينقصها سوى رؤية هذا المخادع ليجعل شياطين الأنس والجن تتقافز أمامها.

- جاي أشوفك.



اقتنصت بسمته الساخرة بنظرة ساخطة.. ماذا يريد بعد؟ متى يتركها تعيش حياتها دون منغصات، يكفيها حياة روتينية مملة لا تريد أكثر من ذلك.. وجدته يقترب دون مقدمات، كفيه داخل جيوب سرواله ويهتف بنبرته الباردة..

الآمرة:

- لمي حاجتك.. هتيجي معايا.

ارتد رأسها للوراء بغتةً، تتطلع لقسمات وجهه الباردة وتقول في بغض صريح:

- مش هروح أي مكان أنت فيه، وقريب قوي مش هيبقى في أي حاجة تجمعنا.. أبدًا!



قلص مابينهما من مسافة في خطوة واحدة، يجذب جسدها إليه بينما أصابعه تزيد من ضغطها فوق ذراعيها، وصلتها حروفه بغضب مكبوت وكل الويل لو قررت تفجيره:

- نجوم السما أقرب لك من الجنان اللي في دماغك!

اقتربت تصد كلماته بأنامل جعدت قماش قميصه دون شعور وصوتها يعلو في انفعال منقطع النظير:

- مش هتخوفني.. وبردو هخلعك!

أطلق ضحكة ساخرة.. تتحداها:

- ولحد ما ده يحصل هتفضلي معايا.



- مش بمزاجك!

صرخت بقوة لينهرها بنبرة عنيفة أكثر سطوة:

- بمزاجي يانسمة.. والقضية بتاعتك بليها واشربي ميتها.

يقطر من نبرتها الكراهية وهي تصرخ بدورها:

- القضية هكمل فيها لآخر نفس، هعمل أي حاجة ممكن تتخيلها عشان أخلص منك.. أنا بكرهك، بكره اليوم والساعة اللي عرفتك فيهم!

كانت تلهث وصوتها يتهدج بمرارة بينما أنفاسه المتعسره تنحره قبل ماتفارق جسده، ظل للحظات يراقب نبرتها وملامحها التي تقطر بالكراهية وتفيض، كان الأمر أشبه بقبضة من



صقيع لكمة معدته.. ارتخت أصابعه عن ذراعيها فجأة، نهى ذلك الصراع بنبرة قاسية، جليدية اقتصها من شعوره الحالي:

- المحامي بتاعك أخد اللي فيه النصيب عشان قضيتك ماتوصلش للمحكمة والأوضة دي من الليلة عقد إيجارها ملغي.

نجح في رد الصفعة وبجدارة، كانت تتطلع إليه بنظرات ميته، لاحياة فيها أو شعور، فقط همس مذبوح فحواه كلمتين إثنتين:

- ربنا ياخدك.



غامت نظراته لجزء من الثانية قبل ما تتقد من جديد ويتقدم يسحبها من ذراعها بقوة كادت أن تسقطها عدة مرات قبل ما يقف أمام باب الغرفة ويأمرها بفظاظة:

- افتحي الباب.

لم تكن أقل غضبًا حينما هتفت وجسدها يتلوى تحت سطوة قبضته:

- سيبني في حالي بقى وكفاية فضايح!

- والله زمان يا أبوعلي!

وعلى ذكر الفضائح برزت تلك من العدم، التف رأسيهما ناحية الصوت القادم بينما تخلص نسمة ذراعها العالق من بين أصابعه بالقوة،



تضمه لصدرها في تحدٍ صامت أن يعاود لمسها، بينما هو استهل الحديث دون ترحيب حقيقي:

- أهلًا يا ست ميساء.

كانت قد اقتربت منهما حين لفظ جملته التي قابلتها بضحكة وقحة لا تليق بأنثى، تهتف مصححة بنبرة مائعة ويدها تحط بها فوق كتفه دون مراعاة لوضع تلك التي تجاورهما:

- ميمي يا أبوعلي.. ميمي.

مال طرف بصره ناحية زوجته التي كانت تراقبهما ويعتلي قسماتها ذلك القرف البغيض قبل ما يعود بكامل بصره لتلك اللعوب يرمقها بنظرة



باردة ونبرة أبرد بينما يزيح بذراعها عن مرماه ليسقط جوارها:

- أنا كلمت الحاج فاروق وبلغته إني هسيب الأوضة الليلة، وكنت ناوي أعدي عليه وأنا نازل أطمن عليه.

ضحكت بخلاعة تلك المرة، ضحكة ذكرته بالأيام الخوالي وهي تهتف بخبث:

- ياريت؛ ده تعبان قوي يا حسن.

ارتفع حاجبيه في ذهول يوازيه شهقة نسمة المستنكرة وقد شقت السكون الذي ساد للحظات قبل أن تستدير عنهما، تبحث عن مفتاحها في تعثر علها تنأى بحالها عن تلك



القذارة التي تحدث دون ذرة حياء بينما نبرة زوجها الفظة كانت تخترق مسامعها:

- واما هو تعبان سايباه لوحده ليه!

- حبيت أقولك حمدالله على السلامة ده حق الجيرة والعشرة.. واخد لي بالك أنت من العشرة.

أطلق العنان لضحكته تلك المرة، كانت أجشة مثيرة لخلايا صاحبة الأيام الخوالي بينما منفرة لزوجته التي استدارت من جديد رغم احتقان اوداجها وسخونتها الرهيبة، تستحضر شيئا من لطف وقد تذكرت بأي مأزق سقطت:

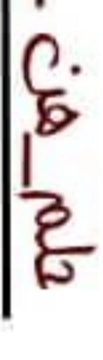
- مدام ميساء أنا عاوزه عقد جديد باسمي وبالسعر اللي تحدديه مش هنختلف!



قطبت ميساء حاجبيها في استغراب حتى جاءتها نظرة حسن تحذرها القبول ، رقصت طربا بداخلها وهي ترى تلك الحرب الشعواء القائمة بينهما وتكاد نظراتهم لبعضهما تقتلهما معا.. ورغم حلاوة العرض لاتجد سبيل غير طاعة الجار حتى يصون العشرة ويبقيها أسفل درك الماضي:

- ماكنش اتعز ياحبيبتي، بس الأوضة راحت لصاحب النصيب خلاص.

- نعم!.. أنتِ بتستهبلي ياست أنت؟!ِ أنا مش هسيب الأوضة وكلامي هيكون مع الحاج فاروق بعد إذنك!





كانت شهقة ميساء تلك المرة هي المستنكرة بسخرية:

- كان على عيني بس الحاج بعافية حبتين والدكتور مانع عنه الزيارة.

واستطردت بكف ملوح وشفاه متبرمة:

- فضي الأوضة وسكتك خضرة ياعينيا، الزبون الجديد جاي من بكره بدري عشان يستلمها.

واستدارت تغادرهما بمصمصة شفاه وقرقعة حذاء، تاركة إياه من خلفها يراقب نسمة الجامدة إلا من أنفاسها التي تتحشرج بحرارة نتيجة وجهها المحتقن، ضاق صدره لهيئتها تلك، كانت عيناها غائمة بوجع، تتراقص فيهما عبرات



القهر.. لو كان الأمر بيده لكان أخذ بيدها وأغلق من خلفهما هذا الباب، فأكثر أمانيه في هاته اللحظة هو فراش يجمعه بامرأة الدافئة، امرأة قادرة على إذابة جليد روحه المتراكم منذ سنوات، وحدها تروي ظمأ عروقه وتجبر فيه ما أتلفه الزمان.. جحظ بعيناه بغتة متعجبا من سير أفكاره الغير إرادي!

اللعنة أي لوثة أصابة عقله!

أي احتياج هذا يجتاحه!!

- لمي الحاجة واخلصي.. مستنيكِ بره.





قالها بجمود رفعت له وجهها المحتقن، ترميه بشر النظرات وقد عجز لسانها عن التعبير المناسب فظل يتعثر بهسيس مشتعل:

- أنت.. أنت..

رفع كفه يقاطعها، يوقف ساحة الجدال وقد بلغ منه الضيق مبلغه، ينهي الأمر بوعيد هو أهلاً له:

- ده لو مش عايزة فضايح أكتر من كده، يعني مثلًا تخيلي شكلك قدام زمايلك في الكلية لما يعرفوا أنك متجوزة من.. سوابق؟!

كيف ينجح كل مرة في قتل الشعور بذات السكين الثالم!

يفعلها؟!



نعم يفعلها بكل قلب أعوج لم يعرف من قبل إستقامة..

تناوب فوق لسانها كل العبارات النابية التي تعرفها أو سمعتها من قبل، تود أن ترميهم كلهم في وجهه إلا أنها لم تجد فوق لسانها غير ذاك الهمس الميت، الفاقد لكل تعابير الحياة.. وللمرة الثانية على التوالي:

- ربنا ياخدك.



(٢١)

تروي الأسطورة الأرجنتينية أنه قد خُلق يومًا بشكلٍ خاطيءٍ من قبل الحياة رجل أحب امرأة واحدة ولم يشتهِ سواها حتى مات..

وقد رفعته الآلهة في الأسطورة لتتباحث عن مصدر هذا العيب الخلقي الذي عانى منه هذا الرجل..

ومنذ ذلك الحين تجتمع النسوة في عيد الوفاء موافقًا ذكرى مولده ليقمن الذبائح ويقدمن القرابين للسماء لكي تقذف روحه يومًا في زوج إحداهن!



شهر ونصف الشهر وهي على ذات الوضعية حبيسة غرفتها، من خلف زجاج النافذة تحتل مقعد هزاز كان أثيرها قبل الزواج، تراقب بزوغ الفجر وتودع غروب الشمس بروح خامدة..

فقدت جنينها..

هكذا ببساطة في ذات اللحظة التي تأكدت فيها من وجوده أخبرها الطبيب بفقدانه، وبدلًا من فرحتها بقدومه أخذت تستقبل كلمات المواساة وكأن ببضع كلمات سوف تهون وطأة الوجيعة..

وجيعة فقدانه على يد أبيه!



تلك هي الحقيقة التي لا تعترف بسواها، وكان عقلها يبحث عن إجابة واضحة طيلة تلك الأيام..

لماذا؟

صحيح أنها لم تكن شغوفه بالأطفال يوما لكنها لا تكره أن تكون أمًا!

نعم لم تسعَ للأمر ظنًا منها أن هناك في الوقت متسع لكنها ماكانت لتحزن لقدومه أبدًا..

ومن المؤكد أنها كانت تتمنى أن تحمل في أحشائها روح منه، منه هو حبيبها وزوجها..

إذن بأي أحقية يمنع عنها هذا كله؟

بل لماذا يفعل!

أغمضت عينيها تعتصر جفنيها بقوة ولا قطرة واحدة، جف ينبوع الدمعات قهرًا وكمدًا على قلب ذبل وخفت وهج شغفه.

تعالي الدقات المتباطئة فوق الباب أجفلتها لثوان، بسرعة كانت تستعيد أنفاسها الهاربة، وصل أخيرًا بعد طلب منها في رؤيته.. فعقب ماحدث في المشفى وشاء الله أن يكشف سره حين أخبرها الطبيب مستغربًا وهو يحمل بين كفيه نتائج تحاليل وفحوصات خاصة طلبها بعد أيام من إجهاض، متسائلًا بشك إن كانت تتناول أي من الحبوب المانعة للحمل في فترة قريبة، تشتت ذهنها في لحظتها فهي لاتتذكر أنها لجأت لذلك يومًا وحين أوشكت على اعتراض كان



صوته الهادىء يسبقها مؤكداً حقيقة ما أخبر به الطبيب!

وحينما سألته مستنكرة؛ أطرق برأسه يدلي بجرمه..

يدس لها العقار في المشروب وتتناوله هي جهلًا، ولم يأتِ في خاطره أنه قد يحدث الأمر لأجل نسيان بضع مرات وهو مستمر في فعلته هذه حتى حدث ماحدث وكانت القاصمة. من يومها غادرت المشفى عائدة إلى بيت أبيها بقلب كسير.

ابتلعت لعابها العسير وهي تهمس بصوت قد بح دون حديث:

- اتفضل.



وقع أقدامه التي تحفظها عن ظهر قلب كانت تدهس روحها كلما اقترب حتى وقف إلى جوارها، حط بكفه فوق كتفها، يهمس بأسمها ويسألها دون حديث عن نفحة من غفران:

- شهد..

استغرقت دقائق تستعذب اسمها من بين شفاهه حتى سالت دمعتاها بطول وجنتها، رفعت وجهها يقابل وجهه القريب ورغم علامات الأسى التي تحتل ملامحه بوضوح ما كان منها إلا ان تسأله.. هي تبغي جواب واضح قبل السقوط من أعلى هاوية الجنون:

- ليه؟



وأبى صوتها أن يخرج بأحرف أكثر إلا أن الثلاث السابقة كانت أكثر من كافية ليدرك رغبتها، ربما التوقيت مناسب لإختلاق أكاذيب أو تجميل بعض الحقائق بزيف الحديث، كان ليفعل هذا لأجل هذه المسكينة التي لم تجد من وراء عشقه غير الخديعة والهوان لكن في الحقيقة هو مل إنقسام بين مشاعر وأفعال، بين ما يتمنى وما يجب عليه أن يكون.. فليخع عنه ثوب المثالية الكاذب ويحطم قالب الإستقامة المزيف، ليجهر مرة واحدة بما يشعر، ليصرح عن رغباته دون مراعاة لصورة إجتماعية تفرض عليه كيف يكون..



ليفند أخطاءه وسقطاته أمام الجميع دون خشية..

ليبرز نقصه ويكف عن إدعاء الكمال!

هبط لمستواها وبصره يدور في نقاط وهمية،

يهرب من لقاء عينيها المعذبة في محراب عشقه،

فهو على وشك تهشيم قلب امرأة كل ذنبها أنها أحبته:

- حبيبتها..

واستطرد بأحرف مثقلة:

- ظهرت في حياتي فجأة، قلبتها.. مع الوقت لقتني بحبها.



غصت بشهقة بكاء وهي ترفع كفها تكبحها قسراً وعينيها تتطلع إليه في صدمة متوقعه من خلف ساتر الدموع:

- اتجوزتني ليه؟

- عشانماينفعش أسيبك وأنتِ كنتِ على ذمتي!

- قصدك ماينفعش نديم نصار يظهر بمظهر الندل!

جاءه ردها يلاحق دفاعه الأقبح من ذنب، ثم استطردت بحقيقة أقرتها لنفسها قبلًا منه:

- أنت أناني يا نديم، أناني وندل.

لم ترحم إهتزاز حدقتيه وهي تزيد بمرارة وقسوة:

- أناني لدرجة قتلت ابنك!



طفر من عينيه بعضًا من ندم وهو يميل برأسه فوق كفها يلثم ظاهره بقوة ويهمس بأسفه في صعوبة:

- عارف أني أذيتك جامد وظلمتك معايا كتير.. ماكنتش عايز أجيب طفل وأظلمه معايا هو كمان، بس والله العظيم ماكنت أعرف أن ده ممكن يحصل، لو كنت أعرف بوجوده كان مستحل أفكر أأذيه!

إهتز جسدها الضعيف وبصرها يحيطه كله بنظرة بينما لسانها يهذي بعذاب:

- كان صعب تحبني ياانديم؟!



ظل يبحث عن جواب تتمناه وعيناه تلتهم تفاصيلها المتألمة.. قد تظن فيه الجنون لكنه يحبها بحق، كصديقه وقريبة عرفها منذ الصغر، فتش بقلبه عن شيء آخر.. فلم يجد!

كان صمته أكثر من كافٍ لتحرر كلمة أخيرة تشبه طعن الروح:

- طلقني.

امعن النظر فهاله ما رأى.. ماذا فعل بها!

أين تلك الصبية التي كبرت أمام عيناه وهي تشع حياة وصخب ينعكس على رقة وجمال ملامحها، أين تلك التي كانت تفيض له عشقًا بكل نظرة، همسة ولمسة..





أين راحت لتغدو بذلك الذبول دون وهج و روح..

نادم هو..

والله نادم على كل ما إقترفت يداه، نادم على وجعها الذي يراه معكوس في هاته اللحظة من خلف مرآة روحها..

كيف يخبرها أنه يحبها، يحبها بطريقتة الخاصة، من الجحود أن يتجرد قلبه من مشاعر تخصها.. قلبه الذي خفت شغفه على مر السنوات فلم يبقى له سوى خواء كبير تزيده شهد برحيلها.

هز رأسه رفضا لهذي كلامها، يضم يديها بين كفيه ويتوسلها باسمها أن تمنحه الغفران بكل ظلم اقترفه في حقها، ولم يقدر على أكثر من هذا،



هربت عيناه من جديد إلا أنها كانت أكثر ثبات حين خلصت يديها من بين أصابعه وإبتعدت ببصرها عنه، تكرر الطلب بإصرار وصلابة تنافي إنهيارها السابق:

- طلقني يانديم.

ظل للحظات يراقب فيها جانب وجهها ودمعاتها المنسابة دون إرادة منها وقد اخبرته نبرتها أنها النهاية ولا مجال للتفاوض.. نهض بعد حين بجسد مثقل، مال بجذعه وشفاهه تطبق فوق خصلاتها، يلثم أعلى رأسها بقبلة طويلة ثم أطلق سراحها بكلمات:

- أنتِ طالق يا شهد.



وازى سرعة خطواته الراحلة تلاقي جفنيها المتألم مع إنحدار دمعات جديدة، فهنا في هاته اللحظة كتبت النهاية لحكاية منقوصة لم يكتب لها الكمال.

***

داخل أحد الأروقة الطويلة الخاصة بالجامعة كانت تسير بهدوئها المعتاد، هدوء مناف لخوفها حين وقفت أول مرة أمام عدد كبير من الطلاب كأستاذة ذات قدر وشأن، فمنذ تم قبولها كمعيدة جامعية وهي تشعر بشيء من الرضا والسعادة الخفيه، أسلوبها السلس الرقيق جعل علاقتها مع الجميع مرنه لا تخلو من الإحترام



والمحبة الخالصة، إحترام ومحبة طالتهم من الغرباء ولم تجدهم بين كنف أقرب الأقربين..

تنفست بعمق تطرد هموم العودة، فعلى الأقل هي نجحت في نصف حياتها العملي وليبقى النصف الآخر على خرابه، ومع ذلك لديها يقين أن تلك المهزلة سوف تنتهي يومًا، ربما حين تجد محام غير مرتش يخلصها منه أم عله يزهدها ويطلق سراحها من تلقاء نفسه، في النهاية كل شيء سيمضي ويكون على مايرام إلا أنها لن تسمح له أن يحط من قدرها، يخرب نجاحها ويتلف نظرة الآخرين لها مهما كان الثمن.

وصلت البيت لتجد سماح كحال كل يوم تزم رأسها بوشاح صغير وتنكفأ على حالها تنظف

وترتب وكأن لا شيء يشغل بالها إلا ذرات التراب اللعينة وإعداد أصناف من الطعام!

تجاوزتها في صمت تتخذه منذ أن جاءت معه قسرًا لتستكين بعدها بإرادتها الحره، باتت تعلم أن مخالفته والوقوف له بالند لن يفلح مهما حاولت..

وكأنما خيالها استدعاه فظهر لها من العدم يقطع طريقها ويقف قبالتها كطود عظيم لا يهتز، وكالعادة نبرته لم تكن أقل أمرا وفظاظة:

- ماتنزليش الشغل النهاردة..

وأردف بفك تدلى ساخرًا:

- في ضيوف جايين.



صحيح أنها فشلت أن تكون له ندا لكن ذلك لا يعني أن تخضع وتخنع لأوامره الفذه، فزمن الخنوع ولى..

رفعت له عينيها في تحدٍ وثبات:

- وأنا مالي بضيوفك!

إقترب بوجهه يزمجر أمامها بوعيد مبطن:

- أنا قلت اللي عندي.

رمقته بإستهانه مقصودة قبل ما تتجاوزه بكلمات حادة:

- وأنا قلت ماليش دعوة بأي حاجة تخصك.

جذب معصمها فجأة يوقف خطاها فترنحت، بل كادت أن تسقط وهي تصرخ في الحال:



- سيب إيدي وبطل إستفزاز!

كانت تلهث وقد إنتفخت أوداجها في نوبة غضب لا تفارقها كلما إجتمعت وإياه، ظل يرمقها بحده صامتة حتى جاءت سماح تهرول، تحشر نفسها بينهما حتى تنهي إشتباك آخر من سلسلة إشتباكات لا تنتهي..

صاحت فيه بقوة آمرة:

- سيب دراعها يا حسن.

حدجها بسخط قبل ما ينفض ذراعها عن مرمى أصابعه موجها حديثه لأخته، قائلًا بجفاء منهيا الحوار:

- لو نزلت ليلتها مش هتعدي.



وتحرك عنهم إلى غرفته التي يحتلها منذ خروجه من المشفى صافقا من خلفه الباب بقوة إلا أن صراخ نسمة إخترق كل الأبواب حتى وصل مسامعه:

- عايز مني أيه يا مجنون أنت!

ما إن رمت جملتها الغاضبة حتى فتح الباب، يرمقها شذرا وينشب أصابعه في باطن كفه كلا يتهور ويدق عنقها في الحال بينما أسنانه تضغط فوق شفته السفلى في غضب، يكبح لجام لسانه عن لفظ ما لا يصح النطق به وهي لاتتزحزح من خلف كتف سماح بل تجابه نظرته بأخرى حتى عاد وصفق الباب في وجهها من جديد.



انتفضت إلى غرفتها مبتعده عن مرمى سماح التي لاحقتها بالكلمات:

- عشان خاطري يا نسمة ماتزعليش.

كانت أصابعها تتعارك في فض حجابها بينما صورتها المعكوسة في المرآة قبالتها تظهرلأي مدى هي مشتعلة:

- أسكتِ يا سماح أنتِ مش فاهمة ولا عارفة حاجة.

إقتربت منها حتى جاورتها، ترفع كفها بالخرقه المبللة تمسح عن إطار المرآة في تلكأ وقد شملتها عبرها في نظرة، هتفت بعدها في خبث مبطن:



- مين قال؟ ده أنا أكتر واحدة فاهمة أخويا وعارفه كويس قوي هو عايز أيه.

أطبقت نسمة عيناها تتوسل الصبر، فتلك وأخيها حتما ستصل بفضلهم إلى حافة الجنون، ملأت رئتيها بنفحة هواء كبيرة قبل ما ترفع كفها أمام وجهها في صرامة توازي الكلمات:

- شوفي يا سماح أنا قلت لك قبل كده وهقولها تاني وعاشر، أخوكي أنا هطلق منه، بمزاجه أو غصب عنه مش مهم، بس لحد ما ده يحصل ياريت تبطلي كلامك إللي مالوش أي لآزمه ده عشان بدأت أتضايق منك فعلا.



مصمصت سماح شفتيها بغير رضا وهي تشملها في نظرة أخرى قبل ما تبتعد خطوة قطعتها نبرة نسمة الجافية:

- صحيح.. أنا كلمت مدام مارجريت ومعندهاش مانع تبدأي شغل معانا.

تهللت أساريرها في لحظة، تستدير لها بسعادة:

- بجد!! ده أنا كنت هطق من قعدة البيت..

وأضافت سريعًا بجذل:

- ماتحرمش منك يا مرات أخويا ياغالية.

قالتها وهرولت للخارج قبل ما تطالها مقذوفة تطيح برأسها، وبالفعل صدحت صرخة قوية بأسمها ظلت تلاحقها بغضب مستعر حتى



ألجمته صاحبته حين صفقت بابها عليها كي تهدأ من وتيرة أنفاسها اللآهثة..

يا الله!..

أي شين فعلت لتكون تلك حياتها؟..

عادت ترتكز بكفيها فوق طاولة الزينة، تبادل حالها النظرات عبر الجسم العاكس..

ما بالها؟

لِمَ لا تخرج له الآن ولا تهدأ حتى يلقي عليها يمين الخلاص، أوتحمل حالها وترحل بعيدًا حتى يفقدها.. بأي حق يتحكم بحياتها؟.. بأي حق يجبرها لتعيش معه تحت سقف واحد!



نكست ببصرها لتجيب على نفسها بنفسها..لست مجبرة، لا داعي لذلك الإطار الدرامي المثير للشفقة، ربما تكرهين العيش معه بمكان واحد لكنك لست مجبره، عبرت باب بيته بقدميك أي بشيء من إرادتك في النهاية..

رفعت كفيها تغطي وجهها في تعب، رباه أي خبال ذاك الذي تحياه، ماذا تريد وإلى ماذا تسعى؛ ماعادت تعرف؟!.. كأنما ضلت السبيل فما عادت تدري أي باب تطرق ولا في أي طريق تمضي..

تبغي الحصول على محام جيد لكنها تبحث بهمة مزعزعه ليست تحمل من الإصرار شيء، تتعهد أنها سوف تتجاهله حتى لو وجه لها الحديث

لكن ما إن تراه حتى يتلبسها ألف شيطان وشيطان، تقول أنها ستتركه وتغادر وليضرب رأسه في كل حائط يقابله لكنها تعود وتخاف الفضائح منتظرة أن يزهدها من تلقاء نفسه..

ماذا تفعل وإلى من تلجأ؟

ماعادت تعرف ولا تدري في أمرها شيء!

وحينما كانت هي تخوض حربًا شعواء مع نفسها كان هو يفرك جبهته في إرهاق واضح، يعود جالسا فوق حافة الفراش وسؤالها الغاضب يقصف كل ذرة داخل كيانه..

" عايز مني أيه؟"



سؤال تكرر فوق لسانها عدة مرات إلا أنه يتلحف برداء الصمت في كل مرة تاركًا إياها تشتاط بغضبها فهو لا يملك جواب..

كاذب!

كان هذا صدى صوته الداخلي يقف له بالند عما يهرب منه..

تريدها بجانبك؛ وتلك هي الإجابة الصحيحة.

مال بجذعه مطرقا برأسه للأسفل محتجزًا إياها بين كفيه، كيف إنحدر هكذا نحو الهوة المحظورة وبسرعة فاقت البرق، حد فقدانه السيطرة على نظراته، فما إن تراها عيناه حتى تنحدر فوق قوامها تباعًا، تراقب كيف إكتسب



عودها النحيل منحنيات أنثوية فبات لا يشبه ماكان عليه في السابق، ولا يعلم هل أصابت سنون السجن عيناه بالعته فأصبح يرى كل مافيها جميل أم هي بالفعل تثيركل خلية يمتلكها؟!.. أما عينيها فهاتان لهما قصة أخرى لم يدري منذ متى وهو يعجبه خضارهم المتقد بغضب طيلة الوقت، وهل من الجنون أن يحب نسختها الجديدة تلك التي تتمرد على أي أمر يلقي به في وجهها ثم تمتثل له في النهاية بقلة حيلة، تجذبه بجنون هالة الثقة التي تمتلكها حين تخبره ببساطة أنها ستتخلص منه عما قريب فما يزيده ذلك إلا تشبثًا..

اللعنة عليه ماذا يفعل!



متى يتخلص من هلاوسه هاته ويحشر في رأسه شيء واحد بدلًا من تلك التفاهات:

أنه رجلٌ لا يصلح للحب..

ولا تليق به حكايا العشاق

***

قد تفرق السبل بين هذا وذاك لكن ذوات الدم الواحد كتبت لهم المشيئة قدر التلاقي حتى وأن رحل الأصل وغاب عن الحياة..

في تمام الثامنة مساءً كان أربعتهم يتقابلون في جلستهم، يتبادلون حديث رتيب عن الصحة وكيفية الحال والأحوال، سماح تقدم ضيافتها في زهو ووجه بشوش ثم تعود لتجلس جوار أنس



الذي رأته عدة مرات قليلة وقت مرض أبيها الأخير وكانت أكثر من كافية لتنشأ من ناحيتها حبل وصال:

- قلت لي دخلت كلية أيه؟

ضحك أنس بقوة وهو يدس بفمه قطعة كبيرة من الطبق القابع بحضنه:

- جورجيا يا سماح..

وضم كفه يضرب فوق صدره بفخر، متابعًا:

- بصي دي كلية مش بيدخلها غير العباقرة اللي زيي.



ورغم جهلها لمجال دراسته الذي أفصح عنه للتو إلا أنها كادت أن تكلل ملامحها بالفخر لكن جاءتها نبرة ميسون مدمرة لجبهته:

- متصدقهوش يا سماح ده بيشتغلك، اللي قدامك ده أكبر فاشل ممكن تقابليه.

- التشيزكيك تحفة يا سماح تسلم إيديك.

ضحكت سماح على تبديله لدفة الحوار بمرح معتاد:

- لأ أنا عملت أم علي إللي نسفتها من شوية، ده عمايل نسمة مرات حسن.

ضحك أنس وهو يرفع رأسه يلقي نظرة فوق تلك المعنية والتي تحتل ركن آخر داخل البهو الواسع



وتكاد أن ترديها نظرات زوجها التي تصيبها في الخفاء كل حين، إكتفت فقط بإلقاء تحية عابرة لتبتعد عنهم ليس بالكثير، تحتل مقعد آخر بالكاد تطاله الأنظار ويعتلي ساقيها حاسوبها النقال وتغرق في دوامة نقر لا تنتهي دونما تلتف لهم مرة واحدة.

- وأنت بقى يا حسن دارس أيه؟

قالها أنس ببساطة مخترقًا صمت حسن الذي يجالسهم بجسده فقط دون الإنخراط في أي حديث أو مشاركتهم المأكولات الطيبة التي تأتي بها سماح تباعاً في ترحيب حار خصتهم فيه.

والجواب خرج دون مرح.. ملول:

- ثانوية بنين.

تظاهر أنس بالضحك في محاولة لتلطيف الأجواء التي توترت فجأة، في حين كانت ميسون تزجر أخيها بعينيها على وقاحته. فبالرغم من كل تحذيراتها الكثيرة في عدم تدخله في أي شيء يخص حياته السابقة إلا أنه لا يرتاح حتى يكسر كلمتها.. التقط حسن نظراتها الزاجره فاستطرد بهدوء مزيلًا حاجز الحرج:

- سبيه عادي، حقه يتعرف على أخواته.

تبسمت ميسون في حرج عجزت عن مداراته بينما تخطت سماح الموقف ببساطتها المعهودة وهي تربت فوق صدرها أسوة بأنس:

- أنا بقى معايا دبلوم تجارة، حاجة كده مش بياخدها غير الفاشلين اللي زيي.

تبسمت لها ميسون وقهقه أنس في جذل:

- والله أنتِ سكر.

- الله يجبر بخاطرك.

قالتها وهي تعدل من ربطة وشاحها حول رأسها في خجل واضح من إطرائه البسيط مما جعله يهز رأسه ضاحكًا من جديد، بينما وجهت ميسون حديثها اللين إلى حسن الصامت:

- مش عيزاك تقلق من موضوع الشغل، كل حاجة صعبة في أولها بس هتيجي بالخبرة والممارسة وعامة أنا هكون معاك خطوة بخطوة.

تكفل بشبح إبتسامة بينما يردد:

- كنت بفكر أنزل خلال اليومين الجايين.



- طالما وضعك الصحي تمام المكان كله هينور بوجودك أكيد.

نهض أنس تاركاً إياهم يتبادلون بقية الحديث عن العمل وأموره اللآمتناهية، تحرك بخطوات وئيدة تحت أنظار حسن المتربصة حتى وصل عند نسمة فتنحنح وحياها بهدوء رافعًا كف متوجس:

- إزيك؟

رفعت رأسها ببطء عن شاشة الحاسوب، رمقته للحظات قبل ما تعود لوضعها السابق قائلة بخفوت:

- أهلًا.



احتل مقعد مجاور دون دعوة وهو يقاطعها من جديد:

- التشيز كيك تحفة، تسلم إيديك.

همهمت شاكرة دون حديث، رفع حاجبيه خائب الأمل وهو يهمس متسائلًا:

- أنتِ مش فاكراني؟!

أطلقت سراح تنهيدة وهي ترفع رأسها تلك المرة تمعن النظر فيه وتهتف بهدوء تام:

- وأنا هنسى أول سيكشن ليا وأنت داخل فيه تشقط عيني عينك.

حك مؤخرة رأسه في حرج:



- ماهو حضرتك قمتي بالواجب يا دكتور وطردتيني شر طردة.

- عشان تحترم نفسك بعد كده.

قالتها بإقتضاب خافت قابله بضحكة صغيرة وحاجب مرفوع في تحدٍ عابث:

- المرة الجاية هاجي عشان أشقط المعيدة ذات نفسها.

لم تستطع كبح طيف إبتسامة لاح فوق ثغرها وهي تحرك رأسها يائسه:

- أنتو كلكوا كده مش طبيعين!

مال أنس بجذعه بعض الشيء، راقبها عن كثب للحظات، سأل بعدها بخفوت جدي:



- طيب إحنا وعيلة مجانين في بعض أنتِ بقى؛ جيتي هنا إزاي؟!

تحفزت في جلسها بينما تضم حاسوبها لصدرها وتجيب في غباء مقصود:

- هنا يعني أيه؟

في تردد:

- يعني معيده شاطرة.. وجميلة.. تكون متجوزة، يعني أقصد..

وترك جملته معلقه دون تتمة ليصلها مقصده تمام الوصول، رفعت بصرها في الحين إلى ذلك المعني بالحديث المبطن ليصدمها بصره الراكز عليها بقوة وغضب قرأته في ملامحه، عادت



برأسها لأنس المترقب بفضول كاد أن يقتله وقد رسمت بسمة جذابة وهي تجيب حيرته:

- شكرًا يا أنس ده لطف منك بس أفضل الحوار بينا مايتعداش حدود الجامعة.. عن إذنك.

ونهضت تغادره بهدوء زاد من حيرته وفضوله، لتنتهي زيارتهم بعدها على وعد قريب بأخرى.

لملمت سماح الأكواب والأطباق تاركه إياهم داخل حوض المطبخ لحين تنتهي من تنظيف المكان بالأول، أطفأت المكنسة الكهربائية حين لاحظت وقفته المتصلبة التي طالت عند النافذة العريضة.. وقفت خلفه ومست كتفه متوجسة:

- في حاجة يا حسن؟



أجفل من لمستها ثم دمدم بحنق شاب نبرته:

- مافيش.

قالها باقتضاب وضيق لتغمغم بإبتسامة عريضة:

- شفت أنس!.. جميل مش كده، وميسون أخته كمان تقول عليها بنت ناس بحق من كتر ماهي مؤدبة.

هتف بفظاظة:

- مش ناوية تبطلي أسلوبك ده مع اللي يسوى ومايسواش؟

مطت شفتيها وهتفت معترضة:

- أسلوب إيه؟ ده أخويا وأخته!..



واستدارت تستكمل وصلتها السابقة بتجهم احتل قسماتها بينما هو ظل يراقبها للحظات دار بصره بعدها وإستقر فوق باب الأخرى المغلق منذ فترة، تحولت عينيه لجمرتين من لهب وإختنقت أنفاسه ليقرر ترك المكان بأكمله صافقا الباب من خلفه.

***

كان ينكفأ على حاله وأصابعه تخط شيء ما حين استشعر قربها البطيء، دون النظر يتخيلها تقترب وتقترب، ازدرد لعابه في عسر ورفع بصره ليقابله جلدها المجعد بقوة تثير الإشمئزاز في نفسه كلما نظر إليها، عاد بجذعه للخلف من فوره ملقيا بالقلم فوق المائدة هادرا بحنق:



- شيلي الزفته دي من هنا!

رفعت رأسها من فورها بوجه غاضب، تصيح فيه بدورها:

- اسمها لولي وبالراحة خضتني!

أنهت كلماتها ومدت أناملها تلتقط سلحفاتها الكسول من أعلى مائدة الإجتماعات، تضمها لصدرها برفق وتداعب رأسها ببنان سبابتها بينما هو يراقبها بقرف، كيف تلامسها وتضمها إليها دونما تفرغ معدتها!

- لا والله!

قالها وقد أثاره وضعها العجيب، لكن على مايبدو أن العجيب كله قادم عبر بحتها الرقيقه:



- أنا مسمحلكش تهين السلحفاة بتاعتي.

توعد بنظرة شريرة:

- ده أنا هحدفها من الشباك بس اصبري.

شهقت بعنف:

- للدرجة دي ماعندكش ضمير!

- مع البتاعه دي لأ.

- قلت لك اسمها لولي، عيب قوي تقول بتاعة..

وأردفت موضحة:

- على فكرة الحيوانات كائنات حساسه جدًا.

نفخ في سأم، من يجادل؟ فتلك السلحفاة التي تحضرها معها بشكل يومي منذ أسبوع مضى



وهي تعاملها كإبنة لها بل وتلزم على الجميع مراعاتها، ألم يقل أنها صغيرة.. قصيرة.. عابثة!

- طيب اعتذاري الشديد للآنسة لولي، بس ممكن بعد إذن سيادتك تحطيها بعيد عن هنا خلينا نعرف نركز في شغلنا؟

ملامحه المكفهرة بشدة جعلتها تنفجر ضاحكة، رفع لها حاجب شرير بينما لم يفلح ذلك في تهدأت ضحكاتها حتى هتف:

- ممكن أعرف بتضحكي على أيه؟

تنحنحت تجلي حنجرتها، تكتم ضحكاتها قسرًا وتزيد من غيظه عن قصد:



- يعني واحد في سنك وخايف من حتة سلحفه.. مش شيء مضحك شوية!

- اسمها مقروف ياماما مش خايف.

زمت شفتيها في اعتراض فتنهد يائسًا وعاد يرتب أوراقه أمامه من جديد قائلًا:

- طيب شوية جد بقى..

تركت لولي جانبًا وإقتربت بمقعدها حتى جاورته تمامًا، تلقي بجل تركيزها فوق ما أشار..

تطلق سراح خصلاتها الناعمة مع ثوبها الأصفر الشاحب، فمنذ أن علق لها ساخرًا على طريقة ملبسها وهي تتفاني في إظهار أفضل مالديها، بضع شعرات متطايرة لامست جانب وجنته إثر



قربها الخطير ليستدير برأسه غير مسيطر على بصره الذي تحرك ببطء من أعلى رأسها وسار بتلكؤ حتى وصل لعنقها المكشوف، بقي هناك لثوان يراقب الشامات الصغيرة المتناثرة كلا على حدا..

- أنا شايفه العرض التاني أفضل ولا إيه رأيك؟

مع نبرتها استعاد رباطة جأشه وعاد بتركيزه معها ليجد السلحفاة اللعينة تقترب مرة أخرى ودون تفكير تلك المرة، مد يده بالقلم ودفعها، يلقي بها بعيدًا حد أنها تعثرت وانقلبت فوق ظهرها بشكل يثير الشفقه والشهقة لصاحبتها التي أسرعت تعدل من وضعها في لهفة وأصابعها تجذب قلم آخر قريب ودون تفكير كانت تطعن ظاهر كفه

بقوة تآوه لعنفها، عينيها تنظر له في تشفي بينما يصيح:

- يا بنت ال...

عض فوق شفتيه يمنع ما ينبثق عن لسانه دون إرادة منه إثر ألمه النابض، رفعت له حاجبا متحديا:

- بتقول حاجة حضرتك؟

من بين ضروسه:

- بقول العرض التاني أفضل فعلا.

ظهر انتصارها الخفي فوق ثغرها:

- يبقى اتفقنا.

- آنسة غنى مدير فندق... في إنتظار حضرتك.

جاءت نبرة مديرة مكتبها لتقطع حرب النظرات القائمة.. نهضت بخيلاء، تربت فوق خصلاتها وتهندم من ملبسها دون حاجة بينما تهتف لها بأنف مرفوع:

- دخليه مكتبي وجاية حالًا.

أومأت لها المرأة في طاعة وإستدارت مغادره ليميل بصرها ناحية ذلك الذي يرميها بشر النظرات، اقتربت بقسماتها المختاله تلملم أوراقها المبعثرة وما إن انتهت حتى ضمت بهم لصدرها ومالت برأسها إليه، عيناها تتحداه وسبابتها تشير نحو السلحفاة:

- لو قربت منها...





وبسيف يدها نحرت رقبته من البعيد في تهديد صريح للقتل ثم أبتعدت من أمام عيناه الذاهلة؛ المتحوله لمتوجسة وهو يرى العجوز الشمطاء تقترب ناحيته من جديد في إصرار شرير يشبه صاحبتها.. الشهية!

***

انتهت من تغليف العلبة المربعة بين يديها وأرسلت بها للخارج مع إحدى العاملات بالمكان.. مضت عدة أيام منذ أن بدأت عملها برفقة نسمة، ولأنها إعتادت تقديم أفضل ما لديها كانت تبلي جيدًا فنالت على إستحسان وثناء من صاحبة المكان، أكثر ما يعجبها بعملها الجديد: خلو المكان من الرجال مما أعطاهم جميعًا

مساحة من الحرية خاصة والجو يميل للحرارة كل يوم أكثرعن ذي قبل.

فتحت باب الفرن تتناول مافيه بحذر، تركته يبرد فوق الرخامة العريضة وراحت تساعد نسمة في تزيين قوالب الكب كيك الخاصة بطلبية اليوم..

- حبيتي قبل كده يا نسمة؟

جاء سؤالها المباغت بجرأه لم تتوقعها يقطع صمت الأجواء ليحل محله صمت من نوع آخر.. صمت عبث بعروق قلبها الجافة، قلبها اليتيم بدنيا العشق التي تسألها عنه، عشق رسمته بخيالها ولونته بأحلامها لتصحو على حقيقة مرة شطرت قلبها بعشقه إلى نصفين.

تخطت سؤالها بسؤال، فما يدور في مخيلة سماح مكشوف حد السخرية:

- ليه؛ أنتِ حبيتي قبل كده؟!

لم يخيب ظنها إذ مطت شفتيها في حركة مفتعله و تدمدم بالقرب منها خوفًا من أن يسمعها أحدهم:

- كان أسمه عادل..

وأطلقت ضحكة صغيرة تهديها للذكرى بينما تردفت:

- يلا الله يجحمه مطرح ما راح.

ضحكت نسمة حتى ظهرت نواجذها على سلاسة ما تقر به:



- أنتِ مشكلة بجد..

- أعمل إيه؛ فضل معشمني وآخرتها استندل ابن صفية العمشة.

- ده عشان ربنا بيحبك.. أنتِ تستاهلي كل الخير ياسماح.

- والنبي أنتِ عسل.

ولم تنتظر منها رد بينما تتابع بنبرة باطنها الخبث المفضوح:

- حتى حسن له ماضي عاطفي..

- ده أنا محظوظة على كده.

علقب بنبرة ساخرة دونما ترفع وجهها عما تفعل، لتهتف سماح من جديد بعد مصمصة شفاه:

- طب اللى مش عاجبك ده كان مطمع لبنات الحارة كلهم.

- مطمع!

هتفت مستنكرة لتهز سماح رأسها في تأكيد ولسانها يسرد بداية القصة بكل بساطة:

- كنا في يوم قاعدين أنا وأمي الله يرحمها ولقينا ده داخل علينا وساحب وراه واحدة.. طبعًا أمي ماقدرتش تمسك لسانها وقالت لها أنتِ مش خايفه ياخدك في شقة فاضية ويعمل فيكِ حاجة وحشه يابنتي؟ يدوب قالت لها الكلمتين دول ودي وشها جاب ألوان وقامت تجري على الباب...



إبتلعت لعابها تراقب نسمة المستمعة في ترقب رغم تظاهرها بعد الإهتمام، لتكمل في حماس بقية الحكاية:

- يدوب دي مشيت من هنا وده ركبه عشرين عفريت، دب خناقة لرب السماء وهو يصرخ ويقول بحب رحاب ومش هتجوز غير رحاب.. يهديك يرضيك طيب ركز في شهادتك الأول، كان وقتها في ثانوية عامة وده أبدًا صمم على رأيه وعايز يروح يخطبها من أبوها ولما أمي وقفت له وقالت له على جثتي غضب و ساب البيت، فضل مقاطعنا شهر بحاله لحد ما رجع لوحده واتاريه صرف نظر عن الموضوع بعد ما عرف أنها ماشية مع شباب الشارع كله.



إرتفع حاجبي نسمة في صدمة لم تفلح في إخفاءها لتتابع سماح:

- لكن الحق يتقال البت كانت زي فلقة القمر ولا يبان عليها، بس كسرت نفسه منها لله، من بعدها وحاله اتشقلب كره المذاكرة والمدارس حتى الكلية بعد كده دخلها كام شهر وقال مش عايز علام.. وياما تحايلنا عليه عشان يتجوز وهو راكب دماغه لحد ما ظهرتي أنتِ وقلبتي حال الواد وأم الواد.

ختمت قصتها بمكر باتت تجيده وهي تضربها بكتفها في مرح لم تجد له صدى وهي تراها تتابع ماتقوم به في صمت مطبق وملامح عابسة وما



إن فتحت فمها تنوي الثرثرة من جديد قاطعها صوت دخيل:

- سماح في واحد عايزك بره؟

رفعت كلتاهما حاجبيها وحين تقابلت النظرات جاء نفيها السريع ردًا على نسمة التي تبدو كمن ضبطها في وضع تلبس:

- والنعمة ما عرفت وحايد من بعد الندل!

أفلتت من كلتاهما ضحكة صغيرة لتهتف فيها نسمة على عجل:

- طيب روحي شوفي مين وأنا خلاص خلصت.

تركتها وراحت تضبط من وضع حجابها وترتدي عباءتها التي تخلعها وقت العمل.. وجدت رجلًا



بملامح مألوفة وبيده تتشبث فتاة صغيرة لا تتعدى الخمس وعلى ما يبدو أنها ابنته لشدة مابينهما من شبه واضح.. حثت الخطى حتى قابلته في وقفته بملامح مستفهمه قابلها بإيماءه صغيرة ونبرة مهذبة للغاية:

- تسمحي لي أخد من وقت حضرتك دقايق؟

والله تسمح لها بعمرها كله عقب تلك النبرة المهذبة، قطعت تفكيرها وهي تومىء برأسها في تعجب لم يغادرها بعد:

- طيب اتفضل هنا..

وأشارت بكفها نحو طاولة صغيرة تحتل ركن جانبي طاله أعين صاحبة المتجر وكل العاملين



بالمكان.. جلس وأجلس ابنته إلى جواره دونما يفلت كفها، وما إن جلست حتى تسآلت في تردد وهي على ثقة تامة أن تلك الملامح مرت عليها من قبل:

- هو أنا شفتك فين قبل كده؟

توجس خفيه من تلك العيون المصوبه عليهم إلا أنه مال بعض الشيء محاولا إنعاش ذاكرتها بكلمات متفرقه لكنها أكثر من كافية:

- الشط.. سندوتشات الجبنة.. العشرين جنية!

طالعته في ذهول وهي تتذكره بالفعل وفي اللحظة أدركت سبب مجيئه، فعلى مايبدو أنها أخطأت في تقدير الأمور فبعد إلقاء نظرة شاملة على ملبسه



وهيئة ابنته أدركت كم كانت حمقاء وأنها هي أولى منه بكرمها الحاتمي.. كعادتها غمغمت ترفع عنه الحرج، وببساطتها المعهوده:

- يعني حضرتك جاي عشان ترجع العشرين جنية؟.. على كل حال هي طلعت من ذمتي خلاص ومش هينفع أخدها.

فتح فمه ينوي الكلام إلا أنها قاطعته بكف مرفوع لا يقبل التفاوض:

- والله أبدًا خلاص، إديها للأمورة الصغيرة.

- ممكن أتكلم!

هتف بصرامة أخرستها وهي تومىء برأسها بوجه عابس وماكاد يفتح فمه حتى قاطعته نسمة التي



جاءت بطبق فيه قطعة كعك شهية، وضعته أمام الصغيرة بعد ما لاحظت نظراتها الجائعة لها إلا أن كف أبيها منعها بسرعة أقرب للفظاظة:

- شكرًا بس مش هينفع..

وإستطرد بخفوت:

- أميرة مريضة سكر.

تجمدت أصابعها وعادت للخلف آسفة على حال الصغيرة بينما ترفع بصرها ناحية سماح التي لم تكن أقل منها أسفا إلا أنها قررت تجاوزه سريعًا:

- اتفضل حضرتك كنت بتقول إيه..



ألقى نظرة على صغيرته التي تبسمت له في براءة فبادل بسمتها بأخرى لها وقع ساحر ثم عاد لها يستهل حديثه في تردد و تلعثم لم تخلو منه كلماته السريعة:

- أحمد زين الدين.. سبعة وتلاتين سنة.. مدير حسابات في شركة مقاولات محترمة.. ميسور الحال بفضل الله ويشرفني أطلب إيد حضرتك؟

أنهى حديثه ملتقطًا أنفاسه وقد زين ثغره بإبتسامة هادئة تحولت لمتوجسة وهو يرى الأفواه الفاغرة من أمامه وخلفه!



(٢٢)

تُولدُ الصدف مِنْ رحمِ القدرِ المحتومِ

يحدث أن يتغير عالمك وتنقلب حياتك رأسًا على عقب جراء كلمة.. حدث.. شخص عابر..

لا تعلم ماهية ما أصابها لكن هناك شيء ما يدغدغ داخلها، شيء لا ينتمي لسعادة محلقة ولا افتتان عذري تصحبه وردية عاشتها من قبل، لا هي عادت طفلة ولا عادت أحلام الصبا تهز فيها شعرة، هو شيء آخر!.. ربما شعور أنها امرأة مرغوبة من قبل رجل جيد، رجل من أصل عائلة كريمة ونسب يفتخر به، لديه احترام خالطته الهيبة بما يكفي لجعل ذلك البريق المبهم يسكن مقلتيها.

ربما لن يصدقها أحد لو أخبرته أن أقصى أحلامها كان زواج ليس بالأهمية القصوى التي تذكر تفاصيله، حياة روتينية تتلخص في زوج منهك عقب شقاء النهار وجيش من التتار يسمون أطفالًا يركضون من خلفها في طلبات لا تنتهي لتدور وإياهم في طاحونة الحياة.. لكن حدث وحادت أفكارها عن المسار وجاء رجل ببذلة أنيقة يشبه نجوم السينما في حضوره وهيمنته يجالس أخيها في هاته اللحظة طالبًا يدها للزواج متمنيًا القبول كما.. كما يحدث في الأفلام!

تعدى ذلك أحلامها وجمح بفكرها لمنطقة لم تطأها من قبل، شيء ما يعيث بفكرها الفساد ويهمس لها في هدوء..



"هناك من جاء لأجلك.. أنتِ فقط ناسبته"

نفضت رأسها بقوة تفض سيطرة أفكار سابقة لأوانها، اقتربت ترهف السمع أكثر إلا أن صوت هامس من خلفها أتاها مزمجرًا:

- خدي القهوة وأدخلي بدل وقفتك دي.

عدلت من وقفتها على الفور تهندم ملبسها وحجابها دون حاجة وهي تقترب برأسها من ملامح نسمة المتغضنة لتهمس بدورها في قلق:

- إلحقيني ده عصره جوه.. فكرك هيطفش!

من بين الضروس أتاها الرد:

- اللهم طولك ياروح، هو هيطفش فعلا عشان له ساعتين قاعد مستني.. أدخلي وخلصيني!



سحبت شهيق متعسر وهي تمد أصابعها المرتعده، تحمل صينية القهوة في تردد ولسانها يهمس بتراجع:

- أنا هقدمها وأخرج على طول.

اقتربت نسمة منها وقد ظهرت على قسماتها الشراسة:

- براحتك يا سماح بس لو طفش ماتزعليش.

شدت من أزرها الكلمات فشدت من ظهرها وتقدمت بخطى ثابتة لا تقبل تراجع هاته المرة.. نعم فالأمر يستحق المحاولة، ربما كل شيء حدث سريعًا منذ أن ألقى كلماته في محل عملها ليتلبسها الصمت والذهول فأسرعت آنذاك



زوجة أخيها في إنهاء الموقف بإعطاءه رقم شقيقها طالبة منه محادثته في الأمر كما تسري الأصول والأعراف، كيف جاء اعتذاره مهذبًا حينها، يعتذر عن عجزه في الوصول لأخيها المسافر_كما أفاد زملاء عملها السابق _فلم تزد إلا صمتًا، ليغادر تاركًا إياها في النهاية على وعد بلقاء قريب.

وقد كان..

هاتف أخيها بذات الليلة طالبًا الأذن في الزيارة، وها هو بعد ثمان وأربعون ساعة يجلس أمامها بشحمه ولحمه..

- تسلم إيديك.





قالها بتهذيبه المعتاد وأصابعة تتناول فنجان القهوة، ناولت شقيقها بدوره ليشير لها بطرف عينه على مقعد يبعد القليل إلا أنه مواجهة لهما، كان قد اختاره سلفًا لتجلس فيه، ارتاحت برفق ظاهري وإضطراب داخلي وعيناها تعانق الأرض، وكانت نبرة أخيها الجافة أول ما وصل لمسمعها:

- اتفضل كمل كلامك..

- زي ما قلت لحضرتك البيت فيه دورين وليا شقتي المستقلة لكن طبعًا وجود والدتي في يومي شيء أساسي.

- يعني معنى كلامك عايز واحدة تراعي بنتك العيانة وتخدم الست الوالدة؟!

قالها حسن بفظاظة، فالعريس المبجل اتضح أنه أرمل وفي عنقه طفلة مريضة سكري مع أم مسنة وغير ذلك يسبقها بعدة سنوات لا بأس بها.. أليس من الأكرم له كان جاء لطلب خادمة لا عروس!

كان وقع الجملة ذا أثر قوي عليها إذ رفعت بصرها بغتة والذي صادف إلتقاء بصره السريع وهو يلتف برأسه يواجه حسن بقسمات متصلبة ونبرة جامدة تعالت رغمًا عن صاحبها:

- أنا قلت تاخد بالها من بنتي في غيابي مطلبتش أكتر من كده، بالنسبة لوالدتي فرعايتها واجبي ومش مستني أي مخلوق يقوم به، أنا عندي أختين يا سيد حسن واللي مرضاش به لأخواتي



مرضاش به لبنات الناس، حضرتك طلبت تفاصيل عن حياتي وأنا قدمتها مش أكتر.

انعكس اضطراب الأجواء على تذبذب مقلتيها التي تصلبت فوق أخيها تناجيه سرًا ألا يتعجل فيأتي بالنهاية قبل البداية لكن نداء خافت باسمه وصل لثلاثتهم كان طوق النجاة لها إذ رأت ذهول إحتل قسماته محاه سريعًا واستأذن للدقائق وعلى مايبدو نسي أمرها في غمرة ذهوله. حينما اختفى من أمامها عادت برأسها لتجد الآخر ينظر لها في إمعان مربك، تهرب ببصرها سريعًا في كل الأرجاء إلاه حتى وصلتها نحنحته وهو ينهض بهدوء لينتهي فوق أقرب مقعد منها.

- آسف، مقصدتش صوتي يعلى.



رفعت بصرها حتى قابلته على إستحياء ولسانها يتعثر في كلمات كمن تلبستها روح صبية غرة تجالس رجل لأول مرة، لكن ماذا تفعل إن كان له حضور مربك:

- أنا اللي آسفه هو حسن.. يعني.. هو..

- هو أخ و أنا أخ ومجرب وصدقيني عملت أنيل من كده مع عرسان أخواتي.. فاهم ومش متضايق.

قاطعها بثغر باسم خطف بصرها أولًا ويخطف عقلها تاليًا:

- تعرفي أن كل زمايلك في مطروح قالوا عنك كلام يخلي أي حد يتمنى تكوني من نصيبه؟



ابتلعت لعابها في عسر وأنفاسها تتناحر ببطء حتى كادت أن تسقط صريعة لتلك النبرة إلا أن أبواب الماضي أبت ألا تطرق ذكراها لتتلآشى بسمتها الوليدة ويحل محلها أخرى فاترة وهي تهرب بعينيها جانبًا وتسأله في تردد:

- وياترى زمايلي في مطروح كلموك عن شغلي قبل ما أعرفهم؟

- كلموني؛ وكبرتي في نظري أكتر يا سماح.

ارتفع حاجبيها ذهولًا وهي تستدير برأسها بغتة، تتأكد مما سمعت عله كان يسخر منها إلا أن نفس الملامح والبسمة الهادئة قابلتها لتلجم حركتها امتنانًا لتقديره الظاهر في عيناه، وهو بالفعل يقدر صراحتها في مواجهته دون خجل،



بل يقدر ألف مرة ذلك القبول التي يتسرسب لداخله كلما تكرمت عليه بنظرة..

يرى سيماها الطيبة تنير وجهها وهذا يكفي، بل ماذا يبغي هو غير ذلك؟

وفي حين كان كلًا منهما يخوض معركته الداخلية الخاصة كان بالخارج على بعد بضع خطوات معركة من نوع آخر..

أوداجها المحمرة تعلن عن غيظ مكتوم بينما هو كان يتقدم في لهفة خفية، نطقها لاسمه بود ظاهري كان له وقع السحر على نفسه، فهي تلفظه لأول مرة منذ سنوات..



تقدم وعيناه عن عيناها لا تحيد وما إن قابلها حتى عاجلته:

- أنت ماتعرفش تشوف حد مبسوط إلا وتكسر فرحته؟

تجهمت ملامحه في الحال وهو يدمدم بدوره بنبرة باردة ينجح دائمًا في إستحضارها:

- أيوه يعني أنتِ عايزه أيه دلوقت!

- خلي الليلة دي تعدي على خير.. سماح من حقها تفرح.

كانت كلماتها حادة لتضيق نظرته في تفكير صامت لثوان معدودة، ولى بعدها ينوي العودة حيث كان..



بعد فترة كان يحتل مائدة الطعام يتناول عشاءه في صمت غير آبه بتلك المتقلبة فوق مراجل الإنتظار حتى يمن عليها بكلمة بينما هو إتخذ من الصمت مسلكًا منذ أن رحل عريس الليلة..

تنحنحت تجلي حنجرتها وقد انفرط عقد الصبر لديها:

- ماقلتلش رأيك يعني ياحسن؟

صحيح أنقذت نسمة مايمكن إنقاذه وغادر الرجل على وعد بتبليغه الرد النهائي في أقرب وقت إلا أن صمته المطبق منذ حينها يزيد من حيرتها وتشوشها الملتهب..

رفع رأسه في عدم فهم مصطنع وهو يدس بفيه قطعة خبز كبيرة:

- رأيي في أيه بالظبط؟

- أنت هتستعبط!

اغتاظت لنبرته الباردة فخرجت جملتها أكثر غيظًا فعاد لها بوجه جاد، متجهم بعد ما نحى الطعام جانبًا:

- عايزه تقولي أنك موافقة على واحد زي ده؟

- ماله ده؟ مش أحسن من الصيع والعواطليه اللي كنت كل يوم والتاني ساحبهم وراك وتقولي لقطة!

كان جوابها السريع حاد، ساخر، قابله بحنق:

- وبالنسبة للسن؟

- عشر سنين مش حكاية.



- قصدك تناشر ولا تلتاشر.. احسبيها بالعقل وفكري ومين عارف مش يمكن يجيلك الأحسن منه؟

بسخرية مريرة لوت شفتيها:

- حوش الطوابير اللى واقفة.

- يابت ده عايزك خدامة!

قذف جملته الأخيرة في وجهها مستنكرًا ليأتيه الرد تلك المرة من نسمة التي تتربع فوق مقعدها الأثير، يعلو وركيها حاسوبها كالمعتاد وتستمع للحوار الدائر في صمت حتى جاءت جملته الأخيرة فأخرجت ماردها الصغير صائحًا في سماح متجاهلة إياه عن عمد مغيظ:



- هو عشان عنده بنت يبقى عاوزك خدامة!.. ماتسمعيش لحد يا سماح.. خدي قرارك من نفسك ولنفسك.

وبينما كانت تنصت لها سماح في إقتناع تام كان يطبق هو فوق نواجذه ويهتف بشرر:

- وأنتِ مالك تحشري نفسك بين واحد وأخته؟ أما عالم باردة بصحيح.

كادت أن تقصف جبهته برد أكثر من مناسب إلا أنها آثرت الإبتعاد عن كليهما، لملمت أغراضها وغيظها ثم صفعت باب غرفتها في وجهيهما بقوة.. عادت له سماح ببصر منكس وقد ملئت الخيبة روحها وفاضت:



- نسمة عندها حق، وبعدين إيه الجديد ما طول عمرنا بنخدم! ولا عايز تفهمني أنك زعلان وشايل همي؟

ظل يرمقها في صمت حتى طال، تجرأت ورفعت بصرها لتقابلها عيناه وقد شملها بنظرة، هتف بعدها بنبرة خامدة لا تناسب إشتعاله السابق مسلما إياها مقاليد أمرها كما تريد:

- اعتبريني لا زعلان ولا شايل همك، والقرار هيكون قرارك.. يعني توافقي.. ترفضي.. تولعي بجاز أنتِ حرة.

تركها ليتلقفها العقل ويسكنها بين جنبات الحيرة..



تقبل أم ترفض؟

تهفو نفسها كأي صبية تبغي من تتقاسم معه بقية العمر بينما يحثها عقلها على التريث فالأمر ليس بتلك البساطة..

غاصت برأسها بين كفيها، تناجي ربها سرًا حتى يرسو بها فوق مرفأ الخير.. أيما كان.

***

نعترض..

نثور ونغضب وفي النهاية نوقع صك القبول راضخين متقبلين لخبايا القدر العجيبة في تسليم.. هكذا تسير النهج بفلك الحياة.



بخطوة أخيرة مترددة أدار مزلاج الباب لتقابله غرفة فسيحة تضم مكتب ذا طراز فخيم يعود في الأصل لوالده المتوفي.. فاليوم بداية جديدة قبل بها بعد مشوار زاخر بالكثير وماض مكدس بكل مشين. عدة خطوات أخرى حاذى بها المكتب الكبير، سار فوق حافته بأنامله وعقله يسبح ساخرًا في بحر من الظلمات..

يرحل أبيه تاركًا له إرث ليس بسيء لكن بشروط محكمة قاطعًا عليه أي خيارات، بينما شقيقته تشن عليه حربًا من نوعٍ خاص؛ تظن ببضع كلمات تنخز بها ضميره وربتتات ستخرجه من مستنقع الضلال وتشرق في سماءه القاتمة شمس الفضيلة!



لكنهم لا يعلمون..

لا يعلمون أنه يبحث عن ذاته القديمة التائهه بين خباياه ولا يرى فيها تلك الوليدة التي تحثه على أن يدعي الفضيلة في الأقوال قبل الأفعال.

لا يدركون أنه يتأرجح فوق حد السيف يخاف المضي ويهاب السقوط.

لا يعون أنه أصبح آخر، غريب لا ينتمي لما كان ولا بقادر ليصبح ما يبغون..

جل ما يعلم أن سنوات الحبس أفقدته الكثير مما كان عليه..

وزيارته لأيوب خير دليل..

زيارة أفترت عن لاشيء..



فحين اعتزم الأمر وانتوى الثأر لمن إستباح لنفسه ماكان يملك، من نبش في تربته ليخرج مافي باطنها بأحقية لم يمنحها لأحد..

أراد أن يطبق فوق خناقه حتى يقبل حذاءه طالبًا للغفران ويعود بماله المغتصب بعد عاهة يخط بها وجهه للذكرى..

لكن كل ذلك لم يحدث حين رآه منكمش الجسد طريح فرآش عفن، حين وجده أسير قنينات تذهب بالعقل دون رجعة فلم يجد من وراءه نفعا..

تعجب آنذاك مما أصاب يديه من عجز، كيف إكتفى بمراقبته وتفتيش سريع لم يفتر عن شيء

سوى التقزز والقرف من المكان وصاحبه ثم غادره ببساطة دونما يزهق روحه!

- عجبك المكتب؟

انتفض لجزء من الثانية من نبرة الدخيلة التي قطعت شريط أفكاره ليدور ناحية المقعد الوثير، جلس ببطء يتذوق الشعور العجيب الذي يسري في عروقه.. قائلًا بعد فترة بعملية:

- المهم الشغل، عاوز أعرف كل حاجة عشان أفهم الدنيا ماشية إزاي.

اقتربت ميسون بإبتسامة جذابة تجلس قبالته، تهتف بدورها في عملية مماثلة لونتها ببعض المرح:



- من ناحية الشغل فأنت مش هتلاحق بس الصبر، أول حاجة هبعت لك مديرة مكتبي تديك خلفية عامة عن طبيعة الشغل، بعدها لنا قعدة طويلة سوا بس قبلها هأخدك تشوف المخازن و..

توقفت حين وجدت حاجبيه يرتفعان ببطء لتضحك مؤكدة:

- مش قلت لك مش هتلاحق.

وتابعت بعد برهة بجدية ناقضت مرحها السابق:

- مش هكدب عليك يا حسن بس وفاة بابا فريد أثرت على الوضع العام للشركة، ده غير وضعنا في السوق اللي رايح في داهية.





وعلى ذكر أبيه تحرك بصره تلقائيًا ناحية صورة مؤطرة تحتل جانب المكتب كان قد لمحها حينما ولج لكنه الآن يرآها بكل وضوح.. كانت صورة عائلية تضم أبيه الذي يحيط بذراعه زوجته وابنه الآخر، ترافقهم تلك الماثلة أمامه وهي في مقام الابنة، ترتسم فوق شفاهم جميعًا الضحكات..

يضاحكهم بينما هم كانوا بعيدًا عن خارطة حسباته..

بل خارجها تمامًا!

منع عقله من الإنحدر لتلك المنطقة بينما يزوغ بصره عنها، لتسرع هي في النهوض وقد وصلها ما



جال في خاطره، وتقديرًا للموقف حملت الصورة عن موضعها وهي تبرر في ود:

- الصورة كانت هدية مني وأنا اللي حطيتها هنا.

فرك جبهته مقررًا غلق تلك الصفحة فما عاد يجب فتحها منذ الآن.. هتف بهدوء يناقض ما في داخله:

- ينفع مانفتحش أي مواضيع قديمة؟

- أكيد طبعًا.

جاءت نبرتها كمن تمنى الشيء ذاته لينظر لها في ابتسامة هادئة تلك المرة، أسرعت تقول وهي تبتعد:



- أنا لآزم أمشي حالا عندي ميعاد في شركة تسويق محتاجين لها الفترة دي، هنبقى نتكلم عن الموضوع ده كمان بالتفصيل بس بعدين.. هبعت لك سميرة، سلام.

ما إن اختفت حتى عاد لسطح المكتب، يقلب بصره فوق المجلدات المتروكه لأجل الإطلاع عليها برفقة أوراق متكومة بكثره تثير الملل في النفوس.. سحب شهيق طويل وهو يتلوى يخلع عنه سترته يلقي بها جانبًا ثم أرخى ربطة العنق دون حلها بينما يده تمتد نحو أول مجلد.

***

وصلت بعد عناء وزحمة سير منقطعة النظير، انتقت هذا المكان خصيصا بعد ترشيح موثوق



فيه، ملأت رئتيها بنفحة تفاؤل ودلفت بخطوات وئيدة تتطلع من حولها.. مع أول طلة توجست خفية وهي ترى المكان تعمه الفوضى!

علب الطلاء تملأ المكان والرائحة النافذة للدهان تعبق الأجواء، لكن رائحة أخرى أكثر ضراوة هي من غمرت حاسة الشم لديها، تتبعت صوت الضحكات الصادحة من الداخل حتى وجدتهم داخل حجرة فارغة يتحلقون في دائرة كبيرة فوق الأرضية وأمام كل منهم علبة من "الكشري" يأكلون بشهية كبيرة تناقض تلك الرائحة التي أثارت معدتها وكادت تفرغ معدتها إلا أنها نجحت في حجبها بواسطة كفها الذي غطى أنفها وفمها



معا، تنبه لوجودها واحد تلو آخر حتى عم الصمت، لتهتف في تردد:

- كان في ميعاد مع أستاذ ماهر بس..

- ميسون الجندي؟

جاء السؤال من خلفها مباشرة حد أنها دارت بفزع!.. كان يعتلي سلم حديدي ويعبث بكشافات الإضاءة، قفز مرة واحدة حد أنها تقهقرت للخلف خطوة تفاديا للإصطدام، إقترب منها في ترحيب عقب ما أكدت هويتها بهزة رأس..

- أهلًا وسهلاً..

وازي تحيته كف ممدوده ملطخة بالطلاء، سحبها سريعًا حين رأى ترددها من ثم حولها نحو حجرة



مغلقة، تبعته وفي نفسها تلعن ذاك الذي رشح لها هكذا مكان..

كانت غرفة فسيحة بمكتب بسيط حديث الطراز لا يمت فوضى الخارج بصلة، وكم كانت شاكرة لذلك.. جلست فوق المقعد المواجه وهي تتحدث بنفاذ صبر مع ذاك الذي مازال يرافقها:

- ممكن تبلغ أستاذ ماهر من فضلك مش هينفع اتأخر أكتر من كده.

دمدم بإختصار:

- حالا..

واختفى خلف باب داخلي، دقائق قليلة وكان يخرج بملابس نظيفة غير تلك الملطخة وقد بدل



رائحة الطلاء بزخات عطر جيدة النوع، لم تغادرها الدهشة وهي تراه يحتل مقعد الرئيس قائلًا ببساطة:

- آسف عطلتك.. أنا تحت أمرك اتفضلي.. تحبي تشربي إيه الأول؟

رفعت حاجبيها في توجس:

- حضرتك أستاذ ماهر؟

دار بصره يتتطلع لحاله يمنة ويسره عاد بعدها عاقدًا جبينه متسائلاً في جديه:

- ماشبهش ولا أيه؟

تلجلج لسانها في حرج:

- لا أبدًا والله ماقصدتش كده أنا بس..

قاطعها وقد ملأ وجهه ضحكة بشوش:

- حتى لو تقصدي، عندك حق طبعًا.. هو في مدير بيغير لمبة وريحته بويا!

لم تملك أمام بساطة ضحكته سوى مبادلته بأخرى جذابة:

- على فكرة كان ممكن نأجل ميعادنا لوقت مناسب.

فتح ذراعيه مجيبا إياها بمرح:

- على فكرة إحنا في وقت مناسب.

ثم تقدم بجذعه مستطردًا في توضيح بسيط:



- ده قرار صدر فجأة عشان نحارب روح اليأس والإحباط المسيطرة على الشباب بره.. ها مقولتيش تحبي تشربي إيه؟

- معلش خليها وقت تاني.

- إزاي؛ ده واجبنا..

ورفع سماعة الهاتف:

- منى إتنين عصير فريش بعد إذنك.

أخرجت مغلف من حقيبتها ناولته إياه قائلة بعملية بحتة:

- هنا كل أسماء العملاء بتوعنا..

تناوله باسما:

- عظيم..

وبعد فترة تبادلا فيها الحديث المفترض دلفت فتاة عشرينية بملامح متجهمة، تركت المشروب البارد فوق سطح المكتب وحين انتوت المغادرة دون حديث أوقفها مناديًا:

- منى..

استدارت له الفتاة بذات الملامح المتغضنة ليقابلها بسبابة وإبهام فوق شفتيه ينفرجان في تعبير للإبتسامة، فتكفلت له بإبتسامة صغيرة بادلته إياها ثم غادرت..

راقب تعجبها مفسرًا:

- منى لذيذة على فكرة بس هما عشان مطبقين من إمبارح فتلاقيهم كلهم فاصلين كده.



هزت رأسها دون مرح حقيقي تلك المرة، لتقول في النهاية:

- أستاذ ماهر أنا في الحقيقة قصدت حضرتك بعد ترشيح من مصدر موثوق، جو الألفة اللي لفت نظري جميل لكن أنا محتاجة شغل بجد، وضعنا في السوق سيء جدًا وده بسبب ظروف كتير وأنا حقيقي عايزه أعدي الأزمة دي على خير وعشان كده لجأت لمساعدة حضرتك فهل يا ترى أنا إختارت صح؟

- راهنت نفسي وكسبت!

قالها بنشوة المنتصر وهو يضرب كفا بآخر ليعلو قسماتها البلاهة بينما تهتف:



- أفندم!

تشدق ضاحكًا من هيئتها مغمغمًا:

- أصل من وقت ما شفتك وأنا بشبه عليكِ وبسأل نفسي شفتك فين قبل كده.. وحالًا إفتكرت.

ضاقت عينيها في محاولة لإستيعاب ما يتفضل ويتشدق به قائلًا غريب الاطوار هذا الذي تجالسه، والذي استطرد كأنهما في جلسة سمر لا عمل:

- طبعًا مش فاكرة، ماهو لو كنت أنا اللي دلقت عليكِ القهوة وأخرتك عن صفقة العمرزي



مابيقولوا وبسببي طارت كنتِ افتكرتيني من أول ثانية.

ظلت تحملق فيه بعيون متسعة حتى سألها متوجسًا:

- كل دي صدمة!

حركت رأسها نفيًا وقد خرج صوتها بالكاد:

- سيبك من القهوة أنت إزاي فاكر حوار حصل من أربع سنين تقريبًا؟ ده أنا مش فاكره عملت إيه إمبارح!

- القرد ده مش كويس على فكرة وإحنا داخلين على شغل سوا.



تبسمت لجملته الرائقة لتقول في النهاية وهي

تنهض تنوي بذلك رحيل:

- بس أنا كده مديونة لك بإعتذار؟

نهض بدوره مصافحا:

- نخلي الإعتذار مع القهوة المرة الجاية؟

صافحته بهمس ودود:

- اتفقنا.

وغادرت المكان بنفس متفائلة، تفاؤل لم يدوم

سوى لدقائق معدودة صدح بعدها رنين هاتفها

لتخترق الحروف المنقوشة فوق الشاشة

المسطحة عيناها كشعاع حاد أطاح ببصرها

فأعماه!





***

خمسة عشر دقيقة مضت، يتوارى خلف إطار الباب يراقبها في صمت تام، كانت تميل برأسها إلى الخلف وتبدو شاردة كليا إذ أنها لم تتحرك عن وضعيتها منذ حينها، إستغل فروغ الغرفة من الجميع وتقدم بخطى ثابتة، ما إن إستشعرت وجوده حتى دارت برأسها بغتة..

فحياها ببساطة:

- هاي..

أعلنت قسماتها المتغضنة رفضها لتطفله،

اعتدلت في جلستها تتصنع التشاغل فيما أمامها:



- أهلا أنس.. إيه مش عندك محاضرة ولا سيكشن؟

ترك المقعد المواجه وإرتاح فوق حافته:

- تؤ..

وتابع:

- جيت أسلم عليكِ، مش إحنا المفروض قرايب وكده؟

تجاوزت سؤاله الماكر وعادت لبداية الجملة:

- ما إحنا كنا مع بعض إمبارح طول اليوم تقريبًا! وعامة الله يسلمك.

وعلى ذكر الأمس تشدق قائلًا:



- بمناسبة إمبارح؛ الغداء كان رهيب، حقيقي جواز سماح جاي عليّ بخسارة.

حدجته بنظرة صامتة ثم علقت:

- مش عارفة ليه حاسة أسلوبك مصطنع؟!

ضحك ضحكة قصيرة، ليصدقها القول:

- يمكن علشان بمثل مثلاً!

عقدت ساعديها أمام صدرها تنظر له دون حديث، تنتظر منه المتابعة.. وكان:

- طيب حطي نفسك مكاني، فجأة كده طلع لك أخوات من غير مقدمات ومطلوب منك تتعاملي معاهم كأنك تعرفيهم من سنين.. هتتعاملي إزاي؟



- طالما أخدت خطوة ناحيتهم يبقى أقرب منهم وأحاول أعرفهم أكتر.

أومأ موافقًا:

- عندك حق، وده اللي بحاول أعمله مع سماح.

تبسمت له راضية:

- سماح جميلة وتستاهل كل خير.

- طب وحسن؟

ارتبكت نظرتها وهي تتهرب منه ليعاجلها من جديد:

- إمبارح طول اليوم وأنتو متكلمتوش كلمة واحدة مع بعض.. مش حاجة غريبة دي؟



تحولت نظرتها لأخرى مشتعلة تخبره أنه تعدى المنطقة المسموح بها:

- ممكن أفهم أنت مركز معايا قوي كده ليه؟

- الله؛ مش مرات أخويا!

لفظها سمجة، ورأتها وقاحة منه لتهدر فيه من بين أنفاسها وقد فقدت صبرها:

- أنت عاوز إيه يا أنس؟!

جاءت إجابته الآمبالية صادمة:

- شايف أنك تستحقي حد أفضل، أنتِ بتظلمي نفسك مع الشخص الغلط.

- الشخص ده اللي هو أخوك؟

قالتها متهكمة ليلاحقها:

- أيوة أخويا بس مش مجبر أحبه زي ما أنتِ مش مجبرة تكملي معاه.

- لآخر مرة هقولهالك متتدخلش في حياتي الخاصة.. أبدًا.

كأنما لم يسمع هدر حروفها بينما يعتدل واقفا، يستكمل وصلته بجرأة أكبر:

- أنا ممكن أساعدك تلاقي محامي كويس.

فركت جبهتها في إعياء، فمجرد تخيل معرفته بهذا الحوار الدائر بينها و أخيه لا يمكنها تخيل ردة فعله، فكما لا يتقبل هذا الأنس أخيه لا يتقبله الأخير، يرى فيه الأول قرابة غير مشرفة ويرى الثاني كل ما حرم عليه منح لهذا المدلل..



إستغل صمتها وأخذ بهاتفها المتروك فوق الطاولة أمامها بوقاحة، نقر فوق شاشته أرقامه المحفوظة عن ظهر قلب، حينما صدح رنين هاتفه الخاص تبسم في رضا وقد نال مبتغاه، عاد لها بهاتفها مغمغمًا قبل رحيل كأنما ما دار بينهم مجرد أحاديث ودية:

- هكلمك.

***

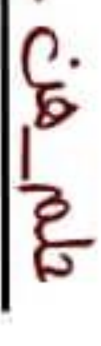
سبعة أيام بلياليهم احتاجتهم لتقرر بعدها القبول، القبول بحياة جديدة برفقة شريك تتقاسم معه أيامها القادمة، حياة وضعت هي أساسها وسيكون بنيانها كما تريد وتبغي، وهي تبغي عائلة بعد أعوام مديده تجدهم يتحلقون



من حولها لتحيا وتموت بين دفئهم، تريد أن تصنع لحالها جذور فالعيش على الهامش لايقوم حياة.

أربعون آخرين إحتاجت إليهم لتنهي كل متطلباتها، جهزت حالها بمال أبيها كما ينبغي لأي عروس أن تكون أمام أهل زوجها.. وجاء اليوم الموعود يصاحبة الكثير من القلق والتوتر كحال أي عروس في هاته الليلة..

أنهت خبيرة التجميل لمساتها الأخيرة لتنظر إلى حالها داخل السطح العاكس راضية، صحيح تنازلت عن حفل زفاف وإكتفت بعقد قرآن بالمسجد تنتهي بعده مراسم الزفاف البسيط،





لكنها لم تتنازل عن إرتداء ثوب الفرحة والظهور بمظهر يليق بها كعروس لأول مرة..

عادت نسمة تنظر لها في رضا هي الأخرى وقد إنعكست ضحكة العروس فوق محياها:

- ألف مبروك يا حبيبتي.

نهضت من جلستها تلملم طبقات ثوبها وتقابلها في وقفتها، جذبت كفيها تضم عليهم في شكروإمتنان:

- طول الفترة اللي فاتت وأنتِ معايا ماسبتنيش لحظة، أنا لو كان ليا أخت بجد مكانتش أبدًا هتعمل نص اللي عملتيه.



ضمت فوق أصابعها وخضرة عينيها تلتمع في تأثر إثر كلماتها الصادقة، سحبت شهيق تمنع تحشرج نبرتها إلا أنها لم تفلح فدارتها بضحكة مفتعله يصاحبها همس متهدج:

- هتخليني أعيط وأنا أصلا ماسكه نفسي من الصبح.

مالت سماح تضمها وقد تهدج صوتها هي الأخرى:

- كان نفسي أمي تبقى معايا النهاردة يا نسمة.

مسدت بكفها فوق ظهرها وقد أثارت كلماتها شوقها لأمها هي الأخرى:

- ربنا يرحمهم..



وابتعدت عنها تكسر إطار الحزن هذا وتستبدله قسرًا بفرح:

- إفرحي يا سماح وإنسي كل إللي فات.

- ياما نفسي تنسي أنتِ كمان وتعيشي حياتك.

- مش وقته الكلام ده.

جذبت ساعدها تبتر حركتها ونبرتها الجدية ترجو منها الإنصات:

- غلط غلطة يا نسمة واتحاسب عليها، أنا طمعانه في طيبة قلبك أنك تسامحي وتشدي على إيده للطريق الصح.

كم أردت البكاء في هاته اللحظة، تبكي وتبكي علها تزيح كل الهموم التي عششت بروحها حتى باتت

تشعر بها خاوية، تمضي في الحياة كأن لا سبيل آخر تملكه سوى العيش..

حين أدركت ضعفها وأنها بالفعل ستنفجر باكية نكست برأسها تهرب من مواجهتها، وتهمس في مرارة:

- ياريت كان بالسهولة دي ياسماح.

كانت مرارتها بارقة أمل لمعت في عيني الأخيرة لترفع لها رأسها المنكس بواسطة أناملها وتطرق فوق الحديد الساخن:

- بيحبك يا نسمة، والله العظيم بيحبك ومحتاج لك جنبه، أخويا وحفظاه لو ماكنش عايزك كان سابك من أول مرة طلبتيها.



خبال الكلمات عثر تنفسها ليتحشرج في شهقة صغيرة غير ملحوظة لمحدثتها، عقدت ذراعيها تحيط نفسها، تلجم بهم رعشة جسدها التي رجت جدرانه، وقع الكلمة صاعق وإن كان مجرد هراء شكلته مخيلة سماح الطيبة حد أنها صدقته فتحدثت به..

أنقذتها طرقات الباب المتناغمه يصحبها النبرة العابثة:

- هي فقرة النكد مش هتخلص بقى؟.. عايزين نبارك للعروسة.

قالها أنس وهو يتقدم بالفعل وقد لاحظ وجهها المكفهر، تقهقرت خطوة للخلف تفسح له المجال



بينما رسمت سماح إبتسامة عريضة وهي تستقبل ضمته في بهجة أسعدتها:

- عقبالك يا حبيبي.

- أنا كمان عاوزة أبارك.

قالتها ميسون في مرح ليفسح لها أخيها المجال حتى تضم العروس بدورها.. جاور نسمة وظل يرمقها بنظرة متفحصه، يراها تلف نفسها بذراعيها وتبدو شاردة في عالم آخر وما إن إستسعرت مراقبة لها حتى زفرت في قنوط وهمت تاركة إياهم بينما تغمغم بهمهمات غير مفسرة..



عند إطار الباب قابلها، توقفت أقدامها دون إرادة منها تنظر إليه بملامح مبهمة أثارت حفيظته..

بدت حلته السوداء مناسبة لهيئته الجديدة عقب ما إسترد الكثير من صحته المفقودة وقد ترك لحيته دون تهذيب.. كان في هاته اللحظة تحديدًا محط إعجاب لعينيها!..

جرت نفسها قسرًا عقب ما أدركت مدى تلاعب كلمات سماح داخل عقلها، تركته حائرًا في حالها فقد بدت من حملقتها كمن يريد التحدث إلا أنها آثرت الصمت وتخطته في النهاية.

نفض رأسه وتقدم هاتفًا على عجل:



- العريس على وصول..

صورتها خطفت بصره للوهلة الأولى، لتفتر شفاهه عن بسمة حقيقية لا يتذكر متى آخر مرة كانت، خرج الآخران حين توقف قبالتها وفوق ثغره ذات البسمة التي تحولت لضحكة قصيرة وهو يتشدق قائلًا في غلاظة:

- بصراحة: الصرف باين.

بادلته الضحكة في خجل:

- طول عمري حلوة بس العتب على النظر.

ضحك بقوة أثارت غيظها فوقفت له متخصرة في تحفز لأي كلمة أخرى ينويها، إلا أن ضحكاته



هدأت، محياه باسم وفي عيناه وهج خاص تراه لأول مرة:

- مبروك يا سماح.

ولأنه حسن شقيقها وتحفظه عن ظهر قلب كانت تعلم أنه لن يبادر بضمها في هاته اللحظة الفارقة لذا نحت خيبتها فيه وإقتربت تلقي بحالها فوق صدره، تضمه لها في حنو ناسب اللحظة:

- يبارك فيك يا قلب سماح.

شد على ضمتها، يهمس دون مزاح وقد أثارت فيه ضمتها مشاعر مختلطه:

- يابخته بيكي.



ابتعدت عنه تهتف في زهو:

- طبعًا يا بخته، كان هيلاقي زيي فين!

ضرب مؤخرة رأسها مازحًا:

- ماتعشيش الدور قوي كده ده إحنا دفنينه سوا.

ثم رمق ساعة يده مستطردًا بجدية على عجل:

- يلا عشان كده هنتأخر على المأذون.

وكما فعلت مع زوجته عادت تكررها معه، تتشبث في ساعده تقطع خطوته الوليدة دون مقدمات:

- خلي بالك من مراتك يا حسن.. أمك كان عندها حق لما قالت مش هتلاقي زيها.



توقف يبادلها النظر لحظات قال بعدها وقد ظهر القلق في نبرته:

- هي قالت لك حاجة؟

- هتقول إيه أكتر من اللي أنا شيفاه؟!

سحب شهيقًا قصيرًا وهو يتخطى ذلك الجزء من الحديث بجبين مغضن:

- طيب يلا عشان منتأخرش.

وللمرة الثانية أوقفت خطوته ونظرتها تخترق عينيه:

- بتحبك يا حسن والله العظيم بتحبك ومالهاش حد غيرك، أنت ماشفتهاش كانت عاملة إزاي وقت ما اتحكم عليك!



كان بصره يحوم فوق وجهها كأنما يبحث عن تفسير لكلماتها، كلمات رغم بساطتها إلا أن فهمها جاء مستعصى، يدرك نيتها في إصلاح مابينهما وهي في الحقيقة لا تدرك شيئًا عما بينهما بل إحقاقًا للحق سماح لا تعلم عنه سوى الشيء الضئيل ولأنها شقيقته تخطته.

حينما لم تجد منه غير الصمت استطردت ويدها تربت فوق ساعده، ودت أن تحشر الكلمات في رأسه حشر:

- لو مش عايزها تبعد عنك عوضها، خليها تشوف حسن اللي اتجوزته مش اللى كان مسجون.. وقتها هتلاقي أنت كمان نسمة اللي نفسك فيها.



كيف تفعلها!

كيف تزرع فيه الأمل بهكذا كلمات، كلمات ماهي إلا خلاصة عقلها الباطن وكم إستهوتها نفسه..

استهوتها حد رغب التصديق!

لملم شتات حاله قسرًا:

- يلا يا سماح.

بعد وقت قصير كان كفه يعانق كف الآخر، يرددان من خلف المأذون الكلمات المعهودة، وكانت الخلاصة في..

- زوجتك موكلتي.

- قبلت زواجها.



(٢٣)

يحدث أن يولد الصمت انفجارًا أكبر وأعظم من الضغط

كان الطريق الصامت طويلًا، ثقيلًا بقدر القرب بينهما، غادرا سويًا ما إن اطمأنا على العروس في بيت الزوجية، وها هي تجاوره داخل سيارة حديثة الطراز يقتنيها منذ أن بدأ عمله وعلمت آنذاك أنها تعود في الأصل لأبيه الراحل.. جسدها منكمشًا على جانب المقعد بينما وجهها توليه ناحية النافذة المفتوحة، تتلقي صفعات الهواء الربيعية برحابة صدر وجل مايشغل بالها كيف ستقضي ليلتها وحيدة برفقته؟ كيف تنام ويجمع بينهما باب واحد..

بل السؤال الأكثر إرهاقًا.. هل تأمن!

كان بدوره صامتًا، عيناه ثابتة على الطريق من أمامه بينما داخل عقله تدار طواحين.. بعد عقد القرآن خرج الجميع من المسجد، توقفوا لبعض الوقت داخل الساحة الخارجية لالتقاط بضع صور برفقة العروسين، ما يثير جنونه حتى اللحظة ولا يدري كيف كان لذاك الأنس أن يلتصق بزوجته ملتقطًا وإياها الصور وإن كان ذلك يثير جنونه فما يثير سخطه هو تباسطها معه!

توددها و تبادلهما للحديث الرائق مع بسمات لا تنتهي، كأن مابينهما عشرة سنوات لا أيام، وماذا



إن كانت تجمعهما جامعة واحدة هل لهذا دخل في ذاك!

ما إن توقفت السيارة حتى رآها تندفع للخارج كطريدة منحت فرصة الهرب، أطارت فعلتها تلك ماتبقي فيه من صواب ليندفع بدوره صافقًا الباب عقب ما صف السيارة كيفما اتفق، فهو على يقين أنها تهرول الخطى حتى تلوذ بغرفتها متحاشية إياه عن قصد..

ما إن ولجت حتى كان من خلفها يصفق الباب في شيءٍ من قوة، لم تأبه له وهي تخلع حذاءها وتتخطاه إلا أن ذراعه كانت الأسبق إذ تحكم في ساعدها بقوة أجبرتها على الالتفات، نظرته القاتمة تضيق في تركيز كمن يحاول قراءة الأمور

بينما عيناها تتظاهر بالثبات وفضحها تذبذبها..

ربما تظن أنه ينوي تنشيط نواياه الخبيثة

فالمكان خال والشيطان حاضر كما يقولون،

هكذا فكر قبل ما يميل جانب فكه في تهكم

وعقله ذاهب مع خاطره، وكم راقت له خواطره

حتى عاد وسألها دون مقدمات، فما بينهما لا

يستلزم تلك المجاملات:

- إيه حكايتك مع الواد التافه ده؟

للحظة ندت عن شفتيها ضحكة ساخرة بترتها

وهي تلوي ذراعها في محاولة تخليصه، إلا أنها

تعلم أنها محض محاولات تبوء بالفشل في النهاية

كما تجري العادة دائمًا، أين هي من تلك القبضة

الحديدية التي تحكم الوثاق من حولها ما إن

يبغي صاحبها ذلك.. تركت ذراعها عالقًا بين أصابعه ورفعت ذقنها تجابه نظرته القاتمة بأخرى تلبسها غضب حاولت تلجيمه خشية إثارة فضائح في هكذا توقيت وهي تصيح بانفعال:

- تقصد مين بالظبط؟

- هو في غيره؟.. أنس!

لفظها قوية متهكمة فجاءت نبرتها مستنكرة لما تسمع من اتهام:

- وحكاية إيه بقى اللي حضرتك شايفها؟

بانفعال كان يلفظ الكلمات:

- والله مستني أسمع، ماهو مش أنا اللي كنت لازق فيه ومقضيها سهوكة وقلة أدب!



ضحكت عن جد تلك المرة، ها قد إتضحت أمامها حقيقة أفكاره الملتوية، وما كان منها في هاته اللحظة غير أن تقذفه بمرآته كي لا ينسى حاله:

- تعرف أنا مش هرد عليك، عشان اللي زيك مايعرفوش يعني إيه بنات ناس محترمة.

- ما هو واضح يا محترمة.

- أنا محترمة غصب عنك!

قالتها وقبضتها الحرة تضرب صدره بكل ما أوتيت من قوة، أفلت يدها وعيناه تتحداها في نظرة بينما كانت أنفاسها تتناحر في الخروج، تقهقرت للخلف في خطوات متباطئة وأصابعها



تتحرك في عبث حتى تخلصت من حجابها المشعث إثر انفعالها الشديد..

تبادلا النظرات القاتلة لدقائق قصيرة، قطعتها وهي تتحداه بوقفتها عاقدة ساعديها فوق صدرها:

- عايز تعرف في إيه بيني وبينه؟..

كانت يراقب تدرج انفعالاتها من محتقنة إلى شرسة في صمت، كانت غاضبة، مشتعلة كمن ضغط فوق زناد صبره فانفجر دون تأخير:

- في محامي بضمير مش هتقدر ترشيه، محامي هيخلصني منك.



كل كلمة منها وازت خطوة منه، اقترب بأنفاس بانت حشرجتها وقبضتان اشتدت ضمتهما، حتى قابلها وحينها خرجت حروفه متمهلة، بشرر:

- يعني أنتِ طلبتي من أخويا يشوف لك محامي، عشان ترفعي قضية خلع ضدي.. قولي ماحصلش لو باقية على عمرك!

هدرت بقوة ضاربة بتهديداته عرض الحائط:

- قلتهالك قبل كده وهعيدها لك تاني، مش هخاف.. آخرك إيه يعني؟.. هتقتلني؟ ماتقتلني!

رفع قبضته اليمنى أمام فمه يهدأ من إرتعادة فكه وينفس فيها عن حمم أنفاسه الهادرة ليزعق بعد حين في غضب كاد يحرقهما معًا:

- أنتِ بتعملي كده ليه؟.. هه، عايزه توصليني لأيه!

أحاطت رأسها بواسطة كفيها تناشد بذلك خبال كلماته:

- أنتَ اللي عايز مني أيه؟ أنت واحد مجرم.. مكانك وسط الحرامية والخطافين..

التقطت أنفاسها الهاربة في غصة مؤلمة وعادت تستكمل وصلة زعيقها المتهدج:

- اللي زيك هيخاف يشوف النور عشان طول عمره عايش في الضلمة.

بركان..



بركان وانفجر في لحظتها، بدأ بآنية من كريستال تحتل منتصف المائدة وبضربة واحدة كانت تتحول لشظايا فوق الأرضية المصقلة وضجيجها كان يصاحب صراخه الهستيري:

- بطلت..

لم يبقِ على مقعد ولا منضدة في مكانها، كان كالثور الهائج يأتي على كل ما يلمس يداه، يضرب هذه ويركل تلك، وهي على حالها تصم أذنيها بباطن كفيها وهلعها يشاركه هياجه، كادت عروقه النافرة في جبهته أن تتمزق وهو يصرخ ثانية:

- مابقتش زفت..



والأخيرة خرقت مسمعها في عذاب:

- ارتاحتي!

- مش هرتاح غير لما تسيبني في حالي.

زعقت بها وهي تتعثر الخطى، تبغي ابتعادًا،
ستلوذ بحالها بعيدًا عن ذلك المخلوق الذي لا
ينتمي لفصيلتها أبدًا، لكن صرختها اللآإرادية
خرجت مع تصلب جسدها، تشعر بسكين حاد
شق باطن قدمها، مال بصرها لأسفل فهالها
منظر الدماء النافرة إلا أن الألم هناك كان أكبر
من المحتمل، أطبقت فوق جفنيها بقوة أطلقت
بعدها العنان لبكاء تعالت وتيرته كلما
نخرالزجاج باطنها أكثر، إرتكزت بكفيها فوق
حافة المائدة دون مقدرة على الإتيان بحركة

أخرى.. انتشله بكائها من غيابات الغضب ومع الألم المتجلي فوق قسماتها لم يحتج سوى لثانيتين وكان بصره يلتقط منظر الدم النافر من بين قطعة الزجاج المغروزة في باطن قدمها، اقترب من فوره يعدل من وضع أحد المقاعد وبواسطة ذراع واحد أحاط بخصرها المتصلب ليضعها عليه برفق جالسًا القرفصاء بعدها، رفع قدمها النازف في حذر وبغتةً سحب قطعة الزجاج، أطلقت لها صرخة متألمة بينما تتشبث بظهر المقعد، تطلع إلى وجهها في قلق ثم عاد لجرحها محاولًا التأكد من عدم وجود شيء آخر وحينما لم يجد ضغط بقوة فوق الجرح الغائر يمنع تدفق الدماء أكثر.. مضت دقائق كان



بكاءها يخفت تدريجياً وهي ساكنة في تسليم،
ساهم النظرات فوق قدمها النازف بين راحتيه،
وكأن ذلك السيل الدافئ من الدماء هو من
أخمد بركانه الثائر منذ لحظات.. حتى صوته كان
قد بح عندما همس:

- جرحك كبير، محتاج تنضيف ومرهم عشان
يخف الوجع.. هتستحملي؟

أدرك من تيبس جسدها أكثر أنها تستمع إليه
بكل وضوح وجاء التأكيد حين حررت قدمها
المصابة من بين راحته ببطء، نهضت بعدها
تتحامل رغم ألمها وحروفها المتحشرجة تتطاير
إليه من خلف كتفها:

- كل وجع مقدور عليه.. إلا أنتَ.

كان بصره يقتفي أثر الدماء من خلفها حتى اختفت داخل دورة المياة. بسط كفوفه الملطخة بالأحمر القاني ونظراته الساهمة تتحول لأخرى متألمة إثر جملتها الأخيرة التي اخترقت ضلوعة كسهم صوب.. فأصاب.

***

حين تدنو منك عناقيد السعادة لا تنتظر!

اقتطف منها نصيبك بكل أنانية تمتلكها

على أنغام الروح كان يتمايل جسدها داخل الثوب الحريري وبالرغم من احتشامه بطوله حد الكاحلين إلا أنه كان يضم حنايا جسدها مبرزًا مفاتنها الأنثوية في تناغم يليق بذلك الميل..



تحتل مطبخها منذ ساعة تقريبًا في باكورة صباح زواجها، تعد فطورًا ملوكيًا يليق بليلتها الفائتة..

تشعر ببهجة تسكن نفسها، إبتسامة هادئة ترقد فوق ثغرها منذ أن افترق جفنيها واستوعب عقلها أنها تعاصر العلم لا الحلم..

كان مهذب المعاملة، متفهمًا لخجلها في هكذا ليلة، منحها كل مايلزم لتستكين له في النهاية آمنة مطمئنة بل وتغفو بين ذراعيه دون شعور.

- صباح الجمال.

نبرته مع ذكرى الأمس سارعت من وجيب الدقات داخل صدرها، دارت برأسها تقابله مرتكزًا فوق



إطار الباب يزين قسماته بسمة راضية بادلته إياها بنبرة خجلة:

- صباح النور.

- في عروسة تقف في المطبخ برده؟

قالها معاتبًا بينما يقترب حتى جاورها قرب الموقد لتأتيه نبرتها المرتبكة:

- أنا قلت أحضرلك فطار.

تجاوز ارتباكها ورفع ذراعًا يحيط بكتفيها معًا:

- همممم الريحة تجوع بصراحة.

ثم مال برأسه تاركًا قبلة صغيرة فوق وجنتها مع همس أجش قرب أذنها:

- صباح الجمال تاني.

وتحرك للخارج تاركاً إياها مبعثرة الخوالج، حينما انتهت من توضيب السفرة كان قد فرغ بدوره من أداء فرضه وقبل ما يصل إليها كانت طرقات متتالية فوق الباب تقاطع خطواته، ما إن فتح الباب حتى إندفعت صغيرته نحوه في عاصفة بكاء شديدة، تلقفها بين ذراعيه ثم رفعها مهدهدًا إياها برفق:

- بس يا بابا..

يعلم أن ليلتها كانت صعبة، فلأول مرة تفارقه في المبيت منذ وفاة والدتها، ظهرت أمه تلحق بها بأنفاس متقطعة وأقدام تأن ألمًا إثر صعود الدرجات.. سألها بقلق وقد إستحوذ عليه بكاء صغيرته:



- مالها أميرة يا ماما؟

وصلت المرأة المسنة بعد عذاب، تهتف بأنفاس لاهثة:

- من عشية يابني مابطلتش عياط ونامت بعد عذاب، ويدوب فتحت عينيها فتحت الباب وطلعت تجري.

- ولا يهمك يا أمي تعالي إستريحي.

قالها وذراعه يدعمها بالفعل حتى دلفت، ما إن رأتها سماح المراقبة للمشهد حتى تقدمت ناحيتها في ترحيب إلا أن المرأة تلقفتها بين ذراعيها في مباركة وتهليل:

- صباحية مباركة يا حبيبتي.



وعادت إلى ابنها تقبله بدوره:

- ربنا يعوض عليك ويفرحك يا ابني.

وسريعًا كانت تستطرد في حرج:

- أنا هنزل بقى، متأخذيناش ياسماح قلقناكم من بدري في يوم زي ده بس أميرة غلبتني وماقدرتش عليها.

رفعت عنها حرجها بتربيتة كف في لطف:

- ماتقوليش كده ياخالتي ده البيت نور.

وتبعها أحمد:

- السفرة جاهزة يا أمي، يلا عشان تفطري معانا.



- ألف هنا يا حبايبي أنا سبقتكم، هنزل بقى عشان خالتك قالت هتعدي عليَّ، عيب تيجي وماتلاقنيش.

أغلق الباب برفق من خلفها ويده تمسد ظهر صغيرته التي عقدت كلا ذراعيها حول عنقه، تدفن وجهها فيه بصمت إلا من نهنهات خفيفة.

جلس خلف المائدة وتبعته سماح فوق مقعد مجاور، كانت تراقبه كيف يهدهد الصغيرة حتى هدأت بين ذراعيه محاولًا اطعامها بضع لقيمات إلا أنها رفضت، فقط تتشبث بأصابعها في كنزته القطنية وترميها كل حين بنظرات غاضبة.

أدركت على الفور؛ فالصغيرة تغار على أبيها منها..



بادرت بمد جسر للتواصل وهي تمسد ذراعها برفق:

- فستانك جميل يا أميرة، إيه رأيك بعد الفطار أعمللك تسريحة جميلة كمان؟

بقدمها دفعت بكفها بعيدًا، تزيد من تشبثها وتبكي من جديد:

- بابا هيعملي.

جاءت نبرتها الطفولية صارخة بقوة في رفض قاطع، اكتنفها الحرج على الفور وهي تعود بكفها إليها إلا أنه تمسك فيه ضاغطًا فوق أصابعها في لين وإعتذار:



- حقك عليّ.. هي بس محتاجة شوية وقت وتاخد عليكِ.

تفهمت كلماته بهزة رأس آثرت الصمت بعدها وهي تراه حائرًا بينهما باغيًا لكلتيهما الرضا، بعد حين أجفلها مقربًا من فمها قطعة خبز، تطلعت لكفه القريبة للحظات مال فيها بصرها فوق ابنته لتجدها قد راحت في سبات، ترددت وزاغت ببصرها وهي تتناولها مضطرة حتى لا تحرجه بينما هو لا يتوانى عن إحراجها منذ الصباح مرة بتقبيلها والآن وهو يطعمها بيده، رفعت بصرها على ضحكته التي تعالت وتيرتها وهو يرمقها عاقدًا حاجبيه مرددًا من بينها:

- وشوية زيهم عشان تاخدي عليّ أنا كمان.

شعرت بحرارة وجنتيها تزداد فأدارت دفة الحوار عائدة به لصغيرته:

- لاحظت أن أميرة دايمًا واخده جنب من أي حد، لا بتتكلم ولا تلعب زي اللي في سنها.. هي طبيعتها كده؟!

تغيرت ملامحه في الحال ومال برأسه فوق الغافية على صدره، وبينما أنامله تداعب وجنتها الدافئة جاءت نبرته يشوبها بعض الحزن:

- خالص.. من بعد وفاة والدتها وهي بقت إنطوائية وعلاقتها محدودة مع الكل تقريبًا، حتى مع زمايلها في المدرسة وطبعًا جه مرضها وزاد من الأزمة.



- هو أنا ينفع أسأل توفت إزاي؟

سألت في تردد وهي تعبث بصحنها في تشاغل مصطنع، بعد حين وصلها همسه الخافت:

- حادثة.

- كان إسمها إيه؟

- أميرة.

للوهلة الأولى تشوش فكرها وهي ترفع له رأسها ولزمها بضع ثوان حتى إستوعب عقلها أن زوجته الراحلة كانت تحمل نفس إسم الصغيرة أو العكس هو الصحيح..

كان مازال بصره معانقًا لقسمات النائمة بينما التمعت مقلتيها في تأثر على حالهما، كيف كانا



يدبران أمورهما عقب ما انقلبت حياتهما هكذا بين ليلة وضحاها..

نهضت من جلستها وإقتربت تحاول حمل الصغيرة فدار لها برأسه يهمس أمام وجهها القريب:

- إستريحي أنتِ أنا هدخلها أوضتها.

- ماتخافش مش هتصحى.

تركها تحملها برفق حتى غابت بها عن مرماه، فرك عينيه لائمًا حاله، ماكان عليه أن يسهب في الحديث معها حتى وصلا لتلك المنطقة في هذا اليوم تحديدًا.. وبينما هو غارقٌ في تأنيب الضمير كانت هي تدثر الصغيرة بغطائها وقد لفت



إنتباهها صورة مؤطرة تجاور الفراش، كانت لامرأة رقيقة الملامح ذات إبتسامة وضاءة تنير وجهها المستدير، ودون سؤال أدركت أنها الزوجة الراحلة وأم الصغيرة الغافية. مسحت ذرات الغبار عن الواجهة الزجاجية بواسطة كفها ثم عادت بها لموضعها.. خرجت بعدها لتجده يكاد ينهي تنظيف السفرة بعد ما أدخل جميع الأطباق للداخل، اقتربت سريعًا تنهاه عما يفعل:

- أنت بتعمل إيه؟ مايصحش كده!

- يصح طبعًا ولا أنتِ عايزه تشتكيني لحسن؟

قالها بمرح محاولًا تلطيف الأجواء بينما يتبعها لداخل المطبخ، تقبلت مزاحه باسمة، تهتف من خلف باب الثلاجة:

- لسه فاكر؟ ماكنتش أعرف أن قلبك أسود كده.

تشدق ضاحكًا قبل ما يسألها:

- على سيرة حسن كان مسافر فين صحيح؟

ازدردت لعابها وكادت أن تسقط ما بين يديها وهي تهرب ناحية حوض الأطباق..

لا تدري لِمَ لا تخبره وتنتهي من ذلك الخوف الذي يجتاحها ما إن يقترب من الأمر، لا سبب تملكه غير أنها تجبن من إخباره في كل مرة كانت تقابله فيها، فكل مرة كانت تزداد تشبثًا ورغبةً في إتمام تلك الزيجة..



بعد تردد حررت همس كاذب كان أول ما جال في رأسها:

- السعودية.

- دلوقتي!.. معقولة يا سماح؟

أخرجها صوته المستنكر من حالة الشرود التي إبتلعتها لتجد حالها تقف أمام الحوض ورغوة الصابون تغطي يديها.. حينما لم يجد منها أي ردة فعل نظف يديها من الصابون العالق فيهما ثم أغلق صنبور الماء وهو يسحبها من خلفه نحو الخارج.

***



القِ بمفتاح قلبك في أقرب بئر عندما تهان مشاعرك..

فهل بعد إهانة القلوب حياة!

"عايز أقابلك"

منذ فترة وهو يلاحقها بهاتين الكلمتين، وكلما تهربت بحجة ما عاد وكرر مطلبه في إلحاح بغيض، لا تعلم ماذا يبغي ولا ماهية نواياه الجديدة، فما تبقى بينهما انتهى بفض ماكان يجمع بينهما من أعمال ليذهب بعدها كلًا في حال سبيله، وظننت أنه نسي أمرها كما فعلت هي، لكن على مايبدو أنها دائمًا معه تكون على خطأ..



وصلت متأخرة عن موعدها بنصف الساعة، قلبت بصرها في أنحاء المكان الراقي حتى رأته يحتل طاولة جانبية قريبة من الجدارالزجاجي السارح فيه، تنحنحت بهدوء تعلن عن وصولها الذي قابله بنهوض سريع، تطلع إليها لثوان فضها بمصافحة وترحيب مختصر:

- إزيك؟

- الحمد لله.. أنت أخبارك إيه؟

أجابها بهزة رأس صامتة وما إن جلسا حتى بادرها:

- لما تأخرتي قلت غيرتي رأيك.





وقبل ما تنبس ببنت شفه كان يستطرد ببسمة باهتة:

- شكرًا أنك جيتي ياميسون.

- ياريت تدخل في الموضوع على طول يانديم وتقول عايز إيه؟

شمل وجهها كله في نظرة واحدة ليدمدم بعدها دون مقدمات بصوت خفيض:

- عايز أعتذر لك.. آخر فترة جمعت بينا قلت كلام مايصحش يتقال.

نبرته الباهتة وهيئته المرهقة أثارت حفيظتها مما جعلها تميل بجذعها بعض الشيء، سائلة إياه في قلق:



- أنت كويس؟

قابل عينيها ولاح فوق ثغره بسمة لا روح فيها:

- المفروض كويس.. مش عارف.

تكفلت ببسمة باهتة تشبه خاصته تمنحه بها فرصة للإفصاح عما يجيش بصدره وأوصل به لتلك المرحلة:

- لو حابب تتكلم.. أنا سمعاك.

تاهت الأحرف فوق شفاه، عما يتحدث ليتحدث أوليس ليعلم قبلًا عما يبحث ولا ماذا يبغي..

ومع ذلك سوف يخبرها عما فيه علها ترسو به بعيدًا عن ميناه التيه:

- أنا طلقت شهد..



لم يبد عليها الدهشة وكأنما ما يحدثها فيه كان متوقع الحدوث، وحينما لم تعلق نفخ في ضيق وهو يبعد ناظريه عنها ملقيًا بهما خلف الزجاج، فالقادم أثقل:

- جرحتها وعملت غلطة مستحيل تغفرها لي.

ثم عاد لها باسطًا كفيه فوق سطح الطاولة هامسًا لها في اختناق:

- أنا بإيديا دول حرمت إبني من أنه يجي الدنيا.

وإن كان فقدان الجنين مقدر من البداية، وحتى لو تعددت الأسباب سوف يبقى هو المذنب الأول والأخير في نظر نفسه.. كان لجملته الأخيرة أثر وهي تخترق نظراته تبحث عن تكذيب لما يتفوه، لكن



حينما أطرب مسامعها بالحكاية كاملة كانت تلك صدمة جديدة.. كيف أمكنه ذلك!

وجاء تبريره الواهن:

- ماكنتش شايف غيرك.

تسآلت في مرارة:

- يعني بعد كل ده جاي تشيلني ذنبك؟

نفى برأسه مغمغمًا بأسى:

- الذنب ذنبي أنا مش هبرر بس..

سحبت شهيقًا متعسرًا وهي تقاطعه لتمنحه الخلاصة:



- أنت بتحارب في الجبهة الغلط يا نديم، ندمك وأسفك من حق مراتك اللي حرمتها من أبسط حقوقها..

قاطعها:

- أنا حاولت أصلح بس هي أصرت على قرار الإنفصال!

هتفت فيه بقوة وعيناها تلومه:

- في فرق بين حاولت تصلح عشان تريح ضميرك من ذنب عملته وبين تصلح عشان عاوز تصلح.. وأنت واضح أنك مش تبع التانية وإلا ماكناش قاعدين سوا دلوقت.



حاول مقاطعتها من جديد إلا أنها منعته بكفها المرفوعة في صرامة.. متابعة:

- أنت ماحبتنيش يا نديم، إكسر الشماعة اللي عمال تعلق عليها كل أخطاءك، أنا كنت بالنسبة لك هدف عايز توصل له بأي طريقة، وكل ما الهدف ده كان يبعد كل ما كان إصرارك يزيد.

وأقرت له آسفة بما تراه:

- ولا حبيت شهد، أنت حبيت حبها ليك، عجبتك صورتك الجميلة في عينيها ولما اختلفت الصورة دي تخليت عنها ببساطة.

وأسدلت الستار:



- اللي بيحب حد مايعرفش يأذيه يا نديم، وأنت أذيتنا إحنا الأتنين.

ثم نهضت بجسد مرهق، ترمي بآخر الكلمات كان بها نهاية المطاف:

- لو عايز نصيحتي إرجع عيد حسباتك من الأول وشوف الغلط بدأ منين وصلحه، جايز وقتها تعرف.

وغادرت..

غادرت عقب ما نال منها على عدة صفعات واحدة تلو الأخرى، وفي كل مرة كانت تبرز خباياه أكثر، غاص برأسه بين كفيه وشعور مؤلم يتسربل فيه من الداخل..



لكن هكذا هي الحقيقة دومًا قاسية، باترة وناحرة.

****

حزينة..

شاردة وساكنة على غير العادة..

منذ الصباح وهي على تلك الحالة، لم تتحدث سوى بضع كلمات مقتضبة وقت الضرورة لتعود بعدها لقوقعة الصمت..

ماذا تفعل فيه تلك القصيرة؟

تجذبه ضحكتها وتقتله بشقاوتها ويكاد يجن في هاته اللحظة ليعرف سبب حزنها..

- غنى..



ناداها بهدوء حتى لا تفزع.. قابلته برفعة رأس وعيون ذابلة، حينها لم يدري إلا وهو يقترب في قلق حقيقي:

- مالك؟

بللت شفتيها بطرف لسانها وهي تقاوم دمعات تهدد بهطول، قائلة في اقتضاب:

- مفيش.

- ماما وعمر كويسين؟

إكتفت بهزة رأس تعني "نعم" تلك المرة، مما أثار القلق فيه أكثر ودفعه ليضغط عليها من جديد:

- طيب تعبانة؟

لم ترد..



وحينما أوشك على مبادرة جديدة سبقته، تسأله في تهدج:

- مهند؛ في مشكلة لو مشيت دلوقتِ؟

ومهند قتيل تلك النظرة الحزينة والنبرة المتهدجة.. ظل يتفرسها دون جواب لتنهض دونه، في آلية كانت تلملم متعلقاتها من فوق سطح المكتب وما إن انتهت وأوشكت على المغادرة كان يوقف خطواتها حائرًا:

- تحبي أوصلك؟

بادلت لطفه بشبح إبتسامة:

- هو السواق موجود.. بس أنا محتاجة أكون لوحدي شوية.



أذعن لرغبتها موافقًا بهزة رأس شكرته عليها بنظرة إلا أنه لاحقها بصوته، يعرض خدماته بسخاء فاجئة:

- لو احتاجتِ حاجة.. أنا موجود.

منحته إبتسامة فاترة بادلها بأخرى مؤازرة رغم جهله عما بها قبل ما تختفي من أمامه..

وضعت منظارها الشمسي تحجب عينيها الغائرة بالدمع عن الجميع، وبدلًا من صعود السيارة فضلت السير..

ظلت تسير وتسير حتى ابتعدت، ضمت حقيبتها فوق صدرها وحررت دمعة تلتها أخرى وأخرى حتى بات نهرًا لا ينضب..



كيف له أن ينضب وأمها تريد خلع ذكرى أبيها بالزواج من آخر!

***

ينخرط داخل دوامة العمل يومًا بعد يوم بل ويزداد تعلقًا وولعًا بأصول التجارة التي لآقى فيها استحسانًا بشهادة من الجميع، ولا ينكر منصبه كرئيس ومايمنحه المكان من سلطة أتاح له الفرصة كي يعمل وينتج أكثر خاصة بعد ما تخطى صعوبة البدايات ليصبح بعدها كمن تربى وسط أصول المهنة.

بمزاج عكر غادر مكتبه..



بل هو بمزاج عكر منذ البارحة وتحديدًا عقب التصادم الأقرب للانفجار الذي حدث بينهما، قضى ليلته يصلح ما خرب على يديه ويعيد كل قطعة إلى موضعها، وظنها ستلازم البيت حتى يلتئم جرحها إلا أنه لم يجد لها أثرًا في الصباح!

وعلى ذكرى البارحة المتوجهة داخل عقله ظهر له هذا الأنس متبخترًا في مشيته مقابلًا إياه عند البوابة الخارجية..

ولم يكن يعلم هذا الأخير أن اليوم ليس بيومه مطلقًا حين قرر المبادرة بتحية مع كف مرفوع وإبتسامة مشرقة يتبعها..:

- صدفة حلوة دي ياحسن.



وحسن اقترب بدوره منتشيًا كمن منح هدية على طبق من ذهب، أخذ كفه الممدودة بين قبضة كادت تهشم له أصابعه وهسيس صاحب ميله قرب أذنه:

- مالكش دعوة بمراتي يا أنس، شوف لك حد تاني اتسلى عليه عشان صدقني ردي عمره ما هيعجبك..

وابتعد يراقب لونه الذي بهت ثم رفع أصابعة يعدل من ياقة قميصه دون حاجة، مردفًا بوعيد جاد:

- اعتبر ده تهديد.

ورحل تاركه صاغرًا!



بعد حين..

دلف وأغلق الباب من خلفه، حين قابله السكون القفر أرجح الأمر لكونها تلازم غرفتها كالمعتاد إلا أن الظلام السابح في الأرجاء خيب ظنونه، دقائق فقط وكان على يقين تام أن لا أثر لها!

كم مرة حاول مهاتفتها طيلة اليوم؟

لا يذكرعددها فجميعها باءت بالفشل، بالرغم من أنها كانت تستحوذ على تركيزه طيلة النهار ومع ذلك عجزعن فعل أمر بسيط كهذا.

طالع الساعة المستديرة فوق الحائط فوجدها قد تخطت ميعاد عودتها بساعة كاملة.. قطب



جبينه في قلقٍ تضاعف بعد مرور ساعة أخرى ولا جديد، حينها لم يفكر مرتين وهو يطلب رقمها لتصله الرسالة المسجلة مفادها أن الهاتف الذي يحاول الاتصال فيه مغلق..

على عجل بدل ملابسه من جديد مقررًا بذلك الذهاب إلى المتجر اللعين التي تعمل فيه وكانت صدمة بحق حينما أخبرته إحدى العاملات أنها لم تحضر اليوم..

كرر الإتصال بعدها عدة مرات وكلها حملت نفس الرسالة البغيضة، سار بالسيارة على غير هدى و في كل مكان قريب يحتمل وجودها فيه ولا شيء..



عقب ساعتين كان يعود للبيت على أمل ضعيف أن يجدها، لكن الظلام ذاته أخبره أن المكان مازال خاليًا..

سحب أحد مقاعد المائدة وجلس شاخص البصر دونما يضيء أي مصابيح مكتفيًا بالضوء الشاحب القادم من الخارج مخترقًا فتحات النوافذ..

وكلما تضاعف الوقت المارق كلما تضاعف هلعه وازداد ضغطه فوق الهاتف حتى كاد أن يتهشم بين أصابعه..

أين ذهبت؟

هل حدث لها مكروهًا بقدمها المصابة!



ومع تعالي أذن الفجر من حوله أغمض عينيه قانطًا وهو يشعر بلهيب حارق يضرب بنافوخه وعيناه معًا، رفع كفيه يحيط بهما رأسه فلم تزده إرتعادة أصابعه إلا ألمًا!

ومع محاولة جديدة للوصول لم تسفر عن شيء آن للسؤال الأكثر منطقية أن يبرز من بين عتمة أفكاره..

هل هجرته وانتهى الأمر!



(٢٤)

بين خصام القلب والعقل تحدث الويلات

تائهة بين دروب الحياة، ضائعة فوق مفترق طرق

لا تعلم من أين الذهاب ولا كيف يكون الإياب..

حينها أخذتها قدماها حيث نهاية المطاف..

إلى الأمان والسند الراحلين..

فوق قبريهما قضت نهارها كله، بكت كما لم تبكِ

من قبل، عندهما ألقت بوجيعتها وأثقال روحها

المتعبة..

تشعر كأنما الكون بكل اتساعه يضيق من

حولها..

لم تكن قبلًا خامدة الروح، لم تكن أبدًا

مكسورة النفس هكذا..



لم تشعر باليتم كما تشعر اليوم..

تشعر بحالها كأنها منبوذة من رحم الحياة!

هذه ليست هي..

لم تكن يومًا هشة..

من قلب الضعف كانت تولد قوة وصلابة بل وعزيمة..

يفسدها هو..

يحيلها لخراب لم تكنه يومًا..

يقتات على كل مافيها ولن يتركها حتى تكون خراب يماثله..

- أنتِ كويسة يا نسمة؟



كان القلق والنبرة لغنى التي تفاجأت بحضورها عقب عودتها بفترة قصيرة، إستقبلتها ورحبت بلقياها التي تضائلت كثيرًا عقب عودة زوجها الغائب.. وصلتها هزة رأس تعني"نعم" لم تستسغها وهي تقترب حتى جاورتها فوق أريكة غرفتها عاقدة ساقيها من تحتها، تفرست ملامح وجهها في صمت ثم مدت كفها تمسد جانب وجنتها مع نبرة بانت مهتمة:

- أنتِ معيطة صح؟..

حاولت نسمة التكفل ببسمة صغيرة إلا أنها فشلت بينما تهمس لها دون حياة بعد حين:

- غنى؛ في مشكلة لو نمت عندك الليلة؟



نبرتها المتهدجة بضيق جعلتها من فورها تجذبها إليها تضمها برفق، تمسد ظهرها وتهتف بحب شديد:

- طبعًا يا نسمة طبعًا ومن غير ما تستأذني أصلًا، بس أنتِ كده قلقتيني أكتر! قولي مالك عشان خاطري.. متخانقة مع حسن صح؟

ولأنها على يقين أنها لن تتركها في سلام، وافقتها الظن:

- خناقة عادية ماتشغليش بالك.

قدرت مساحتها الخاصة وهي تدير دفة الحوار محاولة طرد المزاج الغائم لكلتيهما وتهمس بحماس فاتر:





- مبسوطة أننا هنام سوا، وحشتني أيام ماكنا صغيرين.

تبسمت الأخرى للحنين:

- ياريت فضلنا صغيرين.

بعد فترة كانتا تتشاركان الفراش في صمت ثقيل يطبق فوق الصدور، ساكنة الأجساد بينما العقول تبحر نحو البعيد.. دونما حراك همست نسمة دون مقدمات محاولة بذلك نسيان أمرها:

- مامتك ماغلطتش يا غنى، والخصام مش حل ياريت تسمعي لها.. في النهاية لازم تفهمي أن دي حياتها ومن حقها تختار تكملها إزاي ومع مين.

ظنتها لم تسمعها حتى همست بالكاد بعد حين:



- مش عارفة أستوعب يانسمة عشان أفهم.. إزاي كانت تحب بابا كل الحب ده وتقدر تكون لراجل غيره!

- ماينفعش نلومها عشان بتفكر في نفسها، هي مش حكر ليكم، أنتِ بكره تكون لك حياتك وتنشغلي عنها، وعمر هيكبر ويشوف حياته هو كمان وفجأة تلاقي نفسها وحيدة.. حقها تخاف.

مالت ناحيتها برأسها والاستنكار حليفها، تهدج صوتها مع دمعتين يتيمتين:

- بس ده شهاب يا نسمة!

مالت على جانبها هي الأخرى حتى واجهتها، تمسح لها دمعتيها بالإبهام ولسانها يهمس في مؤازرة:



- ماتجيش عليها بزيادة يا غنى، اللى راح كان جوزها قبل مايكون باباكي.. الحياة مابتقفش وهي عمرها ما تفكر تشتري سعادتها على حسابكم، بس كده أنتِ اللي بتشتري راحتك على حسابها.

تنهدت بعمق قبل ما تومىء لها برأسها في تفهم لما تقول، بعد حين كانت تغط في سبات عميق بينما غريبة الدار ساهره حتى مطلع الفجر، حركتها لا تهدأ كأنما تتقلب فوق جمرمتقد، كم عاشت بين جدران هذا المكان؟..

سنوات عمرها تقريبًا.

مابالها إذن تكتنفها الغربة!



كأنها لم تنتمي له يومًا ولم تكن لها ذكرى بين زواياه.. ببطء إعتدلت جالسة، تطلعت لمجاورتها رأتها غارقة في نعاس هجرها، جذبت حقيبة يدها الموضوعة جانبًا و بأصابع مترددة أخرجت هاتفها المغلق منذ الصباح، تنظر إليه في حيرة، ترى ماذا يفعل الآن؟ ولأي مدى وصل غضبه!..

حسنًا..

فليغضب أويذهب للجحيم لو أراد، هي لا تخافه، لن يرهبها صوته العالي ولا تبجحه طيلة الوقت، لن تكون أسيرة لأفكاره المختلة فقد كبرت على كونها تلك الفتاة الساذجة العالقة بين أصابعه يحركها كيفما يريد وقتما يشاء..



أمسكت برأسها بين أصابعها تسحب لجام أفكارها المتخبطة..

جنون..

والله ما تحياه لهو الجنون بعينه..

حسمت حيرتها أخيرًا وأصابعها تقوم بفتح الجهاز في شجاعة قلما تتخذها، والحيرة تصاعدت لقلق وهي ترى عدد ليس بهين من مكالمات ورسائل واردة أدركت من فحواها أنه صاحبها!

برز الخوف رغما عنها وهي تبتلع لعابها في عسر إذ توقف بوسط حلقها حتى غصت وهي ترى الشاشة المسطحة تضيء بالرقم نفسه، ثوان



فقط تخبط فيها عقلها بين تجاهل وبين الرد حتى لا يظن أنها تخافه..

في النهاية: حسم إبهامها الأمر واستجاب!

***

كان على حاله يعتصر شعره القصير بين قبضتيه حين أضاء جهازه الساكن معلنا عن وصول رسالة جديدة، جذبه في لهفة وفتحها بأصابع متعثرة ليرى الكلمات المنمقة تخبره أن الرقم الذي قام بطلبه سابقًا متاح الآن، سحب شهيق دون زفير يعيد الإتصال من فوره رافعًا الهاتف فوق أذنه ليصدح الرنين متتاليا ويخرج الزفير الحار أخيرًا مصاحبا لدقات قلبه الهادره.. ثوان قليلة وكان الخط يفتح عبر الطرف الآخر وكانت

تلك القشة التي نفذ بعدها صمته وهو ينتصب واقفاً بغتة بينما صوته يهدر في شبه صراخ إخترق أذنيها عبر الشبكات:

- أنتِ فين؟!

كان جسده ينتفض بإنفعال ثبته بكف قبض فوق حافة المائدة في إنتظار طال حتى إنبثق صوتها المهتز كاسرا الصمت في جواب خافت:

- بايته عند غنى..

قطع الإتصال بعد ماحصل على مراده، لم يكن بحاجة لأكثر من ذلك ليحمل حاله وينطلق من فوره حيث هي..



كانت نيرانه الداخلية تضطرم أكثر كلما إنطوت المسافة وإقترب، نيران غضب لوثها خوفه السابق وحينما خمد الخوف بصوتها زاد غضبه أضعاف مضاعفة، الغبية الحمقاء لما تسعى دائما لإخراج اسوأ مافيه!..

وصل في وقت قياسي مصدراً ضجيج عالي في هكذا توقيت حرج، تجاهله وهو يسحب هاتفه ليعاود بها الإتصال، لم يصله رد تلك المرة فزاد جنونه وهو ينقر فوق بضعة حروف ليرسل لها من فوره رسالة مقتضبة أحرفها تتحداها العصيان..

" قدامك عشر دقايق وتنزلي ولا تحبي أطلع أجيبك بنفسي؟!"

هدأ حاله منتظراً حين تأكد من وصولها بل وقراءتها، لم يمض على ذلك عشر ثوان وكان ستار إحدى النوافذ ينزاح ليلمح شبح ظلها من خلف الزجاج، وكان بوق السيارة الذي أطلقه لها مزمجرًا خير دليل على وجوده.. قبل إنتهاء الدقائق المطلوبة ظهرت أمامه تخطو بعرج خفيف، قفز من السيارة صافقا بابها مع إقترابها بينما كانت هي تتقدم دونما توجه له نظرة محاولة السيطرة على عرقها النابض في عنقها، فمنذ أن قطع اتصاله في وجهها ليعقبه بعد دقائق برسالته البغيضة وهي تكتنفها حالة من القهر ممزوجة بالعجز، من عساه يردع هذا



المخلوق وهو لا يخاف فضيحة ولا يخشى لومة لآئم!

توقفت على بعد سنتيمترات قليلة، رفعت بعدها رأسها تحدجه عينيها بخواء لتراه مكفهر الوجه في وقفته المتحفزة، يداه تتكور بجانبه بينما ترميها عيناه بسم النظرات، لم تتحرك ظلت على حالها تدعي الثبات وهي تطبق بأصابعها فوق جلد حقيبتها في حين تقدم يسحبها بقوة كادت أن تسقطها أرضًا، يدفع بها داخل السيارة دون حديث، دار بعدها وإحتل مقعد السائق وصرير العجلات رافق وعيده المشتعل برأس يهتز:

- اللي حصل الليلة مش هيعدي على خير.



وظل طول طريق العودة يرغي ويزبد مع نفسه بينما هي منكمشة الجسد داخل المقعد المجاور برأس منكس، تستمع لوعيده ثم وصلته التالية بصمت تام ودموع مكبوحة تحرق الأجفان..

تحفظ كل كلمة يلفظها فيرتد صداها داخل صدرها، تموج الأحرف بين حنايا الروح فتسقط دمعة خائنة تقطعها من فورها.. حين وصلا لم تترجل كما فعلت بالأمس بل ظلت ساكنة على حالها حتى ترجل هو وخلعها من مكمنها قسرًا ثم سحبها من خلفه، كانت تحملق فيه من الخلف بينما تحاول مجارات خطواته الواسعة دون الشعور بجرح قدمها وهي تسأل نفسها.. ما التالي؟



أي نوعٍ من العقاب ينوي، هل سيضربها أم الأمر فيه إحتمالات أخرى تناسب مزاجيته الماجنة تلك!.. إستفاقت على دوي صفق الباب من خلفهم ونخر أصابعة داخل لحم كتفيها، يهزها بعنف صارخاً في وجهها:

- أنتِ عايزه تجننيني!

لم تدر لما إختارت عينيها تلك اللحظة لتخذلها أمامه وتسقط دمعاتها واحدة تلو أخرى حتى أغرقت وجهها.. كان فاقداً لرشده وهو يهزها بذلك العنف وأصابعة الناشبة في لحمها دون رحمة بينما يهدر فيها بأعصاب منفلتة، لتتيه الكلمات مع غزارة عبراتها في تشتت وعيناه تطوف فوق صفحة وجهها الحزين:



- أنتِ.. أنتِ..

- أنا مخنوووقة!

صرخت بها عبر جوفها المحترق وهي تنفجر باكية لتجمد حركته ويصمت لسانه عن الهذر، إختلطت أنفاسه المتقطعة مع إنهيارها الحاد في حين أربكه نحيبها المتعالي رغمًا عنها، حاولت تخليص نفسها من بين كفيه إلا أن قبضتاه إشتدتا أكثر بينما يسحبها لصدره عنوة، مقاومتها الواهنة لم تزد إلا من تطويق جسدها أكثر بكلا ذراعيه يمنع عنها كل رفض متاح، فما كان منها غير أن تستكين لتبكي أكثر وأصابعها تعتصر قميصه عند موضع قلبه في قهر..

تهرب منه إليه..



تشكو حالها فيه..

هو من خبأ مشاعره في حجرة مظلمة من قلبه حتى فسدت!

ولم تكن تدري بفعلتها تلك أنها أصابته في مقتل، ضاقت أنفاسه وقبضتها المكورة تزيد من حوله الخناق حد هروب النبض، لم يشعر بحاله وضمته تشتد أكثر، رأسه يميل إلى عنقها يخبأها هناك باحثًا فيها عن حياة.

***

يدب فيها النشاط وهي تتحرك ريحة وجيئة، أنهت تنظيف وترتيب الشقة صباحا للتتفرغ بعدها لإعداد طعام الغذاء، فاليوم هو الجمعة



يوم العائلة الأسبوعي.. كان النهار صاخبا بحضور شقيقتاه وصغارهم، وفي المساء حضر الزوجان وبرفقتهم كانت حماة الكبرى، جاءت بصحبة ولدها لتقديم المباركة المتأخرة..

وبينما يجتمع الرجال في حجرة الصالون كان نسوة البيت يحتلون البهو ويرحبون أحر ترحيب بالضيفة الكريمة.. كانت تجهز فناجين التقديم حين أجفلها وقطع تركيزها المتابع للقهوة فوق الموقد، لتسبقه بالحديث:

- خمسة والقهوة تكون جاهزة.

همهم بإرهاق بينما يرتكز بجسده فوق حافة الرخام، إرتفعا ذراعاه يدلك بهما عنقه المتعب، لتعاجلة من جديد بنبرة قلقه:



- تعبان؟

- شوية إرهاق بس.

غمغم بإختصار ومالبث حتى إعتدل في وقفته زاويا ما بين حاجبيه:

- أنتِ اللي تعبتي قوي النهاردة.

دائمًا يسعى لرضاها، وماعساها تفعل سوى مقابلته بذات الرضا وإبتسامة عريضة:

- بالعكس؛ ده أحلى يوم.

ندت عنه إبتسامة وهو يميل ناحية رأسها، تاركًا قبلته فوق الجبين مدمدما في خفوت:

- أنتِ جميلة قوي يا سماح.

- الله يخليك.



قالتها بخجل ليطلق ضحكة عالية، يائسة، فحتى اللحظة تحمر وجنتيها جراء إطراء بسيط يلقيه بعفوية شديدة وتقابله برد يفحمه في كل مرة، بل الأعجب أنها لم تلفظ أسمه لمرة واحدة حتى فيما بينهما!

نهرته بعينيها جراء ضحكته ثم هتفت بإستعجال:

- خد القهوة يلا.

غادرها حاملًا الصينية بضحكة عابثة خصها بها وإستدار بعدها لتطلق على أثرها ضحكة صغيرة ثم تحركت تعد الدور التالي من القهوة.

قدمتها ببسمة جذابة تليق بعروس مثلها لم تنل على إعجاب ضيفتها الممتعضة وهي تتناولها بنزق



و عينيها تتفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها، وما إن شاركتهم المجلس حتى أسرعت المرأة بالقول:

- وعلى كدة أهلك فين يا سماح؟

لم تستسغ السؤال ولا النبرة ومع ذلك تكفلت ببسمة مصطنعة بينما تجيب:

- أبويا وأمي الله يرحمهم، ماليش إلا أخويا ومراته ربنا يخليهم لي.

- وعندك أحمد بالدنيا كلها.

قالتها الشقيقة الصغرى وهي تغمزها لتوافقها برفة عين خجلة، لتعلق المرأة:

- طبعا أحمد يستاهل كل خير.

وهنا تدخلت الشقيقة الكبرى:

- وسماح ياطنط تستاهل الخير كله، ربنا يبارك فيها.

إمتعضت المرأة من حديث زوجة إبنها لتتدخل والدة أحمد بعد صمت مراقب:

- إشربي قهوتك يا أم أيمن لتبرد.

أسقطت الفنجان عن قصد وهي تعيد تناوله من أعلى المنضدة لتنهض سماح من فورها تجلب خرقة من المطبخ وما إن جثت فوق الأرضية حتى وصلها فحيح المرأة الخبيث تحت مرأى ومسمع من الجميع:



- إلا قوليلي يا سماح ماتعرفيش حد كويس ينضف لي الشقة؟ أكيد ليكي معارف، مش برده كنتي شغالة في يوم كده ولا أنا سمعت غلط؟!

توقفت حركة يدها مع نبرة حماتها الغاضبة:

- إيه الكلام اللي بتقوليه ده يا ست أم أيمن، مايصحش كده!

تكهرب الجو في اللحظة حين صمت الشقيقتان والضيفة نهضت من جلستها لتزعق:

- كده يا أم أحمد، أنا بردو يتقال لي مايصحش؟ وبعدين أنا ماجبتش حاجة من عندي ده الناس كلها مالهاش سيرة غير مرات إبنك اللي لامؤاخذة يعني كانت تخدم في البيوت.



نهضت سماح من فورها تنظر لحماتها في حرج ومحاولة منها لتمرير الموقف:

- ماحصلش حاجة ياخالتي.

والتفتت ناحية المرأة تهتف في وجهها بثبات ظاهري:

- أنا سبت الشغل ده من زمان بس حاضر لو جه قدامي حد كويس هعرفك.. عن إذنكم.

أنهت جملتها وإستدارت عنهم بخطوات واسعة، عند الباب ظهر هو وأمسك بذراعها يقطع إبتعادها المتعجل وهتافه يعلو بغضب متماسك:

- رايحة فين!



كان سؤاله مستنكر لا يحتاج إلى إجابة وبصره إرتفع ليحط فوق المرأة مخبرا إياها بنظرته أن كلماتها وصلته تمام الوصول بينما ذراعه يلتف حول كتفي زوجته:

- ده بيتك..

وأطبق فوق شفاهه يمنع بقية الكلمات من الخروج فقط إحتراما لوالدته وإسم أبيه الراحل، وكانت نظراته وكلماته المبطنة أكثر من كافية للمرأة حتى تلملم حالها مغادرة في تجهم لاحقًا بها البقية.. ظلت ترمقه أمه بنظرات مبهمة بعد رحيل الجميع حتى هتفت بعد حين بنبرة الغاضب:

- إطلعي على شقتك يا سماح.

إنصاعت لأمرها في صمت وفي داخلها فورة من غضب، بينما ظلت المواجهة بينه وأمه عالقة، حدجته بنظرات لآئمة وهي تتحرك ناحية غرفتها وصوتها المستنكر يهدر من خلفها:

- تخدم في البيوت يا أحمد؟.. دي آخرتها!

لحق بها وجوابه خرج بكل ما يعتمل فيه من غضب:

- شفتي منها ولا عليها حاجة وحشة يا أمي؟

صمتت وأشاحت بوجهها جانبا لكنه أصر من جديد وهو يقابلها في وقفته:

- شفتي حاجة؟

عادت له بوجهها تدلي بالصدق:



- الحق يتقال ماشفتش غير كل خير بس..

قاطعها:

- مافيش بس يا أمي، سماح بنت حلال وأنا مرتاح معاها، ده مش كفاية عندك؟

صمتت للحظات في تفكير ثم اطلقت تنهيدة مستسلمة:

- ربنا العالم وحده أنا ما عايزه حاجة من الدنيا دي غير أشوفك مرتاح.

ثم تابعت مع تربيتة حانية طالت كتفه:

- إطلع طيب خاطرها يابني، ربنا يهدي سركم ويبعد عنكم النفوس الوحشة.



قبل رأسها مبجلا وحينما إقترب من الفراش يَنوي حمل صغيرته الغافية قاطعته بنبرة رضا:

- خليها معايا الليلة وروح أنت لمراتك.

كان يصعد الدرجات وعقله شارد فيما حدث.. في البداية الأمر إستوقفه للحظات لا ينكر، لحظات تلآشت عقب ما إستخار وإستبشرت نفسه وسرت لما إختار، وحتى اللحظة لم يندم وهو يراها أبدلت بستانه الذابل لآخر مزدهر، لم يطمح إلا في إستقرار وبفضلها حولت طموحه لعش دافىء تحويه هي ببراح نفسها الطيبة..

عاش الحب قديمًا مع الحبيبة الراحلة وما ظن أن بالقلب متسع لغيرها، لكن للآقدار دومًا كلمات مكتوبة وما يحياه الآن شيء آخر، ليس

حبا بقدر ماهي ألفة تشعره أنه يعرفها منذ سنوات. محبة يكسو بها كل عطاء يمنحه أحدهما للآخر وكأنهما لبعضهما واحة الزاد والمرتع عقب شتات طال.

فتح الباب ودلف بهدوء لتواجهه حركتها العصبية المتنقلة بين المطبخ ودورة المياة. تدعي التشاغل كعادتها ما إن تعاني من خطب ما. تنفس عن إشتعالها بالمزيد من العمل الذي لا تمله. يعلم أن خبيثة النفس تلك نجحت في أذيتها ولو تظاهرت ألف مرة بما هو عكس ذلك.. تنهد في قلة حيلة وتركها لما تفعل عل ذلك يخفف من وطأة شعورها.



لكن تأخر الوقت ولم تكن لتهدأ، تقف جوار كومة من الملابس تعمل على طيها دونما تنبس ببنت شفة ولو لمرة، حينها لم يجد حلا غير الإقتراب حتى توقف خلفها تماما، أدارها إليه وأجبر عينيها المحتقنة على لقياه وصمت.. ظل ينظر لها دون حديث يمنحها حق البداية حتى وهنت وخرج صوتها مستسلمًا في تهدج حائر:

- عملت لها إيه عشان تعايرني كده!

أنهت جملتها وبقيت تبحث عن جواب داخل عينيه.. لولاه هو لكانت منحت تلك العقرب رد مناسب يثلج صدرها، هو من تتفانى في إظهار نفسها أمامه في أبهى صورة، تضع رقيب فوق كلماتها عليها توازيه تهذيبا وجمالا، هو من يميل

له القلب يوما بعد يوم، لكنها لا تفهم حتى اللحظة لما لم يتخذ ردًا أكثر حزمًا مقابل إهانتها!..

آتراه يرضاها لها أمام أختاه وأمه؟

هكذا فكرت قبل ما يضمها إليه مهدئا إياها ببضع ربتتات حتى همس بعد حين وكأنه قرأ مايجول بخاطرها:

- حقك عليّ أنا.

إبتعدت عنه تهمس بفتور:

- وأنت ذنبك إيه بس.

مسد وجنتها بإبهامه مدمدما في جدية:



- ماكنش ينفع أتكلم معاها، دي مهما كان ست كبيرة وفي بيتي، بس أنا ليا كلام مع إبنها و وعد مني اللي حصل ده مش هيتكرر تاني.

- ربنا يجبر بخاطرك.

قالتها وكفها يمسح عن كتفه، رفع ذقنها يجبر عينيها الهاربة دومًا على ملاقته بينما يقترب من وجهها قائلا بحمائية أنعشت روحها:

- أنتِ مراتي يا سماح واللي يمسك يمسني، ماتنسيش ده.

أثرت فيها كلماته الحانية، فاقترب تلك المرة يقبل عيناها كلًا على حدى، أسرع في الأولى وتباطىء في



الثانية حد أنها خجلت وأبعدته ببطء مرتبك مع عينين تبسمتا في رضا.

***

جنة..

أقرب وصف لما تراه عيناه في تلك اللحظة من أراض واسعة وخضار يلف ذلك البراح، بات يهوى المجيء إلى هنا والتنعم بهذا الجو البديع الساحر..

خلع منظاره الشمسي ودار بصره فيما حوله في نظرة تفقديه سريعة قطعها نبرة ترحيبية من الرجل الخمسيني:

- وأنا أقول المزرعة منورة ليه، يا صباح الفل.



بادله حسن التحية في حبور:

- صباح الفل ياعبدالحميد، إيه الأخبار؟

وعبدالحميد صديق قديم للوالد الراحل ورئيس العاملين بمعمل الألبان؛ ولأجل هذا له مكانة وكلمة مسموعه لدى الجميع:

- كويس أنك جيت، أنا قلت لكم الدكتور إياه مش نافع.

- لسه على نفس الحال ياعم عبده؟

جاء السؤال من ميسون الحائرة ليجيبها من فوره:

- زي قلته يابنتي.

هنا هتف حسن منهيا الموضوع:



-ماينفعش التهريج ده، هنشوف غيره.

- ده رأيي كمان.

وافقته ميسون بينما هتف لهم عبدالحميد في بشاشة مستكملا وصلة الترحيب:

- هقولهم يجهزوا الفطار..

ربت حسن فوق كتف الرجل شاكراً:

- تسلم ياعبدالحميد إحنا هنمر على المعمل ونمشي على طول.. اتفضل أنت.

حياهم الرجل وإبتعد، ليسيران معا ناحية المعمل في جولة جديدة وما إن وصلا عند البوابة الخارجية كان يدمدم:

- أغلب الآلآت محتاجة تجديد.

أبعدت خصلاتها المتطايره بفعل هواء الصباح مغمغمة بإحباط:

- صعب دلوقتِ.

صمت في تفكير حتى إستقلا السيارة حينها تسآلت وهي ترى غرق تفكيره:

- بتفكر في إيه؟

نقر بالسبابة فوق المقود وهو يفصح عما يجول بخاطره:

- بفكر إزاي ممكن نوسع دايرة التوزيع، المحلات والأسواق اللي حوالينا مش كفاية.

- بس كده هنحتاج نشتري لبن من بره.



- سيبي لي الموضوع ده، أنا هشوف المزارع القريبة وأتفق على سعر كويس بس المهم نلاقي المشتري.

- في أكتر من عرض جابتهم شركة التسويق ممكن نشوفهم.

- تمام قوي.

أدار المحرك وإنطلق وبينما كانت مشغولة التركيز مع الجهاز اللوحي الساكن كفيها قاطعها مترددًا:

- هو أنس أخباره إيه صحيح، مش باين يعني؟

أغلقت الجهاز وأطلقت زفير طويل قطب له جبينه بينما تستهل في الحديث:



- أسكت ياحسن ماتفكرنيش، أنا الولد ده بجد مش عارفه ماله!

- ماله؟

سأل متوجسًا لتهتف:

- مذاكرة مافيش، مقضيها صرمحة مع شوية عيال صيع ويفضل سهران معاهم لوش الفجر.. أنا وماما فعلًا مش قادرين عليه.

- هو في سن صعب السيطرة عليه.

- فاهمة ده بس أنا بجد قلقانة عليه.

صمتت برهة هتفت بعدها في رجاء:

- ممكن ياحسن تبقى تتكلم معاه، أنت أخوه الكبير وأكيد هيعمل لك حساب.



سخر في نفسه.. وصمت.

***

وصل متأخراً عن موعده بثلاث أرباع الساعة،
لعن زحمة السير والطرق المعرقلة وهو يترجل من العربه قاصداً المقر الإداري الخاص بأحد الأسواق التجارية الكبيرة، من المفترض أنها مقابلة ثانية مع مالكيه يرجو منها أن تنتهي بإتفاق يجمع بين الطرفين.. قابلته فتاة هزيلة الجسد رحبت به بفتور ثم رافقته بعدها حيث مكتب الرئيس، تدعوه للدخول من فوره..

كانت تجلس خلف مكتبها العريض حينما دلف، نهضت في أناقة تناسب قوامها الممشوق مع كفها الممدود في ترحيب حار:



- أهلًا بيك يا حسن.

- معلش تأخرت عليكم، بس الطريق واقف بشكل غبي.

صرفت الفتاة بإشارة من كفها ثم وجهتها ناحية أريكة جلدية تحتل جانب الحجرة تدعوه إليها:

- ولا يهمك دي أزمة الكل.

فك زر السترة ليجلس بأريحة واضعا ساق فوق الأخرى، سائلا في حيرة:

- أمال فين أستاذ عصام؟

وكان يقصد شقيقها وشريكها في العمل لتهتف بينما تحتل مقعد مجاور:

- عصام مسافر، وعامة هو سايب لي القرار.

تبسم في عملية وخاض أرض العمل مشهرًا كل أسلحة الإقناع لديه بادئًا الحديث عن جودة منتجاتهم..

بينما المرأة كانت تتألق عيناها بإفتتان مقابل كل حركة وكلمة صادرة عنه، كانت..

آية من الحُسْن

أنثى كما يقول الكتاب

أنثى في مفاتنها، ملبسها وأصابعها المطلية بالأحمر القاني التي تداعب جيدها في تأني ودلال وعيناها ترتكز فوق صفحة وجهه، في حين يقابلها هو بثبات موليًا جل تركيزه فيما يقول حتى قاطعته بغتة ببحة خاصة:



- أنت متجوز يا حسن؟

تشوش ذهنه للحظة ثم عاد وإتزن حين إخترق السؤال دهاليزعقله، حسنًا..

نظرات الإفتتان واضحة للعيان وهو ليس بغر حتى يتيه عنها، وظن أن الأمر لن يتعدى ذلك لكن على مايبدو المرأة لديها جرأة أكثر مما تبدي هيئتها الناعمة..

تعمد النظر إلى ساعته التي تخطت الحادية عشر ببضع دقائق وهو يجيبها بملامح حاول تبسيطها وتمرير الأمر كشيء دون أهمية:

- أيوه..

ومن فوره إستطرد مكملًا حديثه السابق:



- ممكن حضرتك تشرفينا وتشوفي بنفسك أو نبعت عينات مافيش مشكلة.

نهضت من فوق مقعدها وبحركة مغناج كانت تجاوره فوق ذات الأريكة بقرب خطير إذ إجتاحه عطرها وشفاها الشهية تهمس:

- وعن حب بقى ولا تقليدي؟

وسار أنمل سبابتها فوق بنصر يسراه مع همس جديد:

- وليه مش لابس دبلة؟

كان يطالعها في إندهاش من ذلك القرب وتلك الجرأة الفجة، طالت عيناه الباب الموارب ثم عاد لعينيها الملتهمة لكل تفاصيله وقد بدت نبرته



الفظة ثابته ظاهرياً بينما خباياه لا تمت للثبات بصلة:

- هو في إيه بالظبط!

اطلقت ضحكة قصيرة مغوية وهي تقترب بجسدها أكثر حتى باتت شبه محتلة لأحضانه قسرًا، كفها الأيمن إرتفع يداعب مؤخرة عنقه مع همس حار:

- في أنك عاجبني.

وهمسها عبر تلك الشفاه المغوية كفيل بإسقاط أعتى الرجال كيف به وهي تدعوه بنفسها ليرتوي من شهدها كيفما شاء..



ارتعدت كل خلية فيه وتحشرجت أنفاسه الحارة بينما جسده الذي ارتخي كان يناشد استسلام..

وكان بينه وبين غواية الشيطان شعرة!

ليقطع الشعرة وحميمية اللحظة وهو يثب بغتة كمن لدغ لتوه قاصداً باب الخروج في خطوات سريعة ليصدمة الفرآغ التام وخلو المكان بأكمله من الأقلية التي رآها عند قدومه. تشنج جسده وهو يعبأ رئتيه من الهواء البارد ليستفيق من غيبوبته المؤقتة. اكفهر وجهه وهو يرى حاله طريدة لامرأة لعوب. امرأة كادت أن تسقطه بالفعل لولا..

لولا ماذا!!..



هو لا يعلم غير أنه في ثوان لا ترتقي لدقيقة كاملة أعلن فيها جسده القبول ليصرخ بالرفض بعدها ولم يستفق من تلك الحالة إلا مع ضربات الهواء بنسماته الباردة.

وصل البيت بقسمات ساخطة، ليقابلها في وجهه تعتلي مقعدها الأثير وحاسوبها فوق ساقيها تتشاغل معه كما تحكم العادة، ظل مكانه يحدجها بعينيه الساخطة وقد زاد عبوسه حد أنها توجست خفية وهي ترفع بصرها تتلقى نظراته الغريبة تلك بنفس حائرة قطعها بينما يتخطاها ناحية غرفته صافقًا بابها من خلفه.

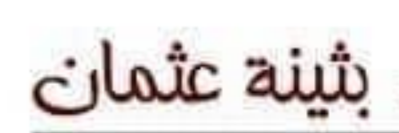
مضى ما يقارب الساعتين وهو على حاله، يتقلب يمنة ويسرة وفتيل الأفكار مشتعل، لم تتركه تلك

اللعينة إلى حاله بل مازالت تعبث وبإصرار غريب، فقد أرسلت له رسالة قصيرة مفادها عنوان بيتها!

تدعوه وبكل وقاحة..

يحتاج المرء أن يكون قديسًا حتى يتخطى ما حدث بثبات انفعالي يحسد عليه.. وهو ليس بقديس، هو رجل يكبله المرض منذ شهور عن القرب من امرأته خوفًا من أن تطالها العدوى، رجل صحى شيطانه ولا يملك في إخماده شيء..

نهض بجذع متعرق، عاري إلا من سروال قطني طويل ينفض عنه الغطاء، سار بأقدام حافية حتى توقف أمام باب غرفتها المغلق مطبقًا جفنيه في تفكير..



لا يريد أن يرهبها فتكرهه أضعاف ما تفعل، بالكاد هدأت واستكانت عقب انهيارها منذ أيام..

لكن ماذا لو رفضت!

قد يتركها..

لكن حينها سوف يمنح شيطانه حرية الجموح ولن يتوقف في هكذا حالة فقد فيها السيطرة على كل ذرة فيه.. قطع سيل أفكاره المنحرف وهو يضغط فوق مقبض الباب ليفتح من فوره وكانت هناك.. تعتلي مقعد طاولة الزينة، جسدها يضمه ثوب قطني خفيف يكشف عن أكتافها وينتهي عند ركبتيها، تميل بجذعها للأسفل ويدها تمسد قدمها والساق بأحد الكريمات المرطبة استعدادًا للنوم، انتفضت من

جلوسها فزعة، تتطلع إليه في توجس وذراعاها يلتفان حول جسدها وهي تراه يشيعها بتلك النظرات حتى عادت عيناه وإستقرت فوق عينيها، ليهمس باسمها وكل كيانه يرجوها:

- نسمة..

إفترقت شفتاها في محاولة للتنفس والكلام الذي تحجر بينما تقدم هو بأقدام مثقلة بعد ما ضغط فوق مفتاح الضوء لتسبح الغرفة في شبه ظلام.. استغل صدمتها وجذبها بين ذراعيه، منح جيدها قبلة بل قبلات زادت بشغف مع همسه الحار الذي أجاد عزفه فكان يجتاح كل كيانها معلنًا الرغبة:

- محتاج لك.



صرخ فيها العقل والمنطق أن تبتعد، ألا تخنع لغواية شيطانها؛ إلا أن الجسد أبى مستسلمًا لحلاوة اللحظة..

حتى غاب فيها وغابت فيه..

وسقط كلاهما في فخ الغواية!



(٢٥)

لكل امرأةٍ سحرٌ يخصها..

تمتاز فيه عن غيرها من بنات جنسها، وامرأته تكمن جاذبيتها بين ذراعيها وفي مقولة أخرى.. في دفئها.

تقلب جسده ذات اليمين وذات الشمال في تكاسل، الدبيب الهادىء من حوله أقلق نومته الهنية، افترق جفناه ليخترق نور الصباح عقيقه اللامع، تحرك جذعه العاري يعدل من وضعه حتى بات شبه جالس في مكانه، ليجدها أمامه مباشرة تعدل من وضع حجابها أمام المرآة، ارتفع جانب ثغره وذكرى ليلة البارحة تحوم في خاطره..

كانا سكارى بخمر الشغف، مسحوران بحمى التوق..

كانا آخران دون ماضٍ..

اتخذا معًا من الليل ساتر لوجيعة اللهفة والإحتياج وما عجز اللسان عن بوحه فاضت به الجوارح واستفاضت به الروح..

- صباح الجمال.

قالها ويده تعبث في شعره في استفاقة ليرد صباحه الصمت القاتل.. زفر ببطء وناداها من جديد في هدوء يليق بصباحه الرائق:

- نسمة..

لم تلتفت..



وكان جوابها حمل حقيبتها وخطواتها تتسابق إلى خارج الغرفة، ثوان أخرى وكان يصله صوت باب الشقة لينفخ تلك المرة في قنوط وجسده يتراخى من جديد لداخل الفراش.

في حين كانت تلقي هي بجسدها داخل أول عربة أجرة قابلتها.. ساكنة الروح والجسد تتطلع لخارج النافذة والعربة تسير، حركة أهدابها الرتيبة تبدو مزعجة لذلك الصمت كله الذي يبتلعها منذ أن وعت على حالها وهي بين ذراعيه ساكنة مستسلمة لليلة حافلة قضياها سويًا، لم تكن مجبرة بل بادلت شغفه بشغف، كل خلية فيها سلمت له الراية مع أول لمسة، كيانها كله



رضخ لقربه وخنع، نست حالها فيه وتناسى هو حاله حتى بات كلاهما بلا هوية..

أغمضت عيناها بقوة تمنع العبرات قسرًا..

فإن سمحت أراحت..

وهي لن تريح نفسها ببضع دمعات، يحق لها العذاب جزاء ضعفها وغبائها الذي جعلها صغيرة، صغيرة جدًا في عين نفسها، كيف إذ تراها في عينه!

عليها اللعنة، بل كل اللعنات تصيب قلبها الخائن الذي هزمها وربح جولته.

توقفت العربة تقطع سيل أفكارها القاس، نقدت الرجل وغادر ليدور بصرها بحثًا عن



العنوان المنشود حتى توقف فوق لوحة كبيرة تضم اسم محامي ذا سيط جيد حصلته من الشبكة العنكبوتية ليكون معينها الفترة القادمة..

فإن ربح قلبها جولة..

لا يعني أن يغادر عقلها ساحة النزال دون عراك.

***

عند طاولة الزينة كانت تنهي آخر اللمسات قبل خروجها للعمل ككل صباح حين وصلتها طرقات ثلاث ثم طلت لها برأسها وكان ينير وجهها ابتسامة صبوح:

- صباح الورد.



جلبت بسمة باهته وهي تومىء برأسها لترد صباحها في صمت، دلفت أمها للداخل واقتربت منها في تردد حتى جاورتها عند المرآة، فردت ذراعها حول كتفيها وعينيها تبادلها النظر عبر السطح العاكس، كانت لا تزال ترسم فوق ثغرها ابتسامتها الأنيقة حين قالت برجاء خفي:

- هتكوني موجودة الليلة مش كده؟

عادت غنى بخصلاتها لخلف أذنها وهي تبتلع لعابها في عسر بينما رأسها يتحرك في بطء وصعوبة، تنفي في تردد ونبرة بالكاد خرجت:

- سوري يا ماما..



اكفهر وجه يسرا في الحال، تستدير ناحيتها وقد امتلأت عيناها بالدموع الحبيسة، ظلت ترميها بالنظرات العاتبة حتى قابلتها الأخرى متظاهرة بالتماسك وضحكة صغيرة مصطنعة:

- صدقيني أنا مبسوطة لسعادتك لكن بجد مش هقدر أكون موجودة الليلة.. ياريت ماتزعليش مني.

دارت يسرا ضيقها بعقد ساعديها فوق صدرها في صرامة وأشاحت بوجهها جانبًا، حتى جاءت نبرتها وقد غلفها البرود المتألم:

- براحتك يا غنى.



ظلت ترمقها غنى للحظات مالت بعدها فوق وجنتها تقبلها هناك قبل ما تسحب حقيبتها وتغادرها في صمت.

***

كان يستقل سيارته الخاصة حينما لمحها، طالع ساعته فوجدها تخطت موعد رحيلها بساعة ونصف الساعة، كانت جليسة المقهى المجاور للشركة، تميل بجذعها فوق المائدة وبصرها ممتد نحو الأفق وكأنها تحيا بعالم آخر ساكن، راكد دون حياة، لم تعد تلك الفتاة التي عهدها سابقًا حد أنها باتت تثير في نفسه الفضول ومن قبله حميته الرجولية التي تلح عليه ما إن يقع بصره على صمتها المزعج ذاك.

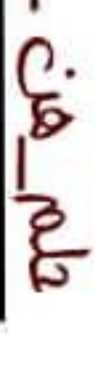
لم يحتج الكثير من الوقت أو التفكير وهو يعيد إغلاق باب السيارة ليتحرك ناحيتها، اقترب ولم تشعر فيه حد أن حاجبيه ارتفعا في توجس وقلق:

- أنتِ كويسة؟..

انتفض جسدها وارتفع رأسها بغتةً تقابلها عيناه القلقة.. ظلت تلك العبرات المتعلقة بأهدابها ثقيلة مع الصمت الذي ران على كليهما حتى همست أخيرًا باختناق:

- أنا مش كويسة خالص يامهند.

قالتها بضعف..





بوجع يستعمرها ولم تعد بها طاقة له، وجع ألقت به بين يدي أول مهتم طرق بابها.. وكان هذا بمثابة نغزة أصابت قلبه التائه بقربها، وجد حاله يسحبها برفقٍ يُجبرها على نهوضٍ، يهمس بالكاد وعقله يتخبط حائرًا في أمرها:

- تعالي..

بنصف وعيٍ كانت تسير من خلفه، تبعته بصمتٍ انتهى داخل سيارته التي توقفت بعد وقت قصير على جانب كورنيش النيل، النوافذ مفتوحة على آخرها، يضربها الهواء من كل حدبٍ وصوبٍ بينما هي ساكنة في جلوسها قربه، رأسها منكس وبصرها زائغ مع أناملها المعقودة داخل حجرها في تشابك معقد يشبه حالها..



- مالك ياغنى؟..

جاء صوته البعيد يخترق شرنقة صمتها، تنفرج شفتاها تنوي الحديث فتتعثر الحروف وتهطل العبرات، ابتلعت لعابها بحشرجة بينما صوتها المبحوح يصله في تهدج واضح:

- الليلة كتب كتاب ماما..

قالتها وانفجرت باكيةً، تشهق، يعلو صدرها وينخفض بقوةٍ آلمته داخليًا.. كانت هيئتها مثيرة لكل مشاعر يمتلكها، ألجمه انهيارها بينما يداه تصارعان عقله في سحبها لصدره، ومن بين حيرته صدحت نبرتها الذبيحة بزعيقٍ مكبوتٍ:



- ميستاهلش كده.. ميستاهلش منها هي بالذات كده!..

حاول تهدئتها بكفٍ لامس ساعدها بتردد:

- إهدي...

قاطعته صارخة بينما تضرب بيده بعيدًا:

- مش ههدأ، بطلوا تقولوا إهدي!.. ماحدش فيكم حاسس بيا، ماحدش فيكم حاسس بيه!..

وانخرطت في نوبة بكاء جديدة، شديدة.. بكت ذكريات شابها العطب كلما لاحت بخاطرها، فمنذ اللحظة لن تكون بذلك الرونق الذي اعتادته، هذا إن تجرأت واجترتها مرة أخرى، فالصورة تبدلت وبات يقتحمها آخر، آخر اتخذ



مكان أبيها الراحل وأدلت هي بموافقتها فقط حتى تريح أمها..

تركها تفرغ كل مابها تلك المرة حتى هدأ نشيجها..

عمَّ صمتٌ ثقيلٌ إلا من أنفاسها الحارة ونهنهات خافتة تطلقها كل حين.. بطرف عينه كان يلتقط حركة أهدابها الرتيبة، لم يكن يدري أن القصيرة ذات اللسان المستفز لديها كل هذا الحزن بقلبها، أحزنته دونما تشعر، أظلمت شيئًا مابنفسه..

- هو ليه الفراق بيوجع قوي كده؟

وجهتها له خصيصًا تسحبه من شروده والدموع ملء عينيها، تطالعه بأنفها المحمر وتزوي مابين



حاجبيها في انتظار جوابه المتعثر.. تنهد بعد حينٍ يفك عقدة ذراعيه ويخبرها بحنين أشعلته كلماتها:

- يمكن عشان اللي فارقونا غيابهم يوجع قوي.

صدقت على جوابه بإيماءة صغيرة بينما أناملها تقطع سير عبرة جديدة جرحت وجنتها، ألقت برأسها المثقل للوراء ودارت برأسها تلاقي صفحة الماء الهادئ.. تشعر بحالها متعبة، منهكة، وجيعة يوم فراقه تطاردها منذ الصباح، حاولت الفرار ولم تنجح، سقطت فريسة لأنياب الذكرى والاشتياق، طوال اليوم تتخبط بين لوم وخذلان حتى ماعادت لأقدامها قدرة على حملها..

- ممكن تاخدني عند نسمة؟



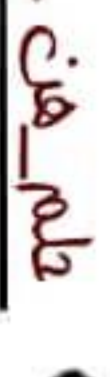
سألته برجاء خافت ومازالت على وضعها، أخبرته بعدها دونما تتحرك أو تسمع رده عن عنوان المعنية ثم طوقت نفسها بذراعيها وأغمضت عينيها في سكون قسري.. ظل يراقب سكونها الحزين للحظات فقد فيها كل معاني الكلمات، كل شعور كان يمتلك له مسمى من قبل بهت وتلاشى أمام مافعلت به الليلة هاته القصيرة.

***

يطرق فوق بابها بعنف وزعيقه يشاركه الحنق:

- افتحي يانسمة وكفاية شغل عيال!

لم يصله أي رد فضرب الباب بقدمه حتى تألم، حين فقد الأمل عاد إلى غرفته شاتمًا حظه





التعس، لم يفت الكثير وكانت تتعالى الطرقات المتتالية تخترق النعاس المتقطع، نهض متوجسًا وفتح الباب دون سؤال.. كانت قصيرة بملبس أنيق تقف متلحفة بساعديها في انتظار بينما يملأ عيناها الخجل، قطب حاجبيه مستفسرًا عن هويتها وعما تريد في هكذا توقيت، أخيرًا حررت نبرتها المجلجلة يقتلها الحرج:

- أنا عارفة الوقت متأخر.. بس يعني.. هي نسمة موجودة؟

- غنى!

صدح صوتها ولهفتها من العدم وقد انتابها القلق بحق بينما تردف:



- بكلمك من الصبح موبايلك مقفول؟!

أخذت بجسدها المتجمد أمام الباب إلى الداخل فما كان من الضيفة غير أن تلقي بحالها بين ذراعيها هامسةً:

- هنام عندك الليلة.

ربتت فوق ظهرها في تفهم لما تمر فيه، وبينما تفعل ما تفعل ارتفع بصرها ناحية الجامد في وقفته كأنه تحول لتمثال من الشمع منذ أن شق الاسم مسامعه..

ترميه عيناها بإتهام صريح، بل تأتيه وتنبش ذاكرته بخط البداية، حيث كان هناك بشحمه ولحمه يخطط للنيل من تلك الساكنة بين



ذراعيها.. ليصفعه القدر بمسار جديد كانت هي فيه الضحية الوحيدة.

وهي لا يمكنها لوم القدر لكنها تستطيع إيلامه، والبداية مع قضيتها التي اتخذت فيها أولى خطواتها اليوم.

***

لم يكن ليتركها حتى يطمئن..

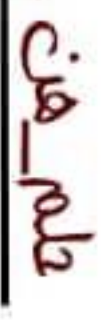
ظل واقفًا يراقبها على بعد عدة درجات حتى أخذت صاحبة البيت بيدها فاطمن قلبه وارتاح باله، بعدها عاد إلى بيته بجسد متعب بل يستغيث من شدة الإرهاق..



ارتاب جسده وصوت التلفاز يعلو من وسط السكون، تحرك متوجسًا في المكان الخالي أو هكذا ظن قبل ما يقع بصره على شقيقه الأكبر الذي يعلو الصوفا العريضة بجسد ممد بكل أريحية وبين يديه طبق عامر بقطع من الفواكه متابعًا للشاشة المسطحة في اندماج قطعه ما إن أبصره:

- إيه يابني كل ده شغل، وبعدين قافل موبايلك ليه؟

ارتمى مهند على المقعد المجاور بجسده المنهك والسبابة برفقة الإبهام تمسد أعلى أنفه:





- لا أبدًا ده أنا كنت مع واحد صاحبي والسهرة خدتنا، والموبايل أكيد فصل شحن وماخدتش بالي.

هز الشقيق رأسه متفهمًا وعاد بصره إلى التلفاز في حين سأله مهند:

- هنا من بدري؟

- يعني من ساعتين كده.

أجابه دون التفات، ليتنهد الأصغر في إقرار سريع:

- امممم خناقة جديدة مع إنجي طبعًا؟

- المرة دي إتفقنا على الطلاق.

صعق مهند من وقع الخبر، صحيح أن زواج أخيه الذي أتم عامه الأول منذ أيام كان صاحب

بشتى المعارك متخذًا فيه دور المصلح الإجتماعي لكنه لم يظن أن أمر الطلاق فيه من المحتمل!

اعتدل في جلسته بغتة وهو يهتف بصدمته:

- هنهرج يا ماهر!

أطفأ ماهر الشاشة بضغطة زر وهو يعتدل في جلسته بدوره حتى ارتاح مشبكًا أصابعه العشر في بعضهما متحدثًا ببعض الجدية:

- لأ ده مش تهريج يا مهند، أنا وإنجي اتفقنا على الطلاق فعلًا، أجلنا بس لحد ما باباها يخرج من المستشفى، وطبعًا أنا مقيم هنا لحد ما الموضوع ينتهي.. تمام؟

- أنت مالك بتتكلم كده كأنه عادي!



- عشان هو عادي فعلًا، لا إحنا أول ولا آخر إتنين قرروا ينفصلوا عن بعض.

- ببساطة كده؟

- مين قال أنه ببساطة!

صمت كلاهما، شرد الكبير في آخر مشاجرة حدثت بينه وزوجته مساء اليوم وحطت بهما حيث خط النهاية، بينما ظل الأصغر متأسفًا لما آل إليه زواج أخيه قصير المدى..

وضع مهند يده فوق فخذه مقترحًا:

- طب إيه رأيك أتكلم مع إنجي يمكن..

قاطعه ماهر بنبرة جادة، حادة:

- إوعى يامهند.. إياك!



لم يعقب فنهض ماهر ملقيًا بكلماته الآمرة في إقتضاب:

- هنام بقى مش عايز دوشة، والصبح تنزل من سكات عشان نومي خفيف.

- هنبدأها بجاحة ولا إيه!

- بس يا بابا.

وكان آخر ما فعلاه أنَّ تشاركا الضحك.

***

- إلحقني يا حسن!

صاحت ميسون في وجهه ما إن رأته بقسمات كساها الهلع، انتقل إليه رعبها على الفور سائلاً في فزع:

- حصل إيه؟

والجواب تلخص في كلمة واحدة:

- أنس.

قطب جبينه بينما تدلف للداخل في خطوات متخبطة عاونتها فيها نسمة التي جاءت فزعًا على نبرتها المستغيثة، أجلستها فوق أقرب مقعد ثم جاءتها بكوب ماء التقطت بعدها أنفاسها الهاربة لترفع بصرها نحو الواقف من فوقها في انتظار لتكملة:

- موجود مع شلة شباب في شقة ومعاهم بنات.



ارتفع حاجبيه في ذهول بينما يبادل نسمة النظرة المتوجسة عاد بعدها إلى الجالسة في محاولة للفهم:

- يعني إيه في شقة ومعاهم بنات؟

فركت جبينها وأطرافها مازالت ترتعد:

- بنات ياحسن ولوحدهم هيكون إيه، وكمان بيتنيلوا يشربوا..

ثم وقفت بغتة تردف في رجاء:

- تعالى معايا نطلعه من هناك حتى لو غصب.

- ثانية واحدة بس أفهم عرفتي إزاي كل ده؟!



- محمد صاحبه جاني البيت وقالي دي مش أول مرة يروح هناك وأنه نصحه كتير لكن مافيش فايدة عشان كده اتصرف وبلغني.

- مش يمكن صاحبه ده بيكدب؟

- لأ يا حسن أنا أعرف محمد وواثقه في كلامه، دول صحاب من زمان وأكيد مجاش وقال كده غير لما فقد الأمل فيه.

- طيب إهدي وماتقلقيش، هاتي العنوان وأنا هتصرف.

قالها وهو يبتعد بالفعل، بدل ملابسه خلال دقائق، عند الباب هتفت فيه:

- أنا جاية معاك.





- لأ إستني هنا، مش هتأخر.

أوقفها بكلماته المقتضبة في حزم وغادر بعدها، لتعود لموضعها السابق ويملأ صدرها الخيبة، وربما لأول مرة تلح عليها الدمعات لتبكي فأراحت نفسها وتركتها تنساب في صمت فوق وجنتيها بينم نسمة تقف على بعد خطوات تستمع إلى الحوار الدائر في صمت والذهول حالها..

أنس!.. معقول؟

لم تظنه هكذا يومًا، صحيح لم تعد تراه كما السابق حتى لو من باب المصادفة إلا أنها قطعًا ظنت فيه التهذيب رغم فضوله المقيت وأنفه المحشور في أمورها الخاصة، حركت رأسها في يأس فعلى ما يبدو أن كل فرد من هذه العائلة له

حقيقة مغايرة تمامًا عن تلك التي يظهر فيها أمام البشر.. اقتربت من الأخت المصدومة تربت فوق كفها في مؤازرة صامتة هي جل ماتملك، لتهمس لها الباكية بنبرتها المتحشرجة ومازالت صدمتها تعبر عنها نظرتها:

- مش عارفه إيه جرى له الولد ده يانسمة، أنا بجد مصدومة فيه.

ربتت فوق كتفها تلك المرة والكلمات تأخذها لنفسها في تفكير ساخر: لتسألها هي عن تغير النفوس وتبديلها من حال إلى حال.

***



وصل العنوان المقصود وبصره يحوم من حوله مخترقا سرمدية الليل، فالمنطقة الحديثة هادئة حد السكون المقبض.. رفع يده يدق الجرس مرة ويضرب الباب مرات، انفرج بعد حين بواسطة شاب نحيل تفوح منه رائحة المشروب، دفعه بيده دون مقدمات حتى ترنح و كاد أن يسقط بينما يتجاوزه مفتشًا بعينيه عمن يخصه، وجد مجموعة من الشباب يتوسطون الآرائك،

يحتضن كلا منهم الزجاجات المسكرة بيد واليد الأخرى تضم فتاة تكشف عن جسدها أكثر ماتستر، لم يجد لأخيه أثر بين الجالسين بوعي غائب فراح يفتش ويدفع بالأبواب المغلقة حتى وجده هناك خلف واحد منهم..

حاله كحال الآخرين بين يديه فتاة والفارق أنه كان خالع لقميصه ويحمد الله أن الفتاة مازالت ترتدي ثوبها الفاضح.

اقتحم خلوتهم يجذب الفتاة من ذراعها ملقيًا بها نحو الفراش من خلفها ثم تناول قميص أخيه المحملق فيه وقد كساه الذهول، رماه فوق صدره بقرف وأمره بحدةٍ:

- إلبس.

لم يأتِ أنس بفعل ظل يتطلع إليه مشدوهًا بينما نهضت الفتاة من رقودها تمسد ذراعها المتألم، ترمقهما بغيظ وتدمدم لهما في تذمر:

- مين هيحاسبني دلوقتي؟



تضاعف قرفه أكثر وهو يخرج محفظته لينقدها أمام نظرات الصامت التي تباعدت في خجل وقد تم ضبطه بالجرم المشهود، حاول إرتداء قميصه لكنه تعثر فصاح فيه من جديد وإمارات الغضب تطلق الشرر:

- إخلص!

انتهى منه كيفما اتفق ثم سار من خلفه دون حديث حتى غادرا سويًا ذلك المكان الذي تفوح منه رائحة الفحش على أشتى ألوانه. كانت خطواته بالكاد تلحق فيه حينما وصلته النبرة الساخرة من خلف ظهره:

- طب كنت إستنضف ولا البيه غاوي رمرمة؟



فارت الدماء في عروقه ولم يجد وسيلة خير من الهجوم في هكذا حال:

- خدوا النصيحة من أفواه السوابق.

استدار له من فوره قابضًا على مقدمة قميصه وقد استوحشت نظرته، رطم جسده في سيارة ساكنة من الخلف، قبضته تزيد الخناق والهسيس مخيف:

- يا بجاحتك يا أخي.

هتف أنس بالكاد متبجحًا أكثر بالكلمات:

- أنت هتعمل فيها شيخ جامع ده إحنا كلنا عارفين ماضيك الوسخ.. ونقول ماضي ليه مش



يمكن المرة دي بتسرق مالنا ماهو كل حاجة بقت تحت إيدك!

جاء رده في صفعة مدوية اهتزلها سكون الليل، رفع أنس كفه وحط بها فوق وجنته الملتهبة وعيناه تطلق الشرر بينما ظل حسن يرميه بنظرات من لهب وأنفاسه الهائجة تتناحر في حرارة وتنتهي فوق وجه الصغير.. فجأة تعالى ضجيج وأبواق سيارات الشرطة معلنة عن وصولها، دفع بجسده في خشونة وأمره أن يستقل العربة في صمت ففعل، جلسا يراقبان من على بعد أمتار الجمع الغفير الذي تجمهر والفضيحة التي طالت كل مرافقيه والجنود تزج



بهم زجا إلى داخل صندوق السيارة حتى رحلوا وعاد الصمت يفرض وجوده.

- كان زمانك معاهم..

ومال جانب ثغره ساخرًا بينما سبابته تدور في الهواء بسخرية تشرح الوضع:

- معاهم أيه ده أنت كنت هتطلع ملفوف في ملاية.

ما إن صمت حتى نكس أنس برأسه وأخذ يشهق باكيًا..

تركه دقائق خفت فيها صوته ثم دمدم له بنبرة تخلو من الحياة:

- لآزم تحلل وارد تكون إتعديت لو كنت..



وترك التكملة معلقة ليأتيه الهمس بعد حين وقد بح صوته:

- ماعملتش حاجة.

- ولا قبل كده؟

سأل بذات الهدوء المقيت ليجيب عليه بهزة رأس تنفي، كانت أول مرة يتجرأ ويفعلها بعد تخبط وحيرة سكنت أفكاره، يشاركهم السهر والقليل من الشرب كل ليلة ولم يصل به الحال لأكثر من ذلك حتى قرر الليلة أن يخوض التجربة كاملة.. وليته مافعل.

تقدم حسن أولًا ثم تبعه أنس في حين وقفت المنتظره فوق جمر اللهب تتطلع إلى أخيها



الواقف من خلف أخيه الأكبر برأس منكس خزيًا، رفعت كفها إلى فمها تكتم أي كلمات تنتوي الخروج وهي تراه بتلك الهيئة الرثة وعيناه المحمرة ظهر فيها أثر البكاء بينما وجنته تفضح عن أثر صفعة قوية، وكل ذلك يعلن ببساطة عن صدق صاحبه.

فقدت سيطرتها وكادت أن تهدر فيه لولا أصابع نسمة التي نبهتها عبر ضغطة خفية أن الوقت غير مناسب فأستجابت وبدلت الكلمات بأخرى مختصرة:

- يلا بينا.

سبقه حسن حازمًا:





- هيبات هنا الليلة.

وأشار له بيده ناحية غرفته ليتحرك لها صاغرًا بينما بقيت ميسون تنظر إلى حسن وتجهم ملامحه، فلم تدري ولسانها يستفهم، فعقلها يعجز عن التصديق:

- يعني فعلًا...

قاطعها بنبرة حادة بعض الشيء:

- الموضوع ده إتقفل خلاص، مش عايز حد يكلمه فيه تاني، ياريت تنبهي على والدتك.

ظلت ترمقه للحظات في صمت مطبق، غادرت بعدها دون تعقيب.



ظل هو وهي وحدهما واقفان وقد خلت الساحة وتبقت لهما معركتهما الخاصة..

منذ أن علم بأمر قضيتها التي عادت وفتحت أمرها وعن خطوة حقيقة تلك المرة وهو يعتزلها، لم يهدد ولم يزعق، إكتفى برفع بيان المحكمة الذي تلقاه أول أمس أمام وجهها وعيناه تحدجها بنظرة صامتة لا تشي بشيء حستها دهر من كثر ما طالت آنذاك ومنذ حينها وهي لا تراه ولا يراها إلا لماما.

ظل يرمقها بذات النظرة التي حدجها بها منذ يومين لكن تلك المرة كان هناك شيء من ألم يسكن نظرته، ألم قتله سريعًا حين ولى الدبر عنها واختفى بدوره خلف باب موصد.

زاغ بصرها في أرجاء المكان المتسع الذي يطبق فوق صدرها، لم تكن تريد سوى حياة هادئة، رتيبة ومملة لا تلك التي تحياها، عليها أن تجهز على الخطوة الثانية في أقرب وقت، يجب أن تتدبر بعض المال لأجل قضيتها وسكن مناسب تعيش فيه عليها تنال قسطاً من الراحة التي تأبى أن تزورها.

***

إن لم يكن قاربك المشرع على قدر كاف من الحماية حتما ستهزمه العاصفة.. حد الغرق.

بأصابع مرتجفة رفعت الشريحة البلاستيكية الخاصة بإختبار الحمل المنزلي، تفصد جبينها عن العرق وهي ترى الخط الأحمر يرتسم سريعًا تبعه

خط آخر لكنه باهت، تعالت وتيرة الدقات حتى كاد نبضها أن يتوقف، دقائق وكان جسدها ينزلق ببطء لتفترش أرضية الحمام بثوبها غير آبهة لذلك وقد زاد الخط الباهت وضوحًا مخبرًا إياها على مهل أن في رحمها ينمو جنينه!



(٢٦)

اتبع جهلك إن شئت..

لكن لا تلوم بئر الخطيئة حين تسقط!

وهو سار بدرب الجهل مدفوعًا بمنغصات من القلق، فمنذ أن شاب عن طوق الطفولة واعتنق أرض الشباب والريعان اكتشف نقصه.. نقص لا يظهر للعيان لكنه يهز عرش رجولته ويضرب في كيانه الحيرة، أتراه يكون بذلك رجلا منقوص لن يكتمل ولن يحوز على ما منح لغيره من مكتملي الخليقة؟.. لم يحادثه أحد ليقدم له تفصيلا مفصل يطمئن به باله الحائر، صحيح بحث عبر الشبكة العنكبوتية وقرأ عن الأمر فهدأ في قرارة نفسه بعض الشيء لكن عاد ونخر الأمر

في رأسه حين أخبره أحد الرفاق أن تلك معضلة كبرى في حياة أي رجل ولم يكن يدري أنه يحمل له في نفسه ضغينة فتحدث عن جهل مدفوعًا بها.

ولأجل ذلك سعى وراء تجربة تخبره أنه لا يشكو من شيء وأنه كاملا مكمل لن يعيبه نقص فما كان غيرأن نوى وخاض لولا ذلك الدخيل الذي قطع عليه خلوته كرجل شرطة قبض عليه متلبسا. كيف ساربدرب الخطيئة غافيًا، بل كيف انحدرلذلك السفح الملوث؟ لم يكن قديسًا منزهًا عن الخطأ بل كان غارقًا في مرحلته الانتقالية تلك متبعًا أهواء مراهقته كحال الجميع في مثل سنه، لكن أن يصل به الأمر حد

المجازفة ضاربًا بكل القيم وماتربى عليه عرض الحائط تلك نقرة أخرى.

كان ممددًا فوق الفراش بجسد ساكن وساعدٍ يعصب عينيه، وصله أزيز الباب ورتم خطوات بات يعرف صاحبها فلم يتزحزح عن موضعه ظل كما هو فتحرك الدخيل حتى قبالته، ظل يراقب سكونه حتى ظن أنه راح في سبات حتى رفع ساعده و افترق جفناه ثم اعتدل جالسًا فبات يقابله وجهًا لوجه لا يفصل بينها إلا القليل، ابتلع لعابه مترددًا قبل ما يدمدم بادئًا الحديث بنبرة باردة، تمنى لو تمحو خزي اللحظات الفائتة:



- على فكرة أنا وافقت أقعد عشان مش ناقص صداع من ماما، ماهو أكيد ميسون شحنتها.

طالت نظرة محدثه إليه وهو يحك ذقنه النامية في تباطؤ محاولًا بذلك سبر أغواره، متناقض ذلك الولد بكل ماتحمل الكلمة من معنى، بات لا يعلم مدلل هو أم منحرف الطباع أم هو في الأصل هذا الذي يجالسه بهدوء مقلق..

طال تفحصه والصغير زائغ البصر في ضيق بان على ملامحه حتى تحدث أخيرًا بعد صمت باحثًا عن تفسير:

- إيه الحوار؟



قالها حسن بغمزة خاطفة ولمحها الآخر الذي عقد حاجبيه بقوة وهو ينهض فجأة في انفعال حاد أكد شكوك الجالس:

- لا حوار ولا غيره ياعم.. في إيه أنت!

اضطجع للوراء ودمدم ماطا بالكلمات في هدوء مغيظ مفردا بها عن خبرة سابقة:

- أصلك كنت متخشب، ده غيرملامحك مكانتش ملامح واحد ناوي يدفع عشان يتبسط.

مشط جسده بنظرة جريئة عاد بعدها لعينه وهو يغمزه من جديد وسؤاله تلك المرة بطنته الوقاحة:

- إيه الحوار بقى؟



حملق فيه أنس مغتاظا من جرأته، مشتعلا من كشفه لبواطن أموره ولم يملك أمام هذا سوى أن يهدر منفعلا:

- أنا همشي أكرم لي.

- اترزع مكانك.

نهره بفظاظه وكفه يشير حيث كان ليبادله النظر ساخطًا للحظات عاد بعدها وجلس، سحب شهيقًا طويلًا عله يهدئ من توتره الداخلي قبل ما يصعد بصره نحو النظرات المتفحصة له بتركيز، قطعها ساخطا وهو يطلق زفيره المحتبس بحرارة مهمها في اختصار وكأن ما يلفظه شيء ليس بالأمر الهام ومن ناحيته قطعا لا يبالي:



- كان عندي حاجة اسمها undescended testisوعملت عملية.

ارتفع حاجبا حسن وهو يميل بجذعه للأمام محاولا فك شفرات الكلمات التي لفظها ذلك المراهق سريعا متلجلجًا حتى عجز وإن راودته بعض الظنون الصحيحة لكنها حتما لاتكفي.. تحركت سبابته في حركة دائرية بالقرب من أخيه الذي هتف بدوره وقد أصابه رد فعله الغير مفسر بغباء مفاجئ:

- إيه!

- انزل بالترجمة.



رفع أصابعه العشر يجذب فيهم خصلاته بينما لسانه يهذي بالترجمة الصريحة كما رغب حتى انتهى، ترك رأسه وعاد لمحدثه ليجده يحملق فيه مذهولا فبادل صمته بآخر حتى جاءت نبرته الساخرة مستنكرة:

- والبيه رايح يطمن على نفسه في شقة مفروشة!

- يييي مش هنخلص من الليلة السوداء دي.. بس أنا اللي غلطان؛ أحكي لك بتاع إيه!

صاح فيه حسن منفعلًا بدوره:

- افهم ياحمار قلقان يبقى تروح لدكتور يطمنك مش تلبس نفسك مصيبة أكبر منك.



أشاح بيده وعاد بجسده للوراء حتى تمدد مغمغما في تكاسل:

- اللي حصل بقى.

هز رأسه يائسا من تفكيره المتهور ونهض يخلع عنه قميصه، أطفأ الضوء وتمدد بدوره فوق الفراش الآخر، وما إن فعل حتى أتاه السؤال المستنكر:

- أنت هتنام هنا!

- عندك مانع؟

- لا بس يعني سايب مراتك ليه.. أنتو متخانقين؟

لم يتبين قسماته في الظلام الدامس لكن الصمت الذي ران أخبره أنه تطاول وحشر أنفه



فيما لا يخصه وربما هو تحذير خفي يذكره بوعيده السابق والذي ما إن تذكره حتى نفخ في ضجر ودار وعاد بالدفة حيث حديثه الأول وفي خياله يرتسم موال آخر:

- لو كنت فضلت هناك كان زماني مفضوح ولابس قضية.

صرح عما يخشاه وفي داخله كان ممتنًا لحضوره في التوقيت المناسب قبل ما يقع المحظور، لم يبادله الحديث فعاد واستأنف في ترفع محاولا فتح صفحة جديدة:

- على فكرة أنا ماقصدتش الكلام اللي قلته.. متزعلش.



ظن لوهلة أنه سيتبع اعتذاره بآخر يمحو به أثر الصفعة التي نالها على يده لكن خاب ظنه حين وصلته ضحكة متهكمة خافتة شقت السكون تبعها همسه الفاتر:

- ماتشغلش بالك؛ مش أنا اللي أخد على كلام العيال.

- سبحان الله هو أنا مش بطيقك من شوية.

قالها أنس بغيظ ليأتيه الرد مفعلا من غيظه أكتر:

- ده على أساس أني بموت فيك مثلا.

تأفف ساخطا:

- ده أنت مستفز يا أخي.

- نام وبطل هري عشان عندك شغل الصبح.

- شغل!

واستطرد حائرًا:

- شغل إيه؟!

لم يرد، فتأفف عشرات المرات قبل ما يسقط صريعا للنعاس.

***

يولد الحب من رحم الحياة وتولد الحياة حين تجد الرفيق الذي يشاركك الدرب الطويل ويده تعانق يدك، قلب حان يظلل عليك ويحميك دون سؤال، ظهر تلقي عليه حملك فيخبرك أنه جدير بحمله.. تعددت أشكال الحب ولكل عاشق



طريقته في تصوير محبوبه، وزوجها اختصر الجميع في حنوه..

كانت تجالس التلفاز دون تركيز وكفها يعانق كوب الشاي؛ مشروبها المفضل عقب كل وجبة، شاردة الذهن مع أشيب الفودين الذي يجالس صغيرته عند المائدة يدرس لها واجباتها اليومية ككل يوم في هكذا توقيت بينما تتشاغل هي برفقة شاشة لا تراها سارحة فيه، تلك الشعيرات الرمادية التي تجتاح جانبي رأسه هي أكثر ما تعشق..

تعشق!

تردد صدى الكلمة داخل روحها واستقر داخل حجرات القلب حيث المنتهى ليزين ثغرها بسمة خافتة رسمها الهوى الذي تحياه، لم يخيل لها

أن تكن له تلك النوعية من المشاعر وفي وقت قصير كهذا.. قبلته الدافئة التي يلثم بها جبينها قبل رحيله وعند عودته بمثابة حجر جديد لحبه داخل نابضها يضعه كل يوم حتى بات كالبنيان المرصوص لا تهزه ريح، ربتاته الحانية وقتما تقوم بعمل ما تمحو كل تعب عاشته. حتى صغيرته التي لم تعتَدها حتى اللحظة وتفضل أباها في كل شيء باتت محبتها تتضاعف كما أبيها يوما بعد يوم، يفلت عقال نبضاتها ويحرك فيها شيئًا لم تكنه يوما حد أنها وقتما تتطلع إلى نفسها في المرآة تجدها تنضح بجمال لم تره في نفسها قبلا.

بعد حين كانا قد انتهيا وحان موعد نوم الصغيرة فخلدت إلى فراشها وجاء هو ليشاركها الجلوس



وذراعه يمتد من خلفها فوق حافة الأريكة، التقط جهاز التحكم الخاص بالتلفاز وأخذ يتنقل بين القنوات الرياضية والإخبارية في تركيز كامل بينما أنفاسها تتقارع في تعثر، استغلت تركيزه الغائب عنها وإقتربت تسحب شهيقا طويلا معبقا برائحة جسده لا بقايا عطره، مغمضة العينين وكل خلية فيها تسكر لحلاوة ما تشعر..

قالوا من قبل أول ما تعشق المرأة في رجلها.. رائحته!

وهي لم تعشقها فحسب بل أدمنتها.

- شوط يابني آدم ماهي قدامك!





أفزعتها صيحته المتفاعلة مع مباراة تجهل أسماء لاعبيها لتنتشلها من وسط خيالاتها التي تعدت الكثير..

اللعنة عليها!

تملك لسانًا لا يكف عن الثرثرة صبح مساء مع أيّ كان ويأتي عند زوجها حلالها وكأنما أربعة أحصنة عربية بفرسانهم يسحبونه للخلف فيموت كل حرف يبغي ظهورا، ماذا يحدث لو أخبرته أنها تكن له بعض المشاعر!

بل ماذا يتوجب على أي زوجة أن تفعل غير ذلك؟

حسنًا.. الآن!



في هاته اللحظة سوف تخبره أنها تحبه..

هكذا ببساطة..

- بقولك إيه..

أجلت حنجرتها وهمست بها خافتة مترددة إلا أنها كانت كافية ليهبط لها بصره في انتباه حتى تنهي جملتها المنقوصة إلا أنها تلعثمت من الداخل وارتبكت كل الحروف وماجت في بعضها، حرك رأسه بهزة صغيرة وحاجباه يلتقيان في عقدة خفيفة يحثها بذلك على المتابعة.. ففعلت:

- تاكل بسبوسة؟

- أي حاجة منك حلوة يا سمسم.



أجابها ببسمته الصافية وعاد يتابع مباراته لتبادله بمثلها وهي تنهض من فورها، سبت حالها في طريقها إلى المطبخ كيف لها أن تعترف بحبها إن كانت تستحي من لفظ اسمه!

وبخت نفسها ونالت على تقريع كاف قبل ما ترسم بسمتها العذبة وتعود أدراجها وبين يديها طبق"البسبوسة". جلست في مكانها وناولته إياه، تذوق القليل ثم هتف مشيدا بكل ما تصنع يداها كعادته معها:

- حلوة قوي تسلم إيديك.

لم تعد تهرب بنظراتها منه بل أصبحت تستقبل كل مايجود به وهي على أتم استعداد لاستقباله



وتمني نفسها أن تحرر مشاعرها المقيدة رغما عنها حتى تستطيع مبادلته ذلك يوما.

بعد محاولات تعدت العشر باءت كلها بالفشل كانت تتوسط فراشها استعداد للنوم وبينما كان هو ينهي قراءة كتابه كان يعمل عقلها على خطة لا تقبل التراجع تلك المرة..

ما إن يقترب سوف تغوص بين ذراعيه وتهمس بحبها هكذا دون مقدمات ليتسلم هو الدفة بعد ذلك..

حتى اللحظة لا تفهم مدى إصرارها هذه الليلة وصراعها الذي طال، عل الأمر يعود لاقتراب موعد عادتها الشهرية لتعبث بها الهرمونات خير عبث.. نامت على بطنها وعيناها تراقبه في إنتظار

حتى يفرغ، لكن على مايبدو أنها لم تعمل حساب للنعاس الذي أفسد خطتها حين أوقع بها بين شباكه فغابت معه دون مقاومة تذكر.

***

تنمو بذرة الحب حين ترتوي بالاهتمام ..

عندما تمنح صاحب الدقات نصيبه الخاص من حيزك الأكثر خصوصية، هو أمر خارج عن إرادتنا الحرة وقتها تكون أفعالك ماهي إلا صدى منعكس لما يفتعل بداخلك فتلبي جوارحك الأوامر بكل متعة خالصة.

ضغطة صغيرة طالت جرس الباب وعادت يدها توازن الصندوق القابع بين ذراعيها في انتظار لم



يطل حين فتح الباب بتلكؤ، وظهر وجهه وقد علته الصدمة التي غلبت حمرته وهزاله الواضح وهو يهتف مستنكرا لوجودها، هنا أمام باب بيته:

- غنى!

في العادة وقتما تصل إلى العمل تجده سبقها إلى هناك لكن حينما واجهها الفراغ داخل مكتبه صباح اليوم انتابها القلق وهاتفته من فورها وكان قلقها في محله حين أخبرها أنه يعاني من ارتفاع في الحرارة وصداع يكاد يفتك بدماغه ولا يقوى على نهوض ثم أتبع حديثه باعتذار عن حضوره لليوم، فما كان غير أن أنهت بعض المهام ومن وجهها جاءت إليه، ذلك أقل ما يمكن

تقديمه لمن كان إلى جانبها الفترة الماضية، تحمل مزاجيتها المضطربة وفعل مابوسعه حتى تعود لطبيعتها، وهي بفضله تفعل.

- شكلك تعبان قوي.

أقرت أسفًا بما تراه واضحًا فوق معالم وجهه في حين جاءت نبرته واهنة وأصابعة تفرك جبهته في إعياء:

- يعني شوية.

تجاوزت عتبة الباب ببضع سنتيمترات:

- يبقى لازم ترتاح.

ثم مدت يدها بصندوقها الورقي مع ابتسامة جذابة:



- جبت لك دول.

رفع حاجبًا متوجسًا وهو يتناوله ويبعد غطاءه فوجد مجموعة من أدوية البرد تصحبهم لفافة أعشاب لذات الغرض مع كوب فخاري، ضحك ملء فيه وعيناه تلاقي عينيها الذائبة في نكهة القهوة فتتألق بوهج خاص ألبسه ثوب الفكاهة:

- كل ده عشاني؟

افترق ثغرها بضحكة صغيرة ورأسها تتحرك في إيجاب ثم رمقته في استياء مصطنع:

- أنت ماقولتليش اتفضلي على فكرة.



حك مؤخرة رأسه وحاجبه الأيسر يعلو في عبث:

- والله أنا نفسي أقولك اتفضلي وتتفضلي فعلا بس خايف بعد ما تتفضلي تزعلي إنك اتفضلتي.

استغرق الأمر منها بضع لحظات حتى وصلها المعنى المستتر لما وراء كلماته ففغرت فمها محملقة في صمت ثم أغلقته ويدها تصارع خصلة قصيرة تعود بها لخلف أذنها؛ كيف نسيت أنهُ يعيش وحيدًا، لا هي لم تنسَ! ولكنها انفلتتَ! احمرّتْ وجنتاها لتهمس له بنظرات متوجسة وخطواتها تعود إلى الخارج:

- طيب هامشي أنا بقى، ماتنساش تاخد العلاج وتخلي بالك من صحتك.



لم يجِب وضحك في عبث قلما يسلكه ليزيد من تلجلجها، لكن ماذا يفعل إن كان القلب يميل فتميل معه كل الجوارح..

سحبت شهيقًا قصيرًا وأسنانها تضغط فوق شفتها السفلى بينما ترفع كفها في سلام عابر، توليه ظهرها في رحيل تنواه قطعه بنداء رخيم:

- غنى..

توقفت خطواتها ودارت ترمش بأهدابها حتى جاءتها نبرته الباسمة في امتنان:

- شكرًا.

قالها مختصرة لكنها تحوي الكثير، الكثير من المشاعر المتضاربة لكنها جميعًا تصب في نهر



واحد مقره ومستقره القلب. لم يكن رجلا يعتاد الحيرة والتخبط، بل اعتاد الوضوح والصراحة وعلى هذا النهج يسير ولن يكون للقلب مسارًا منحرفًا.. وهو في هاته اللحظة يعترف لنفسه اعترافًا ضمنيًا أنه قرر واختار وشكره هذا لأجل حضورها المباغت الذي أسقط آخر عثرة في طريق القلب ليضيء له مساره الجديد.

تلاقت النظرات للحظات بدت كالأبد قطعتها بهمهمة سريعة اختفت بعدها خلف باب المصعد تتنفس الصعداء. سارت على وجهها هائمة، حائرة، يذكرها عقلها التائه أن الأمور تتصاعد بشكل مريب وسرعة تفوق المنطقية، فهذا الذي كانت تقف عند بابه منذ لحظات قليلة أصبح..



أصبح يربكها! تحديداً منذ ليلة زواج أمها والتي كانت فيها بحالة يرثى لها، وما كان منه غير أن احتوى ..مابالها تنزلق داخل هوة لا تفقه مستقرها لكنها تجيد السقوط بنفس راضية؟

هزت رأسها ترفض تلك الأفكار الهوجاء ..هي فقط تهتم لأمره لأنه فعل من قبل وكان إلى جوارها وقت الحاجة، هو شريكها بالعمل وصديقها مؤخرا الذي يفهمها دون حديث وما يحدث ماهو إلا داخل إطار صداقة جميل جمع بينهما بعد عداء لم يطل. استراحت لهذا التفكير وتنبهت لحالها التي شردت كثيرًا حد تناسي إيقاف عربة الأجرة، وما إن فعلت واستقرت داخل مقعدها حتى راودتها فكرة مسرطنة تركت



عدة شروخ فوق فكرها المستريح.. فقد قفز هاجس لعين يخبرها ببساطة أن ذلك الإطار الذي تحتمي فيه كذباً بدأ في التصدع حين كان يتطلع إليها في شيء من لهفة سكنت عيناه وإستشعرها قلبها.

***

إن لم يكن قاربُك المشرَع على قدرٍ كافٍ من الحماية حتمًا ستهزمه العاصفة.. حد الغرق.

بأصابع مرتجفة رفعت الشريحة البلاستيكية الخاصة باختبار الحمل المنزلي، تفصد جبينها عن العرق وهي ترى الخط الأحمر يرتسم سريعًا تبعه خط آخر لكنه باهت، تعالت وتيرة الدقات حتى كاد نبضها أن يتوقف، دقائق وكان جسدها ينزلق

ببطء لتفترش أرضية الحمام بثوبها غير آبهة لذلك وقد زاد الخط الباهت وضوحا مخبرًا إياها على مهل أن في رحمها ينمو جنينه!

عادت برأسها للوراء وألقت بها فوق الجدار البارد كروحها في هاته اللحظة، عصرت جفنيها بقوة فتسللت عبرة حارة بينما أصابعها تنقبض وتعود تنفرد فوق بطنها، تعتصر بقوة واهنة ذنبها الوليد..

نعم ذنبها، لو ما كانت بذلك الضعف ماكانت لتسقط ليلتها وتنساق خلف رغبة جسدها الذي لبى قربه بشكل مثير للشفقة..

كانت توشك على الوصول حيث خط النهاية، قضيتها تسير كما تريد ولم يتبقَّ سوى القليل

حتى تنال مرادها، ارتاحت لاعتزاله الفترة المنصرمة حد أنها ماعادت تراه إلا مصادفة عابرة فأعدت حالها وهيئتها لرحيل قريب..

فشجرتهما جفت وتساقطت أوراقها وماتبقى لم يكن سوى بالشيء الهين وكانت أكيدة لاقتراب سقوطه بل واقتلاعه كاملا من الجذور..

لماذا الآن؟

لماذا الآن ترتوي الأغصان اليابسة وتثمر في لحظة!

ما ذنب تلك الروح في أب كهذا وأم تمقت وجودها من اللحظة التي عرفتها فيها؟

وما ذنبها هي لتحيا كل هذا!



ظلت على وضعها لوقت لا تعيه، جامدة الحركة إلا من عبرات أغرقت روحها وفاضت حتى ملأت وجهها الشاحب، انتشلتها الدقات التي تعالت فوق الباب المغلق في تناغم فرفعت وجهها تنظر إليه وكأنما تراه لتتضاعف وجيعتها مع وصول نبرته القلقة :

- نسمة..

كررها ثانية وعند الثالثة قطعت سيلها المنهمر في قسوة نالتها من ظهر كفها وهي تنهض في صعوبة حتى استوت واقفة، تتطلع إلى الشريحة الساكنة داخل راحة يدها بعيون غائرة، أطبقت عليها أصابعها في قسوة غائبة في دنياها عن المقبض الثائر في عشوائية حتى كاد أن يخلع في قبضته..

قطعت ثورته بباب انفرج بغتة ومن ورائه كان يقف بقسمات غلبها القلق، أطلق زفير مشحون حين رآها وما كاد يفعل حتى قطب جبينه وحاجبيه في جهل لما يرى من حالة يرثى لها:

- حصل إيه؟

سأل متوجسًا بينما ظلت هي تحدجه في صمت وفوق أهدابها تجمدت عبرة، جمرة من لهب استقرت في جوفها وهي تلفظ أحرفها الضائعة دون حياة:

- أنت لعنة مش هخلص منها غير بالموت.

دقات رتيبة فوق ساعة الحائط تخبرنا أنها تخطت السادسة صباحًا ببضع دقائق يقف فيها



عاجزًا عن فهم البركان الخامد الذي يقف أمامه وينتظر اللحظة المناسبة حتى يثور بينما عيناه تترقب العبرات الساكنة في مهدها بوجع عكسته مقلتيها الخابية داخل قمقم القهر والحسرة.

- كرهتني حتى في نفسي.

- حصل إيييه؟

صرخ فيها بصبر فرَغ وعيون قست نظرتها، كفه يقبض على ذراعها بقوة رجتها عله يعي لما تهذي في باكورة هذا الصباح الأغبر، ضربت بإختبارها في صدره فارتطم فيه ليسقط أرضًا بعدها، دفعت بصدره حتى يحررها من قبضته ففعل حين استقر بصره فوق الشريحة المستريحة عند أقدامه، تخطت إطار الباب وابتعدت عن مرماه

بخطوات تعالت فيهم شهقاتها وغصت بحلقها، جسدها يرتعد وأسنانها تصطك في بعضها دون إرادة منها.

كان الخبر الذي أكده الخطان الواضحان بقوة بمثابة قبضة التفت حول أحشائه سحبت أنفاسه وأوقفت الدم في عروقه، دار بصره ناحيتها فوجدها تغص بروحها في انهيار لم يسبق له مثيل، اقترب بأقدام مثقلة يضغط فوق كتفها براحته وبالكاد همس:

- إهدي.

وصلتها باردة، هادئة حد فوران الدم برأسها لتزيح ذراعه عنها في فظاظة وازتها دهشة مصطنعة :



- وهو المفروض أكون هادية!

- يعني شغل الجنان ده هيريحك.

- أنت السبب في كل المصايب دي.

- ماضربتكيش على إيدك!

لفظها غاضبة لتعود برأسها للوراء وبصرها يرتاح عند نقطة وهمية بينما حروفها تتبعثر في شتات:

- عندك حق أنا السبب، المرة دي الذنب ذنبي..

قالتها بنبرة ميتة وروح تماثلها ليقترب يمسك بوجهها يجبرها على النظر بينما تضيق نظرته والاستنكار حليفه تلك المرة:

- ذنب!





ما إن جاءتها نبرته المستنكرة مع توحش نظرته ماجت حروفها وخرجت تجابه في قسوة مريرة:

- أيوه ذنب، لما يبقى منك أنت يبقى ذنب.

ثم كورت يمناها وأخذت تضرب بطنها بوعي مغيب وشهقاتها تعلو وتيرتها في همس قاس:

- بس أنا السبب، أنا الغبية..

- كفاااااية.

صرخ في وجهها ويده تطبق فوق رسغها يمنع ضرباتها التي تسددها إلى رحمها في جنون، لم يتركها إلا عندما هدأت أنفاسها وخمد بركانها أسفل قبضته، صمتت إلا من بكاء متقطع ظلت تغص فيه لبعد حين حتى تحركت مبتعدة



بأكتاف منحنية ورأس منكس يعلن أنها قد خسرت للتو وانتصر هو دون نزال.

***

حين نفقد هويتنا نقف عند مفترق طرق، نخطو فنجبن ثم نعود إلى نقطة البداية خائبين، متحيرين دون قرار..

حينها عليك أن تستفتي قلبك، سلمه لجام أمرك وحده قادر على أن يبدد سطوة ظلامك فيستنير لك الطريق.

ماحدث صباح اليوم كان مفترق جديد يدعوه للالتحاق فيه، لو أخبروه من قبل أنه سيكون أبًا ذات يوم لضحك ملء شدقيه هازئا، كانت



الفكرة بعيدة تمام البعد لدرجة لم يعِ فيها أن ذلك وارد الحدوث بل وبكل يسر كما حدث.

هو نفسه لا يفهم كنه مايشعر، ماذا يعني له ذلك الجنين؟ هل هو ذنب كما قالت أم متاهة جديدة سوف يخوض دروبها!..

قضى يومه داخل بئر العمل شريد الروح والبدن بعقل صاخب يبحث عن جواب واحد..

ماذا يريد؟

وياله من سؤال تعجيزي لقاموسه الفارغ.

عاد منذ قرابة الساعتين ليحتل المائدة في جلوس خاو، مفرغ إلا من صورتها وهي تضرب بطنها تبغي خلاص منه ومن ذنبه كما تقول..



مسح عن وجهه ثم نهض مثقل الجسد والنفس، دفع ببابها الموارب ليجدها على حالها كما غادرها في الصباح، ساكنة على جانبها فوق الفراش، خامدة الروح والبدن إلا من عيون محدقه في الفراغ تخبره أنها مازالت تنتمي إلى عالم الأحياء.

تقدم بالخطى ودار حول الفراش وفي بطء كان جسده ينسل إلى داخله، استوى مثلها على جانبه من خلف جسدها الذي ارتجف وهو يحيط خصرها بذراعه، ضمها إليه برفق فبات ظهرها يغوص داخل صدره وكفه المحيط يرتاح فوق بطنها المسطحة بينما نظراته الفارغة تواجه خصلاتها المسدولة بإهمال من خلف رأسها الساكن.



- أنا مستحيل أسمح أنك تتأذي بسببي، على الأقل دلوقتي.. دي حقيقة لازم تصدقيها.

همس بحروفه الرخيمة وهو على يقين أنها تستمتع إلى كلماته التي أفلت عقالها وكان تشنج جسدها خير دليل، تابع وجسده ساكن إلا من حركة أهداب رتيبة :

- أنتِ اللي مصره توصلينا لطريق مسدود بعد ما حكمتي عليّ من غير ماتسألي إيه وصلني لكدة؟ قررتي تشوفيني من زاوية واحدة ترضي بيها ضميرك الملاك وتقنعيه إن أنا الشيطان اللي يستحق العقاب طول الوقت..

ضغط كفه فوق بطنها دون وعي وهو يهدر:



- مفكرتيش تسأليني ولو لمرة أنا ليه اخترت الغلط؟

وصمت لبرهة قست فيها نظرته وهو يستطرد بلهجة ساخرة:

- كنت هقولك لما يكون قدامك كل السكك أخرتها غلط طبيعي نختار الغلط.

ويبرر بجفاء:

- أنتِ ماتعرفيش كنت عايش إزاي؟.. حياة كلها فقر وذل.. ظلم وموت بالحيا.

تحرك جسدها يرفض ذلك الدرب الذي يجبرها على السير فيه، فابتعد عنها وسكن على ظهره،



ساعده أسفل رأسه وبصره يعانق السقف دون رؤية واضحة، ضائع بين سراديب الحقيقة:

- أنا تايه يا نسمة..

فجّر حيرته بتلك الأحرف الأخيرة، بينما كان جوفه يشتعل فأغمض عينيه وترك لبقية الحروف حرية التعبير من بين اصطكاك حائر:

- مش لاقي نفسي جوه بدلة ومكتب وصورة الأخ المسؤول، فيه صوت بيقولي إن هو السبب في اللي وصلت له وإن مكاني مش هنا، مكاني مع نفسي اللي أعرفها من سنين..

افترق جفناه على الواقع:



- بس في نفس الوقت في حاجة مقيداني مش عارف إيه هي، حاجة منعاني أرجع للي كنت فيه وأنا مش عارف أكون حد تاني مايشبهنيش.

مال على جانبه وعاد يتحكم في خصرها بضغطة حانية بعثر فيها حروفه الصادقة فوق جراحها المثخنة:

- مش برتاح غير معاكي، بكون واحد تالت بس مرتاح.

وتنهد فوق جيدها في حرارة مسترسلا في حديث حبسه داخل نفسه حتى فاض وأغرق روحه الضائعة:



- رسايلك ليا في السجن كانت زي النفس اللي باخده بعد خنقة طويلة ويوم بعد يوم فضلت أستناه.. وإبني اللي جواكي مش ذنب ده النفس الهارب من شهور.

رفع رأسه حتى استكان بذقنه فوق كتفها يراقب عبراتها المتساقطة واحدة تلو أخرى في صمت فشد على ضمته أكثر ونبرته كانت كمن وصل بعد طول غياب:

- أنتِ الطريق الوحيد اللي أعرفه ومش عايز أخسره.

ثم أطرق برأسه وغاص داخل خصلاتها بمهادنة جديدة يلقي بحبالها إليها:



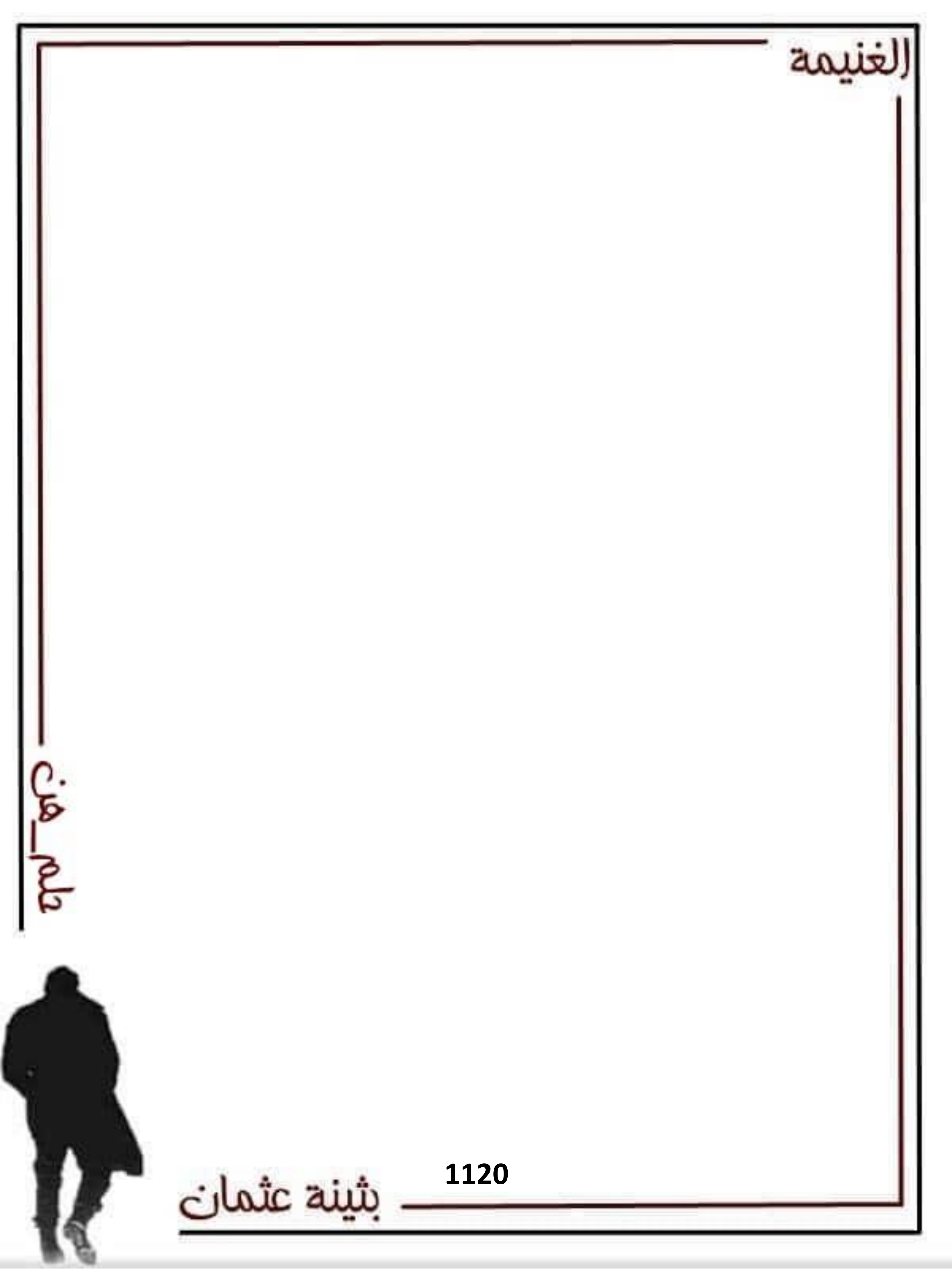
- خلينا نفتح صفحة جديدة، اديني الوقت عشان أثبت لك إني مش نفس الشخص اللي مصممة تشوفيه بنفس العين.. اعتبري شهور الحمل فترة اختباريا نكمل بعدها يا كل واحد يروح لحاله من غير فضايح بقضايا ولا محاكم.

ذيل ختام عرضه بربتة ولثمة استقرت فوق خصلاتها صاحبها إسدال الستار لحديثه الذي طال:

- القرار قرارك.

ختم حديثه ونهض تاركًا إياها تلفحها البرودة من كل صوب، تركها صريعة روحها الثكلى وقلبها العاق.




الغنيمة
بثينة عثمان

(٢٧)

لكل مخطىءٍ جزاءٌ يوازي مقدار ما إقترف من زَلَل..

تلك حقيقةٌ لا يمكن إنكارها، وهو سقط بل تمرغ بشيءٍ من وحل وكان لابد من عقاب كاف، وكانت المعادلة أكثر من بسيطة..

تريد المال؟

إذن اعمل واكتسب بعرق جبينك.

أمر صدر عن أخيه لأبيه في سيطرة تامة عقب ما تولى زمام أموره وصار هو المسئول عن كل قرش



يخصه ولا يطاله إلا عن طريق يده شخصيا، أمر جاء بتأييد من أمه وأخته..

الجميع وقف ضده، لكن لا بأس فليفعل مايبغون على أية حال هو لايهوى مقاعد الدراسة كثيرًا وثلاث أيام للجامعة تكفي وتزيد، أما عن باقي الأيام ها هو يحتل بقعته الأثيرة داخل معمل الألبان والذي تعين فيه كمساعد رئيس العاملين، ولأن الرئيس هو العم عبدالحميد الرجل الطيب؛ صديق أبيه الراحل لا ضرار في ذلك فهو يغطي عليه دائما ويشيد بإسمه دونما يفعل شيء يذكر سوى قضاء ساعات العمل في النقر فوق شاشة الهاتف الخاص فيه..

- صباح النور يا ريس.

إنتفض من خموله على رد التحية الخاصة بأخيه، فالعاملين يخصونه بلفظة"ريس" كما يفعلون مع عبدالحميد ويرون أنها تناسبه أكثر من الألقاب الأخرى الأكثر رقيا وتنميق.

أشار له من البعيد فتقدم ناحيته على الفور، لو رآه أحد زملاءه بذلك الحذاء طويل الرقبة والغطاء القميء الذي يحتل رأسه كسائر الجميع لكانوا اتخذوه أضحوكة العام..

لاحق خطواته حتى الخارج بعيدًا عن الضوضاء القائمة بالداخل حتى قابله ملتقطا أنفاسه:

- صباحوو



- إيه الأخبار؟

- كله إشطا.

مط حسن شفاهه في عدم رضا وبصره يحوم فوق بضعة أوراق ساكنة يمناه، رفع منظاره الشمسي فوق خصلاته التي عادت لعهدها القديم إذ زادت مؤخرًا طولا وكثافة:

- مش باين يعني يا أستاذ، طلبية الحاج سلامة متأخرة عن ميعاد تسليمها بتاع ساعتين ونص.. أفهم ليه؟

نفخ أنس في ضجر:

- ما تسأل عبدالحميد؟



- بذمتك مش مكسوف وأنت مش عارف تتابع كام طلبية لكام محل صغير؟.. أنت المسؤول قدامي مش عبدالحميد ويكون في علمك يحصل تأخير تاني فيها خصم على طول.

ثم حدجه بنظرة ظهر فيها الإستياء:

- وبعدين إنشف شوية عشان العمال يعملوا لك حساب.

تحداه حسن برفعة حاجب أن يعترض أو ينطق فأطلق زفرة مغتاظة أودعها كل ما يشعر ليستفزه أكثر بضحكة صفراء سكتا على أثرها أو بالأحرى هي رسالة وصلت الأخير الذي أخرج هاتفه منذ لحظات ليبحث فيه عن رقم ما



فجاءته تلك الرسالة النصية التي وصلت للتو حد أنها أخرسته.. كانت تحمل أسمها!

لم يطق صبراً وهو يفتحها لتمر عيناه فوق مضمونها والذي لم يكن سوى ثلاث كلمات فقط، وما إن إستوعب عقله فحواها حتى سكنت قسماته وذاب عنه قناع الإستفزاز الذي كان يناوش فيه أخيه عن قصد منذ لحظات ولم يتبقى له سوى الدهشة!

تركه أنس مشغولا بالهاتف الذي يطالعه في دهشة وسار يمسد عنقه الذي تشنج من طول الجلوس منذ الصباح، عبر الأرض الفسيحة المكسوة بالعشب، ألقى بالتحية على بعض من العاملين في طريقه حتى وصل عند حوض مربع

الشكل يمتلأ بالمياه المستخرجة من باطن الأرض، يعلوه جانبا آلة ضخمة يجهل إسمها لكنها تقوم بمهمة الصنبور لكن بحجم مضاعف، حرك الذراع وتلقف بكفه الحر دفقات المياة الغزيرة يقذف بها على وجهه وشعره المتوهج بصهد الظهيرة، غمرته برودة المياه في انتعاش حد أنه أغرق قميصه الأصفر الشاحب، خلع الحذاء اللعين ليترك لأقدامه الحافية حرية التمتع ببرودة العشب من تحتها لينتشي بذلك الشعور وهو يحتل حافة الحوض في جلوس مريح، ولم يكتفي بل قرر أخذ فسحة ظليلة أسفل تلك الشجرة التي تحجب عنه أشعة الشمس بالأغصان المورقة، فك أزرار قميصه واحد تلو



آخر حتى إنتهى فخلعه وألقى به فوق وجهه مغمضا عيناه من أسفله لتكتمل لحظته حد الإستجمام، استوى عاري الجذع إلا من سروال كتاني يستره، تضربه النسمات في تحبب، ظل على حاله لأكثر من عشرون دقيقة لم يقطع متعة خلوته سوى شهقة فزعه خرجت من مصدر أنثوي بحت!

في تباطىء رفع أصابعه يسحب طرف القميص ليسقط عن وجهه ويكشف عن فمه المفغر ليجدها أمامه..

وشاح ذا زرقة صافية يضم وجه مليح على ما يظن فهذا ما بدى من خلف ساعدها الراقد فوق عينيها فحجب عنه الرؤية التامة، يتبعه

ثوب كحلي يلف منحنيات لا بأس بها وإن كانت تميل للنحافة أكثر، بينما النصف الآخر للثوب الخفيف كان يتطاير بفعل الهواء ليكشف قليلا عن ساقين.. مغريان!

ساعدها الذي تعصب عينيها بواسطته في حرج وخجل على حد السواء منحه المجال كي يشملها في نظرة سريعة استرعى بعدها إنتباهه ليستقيم واقفا متنحنحا يتصنع الحرج بنبرة تماثله:

- آسف..

ما إن صدح صوته حتى تحركت في عشوائية بعيون مازالت محجوب عنها الرؤيا منذ أن صعقها ذلك المشهد المريع!

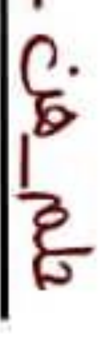


حاولت تجاوزه بذات الوضعية فتحركت من جهة اليمين فكانت وجهته، تعثرت فيه وراحت لليسار فتبعها دون قصد وعند الثالثة زفرت بقوة وساعدها يتنحى جانبا وقد ضاقت ذراعا من ذلك المخبول، كشفت عن عينيها الكحيلة بينما الحنق يرسم نقوشه وتعلو نبرته:

- إيه التخلف ده يابني آدم أنت!

لوهلة أخذه جمال عينيها بطبيعتهم الساحرة إستعاد بعدها رباطة جأشه ورفع كفيه جوار رأسه يعلن إستسلامه مع بسمة بريئة أجاد رسمها تملكت من ثغره:

-آسف تاني.





كتفت ساعديها فوق صدرها بينما ترمقه بطرف بصرها، كان ينهي غلق آخر زر من قميصه حين طالعته في إزدراء لم يختفي بعد لكن حجمه إعتذاره على أية حال:

- حصل خير.. ممكن أعدي بقى؟

- إيه هتنزلي تاخدي غطس!

قالها بسماجة مقصودة وإبهامه يشير ناحية الحوض من خلفه لتكرمش وجهها في تهكم واضح وبصرها يرتفع لما وراءه:

- لا هدخل بيتنا يا ظريف.

رمق البيت المقصود والقابع على بعد خطوات منه في دهشة عاد بها حيث هي فوجدها تحركت

بالفعل وكادت أن تتخطاه حين أوقف خطواتها بنبرة جادة تلك المرة:

- ده بيت الريس عبدالحميد!

أوقفت الخطى واستدارات تقابل دهشته بتخصر وهتاف مغيظ:

- وأنا بنته عند سعادتك إعتراض ولا حاجة؟

حقيقة لا يعلم لما الجميع يعامله بذلك الأسلوب كأنه القط الذي أكل عشاءهم، تجاوز عن سماجة نبرتها وجهله في معرفة أن لعبد الحميد ابنة من الأساس وعاد يجلس فوق حافة الحوض، يرتدي حذاءه متخذا من التسلية سبيل:



- ده عبده ده حبيبي.. وأنتِ اسمك إيه بقى؟

- وأنت مالك!

قالتها قوية متعجبة من وقاحة هذا الجالس أمامها ويرتدي حذاءه على أكثر من مهل، ليرد متابعا تسليته بنبرة بدت باردة تلك المرة:

- ماقصدش حاجة على فكرة أنا بس مش عاوزك تفهميني غلط، أنا تعبت من الشغل وحبيت أريح شوية وماخدتش بالي أن في حد موجود، ياريت بابا مايعرفش بقى يا اسمك أيه أصل دي فيها خصم..

صمت لبرهة وعاد بعدها يرسم كل ملامح الأسى فوق قسماته وقد اعجبته التمثيلية المبتذلة،



استقام ململما الكرامة الجريحة بإقناع يستحق الأوسكار:

- أنا لولا أمي المريضة ماكنش همني، على كل حال أنتِ وضميرك.

وإستدار راحلا يداري بسمته العابثة بينما ظلت هي تحملق فيه برأس تمايل جانبًا في تأثر دام للحظات تحول بعدها لعقدة جبين غير مقتنعة لكن هيئته تشبه العاملين بعض الشيء إذن هو بالفعل يعمل هنا لكن كيف وهي تراه لأول مرة!

أجابت على حالها بحركة كتفين غير مهتمة وتابعت طريقها إلى الداخل.

***



حين تكون حربك الخاصة خالية من الغنائم تتزعزع فيك رغبة الوصول، تضيع بين أن تكون المقدام الشجاع وبين تقبل الهزيمة بنفس راضية.. في النهاية المكسب والخسارة كلاهما لك سيان.

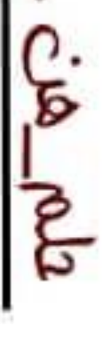
تكره أن تكون لعاطفتها الكلمة العليا، لكن منذ آخر حديث جمع بينهما وبالفعل لا يوجد غير العاطفة هي من تستلم دفتها وتحركها كيفما تريد.

كرهت أن تكون تلك الضعيفة التي ترتكن إلى جدار القلب تبكي حالها، لكنها ترتكن إلى ما كرهت؛ ليس بضعف يتلبسها أنما بروح حائرة. شق فيها يناشدها أن تمد له يد العون وتخلصه

من بقايا ذلك المستنقع العالق فيه، تصدق أنه يبغي صلاح وأنها الطريق الوحيد الذي يهتدي إليه..

وشق خائف، فاقد للثقة.. يسألها كيف ترضين؟ ماذا لو خذلك وكان ذلك كله ماهو إلا وجه جديد لصاحبه سوف تختبرين تباعته فيما بعد.. وحينها حتما ستنتهي وتلك المرة ليست وحدها بل معها قطعة منه ستظل تذكرها فيه ماحييت..

كان هذا حالها منذ يومان، تحديدًا منذ أن كشف لها عن غطاء روحه وباح لها بشيء من خاطره.





من خلف مكتبها داخل حصون الجامعة كانت تستكين في شرود تام حجبها عن بقية الزملاء من حولها، رفعت كفها في تردد خفي تمسد بطنها المسطحة، كيف راودتها نفسها عن قتل روحها الصغيرة!

كانت قانطة، تعسة الروح والنفس، مرت بلحظات عصيبة فقدت فيها عقلها وفكرت في أشياء تعرف جيدًا مدى تحريمها..

"أستغفر الله العظيم"

حركت بها شفاها في صمت، بعدها أطبقت جفنيها تسأل ربها العون فيما إختارت، تسأله الرشاد في دربها الذي قدر لها منذ زمن.



فقد تراجعت عن قضيتها وقبلت بعرضه.

هذا ما فعلت عقب تفكير قتلها لليلتين، كانت قضية خاسرة على كل حال، بعد إحتضانها لطفله؛ هكذا هي..

وربما هي تعبت بحق، أجهدها كثرة الدوران في دائرة مفرغه بدايتها ونهايتها عنده و كلما ابتعدت تجدها إقتربت أكثر. تقاتل شخصه تارة وقلبها أخرى!.. لتستمع إليه تلك المرة وتوحد الجميع في درب واحد علها تجد فيه ما أضاعت.

سحبت الهاتف من داخل حقيبة يدها، عليها أن تنهي الأمر فقد طال أكثر مما يجب ولأنها لا تملك الشجاعة الكافية حتى تخبره بقرارها وعينها في عينه قررت أن تبعث له برسالة تحمل المختصر

المفيد.. مضى ثلث الساعة وهي تكتب وتمحي في تردد وحيرة حتى جاءت بالخلاصة..

"أنا سحبت القضية"

وإنتهى الأمر الشاق بنقرة إرسال.

- مش ناوية تروحي يا نسمة ولا أيه؟

جاءتها نبرة زميلتها المهتمة لتنشلها من بئر شرودها الذي ابتلعها منذ صباح اليوم حتى نهايته، لا تذكر كلمة مما القت على طلابها كانت تتعامل بآليه دون تركيز فجل تركيزها تحول لصورته وهو يتلقى رسالتها، وفي حالهما كيف سيكون؟ كيف تألف ذلك الغريب القاصي عن نفسها القريب لنبضها!



نفضت رأسها تقطع السيل المنهمر دون توقف واستقامت تلملم أغراضها بينما تهز برأسها للزميلة المنتظره في إيجاب صامت.

خرجتا سويا وعند البوابة الخارجية ودعتها بضمة وقبلة روتينية لتبتعد بالخطى عدة أمتار صدمت بعدها برؤيته!

بسروال سكري يعلوه قميص شديد البياض يرتكز على جانب السيارة عاقدا ساقيه ويدس بكفاه داخل جيوبه، يتطلع جانبا ويحجب بصره عن الجميع بمنظار شمسي وإن لمحت فيما ظهر من قسماته شيء من شرود.. دار بصرها من حولها في قلق، كيف تراها العيون ولا أحد يعرف بأمر زواجها!



اقتربت بجسارة، تصارع شعورها المتضارب بنبرة حادة:

- أنت بتعمل أيه هنا!؟..

استدار لها برأسه فخرجت أنفاسها مضطربة، حانقه من حضوره الغير مرغوب فيه في هاته اللحظة وبين هذا المنظار اللعين الذي يعيق لها رؤية نظراته التي تشعر بها تخترقها من خلفه.

- ماحدش هنا يعرف إني متجوزه.

أنهت جملتها المغتاظة وصمتت بعقدة حاجبين أودعتها حنقها بينما ظل هو يتطلع إليها في صمت دام لثوان شعرت بها كدهر حتى هتف أخيرًا بنبرة لا تشيء بشيء وإن ظهر فيها بعض الجفاء:



- اطلعي العربية.

وتحت نظراتها المشدوهه فتح الباب ثم إستقر خلف المقود. لحقت به عقب لحظات تخفي ضيقها من صلافته بزفرة طويلة. تحرك بذات الصمت حتى سألها بعد حين عن وجهتها دونما إلتفات:

- على الشغل؟

- على البيت.. خلاص مافيش شغل.

قالتها بفتور دونما تلتفت بدورها ليدور برأسه ناحيتها وقد استرعت انتباهه. يسألها بنبرة بانت مهتمة:

- حصل إيه؟



- صاحبة المحل هتبيعه.

ظل يراقب صمتها وهدوئها المعتاد، يعلم بمكانة ذلك العمل من لدنها، يتذكر جيداً خطابها الذي أخبرته فيه كيف تحب ذلك العمل لأنه يشعرها بروح أمها من حولها حتى أصبحت تجد فيه شغفا يسعدها.

- متضايقه؟

حركت رأسها تنظر له في صمت ثم أجابت دون إهتمام:

- شوية.. بس عادي هتعود.

لا يدري سبب ذلك العبوس، هل لأجل العمل الذي كان يجهل بأمره أم علها تشعر بالندم!



ندم على ثلاث كلمات أرسلتهم ببساطة ولا تعلم كيف كان صداهم في نفسه، كيف لها أن تعلم إن كان نفسه يجهل عما يدور بين ضلوعه، أراد رؤيتها لم يكن لينتظر المساء حتى يفعل، حمل حاله وبدلا من الذهاب للعمل جاء إليها، لحظة وقع بصره عليها ود لو ضمها إليه، رغبة شديدة ألحت ليفعها لكن حين أتمت جملتها التالية جمدت فيه كل شعور.

كيف عساه يذيب تلك التلال من الثلوج التي تفصلهما عن بعضهما وتقطع كل تواصل مشروع؟

توقف أسفل البناية وهمت بالنزول فجمد حركتها بجملته الهادئة وقد زينها بمكر خفي:

- مش هتأخر بالليل.

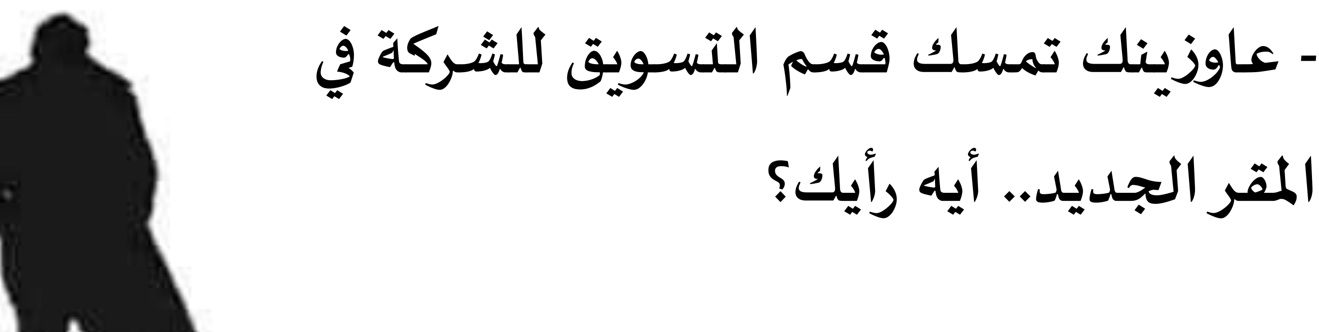
دارت بجسمها في بطء وقد جمدتها جملته المبطنة للحظات حتى استوعبتها، نجحت في رسم وجه لامبالي مع خلفية باردة قابلت بها نظراته التي يخفيها خلف منظاره المستفز مثله:

- براحتك.

قالتها مختصرة ثم ترجلت وخطت بثقة أمام نظراته التي ظلت ترمقها حتى إختفت ليتبعها بزفير طويل تحرك من بعده.

***

- عاوزينك تمسك قسم التسويق للشركة في المقر الجديد.. أيه رأيك؟





حول المائدة المستديرة كان يجتمع ثلاثتهم في إجتماع مصغر تحت طلب منه، بحماس كان يتحدث ويفند الأمور ليأتيه الجواب على لسان ماهر البغدادي في تردد:

- بصراحة أنا توقعت حملة جديدة..

وتنهد حائرًا:

- مش عارف أقولك إيه يا حسن بس أنت عارف أني مستحيل أتخلى عن شغلي الخاص بعد اللي وصلت له، وحقيقي شاكر لعرضك وثقتك.

وافقت ميسون مبدأه في صمت بينما اضطجع حسن في جلسته مدمدما:



- شوف يا ماهر أنا محتاج لك الفترة الجاية،

إسمنا رجع يسمع في السوق بشكل كبير بس أنا

عاوز أوصل للمحافظات والخطوة اللي بعدها

هتكون أوسع بإذن الله.. واحنا جربناك

وماعندناش وقت ندور على حد تاني يكون بنفس

الكفاءة.

تناولت منه ميسون طرف الخيط لتتدخل في نوع

من الإقناع:

- ولو على شغلك الخاص عادي يفضل زي

ماهو، أنت تقدر تقسم وقتك بين الأتنين، احنا

واثقين في قدراتك.

تلاعب بالقلم بين أصابعه في تفكير لم يطل

وبصره يتنقل فيما بينهما حتى غمغم:

- طيب يا جماعة؛ محتاج أتكلم مع التيم بتاعي عشان لو اتفقنا هيكون جزء منهم معايا هنا، أنا مش هعرف أشتغل مع حد جديد.

هتف حسن متفائلا:

- خد وقتك يا باشا.

- ربنا يوفقكم.

وغادرهم مستئذنا.

كانت تحرك قدمها في حركة رتيبة بينما بصرها يرتكز فوق حسن الذي يجري مكالمة مستعجلة، تلك الطاقة من الحماس التي يطلقها منذ أيام على قدر تفائلها على قدر ما زرعت فيها بعض التوجس، دائرة العمل تتسع والمسؤولية تزيد



الضعف وهي تسير من خلفه موافقة على كل ما ينتوي فبالرغم من توجسها إلا أن لثقتها النصيب الأكبر.

- بتفكري في إيه؟

- حاسه موضوع المقر الجديد ده مش وقته وهيكلفنا كتير.

- إسمنا بيكبر وطبيعي يكون لنا واجهة تشرف قدام الاسماء اللي بنتعامل معاها واللي لسه هنتعامل.. في السوق عشان تخطفي العين مهم تكوني بتلمعي من بره زي من جوه والمكان هنا صغير وناقصه كتير.

- هو فعلا ناقصنا كتير.



قالتها بإيماءه لتستطرد بعد حين:

- شفت أنس النهاردة؟

كان يدقق بعض الأورق حين أجابها دونما يرفع بصره مهمهما:

- همممم شفته في المزرعة الصبح، حصل منه حاجة تاني ولا إيه؟

- لأ خالص بالعكس ده ماشي زي المسطرة، بيرجع من الشغل هلكان ويترمي على السرير مايحسش بنفسه.. أنا بس مش عايزه نشد عليه جامد فيجي وقت وينفجر فينا كلنا، أصلك ماتعرفهوش؛ أنس ده مش بتاع شغل.



- سيبي أنس عليّ وركزي معايا هنا، الفترة الجاية محتاجين ضعف المجهود.

وافقته بإيماءه صغيرة وقد زارها حماسه.

***

ولج بهدوء ينافي شعوره الداخلي لتقابله جلستها المتحفزة داخل عباءة فضفاضه بلون زاهي وأكمام قصيرة.. وكأنها في انتظاره!

لا ينكر تمنى أن يجدها في انتظاره بالفعل لكن بصورة مغايرة بعض الشيء، على الأقل تكون خالية من ذلك القناع الجامد الذي ترتديه منذ الصباح وكأنها تعاقبه على موافقتها التي أثلجت بها صدره.



- مساء الخير.

ألقى بها بينما يتقدم ناحيتها داخل البهو الفسيح في خطوات وئيدة حتى ارتاح فوق المقعد المجاور وحينها وصله ردها الخافت.. الجامد:

- مساء النور.

راقب جلوسها المتحفز وهي تضع ساق فوق الأخرى وكفيها يرتاحان أعلاهم بينما بصرها يرتكز أمامها عند نقطة وهمية، تهتف بذات الجمود:

- محتاجين نتكلم.. ممكن؟

حاول كتم ضحكته بعضة شفاه جانبية إلا أنها أبت لتطفو فوق ثغره، لقطتها عيناها من فورها:



- في إيه يضحك معلش!

رفع حاجبه الأيسر ساخرًا من تفكيره الضحل:

- أصل تخيلت حاجة وطلعت..

وأشار بإبهامة المقلوب ناحية الأسفل، نهضت من جلستها المتحفزه وقد كسى الغضب لهجتها:

- طيب عن إذنك ولما تعرف تتكلم جد نبقى نتكلم.

لاحق خطواتها وهو يمسك بذراعها يحثها على التوقف حتى فعلت وحينها دمدم أمام وجهها بأعصاب جاهد ليتحكم فيها حتى لا يكسر لها عنقها في هاته اللحظة تحديدًا:

- عايزه تقولي إيه؟



أزاحت كفه عنها وهي تلملم عباءتها من حولها في حدة، عقدت ساعديها فوق صدرها وهتفت بنبرة واضحة:

- عايزه أحط النقط فوق الحروف، أو ممكن تعتبرها شروط زي ما تحب..

دونما انتظار للرد فردت إبهامها معددة ونظرتها تخترق نظرته بأنفاس حبيسة:

- أول حاجة لآزم تعرفها أن موافقتي مالهاش أي سبب غير أني مش عايزه أظلم روح مالهاش أي ذنب في كل اللي بيحصل ده وأنك مسؤول عنها زيي تمام فمش معقول هشيل الليلة دي لوحدي وحضرتك مرتاح.. وطبعا دي موافقة مرهونة



بفترة الحمل بعد كده هيكون ليا حرية الإختيار زي ما وعدتني.

والثاني جاء بالسبابة في تجلجل خفي:

- ثانيًا وده الأهم.. شغلي مالكش دعوة بيه خالص، وحياتي الخاصة مش مشاع للغير فياريت اللي حصل النهاردة مايتكررش تاني.

صمتت لبرهة غضت فيها الطرف عن صمته العابس لتتابع في تردد ظهر جليًا:

- ثالثًا، بحب يكون ليا مساحتي الخاصة يعني مش لآزم كل حاجة تخصني تعرفها.. وآخر حاجة أنا محتاجة وقت عشان أتعود على وجودك



فياريت تقدر ده وماتفرضش عليّ أي حاجة عارف أنها ممكن تضايقني.

- حلوة.

- نعم!

- العباية اللي أنتِ لابساها حلوة.

قالها بنصف إبتسامة متسلية بينما صمتت هي تلتقط أنفاسها اللآهثة زاوية مابين حاجبيها من الخط الساخر الذي يتبعه في حين نكس برأسه وأصابعه تتلاعب في سلسلة مفاتيحه ليصدمها بتجاهله واستخفافه لحديثها الجاد. زفرت بحنق تنوي إبتعاد فباغتها بقبضة أحكمت حول



معصمها ثبتتها في مكانها، حين رفعت بصرها قابلتها نظراته القاتمة:

- طالما فيها شروط يبقى تسمعي مني أنا كمان.

ولم ينتظر كما فعلت ودمدم بجدية تامة مستهلا الشروط خاصته:

- أولًا؛ مش مسموح لك تقلبي في القديم حتى بكلمة، إحنا ولاد النهاردة لحد ما تاخدي قرارك وأنا عند كلمتي.

تابع وضغط أصابعه يرتخي وقربه يزداد:

- ثانيًا؛ جو تصرفي على نفسك والأكل الدليفري ده تنسيه، شوفي واجباتك كست واعمليها زي ما أنا عارف واجباتي كراجل ومش ناوي أقصر فيها.



وصلته إرتعاشة جسدها تحت أنامله التي لامست ذقنها بخفة، يقترب لحد خطير مغمغمًا في هدوء:

- ثالثًا: أنا هنا راجل البيت وراجل البيت مايحبش مراته تتشرط عليه بس هسامحك عشان دي أول مرة.

حررها ما إن انتهى واستدار من أمامها، غاب داخل دورة المياة ليصلها صوت رشاش الماء ينبعث على مهل، ظلت ترمق مكانه الفارغ بعيون محدقة حتى إستقر كل حرف من حروفه داخل رأسها الصلد الذي أبى النوم قبل ما تقذف بشروطها في وجهه حتى لا يظن أنها رضخت لأجله.. لا تعلم سببا لتلك النزعة الغاضبة التي



استقبلته فيها غير أنها متوترة، منذ أن جاء بها في منتصف النهار وهي على حالها متعثرة الأفكار والمشاعر، وحين تأخر في العودة وقد ظنت أنه لن يفعل اشتاطت غضبا وأشهرت في وجهه أسلحتها ما إن حضر.

تحركت في قنوط أبدلت ملابسها بأخرى خفيفة وإندست داخل الفراش، لا طائل من الحديث معه لكن لا بأس إن كان لا يأخذ حديثها على محمل الجد سوف تعيد وترغي وتزبد فوق رأسه حتى يصمه عن ظهر غيب وستعلمه لاحقًا كيف يستهين ويستخف بها ذلك المستفز.

أطبقت جفنيها في إرهاق ويدها تمسد ذراعيها على طوله بالدهان المرطب في محاولة لاسترخاء

خلاياها المتحفزة.. خطوات لها وقع هادىء هي من أجبرتها على فتحهم ببطء لتتضح لها صورته المشوشه وهو يتوسط غرفتها بسروال مريح وكتفين عاريين تعلوهما منشفة بينما يقطر من شعره الماء. مال بجذعه حتى قابل المرآة خاصتها، بعثر خصلاته بالمنشفة حتى بتر تقاطر مائها ثم ألقى بها جانبا تحت مرآها وفمها المفغر، تحرك في صمت ليغلق الضوء ثم عاد بهيئته المشعثه وانسل إلى الفراش بكل هدوءٍ وكأنه ما يفعل غير المعتاد!

عدلت من إضطجاعها المرتاح في قوة إرتج لها سائر الجسد ونظرتها توازي استنكارها الذي شق السكون:



- بجد أنا في حياتي ماشفت بني آدم في برودك!

تنفست بتعثر، ترغي وتزبد:

- أنا مش لسه بقولك...

أطبق فوق شفاهها بلثمة مباغتة وازت استدارته السريعة وهو يحكم من حولها الوثاق، حين حررها بعد حين كان جسمها يختض وأنفاسها تتناحر فوق وجهه القريب في ضراوة ولسانها الهارب بالكاد يهمس:

- أنت.. أنت..

وتاهت منها كل التعابير مع إهتزاز بؤبؤيها الجامدان في محجرهم



ومع تهدج أنفاسها كان يميل إليها من جديد في إيقاع هادىء يناسب الدفء الزاحف..

دفء تملكه رغبتها الناعمة ويشعله إشتياقه المختزن.

***

كانت الشمس الغاربة تفترش بشفقها الأحمر صفحة المياة الرقراقة فتتلألأ الأجواء في شيء من سحر..

تراقب المنظر الخاطف أمامها في متعة بينما الموج يداعب أقدامها الحافية في خجل كل حين،

استشعرت عودته فدارت تتناول قدح القهوة



خاصتها وهي تشد على وشاحها الخفيف من حول كتفيها هامسة بثغر باسم:

- ميرسي.

تطلع إليها في إعجاب حقيقي مشيداً بما فعلت:

- كنتِ هايلة النهاردة.

رحلة عمل إلى أحد المنتجعات بشرم الشيخ وإتفاقية جديدة تولتها هي منذ البداية وحتى تزيل العقود، أظهرت فيها براعة وطلاقة نالت إستحسان من لدن الجميع، وإن كانت كذلك حقا فذلك كان بفضله.

- كله بتعليماتك يا بوص.



قالتها بزهو سعيد وهي ترتشف من كوبها الساخن ليدور ويقف قبالتها تماما ونظراته الثاقبة عن عيناها لا تحيد، أنزلت الكوب برفق وقسماتها تتسائل عما يريد..

كان منظر البحر من خلفها وملامحها القلقه أكثر من كافية حتى تتسلل أصابعه وتعانق أناملها برفق خفي مع همس أودعه مكنون قلبه بما يناسب شاعرية اللحظة:

- بحبك..

ولم يمنحها المساحة الكافية حتى تستوعب ماهية ما نطق إذ عاجلها من جديد وكفه يحتضن كفها بكليته:



- تتجوزيني يا غنى؟

(٢٨)



لكلٍ منَّا أوهامه الخاصة..

نعتادها فتمضي بنا السبل متناسين..

ومع أول شعاع يخترق لجة ظلامك، تصحو الأشباح المنسية!

كان منظر البحر من خلفها وملامحها القلقه أكثر من كافية حتى تتسلل أصابعه وتعانق أناملها برفق خفي مع همس أودعه مكنون قلبه بما يناسب شاعرية اللحظة:

- بحبك..

ولم يمنحها المساحة الكافية حتى تستوعب ماهية مانطق إذ عاجلها من جديد وكفه يحتضن كفها بكليته:



- تتجوزيني يا غنى؟

كانت أنفاسها تزداد سرعة وتحشرجًا مع دقات الثواني، عيناها ترتكزان فوق هذا الواقف قبالتها وفوق ثغره ترتسم ابتسامة خاصة، ظلت نظراتها تتأرجح يمنة ويسرة وهو تاركٌ لها كل الوقت حتى تمنحه القبول.. أجل لديه اليقين التام، هكذا يحدثه قلبه القافز بين ضلوعه، متى تسربت إليه وتملكت من قلبه لا يعلم، لكنه يريد قربها، يبغيها زوجة تتقاسم معه ماتبقى من حياة، يريدها الأنيس الذي يكسر به شبح الوحدة الذي اعتاده منذ دهر، تلك القصيرة ذات المزاج المتغاير، رقراقه الروح حد الشفافية، فحين تحزن تفيض كل قسماتها



معلنة عن ذلك وحين تبتهج تعكس بهجتها تلك العينان الصافيتان، أما وقت المآزق بات هو منقذها ومخلصها الوحيد.

- أنت بتقول إيه يا مهند!

قالتها بينما تسحب يدها ببطء حتى خلصتها من دفئه المحيط و نظراتها تشاركها الاستنكار..

استنكار لسرعة مطلبه ربما، فقد ظنت أن الأمر معه لم يتعدَّ الإعجاب في بعض من الأحايين..

خفتت بسمته حد التلاشي، يتطلع إلى ملامح وجهها المستنكرة في توجس استبد به، زوى ما بين حاجبيه مدمدمًا بنصف ابتسامة بدت سخيفة للرائي:



- قلت بحبك وعايز أتجوزك.

نظرة باهتة هي كل ما استطاعت وجسدها يستدير عن مرماه، تقابل بوجهها البحر وقد افترش الليل سرمديته فكسى الأجواء بقتامة فرضها التوتر القائم، ظل يرمقها من الخلف في غرابة خالطها الحنق إثر فعلتها تلك، لم يكن هذا ما ينتظر.. أبداً

- هو ده ردك!

قالها بانفعال حاول تهذيبه لتدور له برأسها وقد انتابتها عصبية طفيفة:

- ما هو أنت صدمتني!

اقترب خطوة همس فيها بصراحة وثبات يجيده:



- أنا مش فاهمك بجد، إيه الغريب عشان تتصدمي؟ كان واضح إني مهتم وماتستهبليش وتقولي ماخدتش بالي عشان أنتِ كمان بادلتيني نفس الإحساس ده.

دارت تقابله بكليتها، تفتح ذراعيها وتهتف بنبرة تعلو دون شعور:

- كأصحاب يا مهند!.. وأنا مش مسؤولة عن أي أفكار تانية في دماغك.

ضاقت عيناه في تساؤل مستنكر:

- أصحاب!.. يعني إيه أصحاب؟

زفرت ببطء وعيناها تزوغ في اللاشيء للحظات عادت بعدها تقابله دون أن تحيد:



- يعني زي أي إتنين مرتاحين لبعض، فاهمين بعض، وأنا مش هنكر وقفتك جنبي خاصة الفترة الأخيرة.

ضحك بعصبية:

- حقيقي أنا اللي مصدوم دلوقتي.

واستطرد موضحًا بنبرة جادة شابها الحدة:

- مافيش حاجة اسمها صحاب بالنسبالي يا غنى، كنتِ شريكتي ودلوقتي بقولك إني بحبك، أنتِ مستوعبة كلامي ولا لأ؟

- من فضلك يامهند مش بحب حد يكلمني بالأسلوب ده.



نفخ قانطًا ودار يوليها ظهره، يضع كفيه داخل جيوبه في صمت جمع بينهما، حتى قال بعد لحظات بهمس فاتر:

- آسف.. انفعلت غصب عني.

أطرقت برأسها وأصابع قدميها تقبض على الرمال اللينة، تهمهم بأحرف غير مفسرة لتصلها نبرته الهادئة بعد حين من خلف منكبه في قتامة تبغضها:

- ممكن أعرف رد صريح ومباشر على سؤالي؟

عضت فوق شفتها السفلى وبصرها يرتفع إليه، تراقب جذعه المشدود والذي يظهر مدى ما يعتمل داخله ويحكم عليه السيطرة.. ومع ذلك



لم تجد غير أن تمزع تلك الصفحة الوليدة بنبرة مخنوقة:

- كنت ومازلت صديق بحترمه وأقدره جداً، لكن ماعنديش حاجة تانية أقدر أقدمها.. أنا آسفة بجد.

أطرق برأسه لثوان عاد بعدها يتطلع إليها في صمت حتى قال أخيرًا بنبرة عادية:

- الطيارة سبعة الصبح متتأخريش..

وعاد يوليها ظهره وقد استدار بخطاه راحلًا وهمسه المقتضب كان آخر ما وصلها:

- تصبحي على خير.



ظلت تراقب طيفه المبتعد حتى اختفى وسط الظلام، مالت بجذعها تحمل حذاءها المخلوع لترحل بدورها من الجهة الأخرى قاصدة الفندق بوجه صامت.. صمت ناسب كآبة روحها.

وقفت ساكنة تاركة لرشاش الماء الدافئ ينعش مسامها، ظلت على حالها ما يقارب الساعة حتى شعرت بالإنهاك فلفت جسدها بالمئزر وخرجت بخطوات أشبه للهلام، توقفت خلف الحائط الزجاجي ترتكز عليه برأسها في تعب، تعب نفسي أكثر منه جسدي، زاد وقع كآبتها وعيناها تتعرف عليه من بعيد، يحتل بقعة مظلمة إلا من ضوء خافت في هكذا توقيت خالي عند الشاطئ، كان



يجلس بكآبة تماثلها، نفخت في ضيق وكفها يحط فوق الزجاج..

لما لا يفهم؟

تلك المسافة بينهما يجب أن تبقى كما هي، لا تريد توريط قلبها أكثر لأنه حتما سيزداد تعلقا فيه، أجل تلك الاضطرابات التي تصيبه في حضرته تخبرها أنه تعدى المسافة الآمنة.

أغمضت عينيها بقوة حد عصر جفنيها، تصارع خيالاتها البشعة، صور قاتمة وعويل، صورته راقد دون حراك مكفون بالأبيض وهي فوق رأسه تصرخ وتصرخ..



ذاك الألم ها هو يعود، تلك الليلة الكئيبة ذاتها تتكرر..

بغتة فتحت عينيها بجحوظ وأنفاس متسارعة كصدى مناسب لخيالاتها المقيتة، تخبط بصرها وهو يبحث عن بقعته حتى ارتكزت من جديد عليه وقلبها متعثر الدقات يخبرها أنها فعلت الصواب، لقد أنقذت حالها في التوقيت المناسب، ماذا إن ارتضت قربه ثم تفقده دون سابق إنذار؟

كيف لها أن تعيد الكرّة؟

كيف تعايش ذلك الوجع الرهيب مرة أخرى!

لا لن تفعل.. أبداً لن تفعل!



ستبقى بعيدة حتى تظل آمنة..

حدجته بنظرة أخيرة أخبرته فيها أنها لاتريد خسارته كصديق يشد على يدها ويأخذ بها ما إن تحتاج لذلك.. وليته يفهم.

تحركت ناحية الفراش تنسل بجسدها الصغير وسط أغطيته الوثيرة ويدها تسحب هاتفها المسطح، نقرت عدة نقرات ثم رفعته إلى أذنها، تحتاج إلى "نسمة" هي من يمكنها دحر ذلك الاضطراب الذي يتملكها حين تخبرها أنها فعلت الصواب..

لكن كل ذلك تغير حين واجهها الهاتف المغلق على الطرف الآخر لتنفخ في سأم وتلقي بالهاتف



في حنق، تنزلق بعدها لداخل الفراش بكليتها حاملة معها اضطرابها.. وقلب يوبخها.

***

ولج بوجهٍ جامد فاقد لكل التعابير، كانت ليلة طويلة حد الإنهاك، كمن استيقظ على دلوٍ من الماء البارد.. لا يدري أصدمته في رفضها القاطع الذي قذفته بوجهه أم الصدمة كانت من حاله!

في هاته اللحظة يشعر أنه تسرع بالفعل، كان عليه التأني والتقرب خطوة خطوة لا القفز دفعة واحدة آكلا كل الخطوات..

يالله..



كيف خانه حدسه، كيف يكذب عينها التي لمح فيها ذلك البريق الذي بادلته إياه، أحقًا لا يمثل لها سوى صديق!

تلك الغبية أي صداقة تلك وهو كان يفقد كل إتزان عرفه في حضرتها، أي صداقة تلك تجعله يمنحها حيزًا داخل مساحته الخاصة، يمنحها الحق وحدها في إرهاق تفكيره وقلق مضجعه، كما كانت وحدها تهديه الكثير من حلاوة الشعور.

خطى في تثاقل وجوار أخيه الممدد فوق الأريكة بنصف جلوس وحاسبه يعلو ساقيه ألقى بنفسه.. اعتدل الشقيق مستهلا الحديث بنبرة حماسية دون مقدمات:

- فاكر عرض الشغل اللي كنت قلت لك عليه؟

همهم مهند دون حديث ليستطرد ماهر:

- أنا هوافق إن شاء الله.

- كويس، ربنا يوفقك.

عقد حاجبيه متعجبا من لهجته الكئيبة، سأل:

- في إيه يابني مالك؟

- مافيش، محتاج أنام شوية مانمتش من إمبارح.

قالها بينما ينهض بالفعل، كان قد تجاوزه بالخطى حين استوقفه النداء باسمه:

- مهند..

توقف واستدار في خمول ليتابع الآخر في توجس:



- عملت إيه في موضوعك.. كلمتها؟

حرك مهند رأسه مدمدمًا بنبرة باردة:

- و رفضت.

كانت نبرته ضائقة وهو يضيف بعصبية فاتحًا ذراعيه:

- قالت إحنا أصحاب وبس.

أطلق ضحكة متهكمة قبل ما يستدير عقبها تاركًا الغرفة بينما تلاحقه نداءات أخيه القلقة فقطعها بصرامة:

- أنا كويس ماتشغلش بالك.

واختفى بعدها من أمامه!..



وكأن عدوى الكآبة أصابته هو الآخر ليعود بوجه كالح ناحية حاسوبه وفكرة واحدة تسيطر على عقله في سخرية لاذعة..

أنه وأخيه لا حظ لهما مع النساء!

أفتر ثغره عن تبسم مرير بينما يتذكر حياته، الصورة الأكثر امتثالًا للفوضى والكثير من العبث.

زفر بضيق وهو يسحب هاتفه، الأفضل أن يلتفت لعمله فعلى ما يبدو ذلك أكثر ما يجيد في هذه الحياة، عليه أن يحدد موعدًا مع "حسن" ليتحدثا في التفاصيل عقب ما يبلغه بموافقته لعرضه، لكن كل أفكاره توقفت وهو يرمق الهاتف مستغربًا حين قابلته الرسالة التي تعلن



ببساطة عملية.. الهاتف مغلق نرجو المحاولة في وقت لاحق.

***

أكثر من عشرين دقيقة وهو يتوارى كاللصوص من خلف الجدار، يراقبها عن كثب في تركيز.. ترتدي ثوب بيتي قاتم فضفاض وبظهرها تستند إلى جذع الشجرة الكبيرة المواجهة للبيت، بين يديها كتاب وأوراق عديدة نثرتها من حولها في دراسة نهمة، لاحق بصره أصابعها التي تعبث بحجابها دون تركيز حقيقي حتى حررت وثاقه فزاحته ببطء عن رأسها لتظهر له جديلة متوسطة الطول ترتاح فوق كتفها، سحبت أناملها خصلة من شعرها المجعد بعض الشيء

وأخذت تلفها حول السبابة بينما لسانها لا يتوقف عن التحرك، أغمضت عينيها مستجيبة لنفحة النسمات التي هبت فاستغل وضعها وتحرك دونما يصدر همسًا حتى توقف عند نقطة يصل إليها بصرها.

كانت تحاول استجماع تركيزها ولسانها لا يتوقف حتى تعثرت فتغضن وجهها وهي تفتح عينيها ببطء لتشهق بقوة وهي تراه يقف قبالتها على بعد خطوات قليلة، يرتكز على حائط بيتها بجسده رافعا ساق للخلف ويقف على الآخر، شتمت في سرها ذلك الأخرق وأصابعها تتخبط وتتعثر في تعديل وضع حجابها، شعرت بالنار تلهب أذنيها وتأكل رأسها إثر اختراقه



لخصوصيتها، قرر أن يسبقها قبل ما تبخ نيرانها في وجهه:

- جاي أشكرك عشان ماقولتيش للريس عبدالحميد.

قالها بخبث ماكر أجاد إخفاءه بينما هي فضلت التشاغل بكتابها الذي اولته جل تركيزها على أن تعير هذا الدخيل حتى نظرة.

تحرك دون دعوة وجلس فوق حافة الحوض كالمرة السابقة وفوق ثغره تعلقت بسمة عابثه بينما يهمس ببحة خاصة:

- شكرًا يا...



وسكت لبرهة زاد فيها من اضطرابها الخفي وهو يعيد الهمس:

- مش هتقولي اسمك بقى؟

لا رد..

لا أي فعل..

مط شفتيه وأغمض عين واحدة وقد فرد ساقيه ملتويا بالحديث في عبث:

- نقول ريهام.. ليلى.. سارة .. همممم طب جميلة.. قمر..

- أنت قليل الأدب!

قالتها وهي تثب من جلستها ململمة أوراقها وكتابها بين أحضانها ليسبقها قافزا من جلسته،

يقطع طريقها عنوة ملاحقا إياها بقسمات ضاحكة بصفاء ناسب هذا الصباح الباسم:

- استني؛ هو أنا غلطت في إيه بس؟

قالها ببراءة لاتناسبه نفخت على أثرها في ضجر، ترمق وقفته وتسأل مضيقة عينيها في توجس غاضب:

- أنت عايز إيه بالظبط ياجدع أنت؟

لم يستطع التماسك أكثر إذ طفت نوازع العبث بداخله وأخذ يحرك حاجبيه للأعلى في مغزى خاص ولسانه يهمس بحرارة:

- عايز أعرف اسمك إيه؟



كانت قسماته تنضح بالتسلية وهي تتقهقر للخلف في تحدي أعلنته عينيها الكحيلة.. الجميلة:

- بعينك!

" عيشه.. يااا عيشه تعالي يابنتي كلمي عمتك على التلفون"

كان ذلك صوت أمها الذي صدح عبر النافذة المفتوحة للبيت الأرضي فجزت فوق أنيابها في غيظ بينما ضحكاته تعلو وتعلو حد رعبها أن يلمحها أحدهم فيُسيء إليها بوقفتها مع ذلك العامل المتطفل الذي يضحك ملء شدقيه بطريقة.. بطريقة جذابة!



ضربت الأرض بقدمها في غضب بينما تتجه إلى البيت وحينما أوشكت على الوصول دارت برأسها ترمقه سريعًا فوجدته مازال مستمرا في ضحكاته دونما يبالي، كادت أن تتعثر في الحصى المتناثر وهي تشتم بغيظ في توقيت أمها وضحكته اللعينة.

هدأت نوبة الضحك باختفاءها خلف باب موصد بعنف ليعجل بالعودة حيث المعمل، هو حتما لا يريد كشف سره الصغير، فالمزرعة تبدو أجمل بوجود تلك ال"عيشة"، قفزت لثغره ضحكة جديدة لم يفلح في كبحها وما إن دلف حتى قابله وجه عبدالحميد الذي هتف فيه من فوره:



- أنت فين يا أنس؟.. اتصل يابني على حسن شوفه اتأخر ليه.

اومأ برأسه وهو يسحب هاتفه ليعود له بعد حين بجواب غير معتاد:

- موبايله مقفول.

- طب شوية وجرب تاني.

قالها الرجل وابتعد، فسحب كرسي خشبي ارتاح فوقه عكسيا وعيناه تتبع عبدالحميد وقد عادت بسمته المتسلية تجتاح ثغره بينما أسنانه تضغط فوق شفته السفلى وهمسه الجريء لا يتجاوز مسامعه:

- بنتك حلوة قوي ياعبده.



***

بمزاج عكر وعصبية وليدة كانت ميسون تتوسط مكتبها في صباحها ككل يوم، صدقا مايحدث لهو العبث بعينه..

كان يقف أمامها برأس منكس وكفّين متدليين في تعانق بينما تضرب بكفها فوق سطح مكتبها بقوة مباغتة نفضت الواقف:

- ده اسمه إهمال يا أستاذ!

رفع الرجل رأسه على مهل والكلمات تتعثر فوظيفته على المحك:

- عارف والله يافندم وأنا كفيل بحل الموضوع حضرتك ماتقلقيش.



استقامت وكفاها المفتوحان يشاركانها انفعالها الحاد:

- تحل إيه يامحمد!

واستطردت بملامح مستنكرة:

- يعني إيه زبون مهم زي ده توصل له شحنة إكسبير! أنت مستوعب يا أستاذ حجم الكارثة اللي حصلت بسبب إهمالكم؟!

- والله يافندم كل الكميات الإكسبير أنا عزلتها عشان ترجع، وحياة ولادي ماعرف اللخبطة دي حصلت إزاي.

بحزم ومحاولة فاشلة لضبط الأعصاب هدرت وسبابتها تتوعد:



- حالا يا محمد تروح تقابل مدير المطعم وتعتذر له بأي شكل كان وشوف ايه التعويض المناسب اللي يرضيه، ويا يقبل اعتذارك ياتعتبر نفسك مرفود.

أومأ برأسه على عجل وتعثر في خطاه حتى اختفى من أمامها، زفرت ببطء وهي تعود لمقعدها بينما أصابعها تمسد ما بين عينيها، هذا ليس بوقته، كل تلك الضغوط أكبر بكثير من قوة احتمالها التي باتت تتهاوى بسبب أقل القليل، فمنذ يومين والبيت عبارة عن حريق مشتعل لا يخمد والسبب عريس لا ترفضه إلا مجنونة، وهي مجنونة لأنها رفضت حتى مجالسته وأمها لا تنفك وتذكرها بعمرها الذي يمرق دون شعور



منها، عمرها الذي تجاوز الثلاثين منذ أسابيع قليلة.

عادت برأسها لظهر المقعد وبصرها يعانق سقف الغرفة في شرود بعيد، هل حقًا ستندم على كل تلك الفرص الجيدة التي تركلها كما تقول أمها؟ وليتها تفهم أمها أنها ماعادت تغريها كلمة "أسرة" كما تظن..

مات فيها ذلك الحلم يوم طعنه ذلك الخائن بسكين ثالم.

مالت بوجهها تملأ به كفيها..

رباه!



ما كل تلك الكآبة التي تسيطر عليها؟ تشعر بحالها تخبو وتذوي يوما بعد يوم، لم تعد تشعر بأي فرحة لأي إنجاز تفعله مهما كان، ماعادت تنبهر عيناها بأي شيء، كأنما الروتين يقتلها بالبطيء ويمتص من دمها على مهل.

حتى شغفها بالعمل تراه يتلاشي ولا تفعل شيء سوى إلقائها بالحمل فوق عاتق حسن أكثر وأكثر..

وعلى ذِكر حسن عقدت حاجبيها وأبعدت كفيها عن مرمى وجهها تتناول هاتفها، حين وصلتها نفس الرسالة التي تتكرر كببغاء منذ الصباح بعثت له برسالة صوتية بان فيها بعض الحدة وهي تقول:



- أنت فين يا حسن؟!.. لما تسمع المسج كلمني ضروري.

ثم تركته وعادت بكفها لجبهتها تصارع صداعها الوليد بإغماضة عين، تحتاج لهدنة من هذا كله، بحاجة قصوى لصفاء هذا الذهن المرهق على الدوام.. بحاجة لأن تكون بلا عمل ومواعيد واجتماعات وضغوطات لا تنتهي.. أن تكون ميسون وفقط.

***

محاولات مستميته تشهدها طيلة اليوم، في البداية حتى تحممها والصغيرة ترفض وتتعنت بغضب طفولي ليس محببا على الإطلاق!



فالصغيرة ليست لطيفة كما هي مع أبيها حين يختلي بها، ومن سوء حظها لم ترجع جدتها بعد من عند أختها لكانت نجحت في إرضاء الأميرة.. لم يخفض من حدة غضبها وبكاءها المستمر غير مكالمة أبيها التي هدأتها بعض الشيء وأمرها بحدة بسيطة أن تستمع لها دون نقاش لأنه سيتأخر في العودة مضطرًا ومن وقتها وهي تفعل ماتقول بوجه عابس وشفاه مقلوبة.

حممتها، فركت ودعكت جسمها الناعم لتصرخ فيها الصغيرة حتى تتوقف فقد آلمتها من كثرة الدعك، ثم بمعجزة ضفرت لها جديلة من جانب رأسها الأيمن وأخرى من الأيسر والكارثة وقعت بالفعل وقت عمل الواجبات المدرسية، وحتى

اللحظة لا تدري لما كل ذلك الكم لطفلة في مثل سنها!

أطلقت عشرات التنهيدات حينما انتهت لتبدأ فقرة عشاء أميرة أبيها المدللة..

تحتلان مائدة صغيرة قابعة في ركن من أركان المطبخ تحب جلوسها حين تجهز الخضار وقت الطهي، وضعت أمامها طبق من الشطائر الخفيفة التي تحب أن تخبزها بنفسها مع كوب حليب دافيء.

كانت جائعة بالفعل وأكلت بنهم رغم النظرات النارية التي تحدجها بها من خلف حافة الكوب، راقبتها بقبضة مكورة تسند رأسها وشفتيها تكبح بسمة تبغي خروج على تلك العفريتة الصغيرة

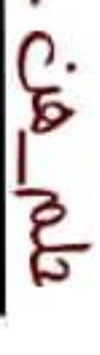


التي تتقمص دور الغاضبة ببراعة وكلما نسيت وارتخت ملامحها عادت بسرعة لتكرمشها، وهي من كانت تظن أنها هادئة الطباع لتخلف لها ظنها تماما.

نقرت فوق شاشة هاتفها الساكن أمامها فوق المائدة في تكاسل، بعد حين كانت تمط شفتيها في قلق بدأ يتلاعب بها مغمغمة لحالها:

- مابيردوش ليه دول!

منذ الصباح وهي تطلب زوجة أخيها والهاتف مغلق وحين يئست منها جربت على هاتف أخيها منذ قليل وكانت النتيجة نفسها وها هي تعيد الكرّة ونفس الجواب!..





- عاوزة أغسل سناني.

سحبها الصوت الغاضب من دوامة شرودها لترفع حاجبيها في الصغيرة التي تعقد ساعديها فوق صدرها وتبرطم بهمهمات غير واضحة،

تنهدت ونهضت تلملم السفرة الصغيرة ثم سحبتها من كفها إلى دورة المياة حتى تنظف أسنانها كما أمرت.

رفضت أن تعتلي المقعد الصغير حتى تصل إلى مستوى الحوض وهي تهتف بذات عقدة الحاجبين والذراعين:

- شليني زي بابا.



"كان الله في عون بابا والله.. كان الله في عونه ألف مرة"

قالتها لنفسها وهي ترفعها بين ذراعيها، لأول مرة تعاصر تلك التفاصيل الخاصة بابنته، كان هو من يتولى ذلك كله وكانت الصغيرة ترفض أي تدخل منها ولأجل ذلك قررت حفظ المسافات بما أنه لم يطالبها بشيء معين.

انتهت بعد ما رجت أمعاءها من كثرة من خاضت وماجت بين ذراعيها.

جهزت الحقنة كما وضح لها أبوها مسبقاً تحسبا لأي طارىء حين علم أنها تجيد التعامل.. كانت أميرة تجلس على حافة فراشها الصغير في انتظار وقد اختفت كل ملامح الغضب الطفولية وحل

محلها السكون التام، اقتربت ترفع كم بيجامتها الصيفية بترو و تهمس لها عن قرب رأفةً بحالها:

- مش هوجعك.. متخافيش.

لم ترد الصغيرة فغرزت الإبرة في أعلى ذراعها وأخرجتها على مهل ما إن انتهت وإبهامها يمسد مكانها.

- تحبي أحكي لك حكاية زي بابا؟

سألتها سماح في تردد وهي على يقين أنها سترفض بغضب لكنها ولعجبها صمتت بل لم تحرك بصرها عن صورة أمها القابعة فوق كومودها المجاور للفراش، تحدق فيها منذ أن اقتربت منها لتحقنها حتى أنها لم تغمض عينيها ولا حتى



أظهرت بعض الألم كرد فعل طبيعي لأي طفل في محلها، فقط ظلت تحدق في الصورة بثبات استغربته.

تمددت الصغيرة في صمت وبصرها مازال يعانق البقعة الأعلى حيث أمها هناك، عدلت سماح من وضعها ودارت حتى تمددت بدورها من الخلف وأخذت تمسد فوق رأسها بحنو، ولم تمر دقائق قليلة حتى التف لها الرأس الصغير بحدة وعيون تلألأ فيها الدمع وتكافح الغصة:

- على فكرة ماما عند ربنا بس بابا بيحبها أكتر منك..

صمتت لثوان ثم تابعت بنبرة حانقة تناسب سنها:



- وأصلا هو سابك تعيشي معانا عشان تعملي لنا أكل وتنضفي البيت وبس.. هو قالي كده وخالتو نجلاء كمان.

انتهت أميرة وعادت برأسها وبصرها إلى الصورة المؤطرة بينما سماح المشدوهة تتطلع إليها بجمود أحدثته تلك الصغيرة، زوبعة داخلية افتعلتها وتركتها تواجه نغزاتها التي استقرت بفؤادها رغما عنها.

بثبات تحسد عليه تجاوزت كل ذلك ويدها تعود إلى رأس الصغيرة تمسدها بهدوء لا يناسب ما يعتمل فيها ولسانها الثقيل يتحرك بمشقة لتهتف بعقل شارد:

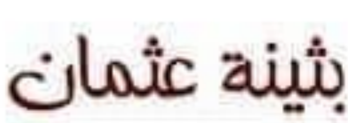


- كان يا مكان وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام...

أغلقت الضوء عقب ما دثرتها جيدًا وغادرت، انتهت جالسة داخل فراشها البارد واجمة، ساكنة إلا من حركة أهداب رتيبة..

بعد حين أتاها صوت المزلاج معلنًا عن عودته فدست بجسدها سريعًا لداخل الفراش وعدلت من وضعها حيث يكون ظهرها ناحيته ثم سحبت الغطاء حتى وصل إلى نصف وجهها مدعية النوم العميق.

لم تؤثر فيها خطواته المتعمدة وهو يبدل ملابسه ويطوف من حولها في تفحص متعجبا رقودها وهي من كانت لا تغمض لها عين إلا بحضوره



مهما تأخر، حين فقد الأمل فيها وصلتها زفرته قبل ما ينسل بدوره حتى جاورها مصدرًا همهمات متفرقة بان فيها إرهاقه قبل ما يروح في سبات عميق خلال لحظات، عندها افترق جفناها عن آخرهما وشرد بصرها بعيدا حيث لا ترى ولا تسمع غير كلمات أميرة التي تُعاد وتطن بأذنيها دون هوادة مرحبة بليلة طويلة عنوانها السهاد.



(٢٩)

في قانون القلب كل شيء مباح..

يكون المنطق بالي والمُفْتَرَض محض خرافات..

نغدو مسيرين بإرادة عظمى لا قَبِل لنا بها ولا سُلْطان.

تستعذب النفس كل ما عليها يجود في استسلام صامت، بينما تنتفض فيك النوازع وتتقاتل في احتدام ولا تعلم أنك فاقد للهوية فوق أرض الهوى، تمضي تائها متعثرا لا تبصر ولا ترى غير الشعاع الضعيف المتسربل من بين حجرات القلب تخطو إليه في الخفاء خائفاً من لوم



وتقريع سوف يطالك ما إن تصحو لتجد حالك فوق أرض صلبة؛ قاسية تدعى الواقع.

بذهن شارد كانت تحرك كفها بالفرشاة على طول خصلات شعرها الرطبة، تتطلع إلى صورتها عبر المرآة بعيون ثابته دون رؤية حقيقة..

هل حقا احتجزها قسرًا لليلتين كاملتين بعد ما فرض عليهما عزلة تامة قررها من تلقاء نفسه ليجود عليها بما لم تتصوره يوماً.

رباه!..

لم يترك فيها شبرا واحد لم يغازله تاركاً عليه صك ملكيته، ترى نفسها لأول مرة في عينيه



ولأول مرة تراه هو.. متلهفا شغوفا كأي رجل يهيم بامرأته التي يعشق دون قيود.

كان لينا عطوفا على غير عادته، يسترضيها بنظرة وكلمة علها تبادل اشتعاله المتقد بما يماثله.

لكنها لم تملك غير الاستجابة الصامتة، تتلقى موجات عاطفته فتغرق فيها دون مقاومة، دون رفض بجسد مخدر وحواس فقدت سيطرتها.

ربما لم تكن بنفس وقوده لكنها تشعر بحالها محمومة فيه وبقربه، تشعر بجسدها الذي يخونها ما إن يفعل فلا تجد حالها غير مغمورة غارقه من رأسها حتى أخمص قدميها ولا عزاء للعقل المستغيث.. تشعر بذلك القلب العليل الساكن بين ضلوعها ولا يكف عن التبرير



والتهوين من طاريء يجتاحه ويقلقه فيقف له بالضد كأنه محاميه الخاص الذي باتت تحمله أينما راحت فلا يتراجع ولا يبدل موقفه بل يظل باقيا على نضاله.

رفعت كفها الآخر تمسد بطنها المسطح، حتى اللحظة عقلها الباطن لا يستوعب بشكل تام حقيقة حملها بجنينه حد أنها تنسى ذلك في بعض الأحايين.. هل لطفله دخل فيما تمر به من تقلبات.. هل هو من يضعفها أمام سلطانه؟

حقيقة لا تعلم متى انقسمت إلى نصفين..

تعجز عن إيجاد نفسها الكاملة لتعود بها حيث عهدها القديم، لكن هل تريد العودة حقا؟



ذاكرتها لا تسعفها إلا بذكراه الطيب منها و..

المشين!

لكن كل ذلك يتغير، بات يجيد دحر الماضي البعيد وإبقاءه أسفل ركام النسيان، تراه يعيد تشكيل كل ماسبق بما يناسب اللحظة ولا يكتف بل يلونها بزهو الألوان فيخطف بصرها دون إرادة ويزلزل كيانها دون شعور.

أطبقت جفنيها يائسة، هاهو القلب العليل يتخذ دوره فوق منصة الدفاع قائما بعمله كما يحب أن يكون_عليها الحذر فربما يغدر بها عما قريب وينضم إلى صفه كاملاً وتصبح في النهاية هي المدانة والمجرمة في حق علته_



قالتها لنفسها ساخرة لتتعثر بقية الحروف مع رعشة جلدها بلمسة أنامله التي تغزو جانب جيدها في بطء كأنما عن قصد يتلاعب على أوتار أنوثتها المهملة التي ظنت أنها أصبحت بالية وقد عفا عليها الزمن لكن ولعجبها وجدتها تترنم معه بكل تناغم ممكن. بشق الأنفس حررت أنفاسها مقاومة التأثر بلثمته المتباطئة في حرارة فوق كتفها وقد أزاح عنه دفء المئزر القطني ليبدله بحرارة شفتيه هامسا بنبرة أجشه وكأنه يقاوم ليقاوم نفسه:

- يلا عشان نفطر..



وأتبع كلماته بأخرى ألبسها ثوب الفكاهة بينما يرفع بصره ليقابل افتراق عينيها عبر السطح العاكس:

- عملت فطار ملوكي.

وغمزها بعبث، فالساعات الماضية التي قضتها بين ذراعيه بحلاوة دفئها تستحق ذلك التدليل وأكثر من باكورة الصباح.

هربت ببصرها عنه وكفها يعود لتمشيط خصلاتها التي قاربت على الجفاف من طول ما شردت بينما ملامحها تتخذ من الجمود طوق تطفو به بعيدًا عن عالمه الجديد:



- مش عايزه اتأخر على الكلية، كفاية غياب إمبارح اللي مش عارفه هبرره إزاي.

التقط جمود نبرتها فلثم جيدها بقبلة صغيرة كان تأثيرها سريعاً وهو يستقيم بجذعه المحني ويتقدم خطوتين لا أكثر ناحية الجارور المجاور يعبث فيه ثم يغلفه عائدا ناحيتها من جديد حاملا بين أصابعه علبة مخملية.

ارتكز بجسده فوق حافة طاولة الزينة من خلفه وكل تركيزه على ما بين يديه، فتح العلبة وأخرج منها حلقة معدنية رصعتها الماسات الصغيرة جداً فغطت معظمها، دون مقدمات سحب كفها ودس بالحلقة داخل بنصرها الأيسر، أبى تحرير كفها من بين أصابعه وحينها فقط ارتفع لها

بصره ليجدها تبادله النظر في ترقب صامت لهيئته، خصلاته التي يتركها مشعثة بعد كل حمام مكتفيا بتجفيفها وملابسه التي تتلخص في بنطال بيتي خفيف يعلوه في بعض الأحيان فانلة داخلية تكشف عن عرض منكبيه بينما بياضها الناصع ينافس سمرة بشرته وتقاسيم ملمحه فلا تجد حالها غير أنها مفتونة بطلته وتفاصيله الفوضوية.

قطع حملقتها المفضوحه حين هتف ببساطة:

- طبيعي الكل يعرف أنك على ذمة راجل خاصة أن كلها كام شهر والحمل هيبان.

جاهد حتى تبدو نبرته لينة، يغالب بها شعوره بالضيق الذي غلبه ما إن وقع بصره على



شرودها ونظرتها التائهة، وكأنها تتبدل لأخرى ما إن يبتعد عنها فتطيح بكل آماله التي يشيدها حين تكون بصحبته فتغدو مجرد ركام منثور، نظرتها تلك تخبره أن جسدها فقط هو من معه بينما روحها تسبح بعيداً عنه، أنها مازالت عالقة في لجة ماضيه وهو ليس بقادر على إخراجها وقد أثقلت خطاه نحو ذلك الاتجاه يرهب الاقتراب ويخشى المواجهة.

لا يريد تشويه الصورة التي عاشاها معا، يريد لها ختاما رائعا يليق بالبداية الأكثر روعة على الإطلاق.

استقام في وقفته وأصابعه مازالت تداعب كفها المستسلم ليقول بابتسامة بدت حيوية:



- يلا نفطر عشان أوصلك قبل ما أروح الشغل.

وتذكر إغلاقه لجهازه النقال وإخفاء خاصتها عقب ما أغلقه بدوره ليتابع بشقاوة ذكرته بنفسه القديمة:

- زمان الدنيا مقلوبة علينا.

شهيقها الذي سحبته ببطء وازى سحبها لكفها من بين أصابعه، تنهض من جلوسها في هدوء محاولة جمع شتاتها المبعثر بينما أصابعها تحكم التدثر بالمئزر من حولها و نبرتها الجامدة تصله من خلف كتفيها:

- مافيش داعي، هاخد تاكسي زي كل يوم.



لم تشعر إلا بكفيه وهما يعتصران كتفيها من الخلف يجبرها على استدارة حتى اصطدم ضياعها بقسوة نظراته.

كان يكافح.. لأول مرة يكافح لأجل امرأة، يسعى لقربها ويسترضيها كمل لم يفعل مع غيرها من قبل، وليتها فقط تشعر بغربته فلا تزيد من وطأة الألم ببرودها اللعين هذا بعد ما شملته بكل ذلك الدفء حين آوته داخل مسكنها فتلاشت وحشة غربته رويداً رويداً وأشرقت بضيائها فوق أرضه الجدباء المتعطشة.

- ماتبعديش نفسك عني.

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تغوص في نظرته، بدت مستغيثة بالرغم من حدة النبرة وقسوتها



التي برزت، خلف ذلك السواد يقبع آخر لازالت تجهل هويته الحقيقة وهو لا يمنحها الوقت لتفعل، يريدها واثقة، آمنة.. وحتى عاشقة!

أسبلت أهدابها دونما تحرر نفسها من بين قبضتيه اللتين تضغطان بقوة فوق كتفيها لتقول بعقلانية لطالما كانت تليق بها:

- أنا مش آلة يا حسن..

تعثرت دقاته مع لفظها لاسمه بذلك الشجن الرهيب، تلك النسمة تجيد التلاعب فيه، باتت تنجح في إثارة حمائيته فتنقلب في الحال من جانية إلى مجني عليها وقلبه المسكين لا يدخر جهدا حتى يساندها وينحاز إلى صفها في كل مرة.



عادت تقابل عينيه بقوة وثبات لاتدرك من أين سيطرا عليها لتقول بصلابة:

- مش بكلمة ولا ضغطة زر هتحول، مشاعري مش بإيدي عشان أشكلها وقت ما تحب.

ورغما عنها طفت بعض القسوة فوق نبرتها لتزيد بانفعال وليد:

- أنا في يوم سلمتك نفسي وأنا مغمضة، شفت فيك السند والأمان، اطمنت بيك ومعاك واعتبرتك دنيتي باللي فيها.. إديتك ثقة مالهاش حدود بس.. بس..

تشنج جسدها وتعثر هذرها المسترسل بينما تهرب بنظراتها عنه غافلة عما تفعل، وربما ليست



غافلة بل تريد منه الشعور عما فعل ثم ألقي بها متألمة، ضائعة دون دليل.

- ماتحاسبنيش على حاجة كنت أنت السبب فيها، وماتحملنيش فوق طاقتي.. أرجوك.

وجملتها تلك التي خرجت بتهدج ولمعة مقلتيها أخبرتاه أنه بيديه هاتين اغترف من نصيبه فيها فتضائلت حصته وقل رصيده، أنها بالفعل منحت و قدمت الكثير في حين لم تجد منه في المقابل غير العزوف عنها وعن دنياها..

وحين عاد!

لم يجد غير النذر القليل الذي لا يرضيه ولا يشبع جوع روحه.



أفاق من لوع الشعور المعتمل فيه وقد انعكس فوق صفحة وجهه على استطرادتها المتهدجة الأخيرة وكفها يشير ناحية الفراش المبعثر في سخرية مريرة على حالها:

- رغم أن كلي ليك أصلا وقت ما تحب.

لم يسمح لدمعتيها سوى بمفارقة منبعهما ليلتقطهما بعد ذلك سارحا بقبلاته الماجنة على كل تفاصيل وجهها، يئد تلك النظرات القاتلة ويخرس هاتين الشفتين عن نثر الكلام فوق مواطن الوجع.

***



صباح صامت على غير العادة، رافقت أميرة حتى أقلعت حافلة المدرسة ثم عادت إلى مطبخها حيث مكانها الأثير، أعدت أطباقها بشغف مفقود ليتشاركان الفطور ككل صباح قبل ذهابه إلى العمل.

ارتشفت من قدح الشاي على مهل والصمت الثقيل يجعل خلايا دماغها تكاد تتآكل من كثرة التفكير، ليلتها كانت طويلة بحق، مرهقة حد الألم.. كلمات الصغيرة كانت ذا سحر بطنين جبار ولا عتب عليها، بالنهاية مجرد طفلة مسكينة فقدت أمها وتربص بها المرض وهي مازالت تتفتح فوق أعتاب الحياة.. نفسها تعاتب هذا الذي يجاورها.



خادمة بثوب زوجة؛ تنظف وتطهو ولا بأس ببضع خدمات أخرى آخر الليل.. أهكذا يراها؟ ألهذا يعاملها بالحسنى؟ ولما لا يفعل من أين كان له بامرأة ذات صلاحية سارية مدى الحياة.. لأول مرة ترى كلمات حسن صادقة حين أخبرها أنه يريدها له خادمة.. الآن صدقت ظنونه.

رجل مثله ذو تعليم عالٍ، صاحب أصل وعائلة كريمة لها سيط طيب ذائع بين البشر لماذا يتزوج منها هي!

هي ذات التعليم البسيط والجمال المحدود والأهم من ذلك كله ماض عاشت فيه متنقلة بين البيوت وهذا في عرف المجتمع ليس بمشرف.. أبداً.



لما لم يختار أخرى تناسبه كنجلاء تلك التي تشاركه الرأي كما قالت ابنته..

كانت جميع أسئلتها تصب في جواب واحد، هي الأكثر كفاءة من بين الجميع، حيث تظل تعمل كالثور دون شكوى..

يالها من غبية، ساذجة لا تتعلم أبداً

- هي أميرة مش بتشوف جدتها وخالتها؟

قطعت سيل أفكارها وقد زين لها شيطانها كل حرف وكلمة فلم تشعر إلا ولسانها ينطق، يبحث ويفسر عله يثبت صحة ما يقال.

- نجلاء مدرسة في مدرسة أميرة، بتشوفها كل يوم تقريبا.. ليه بتسألي؟



قالها وبصره يعانق الجريدة الساكنة أعلى المائدة في تفقد سريع لأخبار اليوم، يتناول فطوره على مهل غافلا عن تلك التي تخوض حربا ضروس من نوع خاص.

أغاظها عدم اهتمامه بالنظر إليها فعضت فوق شفتها تكتم اشتعالها، أجبره صمتها بعد حين على رفع بصره مستغربا:

- ماقولتيش بتسألي ليه؟

أجابت بكلمات تقطر غيظا:

- مافيش، استغربت أنها مش بتزور جدتها وخالتها يعني.

- أميرة واخده على ماما أكتر.



قالها ونهض عقبها ململمًا أغراضه ناويًا رحيل لكنه هتف قبلا بكلمات كللتها ابتسامته العذوب:

- سماح الله يرضى عليكِ خالتي وبنتها جايين زيارة النهاردة ياريت تنزلي لماما تشوفيها لو محتاجة حاجة على ما تيجي هبة.

اشتعل خارجها كما داخلها فهذا أبدا لا يطاق..

ولأول مرة تحد نبرتها وتعقد جبينها بينما تنهض من جلستها وقد غلبها الحنق لتقول:

- أنا رايحه عند حسن النهاردة.

ضاقت عيناه في ترقب لكل هذا الغضب غير المفسر، تغاضى عن نبرتها الزاعقة وبادر



بمفاوضات السلام وإن كانت نبرته جادة وبسمته العذوب غادرت وجهه:

- معلش خلي زيارة حسن بكره عشان أكيد هيسألوا عنك.

هكذا ببساطة قالها بحزم أنهى به الحديث واستدار عنها يكمل طريقه إلا أنها لحقته بخطوه محترقة وصياح صاحب عنادها فجرت به كل ما يعتمل فيها:

- وأنا عايزه أروح النهاردة.

- في إيه يا سماح؟!

كانت تلك زعقته التي وازت استدارة جسده ليقابلها بقسمات غاضبة وقد نجحت في إخراجه



عن طوره بجدارة بينما لم تأبه لهذا كله وهي تزيد فوق الحطب اشتعال:

- فيه إني مش خدامة.. إمبارح بنتك والنهاردة أمك.

- خدامة!

- أيوه خدامة ماتقولش غير حاضر ونعم، مش هو ده كل اللي عايزه؟

احتدم بينهما الحوار، يرمقها بعيون غاضبة ومازال يجهل سبب كل هذا الحديث المختل حد الجنون.. استطردت بتحد وعينيها تجابه عينيه بقوة ظاهرية بينما في داخلها تفتش عما يريحها:



- تنكر أنك اتجوزتني عشان أخدم بنتك وأمك.. تنكر؟!

فجأة تراجع الغضب وعم الصمت الثقيل إلا من صوت الأنفاس الهادرة.. وبعد حين غلب الصقيع نبرته ليجيبها بهدوء مقيت ليفصل ما بينهما من شعرات:

- لأ.. مانكرش.

قبضة من فلاذ ضربت معدتها لتشيح بوجهها جانبا بعيدا عن مرمى أنفاسه، ناوش الدمع الحارق الأجفان وبكل عند كبحت هطوله حتى شعرت بأصابعه تمسك بذقنها في قسوة يجبرها على مقابلة عينيه من جديد، وتلك النظرة بهما كانت طعنة أخرى بينما يردد كلماته بذات النبرة

المقيتة وكأنه يود لو حشر الكلام في رأسها لكنه اكتفى بالقول:

- أنتِ غبية يا سماح.. غبية.

ثم ترك ذقنها ليضيف وصوته يبتعد بوعيد:

- واعملي حسابك كلامنا لسه مخلصش.

وصفع الباب من خلفه.

***

لأكثر من نصف ساعة تحتل مقعد المائدة وقد فرغت كل مافيها في وصلة بكاء مستمرة، تشعر بدونية لم تشعر بها قبلا قط، يتأرجح فكرها بين كونها اخطأت حين افتعلت مشكلة وأشعلتها



وبين فكر يخبرها أن ماحدث هو الصواب وأن معها كل الحق.

أخذتها طرقات الباب المتعالية على حين غرة فانتفضت من جلستها تمسح دموعها وتخفي أثرها بابتسامة رسمتها فوق محياها بإتقان علها تكون حماتها أو إحدى شقيقتاه تلمح فيها أثر البكاء وحينها لن تجد جواب لأسئلتهن.

واربت الباب ومن خلفه وقفت تتسائل عن هوية الطارق:

- مين؟

نحنحة أجشة جعلتها تفتح الباب على آخره وضحكتها تفترش صفحة وجهها حتى أغرقته وهي



تهلل وترحب بحرارة غير مصدقة حضوره، تقدم خطوة إلى الداخل متسائلا بدوره:

- جوزك هنا؟

ربتت فوق منكبه بكف والآخر عند صدره تحثه على التقدم وقد غمرها بحضوره فأنساها ماحدث:

- نزل من شوية، تعالى.

أقسم لها ثلاث مرات أنه بالفعل تناول فطوره قبل مجيئه وهي مازالت تتشبث بإصرارها وبالنهاية هتف فيها بفقدان صبر:

- إعملي قهوة يا سماح، ويلا في السريع عشان عايزك في موضوع.



دقائق قليلة وكان يرتشف من قدح قهوته بينما تتطلع إليه في توجس المنتظر ولم يطل أكثر إذ هتف:

- مش بتفكري تشتغلي؟

يعلم طبيعة أخته المحبة للعمل، ويدرك كم تبغض المكوث بين أربعة جدران.. كما بات يعلم أن زوجته بحاجة لما يشغلها أكثر، بحاجة لأن تزدحم حياتها بتفاصيل أكثر، تفاصيل تسعدها ويكون له فيها بصمة، عليه أن يمحي الماضي إن أراد لهما معا حياة.. وهذا الانهيار الصباحي الذي حدث بينهما يجب ألا يتكرر فلا هو له طاقة به ولا هي ستتحمل كل تلك الضغوط النفسية.



ترك القدح فوق المنضدة أمامه ومال بجذعه للأمام مشبكا أصابعه في بعضهما وقسماته الجادة استحوذت على إنتباهها التام ليستطرد:

- شوفي ياستي، المحل اللي اشتغلتي فيه فترة مع نسمة صاحبته عرضته للبيع.. إيه رأيك تشاركي فيه نسمة بالنص؟

بدورها تركت قدحها وعادت بظهرها للخلف محملقة فيه متخذة وضع التفكير وقد جذبها محور الحديث.. صمتت للحظات هتفت بعدها في تساؤل وعدم فهم لحال أخيها والذي على مايبدو تطور كثيراً بعد زواجها:

- ودي فكرة نسمة؟



- نسمة مش هتعرف حاجة غير بعد ما الموضوع يتم.

- ليه؟

- عشان ببساطة مش هتوافق.

تبسمت له في صمت بينما في داخلها تنبع بهجة حقيقة لما آل إليه حاله، نبرة الاسترضاء التي إستشعرتها بين كلماته تعني أن حسن يتغير بالفعل، يسعى لطمس الماضي وخلق بيت وأسرة بل ويفكر كيف ينجح في ذلك.. ومن جهتها لا تنكر أن العرض نال على إعجابها، هي بالفعل بحاجة شديدة إلى العمل بدلا من ذلك الضغط الرهيب الذي تتعايش فيه تاركة لشياطينها حرية التمكن منها وفيها.

هتفت أخيراً وعلى ذكره عاودتها أحداث الصباح ليكسو نبرتها ذلك الضيق وبالكاد حاولت مداراته:

- هكلم أحمد في الموضوع و أرد عليك.

طالع ساعته ثم نهض متعجلا، لم يكن ليؤجل الفكرة التي استحوذت على تفكيره حين كان يوصلها للجامعة وقد برزت له لتضيء عتمة الأفكار المتخبطة ليتخذ من فوره طريق سماح كخطوة أولى قبل الذهاب والانغماس في العمل.

عند الباب قطع ثرثرتها المودعه بنبرة رزينة ونجح في كسب دهشتها:

- على فكرة.. نسمة حامل.



ظلت تحملق فيه بفم مفغر ومالبثت حتى انهالت عليه بمباركات متلاحقه، تلقي بحالها فوق صدره وقد ترقرق الدمع في عينيها وهطل دون إرادتها، تتبعد لتهتف بحشرجة وطيف أمها الراحل يلوح أمام ناظريها:

- كان نفسها تشوف ولادك.. ادعي لها ياحسن.

تيبس جسده لثوان استدار بعدها مطلقا همهمات ترحم خافتة أتبعها بكف مودع من خلف منكبه في سلام عابر.. بينما هي تغلق بابها برفق مرتكزة عليه بظهرها تاركة لدمعتيها حرية الهطول، تقطع سيلهما بأناملها بينما اللسان يلهج بفرحة لم تكن على البال وقد غمرت القلب حتى فاض:



- ألف حمد وشكر ليك يارب.

***

في المتعة.. إثارة من نوع خاص

لا ينكر أن حياته القصيرة لم تخلُ يومًا من المتعة العبثية التي تولد إثارة ما، رفقاء وأصحاب يلهو بصحبتهم متى ما أراد.

لكن هذه المرة متعته ذات نكهة لاذعة تثير فيه زوابع من الإثارة.. عيناها الكحيلة بطبيعتهما الساحرة وجديلتها المستريحة أعلى الكتف لم تفارق خياله الحي طيلة ليل البارحة، تغزو هيأتها البسيطة بواطن عقله فيجد حاله غارقا في تفكير طويل.



ابنة وحيدة لرجل كان قد فقد الأمل في أن تكون له ذرية لتأتي هذة بعد سنوات من الصبر لتكون لهما شربة الماء بعد العطش الطويل، تحلم بكلية الطب إذ أنها في الثانوية العامة لهذا العام.. هذا جل ما استطاع معرفته من أبيها الذي بدى متحفظا في الحديث بشكل مغيظ.. وحقا لا يعلم لما تشغل باله وتستحوذ عليه إلى تلك الدرجة حد التقصي عنها بكل الطرق الممكنة.

على جدار عريض كان يجلس ممدا ساقيه أمامه بينما ظهره يستند على جدار آخر من خلفه.

هاتفه ملاصقا لكفه بينما تمتد السماعات حتى أذنيه لتصدح عبرهما أنغام صاخبة تناسب ذوق

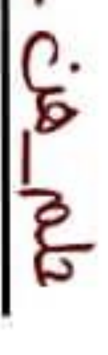


هذا الجيل، يهتز رأسه مع أقدامه في رتم منتظم وانسجام تام حتى التقط بصره هيأتها تقترب من البعيد!

فتح جفناه على آخرهما وثغره يفترق في عبث لا إرادي، على عجل ارتدى حذاءه وانطلق يحشر حاله بين عمال المعمل وتحت نظراتهم المتعجبة شاركهم العمل ببصر يراقب الطيف المقترب.

دلفت إلى المعمل وبصرها يبحث عن أبيها الذي تأخر في عودته فبعثت بها أمها محملة بالغذاء إليه ككل مرة يتأخر عن موعده.

قابلها من فوره، فحيته ببسمة خلابة ويدها ترتفع له بما لذ وطاب مغمغمة بمرح:





- أنا اللي عاملة الأكل ياعبده، يعني هيعجبك.

ربت فوق رأسها يبادل مرحها ببسمة جملت محياه المتغضن، بينما كانت هي تنظر بانشداه نحو ذاك الذي وقع بصرها عليه وقد برزت ضحكته الجذابة من بين الوجوه العاملة بينما بصره يرتكز عليها ولا يحيد:

- ماتنساش تاخد دواك بقى.

لم تعي أنها قالتها دون وعي حقيقي وقد استولى ذلك الوقح على جل تركيزها، وصلتها كلمات أبيها مشوشة وهي تستدير تتسابق أقدامها في الخطى في شبه هرولة بينما دافع لا تفقه كنهه أجبرها على الالتفات إلى ناحيته من جديد.. وما إن فعلت حتى قابلها بغمزة!

أشاحت برأسها سريعاً، تشعر بنظراته الثاقبة

تخترقها من الخلف حتى اختفت عن ناظريه، في

طريق عودتها رفعت بنان أصابعها تتحس غير

مصدقة البسمة البلهاء التي تغزو ثغرها لكن

سرعان ما تلاشت حين وبخت حالها وذكرتها أن

ذلك.. لا يجوز.

***

احذر من الوقوع في تلك المنطقة

حيث..

جميع الأشياء باهتة، أقرب للتلاشي

بفكر متأرجح ورغبة مفقودة

كل شيء ضبابي.. كل شيء رمادي

هي لعنة ستفقدك كل معاني الحياة.

وهي بالفعل كمن أصابته لعنة

لعنة اسمها مهند البغدادي..

ذلك الشعور بأنك أخيراً وصلت مبتغاك

فتكتشف أن هناك لوح شفاف يعزل بينكما،

تراه ولا تلمسه، تشعر بوجوده وتعجز عن تملكه،

هناك بداخلك من يكبلك و يعيق حركتك كأنك

مسير دون وعي، كل ما تفكر فيه لا يحدث كل ما

تبغاه لا يكون..

فقط عالق بين هذا وذاك

تتطلع إليه دون إنصات حقيقي لما يقول،

قسماته الجادة ونبرته الجهورية تجذب انتباه



الجمع المتحلق حول مائدة الاجتماعات، تجذب انتباه الجميع إلاها.. هل حقا طلبها للزواج؟

كلما فكرت في الأمر شعرت أنه غير حقيقي!

لم تختبر ذلك الشعور من قبل، لكن لا تنكر أنه الوحيد الذي سمحت له باختراق بلورة عزلتها، وحده نال مساحة من عقلها وأخرى.. من قلبها.

بعد حين انتهيا وفرغت الحجرة إلا من كليهما، جمود ولامبالاة يخصها بهما منذ تلك الليلة، وهي حقا عاجزة عن التوضيح، حتى نفسها أصبحت غريبة عنها وماعادت تعرف أيما طريق تسلك..

كان يلملم أوراقه حين قطعت حركته بهمس هادىء:



- في أكتر من شكوى تخص أوتيل(...) هو مش المفروض نقابل المدير؟

دونما يرفع بصره ناحيتها دمدم بنبرة باردة:

- بلغي الموظف المسؤول وهو يتصرف.

غمغمت بهدوء لطيف:

- أيوه بس ده مع الشركة من سنين طويلة، كنت بفكر لو نشوف الموضوع دة من غير رسميات، يعني كده هيكون لطيف أكتر.

أيضا لم يعرها نظرة، نهض من جلسته وحينها فقط طالعها من علو مغمغما بذات البرود المقيت:

- مفيش مشكلة، بس قرري تروحي أنتِ ولا أنا.



واستدار!

نهضت تلحق بخطواته تهتف باسمه بغيظ مكتوم:

- مهند..

كانت يده تمسك بمقبض الباب حين وصلت نبرتها، نصف استدارة فوجدها تقف على قرب خطير وقسماتها تنضح بالغيظ، لا ينكر نشوته التي برزت بينما تهتف بنبرتها المترددة:

- وليه مش سوا؟

واستدركت سريعاً:

- يعني ده شغل وطبيعي نكون سوا.



وحينها ترك المقبض واستعدل يرسم بسمة ثلجية.. ثم صوب دون تردد:

- عشان أنا مش عايز نكون سوا.

جف حلقها وغامت نظرتها من قسوة كلماته ونظرته المنتشية، بينما تنظر له في صمت غير مصدق، لم تعِ إلا بعد ثوان حين لم تجد له أثر، فقط فراغ يحيط بها فلم تشعر بحالها إلا وعروقها تشتعل إثر طنين جملته الأخيرة، ثوان أخرى وكانت تقتحم مكتبه في ثورة غضب.

وأمام اضطجاعه المستريح فوق مقعده وقفت تكتف ساعديها فوق صدرها، تهز بساقها وتهدر بحنق:



- ممكن أفهم آخرة ده إيه؟

يتخذ من البرود مسلكا عله يسكن من كبرياء الرجل المطعون بداخله، رفضها له كان أقرب لطعنة بالفعل، ولا يدري حقا إذا كانت ترفضه بحق لما هي هنا مازالت تبحث عن إصلاح ما فسد!.. تغضب وتثور لأجل جفائه؟

منحها كل السبل لتبتعد وتقطع مابينهما وما تبقى لن يخص غير العمل لكنها مصره على إقحام هذا بذاك..

بحق السماء.. أتريد قربه أم ترفضه!

جاهد ليكبح انفعاله وإن لم يفعل فأول ما سيفعله هو ضرب رأسها الصلد الغير مفهوم



هذا في أقرب جدار من خلفها.. لم يتحرك عن موضعه فقط ظل يبادلها النظر من جلسته في استعلاء حتى هتف أخيراً:

- مش فاهم؟

جن جنونها، مازال يتلحف بهذا البرود المقيت بينما يراها تكاد تشتعل.. دارت من حول المكتب حتى جاورته في سؤال قاتم.. مكتوم:

- ليه الأسلوب ده؟

كتفت ساعديها من جديد تخفي رعشة جسدها.. تردف ونبرتها تهتز:

- أنا غلطت في إيه؟



دار بالمقعد حتى قابلها ومازال على موضعه مدمدمًا في استخفاف:

- حقيقي أنا احترت معاكي، لا بقيت فاهمك ولا عارف إيه يرضيكي.

رفعت سبابتها في تهديد صريح.. حانق:

- بطل أسلوبك الغلس ده وخليك صريح.

لم تشعر إلا وبنيانه يشرف عليها من فوق رأسها وقد نهض بغتة مغمغما من بين ضروسه في حدة وسخط بين:

- تمام وأنا بحب الصراحة..

بصراهما متعانقان، والأنفاس تتبادل بحرارة.. بينما يشملها بنظرة ليعود ويسكن بين أهدابها



وصورته المعكوسة داخل حدقتيها الرقراقة، كم تبدو هشة بحجمها الصغير وقسماتها المنمنمة، لو فرغ فيها كل مايعتمل فيه يقسم أنها ستسقط صريعة في الحال.. نفخ بقوة ليدحر غضبة الوليد قسرا، ثم هتف بفتور جاف:

- كده أحسن لينا إحنا الاتنين، خليكي صريحة مع نفسك أنتِ كمان واعترفي أن مابقاش ينفع غير كده.

يبدو أنها اخطأت حين فكرت في تصليح الأمور..

فوحدها تسعى لذلك..

شفتاها شبه المفغرة لأنفاسها الهادرة لا تبعد سوى سنتيمترات وكأن عينيه أصابهما الشلل

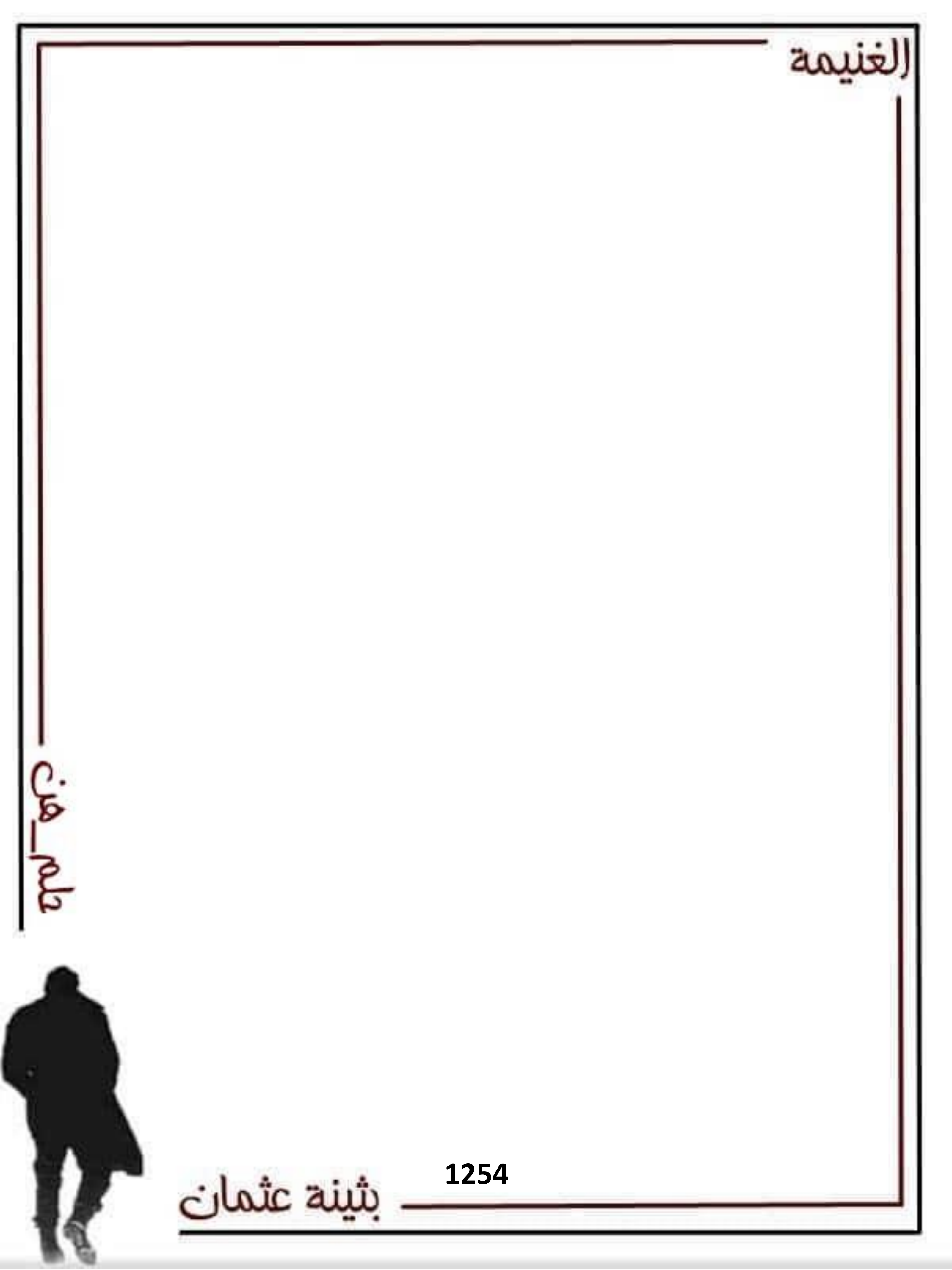


فوقهما لتقفا هناك دون حراك.. ترهقه هذه الغنى وتعزف فوق أوتاره دونما تدري، لو فقط يفهمها ويعلم عن ماهية ما تريد وتبغي لربما أراحها وأراح نفسه من قبل.. وبين رغبة الاقتراب فيه وكبرياء الابتعاد انتصر كبرياءه حين استدار عنها عائدا لجلسته السابقة هادرا في حدة وصرامة:

- امشي يا غنى.

بالكاد ابتلعت غصتها وهي تجر أقدامها لتبتعد وتبتعد حتى اختفت خلف باب مكتبها الموصد، ترتكز عليه بجسدها وتطالع الفراغ برؤيا غائمة ودمع ثقيل عالق.. تشعر بقلب فيها بات أجوف، خاو إلا من عبث الرياح وصفيرها.



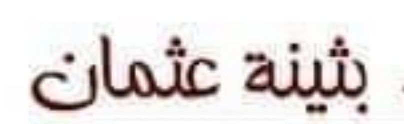

الغنيمة
حلم_هن
بثينة عثمان

(٣٠)

الثقة..

وثيقة أمان تمنحها لذاتك قبل الآخر

لم يكن الأمر يحتمل التأجيل، بين جدران حجرتهما الخاصة بإضاءة هادئة احتجزها أمامه فوق الصوفا القاتمة، يقابلها في جلوسه ويبدو عليه التحفز، وجيد أنه مجرد تحفز فلولا رؤيتها ببيت أمه تجالس ضيوفها ببسمة هادئة فور عودته لربما كان انتهج شعور آخر، وبالطبع كان سيتبعه فعل آخر، لا يدري سببًا لشجار الصباح لكن بصرها الهارب من حصار عينيه مع قسماتها المقتضبة تخبره أن في جعبتها الكثير، وهو



سيهديها البداية اللآزمة بنبرة هادئة تناسب رزانته المعهودة:

- اتكلمي يا سماح.. سامعك؟

رعشة طفيفة عبرت جسدها المتيبس، تشعر بحالها طفلة مذنبة ووقت الحساب حان، تكره أن تبدو كساذجة تلاعبت بها بضع كلمات صدرت عن طفله، وإن كان هذا ماحدث!

بعد صولات وجولات قضتها بين أروقة الفكر الشارد طيلة اليوم استشعرت خطأها، لم يكن ذلك التصرف السليم ولا الوقت المناسب للحديث، لكنها كعادتها حين تفقد الصبر ويغلق العقل أبوابه تترك للسانها حرية التصرف.



تجعد جبينها ولسانها الثقيل بالكاد يتحرك بنبرة مقتضبة فضلت بها الصراحة عوضًا عن لف ودوران ليس به داع.. ومازال بصرها يتذبذب بين لقاء وهروب:

- أنا حاسة أن دوري بيخلص في خدمة البيت ورعاية أهله.. وياما بسأل نفسي لو قصرت في دول هيبقى ليا لازمة؟

- ممكن أعرف سبب الإحساس ده؟

لم يمنحها الوقت حتى تجمع بقية كلماتها المبعثرة حين فاجئها بسؤال ثابت جاء جوابه بعد حين باقتضاب مضاعف لكنه خافت.. كاذب:

- مافيش.



- طيب أنا قصرت معاكي؟.. صارحيني يمكن قصرت فوصل لك الإحساس مني!

لا تدري هل كانت نبرته قاسية أم تخيلت ذلك، لكنها في جميع الأحوال حركت رأسها نفيًا بهدوء وبصرها يتجرأ على مواجهته لتقابلها عينيه الناظرة إليها في تمعن.

فقيرة الثقة بنفسها، تحصر حالها في دور اعتادته وتبغضه في ذات الوقت، ترى نفسها تلك القليلة في عين الجميع.. تسعى لكسب القلوب بكلمة وفعل حتى تنال مرتبة أعلى ترضي بها نفسها الشريخة.

وكان يعلم..



يدري أنها لا تثق بحالها مثقال ذرة، لا ترى في نفسها شيء يستحق، دوما تتطلع إلى الغير بعين المتمني.. ليس حقدًا وحسدًا فلم يكن ذلك من شيمها هي فقط تغبطهم وتتمنى لو كانت تشبههم.. هي الغبية بطيب قلبها وطبع "الجدعنة" التي يمنحها أحقية التميز بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

تنهد بصوت مسموع وكفه يرتفع إلى وجهها، يجبرها على ملاقاته قاتلًا كل اقتضاب يعلنه الجبين المكرمش بخطوطه العريضة بينما يذيب كل هذا برق الكلام وحنو اللمسة:

- تعرفي أنا الصبح خرجت من البيت شايط بمعنى الكلمة وطول الطريق وأنا راجع كنت

واقف على تكة مستني أنفجر، لكن للأسف لما وصلت لقيتك لميتي الليلة.

نصف ضحكة خافته رسمت بضع تجاعيد طفيفة ازدان بها محياه الوقور كسر بها الشحنات المتطايرة مستتطردًا بعدها بنبرة جادة مستغلًا تركيزها الكبير:

- شوفي يا سماح أنا وبنتي كانت حياتنا ناقصة وإختارتك أنتِ بالذات عشان تكملي النقص ده، أنا بسميها حياة وأنتِ بتقولي عليها خدمة، المعنى واحد لكن الفرق في العين اللي بنشوف بيها.. وآه بقول أنا وبنتي عشان هي جزء مني ماينفعش يتقسم.



هتفت سريعًا بدفاع وحدقتيها تتسعان في استنكار:

- أنا عمري ما فكرت أفرق بين أب وبنته!

أمسك بكفيها يمنح إرتعادتهما دفئه بينما يتنهد من جديد:

- والله عارف يا سماح، بس كمان مابتعمليش حاجة عشان تعرفيها، أنتِ لحد اللحظة مقربتيش من أميرة عشان عايزه تقربي منها، بتتعاملي معاها كواجب مش أكتر.

سحبت كفيها من حصار كفيه لتهمس في تردد وبؤبؤ مهتز:

- أنت مطلبتش، وهي.. هي ماحبتنيش!



عدل من وضعه ونكس برأسه نحو الأسفل مشبكا أصابعه مع قول فاتر:

- دي حاجة أستنناها منك لكن مطلبهاش، وهي طفلة محتاجه اللي يعوضها عن غياب والدتها اللي لحد اللحظة لسه مأثر فيها.

دارت إليه مع همس حرجٍ.. متعثر:

- أنا...

قاطعها:

- أنتِ بنت حلال يا سماح وأنا ربنا كرمني لما كنتي من نصيبي، لكن يا بنت الناس مافيش حد مجبور أنه يعيش في وضع غصب عنه لو شايفه أنك تستاهلي حياة أفضل تقدري...



- ماتنطقهاش الله يخليك!

كانت تلك مقاطعتها اللآهثة وأناملها تطبق على شفتيه، تمنع عنه التكملة أو النطق.. أشفق عليها من نظرتها الدامعة؛ المرتعبة ليضمها إليه مانحًا أعلى رأسها لثمة طويلة هتف بعدها بصوت أجش:

- ماكنتش هقولها.

عادت أنفاسها تهدأ وتيرتها بينما تنعم بين ذراعيه، ترتوي من ذلك النبع الذي لا ينضب لاعنة كل شيطان عبث بها باغيًا تفرقه لها عن زوجها.



أبعدت حالها بعد حين، أصابعها تمر فوق خصلاتها في ترتيب لفوضى وهمية تداري به خجلها بينما تتعثر بالكلمات:

- طب في حاجة تانية كمان عايزه أقولك عليها.

أسبل أهدابه وفتر ثغره عن بسمة هادئه منحتها حق الموافقة و كان في داخله شبه يقين أنها ستفصح في هاته اللحظة تحديداً عن ماض أخيها التي تفلح في مداراته ظنا منها أنه لا يعلم!

لا تدري أنه على معرفة بالأمر ومن البداية ومع ذلك إستخار ومضى قدما فيما إنتوى تاركاً لها حرية المصارحة رافعاً عنها كل حرج يخص الأمر، فقط إنتظر أن تفتح له أبواب قلبها الصغير



وتمنحه كل الثقة حتى تفضي إليه بمكنونها لكن خاب ظنه لأنها ببساطة لم تفعل.

كيف لها أن تمنح ما تفتقد!

غامت نظرته مع تسلل نبرتها إلى أذنيه معلنا في داخله هزيمة تنبئاته:

- أنا عايزه أشتغل.

و تلك نقرة أخرى.

***

تبقى الثقة سلعة باهظة لا تمنح إلا لمن أثبت أنه يستحق بالفعل، لذا هي تشبه المفتاح الساقط في القاع قليلون من يصلون إليه..

وهو يسعى لكسب ما فقد..



- يعني إيه!

قالتها بينما تتطلع إلى مابين أصابعها بعين المتعجب، عقد ملكية يخص المتجر التي كانت تعمل فيه سابقًا واسمها يجاور اسم شقيقته، وما إن استوعبت الأمر حتى جاءت نبرته متأملة، باسمة:

- هدية..

واستطرد:

- مبروك عليكم.

افترت شفاهها عن نصف ضحكة مفتعلة بينما أصابعها تتخلى عما بينها، تنهض من جلوسها وتهتف بنبرة خالطتها بعض الحدة:



- أنت عارف أني مش هقبل.

- ليه؟

تبعها بسؤال وجبين متغضن لتستدير مقابلة إياه وكفيها يتحركان في عشوائية:

- يعني دي حاجة كبيرة أنا ماقبلهاش من أي حد، ده غير أن يوم ما أفكر يكون لي حاجة ملك أحب تكون من مالي الخاص.

- حد!.. أنا جوزك على فكرة لو كنت نسيتي.

قالها بانفعال ساخر لتغمغم منهية الموضوع:

- وأنا آسفة هديتك مرفوضة.

وكان رفضها بمثابة فتيل أشعل غضبه ليصيح في انفعال وذراعه يزيحها عن طريقه:



- قولي أنك خايفة يكون من فلوس حرام على الأقل رفضك هيكون معقول.

واندفع إلى خارج الغرفة تاركًا إياها من خلفه تنفث زفيرها، إلى متى ستظل وإياه فوق سطح متأرجح؛ غير متزن؟.. فركت جبينها في تفكير متخبط وما هي دقائق إلا وكانت تتبعه.

راقبت وقفته من خلف النافذة المفتوحة بقسمات متجهمة، جاورته وبصرها يسبح برفقته مع الليل السرمدي وسحابة من الكآبه تظلل فوقهما، لحظات مرت كسرت بعدها الصمت الثقيل بهمس خافت:

- أنا لو عندي شك واحد في المية كان مستحيل نكون واقفين سوا دلوقتي.

وأسبلت أهدابها متنهدة، ربما هنا تكمن المعضلة.. تخلى عن ماضيه حين وجد البديل بينما هي تريده تائبًا مستشعرًا عظيم الذنب يسعى بكل ما أمكن ليمحي أثره، أن تعرف روحه طريق الهدى والإياب، تريد لقلبه أن يتذوق حلاوة الإيمان.

لم يبدي أي فعل حين تابعت ورأسها تدور ناحيته، تراقب جانب وجهه وتهمس من جديد:

- أنا متأكدة أنك بطلت..

تلكأ بصرها مع حركة لعابه المتعسر داخل حلقه بينما تعود من جديد يصحبها إصرار أكبر في التطرق فيما سبق وحذر عن الخوض فيه:



- بس في فرق بين أنك تبطل عشان لقيت البديل وبين أنك تندم وتوب عن كل ذنب عملته.. وجايز ده اللي عامل حاجز مابيننا، أنت إرتاحت للأول وأنا مش هيريحني غير التاني.

رفعت كفها إلى جانب وجهه تجبره على إلتفات، فكه متصلب والصمت حليفه، نظرته القاتمة بادلتها بأخرى متوهجة بسحر الأمل بينما حروفها تتسربل من جديد وثغرها يتكفل ببسمة صغيرة:

- أنا هقبل هديتك يا حسن، لكن هديتي اللي بتمناها أديك عرفتها.

وابتعدت تاركة إياه بوجه كالح يجتر ماضيه قطرة قطرة، قسرًا تبحر الذاكرة نحو الأمس دون كوابح فتبدو الصورة قديمة، باهتة مضى عليها زمان



فغدت بمنظر سيء أقرب للبشاعة بينما العقل يقف عند الناصية من البعيد يتطلع إلى ما اقترفت يداه بغير تصديق.

***

النهايات.. بدايات جديدة

كصفحة طويت داخل كتاب ذاخر بالأوراق، ليس كل الأمور تستحق السقوط من بعدها في بئر رثاء للذات نخسر بعدها الكثير، هي فقط تحدث وتمر ويتلاشى مع الوقت الأثر.

صباح اليوم انتهى زواجه رسميًا، أخذ الأمر وقت أطول من اللازم لكنه حدث في النهاية.. قصة حب كان ركيزتها الإفتتان، إفتتان سرعان ما ذاب



ما إن واجه رياح الحياة العاتية لتظهر حقيقة الطرفين دون رتوش تجميلية، وليس من الضرورة أن يكون أحدهما سيء المعشر، هما فقط لم يجمع بينهما وفاق فكان الإختلاف على كل صغيرة قبل الكبيرة هو الإتفاق الوحيد لينتهي الزواج المكلل بالفشل سريعًا.

بحضوره الشارد كان يراقب بعض التجهيزات الخاصة بالإفتتاح الوشيك للمقر الجديد، فالأمر أصبح أكثر من وظيفة عمل جيدة عقب ما وتد روابط صداقة ربطته بأصحاب المكان، شخصه الإجتماعي بإمتياز ينجح دائمًا في توسيع تلك الدائرة..

- لااا ده أنت مش هنا خالص.

إستفاق ماهر على نبرتها وإشارة كفها الملوح أمام وجهه، أشرقت إبتسامته بينما تناوله قدح القهوة الخاص فيه فدمدم كمن منح للتو على كنز ثمين:

- في وقتك.

والقهوة بينهما ذات نكهة خاصة، نكهة بعبق الذكرى التي تجبرهم على إبتسام عابر ما إن يتذكرا ذلك اليوم وذاك الحدث. جاورت وقوفه بآخر، تتطلع من خلف حافة الكوب إلى العاملين على قدم وساق ومع ذلك لا تكف عن إصدار توجيهات لا تفذ، كل شيء يجب أن يكون متكاملًا: مميزًا وفريدًا، هي لا يرضيها غير ذلك بل هو طموحها الذي لا يرضيه غير النجاح الساحق

وهاهم يسيرون على دربه بخطى ثابته والجميع يشهد.

أطلقت ميسون تنهيدة متحمسة لليوم المرتقب بينما الهادىء جوارها على غير عادة شتت فكرها و جذب بصرها.. وجسر الصداقة الممتد يمنحها حق السؤال لذا هتفت دون مقدمات:

- أنتَ كويس؟

لم يكن شاردًا تمامًا هي فقط لحظات صمت قطعها بإجابة باسمة وإلتقاء:

- أنا تمام.



وعاد كلاهما إلى موضعه السابق، فقط لحظات

وعاد لها برأس مائل يصحبه عرض جاء من

حيث لا يدري:

- تروحي سينما؟

***

أجمل ما في الحكاية لحظة انقلاب السحر على

الساحر

تلك اللحظة التي لا تعد فيها كما كنت، حين

تفقد خاصية الجاذبية لكيانك فتغدو هائمًا دون

أرض تحمل ثباتك.

بعقل شارد يتطلع إلى صورته المعكوسة داخل

المرآة وذات الحدث يعاد ويتكرر بين أروقة



الوعي، يجتره العقل مرة بعد مرة حتى فقد القدرة على العد..

كان نهارًا مشمسًا يناسب الطقس الحار حين لمحها تترجل من عربة الأجرة أمام بوابة المزرعة، لا يعلم أهي الصدفة تلعب دورها بحرفية أم هو القدر من صنع له لقاء دون ترتيب من قبله، تقدم وقطع المسافات وكالعادة قدم فروض العبث دون انتظار:

- صدفة حلوة دي يا أنسة عيشة.

ولفظ اسمها أعقبه ضحكة مبطنة اشتاطت منها حنقًا فحاولت المناورة والمرور مفضلة التجاهل عن تبادل السخافات مع الكائن اللزج كما تلقبه في نفسها إلا أنه لم يمنحها منفذ



للهرب حين وقف أمامها وأعاق سيرها بهتاف جديد:

- إستني بس..

طفح الكيل، إنتفخت أوداجها بينما ترفع سبابتها في وجهه وصيغة التحذير لا تخطأ طريقها نحو أذنيه:

- إسمع يا جدع أنت أولا إسمي عائشة فمش ناقصة إستظراف، ثانيا لو ماحترمتش نفسك وبطلت وقاحة هقول لبابا على كل حاجة وصدقني مش هيعجبك تصرفه.

وكادت أن تتجاوزه حين صدحت نبرته ببحه خاصة جاورت أذنها:



- عاااااش يا شوشو.

دارت برأسها بغتةً ترميه بشرر النظر بينما تهتف دون تفكير والحنق يقطر من بين حروفها:

- عيب عليك على فكرة أنا مخطوبة.

لم يدري متى إختفت من أمامه ولا أين تلآشت الضحكة وخبا العبث، ماسبب ذلك الجمود وتلك الغصة؟

كلها أسئلة مر عليها قرابة الشهرين ولم يجد لها جواب بعد، حتى بعد ما نجح في كسب مودة العم عبدالحميد وسحبه في حديث مطول كان ختامه معرفة شاملة بكل التفاصيل العجيبة الخاصة بخطبة إبنته المصون.



- وأنت مال أهلك يعني تتخطب ولا تتحرق!

زعق بها لنفسه القابعة داخل المرآة ليستفيق على علو نبرته متطلعًا من حوله في غباء ثم نافخًا في قنوط..

لم يقف لها في طريق ولم يلمح لها طيف منذ ذلك اليوم، شعور خانق يتملكه ما إن يتذكر سخافة أفعاله، لم تكن تلك ظنونه اعتقد أن الأمر سيكون مجرد مزاح عابر والآن لا يعلم ماهية مايحدث معه..

الأمر أشبه بمطرقة هوت فوق رأسه دون سابق إنذار!



فاق من جديد على الرنين المنبعث عبر الهاتف الساكن فوق المنضدة ليشارك اسم المتصل في إعادته إلى الوعي التام، تطلع إلى هندامه سريعًا فطالت بذلته الزرقاء الأنيقة عين الرضا، رتب خصلاته على عجل وأصابعه تسحب الهاتف، تتسابق الخطوات إلى الحفل القائم تصحبها زمجرة الطرف الآخر المنبعثة عبر الشبكات.. والرد جاء كالمعتاد:

- في الطريق ياحسن.

***

أن تكون في الخلفية متسللًا لا أحد يراك،
مغتنمًا ماليس لك به أحقية..





مؤكد ذلك لا يشبه أن تكون محتلًا للصدارة، كل العيون تنظر إليك وتبادلها أنت النظر بكل ثبات وكبرياء عتيد.

تفخر بنجاحك وتزهو بالنصر بين أقرانك، فسطوة المال والنجاح حين تجتمعان تكون محطة إلتقاء لإحترام وأنظار الجميع.

لا يعلم لما شبه اليوم بالبارحة في هاته اللحظة تحديدًا، ربما تشابه الأجواء والوجوه الأرستقراطية ذكرته بتلك الليلة، ليلة شابهت أخريات لكنها كانت ذات نكهة جنونية مختلفة.

مجرد تشابه فرض نفسه لكن مؤكد ماعاد هو صاحب البارحة، هو ملك اليوم والغد ومابعد غد، إصرار شديد من خلفه دافع أشد أن يكون



هو صانع المجد لنفسه، لا يريد أن يبقى طيلة عمره رهن مقعد أبيه ومكانه، في الأصل لايريد أن يشبهه ولا يبغي لشيء من حوله أن يذكره فيه وكان ذلك السبب الخفي والأقوى ليسعى إلى إقامة مكان آخر تكون منه الإنطلاقة ونجاحه هو من سيحفره بيده ولن يرضى إلا أن يكون من بين صفوة الصفوف الأولى.

مال بصره إليها فوجدها تبادله النظر بعين الرضا وفوق ثغرها ترسم بسمة دافئة غطت على ذبول وجهها الشاحب، وحده يستطيع رؤية البروز الطفيف لبطنها الصغير داخل ثوبها الداكن الأنيق، منذ بداية اليوم ويداهمه شعور



اللهفة لذلك الكائن الصغير، يشتاقه دون رؤيا وينبض فيه عرق حماس المنتظر.

عبر بين الحضور وراح يشارك أربعتهم اللحظات، وكانت أول دعابة ثقيلة من نصيب أنس المتململ من رسمية الأجواء والحضور:

- فكرني أعمل لك خصم على التكشيرة اللي تجيب الفقر دي.

لم يصلها رد أنس وفكرها راح مع ذراعه المرفوع تلقائيًا حول كتفيها في أحقية تخصه وحده، كما منحها حقها من قبل حين قدمها بفخر أمام الجميع أنها زوجته وذراعه يقربها إليه بحميمية محببة.



ضحكاته العذبة التي تنبع من روحه وتراها لأول مرة، رائق النفس رقراق حد الشفافية وقد خلع عنه درع الغموض الذي يحجب فيه شخصه بعيدًا عن الجميع فيظهر منه مايريد وقتما يريد، ذلك الصفاء كله ذكرها بتلك الطيبة ياقوت فبات الشبه بينهما إلى حد كبير.

ترحمت في خاطرها على الراحلين بينما تعود بوعيها إلى الوجوه الحاضرة فلم تجد غير زوجها وأخيه يتبادلان الحديث الجدي بينما البقية كلًا لليلاه راح يغني.

***

شهية ونضرة تسر النفس قبل النظر، بدت كدمية جذابة بقامتها القصيرة داخل الثوب

الأزرق الجذاب.. لا يعلم سبب وجودها بين هؤلاء لكنه منذ أن سمعها تتحدث عبر الهاتف نهار اليوم عن حضورها لحفل الليلة والذي جاء مصادفة مع ذات الأمسية الخاصة بعمل أخيه الجديد، ودون ذكر بقية التفاصيل قرر المجيء وقبول دعوة الشقيق عقب رفض سابق.

وعلى ذكر الشقيق مال بصره إليه فوجده برفقة تلك الزيتونية يبادلها الكلمات والضحكات في تناغم واضح كما هو الحال منذ فترة.

فضل كبح حدسه والخيال السارح وترك الأمور تسير على طبيعتها دون أسبقية بينما يتحرك ناحية الواقفه بمفردها وكأنها على يقين أنه لن



يمر دون سلام فمنحته فرصة الإختلاء.. وهو لا يحب أن يخيب الظنون:

- مساءك سعيد يا غنى.

همسها بلطافة ما إن قابل وقفتها، يرفع الكوب الخاص فيه متجرعًا رشفة عصير علها ترطب من عروق القلب الجافة.

"من الجيد أنها إبتعدت عن نسمة وزوجها"

هذا أول ما همست به لنفسها وهي ترى الإصرار على الإقتراب يملىء نظراته منذ أن صدمها بحضوره، لم تخبر نسمة عن أمره بل في الحقيقة لم تخبر أحدًا قط. تتعامل مع الأمر



كحدث عابر لكنه لايبدو كذلك والدليل هو إصراره وإرتباكها الداخلي حين ردت تحيته:

- مساء الخير يا مهند.

بدت ديناميكية للغاية، هي كلها تتعامل بآلية منذ آخر لقاء جمع بينهما وكان ختامه طلبه لرحيلها، وهي إستجابت لمطلبه ومنذ حينها ما بينهما لا يخص غير العمل يبدأ فيه وينتهي به.

- بتعملي إيه هنا؟

أضاف لنبرته بعض الدهشة لتبدو مفاجئة رؤيتها متقنه، بعفوية ارتفع كفها يشير ناحية الزوجين مع نعومة همس أطربت أذناه:

- معارف، قرايب، صحاب.. كل دول ممكن.



ابتسم تلقائيًا فبدت أكثر إرتباكًا وتململًا في وقفتها بينما تسأل في تردد:

- وأنت؟

تحرك حتى جاور وقوفها بشكل خطير بينما يميل برأسه إلى أذنها وسبابته تشير إلى الشقيق من البعيد:

- ماهر البغدادي.. أخويا.

تجهل ماهر هذا ولا تعلم ماهية دوره بالضبط لكن هو عرف على أنه أخيه وذلك أكثر من كاف لتومىء برأسها في صمت وتتبع ذلك بنية إبتعاد وهمس بدت فيه ثلجية، مقيته:

- عن إذنك.



فلاحقها بهمس ساخر عبر مسامعها:

- جبانة.

وبين هروب هذين وإندماج آخرين

عم الظلام!

ستون ثانية

دقيقة كاملة مرت

عم فيها الصمت المباغت ثم تعالى الهرج والمرج

ليعود بعدها التيار المنقطع بغتة فهدأت الأصوات وعادت الوجوه تستأنف الأحاديث والبسمات.

وحدهما ظلا عالقين داخل بؤرة الظلام،

أصابعها الناشبة في لحم ساعده وحدقتيها



المتذبذبتان في تحديق طال عقيقه الداكن بخطورة في هاته اللحظة، نظرتها المرتعبة تلك كانت أكثر من كافية لتقتل فيه الكثير، تطعن فيه رجولة ودون قصد تذكره يوم سلمها بيده لأيوب ملقيًا بها كاشفًا سترها فوق أرض صلدة عفنة ثم استلمها من بعده لتكون تسليتهما تباعًا وكل منهما يتفنن ويبتدع مستغلًا ما وقع مابين يده عن طريق الخطأ خير استغلال فلا يخرج خاسر من تلك المسرحية الهزلية غيرها هي..

هي زوجته وأم إبنه!

ما بال الذكرى اليوم تسقط فوق رأسه من كل حدب وصوب؟ ماذا يريد منه الماضي بعد؟ ألم



يطوي صفحته وللأبد لما لا يتركه إذن وكلا يمضي في حال سبيله؟

بحسابات المنطق السريعة ذلك العطل غير وارد وحسابات العقل تخبره أن الأمر مفتعل عن قصد والغرض منه تخريب فرحة النجاح، وبعيدًا عن كل الحسابات فقد انتصر الغرض.

وفي تلك الأثناء لا يملك غير سحبها معه والإبتعاد عن كل عين.. فلا قبل له بضوء يفضح ما سترته النفوس.



(٣١)

لا يميت الروح إلا اليأس

أن تفقد كل بغية في العيش فتغدو هائما على وجه الدنيا دون دليل، مجرد أيام تنقضي وتمر غافلا عن كون المارق هو من عمرك.

لكن متى كانت يائسة؟

ربما هي تحيا حتى اللحظة لأنها لم تسمح لليأس يوما أن يسكن روحها، لم تملكه مفتاح ذاتها فيمتلكها.. واليوم هي تقف فوق ناصية الأمل، أمل في حياة تبغيها، وأمل فيه لأنها.. تريده.

تسعى لتخطى تلك العقبة بكل ما أوتيت من قوة، لا.. هي ليست عقبة بل بئر سحيق قابع



أسفل قدميها والأمر لا يحتاج غير زلة صغيرة لتسقط فيه دون قيام، لكن ذلك لن يحدث، ليس الآن..

تلك الروح التي تنبض فيها من حقها وقتما تخرج للدنيا أن تجد حياة كاملة، لن تمنحها حياة منقوصة حتى لو كلف الأمر محاربة الجميع وأولهم مخاوفها.

بخطوات هادئة كانت تتحرك داخل مطبخها، أنهت تجهيز بضع أطباق خفيفة لأجل الفطور وعادت أدراجها إلى غرفتها.

لدقائق قليلة ظلت تراقبه في صمت، فالصمت هو اللغة المتبادلة بينهما منذ أيام، تحديدا منذ لحظة انقطاع التيار لتنقلب الأمسية الحافلة

لأخرى كئيبة مجتره من خلفها أحداث مر عليها سنوات وقد ظننا أنها راقدة أسفل ركام النسيان لتنبض لهما بالحياة معلنة عن وجودها داخل أركان الذاكرة منتظرة فقط لشرارة واحدة حتى تفيق من رقودها، وحدثت الشرارة وها هي عواقبها تتوالى.

تقدمت بالخطى ترسم بسمة أفترعتها ثغرها في تباطىء:

- الفطار جاهز.

همهم دونما إلتفات وأصابعه تتحرك برتابة في تصفيف لخصلاته، سحبت شهيق طويل يبطنه تشجيع ذاتي وابتسامتها تتسع مقتربه أكثر لتهتف بنبرة لينة كاسره لكل حاجز صمت لعين:

- إحم، لك عندي هدية..

نالت إنتباهه إذ مال برأسه زاويا مابين حاجبيه متبسما فاستطردت سريعًا وأصابعها تتشابك وقد كست حمرة الخجل وجنتيها:

- بمناسبة افتتاح المقر الجديد وكده.

اتسعت إبتسامته وإرتفع حاجبيه لأعلى في استغراب جلي ومالبثت حتى تقهقرت للخلف وسبابتها ترتفع:

- ثانية واحدة..

غابت نحو دقائق ظل فيها على حاله منتظرا حتى عادت وبين ذراعيها تراصت مجموعة من الكتب لا بأس بها، تركتهم برفق فوق طاولة الزينة بينما



حاجبيه وصلا لمنابت شعره لواقع الهدية الغير متوقع.. ولم يكن يدري أن أصل الهدية إنبعث للتو عبر شفتيها:

- أنت هتكمل دراستك يا حسن.

إحتاج الأمر للحظات حتى استوعب عقله ماتقول وما إن فعل حتى استدار مكملا تصفيف شعره بينما يهتف بنبرة ساخرة:

- فكرتك عن الهدايا ضايعة.

لم تعر سخريته أي إنتباه بينما تحشر حالها بين جسده وطاولة الزينة مغمغمة بحركة كتفين وكأن الأمر مفروغ منه:



- متحاولش تهرب عشان أنا حطيتك في دماغي خلاص.

- أنتِ سخنة يا نسمة؟.. إيه الهلاوس دي كلها على الصبح!

قالها وأصابعه تحط فوق بشرة وجنتها في تفقد بينما نظرته تنمي عن العجب من أمرها وحديثها الغريب منذ باكورة الصباح، لم تمهله وقت أكثر حين عادت تهتف في إصرار:

- دي مش هلاوس؛ ده اللي كان حقك تعمله من زمان.

- أنتِ بتتكلمي جد بقى؟

- جد جدًا كمان.



ضحك ملء شدقيه وأصابعه تتحكم في خصرها، يدير جسدها ناحية المرآة حتى قابلتها صورته المعكوسة مع نبرته المتسلية:

- طب بذمتك ده شكل واحد غاوي جامعات ولا شهادات؟

وتابع هادما آمالها:

- ده أنا دخلته تيرم يتيم طلعت منه بتلات مواد.

- تلاته يامفتري!

نفضت عنها بشاير الإحباط عائدة بجسدها إليه، هامسه من جديد:



- فكر فيها كده ومن غير سخرية هتلاقي معايا حق، أنت محتاج لده يا حسن عشان نفسك وشغلك..

لا ينكر أن حديثها فيه شيء من الصحة خاصة فيما يتعلق بشأن عمله، كم مرة تعرض لمواقف تبدو بسيطة كرسالة من عميل ذات لغة مختلفة يضطر فيها إلى اللجوء للغير لأجل الترجمة أو مقابلات العمل التي حتما لا تخلو من بضع حوارات بغير العربية ومع ذلك الأمر غير مستساغ..

فقبل سنوات دخل كلية التجارة ولم يكمل فيها السنة، هجر الطريق من أوله حين رسب في أكثر من مادة وكانت حينها نهاية الرحلة.. ولن يجمل

الحقيقة؛ لم يكن يوما شغوفا بتحصيل العلم والعلوم.

عاد من شروده وطنين كلماتها إلى عينيها، ظل هناك للحظات طالت حتى انتابها التوجس:

- مالك؟!

وعلى أثر سؤالها مال جانب فكه بضحكة ماكرة وازت سحبها إليه، الصقها بصدره ويده تعبث بخصلة من شعرها بينما يدمدم:

- عندي إقتراح تاني..

ونظرتها المتشككة دفعته ليتابع بغمزة:



- إيه رأيك نخليها دروس خصوصية؟.. أصل عيب قوي يبقى عندي المنهج كله وأروح أدور بره.

- آآآه ويبقى معاك شهادة نسمة المعتمدة.. هنهزر ياحسن!

قهقه بينما رأسه يميل فوق وجنتها، طبع قبلته القوية وغمغم بشقاوة محببه:

- أحلى نسمة والله.

أفتر ثغرها عن بسمة محبطة داعبها بالقول:

- فكري فيها بس واحنا هنعمل أحلى شغل يا باشا.

- عينيك بيقولوا أنك بتسرح بيا بس ماشي.



- عينيا!.. دول غلابة.

- طيب يلا يا غلبان عشان تفطر.

- لا فطار إيه، ورايا شغل وأنتِ أخرتيني..

قالها بجدية منهيا الحوار فيما يخطو بالفعل ناويا رحيل حين صدح صوتها المتردد من خلف ظهره:

- على فكرة أنا عرفت نوع البيبي..

توقفت خطواته وإستدار إليها مقلصا الخطى بينما يهتف وأصابعه تتشبث في ساعدها بفرحة وليدة:

- ولد؟



هزة رأسها في بطء إيجابي تواتر على إثره مشاعر مختلطة إنتهت بفرحه غمرته وشملت وجهه، لاتدري لما أشفقت عليه في هاته اللحظة فلم تدر بحالها إلا وجسدها يرتفع على أطراف قدميها وذراعيها يطوقانه في ضمة شد عليها بكلا ذراعيه.. ضمة تشبه خاصته حين سحبها من بين الحضور نائيا عن الجميع ضاما بها إليه حتى هدأ ذعرها وخفت خوفها، ليلتها قرأت أسفا صبغ نظرته وعجز عنه لسانه.

سوف تخلصه من كل آثمه، سيولد من جديد وعلى يديها تلك المرة.. نبض القلب تسارع وتخبط؛ فبعد عذاب طال أخيرًا إهتدى القلب



مع العقل ليكونا فريقا واحد في نزال الخسارة فيه غير متاحة تلك المرة.

عادت إلى الحاضر مغمغمة بين ذراعيه بهمس محب:

- أنا عايزه الولد ده ياحسن أكتر من أي حاجة في الدنيا.

وكان شده على ضمتها جواب كافٍ على تأثير كلماتها، تخبرها أنفاسه الحارة أنه مثلها وأكثر..

- يلا بقى على شغلك كفاية تأخير.

ابتعدت تهمس له بلين بادلها إياه بإبتسامة بينما يستدير مبتعدا وما إن فعل حتى عاد إليها بهتاف



أجش وبريق عيناه اختلف عن كل ما سبق رؤيته:

- هسميه علي.

***

لا يوجد قانون يحكم الحب، فالحب يأتي على غفلة..

والقانون لا يحمي المغفلين!

بجلوس ملول وساق تهتز في رتابه كان يتوسط غرفة مكتبه في وضع إنتظار تخطى نصف الساعة، نفخ في ضجر ثم نهض مقررا الرحيل حين فتح الباب ودلف بوجه بشوش زمجر على أثره العائد إلى جلوسه:



- كل ده تأخير، كنت همشي.

- صباح الخير.

قالها حسن الذي إحتل مقعده في حين قابله هتاف أنس المتعجل:

- كنت عايزني في إيه؟

بالسبابة والإبهام فرك ما بين عينيه، يهتف بنبرة هادئة:

- عايز أعرف البيه مابيروحش شغله ليه بقاله كام يوم؟

والجواب جاء سريعًا غلبته حدة غير مبررة:

- زهقان يا حسن، ماليش مزاج.. إحسبها زي ما تحسبها.



ومقابل حدته جاءت نبرة الآخر أكثر علو وصرامة:

- ياتقول مالك يا أنس يا تطلع على شغلك حالا

ومش عايز إستهبال.

حل الصمت لدقائق حتى إنتفض أنس من

جلوسه وأخذ يدور وسط الغرفة على غير هدى

ثم توقف وصاح قبالته في حنق مكبوت:

- تخيل الراجل الأهبل عايز يجوز بنته لواحد

آخر مرة شافته كان عندها اربعتاشر سنة!

صمت وكفيه حول خصره في لهاث متسارع بينما

يستطرد بحنق أكبر وقسمات مكفهره:



- يعني أيه ابن اخته وهو واخته اتفقوا على كده من زمان؟ هو في حد لسه بيتجوز بالطريقة المتخلفة دي!

يبدو أنه صباح العجائب..

قالها حسن لنفسه بينما يلتقط قسمات أخيه ونبرته المغتاظه ليتسائل وحاجبيه يلتقيان في عدم فهم:

- راجل مين؟

- عبدالحميد زفت.

- عبدالحميد مزرعة؟

- وإحنا نعرف غيره أنت كمان!



داري رغبته الملحه في الضحك بينما يرسم إمارات التفكير العميق حتى قال بعد حين:

- مشكلة عويصه فعلاً، هنحلها إزاي دي؟

- ونحلها ليه مايولعوا كلهم، عالم متخلفة.

هنا قهقه حسن بشدة مما زاد من حنق المحملق فيه.. بالكاد هدأت ضحكاته ليهتف غامزا إياه:

- حلوة؟

عاد إلى جلوسه الأول في تحفز، هاربا ببصره نحو الفراغ حتى قال بلامبالا مصطنعة:

- ماعرفش.. يعني عادية زيها زي أي بنت.

عاد حسن يدمدم بجدية لا تناسب المحتوى:

- ماعلينا المهم أنها عجبتك.



رفع إليه بصرا متعجبا من إسلوبه الجدي ليهتف في تردد وقد إرتخت ملامحه المشدوده:

- عجبتني إيه وبتاع إيه، كل الحكاية مابحبش التفكير المتخلف ده.

مال بجذعه للأمام، يسأله تلك المرة بنصف عين يصحبها جدية مريبة:

- ماهو ياعجبتك يا نشوف شغلنا.. ها عجبتك ولا نشوف شغلنا؟

قلب السؤال داخل عقله في ثوان تمايل على أثره رأسه في بطء متردد:

- عج..بتني.



أطلق حسن صفير متسلي لا يناسب مكانته فوق مقعد الإدارة بينما يرمقه أنس في توجس حتى هتف بلهجة العابث:

- طالما عجبتك يبقى تطلع على المزرعة وتشوف شغلنا.. هاه شغلنا.

وعاد يقهقه مضطجعا إلى الخلف متناولا بضع أوراق مدعي التشاغل بينما نهض أنس المتحير وتحرك مغادرا بذهن مشوش عن ذي قبل، ظل ممسكا بالمقبض بضع دقائق والأكبر يراقبه في صمت حتى ترك المقبض واستدار إليه يسأله الغوث في حيرة قاتله:

- بس أنا مش عارف أنا عايز إيه، هو مجرد إحساس مسيطر بغباوة.

ترك أوراقه ودار نصف استداره بواسطة المقعد حتى قابله وأصابعه تتشابك من خلف رأسه مدمدما في هدوء لايشبه عبثه السابق:

- شوف يا ابني أنا مافهمش في الكلام المزوق بتاعك ده.. بس اللي أعرفه أني لما أكون عاوز حاجة ممكن أقلب قرد عشان أطولها.

أطرق أنس برأسه للحظات عاد بعدها بنصف إبتسامة باهته لم يجد لها صدى عند الجالس ثم غادر وقد خمدت عاصفته.

إستمع إليه وأخذ من المزرعة وجهته، ظل يتابع حركة العمال الدؤوب بذهن شارد حتى لاح طيفها عند البوابة آتية لأبيها بالغذاء الخاص فيه كما يحدث في بعض الأحايين، لا إراديا



تحفزت خلاياه وانتفض من خمول جلوسه بينما نبضاته تتعارك لأجل الخروج، يقسم أنه لايدري مايحدث معه منذ أن عرف قصة خطبتها عن لسان أبيها، يكاد يجن سخطا وغضبا وكأنما يريد لكم عبدالحميد هذا وابنته معا وفي النهاية يبقى أسير حلاوة عينيها حتى يشبع جوع عينيه.

تسلل من باب آخر حتى غادر المعمل، أخذ يراقب طيفها من البعيد حتى اقترب من مكمنه وفي اللحظة المناسبة أطبق فوق ذراعها جاذبا إياها عنوة إلى ركن جانبي بعيد عن الأنظار.. كل ذلك حدث في ثوان لاتذكر لم تستطيع فيها غير تحرير شهقة عالية نجح في كبحها بواسطة كفه لتعي



بعد ثوان أخرى أنها محتجزه بين جدار من خلفها وهو من أمامها.

بنبرة جادة لا تمت سخريته المعتادة دمدم:

- هشيل إيدي بس صوتك مايطلعش.

ترميه بسم النظرات كساها بعض الخوف الطبيعي حين كان يبعد كفه ببطء وما إن فعل حتى خرج صوتها المهزوز خافت.. لاهث:

- أنت واحد مش محترم.. وكداب!

لفظت الأخيرة بغضب حقيقي، باتت تعلم حقيقته عن طريق غير مباشر من أبيها لتتضح لها الصورة كاملة. فعلى ما يبدو أن ابن العز



يتخذ منها تسليته وقد ظننت أنه انتهى حينما غاب لكنه مالبث وها قد عاد أكثر وقاحة وجرأة.

أدرك من فوره أنها ترمي إلى كذبته الأولى في أول لقاء جمع بينهما وأنها الآن على معرفة تامة بأصل هويته.. وكم إرتاح لذلك!

عاد بكفيه إلى خصره بينما نظراته القريبة تتفرس قسماتها على مهل.. شفتيها الوردية.. أنفها الصغير.. عينيها الكحيلة بطبيعة ساحرة.. توقف عند جميلتيه وغمغم بحنق دون مقدمات كمن أصابه الخبل:

- إزاي واحدة زيك توافق تتجوز بالطريقة دي؟

- أفندم!



حملقت فيه دون تصديق!

كيف له أن يخوض فيما يخصها بتلك البساطة؟

تابع وكأنه لم يسمعها بنبرة مغتاظه.. ساخره:

- تقضي بقية عمرك مع واحد إختارك عشان شافك مناسبة ولا يمكن عشان يرضي ماما!

وتهكمه الساخر جعل نبرتها تعلو في سخط وسبابتها تقابل وجهه في تحذير:

- انا بحذرك تتعدى حدودك.

- ياشيخة اتنيلي..

- إنت إزاي وقح كده!



قالتها وكفيها يدفعان به عن طريقها ومالبثت أن تخطو واحدة حتى عادت من جديد على جذبه لساعدها، لم يحرر ذراعها بل إقترب من وجهها فماعاد يفصل بين أنفاسهما غير شعرات، حينها همس بوقاحة حقيقية:

- أنا لو بوستك دلوقتي عريس الغفلة بتاعك ولا هيعرف.. شفتي قد إيه هو بعيد؟

بعيد عن قلبك، عقلك وذاتك..

كان ذلك مقصده وما بطن وقاحته ولا يدري إن كان قد وصلها، فقط تركها تحرر نفسها من جديد بدفعة قوية، تركض بعيدًا عن مرماه والخطى المتثاقله تشبه الخوض في رمال ناعمة لا

مستقر لها بينما كلماته تطن في أذنيها فاقده إياها كل تركيز ممكن..

- عائشة..

كانت قد إبتعدت بالفعل حين وجدت صوته يقترب من خلفها في نداء خافت وقد لاحق خطواتها بهرولة مشابهه، دارت برأسها للخلف تحدجه بنظرات نارية محذره إياه من الإقتراب أكثر وخطواتها تتعثر حين صدح صوته بنبرة أجشة، مهتمه:

- ماتستعجليش.. أنتِ تستاهلي تعيشي حياة تكون من اختيارك.



إستقرت كلماته بداخلها بينما خطواتها تهرول في إبتعاد أكبر حتى وصلت البيت بأنفاس متقطعه، إختلت بحالها داخل غرفتها مغلقة بابها من خلفها، حررت رأسها من حجابها فلفحتها النسمات الباردة العابرة من النافذة المفتوحة..

نظرته.. نبرته.. كله كان غريب اليوم..

جلست بوعي شارد فوق الفراش ويدها تسحب الجارور المجاور، عبثت فيه حتى وجدت ضالتها، صورة فوتوغرافية صغيرة تحمل صورة لشاب ثلاثيني، حاجبين عريضين مع وجه مستدير ممتلىء بعض الشيء وقسمات فيها القبول.

"هاني" ابن عمتها وفي مقولة أخرى خطيبها الغير رسمي بعد، منذ شابت عن طوق الطفولة ولا



تعلم غير أنها لهاني وهاني لها، هكذا يقول أبيها، أمها، عمتها.. هكذا يردد الجميع ويعلم أنها عروس الشاب المغترب.

رأته آخر مرة منذ أربع سنوات سافر بعدها إلى بلد خليجي لغرض تكوين نفسه كحال الكثير ولم يعد حتى اللحظة، ومن المفترض أنه قادم خلال فترة قريبة لأجل إتمام خطبتهما بشكل رسمي.

لم تفكر من قبل إن كان غير مناسب كما قال ذلك الوقح منذ لحظات، منذ الازل ترسخت فيها فكرة واحدة، أنها وهاني لبعضهما لذا كل كياتها تأقلم مع الفكرة وإعتادها.. لكن!

عاد بصرها الشارد إلى الصورة تطالعها بنظرات فاتره.. شاب جيد، مجتهد، جامعي، بل هو

الأفضل من بين شباب العائلة وربما في وقت ما كانت سعيدة بأنها وحدها فازت به، لكن منذ راودها حلم دراسة الطب وكل شيء بدأ يتغير، أولوياتها لم تعد كما السابق.

عادت تدس بالصورة داخل الجارور ثم تمددت بجسدها عرضيا فوق الفراش وبصرها يتجه ناحية النافذة معانقا للسماء المكشوفة..

كانت راضية بنصيبها، قانعه أن ذلك هو الأفضل، سعيدة لسعادة أبيها وعمتها الحبيبة.. لكن كل شيء انقلب منذ رأته أول مرة، منذ داعب فيها أنوثة ساكنة فتحركت له رغما عنها، بالفعل كل كيانها تبعثر حين زارها في الأحلام بضحكته!

أسبلت أهدابها بينما تهمس لحالها في يأس قاتل:

- وآخرتها يا أنس.

***

السعادة لا تشترى

تلك مقولة صادقة..

فالسعادة الحقة منبعها ذاتك، تنبعث فيك فتغمر روحك وتفيض من حولك.

وهي سعيدة..

كان ذلك أفضل مافعل شقيقها؛ حين منحها عملا لم يكن على البال، هي شخصية ميزانها الكد والعمل، فالجلوس هكذا والاكتفاء ببضع



أعمال منزلية بين أربع جدران يثير فيها زوابع مشينه.

حتى علاقتها بزوجها تصبح أفضل بالرغم من رفضه الأولي لفكرة العمل، ثم جاءت الموافقة عقب نقاشات مطولة كان ختامها وعد منها بتنظيم الوقت وعدم الإتيان على شيء لأجل آخر، وهي خير من يفعل عشرات الأشياء في يوم واحد.

كل شيء تم حسب رغبتهم وإختيارهم فأصبح المتجر قطعة من الجنة بألوانه الزاهية الملفتة..

وربما هي أكثر إمتنانا لجعله سببا في التقرب بينها والصغيرة، فهي تقضي نصف يومها برفقتها هناك عقب دوامها المدرسي، تلهو وتنهي واجباتها

اليومية ثم تعودان قبيل المغرب لتجهزان الغذاء سويا حتى تحين عودة أبيها من العمل.

- دي زعقت لهم جامد يا بابا والميس خافت ورجعتني مكاني!

كانت تأتي بالطعام إلى المائدة حين وصلها هتاف أميرة المتلون بحماس طفولي من داخل غرفتها وهي تقص على أبيها ماحدث اليوم للمرة العاشرة ربما.

- حصل إيه النهاردة في المدرسة؟

تسائل أحمد في توجس وقد غادر غرفة الصغيرة عقب ما فرغ من إعطاءها دواءها بينما سماح



تجيء بآخر طبق وتحط به فوق السفره مغمغمة ببساطة:

- ماتشغلش بالك دي مشكلة صغيرة واتحلت خلاص.

- مشكلة إيه يا سماح ماتتكلمي؟!

شرعت في سكب الطعام بينما تجيب:

- مافيش، دي الميس بنت اللذين رجعت أميرة وراء وطلعت واحدة مكانها، روحت المدرسة عشان اقابلها قعدت ترغي وأصل وفصل.. بس على مين؟ ماسكتش ولا مشيت إلا لما تأكدت بنفسي أن أميرة رجعت مكانها وإرتاحت.

- يعني متخانقتيش هناك؟



شاركتهم الجلوس ببصر زائغ بعيدًا عن مرماه لتقول بنبرة متعثرة افلحت في أن تبدو عادية:

- ابدا ياخويا ده أنا بس فهمتها أن البت مش مرتاحه وعايزه ترجع مكانها، شدينا شوية في الكلام بس عادي يعني وأهي رجعتها في الآخر.

اجفلت على كفه التي حطت فوق كتفها مع همس حمل الكثير من الإمتنان لكل ما تتكبد في الآونه الأخيرة لأجل مد جسر للتواصل مع ابنته:

- تسلمي ياسماح.

بادلت امتنانه بإبتسامة صغيرة قبل ما تدعي التشاغل بتناول الطعام، لن تخبره أنها أقامت الدنيا في المدرسة صباح اليوم حين رفضت



المعلمة إعادة الصغيرة إلى مكانها بحجة أن التلميذة الأخرى أولى، أخذت ترغي وتزبد وتجمهر البعض حتى جاء المدير وتكفل بحل الأمر وبالفعل إنتهى، لكن مالم يكن في الحسبان هي مقابلتها ل.. نجلاء!

قبل رحيلها أوقفتها بنداء خفي معرفة عن حالها في إستعلاء، لم ترحها نظراتها وهي تشملها من أعلى لأسفل ومع ذلك رحبت بكف ممدوده:

- أهلاً بيكي، خالة أميرة مش كده؟

- آه كده..

قالتها وبالكاد تركت أطراف أصابعها تلمس كفها ثم سحبتها سريعا، لتهتف سماح على عجل:



- أميرة كان عندها مشكلة وجيت عشان أحلها و..

قاطعتها نجلاء بفظاظه:

- آه ما أنا سمعت كل حاجة ولو كانت أميرة بلغتني كنت هحل الموضوع من غير الفضايح دي كلها.

ثم لم تمهلها الرد وهي تفك عقدة ساعديها لتهتف بغموض قبل ما تستدير عنها ناوية بذلك رحيل:

- بس أكيد مسير المهزلة دي تنتهي.

وتركتها دونما تفهم مقصدها، ظلت طيلة اليوم تقلب الحديث داخل رأسها علها تفهم أي مهزلة



تقصد ولما كل ذلك الغرور والغيظ التي خصتها فيه!

لم تعرف الصغيرة شيء عما حدث غير أنها أعادتها إلى مقعدها السابق عقب وصلة زعيق طالت معلمتها، وممنونة هي لذلك وإلا قصت لأبيها كل التفاصيل المفصلة.

عادت من شرودها إليهم، ترسم ضحكة أنارت وجهها وتناغش الصغيرة بأنف مجعد:

- حلوة البامية؟

جاء رد الصغيرة في ايماءات متتابعة مهمهمة في تلذذ:

- همممممم.



- تحفه البامية.

كانت تلك همسته الخافته بالقرب منها، وجاءت مشاكسة بما يكفي لتنكس برأسها خجلا ويصفو ذهنها فلا يملك زمام أفكارها أحدا غيره.

***

الغيرة هي النكهة اللآذعة للحب..

تفضح ما تخبأه النفوس، كمرآة عاكسة للشعور تبصر فينا ما نأبى الإعتراف فيه ورؤيته.

كانت تتقلى فوق جمر الغيرة وهي تراه هائما في الحديث والضحكات مع تلك الشقراء.. الفاتنة!

أمسية خاصة من طرف أحد العملاء المقربين تحت ظل توطيد الروابط العملية جمعت بين



الكثيرين فوق سطح باخرة أنيقة، تشارك الجمع عشاء بحري لذيذ وإمتدت الأحاديث في شتى المجالات مع خلفية لمقطوعات موسيقية هادئة..

ومن ثم!

من ثم تركها ولم يعيرها أدنى إهتمام وراح يتشاغل من تلك الشمطاء متنائيان ببعضهما عند السور الرفيع للباخره بينما هي جالسة مثلها مثل المقعد الذي تحتله.

تلتفت برأسها جانبا بعدد الدقيقة ربما، وفي كل مرة تراه مازال على وضعه المتسلي، أظافرها الطويلة تنقر فوق المائدة أمامها في نغمة رتيبه عنوانها الغيظ، وظننت أنه أكتفى إلا أنها أدركت



خطأها حين تعالت النغمات وتشارك الثنائيات ساحة الرقص.. وكان هو برفقتها!

كيف يضم خصرها إليه وكيف تميل برأسها عليه.. شعرت بالنيران حارقة تبتلعها لتنهض بغتة، تطرق الأرض بحذائها في شبه هرولة تاركة من خلفها الأمسية بمن فيها.

تعثرت أثناء نزولها عبر السلم الداخلي الملتوي وكله بسبب الكعب اللعين وغضبها الأعمى..

- أنتِ رايحه فين؟

نفضها هتافه الجهوري عند أول السلم في حين وصلت هي آخره بصياح حانق، فظ:

- وإنتَ مالك!



وعادت تكمل هروتها بسرعة أكبر، تشعر بخطواته تلحق بها من الخلف حتى توقفت رغما عنها وقدمها تلتوي من تحتها مطلقة صرخة صغيرة.

عامود حديدي أنقذها من السقوط بينما تتشبث فيه بكلا كفيها، إستقامتها وازت وصوله اللاهث ونبرته القلقه:

- حصلك حاجة! أنتِ كويسة؟

مالت بجذعها تخلع عندها حذائها، ظلت ترمق الكعب المكسور بحنق مضاعف جراء حرجها لتصيح فيه بقسمات غاضبة:

- عجبك كده! همشي إزاي أنا دلوقتي؟



- ياستي هو أنا إللي كسرته!

- أيوه أنت السبب.

- أستغفر الله العظيم.. الصبر يارب.

زعق بها مهند وضروسه تطبق فوق بعضها، تلك الغبى مجنونة، تأكد الآن أنها بالفعل تعاني من خطب ما داخل عقلها.

كان كل شيء يسير على مايرام وذلك الإسلوب الذي يتبعه منذ فترة ذا نتيجة جبارة، فالحمقاء تكاد تموت غيظا ما إن يقترب من إحداهن، وتوقع مراقصته للشقراء سوف تزيد من حنقها لكن لم يدر أنها ستهب كعاصفة هوجاء مثيرة كل تلك الزوابع من حولها.



تنهد عدة مرات متحاملا على حاله ليقول برفق:

- ممكن تقعدي طيب عشان نشوف رجلك سليمة ولا حصل فيها حاجة؟

أبعدت كفه الممدوه نحوها بفظاظه، تتحرك نحو الخارج بخطوات غير متزنه وبين أصابعها يتدلى حذائها المخلوع.. أطلق تنهيدات مرتاحه لأجل قدمها التي لم يطالها ضرر ثم لحق بها حتى غادرا الباخرة وخطواتها مازالت تضرب الأسفلت في غضب مغتاظ مصره فيه على إبتعاد.

جاورها قسرًا ليهتف وقد إنتقل له كل إمارات الحنق:

- أنتِ مجنونه ولا حاجة؟.. ماتهدي!



توقفت من فورها صارخة فيه:

- عاوز إيه؟

- هاتروحي إزاي وأنتِ ماكلمتيش السواق؟

تلفتت من حولها فواجهها الفراغ لتستوعب للتو أنها كانت تسير على غير هدى، هبط غضبها في غضون ثوان، تغمغم بصوت بح بعض الشيء:

- هتصرف.

وكادت أن تمر من جواره حين أمسك بذراعها وعاد بها إليه قائلا بحدة:

- هوصلك.

- لأ.

جوابها الفوري أطلق العنان لغضبه:



- ليه؟

- كده.. مش عوزاك.

- يبقى ننهي الشراكة اللي مابيننا.. ودلوقتي!

صرخ بها في وجهها لتتحشرج أنفاسها دون صوت وعينيها تحملق في جدية نبرته وقسماته وقد سقط النابض من بين ضلوعها بينما تهتف في رجاء خفي لونته بعدم فهم وهتاف بدى ثقيل:

- يعني يا توصلني يا نفض الشراكة؟.. كده من فينا المجنون!

جذبها إليه من كلا ساعديها مدمدما في صبر مختنق:

- أنتِ فاهمة كويس أقصد إيه..



وإستطرد بجدية وهدوء مخيف بينما أنفاسه تلاحم أنفاسها القريبة:

- يانكمل سوا يا كل واحد يروح لحاله، والمرة دي بجد يا غنى.

إرتعدت أوصالها ونظراتها تغوص داخل عينيه لتلمح الإصرار فيما يقول، إرتعادت شفتيها التالية انبأت عن إنهيار لعبرات تسقط واحدة تلو أخرى، وقبل أن يفهم ماهية ماتشعر أو تمر فيه بين يديه جاءت نبرتها المتهدجه.. ضائعة:

- أنا خايفة يا مهند.

***

"ست الحُسْن"



يافطة كبيرة تعتلي واجهة زجاجية بإطارات زرقاء تبدو كشاشة عرض جذابة لما تحمل من كعكعات شهية، خلف الباب الزجاجي تقبع ثلاث طاولات ملونة حديثة الطراز بمقاسات مختلفة تراصت في تناسق وإنتظام حاملة من فوقها عدة باقات من الزهور بينما تتوسط المكان سجادة مستديرة محفورة بلون قاتم نافس بياض الأرضية، لوحة للسيدة فيروز وأخرى بحجم أصغر حملت صورة أم كلثوم تزين بهما الحائط ذي اللون الأصفر الشاحب بينما العندليب وعبدالوهاب بعوده يحتلان حائط آخر حمل لون السماء، وعلى ركن جانبي حملت فاترينه زجاجية



مقوسة عرض آخر للكعكات.. وكل تلك البهجة كانت كفيلة بفتح شهية الرواد والمارين.

كان حفل الإفتتاح الصغير منذ أسابيع حاملا الكثير من البهجة في تجمع أقرب للعائلي، صحيح مازال المشروع في بدايته لكن الكل متفائل ويتندر له بنجاح ساحق.

بحركة ثقيلة وأنفاس متقطعة إرتاحت فوق مقعد فسيح، تجلس وتطلق زفيرها المتعب بينما كفها يرتفع لا إراديا ويحط فوق بطنها المنتفخ، أيام وتنتهي من شهرها السادس لتبدأ شهر جديد يعني أن مولد طفلها يقترب.

-مالكيش حق تنزلي وأنتِ تعبانه كده.



قالتها سماح في عتاب لياتيها الرد المطمئن واهن:

- دلوقتي هبقى كويسة ماتقلقيش.

هزت رأسها في يأس منها وعادت إلى الداخل تكمل ماكانت تفعل، بينما نسمة تعود برأسها إلى الوراء طالبة بعض الراحة حين صدح صوت جانبي بنبرة رنانة.. مزعجة:

- تفتكري يا أبلة نسمة هيطلع شبهك ولا شبه أبوه؟

ولم تنتظر رد إذ عادت تستطرد بتنهيدة طويلة:

- أنا بقول هيطلع قمر لأبوه.

- شوفي شغلك يا زوزو وأنتِ ساكته.



و"زوزو" أو "زينب" كما تنص الأوراق الرسمية هي فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر، سقطت فوق عتبة المتجر منذ أسبوعين باحثة عن أي عمل كان، لتنال على شفقة الجميع ويقرر أصحاب الشأن إعطاءها فرصة، وتكتشف نسمة بعد أيام موهبتها الفذة في الحساب، أثبتت في ذلك كفاءة منقطعة النظير فمنحتها وظيفة المحاسبة الخاصة بالمتجر وحتى اللحظة لم تخيب ظنها، فتاة مسكينة يتيمة الأب تلاطمها أمواج الحياة دون سند وتهرب من جحيم زوج أمها بالعمل هنا أغلب النهار، لا يعيبها غير لسانها الذي يبلغ طوله عشرات الأمتار وفكرها المجنح دوما نحو فكرة الزواج.



تحاملت على حالها ونهضت تخبر سماح باختصار:

- أنا هروح مش قادرة أقعد أكتر من كده.

- هتقدري؟

- إن شاء الله.

- تحبي أوصلك يا أبلة؟

- لا يا زوزو مش محتاجه.

رمقتها سماح في شفقه للإرهاق البادي عليها حتى جذبها صوت زينب الملول وهي تحاكي نفسها كأغلب الأوقات:

- وأنا يارب مش هتجوز بقى!

جاورتها سماح بمصمصة شفاه:



- مين هيبص لك وأنتِ مدلوقه كده؟

- طب ماتشوفيلي عريس حليوه كده ينوبك ثواب.

- شرط يكون حليوه يعني؟

- أمال يا أبلة مش هتصبح واتمسى بخلقته!

صدحت ضحكاتهم حتى ملأت المكان قطعها فجأة صوت صراخ قادم من الخارج لتجفلان معا على أثره وتهرولان ناحيته وكلتاهما على يقين تام أن الصراخ.. لنسمة!



(٣٢)

هل جربتم من قبل اختلاط الواقع بالوهم؟

الجهل بماهية ما ترى العين ويشعر القلب..

ظلام

اختناق

صمت موجع لا يكسره غير حشرجة أنفاس متعسرة داخل الحلق،

كان الأمر أشبه بالسقوط في بئر موحش دون قاع وأطراف تحارب الفراغ..

محاولات يائسة تسعى للخلاص تبوء كلها بالفشل، تلك اللحظة التي يجتر فيها العقل ما تبغض وتهرب منه عبر نافذة النسيان..

كان هو بشحمه ولحمه!

بملبسه الرديء وقسماته المخيفة بينما ذراعه الخشن المعطل يرتكن إلى جانبه كما رأته قبل سنوات، ببصر شاخص ونفس مختنق تقهقرت خطوة إلى الخلف، كفيها دون وعي يحيطان ببطنها المنتفخ تحمي طفلها من مجهول لا تعيه، تبغي استغاثة وأحبالها الصوتية التي توقفت عن العمل لا تسعفها في الاستجداء.. وازى خطوتها الوحيدة اقترابه السريع وكانت تلك القشة الأخيرة ليتحرر بعدها صراخ المستغيث وجفنيها يلتقيان في انطباق قوي تهرب فيه إلى ظلمة مشروعة خير من واقع أسود ملموس، تحني جذعها وكفيها يشدان على ضم طفلها بينما يده



السليمة تتنازع في خلع حقيبتها عنها وفي خضم رعبها والعويل المذعور لم تصلها كلماته المتعثرة من بين لعابه النافر خارج فمه:

- فلوس.. عاوز فلوس..

كانت خطوات سماح المهرولة إثر صراخها تتسابق حتى تخطت بوابة المتجر فوجدتها تصيح في هلع وعجوز أجعد يحمل صفات الشحاذين في هيئته يعافر كاللصوص في خلع حقيبتها عنها،

هاجمته بقوة فكاد أن يسقط ثم سحبتها إليها تهدئ من روعها وتدحر ذعرها الجلي بينما زينب ترشقه بسباب متواصل صاحبه بعض الحصى حتى اختفى قبل تجمهر البعض.

كل ذلك لم يتعدَّ الدقيقتين حسب التوقيت الزمني لكن في توقيتها هي كان الأمر أشبه بكابوس مفزع، كانت تشهق وتغص وتعود تشهق من جديد فتغص مرة أخرى وبصرها شاخص أمامها دون وعي حقيقي، لا ترى ولا تسمع من حولها، اختلط لديها الماضي بالحاضر وزينه الوهم لترتسم داخل مخيلتها أبشع الصور.. لم تستفق إلا على نظرته القريبة المشرئبه بكل ألوان القلق وقوة كفيه المحيطه بكتفيها تجبرها على النظر نحوه بينما يلهث بسؤال مفجوع لهيئتها:

- حصل إيه؟



صدحت نبرة سماح في الأرجاء في شرح مختصر لحالة الذعر التي تتلبسها وأجبرتها على طلبه فجاء من فوره دون تأخير:

- معرفش حرامي ولا سكران رعبها منه لله، ومن وقتها وهي على دي الحال.

وهتفت زوزو تؤكد بفخر لشجاعتها:

- بس انا إديته اللي فيه النصيب.

كانت تبكي في هيستريا وسائر جسدها يرتج حد أن خوفه عليها تضاعف وكفيه يحيطان بوجهها عله يبثها بعض من طمأنينة:

- اهدي محصلش حاجة.. أنتِ كويسة..



ارتفعت أصابعها تلامس ثغرها في ارتجاف وقد تحولت الشهقات لنحيب مكتوم بوعي بدأ يعود لتوه ولسان يتعثر بكلمات بدت كخبال:

- كان هو.. أنا شفته..

لم يستفسر ثلاثتهم عن ماهية ماتقول وترجح الأمر لتوابع ذعرها، أجبرها على نهوض داعما إياها بكلا ذراعيه مقررا بذلك الرحيل، فكل ذلك الخوف الذي يتلبسها ليس بجيد عليها وطفلهما.

هدأت وتيرة ذعرها خلال طريق العودة وقد احتلها الصمت من بعدها، على مهل أجلسها فوق حافة الفراش بحال ظنه أفضل وكانت أصابعه تشرع في فك حجابها حين هتفت بقوة



رغم النبرة التي بحت وأصابعها تنشب في لحم ساعده:

- مش مصدقني ليه؟.. بقولك شفته!

صدمه قولها فتوقف يرمقها بغرابة متسائلة:

- هو مين؟

تشنج جسدها في اللحظة وفزعت من جلستها تصيح بهستريا جديدة:

- هو اللي كان عاوز يقتلني.. أنا مش هنسى ملمس إيده على جسمي، مش هنسى شكله، ده أكيد عاوز يأذي ابني.. أنا عارفه..

وكأنها ضربت فوق رأسه بمطرقة من فولاذ، اتبع خطواتها دون حديث وعينيه تضيق فوق



قسماتها يتذوق هلعها وذعرها عقب حديثها، انعقد لسانه فصمت. صرخت فيه من جديد وعبراتها تنهمر تغرق وجهها:

- أنتَ مش مصدقني ليه؟!

استفاق على صرختها جاذبا رأسها إلى صدره عنوة ودماغه يكاد ينفجر، أي عبث يحدث؟ ضاقت عيناه في تفكير وكل الأصابع تشير إليه وحده..

ومن غيره أيوب؟

وحده كان يملك حرية التصرف آنذاك..

أطبق جفنيه وضروسه تلتحم فوق بعضها في وعيد، عاد من دوامة شروده إليها فوجدها



تتشبث فيه ومازال نحيبها قائم، شد على ضمها ورأسه يعلو رأسها بنظرة شاردة ونبرة قاتمة يكتم بها غضبا مستعرًا لا يناسب حالتها:

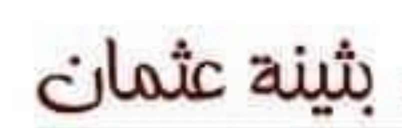
- متخافيش، مفيش مخلوق يقدر يأذيكي.. ولا ابني.

***

يبدأ العقاب..

حين تنمو فيك بذرة الذنب فتجلد نفسك بسياط من ندم

بنفس مفعمة بالغضب تقدم يجول ببصره حول مسكنه، شبه بيت قابع أسفل بنيان متهالك كخندق مدفون، نزل بضع درجات مخلخلة حتى



وصل للباب الركيك والذي لم يحتاج منه غير ركلة واحدة وانفتح على مصرعه، ما إن دلف حتى وقعت عيناه على جثته المتكومة أسفل الجدار فوق فراش عفن، اتقدت نظراته وخطواته تقترب على مهل.. لم تفلح الساعات الماضية في تهذيبه فهيئتها المذعورة ونحيبها المستمر حتى وهنت وغلبها النعاس بين ذراعيه لم يهدئ من نيران صدره بل كل دقيقة كانت تمر كان يشتعل أكثر ولن يرتاح حتى يفجر في هاته اللحظة كل مايعتمل فيه وحتى يلقن الحقير درسا يتذكره ماتبقى من عمره قبل أن يفكر في الاقتراب من زوجته مرة أخرى..



توقف يتطلع إلى قسماته في قرف أتبعه بركلة عنيفة طالت جانبه وهتافه الجهوري أفزع السكير من سكرته:

- اصحى يا كلب..

انتفض أيوب من رقوده صارخا برأس مثقل من أثر الشراب وصورة مشوشة للواقف يعلوه كطود عظيم ينبعث من خلف نظراته الغضب.

ابتلع لعابه في عسر مع عيون مرتعبة ويداه تقتربان حتى جذبه من ياقة قميصه، رطم جسده في الحائط من الخلف ثم صرخ فيه بوحشية وأصابعه تحفر بصمتها فوق وجهه بصفعة زلزلت كيانه:

- رحت لها ليه؟.. عايز منها إيه؟!

وعاد يسحبه إليه ثم يرطمه من جديد غير آبه لعويله المستغيث:

- مش مكفيك اللي عملته.. هاه.. عايز إيه تاني؟

- عايز فل..وس..

وصل أذنيه همسه المبعثر بفزع بينما أنفه زكمتها رائحة الخمر المختلطة بأنفاسه النتنة فرمقه بازدراء قبل ما يقبض على فكه وهسيسه انبعث من بين أنفاس متوعدة:

- طب فوق كده واسمعني عشان لو عرفت أنك قربت منها ولا من أي حد يخصني وديني ماهيكفيني فيك روحك..



ثم نفضه كخرقة بالية فسقط جسده المستغيث فوق زجاجات الشراب الفارغة مصدراً ضجيج وازى خطواته الراحلة.

سحب شهيق مفعم بنسمات الفجر الباردة وجسده يدور ناحية جدار خشن يرتكز عليه بكفيه بينما بصره يعانق الأرض بلهاث متحشرج، لم يرتاح كما ظن، بين ضلوعه يكمن حجر يطبق فوق أنفاسه فأبى ألا يستريح..

- ريس حسن!

التف رأسه ناحية الصوت المألوف

فرأى_زعتر_وأسنانه المشوهة تعكس دهشة لقياه، ظل يرمقه لثوان بنظرات جامدة نفث بعدها بضع أنفاس وابتعد عن المكان برمته.

***

- أنا خايفة يامهند.

همستها بضياع وخطوتها تعود إلى الخلف توليه ظهرها، تنأى بحالها عن مرماه، فوق مقعد حديدي مثبت فوق أرض الميناء جلست وبصرها يعانق الأرض المصقلة في كآبة وثقل العبرات داعب الأجفان، عقد حاجبيه وبصره يتبعها حتى سكنت فلم يملك غير التحرك ومشاركتها الجلوس، حين طال صمتها تحركت سبابته والإبهام يرفع ذقنها مجبرا إياها على لقياه فقابله نبع القهوة غائم، حزين.. همس برجاء خفي:

- افتحي لي قلبك..



زاغ بصرها نحو السماء والكلمات تتعثر بعضة

شفاه يصحبها غصة مريرة تغلبت عليها بعد

لحظات بتنهيدة طويلة ودمعتين غادرتا منبعهم

وهطلتا على جانب وجنتيها، نبرتها بالكاد تصل

وعيناها تقابل عينيه في شتات مضاعف:

- بتغير للأسوأ يا مهند، بعدت عن كل الناس

حتى اصحابي أقرب حد ليا بوظت علاقتي بيهم..

زادت عبراتها مع قسوة القادم في قلة حيلة:

- حتى عمر! مابقتش عارفه اتعامل معاه.

نكست رأسها وظلت تبكي بحرقة وهو على

صمته، يراقب خروجها من قمقم الحزن الذي

تحبس حالها فيه، يستمع إلى ما يؤرقها ويقضي



على مضجعها، تركها حتى هدأت وارتفعت أناملها تمحي بقايا الدمعات بينما بصرها عاد يقابله في تردد إلا أن اللحظة كانت تستدعي كسر ذلك الحاجز علها بعد ذلك تصل لمعنى الراحة الحقيقي:

- بقيت أبعد عن أي حد خايفه أخسره..

وتحرك كفيها في إشارات متعثرة يشاركانها التبرير في انفعال متحشرج:

- الكل بقى شايفني وحشة بس، بس بجد مش هقدر.. مش هقدر أعيش نفس الألم مرة تانية، أني أفقد حد قريب مني.. ده إحساس فظيع.



تمت جملتها فوق صدره، يطوقها بذراعيه في نزعة حمائية خاصة ضد كل ذلك الحزن المتمكن منها، يهديها أمانه، ظهر تحتمي فيه من عراء الدنيا، يمنحها الجزء المنقوص لتكتمل لديها صورة الحياة التي تفتقدها وبشدة..

وهمسه المازح جاء ليبدد سماء الكآبه الغائمة:

- قطع لسان أي حد يقول وحشة، ده أنتِ ست الوحشات كلهم.

أفترت عنها ضحكة صغيرة من بين النحيب ودمدمت رأفة على حاله بهمس حجبه صدره ودقاتها العاصفة من فوقه:

- أنتَ إيه وقعك مع مجنونة زيي؟!



- قلبي.

قالها بتنهيدة وهمس حار فوق أذنها لتبتعد على مهل والأعين لبعضها رهينة. تعض فوق شفتها السفلى بأنفاس مضطربة وقلبٍ عاص يرقص طربا فوق أرض أحزانها. تمتمت في جدية وخجل وأناملها تعود بخصلاتها خلف أذنيها:

- بليز يامهند اسمعني.. أنا واحدة معاقة في مشاعرها، مابتعرفش تتكلم ولا تعبر يعني ممكن مش أنا البنت اللي في خيالك خالص.

- يخربيت كلاكيعك ياشيخه.

- يامهند مابهزرش!



ضحك على عصبيتها اللذيذة قبل ما يجذب كفها ويبقيه بين راحتيه قائلاً بجدية تماثل خاصتها:

- أولاً: آسف عشان ماشوفتش خوفك وخضيتك بمشاعري وطلبي المفاجيء، بس أنا كده ماعرفش أشوف حاجة اتمناها واصبر.. وأنا اتمنيتك ياغنى.

انعكست دقة قلبها داخل مقلتيها فلمعتا معا بسحر العشق بينما العاشق يتابع ولا يقل عنها شأناً:

- ثانياً: هنكسر كل مخاوفك دي سوا.. ووعد مني هحافظ على المسافة مابينا ونمشيها صحاب



ياستي لحد ماتطمني، بس ده مقابل أنك تسيبي لي نفسك عشان نعرف نوصل لبر الأمان.

وقبّل ظاهر كفها بقوة مسترسلا في تنهيده طويلة:

- ثالثاً وأخيراً: آخر مرة أرقص مع بنات حلوة غيرك.

لكمت كتفه بقبضة مكورة وغيرتها ترسم فضيحة علنية أمام عينيه الضاحكة بحلاوة تسبي القلب والروح.

تقلبت داخل فراشها الدافىء في تكاسل وعيناها الباسمة لشعاع الشمس النافذ تستدعي ذكرى ليلة البارحة بسحرها الأخاذ لتأخذ شهيقها الحالم ويدها تمتد إلى هاتفها، تتفقد صندوق



بريدها وظنها يخبرها أنه هناك.. ولم يخيب؛

فثغرها الذي أشرق بضحكة عذوب خير دليل:

" أنتِ أجازة النهاردة بأمر مني.. الساعة ٨ تكوني لابسه أحلى فستان عندك عشان حضرتي عازم معاليكي على عشاء مفتخر.. صباحك سكر"

***

الجنون قرين الحب

نكهتة اللاذعة..

هكذا يتغنى الشعراء والعشاق، ويترجمها أنس الحاضر بين صفوف محاضرة العقاقير التابعة لكلية الصيدلة والبعيد كل البعد عن مجاله وإنما هو في الأصل يعود لصاحبة العيون



الكحيلة.. وعلى ذكر صاحبة العيون مالت برأسها قليلا للخلف تلمح اضطجاعه المستريح بجانب بضع من زملائها كأنه بالفعل ينتمي للصف! عادت تستجدي بضع تركيز ناحية أستاذها في محاولة يائسة للتخلص من الشتات الذي يسببه ذلك الوقح، المتطفل، ال..

ال ماذا يا عائشة؟

نفخت في ضجر وهاتفها فوق ساقها يصدر أزيز يعلن فيه عن وصول رسالة جديدة عبر تطبيق_الواتس أب_:

- محاضرة مملة فعلا.. بس سيبك أنتِ البلوزة

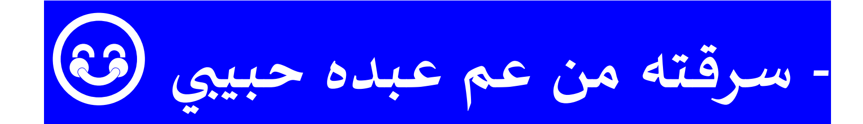


الزرقاء هتنطق وتقول ياخراشي! 😍



شهقت دون صوت وعيناها تتسع في دهشة بينما تتعرف على هوية المرسل، لم تستطع منع يدها في النقر فوق الحروف بغيظ ووجه مشتعل:

- أنتَ جبت رقمي منين!!



- يااا وقاحتك يا أخي



- شوشو ينفع أعزمك النهاردة على غداء؟

- لأ



- لأااااااااا



- كله لأه لأه.. طب ينفع كده!

ضربت الجهاز بالمنضدة أمامها عقب ما أغلقته للأبد ربما، ورغما عنها تناوش شفتيها تلك الضحكة البلهاء.

لا تدرك كنه مايحدث معها، لكنها تنجذب إليه كفراشة حول وهج النيران، تخجل من الإعتراف حتى لنفسها أنه يفتنها بوقاحته وجرأة كلماته وقد سبق وخطفها بطيفه الذي يلاحقها منذ أن بدأت عامها الجامعي الأول وأتاحت له الفرصة كاملة ببقائها وحدها داخل إحدى بيوت الطلبة بعيدًا عن المزرعة والعيون المراقبة، وكأن هناك من يردعه فحتى عطلة نهاية الأسبوع لابد من حدوث مصادفات غريبة تسقطه في طريقها حد

أنها باتت تراه أكثر من وجهها في المرآة وليته يكتفي فها هي تراه داخل الصفوف..

وماذا بعد يا أنس؟

وأنس وقف تحت أشعة الشمس الحارقة ينتظر مغادرتها لأسوار الجامعة في إصرار لايقبل التراجع، سيحدثها وجها لوجه حتى لو اضطر إلى اللجوء لأساليب لا تعجبها.. تخبط النبضات أعلن عن ظهورها أخيراً بينما تمشي وتضاحك رفيقاتها، انتظر حتى ابتعدن عن مرمى الجامعة و اقترب متبسما ملقيا التحية في براءة لا تليق:

- السلام عليكم..



تعالى صخب الصديقات ثم ابتعدن في مؤامرة شريرة منهن تاركين إياها كالفأر المبتل الذي لم يجد خلاصا غير الهرولة بالخطى ناحية مسكنها ودفترها العريض قابع بين أحضانها تحتمي فيه من ماذا؟ لاتدري..

لاحق خطواتها السريعة بأخرى حتى أصبح خلفها لايفصله عنها سوى بضع سنتيمترات ونبرته تعبر أذنيها في وضوح:

- هنقضيها جري وراء بعض كده كتير ياهانم؟

لم ترد، لا صدى غير لهاثها المتعال.. تابع في محاولة جديدة متفكهة:



- دي عزومة غداء بريئة على فكرة بلاش نيتك تحدف شمال.

تأملت خيرًا حين اقتربت من البوابة الرئيسية للبنيان لكن مالبثت أن دلفت حتى توقفت عنوة عقب ما التفت أصابعه حول ساعدها ثم زعق في جدية مزعزعة اتزانها بعقدة حاجبين مصطنعة:

- بس بقى تعبتيني!

صاحت بشراسة ورأسها يتحرك يمنة ويسرة خشية أن يراها أحدا بهكذا وضعية بوهج شمس الظهيرة دون حياء:

- شيل إيدك يا أنس مش ناقصه فضايح!



رفع منظاره الشمسي لأعلى خصلاته وعيناه تضيق فيها حتى حررها ببطء مدمدما في جدية باردة:

- بتهربي مني ليه؟ مابعضش على فكرة..

بادلت مزحته الباردة بهتاف حاد غلبت به كل شعور محتال:

- أنتَ اللي عاوز إيه؟ مش قلت لك أني مخطوبة!.. بجد عيب قوي اللي بيحصل ده.

جذب يمناها في عنف، يرفرف بكفها أمام وجهها الغاضب ويصيح هو بغيظ المحترق:



- فين دبلتك؟ مش شايفها يعني؟.. أنتِ مش مخطوبة يا عيشة بطلي ترددي الأسطوانة الهبلة دي.

خلعت كفها عنوة من بين أصابعه، ترمقه بسخط بينما نظراته لم تختلف عن خاصتها الكثير، بنبرة قانطة كررت سؤالها الخافت والميؤس منه:

- عاوز إيه يا أنس؟

صمت لبرهة اتسعت فيها إبتسامته الجذابة وكأنه آخر غير ذاك الساخط منذ لحظات، أم أنه يعاني من الشيزوفرينيا مثلا؟.. جاء همسه الجدي رغم العبث الناضح من بين نظراته:



- نقول إعجاب متبادل؟.. ومش عايز غير اتأكد اذا كان إحساسي صح ولا غلط، صعبة دي؟

شعرت بالأرض تميد من تحتها فدرات بجسدها تنوي فرار، كانت تلتهم الدرجات في قفزات متتابعه حين دارت برأسها تحدجه بنظرة أخيرة قوية لم يتبين منها شيء قبل ما تختفي من أمامه ليزفر في قنوط.. عاد بنظارته إلى عينيه بينما خطواته تتحرك إلى خارج البناية تصحبه حيرة قاتلة هي رفقيته اليوم والغد وحتى تريحه_أم العيون غزلان_بجواب.

***

تحيا داخل صومعة الانعزال التام منذ ماحدث، شاردة طيلة الوقت داخل شرنقة من صمت أو

تهرب من كل هذا بساعات من النوم المتواصل، نفذت كل محاولاته بكسر قوقعتها فلم يجد غير الإتيان بها قسرًا إلى بيت المزرعة عل تغير المكان يأتي بذا نفع معها.

بيت صغير مكون من غرفتين وصالة متوسطة مع المرافق الخاصة، فيه كل مايلزم لنفع العيش ذا طراز كلاسيكي بسيط بألوان في المجمل دافئة تليق بالجو الأشبه بالريفي ها هنا، وربما أكثر مايميزه هو انعزاله عن صخب المدينة وضوضائها الدائمة.. أخبره أنس ذات مرة أن أباه كان يقضي أغلب أيامه بين جدرانه قبل ما توافيه المنية وربما لأجل ذلك لم يرغب مرة في زيارته حتى



اقترحت ميسون الفكرة لربما حالتها النفسية تتحسن وتنسى ماحدث.

ينكفئ على حاله يعمل على إصلاح جهاز التلفاز عقب ما فككه وتحول لعدة قطع متناثرة من حوله فأصبح لا يمت لما كان عليه قبلا بصلة بينما هي تجلس ممددة ساقيها أمامها فوق الأرضية المفترشة، بصرها يعانق القمر المضيء عبر النافذة المفتوحة على مصراعيها سامحة بدخول أكبر قدر ممكن من الهواء البارد، من يرى سكونها يظن أنها تناجي القمر في جلسة سمر ساحرة لكن في الحقيقة هي كانت تراقبه في صمت فلم يعد الحكي يفيد.. بعد حين دارت إليه برأسها لتجده مازال على حاله منذ ساعات

ينكفئ على الجهاز العاطل في محاولة يائسة لإصلاحه وكأنهما بحاجة إلى تلفاز من الأساس!

كان صمته مختلف بالرغم من سعيه لإخراجها من حالة الانعزال التي تتبعها، رغم ادعائه أن شيئًا لم يحدث، أو أنه بتلك البساطة لجعله يمر دون الوقوف والاهتمام.. كان يهرب!

يهرب من عينيها حين تطيل إليه النظر، يهرب من صمتها المخبىء لبركان من كلمات لن تعود عليهما سوى باللوم وفتح صفحات ماض يأبى ألا يتركهما.

بللت جفاف شفتيها بطرف لسانها مع همس يزحف بالحروف إلى الخارج ولا تدري إلى أين تريد الوصول حتى تسأله سؤال كهذا:

- كنت مبسوط زمان؟

كان وقع السؤال على أذنيه أكثر من كاف ليرفع رأسه عما يفعل ويقابل عينيها بلوم خفي،

ذراعيها يلتفان حول بطنها المنتفخ كعادتها مؤخرًا بينما ثوبها الواسع المنقوش يفترش الأرضية من حولها.. ابتلع لعابه في عسر وعاد يتتطلع إلى مابين يديه محررا جواب هادىء.. مختصر:

- كنت مبسوط.

- ودلوقتي؟

عاجلته بآخر أكثر ضراوة عن سابقه، ترك المفك ليسقط ونهض حتى انتهى جالسا قبالتها فوق الأرضية أسفل النافذة المشرعة، سارت أنامله



على طول خصلاتها ثم ارتفعت تلامس جانب وجنتها في مداعبة ناعمة قال على أثرها ببحة خاصة يعلم أنها تفعل فيها الأفاعيل:

- دلوقتي عايش.

وكان صادق لدرجة شعرت فيها بلوع مضغتها الساكنة بين الضلوع، هربت بأنفاسها المتقطعة ناحية النافذة تبادل شعاع القمر بلمعة عبرة تمهد للهطول، بينما لسانها حرر كل ما يجول بخاطرها ويكبله قلبها في همس قاتل:

- غلطنا يا حسن، صلحنا الغلط بغلط أكبر.. كان لازم نبعد، القرب مش هيعود علينا غير بالوجع.. لا أنا هنسى ولا أنتَ هتقدر.



لم يرحمها وأصابعه تعود بوجهها إليه يجبرها على لقياه العاصفة بشتى ألوان المشاعروكلمات تندفع في انفعال:

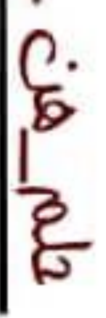
- أبعد ليه وأنا مش عايز؟

- عشان ده الصح!

صاح في عنف وقبضته تلكم الجدار بجانبه:

- يلعن أبو الصح على الغلط على الحال اللي وصلنا لكده..

ضم ساقيه لقرب صدره ورأسه منكس بينهما، يجذب خصلات شعره ويهتف بسعير من نار منبعه جوفه:





- ياريتني ما وافقتهم، ياريت ماروحت ولا أخدتك يومها..

ورفع رأسه يرمق جنتها الباكية فران صمت ثقيل، حتى همس بمرارة يستكمل جلد الذات بسوط الندم:

- ياريتني ما عرفتك ولا حبيتك..

وكان ذلك أسوء اعتراف بالحب، حمل حاله من بعده ونهض تاركًا البيت بأكمله بينما بقيت هي تلملم شتات الفؤاد المبعثر فوق أرضه..

أي رجل هذا يكون؟

كيف يقتلها ويحييها في ذات اللحظة!



كيف يجعلها تمقته ثم تعود تتنفس بعشقه من جديد؟

نهضت مسيرة تقتفي أثره بأمر من القلب المعذب، واربت الباب المغلق فوجدته يقف على بعد قريب وسط الليل البهيم، يرفع رأسه للسماء الواسعة وكأنما بدوره قرر مناجاة القمر.

اقتربت دون شعور حتى قابلت وقوفه المتصلب فما كان منه إلا أن يدنو برأسه ويلتقي بجنتيها سكناه، لتغوص بدورها في عقيقه الأسود، رأت هناك مستوطنا من الوجع والكثير من الاحتياج..

لا يهم من كان الأسبق في ضم الآخر..



يكفي أن ضمها الولِه وسكونها بين أضلعه أخبره أنها مصابة بلوكيميا العشق وقد شاع الخلل بين ثنايا الروح..

وعنه؛ فشده على خصرها ورأسه السابح في ملكوت جيدها يخبراها في همس خجل أنه مصاب بلعنة من هوى.



(٣٣)

العبرة في الدقة الأولى

أول عناق للنظرات

وأول تلاَقي للأنامل

بعدها تتوالى الدقات، يسكن الوله العيون

والشوق يغزو الكيان.. فينتهي بك المآل بقلب

خاضع لسلطان العشق.

وكانت نظرته العطشى لرؤياها تسبح فوق قسماتها في جرأة وعدم تصديق، فبعد محايلات دامت لشهرين كاملين أخيرًا قررت _أم العيون غزلان_ منحه شرف لقياها.



سحب لها المقعد كجنتلمان مهذب في حين كانت نظراتها هي مبعثرة من حولها، تتطلع بعدد الثوان يمنة ويسرى، لاتعلم هل تلك الدقائق المسروقة من قبل الزمن من حقها أم أنها تطعن ثقة والديها في مقتل بقبولها دعوته للعشاء..

لا.. بل منذ طاوعت قلبها وسارت من وراءه معصوبة العينين، واربت الباب وسمحت له أن ينفذ إلى قلبها، خطفها بقربه وكلماته فبات وجوده في يومها من ضمن أركانه وما عاد يحلو إلا به.

أليس من حقها أن تختار برفقة من تشرك عمرها؟



أليس من حقها أن تعيش هاته اللحظات؟

وبالرغم من كل تلك النوازع بداخلها إلا أن حلاوة اللحظة كانت تستدعي أن تعود له بعد قلق طال وحروفه العابثة تجذبها:

- يارب تهدي بدأت أحس أني خاطفك.

وعادت نبرته تتغلغل إليها وتمس كيانها بينما جذعه يميل فوق المائدة مقلصًا مابينهم من مسافة:

- مفيش حد هنا يعرفك ولا شايفك غيري.

تكفلت ببسمة صغيرة، مرتبكة، دارتها بحدة النبرة وقلبها يقرع كطبول حرب:

- أعمل إيه يعني دي أول مرة أخرج فيها مع ولد.

- ولد!!

قالها مستنكرا فدارت حرجها بعقدة حاجبين وساعدين بينما رأسها يلتف جانبا بشفاه مزمومه، تنهد في قلة حيلة، يعلم أنها رضخت بعد إصرار من قبله وتشيجع صديقاتها الآئي يدعمنه وبشدة ومؤكد تلعن حالها في هاته اللحظة، كما يعلم أنه يحاصرها ويتقن لف شباكه من حولها، لكن ماعساه يفعل وهي باتت تستوطنه؟

سكر أيامه الذي أدمنه دون شعور..

تسربلت إلى داخله دون جهد فأصبح الأعجاب المتبادل في غضون أسابيع مشاعر حية تمنحهما معا نفحة من السعادة.



- تحبي نمشي؟

همس برجاء خائب، فقد ضاع حلم الأمسية الأولى بملامحها القلقه والضيق الذي يتلبسها، ولم تحتاج لأكثر من ذلك حتى تحرك له رأسها في إيجاب وعيناها تقابل عيناه العاشقة في إمتنان.

أمام البناية ودعها بهمس مغتاظ ألبسه ثوب الفكاهه:

- ميرسي على السهرة الفظيعة دي.

زينت محياها ببسمة آخاذه لتهمس:

- متزعلش.

بادل بسمتها بأخرى وأنامله تتجرأ وتعانق أناملها عنوة مع همس حار:



- مقدرش أزعل منك.

سحبت يدها وضحكتها تتراقص فوق ثغرها بينما تستدير بجسدها وتخطو إلى الداخل، وماكادت تصل إلى البوابة حتى عادت خطواتها الثلاث بوجه غير الذي راحت فيه:

- ينفع أقولك حاجة؟..

اقترب بغتةً حتى كاد أن يلاحمها وهمس بأمل يائس:

- ياستي قولي حاجات مش حاجة واحدة بس.

عضت فوق شفتها ونكست برأسها في تردد، ابتهلت بداخلها وسألت ربها الثبات قبل ما تهتف في تلعثم:



- هاني ابن عمتي نزل مصر.

في التو تجهمت قسماته وتلاقت ضروسه في إنفعال حاد:

- وبعدين يعني نعمله إيه سي زفت؟!

هتفت بحنق مماثل:

- لو هتتكلم بالأسلوب ده يبقى أنا آسفة أني تكلمت معاك أصلا وأتفضل أمشي.

- متستفزنيش يا عيشة!

- مش بستفزك يا أنس بس أنا في ورطة حقيقية، كونك مش معترف بيها ده مش هيقلل من حجم الكارثة اللي هتحصل.



قالت كلماتها بكدر وعادت للخلف حتى جلست فوق درجات السلم، استهلكت طاقتها من كثرة التفكير، فمنذ وصوله فجر اليوم ولم يتوقف هاتفها عن الرنين، مرة أبيها وأخرى عمتها وأخيرة من هاني نفسه، كلمات مبطنة تنبأ عن حدث سعيد عما قريب، ومالا يعلمه أنس أن سبب موافقتها لدعوته كان بغية في التحرر من كل ذلك الحصار الذي تحياه، أرادت أن تحيا بضع لحظات تسعدها لشخصها دون الإلتفات لعواقب ذلك لكن ما كان منها الا أن خربتها لا أكثر.

جاورها فوق الدرج مطلقًا زفير طويل حتى قال بعد حين بجفاء:

- قولي لهم مش عايزه أتجوز.. معقول يغصبوكي على حاجة مش عيزاها؟

تطلعت إلى جانب وجهه المشدود في محاولة للسيطرة على الغضب حتى قالت:

- أنتَ متعرفش بابا وعمتو علاقتهم قوية إزاي ببعض، الكل بيتعامل معايا كأنه شيء مفروغ منه، حتى لما بلمح وأقول أني رافضه بياخدوا الكلام على أنه دلع بنات.

زمجر:

- أنا بجد هتجنن هما بيفكروا إزاي!

ثم استطرد في جدية:



- إسمعي مني وخليني أكلم باباكي ونحط حد لكل الهبل ده.

هتفت بقوة وأصابعها تغرز في ساعده:

- إوعى يا أنس، أي كلام منك دلوقتي هيعقد الدنيا أكتر.

- طيب وبعدين.. إيه الحل؟

- مافيش، لما يتكلموا معايا رسمي هوصلهم رفضي بشكل قاطع وربنا يستر بقى.

نفخ وبصره يعلو نحو السماء في سأم وضيق فجاءت نبرتها الخائفة تتسربل في نعومة:

- أنا بعمل كل ده عشانك.



فما كان منه إلا أن يغادر سحر النجوم ويلاقي سحر قمريه في صدق ناسب اللحظة:

- وأنا عمري ما هخذلك.

***

ويحدث أن يأتيك الخذلان من الحياة..

حين ترسم أحلامك بريشة من أمل وما إن تلامسها تتضح لك الصورة كوهم خادع ويذهب كافة شيء ادراج الرياح وتعود حينها كما كنت بلا أحلام.. لا يمكنك إلقاء اللوم على أحد لأنه فقط عدم وفاق أو كما يقولون.. قسمة ونصيب.



فاجئته رؤيتها لا ينكر، كم مر من الوقت وهي جليسته ومازال لا يستوعب سبب زيارتها لمقر عمله والغير مفسر حتى اللحظة..

كان يتلاعب بالقلم بين أصابعه حين دمدت ببحة خاصة عقب صمت لم يطل:

- شكلك مرتاح في الشغل هنا.. وشك باين عليه.

حك جبينه دون حاجة وقسرا رسم إبتسامة مصطنعة ليهتف في إختصار:

- الحمد لله.

- أنتَ بجد تستاهل كل خير.



نهض من فوق كرسيه ودار حول المكتب حتى جاورها، طالعها من علو وغمغم بضيق فشل في مداراته:

- أنتِ جايه ليه يا أنجي؟

استقامت بدورها تقابل ملامحه المتغضنة وتهتف بنبرة متعالية، مستنكره:

- أنتَ متضايق من وجودي يا ماهر!

زاغ بصره من حولها مطلقا زفير طويل متبعا درب الصمت، وماذا عساه يقول؟ هل يخبرها أنها تذكره بفشله!



فشل في صنع حياة أرادها وبشدة، أنه وبعد عام واحد من الزواج لم يعد حلم العائلة من ضمن أولوياته..

تقربت خطوة تنوي بها إصلاح ما خربت يداها، تعترف أنها تسرعت في طلبها للطلاق كان يكفي أن يبتعدان لفترة ثم تعود بهم الحياة إلى مراسيها.. هي تسرعت وهو لم يتوانى.

- أنا آسفة ياماهر، عارفة أن الطلاق كان رغبتي لكن أنا معترفة دلوقتي أنه كان قرار غلط..

حرك رأسه في يأس ومبسم ساخر حين تابعت في شيء من بداهة.. أو سذاجة:



- بس أنتَ كمان غلطت لما وافقت بسهولة.. على العموم الحياة لسه قدامنا ونقدر نعوض كل حاجه لما نرجع لبعض و..

قاطعها بحدة:

- نرجع!!

انتفضت في وقفتها إثر نبرته الحادة وهمست في تردد:

- أنا حياتي واقفه من بعدك، وأنتَ كمان حياتك..

قاطعها ثانيةً بكف قابل وجهها في صرامة:

- ملكيش دعوة بحياتي يا إنجي ومن فضلك اقفلي السيرة دي.



إقتربت في إصرار أكبر وأناملها تلامس أزرار قميصه مع نبرة بطنها الرجاء الناعم كأمل واه:

- ليه بتقول كده يا ماهر، أنا لسه بحبك وبجد نفسي نرجع لبعض.

- أعمل حسابك يا أستاذ... آوه.. أنا آسفه ماكونتش أعرف أن عندك حد.. سوري مرة تانية.

كانت المقاطعة الثالثة والحرجة من نصيب ميسون التي اقتحمت غرفة مكتبه عقب طرقه سريعة لتصدمها رؤية تلك المرأة التي تتعلق في قميصه وترجوه بنبرة وصلتها مائعة فما كان منها إلا أن تلقي بإعتذارها الملعثم دون إنتظار وتغلق الباب من خلفها.

أبعد أناملها العالقة بينما ينهرها بفظاظه:

- أنتِ بجد مش معقولة!.. إمبارح طلقني يا ماهر والنهاردة يلا نرجع، لا وبتتكلمي بكل بساطة كأن الموضوع كله دوست زرار.

رفعت رأسها بكبرياء مذبوح وقد اغاظها بإبتعاده:

- عايز تفهمني أنك بترفضي؟.. أنا إنجي العلاليلي!

- أنا برفض الفشل يا إنجي، وحياتنا سوا عبارة عن دوامة فشل مالهاش نهاية.

لم تصله غمغمتها الحانقة وهي تضرب الأرض بكعب حذائها لتغادر بزوبعة غاضبة تاركه إياه من خلفها مجرد من كل شعور.

***



بساق مهتز كانت تضرب الأرض بعدد الثوان وأنامل تضرب فوق مفاتيح الحاسوب بنصف وعي، حالة من النكران تتلبسها، كأن من رأته لم يكن نفس الشخص الذي تعرفه.. ماهر الصديق قبل الزميل، كيف أثر وجوده الخفيف على المحيط بأكمله، لم يتبقى عامل ولا موظف إلا وكان له نصيب من رفقته، كسب محبة وإحترام الجميع بحلاوة روحه، وهي حتما ليست استثناء فقد كان لها الصديق خارج إطار العمل، قربتهم الهوايات المشتركة حد التآلف والألفة والإنسجام الذي أتاحه مجتمعهم المنفتح ولم يتخطى حتما حدود الإحترام.



لا تدرك معنى لضيقها الذي يشعل جمر بروحها، ولا تسمع غير صدى الكلمات التي وصلتها دون قصد..

هل كانت تطلب منه الرجوع؟

بل ترجوه إن صح التعبير!

شعرت بالغثيان والصورة الحرجة ترتسم أمامها، كيف لامرأة أن تتعلق هكذا برجل متسلحة بالغواية في رجاء كأنما تتوسله؟

صحيح هي حمقاء أنها تنازلت من البداية عن رجل مثل ماهر، لكن وإن يكن؟ ما رأته كان تقليل من شأنها ولكرامتها، فكيف بالله ترضى!



انتشلها من غيابت شرودها طرقات الباب المتناغمة ولم يحتاج الأمر كثيرًا لترى هوية الدخيل، وكأن عبث خيالاتها إجتمع ليحضر أمامها بملامحه المعتاده كما عرفتها كل يوم..

- ممكن اللاب خمسة؟.. الsystem عندي مش شغال، فهرفع شغل من لابك..

أومأت له موافقة وأفسحت له المجال، جلس على حافة المكتب ورفع الجهاز فوق ساقه ينقر فوقه في تركيز لم يتأثر بحديثه:

- اختارتي فيلم ولا لسه؟

رسمت التشاغل بالنقر فوق شاشة هاتفها بينما تجيب:



- لا أنا مشغولة ومش هينفع النهاردة.

- قصدك بتهربي عشان الدفع عليكِ المرة دي.

باغتها بنبرته المرحه وحاجبه المرفوع في تحد لتقابل كل هذا بإنفعال وليد:

- أكيد مش كده بس ماليش مزاج أخرج النهاردة.. عادي يعني.

راقب انفعالها حتى إنتهى ثم أغلق الجهاز وتركه فوق سطح المكتب، نهض من جلوسه يدور حول المكتب حتى وصل على مقربة منها فمال بجذعه بعض الشيء مرتكزًا بكفيه فوق السطح الأملس، تلكأ بنظراته فوق قسماتها ثم هتف دون مقدمات:



- حكايتي مع إنجي خلصت ومستحيل يكون لها جزء تاني.

- مادخلنيش في حياتك الشخصية، أنا مطلبتش ده!

صدته بحنق سريع فكاد أن يقتلها بهدوءه:

- عارف.. ومع ذلك يهمني تعرفي.

ابتعد بقناع الهدوء تحت نظراتها المتعجبة وعند الباب استدار وهتف بغمزة عين وشقاوة آمره:

- هنروح سينما.. والحساب عليّ يا بخيلة.

واختفى عقب ما افتعل بالقلب شرارة.. هي فقط مجرد بداية.

***

والبدايات دومًا يتبعها بعثرة

بعثرة مشاعر.. بعثرة كيان

وبعثرة حروف مع كفين يشاركانها لحظة البوح في غمرة سعادة:

- مش عارفة يا نسمة بس أنا مبسوطة.

ونسمة تكور كفها أسفل ذقنها في إنصات تام لإعتراف مبعثر، لم يصرح لسانها وخجل لكن فضحتها عيناها وقالت مواويل، سمعتها حتى انتهت وما ان فعلت حتى قالت بعتاب مازح:

- يظهر أن الأستاذ مهند أخد مكانتي عندك كمان.

- لا طبعًا، ولا حد يجرأ أصلا!



نهضتا سويًا تتبادلان عناق حار همست نسمة من بينه:

- من زمان ماشفتكيش مبسوطة كده، ماتعرفيش ده فرحني قد إيه.

إبتعدت غنى ترمش بأهدابها وتسحب شهيق بضحكة آخاذه:

- أنا بحبك.

تعالى صخب الضحكات تحت أنظار سماح المراقبة، تتدعي التشاغل بين أركان المتجر منذ دلوف الضيفة لكن في الحقيقية كانت أذنيها حاضره مع الحديث الدائر، وكانت أصابعها

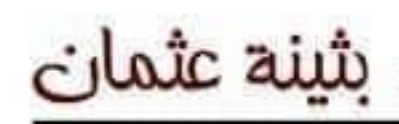


تتشاغل في تزيين قالب كعك حين هتفت بنبرة متمهلة لفتت الأنظار:

- بس خلي بالك رجالة اليومين دول ساعات يطلعوا قشرة.

عضت نسمة فوق شفتها، تعرف سماح ومقصد حديثها لكن غنى حتما لم تعرفها كفاية فعدد اللقاءات القليلة التي جمعتهم منذ إفتتاح المتجر ليست كافية لتفهم بساطة كلماتها وسلامة نيتها، وإن فاجئتها بساطة سماح المعهودة فتباسط غنى التي سارت حتى جاورتها فوق مقعد من خلف الفاترينه التي تعمل فوقها صدمها بحق قبل ما تسأل في براءة:

- تقصدي إيه يا سماح؟



وسماح تركت مابيدها ومالت بجذعها، تقترب منها وتسقيها من كأس خبرتها:

- أقصد قبل ما تنوليه المراد تعرفي ميته، هل هو راجل ولا لامؤاخذة.. بخيل ولا ايده فرطه.. ابن أصول ولا اصله واطي!

فغرت غنى فاها في عدم استيعاب بينما ضحكة نسمة تشق السكون وكفها القابع فوق ثغرها فشل في كبحها، همست غنى بعد حين و كفيها يتعانقان فوق صدرها بينما عيناها تلمع بنشوة العشق:

- هو أنا مش فاهمة قصدك قوي، بس يعني مهند جنتلمان ومستحيل يكون اللي بتقوليه ده يا سماح.



وعلى مايبدو ليست سماح وحدها من كانت تسترق السمع، فزوزو جهرت بصوتها الكئيب في توضيح ينبأ عن سلامة فهمها:

- أبلة سماح قصدها تخلي بالك ليكون بيضحك عليكِ ولا حاجة وأنتِ حلوة كده وزي القمر.

شهقت غنى دون صوت بينما كف نسمة يلوح لها من بعيد أن لا تأبه لحديثهم ولا تأخذه على محمل الجد، وكان رنين هاتفها خير منقذ، حملت حالها وودعتهم بإبتسامة جذابة مع وعد بزيارة مماثلة قريبة.

ما إن اختفت حتى مصمصت سماح شفتيها في حسرة غير مفسره:



- البت عاملة زي البسكويته الدايبة، ربنا يستر لو طلع ابن كلب مش هتاخد في إيده غلوة.

- يالهوي عليكِ يا سماح إيه كل السيناريوهات الكئيبه دي؟

- أصل أنتِ ماتعرفيش، ولاد العز دول دايما يطلعوا استغفر الله يعني مش تمام.

حركت رأسها ضاحكة في يأس:

- كتر خيرك ياستي بس سيبي صحبتي في حالها، وبعدين مش كان عندك حنة باين ولا إيه؟ يلا روحي عشان متتأخريش.

- هخلص اللي في إيدي وأمشي على طول.

- لا سيبي أنا هخلصه.



وتحركت تأخذ مكانها، حتى ودعتهم كما فعلت غنى منذ قليل.. لفت إنتباها صمت زوزو الغير معتاد فمنذ الصباح وهي بمزاج عكر ولا تتحدث إلا القليل..

سألت بحنو وإبتسامة هادئة:

- مالك يا زوزو، في حد مزعلك؟

أجابتها بتنهيدة و وجه كالح:

- وهي الدنيا دي فيها إيه يفرح.

- ياساتر يارب.. ليه بس بتقولي كده؟

هتفت بحنق واوداج منتفخه:



- الولا حماده جه يخطبني امبارح بس اللهي يجحمه اللهي يدوسه قطر من غير قضبان؛ اللي مايتسمى جوز أمي طرده.

تخلت نسمة عما تفعل وراحت إليها، تهدأ من انفعالها الغاضب بربتة كتف حانية:

- طيب ممكن ماتزعليش؟ وبعدين جواز إيه في السن ده! يابنتي أنتِ يدوب خمستاشر سنة وكام شهر، ثم إحنا اتفقنا أنك تبطلي تفكري في الموضوع ده ونأجله لوقته.. رجعتي في كلامك ليه؟

- زهقت يا أبلة، أنا عايشه مرمطون لأمي وجوزها اللي عايز يربطني جنبه كده طول العمر



عشان بجيب له قرشين كل شهر وأنا لو فضلت على الحال ده آخرتها يا يقتلني يا اقتله!

- مين ده اللي عاوزه تقتليه يامجرمة؟

هتف بها حسن الذي دلف للتو على سيرة القتل والوعيد لتقابله نسمة الواقفة بحركة كتفين قليلة الحيلة بمعنى أنها ذات المشكلة، زوزو وزوج أمها وسلسال من المعارك المتصلة، بينما زوزو قررت الغوص داخل بؤرة النكد بكف مكور أسفل وجنتها تبعته بتنهيدة طويلة وصمت مطبق، زوى مابين حاجبيه وجاورهم حول المنضدة المستديرة، متسائلا في جدية:

- ضربك؟



- وإيه الجديد ما كل يوم يضربني.

ربتت نسمة فوق كتفها من جديد في تأثر نقشته ملامحها بينما عينيها تتبع عيني زوجها في استغاثة صامتة.. حتى قال:

- وأمك فين؟ مبتقفلوش ليه؟

- أمي إيه بس وهو ده حد يقدر يقف له.

ربت فوق رأسها في مرضاة، وقد نجحت في استدرار عاطفته وحمائيته:

- طيب أنا هكلمه وأشوف لك صرفه معاه الخسيس ده.

أشرقت ضحكتها وكفها يجتمعان في دعاء مسموع:



- روح ياشيخ اللهي يسترك، اللهي يطعمك مايحوجك ويجبر بخاطرك زي ما جبرت بخاطري يا حسن يا ابن... هي أمك اسمها إيه؟!

رفع لها حاجب شرير مع نبرة غليظة.. مازحه:

- خدتي عليَّ قوي أنتِ، بس إن شاء الله هقص لسانك الطويل ده قريب.

- والنبي عسل، ما تتجوزني أنتَ ولك الأجر والثواب؟

سايرها بأسف مصطنع:

- ولما جوز أمك يطردني، ترضيهالي؟

خططت في ثوان:

- لا ما احنا نحطه قدام الأمر الواقع!

- وإزاي بقى؟

سألتها نسمة التي تتابع الحوار الدائر من بين كآبه وجدية لينتهي بمزاح عابث من كلا الطرفين، وكان جواب زوزو البديهي حاضر كالعادة:

- أهرب ونتجوز في السر.

ضحك حسن حتى بانت نواجذه، يسحب زوجته إلى صدره قائلا في مرح:

- طيب ونكسر قلب المسكينة دي وهي على وش ولادة كده، مش يبقى حرام يا زوزو؟

حركت نسمة رأسها في إيجاب وشفاه مقلوبه في تأكيد للحزن الذي أصابها وقد شاركتهم



التمثيلية المبتذلة لتتراجع زوزو بكف لوح في قهر:

- خلاص إشبعوا ببعض بقى وأنا ربنا يتولاني.

تعالت ضحكاتهم بصخب فمن يراها يظن أنها تتحدث بجدية، لديها قدرات هائلة في التمثيل تلك الفتاة.. هذا ما اجتمعا عليه قبل مغادرتهم من المتجر بأيدي متعانقة.

***

لم تختزل الحياة الزوجية يومًا في عناق حان وقبلة جبين، دوما هناك صدع، انعطاف يغير مجرى الأيام لتنقلب الوردية الحالمة لواقع أسود مرير..



وذلك ليس بواقع وفقط بل بركان واندلع في عقر بيتها، هيئته الثائرة بجنون تراها لأول مرة ولولا أنها تراها بعينها لما صدقت.

كانت تقابله داخل عباءتها السمراء المشعثه بأزرارها المفتوحه لتكشف عن ثوبها المطرز من تحتها، ثوب ذا لون زاهي يذكرها بحفل الحناء الذي كانت فيه منذ وقت قصير وتحول من بعدها لمعركة محتدمة.

- أنتِ أكيد اتهبلتي ولا حصل في عقلك حاجة!..

وعاد يصرخ في مجون؛ دون تصديق وقد خلع الحليم ثوبه:

- أنا على آخر الزمن يتقالي إلحق مراتك بتتخانق!



ضرب بكفيه فوق مائدة الطعام ثم مال ينكس برأسه بينما الصورة المخزيه ترتسم أمام ناظريه فلا تزيد سوى من سعير نيرانه.

تنتفض كل خلية في كيانها، مبعثرة الحروف والأفكار، مشتته بين الصواب والخطأ..

لكن ما عساه يريدها أن تفعل عقب ما سمعت من كلمات سممت بدنها!

كانت فرحه بالدعوة، أول مناسبة عائلية تحضرها عقب زواجها، حمسها زوجها للذهاب وساندته حماتها المريضة، تزينت بأجمل ثيابها ولبست حليها، رتبت مظهرها حتى نالت عين الرضى ولم تنسى الصغيرة فكان لها نصيب من الإهتمام، كان كل شيء يسير على مايرام حتى



حضرت تلك ال"نجلاء" لم تلتفت كثيرًا لبرود نبرتها وسلامها، انسجمت مع بهجة العروس وأخذها حماس الأجواء حتى ذهبت لدورة المياة وفي طريق عودتها فاجئها ظهور تلك السخيفة خالة أميرة..

تقطع عليها الطريق بنظرة استعلاء واضحة وتهمس في شيطنة امرأة غيور:

" بالذمة أحمد عجبه إيه فيكي؟.. سوري يعني بصيت مالقتش حاجة تستاهل!"

"نعم!!"

بالرغم من دمها الذي ضرب بنافوخها إلا أن حرمة البيت الذي فيه وجبت عليها أن تتشبث



بآخر ذرة للصبر وتقرر السير دون اعطاءها أي قيمة عقب ما حدجتها بنظرة قاتلة، لكنها مالبثت أن تخطو حتى توقفت مع انبعاث الكلمات المهينة:

"سمعت أنك كنتِ بتشتغلي امممم خدامة؟.. خدامة تغسل وتنضف البيوت وكده صح؟ طيب مافكرتيش مرة أن أحمد مش شايفك أكتر من كده؟..

إرتج رأسها والتف ناحيتها من جديد في صدمة لم تنجح في تداركها لتستطرد الأخرى بمهانة أكبر:

"على العموم مسيره يعرف غلطته ويصلحها"



كمن كبل لسانها، كل خلية فيها أصابها الخرس وكانت تلك لحظة نصر للآخرى فستغلتها خير استغلال، دارت من حولها في بطء متظاهرة بالنظر إلى أظافرها المطلية وكلمات جديدة بطنتها بثعلبة ماكره:

"صحيح هو أحمد ماقلكيش على مشروع الجواز اللي كان بينا؟"

بالكاد خرجت أنفاسها المتحشرجة، وعبرات ساخنة؛ لعينة تناوش الأجفان بحرقة موجعة.. متى تركتها تلك الحقيرة؟ ومابالها تقف هكذا كتمثال شمع لا حول له ولا قوة!

لم تستفق إلا وكف أميرة يلامس كفها، طالعت الصغيرة بتيه فقابلتها بنظرات قلقه، حالة

الجمود التي تتلبسها كفيلة بإثارة شفقة الصغير
قبل الكبير، ملأت رئتيها بالهواء دفعة واحدة
وأخبرت الصغيرة بإختصار أن عليهم الرحيل،
تحركت بآليه وبصر لايقوى على النظر تبحث عن
عباءتها لكن ما لم يكن في الحسبان أن تصل
الجرأة بتلك الحقيرة أن ترفع بقدمها في طريقها
عن قصد، تفتعل لها فضيحة بسقوط وسط
النسوة لكن رد الله كيدها حين نجحت في موازنة
جسدها بآخر لحظة، وما إن استقامت لم تدري
بحالها إلا وكفها يقتلع خصلات نجلاء من
منبتهم، نشب بعدها حراك ساخن كانت الغلبة
فيه لسماح المشتعلة أوداجها غضبا، بالكاد فرق
بينهم الحضور لتتعالى بعدها الهمزات واللمزات



وتفزع هي لإختفاء الصغيرة التي فزعت من قبلها، ارتدت عباءتها على عجل وركضت نحو الخارج على أمل إيجادها.. وكانت هناك أمام البيت تقف جوار أبيها الذي كانت تنضح معالمه بغضب أسود، غضب أجاد تفريغه فوق رأسها..

- أنا.. أنا..

إقتربت في حذر وكفها يرتفع ببطء في محاولة لمس كتفه المحني لكنها ما إن همست حتى إعتدل ليصرخ في وجهها دون شعور:

- أنتِ فضحتيني!

هنا هطلت دموعها مدرارا، وحاولت الحديث فظهرت حروفها متلعثمة من بين شهقاتها:



- أنتَ متعرفش.. أنا معملتش حاجة.. دي هي.. هي اللي..

وسكتت تتجرع وجيعتها في صمت، بينما تقدم هو يجذبها من كتفيها بقسوة، يهتف بعيون متحجرة بقهر:

- كفاية قوي أعرف أن سيرة مراتي هتكون على لسان الكل الليلة.. كفاية أعرف أن المدام المحترمة عاملة فيها فتوة!

- بس بقى!!

صرخت ودفعت به عنها بقوة كفيها، ارتد خطوة للخلف بينما ظلت هي مكانها تبدأ وصلتها الصارخة بقهر من بين دموعها:



- عمال تهين وتجرح ومفكرتش لثانية أني ممكن أكون مظلومة!..

وصمتت لبرهة تلتقط فيها أنفاسها الهاربة، تقطع سيل الدمع في قسوة بظهر كفها بينما تتابع بغيظ قاتم:

- وبعدين أنتَ مقولتليش ليه أنك كنت ناوي تتجوز بنت الكلب دي!.. هاه.. داريت عني ليه؟ ولا حلو دور المغفلة اللي كنت معيشني فيه!

نظرتها ونبرتها المحترقة تخبراه أن تلك النجلاء تلاعبت في عقلها بالكلمات كما تجيد أن تفعل دائمًا، وربما أخبرتها أنه طلب الزواج منها وهي من رفضت! فمن المحال أن تخبر أحدًا بحقيقة



عرضها نفسها عليه عقب وفاة شقيقتها بشهر واحد فقط!

لم يستوعب صدمته حينها، تلك الصغيرة التي لطالما رأها كأخت ثالثة تطلبه كزوج دون حياء مدعيه أنها الأمثل؛ ومن مثلها يراعي ابنة شقيقتها؟

لكنه لم يجد صدى لفعلتها تلك غير العزوف عنها نهائيا، حتى ابنته خفف من ذهابها إلى بيت جدتها تفاديا للإحتكاك بخالتها المخبولة لكنها لم تهدأ حتى نالت على وظيفة بنفس مدرسة الصغيرة ومنذ حينها وهو على دراية تامة أنها تتقصى أخباره بشكل يومي عن طريق ابنته فما



كان منه الا أن تركها تحيا جنونها الخاص مع نفسها دون الاكتراث.

كما سيتركها هاته اللحظة أيضًا ويتبع دربه الخاص برفقة مجنونة أخرى تسعى لخراب بيتها بيديها:

- زي ما أنتِ خبيتي حقيقة سجن أخوكي.

وتلك صدمة أخرى لليلتها الاستثنائية، ارتدت رأسها للخلف تبتلع لعابها في عسر، عينيها تفيض بدمع جديد مبادلة إياه النظرات الجريحة.. هل تؤلمها تلك الحقيقة؟ أم يؤلمها تأكيده على كلام تلك النجلاء!

قالت بعد حين بإنكسار مشتت ودمع جارح:



- هانتني.. قالت عني خدامة.. حستتني أني مساويش..

وغصت شهقتها مع استطرادتها الأخيرة:

- صغرتني قدام نفسي!

ظل يرمقها للحظات في صمت، تشرب ملامحها المقهورة بقهر آخر، ليذكر نفسه أن صفعت الإفاقة قد حانت:

- ماحدش صغرك يا سماح، أنتِ اللي صغرتي نفسك وصغرتيني معاكي.

قالها بقسوة غير آبه لنظراتها المتحسرة لينزل الستار بجفاء قاتل شطر أحلى مافيها لنصفين:

- أول مرة أندم على حاجة أختارها.



وشملها بنظرة أخيرة كانت القاصمة والتتمة لجملته الأخيرة، راقبت ابتعاده حتى أختفى خلف باب ابنته الغائبة برفقة جدتها بالأسفل، تركها وحدها تعاني صراع ساحق، تركها وحدها فريسة لأحرفه القاتلة، تركها تتجرع جملته الأخيرة وترتشف حروفها على مهل فتسقيهم بملوحة دمعاتها..

وكان ذلك كاف لتعيد هندمة عباءتها بأصابع خرقاء وتغادر البيت في صمت.

***

والصمت هو حليفك الوحيد حين تفقد كل دوافعك



وهي لم تكن تملك أي دوافع غير أنها لا تريد!

بوجه متورم من كثرة البكاء قابلته، فزع لمظهرها وقبل ما يلفظ سؤاله المتوجس جاء التفسير المنطقي لما يراه عبر شفتيها تزينه ملوحة العبرات:

- البيت قايد حريقة من إمبارح.. بابا مخاصمني وعمتو مش ساكته.. الكل ضدي وأنا مش عارفة أعمل إيه!

كان يعلم أن الحرب ستبدأ برجوع ذلك الهاني، حربه الخاصة وإن لم يظهر في كادر الصورة بعد لكنها كذلك بالنسبة له، بل هي كذلك منذ أن قرر القلب وإستحكم فأختار وفي حضرة السلطان أنت لا تملك قرار.. أنت تتخذ القرارات قيد التنفيذ دون تفكير:

- الليلة هطلب إيدك من والدك.

- كده هتولع النار بزيادة.

- في حل تاني؟!

حركت كتفيها في قلة حيلة وعينيها الغائرة بدمع ثقيل، تهمس له في تحشرج عاجز:

- ماعرفش، بس مش عايزه أتجوزه يا أنس.

رفع كفه يحيط بجانب وجنتها الغارقه بدمعها في اقتراب تبيحه شريعة القلب، ووعد لم يلفظ صراحة لكن هدرت به الكلمات المتملكة بإندفاع شاب يعيش مع قلبه أولى حكاياته:

- على جثتي تكوني لحد غيري!



"هو ده بقى العيل اللي رفضتيني ومزعله الكل عشانه!!"

وعلى الصوت الدخيل إلتفت رؤوسهم بحدة ليسقط قلبها عند قدميها وقد تقابل الغريمان في تحد نظرات تلون بوعيد قاتل.



(٣٤)

نولد مرة واحدة

نحيا مرة واحدة

ونحب مرات!

العطاء جوهر الحب.. وكلما أحببت أعطيت أكثر حد التفاني، حد اللانهاية..

إذن أنتَ بالفعل تحب ذات الشخص مرات ومرات.

ومن منا لا يتمسك بعطايا الحياة النفيسة؟

كانت في عينه قطعة ثمينة من بين أخريات مزخرفين من الخارج دون جوهر حقيقي، وحدها حركت مياه قلبه الراكدة ففزع لها سائر الجسد،

ملأت فراغ روحه وسدت عنه كل عوز وإحتياج حتى أصبحت عيناه لاترى غيرها وأذنه لا تطرب إلا لصوتها..

ثقتها فيه والتي تعكسها عيناها تولد فيه شخص آخر بعمر مضاعف يشعره أنه أهلًا لحبها وثقتها، رجلًا بات يحمل بين عينيه هدف لا يحيا عبثًا وقد ألبسته ثوب المسؤولية، علمته دون أن تدري كيف يكون صاحب وعد صادق لا يخون.

رجلًا يعرف متى يكون وقت الحاجة..

ولا حاجة أكثر من صوتها الباكي الذي ناشده صمتًا فكان لها حاضرًا دون تأخير، لا حاجة أكثر من نفسها الكسيرة بنيران العجز وقلة الحيلة



بينما عينيها الكحيلة غائرة بدمع ثقيل حين همست له في تحشرج عاجز:

- ماعرفش، بس مش عايزه أتجوزه يا أنس.

رفع كفه يحيط بجانب وجنتها الغارقة بدمعها في إقتراب تبيحه شريعة القلب، ووعد لم يلفظ صراحة لكن هدرت به الكلمات المتملكة باندفاع شاب يعيش مع قلبه أولى حكاياته:

- على جثتي تكوني لحد غيري!

"هو ده بقى العيل إللي رفضتيني ومزعله الكل عشانه!!"



وعلى الصوت الدخيل إلتفت رؤوسهم بحدة ليسقط قلبها عند قدميها وقد تقابل الغريمان في تحد نظرات تلونت بوعيد قاتل.

وعيد ابتدأه هاني الثائر الرابض على بعد خطوات من بيت خاله، يستمع لحديث العاشقان الغافلين عن وجوده، لتتأكد شكوكه الداخلية وتصبح في حيز حقيقة ملموس، فهي لم تكن لترفضه وتصر على رفضها إلا لو كان هناك آخر.

تقدم خطوة وثانية وبصره يلقي بسهامه الحامية من خلف كتف أنس الواجم حتى اللحظة فوق ابنة خاله وكلمات لوثتها نيران خيبته وقهره الداخلي:



- تستغلي غياب خالي عشان تقابلي عشيقك يا... محترمة!

- أنتَ اتجننت ياحيوان!

وكانت تلك زعقة أنس الغاضبة بينما كفه يدفع بها ناحية بابها مع زعقة أخرى طالتها في أمر حاد والتفاتة رأس:

- أدخلي جوه..

كانت تتنفس بصعوبة بعيون جاحظة غير مصدقه لوجود ابن عمتها، جسدها ينتفض في تيبس بينما الكلمات اللآذعة تندفع بحقد هازىء وغيرة سوداء كادت أن تصيبها في مقتل:



- وتدخل ليه؟ أنا همشي وأسيبكم براحتكم واهو اللي مايشتري يتفرج.

ثم حدجها بنظرة قاتلة أو متوعدة ربما، الأهم أنه استدار عنهم ببساطة.. ورحل!

ظلت تتبع خياله المتحرك حتى أختفى وعم الصمت الا من هدر خافقها المستغيث، عادت برأسها إلى أنس الجامد بدوره وكفها يضرب وجنتها دون وعي ونظرات الهلع في عينيها تحاكي الكثير:

- روحت في داهية، هيقول لبابا ويفضحني.. بصته دي بتقول أنه ناوي على شر!

- بطلي ندب وأدخلي حاااالا!



صرخ في وجهها وأصابع كفه المتشنجة أمام وجهها تخبرها أن ذلك أسلم حل تتبعه في هاته اللحظة. أختفت من أمامه وصوت بكاءها من خلف الباب الموصد يخترق مسامعه لتزيد من عجزه. مشدوها غرز أصابعه في خصلات رأسه. اخذ يتحرك في خطوات متباطئة والأفكار تتزاحم داخل عقله. يجب أن ينهي المسألة في أقرب وقت. عليه أن يتحدث مع والدته أولا والتي مؤكد ستتهمه بالخبال فأي خطبة يريد وهو مازال طالبًا في الجامعة!. أمه ستحتاج وقتًا طويلًا حتى يصل معها لنقطة تفاهم وذلك لم يعد متاح بعد ماحدث. حسن.. نعم أخيه سوف يتفهم العقدة بل ويساعد في فكها.



كان ذلك آخر ماقرر فعله قبل ما ينهي بضع أمور لاتحتمل تأجيل متعلقه بشؤون العمل.. ما إن غادر بوابة المزرعة حتى راحت كل مخططاته فور رؤيته لهاني الرابض جانبا بينما الشرر يتطاير من بين عينيه وبين يديه عصا غليظ يحكم من حوله وثاق أصابعه، توقف مكانه يحدجه بنظرة متوجسة وهمهمه مخلخلة غادرت حلقه صوبها نحو هاني في عداء واضح:

- أنت لسه هنا ليه؟!

- هتعرف دلوقتي ياحليتها..

لم يمهله حتى ثوان يستنبط فيها فحوى كلماته إذ هوى بالعصا على جسده.. لم يميز بعدها أي اللكمات كانت تسابق الآخرى وبنيته الأضعف لم





تصمد طويلًا فسقط صريعًا فوق الأسفلت الساخن وشمس الظهيرة تعدمه ماتبقى من رؤيا.

***

في شبه هرولة كان يمر بين أروقة مشفى خاص، لم يحتج كثيرًا من الوقت حتى استدل على مكانه، توقفت خطواته حين قابله داخل إحدى الغرف بجبيرة كبيرة احتلت ذراعه الأيسر..

دلف على الفور لتتضح له هيئة الكدمات التي شملت وجهه، رفع بصره دون حديث إلى الثلاث رجال من عمال المزرعة، كانوا يقومون بأعمالهم حين أتاهم صوت عراك من الخارج، سارعوا إليه فلم يجدوا أحدًا غير أنس المتكوم فوق الأرض يئن ألمًا ووجعًا ليتعاونوا في إحضاره على

الفور الى أقرب مشفى من ثم قاموا بمكالمة رئيسهم ليخبروه عن أخيه.. حيو الحاضر ثم همهموا ببضع كلمات تخص السلامة وغادروا على الفور.

اقترب من الراقد بنصف جلوس وملامحه القاتمة في صمت تكتم الكثير، على مهل رفع ذقنه وبصره يتنقل من موضع لآخر فوق معالم وجهه في عبوس انتقل إليه.. بنبرة بذل فيها الكثير لتبدو هادئة:

- مين عمل فيك كده؟

لم يجيب وبحركة واهنة خلع رأسه من بين أصابعه ليدور بها جانبًا يداري عبرات وسمها قهره ودنت برجولته أمام أخيه، تحرك حسن



يوليه ظهره حتى توقف خلف النافذة، ترك له وقتًا يستجمع فيه بعثرة نفسه ويدحر ضعفها.. مضت أكثر من نصف الساعة ولا صوت إلا للنفخات الحارقة الشاقة للصدور، حتى جاء صوته مضعضع كسائر جسده المتألم:

- هحكي لك من البداية..

ومع لحظة الإنتهاء كانت زعقة حسن حاضرة فوق رأسه بغضب بدأ يفقد لجام سيطرته:

- عايز تفهمني أنه علم عليك في مكانك!

صاح أنس بينما تتآكله النيران:

- بقولك خدني على خوانه!.. حس بيا يا أخي.





اقترب من جديد وبصره يتلكأ فوق سائر جسده متسائلًا في إقتضاب خشن:

- في كسر تاني غير دراعك؟

حرك رأسه نفيا ببطء بينما بصره إرتفع ليلاقيه من علوه في تردد صبغه شعور بالخزي:

- أنا بحبها وعايز أتجوزها.

ابتعد حسن خطوة دمدم له فيها بغلظة شديدة:

- فكرك أبوها هيوافق تتنيلها بعد اللي حصل؟

أطاح ذراعه السليم بمنضدة مجاورة بينما يصرخ بعجز تحشرجت له حروفه:

- أقسم بالله ماهسيبه.



طالعه حسن بهزة رأس صغيرة مؤكدًا على قسمه في غموض بينما عقله الشارد يعمل على عدة احتمالات أولها أن ذاك الهاني مؤكد سيحوم حول المزرعة من جديد، هذا إن لم يكن هناك بالفعل.. أيده بهسيس خافت:

- ومين قال هنسيبه؟

***

ساقطة بين شقي رحى

واقعة بين أمرين أحلاهما مر

فقد إختار ابن عمتها أرذل الطرق لنشر فضيحتها أمام والديها، يقف أمام أبيها وفي بهو بيتها يصرخ عاليا بعين قوية:



- أنا عايز جواب نهائي يا خالي، بنتك موافقة على الجواز ولا لأ؟ أنا سايب أمي تعبانة في البيت وماعنديش وقت فاضي اضيعه.

هادنه برق الكلام متأملاً أن يلين رأس ابنته اليابس عقب هاته الجلسة التي اقترحها ابن اخته وأيدها هو بشدة:

- إستهدى بالله بس ياهاني الكلام مايتاخدش قفش كده.

لم تعر تجلجل نبرة أبيها أي شأن فقط اكتفت بنظرته المتحديه لها في صمت، كان يلاعبها بدناءة، اما أن ترفض فيفصح عما بداخله ويفضحها أمام أبويها أو ترضخ لطلبه وتعلن



قبولها.. لن يتركها في كلا الحالتين والخلاصة؛ إنتهى أمرها.

كانت تجاور أمها الصامتة برأس منكس ودمع لم يتوقف منذ صباح اليوم، لا تعلم أين راح! أخبرها أن الليلة سيحدث أبيها، لكنه لم يفي بوعده وهاني يستغل الوضع أيما استغلال.. هل.. هل..

وتعالي الطرقات القوية فوق الباب كانت لها بمثابة أنفاس الحياة الهاربة، دحرت أفكارها المذعورة وكفها يمسح دمعها لتتضح لها الرؤية بينما نبرة أبيها المتعجبة من خلف الباب المفتوح تصلها بوضوح:

- حسن!.. تعالى يا ابني اتفضل.



دلف حسن أولاً وعلى إستحياء كان يتقدم أنس من خلفه، فزعت دون صوت لرؤيا الجبيرة تحتل ذراعه، تقدمت خطواتها دون وعي لكن جاءت نبرة لتوقفها قسرًا:

- لا إله الا الله، حصل إمتى ده يابني؟

رفع أنس بصره ناحية هاني الجالس وفوق ثغره ترتسم إبتسامة خبيثة.. دمدم بحدة غير مفسره للسائل:

- حادثة بسيطة ياعمي ماتقلقش.

دعا له الرجل بالسلامة وتمام الشفاء وبضع كلمات أخرى تخص القدر والمكتوب بينما يفسح



لهم المجال داعيا إياهم للدخول في حبور، هاتفا في زوجته وابنته:

- الشاي يا عيشة..

مرت من جانبة فلتاع قلبها لرؤية ألمه الواضح والكدمات التي صبغت بعضا من وجهه بزرقتها الداكنة في ذات اللحظة التي رأى لوعها في عينيها فطمأنها بغمضة عين بينما يتجاوزها حتى جاور أخيه فوق الأريكة العريضة.. أخوه الذي لم يبدِ أي اعتراض حين أخبره أنه يود خطبتها من أبيها اليوم، وأنه لن يستطيع الانتظار وهو على يقين أنها واقعة في ورطة حقيقية.



وبينما يتجاهل أنس نظرات هاني المشتعلة كان يقابلها حسن في إبتسامة متشفية ويخبر الرجل على مهل مدروس:

- إحنا جايين لك في موضوع وهندخل فيه على طول..

أومأ له الرجل واعتدل في جلسته وقد تأهبت كل حواسه في تقدير للمتكلم لكن أنس هو من تكلم في ثبات يحسد عليه وعينه معلقة بعين غريمة:

- أنا جاي اطلب إيد بنتك على سنة الله ورسوله.

وبين رجفة قلب الأم

وانتفاضة العروس

وانشداه أبيها



فزع هاني من جلسته مزلزلا المكان:

- أنتَ كده راجل يعني؟

- أنا راجل غصب عنك!

- طب ياراجل معندناش بنات للجواز، عيشة خطيبتي.. ولا إيه ماتتكلم ياخالي ساكت ليه؟!

- أنا مش خطيبتك يا هاني ولا هكون، أنت زي أخويا وماعنديش كلام تاني.

ونبرتها المخترقة لحرب النظرات القائمة أشعلت فتيل من ناروكان أول انفجاره صياح هاني الفج:

- أنتِ ماعندكيش كلام تاني لكن أنا عندي تاني تالت ورابع، يابنت خالي يامحترمه يابنت الأصول..



- هاااني!

صاح عبدالحميد في ابن اخته بحدة محذراً إياه بنظرة أن يطأ عرضه بحرف ملوث، لكنه لم يأبه.. فمنذ اللحظة لم يعد لديه ما يخسر:

- ياخالي ده واد ابن كلب لاعب في دماغها.. أسأله مين كسر عضمه؟.. اسأله عملت فيه كده لييييه!

كمن غرز في قلبها سكين ثالم، إذن ليس حادث كما قال، حركت رأسها حتى توقفت عنده فهطلت عبراتها من جديد وهي ترى كم الأذى الذي طاله من تحت رأس ابن عمتها، ابن عمتها الذي كان يخفي حقيقة حقارته تحت قناع الملائكية حد أن أبيها كان يعامله كابن له.

- طيب ماتيجي بره كده ونتكلم طالما عامل فيها دكر؟

قالها حسن بشراسة وقبضته تمسك بعنقه، يسحبه بالقوة نحو الخارج تحت نظرات الجميع، ما إن تخطى عتبة الباب حتى باغته بركلة قوية في منتصف ساقه طرحته أرضا وانقض عليه باللكمات المتتالية نال بعضها ثم تمكن من القيام والتصدي لأخريات.. وإحتدم الشجار.

وذلك كله لم يكن ليكبح لسان هاني الذي انفرط عقده عقب ماتهدمت كل أحلامه التي عاشها ونسجها له خياله طوال غربته والسنون الماضية، أحلام كانت من بطولتها وحدها، لتأتي الآن وتفضل عليه آخر..



وجه قبضته في وجه حسن الذي حاول تفاديها فطالت فكه بينما يصرخ من جوفه بمرارة:

- اسأل بنتك ياخالي وشوفها كانت ماشية معاه من أمتى عشان تبيع الكل وتشتريه!

لكمه حسن بقوة في معدته فمال بجذعه وصمت بينما رفع عبدالحميد بصره المخزي ناحية ابنته فوجدها تغوص بين أحضان أمها وقد اختلط عويلهم، شعركمن طعن في ظهره، فهروبها عن لقياه يؤكد أن دخان الحديث سبقته ناره، داربرأسه ناحية أنس الواقف برأس منكس في صمت راقبه للحظات انتفضت بعدها شفاهه وانحنى كتفيه بينما قدميه بالكاد يعبران

عتبة الباب حتى وصل منطقة العراك وفصل الإشتباك بحزم آمر وإن بدا واهن:

- كفاااية..

توقف حسن بأنفاس لاهثة ونظرة حادة، يمسح عن فمه خط الدماء الرفيع ويهتف في غلظة وتهديد:

- لو خطيت المزرعة تاني مش هتخرج منها على رجليك.

تطلع إليه هاني بكراهية مماثلة ومنه إلى خاله ليقول بغل كبير وغيرة عمياء:

- جايب أخوه معاه يداري على عملته، جوزها له يلا عشان شوية ويرميها.



وجاء الرد من خاله بصفعة قوية التوى لها عنقه بينما يهدر فيه بخذلان وسائر جسده يرتعش:

- كفاية خوض في عرضك ياقليل الأصل.

ثم صرفه بدفعة واهنة وهدر جديد:

- غور من وشي، ماعنديش بنات للجواز.

تطلع إليه هاني في صمت لثوان لم تطل ورحل بعدها بهمهمات غير مفسرة.

دلف عبدالحميد إلى داره ولم يكن يرى غيرها، توقف قبالتها وكفه يسحبها بالقوة من بين ذراعي والدتها، أجبرت أهدابها على افتراق كشف عن عينيها الدامية ونظرتها المذبذبة سارعت من وقع



أنفاسه الهادرة، وعن نظرته لها فقد أخبرتها أنها خانت ثقته، أنها خذلته لدرجة رأت نفسها في عينه صغيرة؛ بل متناهية في الصغر، لم تؤثر فيه نظرات زوجته المتوسلة بينما كفه يهوي بعنف فوق صفحة وجهها ذهابًا وإيابًا في صفعتين قويتين صاح على أثرهم الواقف من خلفه:

- ماتضربهاش!..

راقب أبوها هرولتها ومن خلفها أمها الباكية حتى اختفت خلف بابها بنحيب عال، خطى بجسده المثقل حتى هوى فوق أقرب مقعد وسبابته ترتفع مع نبرة لاهثة ناحية أنس:

- إطلع بره..





ثم اتخذ قراره بوجه كالح:

- ولحد ما أسيب المزرعة مش عايز أشوف وشك.

تقدم أنس حتى وقف قبالته والكلمات تتسابق دون رادع:

- ورحمة بابا ماحصل حاجة.. ده واحد كداب.. بنتك ملمستش منها شعره.. وأديني داخل البيت من بابه عشان عايزها في الحلال.

أكد له العم بنظرات حادة اخترقت أعماقه:

- دي بنتي وأنا اللي مربيها، وعارف كويس قوي أن عمرها ما توطي رأسي وإن حادت عن الخط فده غلطي وأنا كفيل به.



تقدم أنس خطوة أخيرة كانت تفصل بينهم، يتوسله تلك المرة وذراعه السليم يمسك بالآخر المصاب وقد إشتد عليه الألم:

- ماتمشيش، وغلاوة بابا عندك.. شوف إيه يرضيك وأنا هعمله إلا أنك تسيب المزرعة.

- أهي غلاوة أبوك دي هي اللي منعاني دلوقتي أكسر لك رقبتك.

- والله العظيم ماعملت حاجة تسيء لها ولا ليك، هعمل كده إزاي وأنا عايز أتجوزها؟!

لم ينجح توسله في كسر التشاحن، بل شحذ الرجل أكثر ليدمدم له في غلظة وخشونه بنبرة لا تقبل تراجع:



- ماعنديش بنات للجواز يا أنس.

كانت الجملة الأخيرة أكثر من كافية ليتحرك حسن الواقف داخل إطار الباب مراقبًا الحوار المحتدم في صمت، أحاط بذراع كتفي أخيه الغاضب وكفه الحر يربت فوق كتف عبدالحميد في مهادنه لطيفة:

- بنتك عندك متصانه وحقك تديها للي يقدرها.. بالنسبة للمزرعة فأحنا منستغناش عنك ولو على أنس مش هيجي ولا تشوفه تاني.. تمام كده؟

صمت الرجل ولم يتحدث بينما هدر أنس في ضيق وإنفعال متهدج:

- ياحسن لسه متفقناش..



حذره بنظرة حازمة:

- مش وقته.

ثم أجبره على التحرك، ظل بصره يعانق بابها المغلق في عجز حتى رحلا تاركين أصحاب الدار يخمدون زوبعتهم كما يشاءون وليحيا هو مع عطب قلبه كما يشاء.

***

أول خطوة لعلاج مخاوفك.. مواجهتها

تقف لها كند حقيقي على أتم استعداد لقهرها،

وكل كبير فيك قد يكون مستصغر في أصله،

وحدها أوهامك الخاصة من تمنحها الفرصة لتتضخم وتكون لها الغلبه فيك، ولأنها لم تكن



لتخطو هكذا خطوة تكفل هو بكسر حاجز الخوف بداخلها وصراخها المرتجف ما إن دفعها فوق مقعد السائق يخبره ببساطة أنها جبانة كبيرة ولا عزاء في ذلك:

- لأ يامهند متحاولش.. مش هعرف.. مش عايزه أصلا!

احتل مهند المقعد المجاور بينما امتدت يده تثبت لها حزام الأمان:

- بطلي جبن بقى، عيب يعني تبقي Business woman قد الدنيا ومش عارفه تسوقي.

سحبت غنى عدة أنفاس زفرتها سريعا بينما أصابعها تتشبث بقوة في طارة القيادة في وضع



أقرب للإحتضان، دفع بكتفها إلى الخلف ملقيا بتعليماته:

- أول حاجة خدي نفس طويل وريلاكس يا ماما.. ثانيا نتأكد أن المرايات مظبوطة..

تأكد من وضعها وعند المرآة الأمامية أشار لها حتى تنظر ففاجئته بإجابة فاذة وابتسامتها الواسعة تعبر وجهها:

- شايفه نفسي.

- قصدك أنا اللي جبته لنفسي.. يلا شوية جد ونركز هنا..

نقر بسبابته فوق ناقل الحركة في جدية مُعلم:



- ده أسمه فتيس وعشان ندور العربية لازم نوديه عند الp.. كده.

وفعل مثلما قال من ثم أدار المفتاح فتعالى صوت المحرك مع نبرتها الحماسية:

- اشتغلت!

- برافووو اشتغلت.. دلوقتي نعمل إيه؟

- إيه؟

- نرجع الفتيس على الD كده.. وإيه بقى؟

- إيه!!

- ندوس بنزين ياحلوة.

رمشت بأهدابها وابتلعت لعابها، قدمها يضغط برفق فوق دواسة البنزين وقد أعجبتها التجربة



بشدة وأخذها الحماس بعيدًا عن رعبها السابق..

ما إن تحركت السيارة حتى صرخت وأصابعها تشد فوق طارة القيادة:

- دي مشيت بجد!.. وقفها بسرعة هنموت.. ياربي هنموووووت.

- إهدي وبالراحة على الدريكسيون مش قدك ده.

- أنتَ بتهزر!

ساعدها في لف الطارة بينما تتعالى ضحكته على هيئتها المذعورة وعيناه لا تغفل عن حركة السيارة:

- يابنتي دوسي بنزين واحدة واحدة، ماتخافيش.



- أنا لو مت هتبقى أنتَ السبب.

- أنتِ بتعلي صوتك ليه؟.. وبعدين ما إحنا كده هنموت سوا.

دارت إليه برأسها تزجره بحدة حقيقية:

- ماتقولش كده تاني!

ثم عادت إلى وجهها لتطلق صرخة قوية وازت صياحه:

- دوسي فراااااامل!

فجأة توقفت السيارة بعد سحبه لفرامل اليد وفقط ببضع سنتيمترات هي من كانت تفصلهم عن الاصطدام بالجدار الحجري.. ابعدت كفيها عن عينيها ببطء تتطلع حولها في هلع حتى



كورتهم فوق قلبها النابض بعنف، ضحكته الرائقة تعلو بصخب عذب صاحت على أثره في حنق:

- حرام عليك..

إستطردت وكفيها يضغطان فوق خافقها المتعثر بدقاته:

- قلبي كان هيقف بجد.

- سلامة قلبك ياست البنات..

وأردف فاتحا ذراعيه بنبرة عابثة راسما قسمات متعاطفة مع فزعها:

- تعالي في حضني.

- ده إحتواء يعني وكده؟

- لا دي قلة أدب بس ممكن نمشيها إحتواء عادي.

لكزته في كتفه مع نظرة لم تكن جادة بما يكفي لتردع ضحكته التالية حتى شاركته إياها في مرح..

ناغشت كيانه بعد حين:

- أعترف لك بسر؟

- ياريت.

أطلقت ضحكة صغيرة قبل ما تغمغم:

- أول مرة شفتك فيها أخدت فكرة أنك شرير جدًا، وفضلت اتخيل أنك مُتوحش كده لفترة..

قهقه بحق وحاجبيه يرتفعان ببطء:

- وإيه بقى غير نظرتك ياشريرة؟



حركت كتفيها مغمغمه:

- مافيش؛ لما عرفتك لقيتك عادي زينا وكده.

إقترب يحط بذراعه فوق حافة مقعدها ومال إليها رأسه بهمس عابث:

- زينا وكده إزاي يعني؟

ارتبكت وعادت بجسدها إلى الخلف بينما تجيبه دون تركيز:

- عادي زينا بتضحك وتهزر مش تنشن ونرفز طول الوقت.

ظل على اقترابه الخطير غير آبه لما يعتمل فيها وهي تلتصق في الباب هكذا، غمغم بأسمها ببحة رجولية خاصة:



- غنى..

- همممم.

- مش نتجوز بقى؟

تابع حركت حلقها المتعسرة بينما تهرب ببصرها وصمتها المقيت كان له الكلمة العليا هذه المرة أيضًا، أطلق زفرة طويلة بها مابها لفحت جانب وجنتها وبعثرت خصلاتها المسدولة كما بعثرت خوالج صاحبتها التي عادت لها الأنفاس المتقطعة حين حررها من حصاره بإبتعاد عاد فيه إلى الخلف، أنزل منظاره الشمسي فوق عينيه بينما يهتف بنبرة جاهد لتبدو مرحه:

- لااا بس كنتي فظيعه.. سواقتك أبهرتني.



بادلت بسمتة المتكلفة بأخرى افتقرت للمرح..

وهربت بعدها كما تجيد دوما أن تفعل.

***

يحدث أن تركلك الحياة

بعد رغد كنت تتمناه تأتي تلك السقطة تأخذ بك نحو الأسفل، وحينها لا حيلة سوى التشبث بأذيالها كخيط ضعيف من أمل واه تمني به نفسك أنك مازالت تتنفس..

"وحشتيني قوي يا أميرة"

همست بها في التياع حتى جاء همس الصغيرة يخترق مسامعها:

" طيب تعالي، سبتيني ليه؟"



هطلت دمعة ثقيلة وهي تهرب من ذات السؤال ككل ليلة:

" أخدتي الدواء بتاعك واتعشيتي؟"

" آآه بابا عملي سندوتشات وزعقلي عشان وقعت العصير فوق السجادة"

" معلش تلاقيه متضايق من الشغل وماقصدش يزعلك"

" لا هو كل ماحد يكلمه يزعق إمبارح زعق لتيته وزعلت منه جامد"

صمتت في قلة حيلة حتى جاءت نبرة الصغيرة المغيره لدفة الحوار خير منقذ:



"النهاردة الميس قالت لي أني أشطر واحدة وباستني.."

بعد حين أنهت المكالمة وعادت بسماعة الهاتف إلى مكانها متنهده في كآبة، مر أسبوعين منذ أن عادت باكية إلى بيت أخيها في منتصف الليل.. لم يأتي، لم يحدثها لمرة، فقط أميرة من كلمتها لتتحول تلك المكالمة العفوية لعادة يومية دأبت عليها كلتاهما كل ليلة، أخبرتها من ضمن ثرثرتها الكثيرة أنها انتقلت إلى مدرسة جديدة، أسعدها الخبر لاتنكر، لكن ذلك لم يغير في حقيقة أنه لم يسأل عنها ولو لمرة!



أوجعها قلبها عند هذه النقطة فبكت كثيرًا، بكت على قدر اشتياقها لضحكته، ضمته، قبلة الجبين خاصته، بكت على قدر ضيقها وحزنها..

لم تشعر بأخيها الواقف يراقبها منذ وقت حتى شرعت في وصلة بكاءها فغير وجهته مانحًا إياها العزلة اللازمة حتى تهدأ.. زفر بضيق بينما يتجاوز إطار المطبخ ليلاقي زوجته المتحاملة على حالها خلف حوض الأطباق، وقف من خلفها يحيط خصرها بذراع وهمسه المهتم يجاور أذنها:

- كفاية كده أنتِ من الصبح مرتاحتيش.

دارت له برأسها وثغر تبسم في وهن:

- أنا كويسة، وبعدين أصلا خلصت خلاص.



جففت يديها ودارت تقابل قسماته المهمومه، ران الصمت بينهما حتى رفعت يدها تحيط جانب وجهه وتخفف عنه قلة حيلته بحنو المحب:

- ماتشلش فوق طاقتك يا حسن، أنتَ بتعمل اللي عليكِ وربك يحلها من عنده.

تنهد ورأسه يميل حيث كتفها، يشد على ضمها ويهمهم دون حديث بينما قبلاته تسير من جيدها حتى وجنتها ويعود لجيدها بشغف لم يلبث أن أشتعل حتى خمدته قسرًا وهي تبتعد دونما تفارق حصاره بعيون ذاهلة وهمس خافت محذر:

- سماح بره!



- سماح مش معانا..

قالها بزمجرة بينما يعود لسيرته الأولى بشغف مضاعف، فقدت سيطرة ذاتها وهي تتلقى قبلاته بروح مشتاقه للحظات لم تلبث حتى داهمتها نوبة ألم أطلقت على أثرها أنين متوجع أجبره على التوقف المباغت:

- في إيه تاني؟!

بالكاد تنفست وقسماتها تتلون بالألم، يدها تدعم بطنها المنتفخ وتتحرك حتى أقرب مقعد حول المائدة الصغيرة، جلست بلهاث خفيف:

- مش عارفه كل شوية أحس بألم فجأة كده..

اقترب بتخمين قلق:



- جايز ولادة!

- ولادة إيه بس، لسه الدكتورة قالت قدامي أسبوع.. روح أنت شوف سماح قاعدة لوحدها وأنا هحضر طبق فاكهة واحصلك.

راقب شحوب وجهها بعقدة حاجبين:

- أنا بقول نروح المستشفى، أنتِ مش شايفه وشك عامل إزاي!

- ياحسن كويسة هاتقلقني ليه بس..

قالتها بوهن شديد بينما تنهض، تدفع به إلى الخارج مردفة:

- روح لسماح بقى.



استجاب لها صاغرًا وراح عند شقيقته التي لم تدري عن حالها وانغماسها في نحيبها حتى شعرت به يجاورها فوق الأريكة.. يضيق ذرعا برؤيتها هكذا حزينة ودمعها مايكاد يجف حتى يولد من جديد، أحاط كتفيها بذراعه فتركت رأسها تميل فوق صدره بينما تهمس له في تهدج:

- مسألش عليَّ، كأنه ماصدق.

وانخرطت في بكاء متعال، مسد كتفها في محاولة فاشلة لتهدئتها:

- مش أنتِ اللي سيبتي بيتك بمزاجك بتعيطي ليه دلوقتي؟..

ابتعدت عن مرماه، تزجره بحدة ونبرتها تحتد:



- كنت عايزني أقعد بعد ما كلامه؟ ولا كنت أستنى لما يقولها بلسانه.

عاتبها بمنطق رجل لايقبل تفاوض::

- أنتِ الغلطانه ياسماح ماتقاوحيش، مافيش راجل يقبل أن مراته تدب خناقة لرب السما وسيرتها تبقى على كل لسان أنا راجل أهو وبقولك ماقبلش مراتي تعمل كده.. وبعد ده كله مش تجبيها لبر؟ لأ إزاي ماتبقيش سماح اللي أعرفها، سيبتي البيت ومستنياه يجي يتأسف ويبوس الأيادي.

هزت رأسها رفضا لما يقول:



- هقول إيه ما انتو رجالة زي بعض، خليك كده واقف في صفه وأتحرق أنا مش مهم.

حرك رأسه في يأس:

- اعمل إيه طيب؟.. أروح أقوله تعالى خد مراتك!

- لا تعمل ولا تسوي ناقص كمان تقوله راميه نفسي عليه.

وانخرطت في وصلة بكاء جديدة لم تجد لها صدى لديه فقد مل من إعادة نفس الحديث كل ليلة.. بكاء قطعه صوت نسمة الفزع من خلفهم:

- أنا بولد يا حسن!

***



عن تلك اللحظات التي تكتبها ذاكرتك بتاريخ خالد طوال العمر

أول رعشة ودقة قلب لاتشبه غيرها

أول نظرة يعانق فيها بصرك طفلك الأول فتولد لهفتك دون شعور

وكأنما عقارب الزمن توقفت عند هاته اللحظة الثمينة

كيف لمخلوق منمنم كهذا أن يفعل به كل تلك الافاعيل؟

هكذا تساءل بين نفسه حين دفعت ممرضة بدينة بين يديه بلفافه بيضاء ونبرتها تخترق أذنيه:



- ابنك يا أستاذ.

ابنه!

كان وقع الكلمة عجيب حد اللاتصديق، ترك أصابعه الرقيقة تقبض فوق سبابته بينما يعلو بكف الصغير حتى لثمة بخفه وثغره يفتر عن ضحكة غير مصدقه.. يسأل شقيقته التي تجاوره أمام حجرة العمليات:

- ده ابني؟

تطلعت سماح إلى وجه الصغير وداعبت سبابتها وجنته في بهجة دامعة وتأثر استدعته اللحظة بينما كفها يربت فوق كتف أخيها بهمس خافت:



- يتربى في عزك يا أبوعلي، أذن له عشان ربنا يبارك لك فيه.

زاد من ضمه وعند أذنه اليمنى مال يكبر بصوت معتدل ورائحة الصغير المميزة داهمت كل حواسه فأسكرته بحلاوة.

***

استقبلت ضمة سماح الدافئة بإمتنان حقيقي، تطلعت بعدها إلى وجهه القريب بأنفاس للتو بدأت تعود لرتمها المعتاد عقب ليلة طويلة عاشتها مع مخاض عسير منذ تدفق السائل الدافىء وأفزعها حتى خرج طفلها مستقبلًا أنفاس الحياة بصرخات متتالية.



- حمدالله على سلامتك.

وتكفيها هاته الفرحة التي شملت وجهه على أن تنسيها كل ألم وعذاب عاشته الساعات الفائته، اختلطت ضحكتها بدموعها بينما تشد على كفه الرابض فوق كفها وصوت الممرضة يخترق تواصلهما الروحي:

- حمدالله على السلامة ياجميل، ها إختارتوا اسم البيبي ولا لسه؟

- علي.

أجابها دونما يغادرها بصره، فدمدت المرأة بلطافه زائدة:



- طيب يا أبوعلي اتفضل قدامي عاوزينك في الحسابات..

ونظرت إلى نسمة قائلة في جدية:

- وأنتِ؛ كمان شوية تقدري تنزلي الحضانة تشوفيه.

بعد حين..

اقتربت من طفلها بخوالج مبعثرة، تميل برأسها تشبع شوق عينيها بكل إنش فيه، أناملها تلامس رأسه، وجنته، كفه وقدميه.. حملته على مهل تضمه لقلبها، كانت عبراتها تهطل دون توقف وشفتيها تلامس جبهته في سعادة يتذوقها قلبها لأول مرة، تشكر ربها من بين دموعها على نعمة



العطاء وتسأله أن يكون لها وأبيه قرة عين تسعدهما طوال العمر.

***

غادر المشفى على مضض بعد عدة مكالمات لامتناهية، دلف إلى الشركة بوجه ضحوك يلقي بتحيته إلى الجميع ويتلقى في المقابل تهنئات ومباركات متتالية، أمر بصرف مكافأت مالية لجميع العاملين من الصغير حتى الكبير فدعا الجميع للمولود بعمر مديد.

كان كل شيء مثالي..

كل شيء يسير على مايرام حتى عاد إلى المشفى فصدمه الهرج والمرج القادم من الجوار، عكس



طريقة وذهب ناحية الصوت ليجد مجموعة من الآباء والأمهات يتجمهرن أمام حجرة الحضانة في زعيق وصياح أفزع قلبه بينما يرى زوجته وأخته تتكاتفان في بعضهما وتشاركن الجمع الهتاف والعويل وقبل ما يسأل عن ماهية ما يحدث وصله حديث أحد العاملين يقف بالجوار:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، بيقولوا في عيل اتخطف.

ويقسم أن اسم وليده رن في قلبه قبل هتاف الطبيب الذي خرج من الحجرة بوجه كالح وبين أصابعه يرفع اسوارة تعريف ممزقة حملت اسم الوليد المفقود:

- علي حسن صبري.

وأمام صرخة شقيقته وسقوط زوجته.. لا يملك شيء!



(٣٥)

لنا في الحياة خيارات عدة

نحيا.. نموت

نحب.. نكره

نقاتل.. نجبن

ننتصر أو نسقط الراية

لكلٍ منا طريق يمضي فيه مخير لا مسير

ويحدث أن تحيد بك السبل فتغدو واقفًا عند مفترق طرق لا تدري أيهم تسلك؟.. هذا فيه سعادة تشترى وذاك تلوح فيه أخرى لاتباع، هذا درب تكون فيه كما أنت وآخر تغدو فيه غريب؛ ضال عن موطنك بوجه مشوه لاتعرفه..

وأحيانًا تسقط بقلب متاهة!

لاتعي ولايسعفك عقلك بإجابة يستنير بها كيانك المعتم..

ماذا فعل وليده ابن البارحة ليجني ما اقترف أبيه من زمن؟

هل جاء الدنيا ليوفي الدين ويكون الثمن!

سؤال عالق بذهنه يعاد ويكرر في قسوة مهلكة.. أقام المشفى وما أقعدها ولم يجد جوابًا، فتش في كل مكان محتمل أن يكون له فيه أثر، سار بين الشوارع على غير هدى باحثا عن ضآلته ولا محصلة غير اللاجواب.. ماذا يفعل وأين يروح؟!



كيف عساه يخمد تلك النيران الآكلة لكل ذرة من كيانه حتى بات خارج نطاق الزمن، ساقط داخل هوة شديدة الحلاك لا مجال فيها غير لأفكاره المسرطنه.. أفكار تنحدر كلها ناحية ماضٍ مشوه، ملوث بالخطايا والذنوب.. هل قرر أحدهم أن يلاعبه بدناءه ويقتص منه عن طريق صغيره؟

ذلك تفسير منطقي لسؤاله؛ لكن من يكون؟ وكيف سيكون انتقامه الذي يرتضيه والصغير بين يديه!

انتفض جسده على لسعة سيجار ساكن بين السبابة والوسطى، رحلة من الأنفاس الحبيسة وحالما تنتهي تلسع بشرته فينتفض يمرغها في قلب المرمدة ويبدأ رحلة جديدة مع أخرى، رأس

تثاقل من زحم الأفكار فدعمه بظهر كفه الآخر يلقي عليه بثقله وبصره الملقى فوق خشب المكتب في وجوم خاو يشير أنه لا يرى ولا يسمع الهمس المتناقل بين ثلاثتهم في الخارج بينما أعينهم تتابع جلسته الممتده منذ ساعات حتى انتصف الليل ولا تغيير.

تطلع إليه أنس في بؤس شديد ثم عاد لهما برأسه مع قسمات تناشدهم العون:

- هنسيبه يحرق في نفسه كده؟

بادلته ميسون النظر في بؤس لا يقل بينما تجيب في قلة حيلة:

- وفي إيدينا إيه نعمله ولسه معملنهوش يا أنس؟



خبر في الجرايد مع عرض لمكافئة كبيرة ونزل بالبونط العريض، وسائل التواصل تتناقل الأمر، ورجال الشرطة يبحثون ويؤدون دورهم كما يقولون..

لم يتركوا سبيل وإلا سلكوه متأملين خير، لكن عقب ثمان وأربعون ساعة على اختفاء الصغير آن للأمل أن يتقهقر عائدًا بخزي إلى جحر اليأس، آن للقلوب أن تفزع وتمضي في دروب الوجع، وصورة لأب مكلوم يرثي حالة بعبق خانق ويربت على حالة بسياط من ندم هي الأكثر تعبيراً عن معنى الوجع الذي استوطن نبرة أخيه حين نهض عن مقعده مقررًا في حدة:

- هكلمه..



ونصف خطوة استوقفته بعدها يد حطت فوق جبيرته لينبعث صوت ماهر بعد صمت طال وقد نهض بدوره:

- خليك.. أنا هكلمه.

أفسح له المجال عائدًا إلى موضعه جوار أخته متنازلًا له عن ثقل الأمر في رحابة صدر.

تقدم ماهر في تردد حتى حسم أمره ودلف عليه دون استئذان، وقف إلى جانبه وكفه المتردد يحط فوق كتفه مع كلمات لايدري من أين يبدأها ولا كيف يتمها في هكذا موقف:

- أنا عارف أن أي كلام ممكن يتقال مش هيهون عليك، لكن خلي أملك في ربنا كبير.



لم يجد صدى صوت لكلماته سوى زفرة طويلة بعبق ضبابي لوثت الرؤية أكثر بينما يتابع ماهر وقد دنا بجذعه إليه وأصابعه تشد فوق كتفه في مؤازرة لا يملك سواها:

- شد حيلك عشان مراتك على الأقل، هي محتاجه لك دلوقتي أكتر من أي وقت فات.

رفع له رأس ثقيل ونظرة خاوية لاتحمل سوى العجز، فتح فمه يزج بالحروف حتى تخرج لكنها ضاعت بين سراديب العقل المشتت فعادت تنطبق شفاهه فوق بعضها في صمت خانق ورأسه المنكس تحيطه الأصابع العشر من كل الجهات في ألم مضاعف.



صمت كسره أنس الذي ولج بصخب، كفه يلوح بالهاتف المحمول مع قسمات نبض فيها الأمل فتهللت:

- في ظابط كلمني حالًا بيقول أنهم لقيوه وعايزك تتعرف عليه.

وما كاد ينهي جملته حتى فزع حسن من جلسته، اندفع إلى الخارج يتبعه الجميع بأمل، تهرول عجلات السيارة فوق الأسفلت بأنفاس لاهثة كأنما قلبه هو من يعدو، لم يتوقف لسانه عن التوسل الخافت..

وكل ذلك انتهى حالما دلف إلى حجرة الضابط فوقع بصره على آخر!



آخر لا يشبه ذاك الذي ضمه لصدره وحفظ تقاطيعة المنمنمة بقلبه قبل عينه، بوجه كالح غادر مقر القسم يتبعه أنس الواجم، لم يحتج مرافيقهم للسؤال والخيبات كانت تملأ الوجوه.

اقترب حسن يرتكز بذراعيه فوق سقف السيارة ورأسه يعلو للسماء في عجز وقهر لا يملك سواهم في هاته اللحظة..

- هيرجع إن شاء الله، إحنا مش ساكتين أكيد هيرجع.

لفظها أنس في محاولة يائسة للمواساة لكن 3قابلها حسن بصراخ مدوي وكفيه يضربان سطح السيارة:



- أسكت يا أنس، أسكت أنت مش فاهم حاجة..

وبوهن استطرد بينما رأسه يميل للأسفل:

- ماحدش فيكم فاهم حاجة.

ثوان مرت دلف بعدها إلى سيارته واندفع بصرير متعال راقبته الوجوه الواقفة في صمت مشفق.

***

أن تطأ أرض جراحك لهو أمر شاق

حتى تقترب من أوجاعك من جديد يحتاج منك الأمر الكثير من الشجاعة، القوة لتحمل الأمر بل وتقديم كل الدعم المطلوب بينما يدك تضغط فوق مواطن الوجع فيك تمنعها النزف، تمنعها الأنين ولو في صمت..



وربما لم تكن ممتنة يوما لوجودة أكثر من هاته اللحظة، دارت برأسها تتطلع إلى واجهة البناية ثم عادت له في تهدج، أصابعها تفرك في بعضها بقوة و رأسها يتحرك برفض واهن:

- مش هقدر.. هزيد من وجعها مش هعرف أخفف عنها.

تنهد وكفه يحيط بكفيها في دعم لخطوة هي بحاجتها قبل أي مخلوق:

- افتكري يا غنى أنها بحاجتك دلوقتي.

حركت كتفيها في قلة حيلة وعقلها يستوعب الحقيقة المفجعة التي عرفتها منذ ساعتين لا أكثر وعينيها تناشده في توسل:



- هقولها إيه!

- مش مهم تقولي كفاية قوي تحضنيها.

تحرك رأسها توافقه الرأي في خفوت بينما تفتح بابها وتترجل من السيارة، أمام البناية استدارت إليه فدعمها بإشارة من كفه لتتابع سيرها حتى وصلت.

***

أول سقطه يتبعها نهوض

بعد الثانية نعافر

عند الثالثة نصبح أقل ضعفًا من القتال



يكون الأمر فوق طاقة احتمالنا، نصبح أضعف وأكثر وهنا من التصدي للضربات الموجعة، وتلك كانت ضربة قاسمة وليست بموجعة وفقط.

كفها الذي يسير ببطء فوق بطنها المسطح يخبرها أنها خاوية، لم يعد بين ضلوعها لتحميه من الجميع.. ليته بقي هناك لكانت حملته جوار نبضها حتى آخر العمر، كان يكفيها أن تشعر به داخلها..

كيف لصغيرها أن يختفي عن دنياها؟

كيف يحدث ذلك ولم تشبع عيناها من رؤيته بعد؟

لم يحمله ذراعيها ويضمه قلبها غير مرة واحدة..



أي ظلم يحدث!

من حولها تفترش ثيابه، تتحرك فوقهم أناملها تلامسهم كحلم..

حلم امتلكته لبرهة من ثم تسرب من بين أصابعها.. غاصت برأسها بين ركبتيها وذراعيها يحيطان بجسدها المنتفض لذكرى لحظة فقدانه، وليتها لم تصحو من بعدها..

لماذ هي؟

لماذا يكون صغيرها من بين الجميع؟

شهقت بعنف، شهقت بنفس عاجزة كسيرة..

شهقت بوجع أم مكلوم في وليدها..



استدار مقبض الباب وهي على حالها، على استحياء طلت غنى برأسها فرأتها تعتلي فراشها تضم جسدها إليها مع نحيب نافذ بينما ثياب الصغير متناثرة من حولها في فوضى مؤلمة..
خطواتها المتقدمة وازت سيل العبرات الذي انفرط فوق وجنتها دون وعي، على مهل جلست تقابلها في صمت حتى رفعت لها الأم الجزعة رأسا ترتسم فوق ملامحه صورة للألم النابض..

راقبت دموعها الغزيرة ونحيبها الذي تعالى بغصته بينما تنظر لها في قهر، في عجز وقلة حيلة تقتلها..

دون حديثٍ طوقت غنى جسدها المرتعش بكلا ذراعيها، تواسيها بنحيب مرير عنوانه الفقد.

***

نلقي بالكلمة في لحظة غضب غير مدركين أنها قد تودي بمن سلمنا مقاليد الفؤاد في درك الخيبة والخذلان..

حد أننا نفقد كل توالف كان وتصبح الروح هائمة في العراء دون ونيس أو رفيق، وحدها الوحدة رفيق الليالي والأيام التي لا تمر..

لم يأتي على خاطرها حين واربت الباب أن يكون هو الطارق، ظلت تتطلع إلى وجهه في غير استيعاب حتى جمعت شتات نفسها وإبتعدت تفسح له المجال و كفها يمتد مشيرًا له في صمت ليتفضل بالدخول.



دلف أحمد إلى حجرة الصالون ومن خلفه كان تسير، جلست قبالته فوق مقعد منفرد في صمت، راقب وجهها على مهل وملامحها الباكية رققت قلبه قبل ما ينطق بعتب:

- إزاي متدنيش خبر باللي حصل؟

أيلومها!

ابتلعت لعابها في صمت بينما عبراتها تنحدر ببطء فوق وجنتيها، قطعهم بعنف بواسطة محرمة ورقية مغمغمة في حدة:

- وأنا كنت في إيه ولا إيه!

تغاضى عن حدتها وقدر الموقف العصيب حين عاد يدمدم:



- ربنا يرده سالم لحضن أمه وأبوه، هو حسن فين مش عارف أوصل له من الصبح؟

- ابنه مخطوف هيكون فين غير بيدور ويلف عليه.

هتفت بها حانقة متهدجة بينما وتيرة بكاءها تزيد، نهض عن كرسيه وراح عندها يحط بكفه فوق رأسها، يقربها إليه وصوته الحنون يخترق ضلوعها:

- بطلي عياط وأدعي له يرجع بالسلامة.

شهقت بقوة:

- وهو بإيدي يعني.

- في حاجة ممكن أعملها؟

همس بها في قلة حيلة غير آبه بقربه الذي يطيح بثباتها، حربها الشعواء القائمة بين قلبها الضعيف وكرامتها الجريحة، وعند ذكر الكرامة استعادت تلك الليلة المشؤومة ودون لحظة تفكير أخرى حسمت القرار.. مدت كفها تدفع به بعيدًا عنها، تهدأ من حالها وتمسح دمعها:

- كتر خيرك.

قالتها ساخرة واستقامت عاقدة ساعديها فوق صدرها:

- ولو عايز حسن هتلاقيه في مكان شغله، روح اسأله لو محتاج حاجة.



لا ينكر أنها نجحت وبجدارة في إثارة سخطه، تمالك نفسه احتراماً لأصحاب الدار الغائبين ومصابهم الكبير مقررا أن يمضي حتى النهاية بأصله:

- وأنتِ مش محتاجة حاجة؟

- عمري ما احتاجت لمخلوق قبل كده عشان أحتاج دلوقتي.

كيف لفظتها باردة، سخيفة!



هل تثأر لكلمات قالها في فورة غضب؟ أليس هي من وضعت بينهما الجسور.. هل تلومه الآن؟

بوجه جامد ونبرة باردة تماثل خاصتها دمدم مع نظرة طالت كدهر:



- ماشي يا سماح.

استدار بعدها ببساطة.. ورحل.

ظلت تتبع خطواته بشفاه تنتفض باكية حتى أختفى، ألقت بجسدها فوق المقعد من خلفها وضمت وجهها بين كفيها في نحيب لم ينضب بعد.

***

الخسران..

لم يكن يومًا اختيار، لكننا دوما مجبرين على القبول فيه

آملين من بعده في شمس النصر

خسران يتبعه نضوج، وآخر يكسبك خبرات



وأخير يقتات من روحك على مهل

كم مر على سيره فوق الطرقات دون هدى؟

ساعة.. إثنان.. ثلاث، فقد القدرة على العد وفقد جسده كل ذرة تحمل حتى أنَّت عظامه وتكالب الألم فوق منكبيه.

دلف إلى بيته مثقل الخطى، قابل الجالسين بوجه جامد لا ينبأ عن شيء، كان أنس يلقي برأسه فوق حافة المقعد بنظرات جامدة بينما تجاور ميسون غنى وتتوسطهم سماح في صمت بغيض ابتلع الجميع..

تخطى مجلسهم دون حديث فأوقفته سماح بكف حط فوق ساعده، تسأله بلهف قلبها:



- غايب فين كل ده؛ قلقتني عليك!

تحرك حلقه الجاف دون حديث بينما قالت عيناه الكثير، كانت نظرته ضائعة، مشتته يحيطها السواد. بادلت عجزه بآخر وأسنانها تطبق فوق شفاها تمنع شهقات لا تنفذ، حتى قرر الهرب من تحت أنظارها والجميع بخطى مبتعدة.

إضاءة الغرفة شاحبة كحال أيامهم، كانت تحتل ركن منزو تلوذ وتلتجأ لربها في صمت. أغلق الباب من خلفه وخطى مقتربا، ترك سترته العالقة فوق ساعده للسقوط كما ترك لجسده حرية التهالك إلى جوارها فوق الأرضية المصقلة، يلقي برأسه المثقل فوق حافة الفراش ويعانق

بصره السقف.. بعد حين كانت تراقب جلوسه المتهالك وقد بان عليه ظواهر الإعياء بشدة، وكل ذلك يعني أن لا خبر، لا جديد..

ضمت بكفيها إلى صدرها تبتلع غصتها وتسأل ربها لقلبها السكينة وأن يلهمها الصبر في مصابها الكبير، لم تدر أن وتيرة أنينها تعالت حين كان بصرها يرتكز عليه وأنفاسها تتهدج بحرارة،

إعتدل مع تعالي النهنهات يبادل عينيها الذابلة النظر، تجافيه الأحرف وقد ضاعت منه الصيغ فبات لا يقوى على حديث يؤلمه، بل يطعنه دون رحمة، أخذ بها إلى صدره، يحد من بكاءها بربتات فوق الرأس لم تفلح بينما همسها الذبيح



يتحرر من عقاله دون وعي لينفذ إلى خافقه القريب:

- مالحقتش أحفظ ملامحه.

أصابته كلماتها في عمق روحه، أطبق فوق جفنيه يمنع عبرات حارقة من هطول، فإن فعلت أراحت ووقت الراحة لم يحن بعد، شد على ضمها بينما تستطرد بوجع، تعري حقائق مفجعة يحدثها بها قلبها من بين نحيبها:

- علي هيكون التمن ياحسن؟!

وابتعدت عن مرماه تنظر لعينيه، تبحث فيهما عن أملٍ واهٍ يُطمئن قلبها النازف.. طأطأ برأسه وأنفاسه الهادرة تخبرها أنه عاجز مثلها وأكثر



وليت بين يديه ما يملكه لكان قدمه قربانًا حتى تصمت وألاتزيد من سلسال عذاباته المتصل.

تابعت وأصابعها تتعلق في قميصه بقسوة جريح:

- رجعلي ابني ياحسن..

ثم هذرت وكفها فوق موضع قلبها الأجوف في كلمات واهنة تقطع لها نياط القلب:

- أنا بموت.

أحاط وجهها بكفيه، مال بجبهته فوق جبهتها بينما لسانه يدمدم بوعد وحده الله يعلم إن كان سيفي به أم....:

- هيرجع.. إن شاء الله هيرجع.



لفظ الأولى بيقين وتبعتها الأخرى بوهن مؤكد، وفي لحظتها لاتملك غير الركون إليه وتصديقه، غير التشبث بقشة وهي الغريق في بحور الألم.

لم يعِ كم مر من الوقت وهي تنتحب فوق صدره حتى اخترق مسامعهما جرس الباب المتعال ففزع كلاهما على أمل وليد، هرع إلى الخارج ومن خلفه كانت تهرول، وجد باب الشقة مشرع وأنس الواقف داخل إطاره يرمق عتبته بقسمات متغضنة، لم يحتج لبرهة من التفكير إذ أفسح المجال ليرى صندوق مربع يستكين فوق عتب الباب.

أخذه الصندوق بوجل وفتحه عنوةً ليرتج جسده مع رؤية ملابس الصغير الغائب ملطخة بالدماء!

***

هل سمعتم من قبل عن قهر الرجال؟

إذًا فانصتوا..

ينحني بجذعه فوق الأرض الترابية يحيطه ظلام موحش، ولا همس غير لنهنهات متقطعة آتية من جوف يحترق.. من غيرها سيكون ملاذ وسكن لجرحه النازف؟

أين يروح عقب ما اسودت في وجهه الدنيا وضاقت؟

ومن غيرها جنته وناره.

يلتصق جسده بقبرها وبين أصابعه تسكن ثياب الصغير، رفعها يشتم بقايا عبق يسكنها ثم أنزلها



فوق فمه يقبلها هناك ويكتم بها نحيب يجرح حلقه، تولد العبرات من منبعهم لتنتهي فوقها.

هل فقده للأبد؟

أهكذا تنتهي الحكاية!

ولأن القلب المكلوم إكرامة في دفنه، هو فعل..

تحركت أظافره تنبش التربة دون وعيٍ حتى صنع حفرة صغيرة ترك فيها ثياب الصغير المعبقة بدمائه، ومع كل حفنة تراب يعود بها كانت تجاورها دقة من نابضه، أخرى وأخرى حتى انتهى.

رفع بصره للسماء الغائمة وصرخ، تبعتها ثانية ورابعة وسيظل يصرخ ويصرخ حتى يصل لنهاية



كل ألمٍ مستعرعايشة منذ وقع بصره فوق ثياب الصغيروكل لحظة سيحياها من بعده.

فوق قبرها ألقى برأسه المتعب، وبكاؤه العنيف يخترق السكون الموحش كاسرًا صمت الأموات المخيف..

يرتج جسده ويبكي عمرًا ضاع عبثًا..

يبكي نفسًا غريبة تسكنه وماعاد يعرفها..

يبكي صغيرًا كان الثمن لما اقترفت يداه في حق أمه قبل الجميع..

وظل يبكي ويبكي كما لم يفعل من قبل.



(٣٦)

مُفْزِعة تقلبات الدهر..

كنجم احترق فهوى من سبع سموات لسابع أرض..

حينما يتبدل الحال ويصبح دوامه من المحال..

يمر أمام ناظريه صورتين لا ثالث لهما؛ أولى يرى فيها حاله ينقض فوق جسدها، يحبس أنفاسها بخرقة معبقة بمخدر فعال، يحملها فوق كتفه ويهبط الدرج ملقيًا بها فوق أرض الشياطين لتبدأ قصة انتهاك حياة فتاة لا حول لها ولا قوة، فتاة دارت بها الأيام واستقرت بها في عقر داره تحمل اسمه وشرفه..



وفي المقابل تقبع صورة مشوشة لوجه طفله المخطوف وقد تمازجت بها ثيابه الملطخة بدم قان..

كيف وصلت الدماء لثيابه؟

هل قتلوه برصاصة!

أم عاثوا فسادًا بجسده الهش!!

مال برأسه فوق مقود السيارة يمرغها بعنف وعبرة خانقة تعبر سجن الأجفان بحرقة مؤلمة..

ليتجرع كأس أحزانه قطرة قطرة، ليجني ما اقترفت يداه قبل سنوات.. يستحق أن تلوكه أنياب الندم، يستحق أن تكون تلك نهايته، ألم يهدم سعادة الغير؟ ألم يسلب أمانهم!



فليتذوق مرارة الفقد، ليحيا بجحيم ما اقترف،

لتسقط مصقلة العدل فوق عنقه وتذيقه جزاء

ما افتعل..

لينلْ هو ما يستحق لكن لماذا صغيره..

ليس ذنبه..

الذنب والخطيئة هي حياته السابقة..

الجهل والضلال هما دربه القديم..

الظلم واستباحة مايملك الغير كانت قوانينه..

في شريعة من إذًا يدفع الملاك ضريبة الشيطان!

في شريعة الظلم ربما، الضلال يحتمل..

عاد برأسه المثقل يلقي بها للخلف، رابض منذ

ساعات داخل العربة أسفل البناية عقب ليلة



طويلة قضاها بين حنايا الأموات يشتم ريحهم ولا يلقاهم، يبعده عن بيته بضع أمتار ولا يقوى على وصول، كمن قطعت الطريق من أسفله فبات معلقاً دون ثبات، كمن أضاع العنوان والسكن فصار شريد الصحاري دون دليل.

كانت نظرته خاوية كسائر جسده، يرمق الفراغ من خلف الزجاج المظلل دون رؤيا، يكتفي بجلد الذات كل حين وكلما ظن أنه اكتفى يعاد ضاغطًا بقوة أكبر فوق مواطن الواجع ليزيد النزف، تتجمع عبرة ثقيلة فتسقط دون شعور تتبعها أخرى وليتها تجدي وتغسل خطاياه.





لايدري أيرثي حاله أم أن الرثاء شعور نظيف لايناسب قذارة شريط حياته المار بين أروقة الذاكرة في هاته اللحظة..

تعالى أزيز هاتفه الراقد في مكمنه منذ الأمس، لم يعيره أدنى إنتباه أو بالأحرى لم يجد الطاقة للرد حتى هدأ وخمد. لم تمر ثوان وكان أزيز مشابه يعلن عن وصول رسالة جديدة..

بآلية نقر فوق شاشته لتتسع عيناه ويتجمد الدمع مع رؤية صورة الصغير مستقره داخل الشاشة يصحبها عنوان مجهول قطب له جبينه. عاد بصره يحوم فوق الصورة بلهف قلب مكلوم عاد ينبض بالأمل!

****



تنتهي الأحلام حين نفقد معاني الحياة..

تغدو الروح خاوية إلا من بضع أنفاس دون قيمة حقيقية..

ننتهي حين يتساوى فينا الموت بالحياة.

مضى ليل طويل مترنح وأقبل آخر مثقل بهموم طالت الجميع، بروح شاحبة ترقد داخل فراشها بفعل مهدأ حقن بوريدها، كان الصندوق الملعون بمثابة قنبلة وسقطت بقلوبهم جميعًا، أصبح الأمل مجرد شعاع خافت أفلتته الأيادي في فزع.



وهي أمه صاحبة النصيب الأكبر في قسمة الوجع، ليتها تبقى للأبد بغياهب اللاوعي، ليتها تتجرد من كل مركز إحساس تملكه وشعور.

تحركت أصابعها برقة أعلى جبهتها وخصلاتها، لا تملك غير المساندة والدعم وليت كان لديها أكثر لقدمته إلى رفيقة القلب دون سابق تفكير.

أطلقت تنهيدة قصيرة لم تقطع السكون الذي كسره رنين هاتفها المتعال، سريعًا كتمت الصوت وعلى أطراف قدميها غادرت الغرفة، داخل النافذة العريضة توقفت تستقبل مكالمتها بهمس ملهوف شمل اسمه:

- مهند..

"وحشتيني"



عبرت أذنيها بلهفة مماثلة فتلاقت أهدابها على مهل ورأسها يميل فوق إطار النافذة تلجم مشاعر وتروض أنفاس بعثرها بصوته..

" طمنيني عنك.. كويسة؟"

تنهدت بحرارة متعبة:

- مش هبقى كويسة غير لما الكابوس ده يخلص.

" إن شاء الله هيخلص"

تهدج صوتها وذكرى الأمس تتوهج:

- هدومه كان عليها دم..

تعثرت بنشيج مكتوم فتابع عنها يحمل ثقل الكلام:

" متابع مع ماهر وبلغني باللي حصل"



صمت هنيهة استمع فيها لحشرجة حروفها المستنكرة:

- هو في ناس وحشة للدرجة دي!

وبينما كانت تلقي له بمخاوفها وتخفف من آلمها بمشاركته إياه كانت أخرى تقف من خلفها تستمع إلى حديثها بشفقة تزيد على حالها، كم تبدو بائسة وهي تقف هكذا تتلص على الغير متمنية لو كانت محلها، أن يكون بقربها ليحمل عنها مايجثم فوق صدرها.. تقهقرت خطواتها إلى الخلف وسريعًا كانت تختفي خلف باب موصد، تتطلع إلى الفراغ من حولها في كآبه..

وماذا بعد سماح؟



أتلك هي النهاية..

وحيدة بين جدارن فارغة، لايوجد من يقف جوارك يشد على يدك وقت الحاجة.. ماذا لو أخبرته أنك بحاجته بدلًا من التبجح في وجهه حتى غادر بوجه غير الذي أتى فيه، أكان صعب الركون إليه والسكون بين ضلوعه لربما كان وقع الألم أخف.

سارت ببطء حتى جلست فوق حافة الفراش بذهن شارد، ليت بإمكانية الزمن العودة للوراء، كانت لتعود بحياة أخيها هانئة كما كانت، وتعود هي لكنف بيتها وزوجها الذي تشتاقه بقدر احتياجها لوجوده في هاته اللحظة.



نفضت رأسها عن خبال أفكارها، ليعود أولاً ابن أخيها الغائب عن دنياهم فتستنير به عتمة القلوب وبعد ذلك لا شيء يهم، لا شيء على الإطلاق..

تركت لرأسها ودموعها حرية السقوط فوق الوسادة بينما قلبها يخبرها أنها كاذبة، مدعية.. جبانة لاتجيد غير التراجع والتواري خلف قناع زائف.

ولم تكن تدري أنه يجلس في الطرف الآخر بحال يماثلها، يحتل أحد مقاعد مائدة الطعام يلفه الظلام والصمت، يتطلع إلى الفراغ في وجوم قاتل، تقتله بغيابها وتعذبه بجفاءها، ذات القلب الأسود الصلد..



على ماذا تعاقبه لا يفهم؟!

أهناك رجل يصله خبر أن زوجته تشن عراكا حامي الوطيس مع إحداهن ولا يفقد صوابه؟

ربما قسى عليها قليلاً لكنها تستحق..

لم تكن لتفهم وتعي جسامة مافعلت إلا بهاته الطريقة، عليها أن تكون أكثر ثقة بنفسها وفيه، عليها أن تأخذ حقها بآدمية وليس بهمجية تضيع بها كل الحقوق.

زفر قانطًا ونهض عن جلوسه، عند فراشه دثر صغيرته الغافية جيدًا ودار يزيح جزء الشرشف الجانبي ويندس إلى داخله على مهل، رفع ساعده فوق جبهته وبصره السارح يعانق الصمت..



لم يكن يتصور يومًا أن يفقد صوابه لذلك الحد، حد فضح امرأة أمام الغير، وإن كانت المرأة أخت زوجته الراحلة والغير هم أمها وفقط، أمامها فضح حقيقة عرضها بطلبه للزواج منها دون ذرة حياة، من ثم تعمد احتكاكها بزوجته وشن عراك وسط الجميع، بعدها حذرها من الإقتراب ناحية عائلته.. وكان ملخص قراراته قطع زيارة ابنته إلى بيت الجدة طالما تلك النجلاء تسكنه كما سارع بنقلها لمدرسة أخرى وقد كان، حتى اللحظة لا يصدق حقيقة أن نجلاء الصغيرة تأتي بكل تلك الأفاعيل حد خوفه على طفلته من أمثالها.



حد بيته الذي استوى خراب بعد رحيلها فلم تعد تحلو به لقمة ولاعيش..

حد زوجته التي لاتزيد بجفاءها غير البعد والألم لكليهما، وبالرغم من كارثة ابن أخيها الواقعة إلا أنها تتمسك بعنادها وتكتفي بوصال صغيرته دونه، أو كما قالت هي ليست بحاجته من الأساس..

زفر بحنق وجسده يميل على جانبه، يضع الوسادة فوق رأسه يكتم بها أفكار الليل العقيمة ويتذكر فقط أنها غادرت بيتها بملأ إرادتها.. لتعود إذًا بذات الإرادة.

***



بعض الأحلام عمرها قصير..

تلك التي تبدأ بمسار خاطىء، دون جذور ثابتة تواجه العواصف، أحلام صبية دون موارد كافية تقوي من عودها وتثمرها..

وحلمها الوليد وئد في رحمه، قبل ما يتنفس أنفاس الحياة لفظ نهايته، كانت الكارثة قاصمة لقلبها، وأتى غيابه عن عالمها ليشيع بروحها الخواء..

كانت أيام مارقة كالحلم، فرحة زارت قلبها لأول مرة، متى اقترب وتملك، باح وأباح.. متى أخذها بين النجوم وكيف سقطت فجأة من بينهم!



رفعت ركبتيها لصدرها تضم نفسها بذراعيها، تكبل قلبا يستغيث وقد قتله القلق، ترى كيف حاله؟

قبل مايتدارك مصيبتهم سويًا جاءت مصيبة اختفاء ابن أخيه، مؤكد يعيشون جميعًا بكابوس مفجع، وصلها الخبر عن طريق أمها والعاملين بالمزرعة، الجميع يضرب كفا بكف متحسرين على الرضيع وحال ذويه، ليتها تستطيع الوقوف معه بقلب محننته، لكن كيف وهي أقسمت لأبيها أنها قطعت به كل وصال، وبالرغم من خوفها، عذابها، إلا أنها لا تستطيع، لايمكنها طعن ثقته مرة أخرى وهي مازالت تسدد دين الأولى، فأبيها يتحاشاها ويقاطعها بشكل كامل وهي تتحمل



وتصمت متأملة أن يرق قلبه وتنال العفو ولو بعد حين.

انفرج الباب وظهرت أمها من خلفه وبين يديها صينية طعام، ممتنة لوجودها بجانبها حتى وإن كانت لا تستحق غفرانها وضمتها التي لا تبخل بها في غياب أبيها..

- عيشة؛ يلا عشان تفطري.

حركت رأسها نفيا وهمست بفتور:

- ماليش نفس.

وتابعت بأمل تتفقد حال الصغير:

- مفيش جديد؟



جاورتها عقب ماتركت مابين يديها جانبا، تأسف وتتحسر شفتيها ما إن تحضر سيرة الرضيع المسكين:

- مفيش، ربنا يرده سالم ويبرد نار أمه المسكينة، كل ما أفتكرها تقطع قلبي، ربنا يصبرها ويلطف بيه يارب.

لم تجد عائشة ردًا فصمتت بوجه كئيب وعبرات التمعت بمقلتيها الداكنة، جذبتها أمها إلى صدرها، تربت فوق خصلاتها، تقاسمها الألم والخيبات، لتنهمر دموعها أكثر ويعلو النحيب بين ذراعيها..

تبكي حزنًا على الصغير كما تبكي حالها وحاله الذي تجهله.

ولم تكن تدري أن حالته مزرية وهو يقف في وجه أخته صارخاً بصبر نافذ:

- ميسون طلعيني من دماغك عشان ترتاحي.

ومقابل صراخه جاء صراخها يرج الأركان دون مبالاة أنهما بمقر عمل لا يلآئم ما يفعلانه:

- متعصبنيش!.. أنا ساكتة بس عشان الظروف اللي بنمر بيها لكن أقسم بالله يا أنس كل بلاويك دي مش هتعدي بالساهل.

وعلى صدى أمرها أنفتح الباب دون سابق إنذار وطل ماهر بنبرة جادة.. قوية:

- في إيه ياجماعة صوتكم جايب آخر الشركة!



لم يأبه أنس لحدة استنكاره وحضوره الغير مناسب بينما يرفع سبابته الحرة ويهتف بوجه ميسون من بين ضروسه.. ساخطا:

- بطلي تتأمري وتشخطي عشان أنا مابقتش عيل، ولعلمك الموضوع منتهي؛ أنا مش هتجوز غير اللي بحبها ومش هعمل غير اللي عاوزه وبس.

قالها واندفع للخارج بينما يده تغلق الباب من خلفه بعنف، كانت تقف من خلف مكتبها في تحفز وفاها مفغر لوقاحة كلماته وما إن اختفى حتى دارت برأسها إلى ماهر الواقف جانبًا ويبادلها النظر في صمت:

- شفت بجاحته!.. كل ده عشان خايفة عليه؟.. مش كفاية المصايب اللي عملها!..

قالت ختام جملتها بجسد تهالك فوق مقعدها، أصابعها العشر تحيط برأسها التي عادت ترفعها بحدة وتردف بأعصاب منفلته:

- مش كفاية علينا مصيبة حسن؟ ده عاوز يجنني!

- ممكن تهدي؟

قالها ماهر بينما يقترب بخطواته:

- أنس عنده حق، ده مش أسلوب تكلميه بيه وبعدين هو حر في حياته تدخلي ليه في قرراته؟

أجابته بغضب وحدة:

- يعني أيه حر؟.. جواز إيه اللي بيتكلم فيه ده وهو لسه طالب؟.. ده عيل!



جلس قبالتها مدمدما ببساطة كسرت حدتها:

- أنس مش عيل ياميسون، ده شاب مندفع وطايش حبتين كحال أي حد في سنه، بيحاول ياخد الحياة ببساطة من غير عقد.. وده وقت محتاج فيه لعقلك وصداقتك مش خوفك الشديد وانتقادك المستمر لتصرفاته.

- كل حاجة ملخبطه ياماهر، حسن من ناحية وأنس من ناحية وماما من ناحية تالتة.. أنا مبقتش عارفة أعمل أيه ولا أتصرف إزاي.

قالتها بزفرة أسى ويأس ليربت فوق كفها الساكن مغمغما:



- خلينا مع حسن دلوقتي، محنته تقيلة ومحتاج لنا جنبه.. بعدها كل حاجة بسيطة وهتتحل متتقلقيش.

وافقته بهمس خافت وبصرها يعانق بصره بأمل أن تمر زوبعتهم الكبيرة دون خسائر حقيقية:

- يارب.

وفي الشدائد لانحتاج غير ربتة تخبرنا أن كل شيء سيمر، كل شيء سيكون بخير.. حتى لو كذبًا.

***

بين لجة الظلام يكون خيط الأمل رفيع، دقيق نخشى إمساكه فينقطع، لكننا نفعل حين لانملك سبيل آخر غير المجازفة..



زفرة أمل عبرت شفتيه ما إن توقف أسفل بناية نائية عن زحم المدينة، عنوان جاور صورة طفله الغائب عبر رقم غريب حاول الوصول إلى صاحبه لكنه مغلق، هكذا تفيد الرسالة الصوتية، وكأنه أوجز مهمته بإثارة الحيرة والقلق المضاعف بصدره مع شعاع من أمل خافت عبر دجنة أفكاره على إستحياء ليتشبث فيه بكل ما أوتي من قوة.. دون حسابات عقل إتبع همس الأبوة المستغيث بداخله وتوجه إلى العنوان المعني دون الرجوع لأحد.

ترجل من السيارة، يجول نظره من حوله ليقابله هدوء الليل الثقيل والسكون بين الأبنية الحديثة، عاد بصره يقرأ العنوان المدون مرة



بثينة عثمان

جديدة ثم ارتفع يبحث عن رقم البناية حتى رآه فقبضت أصابعة فوق الهاتف الساكن بينها وخطواته تتقدم.

مكان المصعد فارغ ولا وجود لمؤشرات تنبأ عن وجود قاطنين بالعقار، تسابقت خطواته في حذر فوق الدرج، عند الدور الثالث شقة رقم 9 توقف يلتقط أنفاسه بينما كفه الأيسر ارتفع على مهل يسحب سلاحه، مسدس جلوك٧١ آخر ما تبقى من ذكرى حسن القديم ولم يكن يدر أنه سيأتي اليوم الذي يلجأ إليه بحثًا فيه عن حماية.

قطب جبينه لرؤية باب الشقة موارب، كأنما هناك من يقبع بإنتظاره ويتفنن في حرق

أعصابه، دفعه ببطء وأزيزه المزعج يصاحب خطواته الثقيلة، شقة بتشطيب حديث فاخر إلا أنها فارغة تمامًا، تحرك بتوجس وأصابعه تشد فوق المسدس الرابض بجانبه، مال برأسه يتفقد أول حجرة قابلته وقد ملأتها الصناديق الورقية الفارغة، خطى يركل هذه وتلك، يتفقد ويبحث عما فقد وحين لم يجد شيئا خطى للخارج وما إن فعل حتى إصطدم بصره بحائط بشري يوجه فوهة السلاح ناحية رأسه مع هتاف خشن:

- إرمي سلاحك وأمشي قدامي.

لم يمتثل لأمره وبقي سلاحه بدوره مرفوعًا في وجهه حتى شعر بأنفاس آخر تلفح مسامعه من الخلف مع فوهة ثانية تلتحم برأسه:

- أسمع الكلام لو عايز تشوف إبنك.

أغمض عينيه لثوان، لايدري ولا يفهم ماهية مايحدث، وهل ابنه بالفعل مازال على قيد الحياة أم هذا كله مجرد وسيلة للوصول إليه.. ولأنه لايملك شيء ولن يخسر أكثر مماخسر بالفعل افترق جفنيه واسقط سلاحه فوق الأرضية ليصدر ضجيج متعال رافق قهقهات الرجلين الخشنة.

دفعه الواقف من الخلف مجبرًا إياه على التقدم، أمام إحدى الغرف دفعه للدخول وما إن فعل حتى كان الباب يغلق من خلفه، أقدامه تتحرك بتوجس غريزي بينما بصره يضيق بتركيز فوق المكتب العريض وتحديدًا فوق الكرسي

الذي يوليه ظهره ويتارجح يمنية ويسرى على مهل وتأني، وكان على يقين أن خلف ذاك الكرسي يقبع حل اللغز، تكمن الحقيقة الكاملة.. وصدق حدسه مع استدارة الكرسي والنبرة الطاغية التي شقت السكون:

- شرفت يا أبوعلي.

أطال النظر بعقدة جبين، لتبرز تلك القسمات وذلك الوجه من بين طيات الذاكرة، وما إن فعل حتى جلب الاستنكار كله في كلمة واحدة:

- أنتِ!

***

لا تقتحم جحر امرأة وتظن بعدها النجاة

وأنت يا عزيزي في حضرة امرأة لاتشبه غيرها من النساء

بخفة جسد افترق وركيها عن بعضهما لتنهض من فوق مقعدها بإبتسامة خبيثة، تمايل جسدها داخل ثوبها القصير حتى قابلت الواجم في وقفته، كان وقع الصدمة أكبر من تخطيه بسهولة ويسر، وربما الأمر أشبه بدعابة ثقيلة، سخيفة حد اللاتصديق..

- إيه متفاجىء؟

قالتها برفعة حاجبين ساخرة بينما رأسها يقترب حتى جاورت أذنه وتابعت على مهل بهمس كريه:

- خد وقتك عشان الجاي محتاج تركيز.



وعادت تعدل من وقفتها، تعقد ساعديها فوق صدرها، تنفض خصلاتها للوراء وأنفها يرتفع للأعلى في شموخ، تقف في ثبات إلا من طرقعة كعب حذائها الرتيب والذي صاحب زحم الذكرى، كانت ليلة استثنائية يومها رغم نهايتها السريعة، كان صيد ثمين بحق..

الاسم: ميرال طارق الدقاق.

السن: ٢٩ عاما.

الوظيفة: مديرعام مجموعة الدقاق الاستثمارية.

الحالة االجتماعية: مطلقة.

المطلوب: قرط ماسي يساوي"مبلغ وقدره"

كانت ليلة مميزة بنكهة امرأة لا تنسى..

- ممكن؟

"وانتهت اللثمة باكتساح شفاه كان يغطيهما طلاء ثمنه فلاني"

وظفر الرجل..

في عرف الضحية الأنثى

الفضيحة عار

والتستر خير سبيل

حتى لو كانت خسائرها تساوي" مبلغ وقدره"

وبعد أكثر من ثلاث أعوام خاب منطق الرجل..

فالخسارة لم تكن يوما قرط يساوي مبلغ وقدره،

بل في الحقيقية هي خسارة كبرياء وأنوثة ذبحت بسكين ثالم..



"وجدير بالذكرأن السيدة ميرال تعاني من تخبط عاطفي شديد إثر خيانة زوجها لها، وتفضيل إحدى صديقاتها عليها بعد عام واحد من الزواج.. وكان الإنفصال الحضاري أفضل الحلول ليحافظ كلاهما على وضعه الإجتماعي"

كانت تلك امرأة الأمس..

أما اليوم فهي عاشقة تبحث عن ثأر تعيد به كبريائها المفقود.

امرأة تنتهج أرذل الطرق وأبخسها، وربما هو القدر الذي أوقع به في طريقها نحو الإنتقام حين رأته مصادفة في أحد المطاعم الشهيره يرافق رجال الأعمال وكأنه ولد ليكون منهم ولايشبه ذاك المحتال الذي خدعها بمهارة ويسر لتقرر في

وقتها أنه لا غيره سيكون طريقها للعبور والوصول للمبتغى.. طريق بدأته بإختطاف الرضيع عقب إتفاق مسبق مع ممرض الطبيب المتابع لحالة زوجته، كلفها ذلك مبلغاً لا بأس به لكن لا يهم، مايهم بحق هو نيل المراد وهاهي تسعى إليه بخطى ثابتة.

طرقعت أصابعها أمام وجهه لتعود به إلى الحاضر الساخر:

- أخدت وقت أكتر من اللازم.

أدركت أنها نجحت وباقتدار في صحوة شياطينه حين هجم عليها، تطبق أصابعه فوق ذراعها، يثنيه خلف ظهرها بعنف عكسه صياحه:



- وإبني ذنبه إيييه!

وماكاد ينهي جملته حتى انفتح الباب المغلق ودلف رجال السيدة، لم يحتج الأمر لأكثر من ثوان وكان فكه ينال لكمة قوية زلزلت وقوفه وإرتج لها سائر الجسد..

- سيبوه!..

أمرت السيدة فأمتثل رجالها في صمت حتى صرفتهم بإشارة كف، عادت تقترب وتواجه عيني حسن المخترقه لها بأسهم من نار لتزداد متعتها أضعافًا، اقتربت حد إبهامها الذي امتد يقطع خط الدماء الرفيع السائل من جانب فمه في عنف وازى قوة كلماتها:



- ذنبه الوحيد أنه إبنك.

أزاح يدها عن مرماه بقسمات مكفهره فين حين اطالت بنظراتها الفيروزية النظر، تجابه شراسة نظرته بأخرى أكثر ضراوة وحركة كتفين تعني استهانة واضحة بالخصم:

- جه الوقت اللي تدفع فيه تمن اللي أخدته بالنصب والتدليس.

- هدفع لك اللي تطلبيه.

أجاب سريعًا فقهقهت بقوة ونصف استدارة مغناج، تمط شفتيها وتخبره بفجاجة مبطنة:

- حسبتها غلط ياحسن.



والتف رأسها يحاكي نظرته بجرأة مفضوحة، تخبره أن الدين لايقترن بالمال، بل هو انتهاك غير مباح.

جلست فوق مقعدها في غنج امتزج بصلابة ليكونا مزيج من السطوة الناعمة سال من أجلها لعاب الكثير.. تأمر بترفع:

- إقعد.. واسمعني.

اقترب يحني جذعه فوق مكتبها، يبادل أنفاسها العطره بأخرى محترقة صاحبها نقر سبابته وزمجرة حروفه:

- مش هسمع حرف غير لما أطمن على ابني وأشوفه بعيني.



زاغ بصرها، تغمغم بسخرية لآذعة:

- تصدق قتلتني بحنية قلبك.

وببطء مدروس تناولت هاتفها تنقر فوق شاشته

وما إن وصلها الطرف الآخر حتى دمدمت

بعصبية وصبر نافذ:

- شغل الكام..

وعقب ثوان قرع فيها قلبه بإنتظار كطبول حرب

صاخبة دارت بشاشة الهاتف إليه: فرأى

صغيره..

يحرك رأسه ويده في هدوء لايشبه مايعتمل

بداخل أبيه الذي تثاقل لسانه على الحركة وبقي



بصره معلقًا فيه بينما ثغره اهتز دون شعور فرحا بأمل نبض ونبض حد تعثر النبضات.

قطعت وصال اللحظة بإبعاد الهاتف عن مرمى بصره المعلق ثم حدجته من مكانها بنظرة مستخفه وغمغمة باردة:

- سوري بس ماعنديش وقت للحظات المؤثرة دي.

- هاتي اللي عندك.

قالها باستخفاف مماثل وهو يجلس رافعا ساق فوق الأخرى بينما نظرته القاتمة تحاكي الكثير، بات يعلم أنه في حضرة حية رقطاء تجيد الرقص على انغامها الخاصة، امرأة ليس لديها ماتخسره



وعلى أتم استعداد للدغ كل من دخل جحرها ذات يوم..

جلب هدوء وصمت أبعد مايكون عن استطاعته في هاته اللحظة لكن رؤية الصغير يتنفس الحياة أعادت له الأمل الكبير، بل اشعلت فيه قناديل الحياة.

رفعت أمام عينيه صورة فوتوغرافية لرجل أربعيني يحمل طفل بعمر السادسة ربما ويضحكان بمرح، دقق بالصورة دون فهم حتى جاءت نبرتها كفحيح حية أجادت صيد طريدتها:

- أحب أعرفك.. شريف طليقي وابنه.



وبحركة أصابع مزقت الصورة لعدة اجزاء صغيرة ثم نثرتها بنفخة هواء وابتسامتها الجانبية تفترش أرض المفاوضات زينتها بنظرة حقد قاتمة وميل صغير لرأسها ناحية اليمين:

- حياة ابنه..

وميل آخر ناحية اليسار جاءت فيه بزبد الحديث:

- قصاد حياة ابنك.



(٣٧)

الخير والشر

هما الدرب المختار

أول الطريق ونهايته، مشوار العمر الذي تمضي فيه مخير بإرادتك العظمى..

لكن تحدث المعضلة حين تسقط بينهما، حين تنقسم لنصفين، يطفو بك حبل الخير نحو النجاة وفي خبث يسحبك الشر الدفين نحو الأعماق، الأمر أشبه بدوامة كبيرة تبتلعك دون وعي وليست بك طاقة للتصدي..

"معاك تمانية وأربعين ساعة أسمع فيها خبر موت ابن شريف أو تستعد لدفن ابنك"



هكذا تشدقت بشفاه مضمومة قبل رحيلها تاركة إياه بين السندان والمطرقة، الأمر تخطى اللاتصديق وبات أقرب للخبال!

أي عبث يحدث؟

بأي مزحة ثقيلة سقط!

سقط بين شباك حرباء أجادت نصب فخاخها، وسخرية القدر تخبره أنه وابنه مجرد وسيلة وصول لمبتغاها الشيطاني..

على نهاية الزمان يكون معبر لامرأة تسعى للنيل من رجلها الخائن!

امرأة دعست بحذائها فوق أمان بيته لتحيله إلى خراب، تتسلى بالجميع وتعبث حتى ترضي



كبريائها الجريح بفرض سيطرة وانتقام أهوج لايهم من يدهس في طريقه.

وفي رواية أخرى يقال يسقى الساقي بما سقى، أو عدالة السماء التي لا تعرف ظلم..

هو حصاد الأمس الذي زرع في أرض الضلال ياحسن.

زفرة طويلة شقت صدره فحملها سكون الليل البهيم على مهل، يركن بجسده إلى مقدمة السيارة الرابضة مكانها منذ ساعات، منذ غادر جحر الحية الملعونة وهو يقف مكانه وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، حشرته بخانة اليك، لم تترك له الخيار أو الوقت الكافي.



رفع رأسه للأعلى، يعتصر جفنيه ويستحضر بدماغه صورة صغيره عبر شاشتها ليطلق آهة طويلة..

آهة لقلبه المفطور

وآهة لفكره الضائع

ومليون آهة على حاله وما آل إليه

"صدقني ياحسن الصدفة هي اللي رمتك في طريقي.. لنا نصيب نصفي الحساب القديم"

" ماتعرفش يا أخي لحد أمتى هنفضل نعاني بسبب وساختكم!"

"ماتديش نفسك قيمة أكبر منها، أنت مجرد كوبري هيوصلني للي عيزاه.. وكده نبقى خالصين"

على صدى جملتها الأخيرة افترق جفناه على نظرة قاتمة، تكيل وتزيد لأنها تدري أنه بمركز ضعف، تثني ذراعه بصغيره وهو يبتلع الكلمات المسننة بسم قاتل في صمت ومرارة غضب مكتوم حتى غادرت وتركته فريسة لشتات أفكاره.

كونه ينفذ ماتريد أي أنه أوصلها لمبتغاها، مجرد التفكير في الأمر يجعله يحترق بحق، لن تنال مرادها تلك الحقيرة إلا على جثته، لكن خوفه على الصغير يكبله، بل يرتعب لفكرة خسرانه بعد رؤيته يتنفس.

استقام في وقفته يتحرك على جانب الطريق للأمام ثم يعود إلى السيارة في خطوات وئيدة،



أصابعه تتشبث برأسه يسألها الغوث، المساندة في عتمة الأفكار المبعثرة.

بعد حين توقفت خطواته، ارتكز بكفيه فوق مقدمة السيارة وظل يرمق الأفق البعيد دون رؤية حقيقية وقد ضاقت عيناه في تفكير عميق حتى استنار له من قلب الجب فكرة شيطانية، مهللة بكل خلية استنفرت وعادت تعمل بعقل الداهية القديم.

بعد وقت قصير كان يلتهم بخطواته الواسعة أروقة الشركة الخالية بهذا التوقيت الباكر، دلف إلى غرفة مكتبه ليجد أنس وماهر في انتظاره كما طلب، كان يتحرك في المكان في



صمت بفكر مذبذب؛ مشتت، يبحث عن بداية الخيط لتكون منه استهلال الحديث.

- خير ياحسن.

جاءت نبرة ماهر المستفسرة كناقوس ذكره بمداهمة الوقت، وأنه بالفعل لا يملك الكثير..

- أنا لقيت علي!

اجتاحت وجوهم الصدمة فاستطرد موضحا وأصابعة تفرك جبهته في توتر واضح:

- أقصد وصلت للي خاطفينه.

- عاوزين فلوس؟

سأل ماهر المتحفز بعين ضاقت في تفكير بديهي ليأتيه الجواب بهزة رأس تنفي في صمت، في حين





صدح صوت أنس مجلجلا في استنكار استقام به من جلوسه:

- ومستني إيه؟ ما تبلغ البوليس!

قلص مابينهما في خطوة واحدة، امسك بكتفه وضغط عليها في تحذير شديد:

- اوعى يا أنس.. أي كلام هيتقال دلوقتي مش هيخرج بره الباب ده، مفهوم؟

أومأ موافقا دون فهم بينما يقترب ماهر، يسأله دون مواره:

- في إيه ياحسن؟ فهمنا عشان نقدر نساعدك.

تحرك حسن حتى جلس فوق حافة منضدة تتوسط الغرفة، يقابلهم وكل خلية فيه تستنفر



استعدادًا لخوض النزال، نزال لايملك فيه غير النصر أو الموت؛ فالخسارة لم تعد اختيار..

- أنا محتاج مساعدتكم عشان أرجع ابني، مفيش حد تاني أقدر أثق فيه.

- ماتفهمنا ياعم إيه الحكاية بدل حرق الأعصاب ده!

كان ذلك هتاف أنس المتعجب عقب ماتبادل وماهر النظرات القلقة، حرر زفرة حارة قبل ما يمسح عن وجهه بكفيه ويدمدم لهما في تردد:

- اسمها ميرال الدقاق...



وسرد بقية الحكاية، من بداية المقابلة مرورا بمقايضة الأرواح حتى رحيلها ورجالها وتركه وحيدا بعقر الشقة الفارغة.. ختاماً بما ينوي!

- يانهار أسود..

كانت تلك انتفاضة أنس المذعورة، ليتابع بغير تصديق:

- تقتل؟.. تقتل ياحسن!

- بقول نقنعها بكده ياحمار.. افهم.

ترك أنس الواجم ودار برأسه إلى ماهر الصامت، يبادله النظر في ترقب المنتظر، ولم يطل انتظاره إذ دمدم ماهر بتفكير مذبذب من هول ما سمع:



- شوف ياحسن ربنا يعلم أنا مقدر موقفك كأب قد إيه وعايز أساعدك بس.. فكرة الأذى نفسها مش مقبولة عندي.

انتفض حسن من جلسته يهدر بعنف وقد شعر بيد تزيد من حول عنقه الخناق:

- وهي لما تخطف عيل مكملش يوم يبقى مش أذى؟ وأما تفكر تقتل عيل تاني مالوش ذنب عشان بس تنتقم من طليقها الخاين يبقى مش أذى!

وضحك ساخرًا يتمم جملته:

- أذى إيه اللي بتتكلم فيه ياماهر.. دي شيطانة.



اقترب أنس يقابله، ينظر ويتمعن في قسماته الغاضبة ثم يهمس في محاولة منه لسبر أغواره:

- أنا محتاج أفهم ليه أنتَ بالذات؟ ليه تخطف ابنك وتعمل كل الحوار ده وهي تقدر تجيب اللي يخلص لها بسهولة.. أنتَ تعرف الست دي مش كده؟

ابتلع لعابه بعسر تحت نظرات ماهر المراقبة من بعيد وأنس القريب.. ليغمغم بعد حين بجفاء مختصر:

- تار قديم.

واستدار عنه يوليه ظهره متابعًا:



- بس ده ميديهاش الحق تدخل ابني فيه، قلت لها خرجيه بره اللعبة ونصفي حسابنا زي ماتحبي؛ رفضت.. هي اختارت يبقى تتحمل.

ولم يحتاج الأمر لكثير من التفسير حتى يصل لمستمعيه حقيقة الثأر الذي يعنيه ولا يفصح عنه بوضوح، قضية سجنه التي يعرفها المقربون هي النقطة السوداء المسطورة بكتاب تاريخه وعليها يترتب الكثير من الأفكار، نقطة لم يتطرق إليها مخلوق واكتفوا جميعًا بصورة الرجل الذي عرفوه متناسين حقيقية ماض لايهمهم في شيء، وربما لأن الحاضر كان مشرقًا بما يكفي ليستر ظلمة ماسبق.



عاد حسن يقابل أنس العابس وصوته يعبر مسامع كليهما على حد السواء في تصميم لا يقبل تراجع:

- نهاية الحوار بيكم من غيركم أنا مكمل حتى لو هيكون ده آخر يوم في عمري، ابني بين ايديها ومعنديش حاجة أخسرها أكتر من كده.

- مطلوب مني إيه بالظبط؟

جاءت نبرة ماهر قوية، ثابتة ليتطلع له حسن في امتنان خفي أعقبه اقتراب وغمغمة:

- عايز معلومات شاملة عن اللي اسمها ميرال، أصلها فصلها وكل حاجة تملكها.. وكمان طليقها كل حاجة تخص عيلته.



- حسن أنتَ مش ناوي تأذي الولد مش كده؟

- مش هأذي حد مالوش ذنب ياماهر.

- ساعتين وأجي لك بالمفيد.

قالها ماهر وغادر الحجرة، بينما تحرك حسن يرفع ساعده يتطلع للساعة التي تشير إلى السادسة صباحًا فهمت خطواته للخارج على عجل قطعه خطوات أنس المترددة:

- وأنا هعمل إيه؟

دونما التفات دمدم له من خلف كتفه:

- في الوقت المناسب هقولك.

ورحل.

****



وحدهم البشر لهم القدرة العجيبة في استنزاف آخر طاقاتك وإخراج أسوء مافيك، وحدهم يملكون شفرة صحوة شياطينك الكامنة

لم يأت على خاطره أنه ذات يوم سوف يطأ بأقدامه أرض هذا الملهى القذر مرة أخرى، كان قد ترك عهده القديم بكل مافيه، نظف حياته من كل وسخ عالق وارتدى ثوب جديد، نظيف لايمت هذا كله بصلة.

اختار درب الحياة وودع درب الموت، حد أنه تناسى حسن القديم بكل ما كان وارتاح لذاك الآخر، زرع جذوره بأرض الشرفاء وعاش بين أشخاص نفوسهم لا تعرف المصالح، لم يكن



الجشع من سماتهم ولا الدناءة ضمن أخلاقهم يوما..

كانوا يشبهون الكثير وحده كان الشاذ من بينهم حتى تآلف معهم وتوالف فبات يرى حاله يشبههم وقد تطبع بطباعهم..

يوما بعد يوم أصبح يرى نفسه مسؤول عنهم جميعا، منحوه مايكفي من المشاعر الطيبة والمكانة العلية فلم يجد غير أن يظللهم تحت جناحيه ويكون لهم عند حسن الظن.

حول منضدة مستديرة بغطاء نبيذي كان يضطجع رجلا أصلع الرأس، خشن الملامح بندبة طويلة شملت جانب وجهه، مجرم متمرس لديه عدة سوابق، معروف بين أمثاله بمهارته وحنكته

وجشعه اللامحدود.. لم يكن الخمر عبث بوعيه بعد حين رفع برأسه للواقف فوقه يتطلع له في صمت كسره بزمجرة غليظة:

- في حاجة يا أخينا؟

جلس حسن فوق مقعد مقابل وفوق سطح المنضدة ترك رزمة مال سال لها لعاب الرجل بينما يهمس له بغمزة عين:

- في مصلحة هتأكلك الشهد.

قهقه الرجل وهو يعدل من وضعه، يميل بجذعه فوق الطاولة وقد تعرف على هوية محدثه عقب إمعان لملامحه، يبادله الغمزة بأخرى في فهم لنوعية المصلحة المعنية دون حاجة لحديث:



- اؤمرني يا صاحبي، قتل.. حرق.. ولا إغتشاب لامؤاخذة.

أنهى جملته بقهقه جديدة بينما نظرات حسن الجامدة تتفحص خشونة ملامحه بازدراء خفي، طاف بصره من حوله يراقب أكثر الصور فجورا وفسقا، يتذكر كيف كان يمضي الكثير من لياليه بين هؤلاء السكارى المغيبين أشباه البشر، قبضة قوية لكمت معدته فسحقتها وهو يجتر ذكرى خلف الأخرى.. حرك رأسه ينفض كل تشتت يسرق منه وقته المارق.. وعاد للجالس قبالته بهتاف قوي اخترق أذنيه:

- خطف ياربيع.



وصاحب جملته رزمة ثانية جاورت الأولى على مهل، ليسحبهم الرجل عنوة يتمعن فيهم ويشتم ريحهم بينما يغمغم منهيا الحديث:

- استبينا ياسيد المعلمين.

هكذا ببساطة انتهى الأمر.

وهل هناك أبخس ثمنا من أرواح البشر؟

والجواب لايحتاج لتفكير..

فكل شيء مقابل المال هو هين، بخس، لا يساوي مثقال ذرة.

بعد حين كان يهرول نحو الخارج ضاغطا فوق معدته، جوار السيارة انكفىء على حالة يفرغ جوفه مما علق فيه من مشروب، اضطر أن

يتجرع بضع رشفات حينما أصر عليه الرجل أن يفعل نخب اتفاقهم الجديد ولم يجد مهربا من إصراره غير مجاراته الكاذبة.

اعتدل يمسح عن فمه بمحرمة ورقية جعدها بين راحته ثم ألقى بها أرضا، يرتكن بجسده على السيارة ويرفع بصره الكالح نحو الأفق..

يدري أنه يغامر بروحه..

يعبث بأمان نفسه واستقرارها، يسحبها إلى ماض كانت تهواه يوما وتأنس فيه..

يحرك فيها رماد الأمس والويل كل الويل لو وجد الرماد جذوة.. واشتعل.

***



يولد الرفق واللين من رحم الإنسانية

وتولد القسوة من رحم القسوة

قسوة أيام.. تربية.. بشر..

هي الأيام طاحونة الحياة، تدور وتدور وأنت عالق بين شفراتها لا تدري على أي ضفاف ستلقي بك..

وقسوة القلوب تصنعها الكثير من الخيبات

يكون الخافق بين الضلوع مجرد مضغة تهدر وتنبض دون شعور حقيقي بالحياة.

والهادر كان صوته بجفاء وخواء يشبه جوفه المحترق بلهيب سيجار عالق بين السبابة والوسطى:



- شريف المصري..

وكان إقرار أكثر منه سؤال، لم يصل أذنيه غير همهمة أب جزع فقد ابنه منذ ساعات ويكاد يجن دون فائدة:

- ابنك عندي.

وما إن لفظها حتى جن جنون الطرف الآخر وصاح بوحشية:

" أنت بتقول إيه!.. أنا هوديك في ستين داهية لو ابني جرى له حاجة، أنا هخرب بيتك ياابن الكلب، أنا.. "

قاطع صراخه عبر شبكة الهاتف بزمجرة خشنة تعالت على مهل:



- ششششش إخرس خالص وبلاش دوشة كدابة..
ابنك هيرجع صاغ سليم وفوقيه بوسة لو نفذت
اللي هطلبه منك، غيركده شوف آخرك ايه
وهاته بس ابقى قابلني لو شفت ضفره تاني.

استشعر محدثه الخطر يرفرف حول طفله
فهادن برفق وجزع غلب نبرته:

"عايزكام؟ شوف الرقم اللي يرضيك وأنا
موافق.. بس ابني يرجع
حالا!"

- لأ الحوار أبسط من كده بكتير ومش هيكلفك
مليم.. دي مسرحية صغيرة مجرد ما تنفذها
ابنك هيرجع لحضنك.



"مسرحية! مسرحية إيه؟.. أنتَ بتهزر يابن ال***

أقسم بالله لوديكم في ستين داهية، والله لو

لمست من الولد شعره هيكون آخر يوم في عمرك

أنتَ واللي باعتك، أنا هعرف أدفعكم تمن

وساختكم دي كويس!"

- خلصت؟.. استهدى بالله كده بروح أمك عشان

يظهر انك غبي ومفهمتش كلامي.

" أنتَ عاوز إيييييه!"

- هتقول أن جالك تلفون من مستشفى(....)

بلغوك فيه عن وجود ابنك، تاخد عربيتك وتطلع

على المستشفى.. بعدها تنشر خبر إن ابنك مات.



صاح الرجل في هلع بمجرد مرور الفكرة أمام ناظريه:

"أنتَ بتقول إيه.. أنتَ أكيد مجنون!"

زعق فيه بغلظة:

- متقاطعنيش..

سحب شهيق من عبق السيجار ثم نفث دخانه على مهل مدروس بينما يستطرد في هدوء بقية سيناريو المسرحية المطلوبة:

- عايز الخبر ينتشر زي النار بين الناس، والأهم أن الكل يصدق ويتكلم عنه حتى لو اضطريت أنك تنصب وتاخد عزاه.. لو عملت كده خلال ساعات ابنك هيرجعلك وتفهم مين وراء الليلة



دي كلها، أما بقى لو ركبت دماغك ورفضت يبقى تجهز الصوان عشان برده هتاخد عزاه لكن بحق وحقيقي مش تمثيل.. طبعا مفيش داعي أقولك خلي الحكومة بعيد عشان لو شمت خبر هيعملوا دوشة مش وقتها، وده مش كويس لابنك.

"وإيه يخليني أصدق الجنان ده؟.. إيه يثبت أنك مش كذاب وبتعمل تمثلية حقيرة زي اللي مشغلينك!"

- كلامي معاك هو إثباتي الوحيد، هعد لعشرة أسمع بعدها قرارك الأخير.. ولآخر مرة هقولها عاوز ابنك يرجع من غير خربوش صغير نفذ، مش عاوز يبقى براحتك بس ورحمة أمي مش هتشم ريحته تاني؛ نقطة ومات الكلام.



وبدأ العد التازلي:

- عشرة.. تمانية.. ستة.. أربعة..

"موافق"

- كده متفقين.

أبعد الهاتف عن أذنه في حدة، يلتقط أنفاسه بينما يرمق شاشته المظلمة في جمود قبل ما يفكك الجهاز ويستخرج الشريحة الداخلية.

كسرها لنصفين ثم فرد ذراعه وألقى بها من أعلى السور إلى المجهول، رفع سيجاره يسحب شهيق طويل، حبسه داخل صدره ثم زفر دخانه ببطء فتلون الأفق بشيء من ضباب.



كان يجلس فوق حافة السور العريض دون خوف أو فزع خلفته تسع طوابق.. بل كان الأمر أشبه بمقابلة صديق قديم، صديق عاد ومعه الذكرى البالية للأيام الخوالي بكل صورها وتفاصيلها المشوهة، السطح الفسيح.. حجرته المعزولة.. آلات تريضه المغطاة جانبًا.. وحتى صوت ميساء الرفيع لم تتغير بحته الرنانة:

- يعني أنتَ قاعد هنا تتمزج وسايب لي القتيل ده تحت يتقلب يمين وشمال!

دهس السيجار فوق حافة السور واستدار ببطء حافظ فيه على توازن شبه مفقود، وما إن فعل حتى قفز ليقف على قدميه مقابلا إياها بوجه بارد:



- فاق؟

تعجبت لبرودة نبرته فشهقت دون صوت بينما ضروسها تلوك علكتها الأثيرة على مر الزمان وكفيها يتخصران وسطها بتأفف واضح:

- فاق ياخويا وشغال زن زن خوتني.

أبعدها عن طريقه بإزاحة صغيرة من ذراعه وتحرك يجر أقدامه المثقلة، يهبط الدرج بتلكأ حتى وصل لباب الشقة المفتوح، دلف ومن خلفه كانت تتبعه.

كان الصغير ذو الست سنوات ينكمش في زاوية الأريكة بنحيب بح له صوته، اقترب حسن يربت فوق رأسه ويدحر ذعره بكلمات هادئة وقد خلع



عنه الثوب القديم، هو بالأحرى لا يظهر إلا لمستحقيه:

- هو في رجالة ينفع تعيط كده؟..

غص الصغير المنكمش وهو يهمس بحروف مبعثرة وعيناه تدور في المكان الغريب بذعر:

- خااا.. يف.

حرك إبهامه فوق وجنته يقطع عبراته المتزايدة بينما يهمس له من جديد برفق ولين:

- متخافش ياعمر هترجع لبابا كمان شوية.. بس قولي أنتَ اسمك عمر فعلا ولا أنا بقول غلط؟

حرك الولد رأسه مؤكدا بنبرة جاءت مطمئنة بعض الشيء:



- آه عمر.

عبث بخصلاته في مرح مصطنع:

- طيب جعان ياعمر؟

حرك الولد رأسه في إيجاب وثغره يتبسم في براءة تليق بسنه، بادله التبسم قبل ما يستدير ناحية تلك الواقفة جانبًا وجانب شفتها يرتفع في امتعاض واضح، تلاشت بسمته مع هتافه الحاد:

- شوفي لقمة للواد ياكلها.

- لا بقى مش متحركة من مكاني غير لما أفهم إيه العبارة؟ وإيه النصيبة اللي جايبها معاك دي!



ختمت جملتها المفتعلة بإشارة كف نحو الصغير، نهض يسحبها من ذراعها متواريا بها على جنب ليهدر أمام وجهها القريب:

- مش تلمي الليلة بقى يا ميساء؟ قلت لك كام ساعة وهمشي.. نيميها بقى.

أجابت بمكر تجيده:

- هو يعني إكمني ست وحيدة ومكسورة الجناح أفتح بيتي مفروش للجاي والرايح؟ لأ يا حبيبي أنا ست ماليش غير سمعتي وسط الناس.

شملها من أخمص قدميها حتى رأسها بنظرة ساخرة ونبرة بطنها الكثير:



- جرى إيه ياميمي ده إحنا دفنينه سوى.. وإن كان الحاج الله يرحمه اتقرطس لحد ما إتكل ولاده لسه عايشين وشوفي أنتِ بقى لو عرفوا بالمشي البطال للست اللي شالت اسم أبوهم في يوم.. ده مش بعيد يرموكي في الشارع ولا أنتِ رأيك إيه؟

صاحت بعقدة جبين:

- أنتَ بتهددني ياحسن؟

ربت فوق وجنتها بسخرية لاذعة:

- ده مش تهديد ياروح حسن، قلت لك كام ساعة ومش هتشوفي وشي تاني أنتِ اللي مصره ترغي وتصدعينا.



تأففت في وجهه بسخط فنهرها بسخط أكبر:

- متنفخيش، ويلا روحي شوفي للواد لقمة يأكلها.

- منين ياحبيبي؟ ولا هنا مائدة رحمن وأنا معرفش!

ترك داخل كفها ورقة من فئة المئتين جنيه بينما يغمغم بازدراء واضح:

- إيه مبتشبعيش.

مصمصت شفتيها بينما تحشر الورقة داخل قبة ثوبها ثم تحركت ناحية الولد بالخارج مصطدمة بكتف الواقف عن قصد.

بعد وقت طويل تخطى الخمس ساعات تعالى قرع الباب بشدة كادت أن تخلعه، انتفضت



ميساء من جلوسها مع انتفاضة حسن التي وازت خطواته المهرولة، فتح الباب للطارق دون سؤال ليقابله وجه أنس المتعرق وأنفاسه اللاهثة بعنف إذ لم يأبه لهذا كله بينما يسحبه للداخل مغلقا الباب من خلفه ويسأله على الفور بجدية المنتظر:

- ها إيه الأخبار؟

هدأ من لهاثه بشهيق طويل جاء بعده بزبد الحديث:

- الدنيا مقلوبة، لسه جاي من هناك والمنطقة كلها تقريبا عرفت بالخبر.. وماهر نزله على أكتر من موقع نت زي ماطلبت وكمان بعت صحفي



معرفة يأخد كام صورة من قدام البيت وهينزل بالخبر في جرنال الصبح.

تمسك حسن بكتفه في امتنان حقيقي وقد أفتر ثغره عن نصف ابتسامة عنوانها الأمل القريب، فالفأر أوشك على دخول المصيدة ولم يتبقّ سوى القليل.. تمسك أنس بساعده، يسأله:

- كده الخطوة الجاية هتكون إيه؟

تنهد في قلة حيلة بينما يجيب:

- المفروض في مكالمة منها تعرفني مكان علي بعد ما تتأكد من الخبر بنفسها.. يعني مفيش قدامنا دلوقتي غير الانتظار.

- وده يطلع مين ده كمان!..



صدح صوت ميساء المستنكر من خلف كتف حسن ليرفع أنس رأسه يتطلع للمرأة ويتنبه للتو للمكان من حوله فشمله بنظرة سريعة عاد بعدها إلى أخيه متعجبا:

- أنتَ جايبنا فين ياحسن؟

- في مكان ميخطرش على بال حد.

خطى أنس متوجسا من البيت وصاحبته حتى أستقر فوق مقعد قريب إذ تابع حسن دون إهتمام بمن تتململ من خلفه:

- أنا لازم أروح البيت، خلي بالك من الولد مش هتأخر.



غمغم أنس في قلق وعينه تحط فوق المتخصره بوقفتها:

- أنتَ هتمشي وتسبني هنا لوحدي!

حدجه بنظرة قوية وهو يستعد للرحيل بالفعل، عند الباب هتف له بتأكيد وصرامة:

- متتحركش من هنا وعينك على الواد متغفلش.

أكد على أوامره بإبهامه حتى أختفى من أمامه، وبقي هو والصغير الغافي فوق الأريكة وتلك.. تلك التي تضطجع أمامه فوق مقعد وثير بثوب لايفرق عن جلدها، ترفع ساق فوق الأخرى بينما أصابعها تعبث بعلكتها فتارة تمطها للخارج ثم تعود بها لداخل فمها ومرة تصنع بالون كبير



وتفجره بواسطة السبابة، فضل التشاغل بهاتفه عن استعراضها المقزز، لكن ما إن فعل حتى جاءته نبرتها بغنج غير مبرر:

- وأنتَ بقى ياصغنن تقرب إيه لحسن؟

تغضنت قسماته بينما يحدجها بنظرة جانبية متوجسة، فضل بعدها العودة لشاشة الهاتف والتجاهل التام لغريبة الأطوار تلك متمنيا بداخله أن تمر هذه الليلة بسلام.. وكفى.

***

ستون دقيقة مرت ورشاش الماء مازال يضرب جسده برتابة شديدة، لم يشعر أنه بحاجة لحمام مثل هاته اللحظة، كان يريد إزالة ماعلق



فيه من وسخ اليومين الماضيين، كان بحاجة قصوى للعودة إلى بيته ليذكر حاله لمن صار ينتمي.

في حجرة مجاورة لحجرة نومه كان ينهي ارتداء ملابسه، يتحاشى زوجته وشقيقته قدر المستطاع، لاعلم لهما بما يجري ولن يكون حتى يعود به سالما، لن يزرع فيهما الأمل ثم.. تنهد بقوة يدحر أفكاره، بل يهرب من كل وارد، يكفي أن يتجرع هو مرارة الانتظار ويتقلى فوق جمر كل محتمل.

وقع الخطوات الهادئة ينبأ عن ذهنه المشغول، يتفقد هاتفه كل حين لربما تكون تلك الحية بعثت برسالة أو أي شيء يدله على طريق الصغير

متممة بذلك مابينهما من اتفاق.. وازى رفع رأسه عن الهاتف صدمته برؤيتها تقف خلف الباب، تتشح بالسواد الفضفاض على طول جسدها النحيل مما أثار في نفسه الضيق وهو يراها تستسلم لوجعها وتخنع بتلك الصورة المؤلمة.

- للدرجة دي كان هين؟

باتت تتحدث بصيغة الماضي منذ أن أقرت لنفسها بحقيقة خسارته وصدقتها، لكن ما يؤلمها بحق هو تعامله مع الأمر وكأنه حدث عابر، ألا يتألم لفقدانه؟ ذلك الوجع الرهيب والخواء الذي يسكنها ألا يشاركها إياه!



تراه يغدو ويروح من وقت لحين، لا يحدثها ولا يشاركها مصابها وكأنما ماحدث لايخصه في شيء.

ارتجفت شفتاها رغما عنها بينما تتقدم خطوة بأقدام بالكاد تحملها، وجهها مصفر وشاحب حد الشفقة، نبرتها بحت وضاعت بين سراديب النواح الطويل:

- للدرجة دي مش فارق معاك!

ظل ثابتا مكانه، صامتا.. يرى خطوتها التالية إليه وهمسها المتهدج مع عبرات لم تستطع التماسك أكثر.. فسقطت:



- ليه ياحسن.. ليه كل ما أكون محتاجة لك تديني ضهرك؟

هوت على ركبتيها فوق الأرض، تريح أقدامها من حمل لن تستطيعه، فالثقل يكمن بروحها لا جسدها، الهم يجثم فوق صدرها ولا يتركها تتنفس براحة.. سرعته لم تسعفه سوى لمجاورتها أرضا بعد ما استقرت فوقها تنتحب بمرارة هي آخر ماينقصه لتخنقه العبرة ويهرب منها بكلمات لن تبرأ من وجيعة زوجته في شيء:

- أنتِ تعبانة قومي إرتاحي وبكره نتكلم.

دعم كلماته بكفين يحاولان اعانتها على نهوض فأبعدتهم عنها بوهن، تمعن النظر في وجهه وتبحث عما فقدت هناك، لم ترى غير نظرات



هاربة عنها ومنها وكأنه ماعاد يطيق النظر..

أجبرته على لقاء أعين حين حطت بكفها فوق صفحة وجهه. تقطع هروبه المصطنع وتمعن فيه النظر حتى همست بعد حين بنبرة ميتة لم تعد تمت للأحياء بصلة:

- قلت لي هيرجع!..

وتردف بوجع مضاعف:

- لتاني مرة أصدقك وتخذلني.

- كفاية يانسمة.. كفاية.

لفظها حادة بنبرة المتعب بينما ينكس برأسه في إرهاق واضح لم تره وهي تلملم ثوبها من حولها وتعتمد على كفها في النهوض، تمحي دمعها



وخطواتها المبتعدة تصدق على حديثه من خلف كتفها بفتور مختنق:

- عندك حق.. كفاية.

فوق الفراش ضمت جسدها لنفسها تمنع عنه انتفاضة ألم وتطبق على جفنيها، تمنع عبرات تسللت في خباثة حتى هطلت.

وعنه؛ حمل حاله وغادر البيت بصمت موحش، حالة من الجمود سيطرت عليه لحد مخيف، ظل رابضا داخل السيارة خاصته ببصر شاخص نحو الأفق دون رؤية فعلية، ساعة تجر ساعة حتى فقد كل شعور متصل بالزمان، ولايدري متى غفى وضاع بين دهاليز النعاس حتى انتفض جسده على رنين هاتفه المتواصل، خطفه بلهفه

ودونما يفكر في هوية المتصل كان يستجيب،
يكفيه رؤية الأرقام المجهولة متراصة ليعرف من
يكون..

"كان عندي حق لما راهنت عليك.. برافو
ياحسن.. ودلوقتي حقك تطمن على ابنك"

جاءت جملتها المبتهجة مع انفتاح الخط، ولم
يكن يملك صبرا للاستماع للمزيد من هذرها إذ
هدر بقوة وعنف:

- انطقي، ابني فين؟!

رنت ضحكتها الناعمة أولا ثم أفصحت له بتأني
بغيض عن مكان الصغير، وما إن انتهت حتى
أغلق بوجهها الخط وشغل محرك السيارة



لتنطلق بصريرها المتعال.. عليه أن يتم خطته أولاً بعدها فقط يمكنه الذهاب لابنه والعودة به لأحضان أمه تعيسة الحظ.

وإتمام الخطة كان بأحد أحياء القاهرة القديمة، تحديدا داخل زقاق لشارع شبه مهجور، أطفأ أضواء السيارة وقلب بصره في المكان من حوله على مهل مدروس، حين تأكد من خلو المكان من أي مارة تطلع إلى ماهر الذي يجاوره ومنه إلى أنس الجالس بالخلف برفقة الصغير النائم قسرًا..

- لما أشاور تنزلوا.

قالها وترجل تحت أنظارهم المتابعة، سار متلفتا من حوله في توجس حتى توقف أمام بيت مهجور

منذ زمن وقد قاربت جدرانه على التهالك، أدخل كفيه بقفازات سميكة ثم أخرج من جيبه أداة صلبة رفيعة وحشرها بالمزلاج، بدأ يحركها يمنة ويسرى بيد خبير متمكن حتى جاءت طقطقة الباب معلنة عن إتمام المهمة بنجاح قياسي، وارب الباب ثم أشار بكفه لمراقبيه داخل السيارة بنظرات مذهولة.

خطى ثلاثتهم إلى داخل المكان المظلم، عبر إضاءة مصباح صغير تعرفوا على تفاصيل المكان، بهو فسيح يعج بأثاث عتيق مغطى كله بملاءات بيضاء أو هكذا كانت قبل ما تتراكم فوقها أتربة السنوات الطويلة.. برفق أنزل أنس الولد عن



كتفه وتركه فوق إحدى الأرائك عقب ما أزاح حسن عنها الغطاء.

منزل يعود صك ملكيته للسيدة ميرال الدقاق، فهو من ضمن إرثها في امبراطورية الدقاق العريقة.

- مش هوصيكم؛ بعد ساعة بالظبط تبلغوا شريف المصري بمكان ابنه.. تكسروا الشريحة وتختفوا من المكان.

وكان ذلك البيدق الأخير في لعبته..

يترك الولد بمنزل الحية ويأتي معشوقها الخائن بصحبة رجال الشرطة يأخذ ابنه وينتهي الأمر بقضية إتجار أو خطف مع سبق الإصرار والترصد

لتبدأ حربا جديدة من نوع خاص.. لكن تلك تفاصيل لاتهمه في شيء، مايهمه بحق أن يلقن تلك الحية درسا لا تنساه ماتبقى من عمرها، لتعلم أنه لم يخلق بعد من يجبره على شيء واضعا حد السيف فوق عنقه!

- طيب افرض طلعت كدابة وملقتش ابنك هناك؟ هتعمل إيه!

أخرجه سؤال ماهر من لوثة أفكاره ليجيبه فاتحا ذراعيه ببديهية ممنطقه:

- مش من مصلحتها تكذب، وبعدين لا أنا ولا ابني نهمها في حاجة.. هي خلاص مقتنعة أنها حققت هدفها ورقبتي بقت بين ايديها.



- هروح معاك، مش هسيبك لوحدك.

صدح هتاف أنس المتهور في إصرار حاد ليدمدم له حسن منهيا الحديث:

- لأ يا أنس، الجاي بتاعي لوحدي.. متنسوش اللي اتفقنا عليه.

قالها ورحل، بقي الاثنان يتبادلا النظر بقلق صامت على كل دقيقة تمر متحاشين مس شيء كي لا يقعون بفخ البصمات.

***

والغنيمة حق مشروع لكل محارب فوق أرض المعارك



لكن وقتما تكون المعركة ليست نزيهة دوما هناك طرف خاسر

هذا إن لم يكن كلاهما!

انفرج الباب الحديدي بعد عدة طرقات، كان الرجل ضخم الجثة حيث أعاق لديه مجال الرؤية لكنه وفر عليه تجميع حروفه المبعثرة حينما هتف بخشونة وغلظة هي من صفات نبرته:

- ابنك جوه خش خده.

أزاحه حسن عن طريقه دون انتظار لأن يفسح له المجال، وما إن دلف حتى تناهى لمسامعه بكاء الصغير معلنا عن وجوده بين الأركان، أخذ يفتش



عنه بخطى المتعثر الذي عاد فيه النبض للتو حين رآه يتوسط فراش واسع بداخل إحدى الغرف، انتشله في لهفة ضاما به إلى صدره، يلملم غطاءه المبعثر من حوله ويقبل جبينه بغير تصديق أنه يحمله وبين يديه الآن.

حينما استدار يبغي رحيل قابله ضخم الجثة واقفا عند باب الحجرة، ثبت حركته بمسدس يعلوه كاتم للصوت وهتاف أجش كان به ختام المسرحية الهزلية وإنزال الستار:

- ميرال هانم بتسلم عليك..

دون وعي أطبق جفنيه ومال برأسه فوق الصغير، يشد على ضمه بين ذراعيه، يخفيه كليا



عن مراكز الرؤيا ليزداد صراخه الناعم في اختناق مع استطرادة الرجل الخشنة:

- وبعتالك تذكار بسيط يفكرك أنك في يوم تطاولت على أسيادك.

وخرجت الطلقة.



(٣٨)

الاعتراف بالحق فضيلة

والاعتراف بالذنب هو بداية الطريق نحو الفضيلة

تلك اللحظة التي تتطلع فيها إلى صورتك دون خداعٍ أو تجميل زائف، ترى ذاتك بخطاياها وخطيئتها، سقطاتها وكل جرمٍ طوته الأيام في غياهب الجهل والنكران، حتى تحين لحظة وعيٍ، استفاقة، ضوء ينتشلك من بين وحشة السواد..

واستفاقته كانت صيحة ألمٍ جاورت رصاصة أطلقها مأجور السيدة قبل رحيله لتستقر بفخذه الأيسر، اختل ميزانه وسقط فوق



الفراش من خلفه برفقة الصغير الذي سكن صدره بمعجزة وذراع واحد، على صرخات الصغير الفزعة ارتوى من قطرات أمله على مهمل وابتلع الغصص المسننة على مضض ليفترق جفنيه على فراغ يحويه وابنه.

كان الصمت القاتل من حوله الممزوج بصياح بُحَّ له صوت الصغير كفيلًا أن تتشبث أصابعه الملوثة بدمائه بحافة السرير ليعتدل على مهل، يتحامل على حاله وعلى كل شعور يثبط من وعيه ورغبته في الابتعاد عن المكان الموبوء بالمخاطر، وكاد أن يسقط لولا جدار من خلفه ارتكن إليه في لحظة ضعف، لحظة وجع استجار على أثرها سائر الجسد، بذراعٍ واحدٍ كان يحمي

الصغير داخل لفافته المبعثرة من السقوط، يشد عليه خوفًا وهلعًا من أي خطر قريب يتربص فيه بينما تزحف أنامله نحو موضع إصابته النازف للدماء بغزارة فتتغضن قسماته ويتضاعف الألم محررًا تأوهات موجعة.

أخذ من ذات الجدار مسارًا، يلقي عليه بثقل جسده وكأنما يزحف على جانبه ومع أول خطوة حقيقية كان يطلق صيحة مكتومة ورأس قابل الجدار يتمرغ فوقه بألمٍ عصي، غزت حبات العرق جبينه وضاقت أنفاسه في عجز هو حليفه في هاته اللحظة، فبحسبة صغيرة يحتاج أي معين للوصول إليه مايقارب الساعتين حتى يجتاز زحمة الطرقات هذا إن تمكن من عبور كل

تلك الأزقة والشوارع الفرعية، ولا يدري أي أذى آخر سيلحق به وصغيره لو بقي هنا لدقيقة تالية، بدفعة أدرينالين اجتاحت عروقة خطى خطوة، وثانية.. فلا سبيل غير الغلبة والوصول حيث السيارة الرابضة على بعد أمتار، علَّ تكتب لهما النجاة.

بأنفاسٍ لاهثةٍ ووعيٍ يصارع غياب عانق مفتاح بيته قلب المزلاج، وبخطواتٍ مترنحةٍ أقرب للسكارى كان يقتحم الغرفة المغلقة يُمني نفسه بلحظة راحة، أول ماقابله جسد زوجته المسجى فوق الفراش وكأنما فارق الحياة بسكونه الرهيب، ترك جوارها الصغير يرج بصرخاته الأركان وعلى طرف الفراش ألقى بجسده المُتْعَب.



***

لاتدري أهي الحقيقة الخادعة أم كابوس مفزع تلون بنغم وريح وَلِيد يشبه صغيرها الراحل، انتفض جسدها مع شهقةٍ طويلةٍ قطعت هلاوس النعاس بالصحو القاطع، لكنه لا يبدو صحوًا على قدر كونه حلمًا منمنمًا يقاتل الهواء بأطرافه الهشة وصرخاته المبحوحة، حلمٌ تخشى ملامسته فيتضح أنه سرابٌ على الرغم من عينيها التي تثبت العكس وحدسُ أمومتها الذي تهتك وتمزق لألف قطعةٍ لكنه عاد وتجمع في ديباجةٍ واحدةٍ شملت كل شعورٍ ممكنٍ في لحظتها.

بلهفة أمٍ مدت كفيها تحوز على نصيبها من زينة الدنيا، تسد وجيعة قلبها بشعورها لحقيقة



وجوده، تتفجر ينابيعها وقد ظنت فيها الجفاف،
تُقبل جبينه، وجنتيه، بنان أصابعه، شعراته..
وكل ما تطاله شفتاها.

تتحرك شفتاها فلا تسمع لها صوتًا من أثر
الصدمة، فقط نحيبها وشهقاتها تشارك الصغير
بكاءه الذي على مايبدو شعر بضمتها الحانية
لضلوعه اللينة فأخذ يهدأ ويستكين إليها بعد
طول غياب.

لم تكن تريد معرفة ماهية ماحدث وكان، يكفيها
أنه فوق صدرها يستكين، لكن صوت الأنين
المكتوم المنبعث من قريب أجبرها على قطع
وصال اللحظة و رفع بصرها عن معانقة الصغير
للحظات.. يحتل الفراش بنصف جسده بينما

النصف الآخر يتدلى من خارجه، تطحن ضروسه بعضهما ويكتم أنين واضح نقشته قسماته بينما ساعده يطبق فوق عينيه يحجب عنه ومنه الرؤيا، ولم يكن هذا كله ليقبض روحها لولا بقع الدماء التي اتخذت لها مسارًا ابتداءً من باب الغرفة وسارت فوق الأرضية حتى انتهت عند موضع أقدامه.

كانت شهقتها لقلبها تلك المرة وهي تتمتم بكلماتٍ غيرمفهومة، يميل جسدها إليه وتزيح عن عينه عصابته، قابلتها عينان حمراوتان، غائرتان، تكشفان عن مدى الألم الواقع فوق صاحبهما..

تحشرجت أنفاسها وانعقد لسانها بينما كفها يسير فوق وجهه.. كتفيه.. صدره.. تفتش عن

مصدر النزف، حتى لامس بنان أصابعها الجزء النازف وقد اختلط قتامة الدماء بقتامة النسيج فلم ترَ الصورة واضحةً إلا عندما أطلق صرخة تعني أنها وطأت موطن الوجع، بارتجاف شمل كيانها مالت ببصرها فترآى لها هيئة الجرح الغائر، شهقت على أثره بينما تعود بكفها المنتفض بدمائه، تركت الصغير جوار أبيه وأخذت تهرول إلى الخارج بعقلٍ غائبٍ، تفتش عن شقيقته في تعثر ولا تجدها، عادت إليه بشتاتٍ مضاعفٍ وعقلها لا يسعفها على تصرف سليم، دارت حول نفسها ثلاث قبل مايلتقط بصرها هاتفها الساكن فوق منضدة الزينة، تناولته برؤيا شوشها الدمع الغزير، تعبث في



لائحة الأسماء بنصف عقلٍ حتى قابلها اسم "أنس" بحكم أبجدية حروف أو قرابة دم ربما، لم تفكر وأجرت اتصالها في الحال ولم يحتج الأمر لأكثر من ثوانٍ قليلةٍ حتى وصلها الطرف الآخر فما كان منها غير أن تجهش في بكاءٍ متقطعٍ بالكاد تحشرجت من بينه الحروف الصارخة:

- أنس.. حسن بينزف!

وضاعت باقي حروفها مع صيحة أنس، والذي جاءتها بنغم العارف:

- خليكي جنبه، أنا على وصول.

عادت بالهاتف إلى موضعه بأصابع مرتجفة فسقط، تقترب وتجثو بالقرب من جرحه





فانكشف لها أكثر. غصت بغصتها وتغضن جبينها لشدة ما رأت، استقامت على وجل ومنظر الجرح لا يفارق عينيها، تجاوره وبصرها يتنقل بين صغيرها الباكي وزوجها طريح فراش الألم، هدهدت الرضيع بهزة صغيرة وعادت تمسح عن جبين الراقد عرقه بأصابع خرقاء ولسان بالكاد يتمتم بحروف اسمه التي لم تجد لها صدى من لدنه، كان يقاتل الألم بطحن ضروسه وجفنين تغضنا بشدة مع قبضتين جعدتا الفراش من تحته في محاولة يائسة للمقاومة..

- هتبقى كويس..



لفظتها مذبذبة من بين نحيبها بينما تأخذ إحدى قبضتيه بين كفيها، تبثه صبرًا مفقودًا ويبثها ألمًا يفتك به وما عاد يحتمل.

***

عطايا القدر لا تُرد

هي ربتة الخالق بعد طول لهاثٍ، هي المنح التي تشعرنا أننا ذوو قيمةٍ ومعنى، من يدفعنا حتى نواصل العيش ونسج خيوط الحياة.

تخبطت بين أروقة مشفى بقلب أم، حتى لولم تكن كذلك في شرع القانون لكنها كذلك بشريعة قلبها، بأحقية الأيام والأسابيع الماضية التي عرفت فيها الصغيرة كما لم تعرفها وقتما



جمعهما سقفٌ واحدٌ، دفعت بالباب فقابلها وجه "أميرة" الباكي بهيئتها المشعثة، تلقفتها بين ذراعيها، زرعتها فوق صدرها تدحر خوفها، حتى تكلمت بعد حين بنفس كسيرة:

- هو أنا هموت يا سماح؟

شدت على ضمها بقوة بينما تنفي قولها بهزة رأس قاطعة:

- لأ ياقلب سماح، بعيد الشر عنك، ألف بعد الشر.

"غيبوبة سكر" هكذا صرح الطبيب الشاب والمعلمة الأربعينية التي رافقتها إلى المشفى ما إن



سقطت بفناء المدرسة وقت الإستراحة فتم نقلها إلى أقرب مشفى على الفور.

أخبرتها المعلمة من بين ثرثرتها قبل رحيلها أنها هاتفت أبيها لكنه لم يُجب فبادرت بمكالمتها وتبلغيها عن وضع المسكينة الصغيرة، كما أخبرها الطبيب متممًا تصريحه أن السبب يؤول لعدم تناولها للطعام عقب أخذها لجرعة الأنسولين..

ربتت فوق رأسها تأثرًا على حالها وعقلها يسب أبيها الذي أهملها ولم يتمم على فطورها قبل نزولها فحدث ما حدث وحينما طلبوه لم يجدوه.. تبًا له!

وعلى إتيان ذكره في خاطرها حضر أمامها بملامح مكفهرة امتزج فيها القلق بالهلع، اقترب من

الصغيرة يخلعها من بين يديها عنوةً ويضمها لرحابة صدره متمتمًا بسؤال لاهث هو كل ما استطاع:

- أنتِ كويسة؟

عانقته الصغيرة وطمأنته ببسمةٍ صافيةٍ فتمتم بحمد وقد انفرج لها ثغره نافثًا بذلك تنهيدة راحة، تركت لهما المجال واستقامت تلملم طرف عباءتها السمراء وتعدل من وشاحها دون حاجة، تستجمع بضع كلمات تلقي بها قبل الرحيل، كانت الحروف عصية وهي تغض الطرف عن صورته وتوهم حالها أنها لاتسمع صوته، وحين جاهدت ونوت تتسلح بالشجاعة قاطعتها ابنته وكفها الصغير يجذب كفها:

- سماح تعالي روحي معانا..

استقام أحمد بدوره يتطلع إلى رأسها المنكس ناحية الصغيرة وبصرها الهارب عنه في صمت كسره من جديد استطرادة ابنته:

- عايزة أكل شوربة.. مش الدكتور قال لك تأكليني!

وضعتها هي والطبيب والمعلمة في قالب الأم، ظن الجميع ذلك وهي لم تصحح المعلومة بل أكدتها، مست شغاف قلبها وهي تتوسلها الذهاب ولو لبضع دقائق بينما أثارغيظها حين تلحف بالصمت وتصنع بالتشاغل بالتحدث مع الطبيب، ترك لها حرية القرار، وهي لأجل الصغيرة ستفعل، وإن كانت ابنته هذا لا يعني

أن تردها فيما تشتهي نفسها وتبغي وهي بهكذا حال.

بعد ساعة ونصف الساعة كانت تضيف رشة بهار كلمسة أخيرة لحساء الدجاج المفضل لدى الأميرة الصغيرة، ساعة ونصف قضتها بين جدران بيتها وبقلب مطبخها، دار بصرها بين جنباته فهذا غطاء الطاولة المستديرة هي من صنعته بيديها، مجموعة الأطباق تلك لا توضع هنا، ولماذا تتجمع كل تلك العلب الفارغة بتلك الفوضى وهاته القذورات ماذا تفعل فوق أرض مطبخها!.. كيف يفعل ذلك بأكثر مكان تشعر فيه بالانتماء لذاتها؟



بجبين متغضن سحبت شهيقًا طويلًا ثم طردته بزفيرٍ أطول تدحر به لوثة أفكارها، حملت طبق الحساء الساخن وتوجهت إلى غرفة الصغيرة.

مرت دقائق على وقفتها خلف الباب الموارب، تراقب ضمته الحانية للصغيرة الغافية بين ذراعيه، كيف يمسح عن رأسها وتتحرك شفاهه بآيات قرآنية يتلوها بصوتٍ خفيضٍ، عادت إلى الخلف تجر أذيال الخيبة، لم يبادلها حرفًا، طوال طريق العودة كان صامتًا، واجمًا، وما إن وصلا حتى شارك ابنته غرفتها وأسكنها ذراعيه، بأصابع مرتجفة تركت الطبق الساخن على طرف مائدة الطعام وأخذت تهندم من حالها تأهبًا للرحيل، لم يعد لها مكان في بيت رجل لايبغيها،



جاءت لأجل الصغيرة متغافلة عن كل مالايجوز، وسترحل حفاظًا على ماء وجه هو آخر ماتبقى لديها.

لم يكن يتبقى على الباب سوى خطوة واحدة حين شعرت بقبضته تلتف حول ذراعها بقوة أرهبتها، استدارت فزعةً تبادله النظر الجامد للحظات لم تسمع فيها غير هدير أنفاسه وترى عقدة جبينه.. لا تدري إن ترقرق الدمع بالفعل داخل مقلتيه قبل مايجذبها إليه عنوةً، يودعها كل مايعتمل فيه من ضعفٍ واحتياجٍ، يشكوها حاله في صمت، كم مرة عليه أن يتحمل لحظات كتلك!



كانت أنفاسه الثائرة تهدأ وتستكين فوق كتفها رويدًا، شردت ذاكرتها إلى أول مرةٍ رأته فيها فوق رمال البحر وقد أخبرها ذات ليلةٍ دافئةٍ أن يومها عرف بحقيقة مرض ابنته وحين ضاقت عليه الدنيا بما رحبت راح هناك يبحث عن أنفاس تبث فيه الحياة لمواجهة أمواجها العاتية فقدر لهما اللقاء.

كسرت تيبس جسدها بربتة طالت كتفه، هي جُلَّ ما استطاعت تقديمه في لحظة تخبطها، وكانت كافيةً حتى يبتعد ويقابلها بنظرةٍ لونها بعتب صريح:

- رايحة فين؟



ابتعدت عن مرمى أنفاسه تضبط من وضع

وشاحها وتهمس بمرارة ترجمتها خبو نظرتها:

- همشي.

وبررت وجودها سريعًا في اقتضاب:

- جيت عشان أميرة متزعلش، عملت لها الشوربة

لما تصحى أكلها على طول.

وتهدج صوتها بعدها ودار بصرها في كل مكانٍ

إلاه، تلجم عبرات عصية فأبت إلا تهطل فوق

وجنتيها، قطعتها بحدة وازت اقترابه لما ابتعدت،

يتمسك بكفيها ويخبرها بصدق قلبه:

- وحشتي بيتك.



لوقع الكلمة تأثير أرجف قلبها قبل شفتيها وفجر فيها ينابيع العتاب، بنظرةٍ ذبيحةٍ قابلته وبلوم قاتل همست:

- حكمت من غير ماتسمع، كسرت نفسي بكلام...

تلعثمت لبرهةٍ استطردت بعدها بمرارة أكبر وعبراتها تغرق صفحة وجهها فلم تأبه تلك المرة بمسحها:

- كلام عمري ماهنساه.

ضم رأسها بين كفيه وقربها يلقي بها فوق صدره، يقبل أعلاها مدمدمًا بأسفٍ:



- حقك عليَّ، كانت لحظة غضب، أنتِ غالية قوي يا سماح، وكل كلامي وغضبي عشان عاوزك متصانة في كل عين.

صمت هنيهةً ثم ردد على نغم نحيبها الساكن صدره:

- عمري ما أقصد أجرحك..

ولم يكن ليصمت بل تدفق قلبه بالمزيد:

- ده أنتِ آخرة صبري وعوض ربنا ليا.

زادها بكلماته بكاءً فوق بكاءٍ، ولا تملك لحظتها غير التشبث فيه والتمسك بعطايا القدرالرحيم، تركته يمسح عن قلبها كل غبارٍ عالقٍ، يهدهد



روحها الحزينة ويبث فيها بعضًا من فرحٍ غاب وشح عن أيامها..

وكان ليغمرها في بحور الشوق سارقين من الزمن بضع لحظات لولا رنين الهاتف الذي صدح مخبرًا إياها عن كارثة جديدة تنتظرها بالمشفى.

***

كل شيءٍ انتهى..

عاد الصغير بخيرٍ، خرجت ميرال الدقاق من القضية كما يخرج الشعر من العجين وذلك كان المنتظر، متى كان القانون يعاقب أمثالها!. لكنها حتمًا تستحق الفضيحة التي طالتها وستحتاج دهرًا حتى تنظف ماعلق فيها من وسخ.



وعن إصابته من المفترض أنها في طور الشفاء بعد غض الطرف عن الآثار الملحقة التي أكدها الطبيب البدين.. لكن كل شيء انتهى.

كل شيءٍ يمر ببطءٍ قاتلٍ!

لايوجد أقسى من محاسبة النفس، محاولة تطهيرها من شحوم الذنوب، بل سلخها عن كل دنس عالق..

وكان عقابه قاسيًا، يعتزل الجميع منذ عشرة أيام، تحديدًا منذ غادر المشفى، ينأى بحاله داخل غرفة على مايبدو ستظل مكمن لأزماته الصحية، حتى عن صغيره الذي كان على استعداد لتقديم روحه فداء لسلامته..



شارد طوال الوقت لا يتحدث إلا لمامًا، لم تفلح كل محاولاتها في كسر عزلته بل باتت تشعر أن قربها لا يزيده إلا بعدًا.

حتى زيارة شقيقته وزوجها قبل حين قابلها بصمت قاتل أثار قلق الشقيقة وحين سألتها لم تجد غير العجز جوابًا. تنهدت في قلة حيلة وولجت إلى صومعة عزلته، بين يديها مايلزم لتغير ضماد جرحه ككل يوم تفعل، اقتربت بروتينية تزيح عنه الشرشف فعاجلها بقبضة التفت حول رسغها، يبعد كفها عن مرماه ويدمدم في اقتضاب حاد:

- خلاص مالوش لزوم.

اعترضت بهدوء:



- جرحك لسه مخفش،ماينفعش نهمله.

قاطعها بسخريةٍ لاذعةٍ بينما يرمي بوجهه بعيدًا عن مرماها:

- وده هيرجعها زي الأول يعني؟

- إن شاء الله وأحسن من الأول كمان.

عاد إليها بوجه محتقن:

- أنتِ بتكدبي على نفسك ولا عليَّ!

قالها بزعيقٍ حادٍ، تتحمل مزاجه العكر منذ حينها وتمنحه كل المبررات لكن ليس وحده من يعاني! هي الأخرى تعاني وبشدة، لاتتحمل رؤيته طريح فراش المرض مقيد بفكرة عجز قد تصاحبه طيلة حياته، كل تلك الأمور التي حدثت

ومازالت تصغط فوق أعصابها حد الهلاك،

نهضت من جواره تناظره من علو، تهتف فيه بحدة وتأنيب:

- أنت غاوي تعذب نفسك وتعذبنا معاك ليه؟

نفض عنه الغطاء بوجه محتقن أكثر عن ذي قبل، استقام بدعم من عصا طبي هو رفيق أيامه الماضية والقادمة وحتى الأبد على مايظن، يعاند نفسه وجرحه وهي من قبلهم، يقابل وقوفها بصرامة طاردًا عجزه تحت نظراتها القلقة بسؤال آخر ماكانت تتوقع:

- أنتِ أصلًا قاعدة تعملي إيه! مخدتيش ابنك ومشيتي ليه؟



تقتله بقربها، تهتم فيه كما لم تفعل من قبل، تتجاهل الحديث وكأن ماحدث مجرد عابر ليس له ماض، ماض أسود يتذكره كلما قابل عينيها.. لِمَ لاترحم خزيه كلما تطلع بوجهها ووجه ابنه وكراهيته لحاله حينما ينظر لنفسه.. لِمَ لاترحمه وترحل فحسب!

تقابل حاجبيها في عدم فهمٍ، فاستطرد لها بذات القسوة موضحًا:

- ولا ده درس من الأستاذة الجامعية عشان تعرفني قد إيه هي إنسانة عظيمة قادرة تنسى، تغفر وتسامح!

بادلت نظراته المشتعلة بأخرى شحنها الصمت الثقيل، تشعر بحروبه الداخلية، تستمع لصليل

السيوف المتناحرة فوق ضميره، لكنه لا يعي بعد أنه معركتها الخاصة وستقاتل فيها حتى آخر رمق، بل حتى تظفر بالنصر.

قالت بعد حين بنبرة جاهدت لتخرج سليمة.. هادئة حد البرود:

- لو ده هيريحك فأنا منستش ياحسن، ويمكن مقدرش أنسى طول عمري لكن اخترت أكمل معاك وأنا مصدقاك، أكمل مع الراجل اللي بحبه مش اللي بتتكلم عنه ومصر تحيه مابينا.

صمتت لبرهة تابعت فيها حركة حلقه العسرة، ثم قالت وعينيها تخترق قتامة عينيه بينما كفها يحط فوق موضع قلبه على مهل:



- غضبك موجه لمنطقة غلط.

غض الطرف عنها وأخذ يهدر بأنفاسه للحظات حتى استدار، يوليها ظهره ويخطو دون اتزان حتى ألقى بحاله فوق الفراش، يحيط رأسه بكلا كفيه ويأمرها في صرامة لاتلين:

- اقفلي الباب وراكي.

وحين ظلت على وقوفها الواجم شيعها بنظرة قاتلة فلم تجد غير الامتثال لأمره الطاغي وتركه وحيدًا، يستحضر دفاتره القديمة ويقرأ مادون فيها عبر السنون برؤيا جديدة وفطرة نفض عنها غبار البَغْي.

***



القلب.. طفلك العاق!

لا يمتثل لأوامر العقل مطلقًا، دومًا لايبالي بما حدث وسيحدث، الأهم مايريد فحسب، أناني معظم الأحايين ويقدم مصلحته عن باقي الجسد دون تأنيب..

في حوارٍ صامتٍ مع طفله العاق أخبره بلوم وتقريع: لم نتفق!

لم نتفق على نبضات تغادر السرب وتحلق في سماء العشق الخاطفة، لم يكن هذا أبدًا ما تعاهدنا عليه ياخائن!

من فوق حافة كوب القهوة كانت تراقبها عيناه بتمتع لذيذ يشبه مذاق القهوة الذي ترتوي فيه



عروقه، تنكفأ فوق مكتبها وفوضى الأوراق تملأ سطحه، وكأنها تعاند طبيعتها المنظمة بفوضى تشبه فوضى طالبة ثانوية تلملم منهجها آخر العام، تجتهد وتمنح كل طاقتها في سبيل الوصول، لا ترتضي سوى بالقمة ولا يرضيها غير النجاح الساحق.

لاينكر قلقه حين يراها مفرطة الأمل، يخشى عليها أن تمر بها السبل ولا تزال تبحث عن قممها الخاصة فلاتجد بعد تسرب العمر من بين الأنامل غير السراب.

- تفتكر حسن هيقدر يرجع قريب؟



انتشلته من شروده بسؤالها المباغت، ترفع له عينين حائرتين مؤطرتين بمنظار طبي ذي إطار أحمر يليق بها حد.. الفتنة ربما.

- محتاج وقت أكيد، لكن الأكيد أنه هيرجع.

كان جوابه يحمل الغموض بقدر الوضوح، فحسن الذي عاشره خلال محنة الأيام الفائتة لايشبه حسن الذي يعمل معه، ولا حسن الذي يعرفه الجميع، بئر أسرار يطفو منه بضع كل حين، وعلى قدر امتلاكه لكل شيء يبدو هذه الأيام كرجلٍ خاو الوفاض يسير بغابة دون دليل.

- بصراحة سايب فراغ كبير، ربنا يشفيه.



قالتها وهي تتنهد وتنكب فوق أوراقها من جديد، لم يمهلها تغوص تلك المرة، تجرع آخر رشفة بفنجانه سريعًا وغمغم في تسلية:

- ميسون.. لو فرضنا أنك وقعتي بين اختيارين، الأول تصحيح غلطة كبيرة عملتيها، والتاني أمنية نفسك تحققيها.. تختاري إيه؟

عادت بظهرها للخلف وقد جذبها بقسماته المرتاحة حد المرح، تعقد ساعديها فوق صدرها وتهمهم بتفكير بدى عميقًا رغم تسليتها الواضحة حتى هتفت بامتعاض لطيف وكفها يشير نحو حاسبه المرتاح فوق ساقيه:

- أنت شكلك فاضي مش كده؟



- متهربيش.

جارت جديته الكاذبة:

- بما أن الغلطة عدت واللي كان كان، يبقى طبيعي أختار أمنية نفسي أحققها.

رفع أحد حاجبيه لاختيارها المتوقع وهتف لها بنبرة مبطنة أغاظتها:

- متوقع من دماغ عملية زيك.

- ده تفكير أي حد عاقل، عشان ده الصح.

- الصح اللي يناسبك مش شرط يناسبني والعكس صحيح، يبقى كده مفهوم الغلط والصح في الأساس معتمد على الفرد.



- يا سلام!.. يعني فرضنا اتنين اتفقوا وأنت خالفتهم يبقى كده هما غلط وأنتَ صح!

- إطلاقاً، كل واحد فينا هيبقى صح بتفكيره وغلط بتفكير التاني.

- ماهر!

رفع لها حاجبيه منتظرًا التتمة ففاجئته بكفين انفرجا عن بعضهما في عجب مستنكر لهوية الحوار الدائر دون داع يذكر:

- أنت فاضي بجد؟

قهقه في جذل على قسماتها المتغضنة دون فهم بينما يعود لحاسوبه القابع أمامه متظاهرًا بالعمل، يرتسم فوق ثغره ابتسامة خبيثة تليق

فيه حد تعثر الدقات، عادت أناملها تعانق القلم الملقى تخفي اضطراب بين، طالعت أوراقها بذهن مشتت وهمس نهرت فيه الدقات المتقافزة بلوم وتقريع لن يغادر جنباتها قط: لم نتفق!

***

العشق نضج من نوع آخر

مسئولية لا يحملها إلا رجلٌ كتب له أن يكون للعشاق وريثًا

وحبها في قلبه مسئولية، وبكيانه نضج، رغمًا عن أنف المسافات، أبيها والتقاليد البالية، رغمًا عن كل الأبواب التي تسكرت بوجهه منهيةً بذلك حكاية لم تبدأ بعد..



بعيون كئيبة أعاد قراءة الرسالة الواردة منذ ساعة للمرة التي ملَّ من إحصائها..

"أرجوك يا أنس متضغطش عليَّ بزيادة، مش هقدر أرد عليك، أنا أخدت عهد على نفسي أني مش هكلمك ولا أشوفك، سامحني مش هقدر أخون ثقتهم تاني.. مش عايزه حاجة غير أسمع أنك بخير وسعيد حتى لو ده معناه نفترق للأبد.. ربنا يوفقك"

رد وصله عقب عشرات الرسائل ومثلهم مكالمات لم يجد فيهم جوابًا حتى جاء وليته مافعل، حمقاء.. تظن أنها ببضع حروف تراصت وكونت كلمات خرقاء سيتخلى عما يريد ويبغي، هو لعنة



أبيها التي سترافقه منذ اللحظة وحتى يعلن قبوله بل ويقدم مباركته.

على خطوات أمه الدانية دس بهاتفه بين الشراشف واعتدل في اضطجاعه يشق مبسمه بابتسامة صغيرة.. بدت متكلفة:

- منزلتش يعني؟

تساءلت بينما تجاوره وتحيط كتفيه بذراعها، ترك لرأسه حرية الغوص بأحضانها بينما يجيب بملل:

- ماليش مزاج.

- قلت هتروح لحسن؟

- اطمنت عليه في التلفون.



تركت كتفه وراحت تسرح أناملها بين خصلات شعره في حنو، يكتنفها الفخر حين تراه ينضج ويعي يومًا بعد يوم، لاتنكر قربه من أخيه لأبيه الراحل كان يقلقها حد محاولاتها لقطع أي وصال ينبغي، لكن ماترى فيه من صلاح خيب ظنونها وآمنت أنه كان بحاجة لمن يشد من أزره حتى يشتد عوده الأخضر، كان لحاجة من يفهمه ويهذب من أفكاره المندفعة دون لجام.

- ماما..

- نعم؟

ناداها في تردد واستجابت على الفور، ابتعد عن دفء أحضانها، ينظر لها عاقدًا حاجبيه في تساؤل يقتات على تفكيره كل حين:



- ليه بابا خبى علينا حقيقة وجود مراته وولاده؟

- بس بابا مخباش يا أنس، أنا كنت عارفه بوجودهم من البداية.

- ولما هو كده مظهروش في حياتنا من بدري ليه؟

قالها بحدة تغضن لها جبينها بينما تسأله في حيرة:

- أنت عاوز توصل لأيه بالظبط؟

- عايز أوصل لنقطة إيه يخلي أب يسيب ولاده سنين، أنا لما بفكر أني مكان حسن وسماح بقول عمري ما أقدر أسامحه أبدًا!

لم يهتم بذلك الأمر من قبل، والآن يقف بين فضوله لمعرفة تفاصيل الحكاية إلا أنه يخاف



من تتمة فيها خسران لصورة أب لطالما كان له نبراسًا يفتخر فيه، لكن حادثة حسن الأخيرة أضاءت بذهنه الكثير من النقاط، يجتاحه شعور بالشفقة نحوه حين يراه غارقًا في لجة بحر عميق ولايقوى على فعل شيء غير التفرج في صمت، ظن أن الأمور سوف تسير على خير مايرام ما إن يعود الصغير سالمًا لكن أخوه لم يعد أبدًا كما كان..

تبادلا النظر للحظات بدت كدهر حتى غمغمت له منهية الحوار:

- جواب سؤالك ملك لأصحاب الشأن ودول بين ايدين ربنا، ريح نفسك يا أنس وأقطع أي أفكار خبيثة مهمتها تزرع بذور فاسدة جواك.. اقفل



كل باب ومتسمعش غير صوت قلبك، مفيش حد مبيغلطش، مبيذنبش، بس ربنا غفور رحيم وبابا لوكان تمنى حاجة فهي أن يشوفكم أحسن حد في الدنيا، أفتكر ده كويس وبلاش تقابله بجحود.

وغادرت تاركة إياه أسير كلماتها وأفكاره المتناحرة.

والآباء دومًا لهما من الشفاعة نصيب، رغم قسوة الأفكار إلا أن جزء من زوايا الفؤاد مهمته نفي كل تهم ملتصقة ودوافع باطلة.

انسل بجسده داخل الفراش ينهي ليله بقطع تيار الأفكار الصاعق في حين على الطرف الآخر كان يبدأ تيار من نوع آخر..





تُقدم قدم وتؤخر أخرى على نغم ترتيله لآيات الذكر الحكيم، اقتربت تجثو فوق ركبتيها عند جلسته الأرضية في زاوية هي ملجأه ومكمنه لكل ثلث أخير من كل ليلة، تركت مشروب الينسون بالقرب منه وعادت بكفيها لحجرها، تنكس برأسها وتستمع لحنو نبرته المتعطرة بشذى الحروف، ظلت على حالها تنتظر فروغه من القراءة حتى تنهي أمر قطيعتهما، طال الوقت والعقاب قاس، قاس لحد عبراتها التي هطلت ما إن سكنت حروفه وابتلعها جوف الليل ليلفظ همسها المتحشرج:

- سامحني..



رفعت له عينين نادمتين، فهما وعد لن تخونه أبد الدهر:

- عقابك القاسي طول، سامحني عشان خاطر ربنا.

لا تتحمل خصامه، نبذه لها ومعاملتها كهواء لايراه، لاشيء يعوض وجوده، لا شيء يساوي بريق عينيه حين يتطلع إليها بفخر.. قطيعته مع شقيقته الوحيدة هي سببها، ولوكان هذا ما سيعيد الذي كان سوف تقدم حياتها وقلبها قربانًا لرضاه:

- موافقة أتجوز هاني لو ده هيرضيك ويرضي عمتي ويريحكم كلكم.



ونكست برأسها، تجهش في بكاء مرير تقطع له نياط القلب بينما أبوها على حاله، تعانق نظراته صفحات المصحف وكلماتها النادمة تخترق مسامعه.. تحدث بعد حين وقد ظنته لن يفعل:

- ركزي في مستقبلك ياعيشة، اعملي لنفسك قيمة واتعلمي إزاي تغليها، الرخيص يابنتي مالوش تمن..

صمت هنيهة ثم استطرد بلين صبغ نبرته:

- ده اللي يرضيني.

استقر كل حرف من حروفه بداخلها وفاح بشذاه، وافقته بإيماءة صامتة بينما تلقي بحالها فوق صدره، تصل ما انقطع بعبرات أغرقت ثيابه



ويعيدها لكنف قلبه بكف حان مسح به عن رأسها.

***

هزائمك الصغرى هي الطريق نحو انتصارات كبرى، وليس هناك أروع من هزم مخاوفنا..

فذاتك هي عدوك اللدود!

كانت تتقافز فوق فراشها بجنون، تطلق صيحات مبتهجة منبعها ذاتها وقلبها، بل كيانها بأسره، تمسك بالجرو الصغير بين يديها وتقلبه يمنة ويسرى في سعادة، فذلك الجميل بلونه فراءه السكري وعينيه البريئتين هو هدية عيد ميلادها



الثالث والعشرين، والذي صادف أن يكون الليلة.

أطلقت صيحة جديدة فتح على أثرها باب غرفتها وطلت أمها برأسها توبخها بلين، فقد طار عقل ابنتها منذ أن وصلها هذا الجرو مقترنًا باسم رجل.. والمبرر: شريك العمل:

- اتجننتي يا غنى، الصوت ياماما مش كده!

قفزت من أعلى الفراش تهرول نحوها، تقرب الجرو منها غير آبهة بنفور جسدها بينما تصيح:

- يجنن ياماما يجنن، شوفي بيبص لي إزاي!

وأخذت تداعب جسده بينما أمها تضرب كفًا بآخر، كأي أم تحتاج لتفسير منطقي لما تراه



وتستشعره منذ فترة، لكن أي حديث يجدي الآن وابنتها تعد في عداد المخبولين!

وبالرغم من هذا كله لم تستطع منع ابتسامة شقت طريقها وعبرت ثغرها حين رأت سعادتها ترتسم من جديد، سعادة تشبه آخر حفل عيد ميلاد شهده هذا المنزل قبل رحيل صاحبه، ترحمت على ذكراه وغادرت تاركة ابنتها تتجرع سعادتها على مهل وعن الغد؛ مؤكد لهما حديثًا يعد.

أوصدت بابها ما إن غادرت أمها وتحركت تفتش عن هاتفها، هل سعادتها الكبيرة هاته لأنه تذكر يوم مولدها؟ أم لأجل اختياره لهدية يعلم أنها ستطير بلب عقلها؟.. أم لأنه يهتم فيها وبكل

تفاصيلها الصغيرة تمامًا كما كان يفعل حبيبها الأولي!

أخبرته ذات حديث عابر أنها كانت تملك كلبًا ربته منذ كان جروًا صغيرًا، كان هديتها من أبيها في ميلادها الثامن، لكنه لحق به عقب وقت قصير، أخبرته عن عشقها للحيوان بجميع صنوفه وكيف كان يشاركها شغفها في ذلك ولكم كرهته من بعده فتخلت عن كل ماكانت تملك واكتفت فقط بسلحفاتها العجوز.

تربعت فوق الفراش تستجمع أنفاسها الهاربة، تضع الهاتف فوق أذنها وتستمع للرنين بلهفة، اتسعت ابتسامتها حتى شملت وجهها ما إن



لامس بنبرته شغاف قلبها، وجدت حالها تصيح في بهجة عجزت عن ترويضها:

- كوتي خالص يا مهند ويجنن، فظيع بجد!

- عجبك؟

- عجبني وبس! ده أنا وقعت في غرامه.

سؤال أحمق من أحمق آخر ابتهج لصوتها الذي يقطر فرحًا فلم يجد غير التأكيد على سعادتها بل ومشاركتها إياها:

- هتسميه إيه؟

همهمت بتفكير ثم همست بشقاوة عابثة:

- هممممم إيه رأيك في.. مهند؟



كتمت ضحكتها بالكاد بينما تستمع لصياحه المستنكر:

- تصدقي أنا غلطان، أمشي ياغنى مش عايز أعرفك تاني.

جلجلت ضحكاتها السكون وهتفت تلاحقه بالكاد من بينها:

- ده تعبير عن إمتناني وكده.. طيب خلاص سوري، سوري بجد.

لم يرد فتوقفت ضحكاتها قسرًا، توبخ حالها على تماديها وقلة تهذيبها بينما تتابع بجدية وشفاه مقلوبة كأنما يراها:

- خلاص بقى!



وصلتها تنهيدته الحارة تتبعها كلماته المعبقة بدفء غريب رغم جديتها:

- كل سنة وأنتِ طيبة ياغنى.

لاتدري كل تلك الحرارة التي شملت المكان منبعها ذاته أم ذاتها، همست برزانة وقد هدأت عاصفتها واستكانت:

- وأنتَ طيب يامهند، ربنا يخليك ليا.

أهدت الجرو قبلة صغيرة ثم حررته من أسرها بينما جسدها يتمدد فوق فراشها وكل ذرة في كيانها تولي محدثها جل إهتمام، أخذهم سمر الحديث والضحكات النابعة من الفؤاد حتى انتصف الليل دون شعور، وكان يسهب في



حديثه عن حكاية من زمن الطفولة حين قاطعته بغتةً، دون سابق إنذار:

- مهند يلا نتجوز.

نبضها أسرع أم أنفاسه التي رفضت الرضوخ لهيمنة الصمت البغيض، صمت طال لدقائق توترت على أثرها، فركت جبينها بحرج وقد وعت للتوعن فداحة ما لفظ اللسان، عضت فوق شفتها وتجلجلت حروفها بينما اعتدل جسدها لتهتف من جديد في محاولة مخزية لرفع الحرج وتصليح ماحدث:

- ياربي، أنا بجد مش عارفة مالي النهاردة، أناااا..

- ماما صاحية؟



- أفندم!

- مش مهم، بلغيها أني عايز أقابلها دلوقتي.

- دلوقتي إيه! مهند اعقل الساعة واحدة.. مهند.. مهند.. مهند رد عليَّ متهرجش!

ظلت جامدة في جلوسها تناديه عبر الخط المفتوح بغضب ولد إثر شعورها المتضارب بين رهبة، سعادة، خوف، توتر، ونبض فقد مساره من شدة الدقات.. بعد حين وصلتها غمغمة حروفه الهادئة حد إثارة الجنون:

- أنا في الطريق.

وكانت لتكذبه لولا صرير العجلات الذي عبر أذنيها قبل انقطاع الخط!



***

"إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)"*سورة يونس

كان الليل قد انتصف حين ترجل من عربة الأجرة، يدعم خطواته بصعوبة متوكئًا على عصاه، يخطو ببصر شاخص يراقب الجمع المتجمهر في هذا الوقت المتأخر ليزداد يقين الخبر..

مكالمة وصلته عبر الهاتف من رقم غريب قبل انتصاف الليل بقليل، أخبره فيها محدثه بخبر وفاة أبيه!



صعق لوقع الكلمات للحظات أخبر بعدها الرجل أنه مخطىء بالرقم فأكد له أنه على صواب وأتبع ذلك بعنوان طالبًا منه المجئ على الفور.. وهنا كانت العقدة وحلها، فعنوان البيت الذي أطرب مسامعه عن لسان الرجل.. يعود لأيوب!

لم يلبي نداء زوجته التي تفاجئت برحيله، لم يرد على توسلها له بالعودة وألا يؤذي نفسه.. ألن يؤذها بعد!

تقدم يخترق الصفوف وريح عفن يزكم أنفه مع ضرب كفوف صدرت عن ستيني أشيب أتاه يقول:

- لاحول ولا قوة إلا بالله عاش نجس ومات كافر.. خرجنا منها على خير يارب.



وتطوع آخر يجاوره بسرد ذروة الحكاية:

- ده بقاله تلات تيام ميت ومحدش عرف غير لما ريحته طلعت.

وزاد ثالث بقسمات إشمئزازها جلي:

- بيقولوا اللهم احفظنا لقوه مكلبش في إزازة الخمره، ربنا يعافينا ويكفينا سوء الخاتمة يارب.

ورابع أسقط حديثه فوق رأسه عن قصد، بلهجة الشامت:

- سايب تلفون ابنه مع عم سعيد البقال وكان موصيه يكلمه لو حصلت له حاجة.. أهو شرف بسلامته، طبعا عايش حياته وسايب لنا أبوه



يقرف اللي جابونا، يلا الواحد هيقول إيه.. الله يجحمه مطرح ماراح.

عاتبه آخر بلين:

- اتق الله يا محسن الراجل خلاص بين ايدين اللي خلقه، وبعدين كل واحد بيتحاسب عن عمله، محدش بيشيل شيلة حد.

- عمله أسود ومنيل ياعم إبراهيم، هو في حد سلم من أذاه؟ يلا أهو راح للي هيخلص الحقوق.

تلتف من حوله الرؤوس وتحدجه النظرات مابين مشفق وممتقع، يبادلهم النظر بينما لسانه مكبل بسلسال من حديد، يحرك لهم رأسه



وينفي بصوت لايسمعه من شدة صخبه الداخلي:

- مش أبويا..

تعالت الهمهمات الممتعضة دون تصديق فصرخ فيهم بعلو أخرس الجميع للحظات:

- أيوب مش أبويا!

ازداد بعدها ضرب الكفوف ببعضها وأخذت الهمهمات تعلو من جديد، تحرك بصره دون دليل حتى توقف عند مدخل البيت، جسد أيوب المشوه مسجى أمامه، رائحة العفن تثير النفوس، بقايا ضميرهي من دفعت بهؤلاء للإقبال عليه حتى يحملوه لمثواه الأخير، كفنوه



كيفما اتفق ولايدري هل قاموا بغسله أم غطوه بذنوبه متأذيين! لا أحد يود مسه كطاعون، تغطي أنوفهم الكمامات ومع ذلك لايطيقون الرائحة ككلبٍ ضال أجرب تعفن على قارعة الطريق ولولا حرمة الموت ماكان أقبل عليه مخلوق، خرجوا به نافرين، مستائين، تتسابق أقدامهم حتى يتخلصوا من أذاه، يذهبون به جوار أمثاله، يلقون فيه داخل ظلمة قبر موحش زادتها ظلمة الليل وحشة، يسكرون القبر في الحال وكأنه حمل ثقيل أراح الجميع.

لم يتذكره أحد بدعاء، ولا حتى ترحموا من باب الشفقة.. ساقوه كشيء بخس عاش ومات دون قيمة تذكر.

سار خلفهم كهلام، تابع آخر طريقه فوق أعتاب الحياة.. لطالما أخبره أنه بحسبة ابنه، كان يأخذ الحديث على محمل المصلحة لكن أيوب كان له رأي آخر وأراد الليلة أن يذكره بأنه مثله، يشبهه حد الدم.. صاحبه وعلمه، أسقاه من ينابيع البغي فارتوى حد التخمة، حد الظمأ الذي يشعر به الآن ولا يدري بمن يعتصم!

ولج إلى بيته بأطراف مرتجفة، تعثر في سيره فسقطت مزهرية كبيرة تحتل الأرضية فزعت على أثرها الغافية بغرفتها.

***

انتفضت فزعةً على صوت الحطام، تتطلع إلى وليدها النائم فوق صدرها بشيء من نعاس،

بعض من وعي جعلها تمرر بصرها فوق ساعة حائط لتجدها قد تخطت الثانية فجراً، عاد وعيها الغائب ليذكرها بخروجه عند منتصف الليل، لحقت فيه صارخةً تستجديه العودة لكنه كان كتمثال شمع لايسمع ولا يرى، ظلت تتنقل بين الباب والنافذة حتى تعبت، حملت صغيرها وجلست تطعمه وتهدهده ويبدو أنها غفت بجلوسها دونما تشعر، رمقت الصغير الساكن صدرها بشفقة على حاله وأبيه، تركته برفق ودثرته جيدًا قبل ما تغادره.

أجفلها الحطام المتناثر فوق الأرضية، زحف الخوف لقلبها بينما تتجاوزه حتى باب غرفته الموصد، ما إن اقتربت حتى وصلها صوت نشيج



مكتوم، لم تفكر في طرقة إذن لقطع خلوته،
دفعت بالباب وولجت تنير ظلام الحجرة السابح
بشعاع من نور، كان يجلس عند طرف الفراش
بجذع منحني من عظيم الذنب، يضم رأسه بين
كفيه ويبكي.

تستشعر انتفاضة جسده بوضوح، هوى قلبها
صريعًا لرؤياه بتلك الحالة، كما هوى جسدها
إلى جواره، تشق العبرات طريقها فوق وجنتيها
تشاركه ثقل اللحظة، كان بكاؤه لهموم ضاقت
به سبل الحياة، كمن يحمل فوق ظهره آثام
الدنيا بعد أن ضل الطريق..

جلست تأخذ به إليها، وكأنها طوق نجاة، ذراعاها
يشتدان من حوله بينما لسانها يتعثر ببسملة

وحوقلة وبعض من رقيا علها تدحر بها الفزع وتهدأ من انتفاضة الجسد، أخبرها ثقل رأسه الساكن فوق رحابة كتفها أنه متعب، سألها دون حديث عن مكمن الراحة فمسحت بكفها عن ظهره وهمست جوار أذنه بصوتها المتحشرج في شجن:

- روح له يا حسن..

زاد بكاؤه وتشبثه فيها فشدت على ضمه، تهدهده كما تفعل مع صغيرها وترشده حيث النجاة:

- خبط على بابه وقول له يارب جيت لك ندمان، اطلب توبة وغفران، ده سبحانه وتعالى بيقول:



"فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩)" *سورة المائدة

ثم مسحت عن رأسه بكفها، وعن روحه بخير الكلام:

- مفيش غيره يقدر يشرح صدرك ويمسح عن قلبك كل ضيق وهم.

وقتما قالت الأخيرة انتهى كل شيء..

أم تراه ابتدأ!



(٣٩) والأخير

كلٌ منّا يخوضُ حربَه الخاصّة، وما بين منهزمٍ ومُنتصر تبقَى الغنيمَة هي الحقّ المكتسَب لمن ظَفر

مساء خريفي هاديء وصمت ناسب كوب الحليب الدافئ الساكن كفيها مع صحبة مسلسل تلفزيوني يعود لحقبة التسعينات، عيناها تتناقل بين التلفاز تارة وأخرى بين الصغير المفترش بألعابه السجادة الوثيرة، هادئة كورقة شجر هجرتها الخضرة ومازالت تتشبث بغصنها في محاولة للبقاء حتى يأتي ربيع يعود لها بأنفاس الحياة.



تعالَى جرس الباب يقطع اندماجها بينما تنهض من جلوسها تفتش عن وشاحها وصوتها ينهر الصغير الراكض ناحية الباب:

- استنى يا علي!..

لم يستمع لتحذيرها وجذعه يشتد في محاولة فاشلة لفتح الباب، لفت وشاحها كيفما اتفق واقتربت تعاونه على فتحه حتى فعل، ما إن توارب الباب حتى صاح الصغير في سعادة:

- باباااا.

- حبيبي.



ورفعه بين ذراعيه فتعلق الصغير بعنقه كما يفعل كلما حمله، غمغمت نسمة من خلف الباب الموارب:

- اتفضل يا أنس.

ولج حاملا الصغير بين ذراعيه مؤنبا إياه بأصابع تقرص أرنبة أنفه المنمنمة:

- مش قلنا نعرف الأول مين بيخبط قبل مانفتح؟

حرك الصبي رأسه عدة مرات مع ضحكة شقية جعلت منه فريسة لقبلات أنس القوية، تدخلت أمه الباسمة إثر ضحكاته بينما كتفيها يتحركان في قلة حيلة:

- بقى شقي بشكل مش ممكن.



جلس أنس فوق المقعد وأراح الصغير فوق ساقيه موجها إليه الحديث:

- همممم شكلك عامل بلاوي.

ثم اوقفه على قدميه حتى يقابله بوجه شرير، ضاحك:

- قولي بقى عامل إيه؟

وظنه الصغير يسأل عن حاله فصاح بإجابته المعهودة في بهجة أبرزت كرمشة عينيه وصفي أسنانه المنمنمة:

- كويسة.

جلجلت ضحكات أنس كاسرة الهدوء من حوله بينما ينكب فوقه يدغدغه بمرح:



- برده كويسة! ده أنت محتاج سمكري يظبط كلامك المشقلب ده.

وظل المرح قائما حتى انتهت من توضيب السفرة، جلس ثلاثتهم يتشاركون البيتزا الشهية ومن بعدها جاور الصغير فوق الأرضية، يلاعبه تارة ويستمع لثرثرته الغير مفسرة تارة أخرى، بعد حين استغل انشغاله بفيلمه الكرتوني الأثير ونهض عن الأرضية، احتل مقعد مجاور لزوجة أخيه، يسألها في توجس:

- ساكتة ليه؟

كانت تراقبهم بصمت وابتسامة هادئة ترتسم فوق ثغرها لم تدر أنها شردت بعيدًا حتى وصلها همسه الخافت، رسمت ابتسامتها بينما تجيب:

- مفيش، يمكن إرهاق شغل بس.

بادل البسمة بأخرى متوترة وازت يده التي خرجت برزمة أوراق نقدية:

- اتفضلي.

- إيه ده؟

أجاب ببساطة:

- فلوس الشهر.

تقهقرت بسمتها المتكلفة واحتدت نبرتها بينما تجيب:

- وأنا قلت لك يا أنس مش هاخد فلوس تاني، المحل شغال كويس الحمد لله والمكسب بيغطي مصاريفي أنا وابني..



وصمتت لبرهة تبتلع فيها غصتها المسننة،

تتشابك أصابعها في اضطراب بينما تغمغم في

خفوت وبصرها يرتكز فوق صغيرها اللاهي:

- مش محتاجين حاجة من حد، قول له

متشكرين.

مسح عن وجهه بكفيه مع تنهيدة كبيرة بينما

جذعه يميل ناحيتها مدمدمًا برجاء:

- أرجوك يانسمة ماتقوليش كده، أنتِ عارفه

غصب عنه و..

قاطعته بوجه محتقن:

- أرجوك أنت بطل تقول غصب عنه.. مش

بإيده.. اصبري ومعلش.



ارتجفت شفتاها بينما تخفض من صوتها وتسأله بغضب مدفوع بكبت السنين:

- لحد إمتى يا أنس هيستمر الوضع السخيف ده؟ سنتين أهو ومفيش جديد.. لحد إمتى؟

وتغضن جبينها بسؤال يكاد يسقط بها فوق حافة الجنون:

- هو عارف أن علي بيقولك بابا؟

وهه ساخرة أجابت بها على سؤالها بينما تعقد ساعديها فوق صدرها، تعود بجذعها المشدود إلى الخلف بدمدمة خافتة:

- ولا مايعرفش مش هتفرق.



يمنحها كل العذر حتى تغضب، تثور، لم تكن امرأة غيرها لتقبل بوضع كهذا، ليت بيده حل تلك المعضلة اللعينة، ليته يستطيع..

خلَع عويناته الشفافه زافرا، مسد أعلى أنفه ببنان أصابعه بينما عقله يبحث عن كلمات تهدئ من نيران صدرها، حين عاد بعويناته قابل وجهها الواجم بيقين يصدقه رغم كل شيء:

- أخرتها هيرجع.. صدقيني.

لم تبدِ أي رد على كلماته فترك المال فوق منضدة صغيرة تفصل بينهما وتأهب للرحيل، قاطع نظرتها الرافضة وأوقف كلماتها:

- عشان خاطري خليهم.



ثم طبع قبلة فوق رأس علي المتثائب وغادر.

أخذ يلوح له الصغير بكفه حتى اختفى من خلف الباب فاعتدل يلقي بجسده فوق أمه الشاردة وبينما يده تدعك عينيه همس لها بنعاس وتعثر حروف:

- عايزة تنامي.

تبسمت على لفظة التأنيث التي يخص بها نفسه وحملته بين ذراعيها حتى وضعته بالفراش، دقائق قليله وكان يروح في نوم عميق، بسمتها لاتغادرها طالما تنظر إليه، أصابعها تتحرك فوق جبهته وخصلاته دون كلل، تزداد شقاوته يوم بعد يوم، ويتضاعف تعلقها فيه أكثر، حتى تكاد تشعر أنه النفس الذي يربطها بالحياة، فحياتها بلاه دون

قيمة تذكر.. حياة أصبحت لاتشمل على شيء غير وليدها وعملها بمتجر الكعك الذي تتشاركه وسماح بعد تركها العمل بالجامعة، كان عليها اختيار واحد فالاثنان مع الصغير محال، وقت الموازنة رجحت كفة المتجر، لم تجد تفسير تقدمه لنفسها آنذاك غير أن ذاك الدفء والحميمية التي تشعر بها بين جدرانه لا تضاهيها أخرى، روح أمها التي تحوم حولها وتذكرها بحالها يوم كانت صغيرة ولا تكف عن اللعب من حولها وقتما كانت تقوم بعملها داخل مطبخ القصر.. راح القصر وساكنيه وبقيت الذكرى عالقة بسراديب العقل والروح.



تبسمت بحنين للماضي ولذكرى الغائب بينما تسير بأناملها فوق قسمات النائم..

"أين أنت ياحسن ترى ابنك كم كبر؟ كم صار يشبهك!"

تساءلت داخلها بمرارة بينما أروقة الذاكرة تجتر ذكرى البارحة لتحل ضيف الليلة كما الأمس وقبل الأمس بل منذ رحل ولم يعد..

ذكرى آخر ليلة قضاها بين ذراعيها بحال غير الحال، ومع أول خيوط الفجر كان المكان البارد يعلن عن غيابه. ترك البيت وترك الحياة كلها من خلفه..



اتخذ من بيت المزرعة ملجأ لشتاته، عزلة اختارها بملء إرادته، انطوي عام وها هو يتبعه آخر ولم يكتفي بعد، قاس حتى بعقابه..

ولم تكن لتجلس بصفوف المتفرجين وهي ترى كيف تبتلعه دوامات الندم، يندثر داخل بوتقة الذنب دون رحمة، ذهبت إليه حيث يلوذ، تستنكرعزلته وتسأل حائرة:

- بس ربنا مقالش كده، بتقسى على نفسك ليه؟

سأم مداراة عرجه فألقى بحاله فوق الأريكة مدمدمًا باختصار:

- محتاج أكون لوحدي فترة.

- فترة أد إيه؟



- مش عارف.

حوار ثقيل، مغموم، اقتربت من جلسته تهادن وتطيب بصبر:

- خد الفترة اللي تكفيك بس وأنتَ في بيتك.

كان يرمق الأفق بصمت طال، ظننته لن يتحدث حتى قال بنبرة بدت قاسية رغم هدوئها:

- مرتاح هنا.

كان كاذب وكانت تعلم، ظلت ترمقه بصمت كئيب قطعه من جديد بغمغمة بينما يتكئ بذقنه على رأس عصاه وبصره يعانق الأرض في هروب من لقاء عينيها المنذرة بغيث قريب:



- أنا محتاج وقت طويل عشان أقدر أرجع وأقف على رجليا من تاني، ووقت أطول عشان أحس إني تطهرت من ذنوبي..

حاولت التخفيف عنه بهمس خافت، مختنق:

- بس أنا سامحتك.

- وأنا مش قادر أسامح نفسي!

صاح بها منفعلا ثم صمت لبرهة تابع بعدها بحروف مثقلة:

- لوعايزه ترتاحي من كل وجع القلب ده أنا مش هلومك، بالعكس هحترم قرارك.. وأنفذه.

لِمَ يظن أنها قيد من ذنب يلتف حول عنقه؟



ألا يشعر بعشقه الساكن ضلوعها والوله عينيها؟ لم لا يلقي بأثقاله فوق رحابة صدرها وهي كفيلة بدحرها!.. لو هناك ذنب بينهما فهو ذاك الشعور العذب حد المرارة، الجميل حد الألم، الحي حد الموت، الذي يسكنها وإياه.

هتفت تعانده وتضرب عقابه اللعين هذا في مقتل:

- طيب فكرت في علي؟

وكأنها تخبره ألا مهرب، لن ينفصم مهما حاول، لكن جوابه الهادىء كان حاضر:

- هيفضل في حضنك.





ظلت تراقب وجهه الجامد دون تعابير واضحة بينما عيناها تفك أسر العبرات في صمت، حتى لو كان حديثه هذا بدافع من ندم لكن يكفي قلبها أنه قالها وفكر بها حتى يجزع وينوح في صمت..

حين طال صمته شدت من نفسها ونهضت ترحل عنه ومنه، تهرب من كلماته البغيضة ومن درب يريد الزج بها فيه ظنا أنه يريحها ويرفع عنها كل مكروه، لايدري أن الشقاء كتب عليها رفيقا على طول الحياة.

قرابة عامين كان فيهم نصف حاضر نصف غائب، تشعر بطيفه ولا تراه، من البعيد يسخر كل السبل لراحتهما، وليته يدري أن ذلك كله لن

يجدي، سوف تظل الصورة منقوصه بغيابه أبد الدهر ولن تكتمل إلا به.

عادت من الذكرى البعيدة على عبرات تغرق وجهها دون شعور، استعاذت من شيطان يسعى لتقييد روحها بالهموم، فرغم غضبها وألمها لا تملك غير الدعاء له بالهداية والصلاح.. وعودة عاجلة غير آجلة.

دنت من الغافي تطبع قبلتها الطويلة فوق جبينه ثم انسلت بجسدها تجاوره، تضمه إلى صدرها، قطعة منه ستظل جوار قلبها العليل حتى يشفى أو تفنى هي من الوجود، أخذت تردد وردها من فوق رأس الصغير حتى تلاقت أجفانها على مهل..



والنفس الصابرة الراضية؛ حتمًا هي مفتاح اليوم لغنائم الغد.

***

تنحني بجذعها فوق الأرضية تلملم المياه بقطعة قماش، تعتدل تعصرها بقوة وتمسح بظهر كفها عرق جبينها ثم تعود تعيد الكرة، في الثالثة توقفت تلتقط أنفاسها وتستكمل وصلة حديثها:

- أول ما وصلها خبر أنه متجوز عليها فضحته وحلفت مية يمين ماهو معتب باب البيت تاني وحصل.. الولية القادرة غيرت الكالون وحدفت له هدومه من البلكونة زي مابنشوف في الأفلام.. بس إن جيتي للحق يستاهل ماهو اللي طفس.



كانت تصغي إليها بتركيز كبير، تقضم قطعة من التفاحة، تلوكها ببطء وتفكير سابح مع حكايات أم شلبي الغير منتهية:

- كملي ياولية حصل إيه بعدين؟

- ولا قبلين ياستي، العيال معاها وهيموت ويشوفهم وهي أبدًا.

غمغمت سماح بانفعال مع حكاية الجارة التي لاتعرفها:

- بصي هو قليل الأصل صحيح بس دول عياله برده، وحرام يتحرم من شوفتهم.

- ماهو ده نفس اللي قولته والله يا ست سماح، يلا هنقول إيه ربك يهدي عبيده.



فضت من مسح الأرضية ثم عادت بكل قطعة إلى مكانها وبذلك تكون انتهت جولتها التنظيفية لليوم، عند الباب ناولتها أجرتها المتفق عليها وجادت فوقها بالمستطاع، قلبت المرأة بصرها فوق المال والحقيبة البلاستيكة الكبيرة لتهتف بسعادة ورضا:

- كتير ده ياست سماح.. والله كتير..

ربتت فوق ساعدها بحنو:

- لا كتير ولا حاجة أنتِ تعبتي النهاردة.

- روحي ياشيخة ربنا يجبر بخاطرك ويقومك بالسلامة ياست الستات.



امرأة طيبة أم شلبي لكنها تجيد بشكل ما نقل حكايا البيوت، تحتاط من لسانها وتأخذ منها دونما تعطي، ولولا وضعها الصعب في شهور الحمل الأخيرة ما كانت لتقبل بعرض أحمد في مساعدتها مهما كلف الأمر من إصرار.

استوطنت مطبخها على عجل، ضاع الوقت في التنظيف وحكايات أم شلبي ولم تبدأ في إعداد الغذاء وقد اقترب عودة الغائبين.

بعد حين وصلتها طقطقة الباب وماهي لحظات حتى كانت تقتحم خلوتها بصخبها المعتاد:

- هموت من الجوع..



تلقي بالحقيبة المدرسية عن ظهرها وتقتحم المبرد بينما يصلها هتاف سماح ويدها تقلب ما بداخل الطنجرة:

- غيري هدومك يكون الأكل جهز.

سألت أميرة ويدها ترتفع بالزجاجة لتشرب منها مباشرة:

- بابا جه؟

- لسه، واشربي في الكوباية يا مقرفه.

حطت بالزجاجة فوق المنضدة واقتربت بفكر مشغول.. متردد:

- ماما..

- همممم خير؟



اقتربت أكثر ترسم المسكنة:

- بكرة عيد ميلاد رؤية صاحبتي وعايزة أروح.

تركت مابيدها وقابلتها تتفاهم وإياها بلين:

- ما أنتِ عارفه بابا مش بيوافق على كده ياحبيبتي.

عقدت الصغيرة ساعديها في سخط واعتراض بين:

- بس صحابي كلهم رايحين وأنا عايزه أروح ماليش دعوة.

- طيب وأنا في إيدي إيه بس؟

- اقنعيه ياماما بالله!



- ده على أساس أنه بيسمع لي وكده؟.. ده أنا ماشفتش أنشف من دماغ أبوكي.

- يعني كده خلاص مش هروح!

- طيب ماتزعليش، نحاول معاه مش هنخسر حاجة.

وحول سفرة الغداء كانت تتشارك وإياها الهمزات والغمزات الخفية، تمنح كل منهما البداية للأخرى حتى زفرت أميرة وصاحت بصبر طفلة وقد فرغ:

- بابا عايزه أروح عيد ميلاد رؤية!

التهم اللقمة الساكنه أصابعه يمضغها على مهل بينما يسأل بتقطيبة جبين:



- رؤية مين؟

- رؤية صاحبتي يا بابا هو فيه غيرها!

يوما ما سيقتلهم بهدوئه اللعين هذا:

- معلش مش مركز، على العموم مش هينفع.

تركت الطعام بينما ترمق سماح في توسل للتدخل، وكانت لها خير معين:

- مش هينفع ليه بس يا أحمد، خليها تخرج وتتبسط مع صحابها.



صاح في تصميم حاد:

- لما أقول لأ يبقى خلاص انتهينا.

استغلت سماح انشغاله بالطعام من جديد وأشارت لها بأن تبدأ في الهجوم المعاكس وتشهر

سلاح الأنثى الفتاك، أومأت لها موافقة واعتصرت جفنيها قبل ما تطلق صياحها المتهدج وتبدأ وصلة الابتزاز العاطفي:

- كل صاحباتي رايحين اشمعنا أنا؟ ولاااا أنا مريضة سكر صحيح المفروض تتحبس ماتشوفش الشارع! ليه ياربي مكونش زي باقي البنات.

فاجأهم بضحكة شريرة مصطنعة هدمت مخططاتهم السابقة:

- شفتكم على فكرة، ومش هتأثر لأ..

- يا بابا!

قاطعها في صرامة:



- خلاص يا أميرة.. متجادليش.

هنا بكت عن حق ونهضت دونما تستكمل طعامها وقد تكهرب الجو.

في المساء صنعت له كعك البرتقال الذي يحب، يجاوره قدح من الشاي الخفيف وفوق أريكة التلفاز جاورته على مهل، راقبت قسماته الجامدة منذ حينها، أخذت نفس طويل قبل ما تخبره بثبات وهدوء نافس هدوءه:

- أميرة هتروح عيد ميلاد رؤية يا أحمد.

لم يكن سؤالاً بل إقرارًا أكيدًا لايقبل الطعن أو الشك، التفت لها برأسه في توبيخ:



- أنا عارف محدش غيرك بيقويها وينشف دماغها.

- مش هيحصل حاجة لو راحت يعني.

- أنتِ هتجننيني!.. عيد ميلاد يعني تورته وجاتوه وليلة حلو في حلو، عارفه ده معناه إيه مع حالة أميرة؟ ماهو لازم تبقي عارفه وإلا دي كارثة..

ختم حديثه وحدجها بنظرة جانبية لم تفقه إن كانت مستهينه أم ساخرة لكنها اقتربت تربت فوق كتفه وتهادن بلطف:

- قبل ما تتنرفز وتتعصب افهم، دلوقتي البنت بتكبر وبتفهم كل يوم عن اللي قبله ولما تشوف نفسها ممنوعة من حاجات غيرها بيعملها



ببساطة حقها تتعقد.. عاوز تعقد لي بنتي يا أحمد!

لم يرد فالتصقت فيه أكثر تطرق فوق الحديد الساخن:

- وبعدين متخافش أميرة واعية ماشاء الله وهتصون نفسها.

- مش عايز بنتي تتعود على كده.

- البنت نفسها تفرح، سيبها الله يخليك.

بدا عليه الاقتناع بينما التراجع عاد يزحف فوق محياه حين لفظ باقتضاب:

- أنا ورايا شغل بكره مش هقدر أوصلها.

- متشغلش بالك أنا هوديها وأرجعها.



- تودي مين؟ ده أنتِ بتمشي بالعافية!

- ميجراش حاجة ده الحركة حلوة للحوامل.

- مش بقولك بتقويها عليَّ.

- واحنا لنا بركة إلا أنت يا عسل.. أما أقوم أفرحها بقى.

ثوان فقط وكانت ابنته تغرقه بقبلاتها امتنانا وسعادة لا توصف، بالكاد هدأت من روعها لتبسط له كفها:

- إيدك بقى على الفلوس لزوم الهدية.

- اووويا وصلنا بقى للكلام الماسخ وده متفقناش عليه.

- يا بابا أنجز.. شلتني!

- لا فعلا يازينماربيت، روحي يامؤدبة خدي فلوس من الدرج واعملي حسابك مفيش زفت تاني.

هرولت للغرفة تحضر المال وقبل ماتختفي خلف بابها هتفت في سماح بحماس وابتزاز تجيده:

- موحا هتعملي لي شعري استشوار.. اتفقنا؟

أومأت لها باسمة فقفزت تصفق بجذل وغابت بعدها مع دولابها تنتقي ملبسها وتغرق بين أكوامه.

بينما سماح ترفع كفيها، تدعو في جدية رهيبة:

- ربنا يفرحك ويراضيك زي مافرحتها وراضتها كده.



قربها إليه بذراع أحاط به كتفيها مناغشا إياها بكلمتها الأثيرة.. ضاحكا:

- تسلمي ياعسل.

وامتزجت ضحكتها بخاصته، حد التوالف والألفة، المودة والرحمة، السكن والملاذ.. حد بساطة الصورة وعظيم الجوهر.. وكل ذلك في حد ذاته غنيمة.

***

صباح نادي بنسمات منعشة أقرب للباردة، حلاوة الجو كانت تدب فيه جرعات نشاط إضافية، اطفأ السيارة وترجل أمام المزرعة، ولم يكن يدر أنه يوم من أيام سعده، قفزت نبضاته



داخل ضلوعه بمجون، عليه أن يخبرها ذات يوم أنها تصيبه في مقتل حين ترتدي الأزرق، فاجأها برؤياه كما فاجأته، يفرق بينهما إطار البوابة، هي من داخل المزرعة وهو خارجها، أما آن الأوان ليجتمعا بنصف واحد!

- صباح الخير؟

صوته هو من انتشلها من بؤرة التحديق الشاردة، خطفها لوهلة، منذ متى لم تره؟ أيام زهدت إحصاءها، كادت تفلت ضحكة على منظره بالعوينات الطبية، تمنحه وقار وعمرا فوق عمره، لكنها حتمًا تزيده جاذبية، هكذا قالت عيناها وأكد قلبها.

- صباح النور.



همست بها سريعًا ما إن استعادت سيطرتها وهمت برحيل جمعها بنصفه، لم يشعر إلا وخطوته تتبع خطوتها قائلا في تردد واضح:

- عيشة!

توقفت ترمق باب المزرعة وتعود إليه بهزة رأس متسائلة همس على إثرها:

- عاملة إيه؟

تجاهلت لهفته وأجابت بعملية بحتة مقطبة قسماتها حتى لاتفضحها:

- الحمد لله يا أنس بخير، وأنتَ؟

غمغم بحرارة نافست برودة نسائم الصباح:

- الحمد لله، دلوقتي كويس.

بالكاد دارت بسمتها المنفلتة وخلصت أنفاسها المتعثرة بينما تستدير عنه، تبتعد بسرعة أقرب لهرولة، تهرب من قيد مشاعر لاتملك أمام سيطرتها سوى الخنوع بكل عشق ممكن..

يرفض أبيها أن يجمع بينهما ميثاق حتى تتم دراستها أولاً، تقدم لخطبتها بعدد مرات يؤهله لدخول موسوعة جينيس باءت كلها بالفشل وإن كانت لاتخلو بعضها من أمل والوسيط قلبها بالطبع، تبقى عامان بطولهما ولوع قلبيهما حتى تبطل حجة السيد عبدالحميد.

ظل واقفًا حتى اختفى طيفها من أمامه، حينها فقط حمل حاله وتابع طريقه على أمل بلقاء آخر

قريب متسلحًا له بصبر زاده عشق ساكن بين الضلوع..

هو باتَ يدركُ جيداً أن كلّ نفيس يستحقّ المعافرة حتى به تغنَم.

***

ضرب الفأس بالأرض اللينة مرة وثانية وعاشرة حتى تألم ذراعاه فتوقف يمسح عرقه عن جبينه ويلتقط أنفاسه، تخترق أشعة الشمس عينيه فيغيب البصر للحظات سرعان ماتنقشع من بعدها العتمة ويعود ضوء النهار يفرض سلطته.
كان الجو بديعا، ناوشه حتى طرد عنه ثوب الكسل فقام ممسكا بفأسه وغرس بذوره،
بفضله تحول الفراغ المحيط بمنزل المزرعة في



غضون شهور منبعًا للرياحين والخضروات، رفع ذراعه ينوي عودة للعمل حين جاءه صوت العم عبدالحميد يناديه وبصحبته قدحين من الشاي الثقيل:

- قلت مش هشرب الشاي غير معاك.

أنزل الفأس عن كتفه وتحرك يجاوره فوق الدكَّة المحتلة لجزء من واجهة البيت:

- ده يزيدنا شرف ياريس.

ربت عبدالحميد فوق ساقه مدمدما:

- الشرف لينا يابني.

ناوله كوب الشاي وأخذ يرتشف خاصته ببطء بينما يخبره بنبرة غلبها الحنين:

- تعرف ياحسن..

دار برأسه يوليه جل اهتمامه فتابع:

- دي كانت قعدتنا أنا وأبوك، المصطبة مع كوباية الشاي المعتبرة وحكاوي من الشرق وحكاوي من الغرب تفوت بينا الساعات ولا نحس.. هيه؛ سبحان من له الدوام كل شيء فاني، القعدة والصحاب.

راح حسن ببصره حيث الأفق الواسع ورشفة جديدة بددت الغصة الوليدة بينما يهمس:

- الله يرحمه..



ترحم الصديق على الراحل بدوره ثم استطرد، فعلى مايبدو أنه قرر فتح صندوق ذكرياته وحينها يجود بالكثير كما يحب أن يفعل:

- لما كنت أشكي له همي كان دايما يقولي اتجوز ياعبدالحميد ده اللي مالوش ولد يسند شيبته يعيش ويموت غريب، وأنا أرد عليه إن عيشة عندي بمية ولد، يقوم ضاحك وساكت.

لم يكن يدري أن عبدالحميد حامل أسرار أبيه، يعرف كل صغيرة وكبيرة وكل تفاصيل الماضي، حتى الجزء الذي يخص أمه، تحاشى الخوض فيه لكنه أشار بما فيه الكفاية ليدرك أنه على دراية كاملة بما كان.. غمغم بشجن هو وليد اللحظة:

- يظهر أن الغربة مكتوبة علينا نصيب ياعم عبدالحميد.

ترك عبدالحميد كوبه ورفع أحد كفيه يحط به فوق كتفه بينما الآخر سكن فوق فؤاده يخبره بأبوه ولدت فيه لأجله:

- الغربة في القلوب يابني، طول ما ده عمران بالخير فأنت ونسان.

ربت حسن فوق كفه الساكن فؤاده شاكراً، باسما:

- تعيش ياراجل ياطيب.

عاد عبدالحميد للوراء وقد افترق مبسمه في رضا بينما يربت فوق ساقه من جديد، كم تشابه



اليوم بالأمس، فمنذ سنوات جاءه أبوه بحال يشبه الذي جاء فيه ابنه الجالس جواره قبل عامين، تائه فوق رقعة الحياة دون دليل، بروح مختنقة داخل جسد خاو، لم يمنح الوقت للوالد حتى يعود، انتهى به العمر دونما يصلح ما أفسد، لكنه راح نادما ولعل بذلك تكون النجاة.

كان يدري عن أسباب الراحل لكن هذا الذي يجاوره لايدري عن حاله شيء ومع ذلك فعل كل مايمكن لعجوز مثله أن يفعل. طيب ذكر صاحبه الراحل كأب وعطر سيرته، منح ابنه حبل وصال حتى وإن لم يعد له أثر، يكفيه أن يترحم عليه ما ان يحضر طاريه، ظل ينتقي



بكلماته الطيبة كل مايحمل بداخله من ضغائن حتى خلت نفسه من شوائبها العالقة.

وحتى لايكون له نفس المصير، فحسب ما استنبط كان أمره عسير، كان كلما يقترب منه مهونا ينأى بحاله عنه طالبا منه الدعاء فحسب، حتى مرت الشهور وبدأ يخرج وحده من قمقمه، يتابع أعمال المعمل ويشغل وقته المتبقي في زراعة الأرض التي لاتتعدى حدوده المزرعة..

قطع حديث النفس وأنهى آخر رشفة شاي حين لاح له طيف أنس يقترب، تعكرت قسماته بينما ينهض عن جلسته قائلا بغيظ لايليق بسنوات عمره الستين:

- أهو جالك فرقع لوز أمشي أنا بقى.



امتزجت ضحكات حسن مع حضور أنس الذي قطع خطوات عبدالحميد بكلماته الثقيلة قاصداً إثارة حنقه قبل مايفعل هو:

- إيه ياعبده إذا حضرت الملائكة ولا إيه؟

رده بتكشيرة وغلظة:

- لا إذا حضرت الشياطين ياخفيف.

تشدق أنس ضاحكا قبل ما يهتف متصنعا الجدية:

- ياراجل عيب عليك ده أنا هبقى جوز بنتك..

وأضاف كلمات فقدت جديتها من كثر ما تم استهلاكها عبر لسانه:

- هتجوزهالي إمتى بقى؟

والرد رغم مزاحه المبطن ساخط، غيور:

- وأنا برده أرميها الرمية المقندلة دي، ليه من قلة العرسان!

غمزه أنس بوقاحة:

- القلب ومايهوى بقى ياعبده.

أزاحه عبدالحميد عن طريقه متأففا، يلقي من خلف كتفه جملة أخيرة يرفض أن يكون لخصيمة النصر، ألا يكفي أنه ظفر بقلب ابنته!:

- الله يسامحك يافريد على دي خلفه.

هتف أنس من خلفه بعلو حتى تصله الكلمات بوضوح:

- مقبولة منك ياحمايا.. ياغالي.



تدخل حسن يوقف أخيه ويقيد سلاطة لسانه:

- يابني إخرس بقى هتخليه يحلف ماتشوف ضفرها.

ضحك واثقا بينما يجاوره:

- عيييب عليك إحنا مسيطرين برده.

حرك حسن رأسه ممتعضا لشدة ثقته:

- طيب ياعم الحبيب أما نشوف أخرتها.

ونهض يعود لسيرته الأولى فتبعه أنس قائلا بجدية:

- كنت عايز رأيك في حاجة تخص الشغل؟

وكالعادة كان رده جاهزا بينما يضرب بالفأس ضربتة الأولى:



- أنت بقيت أدرى مني.

تابع أنس وكأنه لم يسمع ماقال:

- وكمان عايزك تبص على جرد الشهر، شوف هتكون فاضي إمتى وأجي لك.

أخبره من بين لهاثه:

- الشركة مسؤوليتك أنت وميسون، أنا كفاية عليّ المعمل والمزرعة.

زفر أنس في حنق بينما كفيه يحيطان بخصره:

- أنت ماصدقت ولا إيه؟ مكانك في الشركة فاضي ومستنيك.

- البركة فيك.

- ومين قالك أني موافق أخد مكانك؟



- خلاص يا أنس.. اعمل اللي يريحك.

قالها منهيا الحوار زافرًا، لكن صدى لقاء الآخر بزوجته المسكينة منذ أيام يرن في أذنيه ولا يملك غير أن يكون بصفهم:

- وأخرتها ياحسن؟

توقف حسن عن العمل يرمقه بحدة، يحذره من الخوض في حديث تحته ألف خط أحمر.. لم يأبه لنظرته المحذرة وهتف بإصرار أكبر، يدفعه أخوة:

- هتفضل سايب مراتك وابنك لحد امتى؟ المعمل مش محتاجك وعمي عبدالحميد اصلا قايم بيه، أما بقى شوية الزرع اللي دافن نفسك وسطهم



فده عشان تهرب مش أكتر.. أنت مكانك مش هنا!

بانت إمارات الغضب جلية، تركه خلفه وسار الخطوات القليلة التي تفصله عن المنزل الصغير، دفع ببابه بعنف ومنه إلى دورة المياة، الرذاذ البارد هون من سخونة رأسه، دون تجفيف ارتدى ملبسه وخرج ليجد أنس مازال هنا، تجاهل وجوده وراح ناحية البراد يروي جفاف حلقه بماء بارد، قبل مايتمم شربته كان أنس يقابله مدمدما بلجهة أهدأ:

- مش قاصد أضايقك بكلامي، بس ده لازم عشان علي..

وعلى ذكر اسم الصغير انتفض قلبه فزعا:



- ماله علي!

لم يهدئ من فزعه على الفور، تركه بضع ثوان تجرع فيها سموم الأفكار حتى هتف أنس بجدية.. قاسية:

- علي بيكبر ومن حقه عليك تكون جنبه، ليه تحرمه منك وأنتَ موجود؟.. مفيش حاجة في الدنيا تساوي أنك تاخده في حضنك وتشوفه بيكبر كل يوم قدام عينيك.. أنتَ قاسي ليه كده يا أخي؟

تركه وراح عند النافذة المفتوحة، تتصارع الأحرف ضد الصمت وبالنهاية لم يستطع مقاومة السؤال:



- هي اللي قالت لك كده؟

اقترب أنس يراقب جانبه للحظات غمغم بعدها:

- مش محتاجه تقول، أنا شايف كل حاجة قدامي.

مرت الدقائق ولم يصله حرف، شعر بشيء من غضب يجتاحه فهتف باقتضاب قبل رحيل:

- أنا عندي شغل.. سلام.

ظل على حاله يرمق الأفق في صمت ثقيل تتقاذفه الكلمات من كل حدب وصوب حتى تنتهي فوق رأسه، ليت الأمر بيده كما يظن أخيه، ليته بتلك البساطة.. يشعر بالاختناق يزحف نحو



عنقه، حارب شبحه بأصابع مرت حول عنقه تمسده وقد انعكس فوق ملامحه كل ضيق.

ليتهم يفهمون أن العزلة بروحه، لا يستحي أن يعترف لحاله في هاته اللحظة أنه صار لايحبذ الاندماج بين البشر، لم يعد يملك قناع يحجب به الأعين عن عري نفسه، يشعر بحاله عاجز عن المنح لأيّ كان.. وأول هؤلاء زوجته وابنه!

لم يكن لديه غير ذنوب تقصم الظهر وجسد اختل ميزان ثباته فبات أعرجا.. ماذا يقدم وهو عليل النفس والجسد!

هل اخطأ حين جنبهم أذى قربه؟

اخطأ حين اشترى ستر نفسه بعزلة؟



تحرك بضع خطوات ارتاح بعدها فوق أحد المقاعد، شارد عند لحظة الإياب، حين تلقت جسده المثقل بعظيم الذنب فوق صدرها، تضم وتحنو، تمد نحوه طوق النجاة وترشده حيث طريق الصواب، أضاءت دربه المظلم، شدت بعجز إيمانه نحو القوامة، بسببها طفت نفسه الغارقة بين لجة الظلمات إلى نور الحق الذي أضاء سريرته.

بعد فجر تلك الليلة الفارقة كان يجلس القرفصاء أمام رجلا يحسبه من الصالحين أتاه يربت فوق كتفه عقب صلاة الفجر التي شارك فيها بنفس مهزوزة وعين أشبعها فيض الدمع



حتى تألمت كسائر جسده المنهك، أراد مؤازرته ظنا أنه قد فقد عزيز..

وما أعز من نفس فقدها فوق أرض البغي!

وجد حاله يقص على الرجل ما اقترفت يداه، كل حرام استساغه حد بلغ منتهاه وعاش فيه كأنما لم تعرف نفسه حلالًا قط، سأله عن طريق الإياب؟ أهناك توبة لأمثاله؟ هل يوجد من يقبله بكل آثامه؟

استمع له الرجل حتى سكت، تركه يخرج كل ما استوى داخله واستبد به حينها فقط دمدم له بصوت أجش يحمل اللين بقدر القوة، مازالت تطن بداخله الكلمات كلما تذكرها..



"طول ماتوبتك نصوح، ندم صادق وعزم مافهوش رجوع يبقى أنتَ كده على الطريق الصح.."

"وعشان تكتمل توبتك رد الحقوق لأصحابها واستحل من ذنبهم، واللي متقدرش عليه ولاتوصله عوضه بالصدقة"

"هون على نفسك يابني، ده ربنا سبحانه وتعالى يحب من عباده التوابيين والمتطهرين، وخليك فاكر أن مهما تعاظم الذنب بابه دايما مفتوح ورحمته واسعة"

طرق الأبواب ورد الأمانات لأصحابها، أخرج الصدقات لنفسه مرة ولأبيه مرات، ظل عاما



كاملاً على هذا المنوال حتى هدأت نفسه واستكانت بفضلٍ من ربه.

عامٌ كان فيه مثقل النفس بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى، كمن شاخ قلبه وزهد الحياة حتى أمطره الله بسكينة ملأت روحه فطاب وبرأ وجعه.

ومع هذا كله لم يستطيع العودة، يوم بعد يوم يرتكن تحت جدار العزلة فتنطوي الأيام والشهور ومازال على حاله، يشعر أن كل شيء سيتهدم لحظة ماتلتقي عيناه بعينيها!

هي ذنبه الذي انتهى بتوبة..



هي امرأته وأم ابنه، خليلة الفؤاد ورفيقة أيام الشدة والظلمات، من شدت على يده بكل لين وأخذت به نحو الطريق، هي التي تضاعف رصيدها بقلبه حد بلوغ عنان السماء، وهو الذي لم يقدم شيئا مقابل كل هذا غير خذلان تلو آخر، وجاء في النهاية عرجه ليزيد من تشوه صورته المنقوصة..

استغفر ربه عدة مرات قبل ماينهض تاركاً أفكاره المتضاربة ببعضها وقد أرهقته، توضأ ثم أدي فرضه، تعلم كيف يلجأ إليه بالدعاء متضرعا فيصبه سحر السكينة، مأخوذا بعطفه وكرمه الذي لاينفذ.



في المساء كان يطرق بابه صديق إحتل مرتبة المقرب عن استحاق، كان رفيق لأيام طوال دون زهد أو ملل، يسمع له كما لم يسمع أحدٌ من قبل ثم يهديه بضع كلمات تريح باله وتهدئ من انتفاضة نفسه، يوم بعد يومٍ وجد لسانه يفضي له بمكنون صدره دون خزي، ولم يخيب ظنونه، كان على قدر الثقه التي منحها إياه فلم ينظر له مرة بشكل يسيء، على العكس كان دائما حاضرا، ناصحا..

- أهلاً ياماهر.

- إيه يابني فينك؟ بقالي ساعة واقف..

بعد حين كانا يجلسان حول منضدة مستديرة، يحتسيان الشاي في صمت أثار شكوك الضيف



فهتف بحديث مستهلك لأجل كسر الصمت المفروض:

- مضينا عقد السالمي إمبارح، دي خطوة كبيرة للشركة الحمد لله.

- كويس.

إجابته الفاترة باقتضاب أكدت على شكوكه، حينها سأله دون موراة:

- مالك ياحسن؟

مسح عن وجهه بكلا كفيه، متنهدا.. قائلا بفتور أكبر:

- مش عارف ياماهر.. مش عارف.



بفطنة صديق أدرك فحوى مقصده، في الحقيقة هو شيء واحد يؤرقه ويقلق مضجعه وفقط يكابر لذا من الجيد أنه أهداه أول الخيط ليجابه إياه بقوة:

- مش عارف ولا مش قادر؟

أبعد كفيه عن وجهه، يرمقه للحظات دمدم بعدها في استسلام شاب نبرته:

- الاتنين.

تنهد ماهر قبل مايريح ذراعيه فوق سطح المنضدة ويهتف بصوت أجش:

- طيب خلينا نمشي واحدة واحدة.. مش عارف إيه بالظبط؟



صمت لم يرد فأجاب عنه:

- مش عارف أنك تعبت من العزلة اللي فارضها على نفسك؟ ولا مش عارف أن غياب مراتك وابنك مأثر فيك وده هيوصلنا لتاني نقطة اللي هي مش قادر..

صمت هنيهة راقب فيها قسماته المتغضنة فأدرك أنه أصاب، تابع على الفور:

- مش قادر تنسى أنك السبب في أذيتهم فبتحرم نفسك منهم، مستني قرار الانفصال ييجي منها عشان تريح ضميرك، على أساس كده هتريحها..

قال آخر جملته ساخره مما أجبر مستمعه على النظر إليه فعاجله من جديد عله يستجيب تلك



المرة وتنفذ كلماته عبر رأسه الصلد الذي لايسمع ولا يقتنع بغيره:

- هاريحك أنا وأقولك اللي فيها يمكن وقتها تبطل غباوة.. أيوه اللي يبقى عنده ولد زي علي ويحرم نفسه منه يبقى غبي ومبيفهمش كمان، زي بالظبط اللي عنده زوجة بتحبه وشارياه لحد آخر لحظة وفي المقابل هو بيفكر إزاي يحط بينهم ألف حاجز وحاجز..

واستقام واقفا، انحنى بجذعه إليه مغمغما بلوم مشيرًا نحو رأسه ثم نزلت السبابة واستقرت عند موضع القلب:

- ريح دماغك شوية وسيب ده يتصرف، دلوقتي وقته..



وارتفع كفيه يحط بهما فوق كتفيه، يشد عليه كصاحب يدري عن خبايا صاحبه المثقلة، ولا يملك غير أن يهديه جملته المعهودة بآخر كل زيارة:

- هون على نفسك ياصاحبي.

عند الباب سأله حسن بنصف تركيز شاردا مع كلماته:

- رايح فين، لسه بدري؟

اتسعت ابتسامته مطلقا سهمه الأخير:

- رايح لمراتي وبنتي أخدهم في حضني، دي لحظة بالدنيا ومافيها.

ونفذ السهم.. فأصاب.



***

تقف خلف النافذة بكامل أناقتها، تراقب الطريق العام في انتظار بينما تقضم أظافرها في توتر، انتصف الليل منذ ثلاثون دقيقة ولم يعد بعد، حائرة بين اتصال يطمئنها لكنها تخشى أن تخرب مفاجأتها لليلة الأكثر من مميزة..

قرعت طبول قلبها حين ظهرت سيارته تلوح بأول الطريق، شدت البرادي سريعا وركضت ناحية الشموع المتناثرة بتناسق فوق طاولة الطعام، أشعلتها ومنها دارت ناحية المرآة العريضة من خلفها، تتأكد من هيئتها، شعرها استطال حد تخطيه لكتفيها بكثير، ثوب كريمي قصير دون أكمام أبرز مفاتنها وحلاوة ملامحها المنمنمة،



نثرت رذاذ من عطرها فوق جيدها ثم أرسلت لحالها قبلة رضا وراحت تستقبله.

ولج من الباب متثائبا حتى أخذته رائحة العطر النافذة، بعدها استطاع رؤية طاولة العشاء المجهزة على ضوء الشموع والورود المتناثرة.. رفع حاجبيه لوقفتها المغوية جوار الطاولة، ترك حقيبة الحاسب تسقط عن كتفه وتبعتها سترته بينما تتقدم خطواته وثغره يفترعن بسمة أخذت تتسع شيئا فشيئا حتى ملأت وجهه.. أحاط خصرها بكفيه مطلقًا صفير إعجاب، همس بعده:

- أنا دخلت شقة غلط ولا إيه!



استجابت لمزحته بضحكة صغيرة وضمة شفاه نبيذيه لمعت لها عيناه:

- تؤ.. تؤ

ثم اقتربت أكثر تلتحم بصدره وتحيط عنقه بكلا ذراعيها، تهمس برقة ومشاعر فاضت بها عيناها بينما شفاها تمس ثغره بقبلة خاطفه:

- كل سنة وإحنا مع بعض ياحبيبي.

وجوابه كان قاطع للأنفاس، تركها لآهثة بوجنتين تخضبتا خجلا حاولت مداراته بهمس متسائل:

- مش هتاكل؟

كانت أصابعه تتسابق فوق أزرار قميصه حينما أجابها بعبث:



- هاكل طبعا.. ده أنا واقع!

وحملها بين ذراعيه بخفه أثارت ضحكتها فأطاحت بلب عقله، تحركت أقدامه ناحية غرفتهما بينما مال رأسه يرتوي من نهر شهدها ويغرقها بدوره في بحره الواسع..

فالليلة الذكرى الأولى لزواجهم، لذا حسب قوانين البشرية والمفاهيم المستهلكة هما يقضيان أجمل أيامهم.. وهما بالفعل كذلك!

كيف لايكون وروحها البالية عادت بفضله إلى أنفاس الحياة؟ بفضله التحم شتات نفسها واختفت نتوءاتها.. كانت حربا قاسية انهزمت مرة وانتصرت أخرى حتى ربحت في الختام غنيمة أمانها المفقود..

عام جمعهم تحت سقف واحد، يبذل كل طرف جل مايستطع في سبيل سعادة شريكه..والنهاية؟ بيت وعائلة والكثير من السعادة الحقيقية.

سعادة بدأت تتصدع وتتلآشى مع صرخات الصغير التي صدحت بغتة من غرفته المجاورة فأربكت أمه التي أخذت تزيح بجسده عنها ببطء حتى قابلت اشتعال نظرته بأخرى قليلة حيلة، فكلاهما على يقين تام أن هادم اللذات يحتاج لثلاث ساعات على أقل تقدير حتى تنتهى مناحة كل ليلة ويعود مدلل أمه ليغفو من جديد، عضت فوق شفتها السفلى بأسف ورفرفة أهداب دليل برائتها:

- شهاب بيعيط.. معلش يامهند.



- معلش يامهند!

همس بها من بين طواحين ضروسه، استغلت صدمته وقفزت من فوق الفراش تلبي نداء وليدها الذي لا يهدأ، وعن أبيه المسكين مازال مبهوتا مما يحدث رغم عدم غرابته:

- بتستهبلي أنتِ وابنك!

كانت قد وصلت عند الباب فاستدارات تمنحة ضحكة فشلت في دحرها مما أثارعصبيته مع حركة كتفيها البريئة وكأنها مخلوق مسكين لا يملك في الأمر شيء.. قذف ظلها بأحد الوسائد وأخذ بأخرى يطبق بها فوق وجهه، يكتم أنفاسه الثائرة لاعنا الزواج ومريديه.



***

نحن ننضج بمرور الأيام والتجارب، خسارات ومكاسب، كلها أشياء تساهم في نضج بقعة ما فينا، لكن كل هذا لن يجدي إن لم تكن طموح، لحوح، تعاند الصعب وتحفر اسمك داخل الصخر.. وهي أكثر من يعاند ويتشبث بأحلامه حتى وصلت لمرتبة ترضاها نفسها الطموحة، كانت كنجمة ساطعة وسط طاولة بأحد أشهر المطاعم وقد ضمت معها رجلين.. تناقش وتفند، تبدي آراء تحترم وتعرض مايناسب، تبدو دوما محطة التقاء لأعين النساء قبل الرجال باتزانها وطلاقة لسانها التي أكسبتها ثقة كبيرة بالنفس..



ولايدري أي صدفة عجيبة تلك التي جمعته معها بذات المكان لتخطف بصره كما فعلت أول مرة حين رآها قبل سنوات.. لم يستطع منع حاله عن مراقبتها خفية حتى استقامت تنوي الرحيل، لم يفكر مرتين وهو ينهض سابقا إياها عند البوابة الرئيسية.

نجحت خطته الصغيرة فكادت أن ترتطم فيه عند خروجها ودخوله المشغول بالهاتف الساكن يده.. تصنع الدهشة راسما ابتسامة متفاجئة بدت متقنة:

- ميسون؟.. معقول الصدفة دي!

احتاج منها الوضع لبضع ثوان حتى وعت لمن يقابلها بوقفته متفاجئًا لرؤيتها، حمدت ربها



لحظتها على وجود منظارها الشمسي الذي حجب الكثير:

- نديم!..

ودرات ربكتها بسؤال سريع:

- عامل إيه؟

تحرك جانبا يفسح المكان للمارة مانحا اياها الفرصة لإطالة البقاء بينما يخلع منظاره عن عينيه مغمغمًا بسعادة لم تخفها عيناه:

- تمام الحمد لله، أنتِ أخبارك إيه؟

ردت تحيته بابتسامة رزينة بادلها إياها وعاد يهتف سريعا:

- عندك مقابلة شغل؟



قالها بينما يشير للخلف بإبهامه ويمرر بصره على طولها الفارع داخل بذلتها العملية بجاذبية إعجاب ذكوري عكسته نظرته المفضوحة حتى استقر بصره فوق حلقتها الذهبية المحيطة ببنصرها الأيسر، حينها رفع بصره وقبل ماتجيب كان يسبقها بعذوبة حروف:

- طول عمرك طموحة وناجحة.. وجميلة!

انقبض قلبها مع جملته المتمهلة ونظراته المتفحصة، لاتدري لمَ، لكن هذا مافعل بها لقاء هذا النديم بعد كل ما مر من سنوات.. لم تبدِ أي رد فعل غير حديثها الهادىء باقتضاب:

- فرصة سعيدة ياانديم، عندي معاد مهم ومضطره أمشي.. عن إذنك.

ولم تنتظر رده، خطت خطوتها نحو سيارتها

تناشد الابتعاد، لم تلتف نحو الخلف ولو مرة،

ما بالخلف يجب أن يبقى كما هو، كحال نديم

الذي لم يتغير.. فهو رجلٌ وقع في اشتهاء الممنوع،

زهد المضمون فطلب اللامتاح!

أسفل البناية التي يوجد بها شركته الخاصة

توقفت، كانت خطواتها تسابق بعضها حتى

استقلت المصعد وتوقف بها حيث تناشد،

استقبلها الموظفين باحتفاء يليق بزوجة الرئيس،

قابلتهم بابتسامة عريضة بينما تسير بطريقها نحو

غرفته، تطرق الباب وتدلف دون انتظار.

كان يرتكز بجسده على حافة المكتب من خلفه

عاقدا ساقيه، جل تركيزه مع الملف القابع بين

أصابعه متلاعبا بالقلم بين أسنانه في تفكير عميق قطعه ولوجها المفاجىء بابتسامة واسعة عكست صداها على الفور فوق محياه:

- مدام ميسون عندنا!.. ده حلم ولا علم؟

ألقت بحقيبة يدها فوق مقعد مجاور واقتربت تحيط عنقه بذراعيها وشفتيها تطبع قبلتها الهادئة فوق وجنته اليمنى.. وهمست:

- علم ياحبيبي.

وابتعدت تبادله النظر في تمعن طال.. موجة متضاربة من المشاعر تجتاحها، كانت بحاجة أن تطيل النظر إليه هكذا، حتى يقارن قلبها بين من سكنه قبل سنوات وبين ساكنه هذا الذي احتل



حجراته واحدة تلو أخرى حتى أخلاه من كافة شيء إلاه.. وحده استطاع أن يمتلك كيانها وقلبها فكانت له منذ عام، عام عرفت فيه كيف تكون امرأة لرجل لايرى سواها.

- ماهر أنا بحبك جدًا.

قالتها بينما تضم نفسها لصدره ورأسها داخل عنقه، تشتَمّ عبقه فتتعثر الدقات عشقا.. أحاط بخصرها يشد على ضمتها وقد انتابه بعض القلق، يده تمسد ظهرها مع همس خافت طال أذنها:

- أنتِ كويسة؟



ابتعدت تعود ببسمتها لسيرتها الأولى حتى تزين محياها وارتفعت بسبابتها تداعب عقدة حاجبيه بدلال:

- هو عشان بحبك أبقى مش كويسة؟

شدها إليه يقرب ما ابتعدت وثغره يلامس ذقنها بهمس دافىء:

- حبيت اطمن بس.

- ربنا يخليك ليا.

واستطردت بغنج تجيد إظهاره وقتما تريد بينما أناملها تداعب أزار قميصه الأبيض:

- ماهر، اممم إيه رأيك تعزمني على العشا الليلة وممكن نخلي فريدة بايتة عند ماما؟



ضحك حتى بدت نوجذاه قبل ما يجيب:

- أنا قلت الدخلة دي وراها مصلحة.

لكزت كتفه في مرح:

- تصدق أنا غلطانه عشان بفكر إزاي أعوض احتفال عيد جوازنا اللي باظ بسبب الشغل..

دار بوجهه جانبا وقد تغضنت قسماته للحظات لم يستطع اخفاءها بينما يدمدم:

- ماهو شغلك اللي مضيع علينا لحظات كتير.

هتفت له بأسف واضح:

- أنا آسفه ياحبيبي، والله عارفه أني مقصره معاك ومع فريدة الفترة دي بس أنت أكتر واحد عارف الظروف، قولي أعمل إيه؟



- خلاص ياميسون اقفلي على السيرة عشان مش طالبه خناق دلوقتي.

يعلم عن أمر عملها من البداية، ويدري كم يعني لها وتعني له، ورغم كل مساحات التفهم التي يفترشها يبقى رجلا، رجل يبغي زوجته في انتظاره لحظة عودته، تدفء جدارن بيتها وفراشها بصوتها ووجودها الدائم، أنانية الرجل فيه تريدها له ولابنتهما كاملة دون عمل يأكل من وقتها الكثير وتفكير يشرد بها بعيدًا عن مرساهم، ومع ذلك لاينكر أنها تقدم على قدر المستطاع، لاينكر كل الحب الذي منحته إياه فبادله بآخر أكثر شغفا، وحدها استطاعت عبور المسافات وهدم الحواجز حتى أخذت من قلبه مستوطنا..



منذ عام؛ تحديدا يوم زفاف أخيه كانت فرحته مضاعفة بعقد قرانه عليها وبعد شهور اكتملت فرحته حين أهدته أجمل فتاة بالعالم.

عادت بوجهه إليها تسترضيه وقد ضاعت بسمتها بين غيمات الضيق الذي حلقت من حولهم:

- لما بنشغل عنكم صدقني بيكون غصب عني، بس أنتَ عندك حق.. وعد هحاول أنظم وقتي بحيث مفيش حاجة تيجي على حاجة.. أنتَ وفريدة حياتي ياماهر ومقدرش أشوفك أبدًا متضايق بسببي.. فك التكشيرة دي بقى، دي مش لايقه عليك أصلا!

سألها بجبين متغضن وجدية أجاد إتقانها:



- هي فريدة بايته عند ماما؟

انفرجِ مبسمها بينما تجاريه في عبثه برفعة حاجبين متسائلة:

- ده لو وافقت تعزمني؟

حرك كتفيه بلا مبالاة:

- هفكر.

ضربت صدره بلكمات متتالية نجح في صدها بينما يضحك بقوة زادت من غيظها حتى شملها بضمته القوية المحكمة فلا تجد حينها غير رفع راية الاستسلام..

استسلام أباحه القلب الذي لم يرتضِ لكليهما عقب خسارة البدايات إلا بغنائم النهايات.



***

صباح مبهج يشبه إصرار أشعة الشمس على اختراق الغيم معبرة عن وجودها، صباح مميز ذا نكهة أشبه بقطع المارشميلو الشهية، يتقافز كحبات ذرة داخل طنجرة دون غطاء فتتناثرت شقاوته وضحكاته تعبأ المكان الخالي إلاه وأمه التي تصر على أن يكون اليوم كله من صنع يديها، جاءت المتجر منذ باكورة الصباح تصنع قالب الكعك بخبرة اكتسبتها من سنوات العمل وبموهبة أدركت أنها ورثتها عن أمها الراحلة ذات يوم، انتهت من أمر القالب وتركته لوقته داخل البراد وشرعت بإعداد بعض الحلوى الأخرى وقد تركت أمر الفطائر لسماح كما طلبت وأكدت..



مع اقتراب الظهيرة كان يحضر الجميع تباعا، أولهم سماح التي ما إن دلفت حتى حملت الصغير بين ذراعيها غير آبهة لبطنها المنتفخ وجنينها الساكن، تقبل وجنته بقوة وتهلل ببشاشة:

- كل سنة وأنتَ طيب يا غالي يا ابن الغالي.

دقائق وكانت تتبعها زوزو ناشرة أريج البهجة من حولها:

- ياخلاثي عريسي كبر وكمل سنتين، نكتب الكتاب بقى.. طب دبل طيب.. براحتك بقى هبوسك في الحرام.



ومن بين ضحكاتهم يلج أنس حاملاً صندوق كبير، تقابله نسمة بكل امتنان:

- بجد مكانش له لزوم تتعب نفسك، كنت هتصرف وأجيبهم.

- ياستي اتعبيني براحتك أنا راضي.

ويجذب علي المتقافز بجانبه، يرفع جسده نحو الأعلى ويدغدغه بمرح:

- عندنا كام علي يعني؟

في المساء اكتمل الحضور، يتحلقون حول المائدة المستديرة ويشاركون الصغير حفل ميلاده الثاني، صخب وضجيج خلفته الضحكات بينما ترتسم على الوجوه السعادة.. وحده الصغير كان منبهرًا



بقالب الكعك الكبير الذي تزين بصورته في المنتصف.. كان كل شيء بسيط دون عقد كحال العام الماضي حتى أضاءت زوزو الأضواء بعد إطفاء الشمع فظهر عند الباب كغريب عاد للتو بعد غياب طال!

يراقب الصغير المتشاغل بفض هداياه بشوق فضحته العيون، بينما أعين الجميع كانت مثبتة عليه.. كان أول من تحرك شقيقته، تضمه لصدرها وتطلق زغرودة فرحة غادرت أرضهم وحلقت في أبعد سماء، بعدها بادل النظرات من حوله ببسمة هادئة وخطواته العرجاء تخطو إلى الأمام في ثبات حتى مر بالصديق فشد على كتفه بعزم فشكره بطرفة عين، حين وصل عند صغيره

توقف، جثا على ركبتيه وأمسك به يوقف قفزاته اللامتناهية، وما إن فعل حتى شهق الصغير بانبهار زاد عن الأول وكفيه يغطيان فمه بينما بصره يتحرك يمنة ويسرة حتى استقر فوق أنس الواقف جانبا وعاقدا ساعديه فوق صدره يعلو ثغره ابتسامة هادئة حولها الصغير لضحكة قصيرة حين سأله ببراءة هو من نحتها بعقله الصغير وأكدها الآن بإيماءة من رأسه:

- ده بابا الكبير؟

أخذ بالتاكيد وعاد إليه يتخلل لحيته بأصابعه ضاحكا فيشده أبيه إلى صدره، يضمه بشدة ولين، بشوق واشتياق، يبتعد يقبل رأسه معتذرا



عن غياب طال، ويعود يحشره بين ضلوعه متنفسا براحة..

وهذا كله كثير عليها، تنزوي جانبًا محيطة جسدها المنتفض بذراعيها، حتى جثا يضم الصغير إليه حينها تهدم كل ثبات كان لديها، لجأت إلى دورة المياة تخفف من وطأة اضطرابها.. هل عاد!

اغمضت عينيها تستعيد لحظة رؤيته، لحيته التي استطالت كثيرًا وقد غزاها الشيب المبكر فتلونت شعراتها مابين الأسود الكثير والأبيض الأقل مع فودين كانا لهما من الشيب نصيب، وكأنما سنوات الغياب زادت صفرا عند اليمين..



خطواته المترددة ثم المتقدمة في ثبات قاهرة كل عرج أو خزي يثقلها، كانت تتساقط عبراتها الممزوجة بشتى المشاعر حتى ماعادت تدري أي شعور عليها يسيطر.. اقتربت من المغسلة تبرد نار وجنتيها برشق الماء البارد سحبت بعدها أنفاسها وقررت الخروج، فاليوم حفل صغيرها ومكانها إلى جانبه، دائما هي إلى جانبه.

شكرت سماح بداخلها فقد أمطرته تهليلا ودعوات حتى تشاغل برفقتها عن الصغير التي استغلت وقوفه وحيدا وراحت تجثو أمامه، تعدل من هندامه وتهرب بقربه عن كل شيء سواه. بعد وقت لم يطل كان قد انصرف الجميع



وكأن بينهم اتفاق مسبق فوجدت حالها وحيدة بصحبة ابنها النائم.. وأبيه.

تحركت تلملم بقايا الأطباق الفارغة وعينها تخطف نظرة سريعة منه، منذ أكثر من نصف الساعة وهو يجاور الصغير النائم متأملاً إياه في صمت، حملت مابيديها ودلفت إلى المطبخ تحط بهم داخل الحوض، فوق الرخامة العريضة ارتكزت بكفيها في محاولة منها لدحر انتفاضة أطرافها وقلبها..

والانتفاضة تملكتها بحق حين شعرت بكفيه يلامسان كتفيها عنوة.. استدار جسدها بغتة بقسمات فزعة، تبادل نظرته المثبتة عليها بأخرى مذبذبة.. في النهاية ألقى القلب بأثقاله أسفل

الأقدام وتبقى فقط حلاوة اللحظة، كما سقط الماضي حين بادلها النظر..

وكان بعينيها الربيع!

وكل ربيع مهمته أن يصلح ما كان من خراب، لم تسأل، ولن تفعل.. فقط تحركت شفتاها بهمس، بالكاد عبر السكون:

- رجعت؟

اقترب خطوة أخيرة ينهي مابينهما من مسافات، والجواب صادقا بيقين من صاحبه:

- رجعت.

وسبحان من أمال الجسد ليستقيم الوِجْدان!



الخاتمة

انتصف النهار ومازالت التحضيرات على قدم وساق، يتوافد الحضور عبر بوابة المزرعة كل حين في استعداد للزفاف المرتقب..

يعج منزل العروس بالنساء وبغرفتها كان يتحلقون من حولها ناشرين البهجة بالزغاريد المتواصلة، تنهي خبيرة التجميل عملها فتنال العروس نظرة رضا من الجميع وهتافات متناقله عبر الألسن..

تهلل سماح:

- عسل ياعيشة..

تتبعها غنى:



- مبروك ياشوشو..

وتجود ميسون:

- يابختك يا أنس..

وتختتم نسمة:

- ربنا يسعدكم.

فتتخضب وجنتا العروس وتصمت ضاحكة.

وعند العريس كان ينهي آخر لمساته، يقابل الغمزات من حوله ببهجة حقيقية، فبعد صبر طال لسنوات سوف تتوج قصتهما الليلة، تنتهي حياة وتبدأ أخرى برفقة من اختارها القلب خليلا..



- عايز أشوف الضحكة دي كمان سنة كده يا أنوس.

عاتب مهند شقيقه بجدية:

- سنة إيه ياماهر عيب عليك.. هما ست شهور.

صد محاولات الأخوين البائسة بابتسامة وتلاعب حاجبين:

- ده اللي بنسميه حقد المتجوزين.

هنا تدخل أحمد مؤكدا:

- غيرانين، سيبك منهم ياعريس وركز معايا وخد عصارة الخبرة.. أصل اللي داخل الموضوع ده يابني مفقود!

- يلا ياااا..



ومنع الغلط مستبدلا التتمة بمايليق بعريس محترم لا يخل بقانون الأدب:

- شوية متجوزين.

قهقه الرجال بينما فتح الباب وطل أخوه الأكبر مغمغما باستعجال قاطعا مزاحهم الثقيل:

- يلا ياعريس، المأذون وصل..

وتوقف للحظات يتأمل هيئته شاعرًا ناحيته بأبوة تفوق الأخوة.. توقف أنس يبادله النظر شاكراً على كل مافعل ومازال، دنا منه معانقًا إياه بقوة، بفضله تغير مسار الحياة وأصبح أكثر قيمة وذا معنى.. ربت حسن فوق ظهره بسعادة في الأصل منبعها سعادته الجلية وحين ابتعد شد



على كتفه، ظنه الأول سيبارك زواجه حتى قال بارتخاء جفنين واكليشيه سينمائي مبتذل:

- اهرب يا ياسين.. اهرب ربنا معاك.

وهرب بالفعل من بين مزاحهم الثقيل مخلفًا صخب ضحكاتهم من ورائه، سيذهب ويأخذ عروسه حتى يتمم هذا الزواج المعقد الأشبه بتخصيب اليورانيوم!

وبعيدًا عن اشتباك الكبار كان هناك فوق رقعة خضراء اشتباك بين الأشبال الصغار، يراقص علي ذو الأربع سنوات فريدة ماهر ذات الثلاث بينما يعانق شهاب البغدادي الآنسة مريم حسن



صبري صاحبة العام ونصف مقبلا شفتيها فجأة مما نفض السيد محمود أحمد زين الدين صاحب العامين في حمية شديدة تخص ابنة خاله دفعته لصفع شهاب هذا فسقط كلاهما معا مما دفع بكبيرهم لرد الصفعة ظنا منه أنه أفسد متعة مريمته الصغيرة.. واحتدم بينهما العراك!

هرول حسن ناحيتهم وبالكاد خلص محمود المستغيث من بين هجوم ابنه معنفا إياه، بينما تلحق به أميرة الغاضبة، تأخذ بأخيها الباكي وتنفض عن ملبسه ماعلق فيه من تراب، ترشق علي بازدراء واضح وتهتف فيه دون اعتبار لوالده الواقف:



- لو قربت منه تاني هضربك!

رفع حسن حاجبيه متعجبا جرأتها بينما ينظر لابنه موبخا إياه أكثر:

- احترم نفسك بقى وبطل تلطيش في خلق الله.

لم يعجبه حديث أبيه فرد بقوة:

- هو اللي وقع مريم الأول.

حرك رأسه في قلة حيلة وتحرك به عائدا حيث الحفل القائم يتبعه بقية السرب.

حينما انتصف الليل كما فعل النهار من قبل حمل العريس عروسه وانطلق بها حيث عش



الزوجية تحت نظرات والدتها الدامعة وأبيها الغيور، تصاحبهم الدعوات والتمنيات السعيدة.

كما مضى الأهل والأصدقاء كلٌّ إلى حياته يستأنف ماتبقى من حلوها ومرها، متخطين العثرات والحواجز، متشبثين بغنائمهم المكتسبة.

لم يتبقَّ سوى أربعتهم أمام منزل المزرعة الذي سيبيتون فيه ليلتهم، على كتفه يرتاح علي النائم بينما مريم المتلهفة لصدر أبيها تسكن ذراعي أمها، يودعون آخر المغادرين بكف ملوح حط بعد اختفائهم فوق كتف زوجته التي استكانت بدورها لضمته، خاتمين الليلة بخطوات متجاورة وباب موصد.



ويحدُث أن تُمنح الغنائم للباحثين عنها من بين ركامِ الخسران،

للمثابرين المتمسّكين بالنجاةِ رغمَ تكرار الغرق،

للمدركينَ العارفينَ أنّ الغنيمةَ الحق: هيَ كلُّ نفس خاضتْ نزالَ الدنيا ومابَغَتِ!

تمت بحمد الله

١٦/ سبتمبر/ ٢٠١٨

بثينة عثمان





جروب حلم-هن

"لنا مع الحرف حلم"

https://www.facebook.com/groups/7elmhon/?ref=bookmarks



